التحفة الزكية

في شرح

الرسالة التدمرية

تأليف

شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني رحمه الله

شرح فضيلة الشيخ

عبد الله بن محمد بن عبد الله الغنيمان

المدرس في المسجد النبوي

اعتنى به

عبد العزيز بن حمود البليهي

المجلد الأول

مدار القبس للنشر والتوزيع

التحفة الزكية
في شرح
الرسالة التدمرية
(١)

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٦ هـ - ٢٠٢٤ م

لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه و نسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكّن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من المؤلف والناشر.

صف وتصميم وإخراج

مدار القبس للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض

+966 11 2681045

madarulqabas@gmail.com @madarulqabas

المتجر الإلكتروني:

بسم الله الرحمن الرحيم

عبد الله بن محمد الغنيمان
المدرس بالمسجد النبوي الشريف
المدينة المنورة
كلية الدعـوة - الجامعة الاسلامية

Abdullah B. Mohd. Al-Ghunaiman
Profit Mohd. Mosque's Teacher
Madina Munawarah
Propaganda College
Iclamic League

التاريخ ١١/٢/١٤٢٤هـ

Date ....

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه

وبعد فقد شرحت القاعدة التدمرية لشيخ الإسلام في بعض الدورات

وقام الأخ عبدالعزيز البليهي بتفريغه وإعداده للنشر واستأذن في طبعه

فأذنت له رجاء الانتفاع بذلك والله الموفق قاله عبدالله بن محمد الغنيمان

مُقدِّمةُ المُعتَني

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فهذا شرح على «**الرِّسالة التَّدمُريَّة لشيخ الإسلام ابن تيميَّة** رَحِمَهُ ٱللَّهُ»، وأصله دروسٌ علمية ألقاها فضيلة شيخنا عبد الله بن محمد الغنيمان ـ حفظه الله ـ في بعض الدورات العلمية وغيرها(١)، فأفاد فيها وأجاد ـ جزاه الله خيرًا ونفع به ـ، فُرِّغت وجُمِعت ورُوجِعَت، وعُزِيَت فيها الآيات، وخُرِّجت الأحاديث، وعُزِيَت الأقوال إلى قائليها، وغير ذلك مما عهد في العناية العلمية، فلله الحمد والمنَّة.

نشكر الله على توفيقه وتيسيره، ونشكر أيضًا فضيلة الشيخ بندر بن مشبب بن فهد القحطاني المتابع لطباعة الكتاب جزاه الله خيرًا.

هذا، ونسأل اللهَ العليَّ القدير أن يغفرَ لشيخ الإسلام ابن تيميَّة ويتغمَّدَه بواسع رحمته، كما نسأله ﷻ أن يجزيَ شيخنا خير الجزاء، وأن يبارك له في عمره وعلمه وعمله، ويصلح له ذريته، وأن يجعلنا وإياهم هُداةً مُهتدين؛ إنه سميعٌ قريبٌ مجيبٌ.

وإنْ تَجِدْ عيبًا فَسُدَّ الخَلَلا فَجَلَّ مَنْ لا عيبَ فيهِ وعَلا

---

(١) هذا الشرح الذي بين يديك ـ أخي القارئ ـ **هو خلاصة شروح شيخنا عبد الله الغنيمان ـ حفظه الله ـ على «الرِّسالة التَّدمرية»** فقد شرحها في (المسجد النبوي عام ١٤٣٢ ـ ١٤٣٣هـ)، وأيضًا في (دولة الكويت ١٤٣٢هـ)، وأيضًا في (المدينة النبوية بجامع عبد اللطيف آل الشيخ عام ١٤٣٤هـ)، وأيضًا في (دولة البحرين عام ١٤٣٥هـ)، وأيضًا في (مدينة بريدة عدة مرات منها: في جامع الراجحي ١٤٢٨هـ، وجامع الإمام محمد بن عبد الوهاب ١٤٢٩هـ)، وغير ذلك.

والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات، وصلَّى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه

عبد العزيز بن حمود البليهي

٢٥/ ٥/ ١٤٤٥هـ

a.h.albalhe@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

﴿ قالَ الشَّيخ الإمَام، العَالِمُ العَلَّامةُ، شَيخُ الإسلَام، مُفتِي الأنَام، أوحَدُ عَصرِه، وَفَرِيدُ دَهرِه، نَاصِرُ السُّنَّة، وَقَامِعُ البِدعَة، تَقِيُّ الدِّين، أبو العبَّاس، أحمدُ ابنُ الشَّيخ الإمَام العَلَّامة، شِهَابِ الدِّين عبدِ الحَلِيم، ابنِ الشَّيخ الإمَام العَلَّامة، شيخ الإسلام، مَجْدِ الدِّين أبِي البَرَكَات، عبدِ السَّلام، ابن تيميَّة، الحرَّانِيُّ، رضِي اللهُ عنهُ وأرضَاه:

﴿ «الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِالله مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

﴿ وَأَشْهَدُ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَسَلَّمَ تسليمًا كثيرًا».

الشَّرح

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، الحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله وسلَّم وباركَ على عبده ورسوله، نبيِّنا محمدٍ، وعلى آله وصحابته، ومن سار على نهجه ودعا بدعوته، إلى يوم الدين، **وبعد**:

فهذه الرِّسالةُ جوابٌ لسؤالٍ، وهكذا كانت رسائل الشيخ وكُتُبُه كلُّها أو جُلُّها، حتى كتُبُه الكِبار؛ مثل «منهاج السنة النبوية»، وغيره، والظَّاهر أنَّ هؤلاء الذين سألوه من بلد «تَدْمُر»، ولهذا سُمِّيَتْ هذه الرسالةُ بـ «**التَّدْمُرِيَّة**»، نسبةً إلى بلد السائل، و«تَدْمُرُ» بلدٌ في سوريا معروف.

والمؤلف رَحِمَهُ اللهُ في هذا الكتاب، أراد أن يحصُر أبرز مذاهب الخلق؛ المسلمِ، والكافرِ، والمنافقِ، والضَّالِّ، وغيرِهم؛ ليبيِّنَ الطَّريقَ الصحيح في ذلك.

والسَّبب في هذا: أن هذه الأقوال وُجِدَت في كُتُبِ المتكلِّمين؛ وكتبُ المتكلِّمين يقرؤها المسلمون، وكثيرٌ منهم يقرؤها فيرتبكُ في بعض الأشياء، وتلتَبِسُ عليه أمورٌ يذكُرُها هؤلاءِ (المعطلة)، فأراد أن يبيِّن الطَّريق في ذلك، وأن هذا ليس له دليلٌ، وليس له علَّةٌ إلا إرْبَاك المسلم في عقيدته وتشكِيكِه فيها.

أمَّا العلماء فقد يجادِلون في ذلك، ويريدون تخليصَ القضايا العِلْميَّة من القضايا الكُفْريَّة، فيَعْرِضُون الكَلامَ في ذلك ويكون فيه شيءٌ من الغموض، فأراد رَحِمَهُ اللَّهُ أن يبيِّن الطَّريق في ذلك.

وهذا الكتاب كلُّه في مجادَلَةِ هؤلاء الذين جاءوا بأفكارٍ وقواعِدَ من عندِ أنفُسِهم في ربِّ العالمين!، لهذا كثيرٌ ممَّن يقرؤه لا يفهمه؛ لأنه يخاطِبُ أُناسًا باصطلاحهم وما يعتقدون وما يقولون، والمسلم الذي فَطَرَهُ اللهُ على الحقِّ في غِنًى عن هذا، ولكنَّ طالبَ العلمِ لا بد له من ذلك؛ حتى يميِّز بين الحقِّ والباطل؛ لأنهم يأتون بهذا الكلام، ويزعمون أنهم ينزِّهون الله ﷻ، ثم يرُدُّون مُقَابِلَه من الحقِّ، ويقولون: «إنَّ هذا يدلُّ على التشبيه»!، فلا بدَّ من بيان الحقِّ وإيضاحِه، ورَدِّ الباطل في ذلك.

وقد كان الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ مجاهِدًا في سبيل الله، فأفنى عُمرَه في الجهاد، ولهذا لم يتهيأ له أن يتزوَّج، فمات قبل أن يتزوَّج، ومعلومٌ أنَّ كلَّ أحدٍ يعمل لنفسه، ولكن من تعدَّى نفعُه إلى المسلمين بهذا الشكل؛ فهو بمنزلة أُمَّةٍ، والله ﷻ يُقَيِّضُ لدِينِه من ينصُرُه، وهو الذي يتولَّى نَصْرَ دِينِه، فقد واجه رَحِمَهُ اللَّهُ ما واجَهَ في وقته من الأذى، ولكنَّه تحمَّلَ ذلك في سبيل الله.

وقد انتشرت كتُبُه ونفعتْ، ولا يزال الناس ينتفعون بها، وهذا فضلُ الله ﷻ، وله كُتبٌ كثيرةٌ في إبطال هذه المذاهب، وقد جاهد في هذا السَّبيل واجتهدَ، وانتُفع بجهاده وبكُتُبِه ما شاء الله أن يُنتَفَعَ به، وتخلَّصوا من هذه المغالطات، ومن هذا الضلال البيِّن، ولكنه ليس بيِّنًا عند كلِّ أحدٍ، بل عند كثير من الناس صار فيه التباسٌ واشتباهٌ، وبعضُهم زَعَمَ أنه يجب أن يُترَك!

قوله: «**قالَ الشَّيخُ الإمَامُ، العَالِمُ العَلَّامة، شَيخُ الإسلام، مُفتِي الأَنام، أوحدُ عَصرِه، وفَرِيدُ دَهرِه، نَاصِرُ السُّنَّة، وقَامِعُ البدعة، تَقِيُّ الدِّين..**»، هذه من النُّسَّاخ الذين ينسخون الكتاب، وقد كان يَكْرَه أن يُسمَّى «**شيخ الإسلام**» أو «**مُفتِي الأَنام**»، أو

«**أوحدُ عَصرِه**» أو «**فَرِيدُ دَهرِه**» أو ما أشبه ذلك؛ لأنَّ هذه الألقاب إنَّما جاءتنا من الأعاجم، ولا خيرَ فيها، والإنسان ليس له إلا عمله.

قوله: «**الْحَمْدُ...**»: (أل) فيه للاستغراق، يعني: أنَّ الحمد كلَّه لله، والحمد: هو ذِكْرُ محاسنِ المحمود مع حبِّه وتعظيمه وإجلاله.

هذه الخُطْبة التي ابتدأ بها المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ - كثيرًا ما يبتدئ بها -؛ تُسمَّى «خطبة الحاجة»، التي كان الرسول ﷺ يقولُها عند ابتداء الأمور، ويُعلِّمُها أصحابَه، وهي في كلِّ ما يُبدأ به مِنَ الأمور التي يُطلَب بها رضا الله ﷻ، أو تكون في الأمور التي يُطلب بها الاستعانة على دِين الله ﷻ.

قوله: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ... إلخ**»، يعني: نُثْنِي عليه بما هو أهله بصفاته وأسمائه، عابدين له وخاضعين ومعظمين، «**نَسْتَعِينُه**» على ما نُريد قولًا، أو فعلًا، ثم نستغفِرُه لذنوبنا، فإنَّ الذُّنُوب قد تَعُوقُ عن المراد.

قوله: «**وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا**». أقربُ ما إلى الإنسان نَفْسُه، وإذا وُقِيَ الإنسانُ شَرَّ نفسه فهو بخيرٍ.

قوله: «**وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا**». العبد لا ينفكُّ عَنِ السَّيئات، فينبغي أن يعترفَ بها، ويعوذ بالله من آثارها وعواقبها، فإذا وقاه الله شَرَّ السَّيئات فقد رَحِمه.

قوله: «**مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ**»، يعني: أنَّ الله هو المالك لكلِّ شيءٍ؛ للأعيان، والمعاني، والقلوب، فالهداية بيده، من هداه اللهُ فهو المهتدي، ومن مَنَعَ هدايته عنه فهو الضَّالُّ الذي يتولَّاه عَدُوُّه من الشياطين، ولهذا قال: «**وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ**».

قوله: «**وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**». في أول كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ كان الحديث بصيغة الجمع: «**نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ...إلخ**»، وفي كلمة الشهادة أتى بلفظ المفرد؛ لأن هذا لا بُدَّ منه، ليُخبر الإنسان عن الشهادة التي تخصُّه، كما قال: «**وَأَشْهَدُ**».

والشهادة: هي الإخبار عن العقيدة قولًا وعملًا، حيث إنه لا بدَّ للقلب أن يكون موافقًا لما يقوله اللسان فيها، وإلَّا يكونُ كاذبًا، وهذه الشَّهادة لا بدَّ لها أن تُنطَقَ بعلم، يسبقه يقين، وأول ما يجب على الإنسان لكي يكون مسلمًا أن يشهد أن «لَا إله إلاَّ الله»؛ لأنَّ الشهادة هي مِفتاح الإسلام ومَدْخَلُه، ثمَّ يستمر عليها تجديدًا

لها وطلبًا للمزيد من فضل الله ﷻ، وهي مقترنةٌ بالشهادة للنَّبي ﷺ بالرِّسالة، وهي أصلٌ أصيلٌ يُبنَى عليها الدِّينُ كلُّه، ويُسأَلُ عنها العبدُ يومَ القيامة: هل هي شهادةٌ عن يقينٍ وعلمٍ، أم عن ارتيابٍ وشكٍّ؟

قولُه: «**صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تسليمًا كثيرًا**». والصلاة من الله هي ثناؤه عليه في الملأ الأعلى، هذا أصحُّ ما قيل فيه. أمَّا الصلاة من الآدميِّين والملائكة فهي الدُّعاء له[1]، **وقوله**: «**وَعَلَى آلِهِ**». الآل: هم الأهل أو الأتْباع على الدِّين، **وقوله**: «**وَصَحْبِهِ**»: الصَّحْبُ الذين صاحبوه وجاهدوا معه، وكلُّ من لَقِيَه مؤمنًا به فإنه صحابيٌّ، ولو ساعةً.

* * *

(١) جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام، لابن القيم (١/ ١٦٠، ١٦١).

قال رحمه الله تعالى:

«أَمَّا بَعْدُ؛ فَقَدْ سَأَلَنِي مَنْ تَعَيَّنَتْ إِجَابَتُهُمْ أَنْ أَكْتُبَ لَهُمْ مَضْمُونَ مَا سَمِعُوهُ مِنِّي فِي بَعْضِ الْمَجَالِسِ؛ مِنَ الْكَلَامِ فِي التَّوْحِيدِ وَالصِّفَاتِ وَفِي الشَّرْعِ وَالْقَدَرِ، لِمَسِيسِ الْحَاجَةِ إِلَى تَحْقِيقِ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ، وَكَثْرَةِ الِاضْطِرَابِ فِيهِمَا، فَإِنَّهُمَا مَعَ حَاجَةِ كُلِّ أَحَدٍ إِلَيْهِمَا، وَمَعَ أَنَّ أَهْلَ النَّظَرِ وَالْعِلْمِ، وَالْإِرَادَةِ وَالْعِبَادة، لَا بُدَّ أَنْ يَخْطُرَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنَ الْخَوَاطِرِ وَالْأَقْوَالِ مَا يَحْتَاجُونَ مَعَهُ إِلَى بَيَانِ الْهُدَى مِنَ الضَّلَالِ، لَا سِيَّمَا مَعَ كَثْرَةِ مَنْ خَاضَ فِي ذَلِكَ بِالْحَقِّ تَارَةً، وَبِالْبَاطِلِ تَارَاتٍ، وَمَا يَعْتَرِي الْقُلُوبَ فِي ذَلِكَ: مِنَ الشُّبَهِ الَّتِي تُوقِعُهَا فِي أَنْوَاعِ الضَّلَالَاتِ».

الشرح

قوله: «أَمَّا بَعْدُ: ...». هذا الأسلوب يفيد الانتقال من معنى إلى آخر، وقد قيل: إنَّ هذه الكلمة «**أَمَّا بَعْدُ**» هي فصل الخطاب الذي أوتيه داود ﷺ، والصحيح أنَّ فَصْلَ الخطاب هو الفصلُ بين الحقِّ والباطل.

قوله: «فَقَدْ سَأَلَنِي مَنْ تَعَيَّنَتْ إِجَابَتُهُمْ... إلخ»، يعني: مِن طُلَّابِه ومن يجالسونه، وكما سبق أنَّ غالِبَ كُتُبِ شيخ الإسلام إجابة عن أسئلة، بل قد يكون كلُّها أسئلة يجيب عنها، لا يبتدئها ابتداءً، حتى كُتُبه الكبار، فإنه يُسألُ فيجيب، ولهذا ما كان يراجع الكُتُبَ؛ بل يكتبها ثم يتكاتَبُها الحاضرون عنده من تلامذته، فتنتشر وهكذا، ولهذا كَثُرَت كُتُبُه رَحِمَهُ اللهُ؛ ومع ذلك تكون مُتقَنَةً، يكون محقِّقًا في المسائل التي يكتُبُ فيها، والغالبُ أنه يكتبها من إملائه، لا يَنظُرُ في كتابٍ، وقد أعطاه الله ﷻ من العلم والاستحضار الشَّيءَ العجيب، وكَتب الكتب الكثيرة التي انتفع بها خلقٌ لا يُحصِيهم إلا الله، ولا يزالُ كثيرٌ من كُتُبِه لمَّا يُنشَرْ بعدُ.

والمؤلف رَحِمَهُ اللهُ في ذِكْرِه النَّاس أراد أن يستوعب طبقاتِ النَّاس الذين اختلفوا في ربِّ العالمين؛ فمنهم الكفرة؛ مثل: الفلاسفة والباطنية، ونحوِهم؛ هؤلاء ليسوا من المسلمين أصلًا، وإنما ذَكَرَ أقوالَهم حتى يستوعب أقوالَ النَّاسِ في ذلك.

قوله: «**مَنْ تعَيَّنَتْ إجابَتُهُمْ**»، ذلك أنَّ الله ﷻ قد توعَّد من كَتَم علمًا بأنْ يُلْجِمَه لجامًا من نارٍ، فعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: «**مَنْ كَتَمَ عِلْمًا يَعْلَمُهُ، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُلَجَّمًا بِلِجَام مِنْ نَارٍ**»(١)، فمِنْ هنا تتعيَّن الإجابة لمن سُئِلَ عَنِ العلم؛ لأنَّ بَذْلَ العلم ونشْرَه - ولا سِيَّما إذا احتِيج إليه - واجبٌ على من عنده علمٌ في ذلك، ولا يجوز كتمانُه وسَتْرُه، ولهذا يقول: «**مَنْ تَعَيَّنَتْ إجَابَتُهُمْ**»؛ لأنهم سألوه عن أمرٍ مُهِمٍّ.

قوله: «**أَنْ أَكْتُبَ لَهُمْ مَضْمُونَ مَا سَمِعُوهُ مِنِّي فِي بَعْضِ الْمَجَالِسِ**». الظاهر أنه رَحِمَهُ اللهُ كان يتكلَّم في مجالس العلم أو في العموم، فسمعوا كلامًا في التَّوحيد، فطلبوا منه أن يكتُبَه؛ ليكونَ مرْجِعًا لهم؛ لأنَّ المسموع قد يفوتُ بعضُه، وقد لا يَحفَظُ السَّامِعُ كل ما يلقيه على النَّاس مِنَ التَّعليمات والإرشادات، فيتكلَّم في المجلس بالكلام الَّذي قد لا يحفظه السَّامِعُ، فيريد كتابته حتى يرجع إليه، ولهذا قال: «**أَنْ أَكْتُبَ لَهُمْ مَضْمُونَ**»، يعني: ليس هو المسموع نفسه، وإنما هو مضمونُه؛ لأنَّ كلامه كلَّه في هذا الموضوع تقريبًا؛ في توحيد الله ﷻ، والصفات وما وقع النَّاس فيه من الخطأ في هذه الأمور؛ لأنَّ التَّأويل والإلحاد في وقته قد انتشر كثيرًا كما هو الآن.

كان المؤلف رَحِمَهُ اللهُ يُبيِّن التوحيد وما يتعلَّق به في كلِّ مناسبة، وكان يهتمُّ بهذا اهتمامًا بالغًا، وجاهد في ذلك الجهادَ الذي استطاعه والقوَّة التي أُوتِيها، وكذلك العلم الذي أُعْطِيه، فشكرَ اللهُ مسَاعِيه ورفعَ درجاتِه، وهذا أمرٌ مهمٌّ جدًّا؛ لأنَّ هذا هو مقام الرُّسُل؛ دعوة الخلق إلى توحيد الله ﷻ، وإلى ما فيه نجاتهم من عذاب الله في الدُّنيا والآخرة.

قوله: «**مِنَ الْكَلَامِ فِي التَّوْحِيدِ وَالصِّفَاتِ...**». عَطَفَ «**الصِّفاتِ**» على «**التَّوحيد**»، والصِّفاتُ مِنَ التوحيد؛ لأنَّ معنى التَّوحيد: أن يكون العملُ لله وحدَه فقط، وتوحيدُ الصِّفات معناها: (أنَّ الله متفرِّدٌ بصفاته)، لا شريكَ له فيها، فهو كلُّه توحيدٌ؛ توحيدٌ عمليٌّ وتوحيدٌ علميٌّ خبريٌّ.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب العلم، باب كراهية منع العلم (٣/ ٣٢١) برقم (٣٦٥٨)، والترمذي في أبواب العلم، باب ما جاء في كتمان العلم (٥/ ٢٩) برقم (٢٦٤٩)، وابن ماجه في افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب من سئل عن علم فكتمه (١/ ٩٦) برقم (٢٦١)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

و«التوحيدُ العمليُّ»: هو الذي أُمِرْنا به؛ من العبادة التي يجبُ أن تكون خالصةً لله ﷻ، أمَّا «التوحيدُ الخبريُّ العلميُّ»: فهو الإخبار عن الله ﷻ بما أخبر به عن نفسِه، وكلا الأمرَين متلازمانِ، فعَطَفَ الصِّفاتِ على التَّوحيدِ ـ مع أنَّ الصِّفاتِ أيضًا توحيدٌ ـ من باب عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ لأنَّ التوحيد أعمُّ من توحيد الصِّفات، فيدخل فيه توحيدُ العبادة، وتوحيدُ الربوبيَّة، وكذلك توحيد الصِّفاتِ.

و«**الصِّفاتُ**» جمعُ «صفةٍ»، والمقصود بها صفاتُ ربِّنا ﷻ، ويدخل فيها «الأسماء»؛ لأنَّ هذا من توحيد الاعتقاد، والعلم الذي يجبُ أنْ يكونَ غيرُه مبنيًّا عليه، هو الأصل.

قوله: «**مِنَ الْكَلَامِ فِي التَّوْحِيدِ وَالصِّفَاتِ...**»، يعني: في هذين الأمرين: التوحيد والصفات، والتوحيد ـ كما سبق ـ يدخل فيه توحيد الصِّفات، وكذلك توحيد الأفعال، وتوحيد النية والقصد والإرادة، وكلُّها متلازمةٌ؛ وداخلةٌ في مسمَّى التوحيد.

ومعنى توحيد الصفات: أنَّ صفاتِ ربِّنا ﷻ خاصَّةٌ به، ولا يشاركه فيها أحدٌ، أمَّا المشاركة التي مبناها على فكرِ كثيرٍ مِنَ النَّاس فهي أصلُ الضَّلال، وهي أصلُ الإلحاد والتَّعطيل والتَّشبيه، فالله ﷻ فرْدٌ في صفاته لا يشارِكه أحدٌ فيها، وإذا وحَّدْنا اللهَ في صفاتِه فإنَّ معناه الاختصاص به، ولا يكون له نظيرٌ فيها، سواءٌ ذُكِرَتْ هذه الصِّفاتُ لنا بالألفاظ التي نتعارَفُ عليها، أو جاءت في شيء لا نعرفه إلَّا بتعريف الله لنا، ولكن بالاسم أو المعنى، فمثلًا لو لم يكُنْ عندنا شيءٌ من السمع، فإننا لن نعرف معنى صفة السَّمع لله، وكذا البصر، ولهذا قال الله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى: ١١]، فإذا تلا القارئ هذه الآية، فإنه يتوهَّم أنَّ سمعَ اللهِ وبَصَرَه مثلُ سمْعِ المخلوقِين وبَصَرِهم، وليس الأمر كذلك!، فالله ليس كمثله شيءٌ. فإذًا: هذا هو معنى توحيد الصِّفات؛ أي: أنه واحدٌ في صفاته، وأفعاله لا يشاركه فيها أحدٌ، فإذا أضيفت الصِّفَة إلى الله تعالى كانت خاصَّةً به لا يشاركه فيها أحدٌ، أمَّا إذا أضيفت إلى المخلوق فإنَّها صفة مُحدَثة، وليست كصفةِ الخالقِ ﷻ.

وهذا هو الذي لم يفهَمْه المتكلمون، فحاروا وضلُّوا وقالوا: إنَّ مجرَّد الاشتراك في اللَّفظ والمعنى يدلُّ على التَّشبيه، وعلى هذا لا يَصِفُون الله ﷻ بهذه الصِّفات حتى لا يقعوا في التَّشبيه، هكذا قالوا!

قوله: «وفي الشَّرْعِ وَالْقَدَرِ»: «الشرع» المقصودُ: هو العبادةُ والأمرُ والنَّهي، الذي جاء به الرَّسول ﷺ، و«**القَدَر**»: ما قدَّرَه الله ﷻ وما كَتَبَه، وهذا كلُّه من أركان الإيمان، والتي يجب على العبد أن يتحقَّقها ويعرِفَها تمامَ المعرفة؛ وما جاءت به الرُّسل وما قدَّره الله ﷻ لا يخالف أحدهما الآخر ولا يعارِضُه؛ وذلك أنَّ كثيرًا من النَّاس زعموا أنَّ الشرع يعارِضُ القَدَر؛ بحيث إنَّهم نظروا إلى الإنسان: إذا كان عاصيًا أو كافرًا، فإنَّ الله قدَّر عليه ذلك، ثم يأخذُه ويعاقِبُه على هذا؛ وهذا نظرٌ قاصِرٌ واتِّهامٌ لربِّ العالمين ﷻ، فالله ﷻ خلق الإنسان، وجعل له قدرةً وإرادةً؛ يختار بهما ما يهواه ويميل إليه.

القَدَر هو علم الله ﷻ بهذا المخلوق قبل وجوده، بعلمه المطلق، أنه سيوجد، وأنه سيعملُ أعمالًا بإرادته واختياره، فكَتَبَ ذلك. فهذا لا يعارض كونَه أَمَرَه بما يستطيعُه، ولكن الله ﷻ له الفضل يَهْدِي من يشاء، ويُضِلُّ من يشاء، فالذي هداه الله هو من امتثل لأمره وأطاعه، ومن لم يهده فإنه يُوكَل إلى نفسه ونظره وعقله، وتتولاه الشياطينُ فيضلُّ؛ ولكن يُشْكِلُ عليهم قول قائلهم: لماذا لم يساوِ الله بين الناس؟

نقول: هذه حكمةُ الله ﷻ، فإنَّ الهدى فضلُه، وهو يؤتي فضلَه من يشاء، ولو منع المتفضِّل فضله عمَّن لا يليقُ بِهِ لا يُعَدُّ ظلمًا، كما سيأتي ـ إن شاء الله ـ.

والمقصود: أنَّ الشرع لا يعارِض القَدَر، وقد اعترض المشركون على رسول الله ﷺ في هذا، زاعمين أنَّ ما جاء به يعارض ما شاءه اللهُ؛ حيث قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، يقولون: «إنَّ شِرْكَنا وَقَعَ بمشيئة الله، وأنت جئت بشيءٍ ينهانا عن الشِّرك»؛ فهذا بزعمهم يتعارضُ مع مشيئة الله، وهذا كذب؛ لأنهم أرادوا أن يتبعوا آباءهم بلا دليلٍ ولا عقلٍ، فاتَّهموا شرع الله ﷻ بأنه متعارضٌ؛ هذا مرادهم، وليس مرادهم إثبات المشيئة العامة الشاملة.

فالقَدَر هو ما قضاه الله ﷻ في الأزل وقدَّره، ولهذا اضطرب فيه كثير الناس، ورأوا أن فيه منافرةً ومضادةً، وليس الأمر كذلك، ولكن العقول قد لا تتسع للجمع بين الشرع والقدر، إلا إذا رجعت إلى كتاب الله وما جاء به المصطفى ﷺ. فهذا أمرٌ ذكره الله ﷻ عن كثير من الخلق وأولهم الشيطان، والمشركون حاجُّوا النبي ﷺ في ذلك، فقالوا له: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، يقولون: «إن الشرك وقع بمشيئة الله، وهذا دليلٌ على أن الله يرضاه، وأنت جئتنا بالنهي عنه، فهذا دليلٌ

على أن ما جئت به باطلٌ»، وليس معنى قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ إيمانًا منهم بعموم مشيئة الله، وإنما يرون أنه مضادٌ لما جاءهم به رسول الله ﷺ من عبادة الله وحده.

وهكذا القدرية اختلفوا؛ فقال فريق منهم: «إن القَدَر ليس داخلًا في تقدير الله، وعلمه، وكتابته، وخلقه، وإنما هي أمور مستأنفة يعلمُها الإنسان باستقلالِه وإرادته»، وفريقٌ آخر عكسوا ذلك، فقالوا: «إن الإنسان آلةٌ؛ مُسَيَّر، ولا اختيار له ولا قدرة، والأفعال كلُّها لله ﷻ»، وهذا اضطرابٌ وتضادٌ وضلالٌ بيِّنٌ.

فهذا مقصود الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في القَدَر؛ وأنه يجتمع مع الشرع مع أمره ونهيه ﷻ، وهذا أمرٌ واجبٌ على كل مكلَّف، ولهذا يقول: «**لِمَسِيسِ الْحَاجَةِ إِلَى تَحْقِيقِ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ**»، يعني: في «**الشَّرْعِ وَالْقَدَرِ**».

فالشرع هو أوامر الله ونواهِيه، وأعظم أوامره هي أمرُه بإخلاص العمل له، الذي لا يقبل الله من أحدٍ سواه، فإذا خالَطه شيءٌ من إشراك المخلوق أو مُرادات النفوس والدنيا وغير ذلك؛ فإن الله يرُدُّه ولا يقبله، فالله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا. فلهذا كان هذا أمرًا مهمًّا لا بُدَّ من البحث عنه والعمل به؛ وإلا يكون العبد من الهالكين، و«**الشرع**» و«**القدر**» وكذلك «**التوحيد**» مرتبطٌ بعضها ببعض، لا يُمكن أن ينفك أحدها عن الآخر.

والتوحيد بأقسامه؛ سواءٌ كان ثلاثةَ أقسام ـ «توحيد العبادة»، أو «توحيد الألوهية»، أو «توحيد الإرادة والقصد» ـ أو قسمين، كلها أسماءٌ لمسمًّى واحدٍ وهي معاني متقاربة، و«توحيد العلم والخبر»، أو «توحيد الاعتقاد»، أو «توحيد الأسماء والصفات»، كلُّها معانٍ واحدةٌ، وكذلك الشرع؛ لأن العبد عبدٌ يجب أن يكون ممتثلًا لأمر سيده؛ أما أن يَقِف عند العلم فقط، أو عند القول، فهذا لا يكفيه.

فـ «**القَدَر**»: هو من صفات الله ﷻ، وهو ـ كما هو معلوم ـ: الإخبار عن علم الله الأزلي، وكتابته لعلمه، ومشيئته لِمَا يوجد، وخلقه للمخلوقات، فهذا هو القَدَر، فهو أيضًا داخلٌ في «**التوحيد**»، ولهذا صارت هذه أمورًا مهمةً، وكلُّها دخَلَها التغيير، وكثيرٌ من الأمة أخلُّوا بها إخلالًا بالغًا؛ سواءٌ توحيد الإرادة والنية والقصد، أو توحيد العلم والخبر والإخبار، وهذا هو أكبر ما صار فيه الخلاف في هذه الأمة.

وحاجة الإنسان إلى «**توحيد الإرادة والقصد والنية**»، و«**توحيد الصفات**» مع

الإيمان بـ«**القدر**» والعمل بـ«**الشرع**» أهمُّ من حاجته إلى الأكل والشرب الذي تتوقف عليه حياتُه. فهذه الحياة التي إذا فقد الإنسان فيها الأكل والشرب يموتُ، هي لا تضرُّ؛ وأما إذا فَقَد «**التوحيد**» بأقسامه مع «شرع الله» ﷻ وقدره، فإنه يكون خالدًا في جهنم أبَدَ الآبدين.

فإن الموت لا بُدَّ منه، والحياة قليلةٌ، فلا بُدَّ أن يكون العبد قد استعدَّ لملاقاة ربِّه بامتثال أمره، وبقبول الخبر الذي يُخبر به عن نفسه، ويتعرَّف به إلى عباده؛ فإن الله تعرَّف إلينا بأسمائه وصفاته وبأفعاله التي يُظهرها لنا، ومخلوقاته التي نشاهدها، فهذه هي الطريقة إلى معرفة الله ﷻ، ثُمَّ لا بُدَّ من امتثال أمره، والإيمان بقدره ـ تعالى وتقدس ـ، وإلا يكون العبد إما كافرًا معانِدًا أو معرِضًا لا يهتمُّ بأمر الله ﷻ، وكِلَا الأمرين هو طريق الهلاك.

إن أصل «**التوحيد**»: هو امتثال الأوامر واجتناب النواهي؛ وكذلك تخصيص الله ﷻ بما وصَفَ به نفسه؛ لأنه لا يشاركه فيه أحد، فهو خاصٌّ به، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وكذلك تحقيق أن القَدَر يتَّفِق مع الشرع، ولكن الله ﷻ إذا هدى الإنسان جعله قابلًا لما جاء به الرسول ﷺ؛ أما إذا منعه الهدى، فيوكله إلى نظره وفكره؛ ولهذا يقول ﷻ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٨﴾ [الحجرات: ٧ ـ ٨]؛ فكونه ﷻ يخلُق الهدى، ويجعل القلب قابلًا ومحبًّا ومريدًا له، فذلك فضله ﷻ، وإذا منعه من يشاء فليس هذا فيه ظلمٌ وليس فيه جورٌ؛ تعالى الله وتقدَّس عما يعتقِدُه الضالُّون.

وأصل توحيده تعالى هو التوحيد بالصفات والشرع والقدر؛ لأنها لا تنفك هذه بعضها عن بعض؛ التوحيد والصفات والشرع؛ والقدر كذلك لا بدَّ من الإيمان به.

قوله: «**وَكَثْرَةِ الِاضْطِرَابِ فِيهِمَا**»، وذلك بسبب من دخل في هذه العلوم وليس عنده التأصيل من الكتاب والسنة، بل يعتمد على عقله ونظره. ومن اعتمد على عقله في هذا فإنه لا بُدَّ أن يضلَّ، ولا يُمكن أن يصِلَ إلى نتيجة، فكَثُر الاضطراب في هذا وحصلت الشكوك.

ولا تزال الكتب التي تُسمَّى كُتُب التوحيد التي دخلها الكلام في الله ﷻ فيها

من الشكوك، وفيها من الأمور التي يجب أن يُصفَّى التوحيد منها حتى يكون مثل ما جاء به المصطفى ﷺ وأخبر به أصحابه صافيًا نقيًا يُخاطب النفوس والعقول؛ أما ما أدخلوه فيها من الأمور التي يزعمون أنها براهينُ وهي في الواقع شكوكٌ وأوهامٌ؛ فهي لا تؤدي إلى نتيجة! إلا الشك والحيرة.

ولهذا صار الأذكياء منهم نهايتهم الحيرة لا يدرون ماذا يعتقدون! يحارون حتى يتمنى أحدهم أنه لم يدخل في هذه العلوم؛ لأنه لم يصلْ إلى شيءٍ يطمئن به، بل هي كلها شكوك وظنون يضطرب فيها إذا قابل ما عنده مما يُسميه أدلة وبراهين بما يُلقيه الآخر؛ وجدها إما متقابلة؛ كلُّ واحدٍ يقاوم الآخر، أو واحد يُبطل الثاني... وهكذا، فصار محلَّ اضطرابٍ وشَكٍّ.

وهذا في الواقع هو سُنَّة الله؛ لأنَّ من ترك أمر الله وخبره ـ الذي أرسل به رسوله ـ لا بُد أن يضطرب ولا بُدَّ أن يحار، ولا بُدَّ أن يُلاقي جزاءٍ في هذا، فهذا جزاءٌ مُعجَّل، أنه في هذه الدنيا في شكوكٍ واضطرابٍ وحيرة، وكذلك في آخرته قد يكون في عذابٍ، وكثيرٌ منهم ما يهنئه عيش ولا نوم؛ لأنه ما وجد اليقين الذي يوصله إلى الطمأنينة؛ طمأنينة النفس وسكون القلب، فصار في شقاء، وهذه علامة الشقاء في الآخرة ـ نسأل الله العافية ـ.

فهذا الذي قصده المؤلف رحمه الله بقوله: «**وَكَثْرَةِ الِاضْطِرَابِ فِيهِمَا**»؛ واحدٌ يخبر بكذا، والآخر يُخبر بضدِّه، ولا سيما في الله جل جلاله، فإنهم انقسموا أقسامًا كثيرة في ربهم جل جلاله واختلفوا اختلافًا عظيمًا مع أن الأمر فيه واضحٌ وجليٌّ.

لو أنهم استرشدوا بكتاب الله وجعلوه طريقًا لهم وسبيلًا يسلكونه وبما بيَّنه الرسول ﷺ لسَلِموا من هذا الاضطراب وهذه الحَيْرة. والذي يَقبَل ما جاء به الرسول ﷺ ويؤمن به ويتبعه؛ فإن هذا لا يَضْطَرِب، بل يعلم أنه كله حقٌّ، وأنه من عند الله جل جلاله، وأن الله علَّام الغيوب، وأنه لا يخفى عليه شيء، وأنه الحَكَم العدل جل جلاله يضع الأمور في مواضعها.

فالناس اضطربوا في «**صفات الله**» جل جلاله وكذلك في «**توحيد العبادة**». و«**التوحيد**» ـ كما هو معلوم ـ **ينقسم إلى ثلاثة أقسام**:

ـ **توحيد الربوبية**: وهي أفعاله جل جلاله التي يفعلها، يجب أن يكون واحدًا فيها، ليس له مشارك.

- **وتوحيد العبادة**: التي أمر الله ﷻ بها عباده يجب أن يوحِّدوه فيها، ولا يشركوا فيها شيئًا.

- **وأيضًا توحيد الأسماء والصفات**.

و«**الشرع**»: هو أمرُه ونهيُه الذي يجب أن يتبع، وهو داخل في «**توحيد الربوبية**»؛ لأن الربَّ هو الذي يأمر وينهى، وهو الذي يحكم بين خلقه.

أما «**القَدَر**»: فهو يعود إلى علم الله ﷻ، يعني: يعود إلى «**الصفات**»، فهو قدرة الله وعلمه وإرادته وخلقه.

قوله: «**فَإِنَّهُمَا مَعَ حَاجَةِ كُلِّ أَحَدٍ إِلَيْهِمَا**»، يعني: أن هذا مما يتعين الإيمان به وقبوله والعمل به، فكلُّ مكلَّفٍ مكلَّفٌ بأن يعبد الله وحده لا شريك له، ويؤمن بأقداره على أن الله ﷻ هو الذي قدَّر الأشياء وشاءها وخلقها، وقد كَتَبها قبل وجود المخلوقات، كما في «الصَّحيح» عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﭭ أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ بِخَمسِينَ أَلفَ سَنَةٍ، قَالَ: وعَرشُهُ عَلَى الْمَاءِ**»(١).

قوله: «**وَمَعَ أَنَّ أَهْلَ النَّظَرِ وَالْعِلْمِ...**»، يعني بـ: «أهل النظر»: الذين يفكرون؛ عندهم تفكير، وعندهم اهتمام لمستقبلهم ولما تنطوي عليه قلوبهم من الاعتقاد، وهذا لا يخلو منه مسلمٌ، لا بُدَّ منه. والنظر قد لا يكون عِلْمًا؛ فالعلم إذا لم يكن مبنيًا على قواعدَ وأصولٍ ثابتةٍ أُخذت من كتاب الله فهي ليست علْمًا، بِغَضِّ النظر عن العلوم الدنيوية، فأمرُها مختلف.

ومقصوده بـ «أهل النظر»: الذين ينظرون بالعقول، ويَسْبُرون الأدلة، ولكن أدلتهم التي ينظرون فيها هي أدلة عقلية؛ والأدلة العقلية لا تدرك الأمور الغيبية، ولا تدرك الحِكَم التي جعلها الله ﷻ لأوامره ومخلوقاته؛ إلا جزءًا قليلًا يليق بضعفهم وقلَّة عقلهم. فلا بدَّ من التسليم لله والانقياد لأمره، وكذلك اتباع الرسول ﷺ.

وقصده بـ «أهل النظر»: أهلُ الكلام الذين ينظرون إلى المخلوقات، ويستدلون بها على ما يقولون؛ لأنهم زعموا أنهم أهل «العقل»، وأهل «الأدلة البرهانية»،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب القدر، باب حِجَاج آدم وموسى ﮹ (٤/ ٢٠٤٤) برقم (٢٦٥٣)، من حديث عبد الله بن عمرو ﭭ.

والواقع أن الأدلة البرهانية في كتاب الله وفي أحاديث رسوله ﷺ، وأن ما عداهما يجب أن يُرجع إليهما، ولكنهم عكسوا الأمر فأرجعوا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ إلى النظر والعقل! فهم يعتمدون على القواعد التي قعّدوها عقلًا، ويرون أن هذا هو الطريق إلى معرفة الله والسلوك إليه، وأن من لم يعرف ذلك؛ فإنه لا يكون مؤمنًا الإيمانَ الذي يُنجيه من عذاب الله، وربما حكموا عليه بالكفر!

قوله: «الْعِلْم»: هو العلم الموروث عن رسول الله ﷺ.

قوله: «وَالْإِرَادَةِ وَالْعِبَادَة». هم أصحاب التعبُّد والتقشُّف والتزهُّد والتبتُّل إلى الله ﷻ، وهذه أيضًا لا بُدَّ أن تُبنَى على علم؛ لأن أصل التوحيد والعبادة العلم بالله ﷻ، كما قال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، فأمر بالعلم أوّلًا، ثم أمر بالعمل بعد ذلك.

قوله: «وَالْإِرَادَةِ». **المقصود بها**: العبادة؛ الذين يريدون بقلوبهم وعملهم رضى الله والتحلي بطاعته؛ لأن أصل العبادة يكون في القلب، وهو الإرادة، ولا بد من الإرادات لكلِّ عابدٍ، ولكن جعل الله فكر بعض الناس وجهدهم بالعلم والنظر فيه، والأقيسة، والاستدلال، والبعض الآخر همُّه العبادة وأن يحظى بما أعدَّه الله ﷻ للعابدين، ويكفيه بذلك أنه يعرف أن الله أمرَه بهذا، وأن هذا من التكليف الذي لا بدَّ منه.

فـ «**الإرادة والعبادة**» مرتبطةٌ بالنظر والعلم، لا بُدَّ أن يكون مع العلم إرادةٌ وعبادة، فـ «**الإرادة**» إرادة وجه الله بالعمل، و«**العبادة**» امتثال أمرِه واجتناب نهيه، والغاية المطلوبة أن يحظَى بفضلِ الله وإسعاده وينجو من عذابه الذي يكون لمن خالف هذا الأمر.

قصده بـ «أهل الإرادة والعبادة». أهل التعبد من التصوف، والمعنى: أن الخلق كلهم بحاجة إلى ذلك على حسب اختلافهم.

قوله: «لَا بُدَّ أَنْ يَخْطُرَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنَ الْخَوَاطِرِ وَالْأَقْوَالِ مَا يَحْتَاجُونَ مَعَهُ إِلَى بَيَانِ الْهُدَى مِنَ الضَّلَالِ...». أنه لا بُد أن يخطِر لهم في ذلك من الخواطر، يعني: لا يُمكن للإنسان أن يسلك مسلكًا، سواءٌ في أمور الدنيا أو في أمور الآخرة إلا ويسبقها التفكير في ذلك. والخواطر التي ترد على قلبه: ماذا يكون لي؟ وماذا أتحصل عليه؟ وما النتائج؟ إلى أين أذهب؟ ما نهايتي؟ فلا بُد أن يُفكر بهذه الأمور،

فإذا لم تكُنْ هذه مبنية على أمورٍ يقينية علمية يتيقن بها ـ لأنها جاءت من الله ﷻ، وجاء بها رسول الهدى الذي أخرج الناس من الظلماتِ إلى النور بإذن الله ـ، فإنَّ لها نتائجَ سيئة وعذابًا لا ينقطع.

والخواطر: هي التي تَنْتُج عن الفكر والنظر، و«**الإرادة**»: هي أعمال القلوب، وهي التي تسبق أعمال الجوارح، فلا بُدَّ للعبد أن يخطُر له خاطِرٌ، ولا بُدَّ أن يكون عنده إراداتٌ ونيَّاتٌ وتصوُّراتٌ، وهذه الإرادات والتصورات إن لم تكن على وَفْق ما قاله الله، وقاله الرسول ﷺ؛ فإنها تُوقِع في الضلال، وتُوقِع في البدع، ويكون صاحِبُها معرَّضًا لعذاب الله ﷻ.

فإذًا: لا بدَّ من ضبطها، لا بدَّ أن تكون مضبوطة بكتاب الله، وبأحاديث رسوله ﷺ؛ لأن غالب هذه الأمور خصوصًا أسماء الله ﷻ، وصفاته، وأقداره، وكذلك أخباره، ووعده ووعيده: كلها أمورٌ يجب أن تُؤخَذ عن الله، وهي لا تدرك بالعقل. فإذا لم نهتد بما قاله الله وقاله رسوله ﷺ، فلا يمكن الاهتداء بمجرَّد العقل؛ فإذًا: العقلُ يجب أن يرجع إلى ما قاله الله وقاله الرسول ﷺ.

من الممتنَع كون الإنسان يعبد مَن لا يخطُر في قلبه مِن أوصافه وأسمائه شيءٌ، وهذه الخواطر يجب أن تكون مبنيَّةً على الخبر الذي يأتي من الله وتأتي به الرسل؛ لأن الله ﷻ غيبٌ لا يطَّلِع عليه أحدٌ، وهو أيضًا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]؛ ليس كمثله شيءٌ فيُقاس عليه؛ أصبح أنه لا بدَّ من اتِّباع الخبر.

والله ﷻ أعلمُ بنفسه وبغيره من خلقه، فلهذا تعرف إلى عباده بأوصافه وأسمائه، فأخبر أنه بكُلِّ شيء عليم، وأنه على كلِّ شيء قدير، وأنه أحدٌ صمدٌ، وأنه ﷻ لم يلد ولم يولد، وأنه الأول والآخر، والظاهر والباطن، وأنه بكل شيء عليم، ـ تعالى الله وتقدس ـ وغير ذلك، فلا بد من اتباع ما أخبر الله ﷻ به عن نفسه، وأخبر به كذلك رسولُه ﷺ.

وهذا أمرٌ حتمٌ لا بُدَّ منه، ولا يسع الإنسان جهلُ ذلك؛ لأن الله ﷻ أكثرَ مِن أوصافِه، وأسمائه في كتابه، وأكثرَ من أمره بالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج بكثير، كلُّ ذلك؛ لأن هذا هو مبنى الإيمان، وهو معرفة الله ﷻ بما تعرَّف به إلى عباده من أوصافه وأسمائه.

والخواطر: هي الأفكار التي لا بدَّ منها فيما يعمله الإنسان وما يفكر فيه،

وأهمها وأعظمها معرفة الربِّ المعبود، ومبناها على معرفة الربِّ ﷻ، والله ﷻ لا يُعرَف إلا بما أخبر به عن نفسه أو أخبرت به رسله، وإن كان في الجملة يُعرف بأفعاله ومخلوقاته، ولكن هذا لا يكفِي؛ لأنَّ هذا يقرُّ به المؤمن والكافر، ولا يدخلهم في الإسلام، ولكن الذي يتعيَّن هو ما جاءت به الرسل من معرفة الأمر والنهي ومعرفة ما وصف الله ﷻ به نفسه؛ لقوله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٣]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فلا يُدعى إلا إذا عُرف وعُلِم، ومعنى قوله: ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾، أي: اعبدوه بها.

قوله: «وَالْأَقْوَالِ». الأقوال تكون بالألسنة وبالقلوب؛ الأقوال التي يعتقدها القلب وينطوي عليها، فالأقوال تكون تبعًا للخاطر الذي يخطُر في القلب.

والمعنى: أنه لا بُدَّ أن يقول قولًا؛ لأن الذي في القلب لا بُدَّ أن يظهَرَ أثرُه على اللسان والجوارح.

قوله: «مَا يَحْتَاجُونَ مَعَهُ إِلَى بَيَانِ الْهُدَى مِنْ الضَّلَالِ». هذه هي الأمور الخمسة التي ذكرها بأنها تُعين على الاهتمام بهذا العلم؛ لأن حياة العبد ـ أي: الحياة السعيدة ـ تتوقَّف على ذلك، وإن لم يهتمَّ بهذا ويسلكه ويعمل به، فإنه إما أن يكون على خطرٍ، وإما أن يكون هالكًا يقينًا.

قوله: «الْهُدَى». هو **«العلم النافع»** مع **«العمل الصالح»** ـ والضلال ضِدُّه ـ، وهذا لا يكون إلا بما بيَّنه الله وبيَّنه الرسول ﷺ. ولهذا قال: **«بَيَانِ الْهُدَى مِنْ الضَّلَالِ»**؛ فـ **«الهدى»** هو ما جاء الوحي به، و**«الضلال»** ما كان مخالفًا لذلك؛ لذلك إذا التبس الهدى بالضلال التبس على المرء الطريق وضلَّ عنه، ولهذا نزلت الكُتُب من عند الله، وأُرسل الرسل؛ ليتميز هذا من ذاك، والعجب أن بعض من أُوتي علمًا يَلبِسُ الحقَّ بالباطل حتى يتوصَّل إلى مراده أو يضلَّ إلى ما يعتقِدُه ويَرَاه.

قوله: «لَا سِيَّمَا مَعَ كَثْرَةِ مَنْ خَاضَ فِي ذَلِكَ بِالْحَقِّ تَارَةً وَبِالْبَاطِلِ تَارَاتٍ»، يعني: التبس حقُّه بباطِلِه فكثُر فيه الاضطراب والشكوك، فهو بحاجَةٍ إلى تنقية وإلى تصفية وإلى تخليص الحق من الباطل الذي أوجده المتكلِّمون الذين أضلوا عباد الله ﷻ.

مقصوده رَحِمَهُ اللهُ: كثرة الكلام في هذا من المتكلمين الذين اختلفوا في ربهم،

وصاروا يتجادلون فيه، وكلُّ فريق يجادِلُ الآخر ويخاصِمُه في الله ﷻ، وهذا كَثُر في الأمة الإسلامية، فوُجِدَت الحروب الكلامية التي شتَّتهم وفرَّقتهم، ولا يزال أثر ذلك فيهم إلى اليوم، ولا يزال الناس يخوضون في هذا، كما يقول المؤلف: «**لَا سِيَّمَا مَعَ كَثْرَةِ مَنْ خَاضَ فِي ذَلِكَ بِالْحَقِّ تَارَةً وَبِالْبَاطِلِ تَارَاتٍ**»؛ الخوض معناه: أنهم ليسوا على أصلٍ أصيلٍ يتمسكون به، بل عندهم شيءٌ من الشكوك، ومن الأمور التي لا تثبت عند النظر الثاقب، وعند الأدلة التي لا يجوز أن يعتريها شكٌّ أو تغير.

يقول رَحِمَهُ اللهُ: إنَّ الكلام في الباطل والخوضَ فيه أكثرُ من الكلام في الحق والصواب من الكلام، وقصْدُه بذلك الذين اعتاضوا عن كتاب الله وسُنَّة رسوله بالآراء، وبما يسمونه أدِلَّة عقلية؛ ولهذا في النهاية يَحارُون؛ لأنَّ أدلة العقول تتكافأ وتتقابل فيبقى حائرًا، فإذا لم يهتدِ بقول الله ﷻ وبقول رسوله ﷺ فلا يهتدي أبدًا؛ ولهذا يقول الله لنبيه: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ [سبأ: ٥٠]؛ فهدى الرسول ﷺ بالوحي، وكذلك من اتبعه، فإنه يهتدي بوحي الله ﷻ.

ولهذا اهتمَّ الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بهذا الأمر اهتمامًا بالغًا، فجعل عمله متوقفًا على بيان هذا الأمر؛ لأن به خطورةً بالغة؛ لأنه ضلَّ بهذا فئامٌ لا حصرَ لهم، وهلكوا في هذا الطريق وهم يحسبون أنهم على هدى وهم في غَيِّهم يعمهون ـ نسأل الله العافية ـ؛ ولم ينجُ إلا من تخلَّص من هذه الشكوك والأوهام والاضطرابات، ولا تخليص لهم إلا باتباع المصطفى ﷺ وبما جاء به.

ولكن الأمر ليس سهلًا في هذا؛ لأنهم حرفوا كلام الله، وحرفوا كلام رسوله ﷺ؛ بحيث تسلطوا على المعاني، وقالوا: إن المعنى كذا، والمراد كذا وكذا، فاغترَّ بهم كثيرٌ من الناس، ولا سيما إذا كانوا يُرِيدُون الشُّبه ويؤوِّلون (الآيات) تأويلاتٍ تجعلها تتفق مع مُرادهم، يعني: تكون باطلًا، ولهذا سُئل عن هذا، لعله يتبين للسائل الحق.

قوله: «**وَمَا يَعْتَرِي الْقُلُوبَ فِي ذَلِكَ: مِنْ الشُّبَهِ...**»، يعني: أن هذه الأفكار، وهذا القول والخوض في الباطل مراتٍ، وبالحق مرةً لا بد أن يكون له أثر في السامعين والقارئين، الذين يقرؤون كلام هؤلاء، وإن كان كتاب الله واضحًا، ولكن هؤلاء يوردون الشُّبه، فإذا سمعها الإنسان تُشكل عليه؛ فإنه يحتاج إلى من يُعِينه على

ذلك، إن لم يجعل الله له نورًا؛ فلا بُدَّ أن يكون عنده من القوادح ومن الشُّبه التي تؤثر في قلبه وفي سلوكه؛ لأن القلوب إذا وردتْ الشُّبَهُ عليها فإنها لا تثبُت على الحقِّ، ولهذا كان السلف يجتهدون اجتهادًا بالغًا ألَّا يسمعوا الشُّبَه، فهم يخافون أن تبقى الشُّبه في قلوبهم.

دخل رجلان من أصحاب الأهواء على محمد بن سيرين، فقالا: «يا أبا بكرٍ نُحدِّثُكَ بحديثٍ؟ قال: «لا»، قالا: فنَقرأُ عليكَ آيةً من كتاب الله؟ قال: «لا، لِتقُومَانِ عنِّي أو لأقُومنَّ»، قال: فخَرَجَا، فقالَ: بعضُ القومِ. يا أبا بكرٍ، وما كان عليك أن يقرآ عليك آيةً من كتاب الله تعالى؟ قال: «إنِّي خَشِيتُ أن يقرَآ عليَّ آيةً فيُحَرِّفانِهَا، فيَقِرُّ ذلكَ في قلْبِي»[(١)]، وهكذا كانوا يحرصون على حماية عقائدهم، وحماية قلوبهم أن يدخل فيها من شُبه هؤلاء المشبهة الذين شبهوا الباطل بالحقِّ وزعموا أنه هو الواجب اتِّباعُه.

قوله: «**الَّتِي تُوقِعُهَا فِي أَنْوَاعِ الضَّلَالَاتِ**». الأمور الغيبية يكثُرُ فيها الشَّكُّ، ويكثر فيها التوقُّعات والتصوُّرات، إن لم يكن الإنسان معتصِمًا بقول الله ﷻ، وقول رسوله ﷺ، ولهذا قال: «**الَّتِي تُوقِعُهَا فِي أَنْوَاعِ الضَّلَالَاتِ**»، يعني: أنَّ الضلالات متعددة، وأعظمها الضلال في ربِّ العالمين.

وإذا لم يكن للإنسان نورٌ من كتاب الله يهتدي به، ومن سنة رسوله ﷺ، فلا بدَّ من ضلاله، فيتعين على العاقل أنه يسلُكَ خلفَ رسول الله ﷺ في هذا وفي غيره.

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه (١/ ٣٨٩) برقم (٤١١).

قال رحمه الله تعالى:

«فَالْكَلَامُ فِي بَابِ التَّوْحِيدِ وَالصِّفَاتِ، هُوَ مِنْ بَابِ الْخَبَرِ الدَّائِرِ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، وَالْكَلَامُ فِي الشَّرْعِ وَالْقَدَرِ، هُوَ مِنْ بَابِ الطَّلَبِ وَالْإِرَادَةِ، الدَّائِرِ بَيْنَ الْإِرَادَةِ وَالْمَحَبَّةِ وَبَيْنَ الْكَرَاهَةِ وَالْبُغْضِ: نَفْيًا وَإِثْبَاتًا».

الشَّرح

قوله: **«فَالْكَلَامُ فِي بَابِ التَّوْحِيدِ وَالصِّفَاتِ...»**. يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّ التوحيد مبناه على الخبر الذي يأتي به الرسول ﷺ، فلا بدَّ من اتباعه في ذلك:

ـ أمَّا «الإرادة» و«المحبة» فهما مطلوبان من الإنسان أن يريد ما أراده الله، وأن يحبَّ ما أحبَّه الله، فهذا معنى الإنشاء كونه طلبًا من الله ﷻ، فقال: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، ويقول: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣]، يعني: تألهوه وعبدوه.

ـ أما «التوحيد» الذي هو امتثال الأمر واجتناب النهي فلا بد من إتيان الرسول به، ولكن يبقى مخالفته؛ مخالفة التوحيد. يعني: الشرك والوقوع في الشرك؛ هذا لا يلزم أن يأتي الأمرُ به؛ لأنه أمر واضح جليٌّ؛ فلهذا قرن الله ﷻ الأمر به بالخلق؛ بخلق السماوات والأرض؛ كما قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢١]، فالخالق هو الذي يجب أن يُعبَد.

وأمَّا عبادةُ مخلوقٍ لا يضرُّ ولا ينفعُ، ولا يملك لنفسه دفعًا ولا نفعًا ـ فضلًا عن غيره ـ؛ فهذا ليس عليه دليلٌ لا من عقلٍ، ولا من سمعٍ، ولا من الفطرةِ، ولا من إجماع.

كونه يتَّجه إلى حجَرٍ، أو إلى قبْرٍ، أو إلى شجرة، أو إلى غير ذلك من المخلوقات ـ مثل الشمس والقمر، أو الولي وما أشبه ذلك ـ؛ هذا كلُّه ضلالٌ بيِّنٌ فيه إهدار العقل، وإهدار الأدِلَّة التي تحيط بالإنسان من فوقه ومن تحته ومن يمينه ومن خلفه.

فلهذا لا عُذْر لمن فعل ذلك، ولو لم يأتِه رسولٌ؛ ولهذا أخبر الرسول ﷺ عن الذين ماتوا في الجاهلية أنهم في النار؛ لأنهم عبدوا حجارة، وعبدوا أشجارًا،

وعبدوا شيئًا من المخلوقات التي هي أقل منهم تصرُّفًا، ففيه إهدارُ العقل، وفيه إهدارُ المخلوقات التي تحيط بهم.

فالله ﷻ ليس له مشارك في خلق السماوات والأرض، وخلَقَهم وخَلَق ما يستجِدُّ مثل: السحاب، والمطر، والنبات، والإحياء، والإماتة، والإعزاز، والإذلال، وغير ذلك، فكلُّ هذا دالٌّ على وجوب توحيده، بأن تكون العبادة له فقط، ولا تكون لمخلوقٍ، فالرسل جاءت بإثبات ذلك وتنبيه الناس إليه؛ ولهذا أول ما يقولون لهم: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]؛ لأنهم يَألَهُون غيرَه، فإذا كذبوا جاءهم العذاب الجماعي الذي يستأصلهم، ولا يبقى إلا من اتبع الرسول.

أما الطلب الذي هو إنشاء؛ فهذا يتوقف على مجيء الرسول ومنه الشرع؛ مثل: الصلاة، والصوم، والزكاة، والحج، لا بد أن يأتي به الرسول، فإذا لم يصلِّ الإنسان قبل أن يبلغه الوجوب عليه، فهو معذور حتى يزول جهله، بخلاف الشرك فإنه غير معذور فيه.

وقد عطف «الصفات» على «التوحيد» مع أنها شيء واحد لا ينفكُّ أحدهما عن الآخر، ولكن قصده رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن التوحيد الذي هو توحيد العبادة يكون واضحًا، والصفات وقع فيها الخلاف والاضطراب أكثر، ولهذا عطفها عليه.

والصفات تأتي مُثبَتة، وتأتي منفية؛ كقوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى: ١١]، وقوله: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ [البقرة: ٢٢]، وقوله: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾ [مريم: ٦٥]، وقوله: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾ [الإخلاص: ٤]؛ فهذا كلُّه نفيٌ.

فالله يُوصَف بالنفي كما يُوصَف بالإثبات، **ولذلك قال:** «**الدَّائِرِ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ**»، ولكن النفي لا بُدَّ فيه من إثبات كمالٍ ضدَّ النفي، فقوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾، لأنه الكامل الذي لا يدانيه شيء. أما النفي المحْضُ فلا يدخل في صفات الله ﷻ.

وعطف رَحِمَهُ ٱللَّهُ «الصفات» على «التوحيد»؛ لأن التوحيد ـ كما سبق ـ يكون في فعل الله، ويكون بوصفه وما يجب له، ويكون بفعل العبد الذي أمر به.

قوله: «**الْخَبَرُ الدَّائِرُ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ**». «**الخبر**»، يعني: الذي يخبر الله ﷻ

به عن نفسه، أو عمَّا أعدَّه لعباده، وما وعدهم به، أما النفي فهو أيضًا في صفات الله ﷻ؛ فإنَّ الله نفى عن نفسه أن يكون كمثله شيء، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ولم يكن له كُفُوًا أحد، فقال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢].

فالنفي داخِلٌ في صفات الله، فالله يوصف بالإثبات والنفي، ولكن يجب أن يكون هذا مأخوذًا عن الله ﷻ وعن رسوله ﷺ، ولا دَخْلَ للعقل في ذلك، إلا أن العقل يكون تابعًا لما أخبر الله ﷻ به.

إذًا: التوحيد يعني: توحيد الصفات؛ يكون دائرًا بين الخبر والنفي، فخبر الله يخبر به عن نفسه، وينفي عن نفسه النواقص، فله الكمال المطلق ﷻ.

فالتوحيد خبرٌ جاء الأمر به؛ لأنَّ الخبر يكون أمرًا، ويكون نهيًا، ويكون مجرَّدَ إخبارٍ، فمعنى ذلك: أنه لا يحتاج إلى أن نقيس أو أن نسلك مسالك المتكلمين، وإنما علينا أن نتبع الكتاب الذي أنزله ربُّنا وبيَّنه رسولُنا ﷺ، فـ «**التوحيد**»: هو عبادة الله وحدَه بطاعة أمره واجتناب نهيه، وأما «**الصفات**»: فهي أن نصف الله ﷻ بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ، وهذا يتوقف على خبره.

والخبر الذي يأتي عن الله ﷻ، هو الخبر «**الدَّائِرِ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ**»؛ أي: إذا أخبر الله ﷻ عن نفسه؛ إما أن يكون إثباتًا كقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٣] (هذا اثبات)، ﴿وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ [الإخلاص: ٣] (هذا نفي)، وهكذا، فالله موصوفٌ بالنفي والإثبات، وسيأتي التفصيل في هذا ـ إن شاء الله ـ.

ولكن هذا كلُّه خبرٌ؛ يُخبر الله ﷻ به عن نفسه. ثم حُكْمُ الخبرِ: إما أن يُصدَّق، وإما أن يُكذَّب؛ هذا بالنسبة للسامع، أمَّا بالنسبة للمخبِر: فهو إما أن يكون حقًّا وصدقًا مطابقًا للواقع، أو يكون كذبًا غير مطابق للواقع، ومعلوم أن الله هو أصدق القائلين ـ تعالى وتقدس ـ، وهو يخبر عن أمرٍ غيبي؛ لأن الله غيبٌ لا أحد يطَّلِعُ عليه فيُشاهده، ولا مثيل له فيُقاس عليه ـ تعالى الله وتقدس ـ.

فانحصر الأمر في معرفته بتلقِّي الخبر عنه، والنظر إلى أفعاله ومخلوقاته التي يخلقها ﷻ؛ لأنه تفرَّد بهذا، وهذا أمرٌ واضِحٌ؛ لأنك إذا شاهدتَ السماء، أو الأرض، أو الناس أو غير ذلك، تعلم أن هذا المخلوق لم يخلق نفسه يقينًا،

ولا خلقه لا أبوه ولا أمه، هذا إذا كان إنسانًا، أو حيوانًا؛ أما إذا كان جبلًا، أو أرضًا، أو سماء، فكذلك هي لم تخلق نفسها، ولم يخلقها مثلها، فلا بُدَّ أن لها خالقًا، عليمًا، قديرًا، سميعًا، حيًّا، بصيرًا، فهي أمورٌ واضحة في هذا.

أما الخبر الذي يُخبر به عن نفسه فهو هكذا، يعني: دائرٌ بين الإثبات والنفي، إما أن يُثبِت شيئًا له، فله الأسماء الحسنى والصفات العليا ﷻ، فإذا أخبر عن نفسه بشيء وجَبَ أن يُقبَل، وكذلك إذا نفى شيئًا عن نفسه يجب أن يُعتقد هذا؛ يُؤمن به.

قوله: «**وَالْكَلَامُ فِي الشَّرْعِ وَالْقَدَرِ: هُوَ مِنْ بَابِ الطَّلَبِ...**». الطلب هنا معناه: الأمر، وباب الأمر هو الذي يأمر الله ﷻ به، ويريد من عباده أن يفعلوه، والإرادة: هي الإرادة التي تصدر من العبدِ، والعبدُ مريدٌ فعَّالٌ يفعَلُ، وإذا وجد مع الإرادة القدرة فلا بدَّ من وجود الفعل، والله ﷻ ما أمر عباده إلا بما يَقدرون عليه، فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها.

والشرع الذي جاءت به الرُّسل لا يخلو من هذين الأمرين، يعني: الشرع والقدر، والعبادة والعلم، فالشرع مثل: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، فالله يأمرُنا بهذا. والشرع هو أمرٌ ونهيٌ، يعني: إنشاء، ﴿أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنعام: ٧٢]، و﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٣٦]، فالله يأمرنا بهذا، والإنشاء إما أن يُقبَل، وإما أن يُرَدَّ، فإذا قبله الذي أُمر به فقد امتثل الأمر، وإذا ردَّه فقد كَفَر.

وكذلك القَدَر داخلٌ في الأول، القَدَر إخبارٌ من الله ﷻ على أنه عليمٌ بكلِّ شيء، وأنه ﷻ كَتَب كلَّ شيءٍ قبل وجودِه، وأنه يوجد على وَفْق علمِه وكتابته بلا زيادةٍ ولا نقصٍ، ولا يخرج عن ذلك شيء، فهذا كلُّه يجب أن يكون الإنسان مهتمًّا به. فـ «القَدَر» الذي قَدَّره الله ﷻ هو صفة من صفاته، وهو عبارة عن علم الله الأزلي السابق، ومشيئته لما يقع، وخلقه لكلِّ حادثٍ، وكتابته إياه، فهذا كلُّه يرجع إلى صفات الله تعالى.

قوله: «**الدَّائِرُ بَيْنَ الْإِرَادَةِ وَالْمَحَبَّةِ**». الإرادة لا بُدَّ منها، فالإنسان حارِثٌ وهمَّام، والهمُّ هو الإرادة، والإرادة تكون قبل الفعل، وأما المحبة؛ فمبناها على التألُّه، فلا بُدَّ أن يكون للعبد إله، فإن لم يأهل الإله الحق؛ ألِهَ ما يدور حوله من المظاهر وأمور الدنيا، وهذا من حكمة الله ﷻ، حتى يرجع العباد إليه إذا فكروا واعتبروا، ولهذا لا تجد إنسانًا إلا وله إرادة ومحبة، والإرادة تُمِيلُه وتدعوه إلى

مُرادِه، وأما المحبة فهي الدافع له لهذا، ولكن إذا كان الأصل محبَّة الله وتألُّهَه؛ فيكون كلُّ شيء تبعًا لها.

الإرادة والمحبة يجعلهما الله ﷻ في قلوب من يشاء من عباده؛ فالله ﷻ يجعل بعض العباد محبين لما أمر الله ﷻ به، منفذين له، وكارهين لما نهى عنه، وبعضهم بالعكس.

فمحبة القلوب وإرادتها يؤاخذ عليها الإنسان، وتكون هي الأصل في الفعل والتَّرك، ولهذا قال ﷺ: «**إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّاتِ**»[1]، والنيات هي الإرادات، والإرادة قد يكون مصدَرُها الحب، وقد يكون مصدرُها الكراهة، وهذا يكون بالنفي والإثبات، يعني: الإثبات هو الفعل الذي يفعله، والنفي هو الامتناع أو النهي عن الشيء.

فالإرادة والمحبة لا بُدَّ فيها من الأمرين، أنَّ الإرادة كونك تُريد بذلك امتثالَ أمرِ الله، وأن تحظَى بفضلِه وثوابِه وتنجو من عذابه، فالإنسان يسعى لفَكَاك نفسِه، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضلَّ فإنما يضِلُّ عليها، ولا بُدَّ من المحبة التي هي التألُّه، وهي محبةٌ خاصةٌ، محبة الله خاصة لا يجوز أن يكون لأحدٍ منها شيء تخصه؛ لأنها محبة ذُلٍّ وخضوع وتعظيم، ولا بُدَّ أن يكون هذا في الطلب وفي الخبر، طلب من الله ﷻ وفي الأخبار.

قوله: «وَبَيْنَ الْكَرَاهَةِ وَالْبُغْضِ: نَفْيًا وَإِثْبَاتًا». الكراهة والبغض هي لما يَكرَهُه الله ويُبغَضُه من الكفر، والإباء، والامتناع، وعدم الامتثال، وكذلك عدم التصديق بالخبر، سواءٌ كان نفيًا، أو إثباتًا، وأنه لا بد من كراهة الباطل وبُغْضِه، ولا بد من محبَّة الأمر، ومحبَّة الآمر؛ الذي هو الله ﷻ.

فالمؤمن الذي يتألَّهُ الله لا بُدَّ له أن يكره الأصنام، ويكره مَنْ يعبدُها، ويبَغضُها، وهكذا فكلُّ من عَرَفَ الحقَّ كَرِهَ الباطِلَ وأبغَضَه، وهذا كلُّه دينٌ كلَّفَ الله ﷻ به عبادَه، ومقصود المؤلِّف رَحِمَهُ اللهُ أن هذه الرسالة كلَّها تدور حول هذين الأمرين.

* * *

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ؟ (١/ ٦) برقم (١)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنية، وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال**» (٣/ ١٥١٥) برقم (١٩٠٧)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى:

«وَالْإِنْسَانُ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ الْفَرْقَ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ؛ وَالتَّصْدِيقِ وَالتَّكْذِيبِ وَبَيْنَ الْحُبِّ وَالْبُغْضِ وَالْحَضِّ وَالْمَنْعِ؛ حَتَّى إِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ هَذَا النَّوْعِ وَبَيْنَ النَّوْعِ الْآخَرِ مَعْرُوفٌ عِنْدَ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ، مَعْرُوفٌ عِنْدَ أَصْنَافِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي الْعِلْمِ كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ الْفُقَهَاءُ فِي كِتَابِ الْأَيْمَانِ وَكَمَا ذَكَرَهُ الْمُقَسِّمُونَ لِلْكَلَامِ؛ مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ وَالنَّحْوِ وَالْبَيَانِ، فَذَكَرُوا أَنَّ الْكَلَامَ نَوْعَانِ: خَبَرٌ وَإِنْشَاءٌ، وَالْخَبَرُ دَائِرٌ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، وَالْإِنْشَاءُ أَمْرٌ أَوْ نَهْيٌ أَوْ إِبَاحَةٌ».

الشرح

قوله: «وَالْإِنْسَانُ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ الْفَرْقَ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ». وذلك أن النفي غيرُ الإثبات؛ لأنهما متضادَّان. وهذا أمرٌ واضح جدًّا، في كون الإثبات غير النفي، فإذا أثبتَّ فيجب أن تُثبت على ضوء ما أثبته الله ﷻ.

النَّفي ينقسم إلى قسمَين:

القسم الأول: نفيٌ لشيء معلوم محدَّد مفهوم.

القسم الثاني: نفيٌ لشيء لا وجودَ له.

الأول هو الذي يدخل في صفات الله ﷻ، وكذلك في أحكامه، أما **الثاني**: فلا حقيقة له.

قوله: «وَالتَّصْدِيقِ وَالتَّكْذِيبِ». الفرق بين التصديق والتكذيب أمرٌ واضِحٌ يجده الإنسان في نفسه:

- فـ «التصديق»: كونُ الخبرِ الذي يسمعه مطابقًا للواقع.

- وأما «التكذيب»: فلا يُطابِق ذلك التصديق، فالتكذيب فهو فعل العبد، إما أن يُصَدِّقَ الخبرَ الذي جاءه، أو يُكَذِّبَه.

فالأخبار هكذا تكون؛ الخبر بين تصديق وتكذيب، وكلُّ أخبار الله ﷻ وأخبار رسوله ﷺ يجب أن تصدق، أما التكذيب فهو يوقِع في الكفر، وفي الخروج عن طاعة الله ﷻ.

قوله: «وَبَيْنَ الْحُبِّ وَالْبُغْضِ». يعني: الفرق بين الحب والبعض؛ فالحب والبغض يكونان في القلوب، فمن أحبَّ ما أمره الله ﷻ به فإنه فضل الله، تفضَّل الله به عليه.

أما إذا كره ذلك؛ فهذا لأن الله منعه فضله، ولهذا يقول الله ﷻ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةًۚ﴾ [الحجرات: ٧ ـ ٨]. فـ «الحبُّ والبغضُ» يكون مخلوقًا في القلب، وهذا عند أهل السُّنَّة أنه إلى الله ﷻ، ولا يقدر عليه إلا رب العالمين ـ تعالى وتقدس ـ.

أما أهل الباطل من المعتزلة ونحوهم، فهُمْ يقولون: الإنسان هو الذي يخلق ذلك في قلبه، ولهذا صاروا من أهل القدر الذين يُثبِتُون خالقين مع الله ـ تعالى وتقدس ـ، وصاروا كذلك واقعين في الشرك، فهُمْ لا ينفكون عنه بأقوالهم هذه.

فالمقصود: أن محبة القلوب وكراهيتها شيء يكون هو الأصل في قبول الشيء ورده؛ وهو نعمةٌ من الله على عبده الذي يقبل ما أمره الله ﷻ به، ولهذا انقسم الناس إلى: كافر ومؤمن، ومصدق ومكذب، وذلك فضل الله؛ فمن يشأ الله يضلله، ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم.

والفرق بين الحبِّ والبغض أمرٌ واضِحٌ يجِدُه الإنسان في نفسه، فالله ﷻ رتَّب هذه الأمور وجعلها مترابطة ولا بُدَّ منها، فإذا أحببت أمر الله وامتثلته يجب أن تكره ما يُضادُّه وتبغُضه، فلا بُدَّ من محبة المؤمنين وكراهية الكافرين، ولا بُدَّ من محبة أمر الله وكراهية معصيَتِه؛ كما قال ﷻ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٢٤﴾ [التوبة: ٢٤]، فقوله: ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾: انتظروا. و«الفاسق»: هو الخارج عن الطاعة.

فلا بُدَّ من الحبِّ لأمر الله والكراهية لما نُهِي عنه والبُغْض لذلك، والمحبة للأول.

قوله: «وَالْحَضِّ وَالْمَنْعِ». المقصود بـ «الحضِّ والمنع»: الأمرُ والنَّهيُ، والحض والمنع هذا من باب الترغيب والترهيب، فإنه إذا آمن الإنسان بالخبر، فالخبرُ فيه حض، وفيه ترغيب، وفيه ترهيب، فلا بدَّ أن يُؤمن بهذا.

قوله: «**حَتَّى إِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ هَذَا النَّوْعِ وَبَيْنَ النَّوْعِ الْآخَرِ مَعْرُوفٌ عِنْدَ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ...**». هو ظاهرٌ وجليٌّ عند كلِّ من يتكلَّم بالعلم وينظر فيه ويستمع إليه.

قوله: «**مَعْرُوفٌ عِنْدَ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ، مَعْرُوفٌ عِنْدَ أَصْنَافِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي الْعِلْمِ كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ الْفُقَهَاءُ...**». مقصودُه بهذا من التفرقة بين ما يفعله الله، وما يتَّصِف به، وما يقوله ﷻ، وما يأمر به وينهَى عنه، وما يخبِرُ به ويَعِدُ به. فإن الفروق بين هذه واضحةٌ، فالكلام ينقسم إلى أمرٍ ونهيٍ، والأمر يدخل فيه الحض، ويدخل فيه أيضًا الوعد ـ كما سيأتي ـ.

وهو معروف عند الناس؛ سواء كانوا أهل فقهٍ ونظرٍ في الأمور التي تلزم العباد من أمور المعاش، وأمور الآخرة، وأمور الدين، أو من أهل اللغة والبيان، كلهم يقسمون الكلام إلى خبر وإنشاء.

والخبر يكون إما صدقًا وإما كذبًا؛ فإن كان موافقًا للواقع فهو الصدق، وإن كان مخالفًا للواقع فهو الكذب، والله أصدق القائلين ـ تعالى وتقدَّس ـ. هذا بقطع النظر عن القائل.

قوله: «**مَعْرُوفٌ عِنْدَ أَصْنَافِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي الْعِلْمِ كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ الْفُقَهَاءُ فِي كِتَابِ الْأَيْمَانِ...**». هذه الأمور ظاهرة في هذا، فهم يَبنُون عليها الأحكام: الأيمان التي تُلزِم والتي لا تُلزِم؛ لأن الأيمان قد يكون بعضُها لغوًا، وبعضها لا بُدَّ فيه من التكفير، كما أمر الله ﷻ بذلك، والفرق بين يمين اللغو، وبين اليمين التي تَثبُت ظاهرٌ، فإن الله ﷻ يقول: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾ [البقرة: ٢٢٥]، ولكن ما كسبتْه وما عَقَدَتْه قلوبكم، يؤاخِذُكم بما عقدتم عليه الأيمان أيضًا، فالأيمان أن ينويَه ويجزم به ويريده.

قوله: «**وَكَمَا ذَكَرَهُ الْمُقَسِّمُونَ لِلْكَلَامِ؛ مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ وَالنَّحْوِ وَالْبَيَانِ...**».

قوله: «**الْمُقَسِّمُونَ لِلْكَلَامِ**»، يعني: في النحو، والكلام ينقسم إلى أمرٍ ونهيٍ، أو خبر وإنشاء كما هو معروفٌ، و«**أَهْلِ... الْبَيَانِ**» هم أهل البلاغة.

قوله: «**فَذَكَرُوا أَنَّ الْكَلَامَ نَوْعَانِ: خَبَرٌ وَإِنْشَاءٌ، وَالْخَبَرُ دَائِرٌ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ...**».

الكلام في النحو يدور بين الخبر وبين الإنشاء:

فالإنشاء: يدخُل فيه الأمر والنهي والاستفهام.

أما الخبر: فهو يقتضي التصديق أو التكذيب فقط. والخبر إما أن يكون مطابقًا للواقع فيكون صدقًا، أو يكون مخالفًا للواقع فيكون كذبًا، والله ﷻ خبره حقٌّ، وكذلك خبر أنبيائه عليهم السلام.

والفرق بين النفي والإثبات واضحٌ وجليٌّ؛ فالإثبات هو التصديق، والنفي هو التكذيب، والله ﷻ أثبت أشياء يجب أن نثبتها، ونفى أشياء يجب أن ننفيها، وقال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ٢]، وقال: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ [الإخلاص: ٣]، وقال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مريم: ٦٥]، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]؛ فهذا نفيٌ يجب أن نتَّبِعَه، ونعتقد ما دلَّ عليه، وكذلك الإثبات يجب أن نتبعَه.

أما الإنشاء: ـ الذي هو أمرٌ وطلب ـ؛ فهذا يكون فيما كلَّف الله ﷻ به عباده بالفعل أن يفعلوه، وأن يتبعوه.

قوله: «**وَالْإِنْشَاءُ أَمْرٌ أَوْ نَهْيٌ أَوْ إِبَاحَةٌ**». الإباحة معروفةٌ، لا يدخل فيها الثواب والعقاب، الإباحة لا تدخل في الدين، فلا يكلَّف الإنسان بها، ولا يُثاب ولا يعاقب عليها، إلا إذا اقترن بها ما يجعلها عبادة.

المقصود: أن هذه الأحكام ـ أحكام الشرع ـ؛ إما أن يأمرك بأمرٍ يلزمك أن تمتثله أو ينهاك عن شيء يجب أن تجتنِبَه، فأعظَمُ ما أمرنا به ربُّنا ﷻ توحيدُه وعبادتُه، وأعظم ما نهانا عنه الشرك، فيجب أن نبتعد عنه.

أما المكروه: فهذا يُثاب الإنسان باجتنابه، وقد لا يكون في ارتكابه إثمٌ؛ هذا حسب الاصطلاح. أما في لسان الشرع ـ أي: اصطلاح القرآن وما جاء عن النبي ﷺ والصحابة ـ: فلا فرق بين التحريم والكراهة، إذا كره شيء فهو محرَّم كما قال ﷻ: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ۝٣٨﴾ [الإسراء: ٣٨]، ولكن هذا اصطلاح، ولا مُشاحَّة في الاصطلاح؛ كونه قسَّم الكلام حتى يفهم الإنسان الأمور بدِقَّة.

والإباحة كونه لا يتعلق به نهيٌ ولا أمرٌ؛ مثل ما قال الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، فهو على وجه الإباحة، ولكن القواعد التي أُخذت من الشرع أن العبادة مبنيةٌ على الأمر؛ لا بُد أن يأتي الأمر، أما الأمور التي هي المعاملات والمأكولات وغيرها فالأصل فيها الإباحة حتى يأتي ما يُخالف ذلك، وهذا أمرٌ معروفٌ في قواعد الفقه وفي أصوله.

قال رحمه الله تعالى:

«وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ: فَلَا بُدَّ لِلْعَبْدِ أَنْ يُثْبِتَ لِلَّهِ مَا يَجِبُ إِثْبَاتُهُ لَهُ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ، وَيَنْفِي عَنْهُ مَا يَجِبُ نَفْيُهُ عَنْهُ مِمَّا يُضَادُّ هَذِهِ الْحَالَ، وَلَا بُدَّ لَهُ فِي أَحْكَامِهِ مِنْ أَنْ يُثْبِتَ خَلْقَهُ وَأَمْرَهُ، فَيُؤْمِنَ بِخَلْقِهِ الْمُتَضَمِّنِ كَمَالَ قُدْرَتِهِ، وَعُمُومَ مَشِيئَتِهِ، وَيُثْبِتَ أَمْرَهُ الْمُتَضَمِّنَ بَيَانَ مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَيُؤْمِنَ بِشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ إِيمَانًا خَالِيًا مِنَ الزَّلَلِ».

الشَّرح

قوله: «**وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ**»، يعني: على هذا التقسيم السابق.

قوله: «**الْكَلَامَ نَوْعَانِ: خَبَرٌ وَإِنْشَاءٌ، وَالْخَبَرُ دَائِرٌ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، وَالْإِنْشَاءُ أَمْرٌ أَوْ نَهْيٌ أَوْ إِبَاحَةٌ**». وكذلك فيما كلف به عباده مما يفعلونه ويعتقدونه؛ ـ والإنشاء هو الأمر والطلب ـ.

قوله: «**فَلَا بُدَّ لِلْعَبْدِ أَنْ يُثْبِتَ لله مَا يَجِبُ إِثْبَاتُهُ لَهُ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ**»، يعني: التي أثبتها هو لنفسه ﷻ، وصفاته ﷻ كلها كمالٌ، ولا يلحقها نقصٌ بوجهٍ من الوجوه، فهذا أصل عظيم يجب أن يُعلَم وأن يُعمَل به، لهذا قال: «**فَلَا بُدَّ لِلْعَبْدِ أَنْ يُثْبِتَ لله مَا يَجِبُ إِثْبَاتُهُ لَهُ**»؛ الواجب إثبات أن الله ﷻ حيٌّ قيومٌ، عليمٌ حليمٌ، سميعٌ بصيرٌ، لا يخفَى عليه شيء، وهو محيطٌ بكل شيء، وهو فوق كلِّ شيء، له العلم، وله السمع، وله البصر، وله القدرة التامة، وله اليدان، وله وجه كريم، وله عينان يَنظُر بهما، ولا يخفَى عليه شيءٌ، ولا يحجب نظرَه شيءٌ من الأشياء، وهو على كل شيء قدير، وهو السميع البصير، وهو الأول، والآخر، والظاهر، والباطن؛ إلى غير ذلك مما ذكره الله ﷻ وصفًا له، كلُّ هذا يجب أن يُثبَت لله على ما يليق به من عظمته، وكبريائه، وجلاله، وأنه ليس كمثله شيء في هذه الأمور، وفي غيرها، مما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ.

فكلُّ ما يثبت لله فهو خاصٌّ به، لا يشارِكه فيه مخلوقٌ من المخلوقات ـ لا من بني آدم، ولا من الملائكة ـ، وهذا لا بُدَّ أن يكون الخبر مُتلقًّى عن الله ﷻ وعن

رسوله ﷺ؛ لأنه خبرٌ عن الغيوبِ والأمورِ التي لا تدرك بالنظر والعقل معًا؛ إلا في الجملة فقط. فكونُه ﷻ هو الخالق الملك لكلِّ شيء، وكونه أكبرَ من كلِّ شيء، وأعظم من كلِّ شيء، فهذا مُدرَكٌ بالعقل مع الخبر الذي يخبر الله ﷻ به، فهذا لا بُدَّ للعبد منه والإيمان به.

ثم كذلك هنا الصفات: يَثبُت له منها الكمالُ ـ الكمال المطلق من كلِّ وجهٍ ـ، أما إذا كانت الصِّفَة فيها شيء من النقص، فهذه لا تدخل في صفات الله بوجهٍ من الوجوه. لهذا يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] في ذلك؛ لأنَّ الكمال النسبي هذا من صفات المخلوق، وإنما صفات الله ﷻ كمالٌ؛ فهو كاملٌ من كلِّ وجهٍ، ويُنفَى عنه ما فيه شيء من النقص والعيب ـ تعالى الله وتقدَّس ـ، فلا يوصف الله ﷻ بشيء يتضمن شيئًا من النقص، ولا شيئًا مما فيه عيبٌ، فيجب له ﷻ الكمال المطلق على كلِّ حالٍ؛ لأنه هو الخالق ﷻ، وما سواه مخلوق.

والخلق يدخُل فيه القدر، وكذلك يثبت أمره الذي يكلِّف به عبادَه فيأمرهم به، فلا بُدَّ من إثبات الأمرين، ولا يكون الإنسان ممن يأخذ مثلًا «الخلق» أو «القدر»، ويردُّ «الأمرَ»؛ كما فعل المشركون الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وليس مرادهم إثبات المشيئة، وأن هذا واقِعٌ في مشيئته، ولكن يقولون: «إن شركنا وقَعَ بمشيئة الله، وهذا يدُلُّنا على أنه يرضاه!». فجعلوا المشيئة تُضَادُّ الأمرَ، فقالوا: «أنت ـ أي: الرسول ـ جئت بشيء يُضادُّ هذا، فهو مردود». وهذا من الكفر بالله ﷻ.

فالمؤمن لا بُدَّ أن يؤمن بخلق الله وقدَرِه، ويؤمن بأمره وشرعه، وأنَّها لا تتضارب ولا تتضادُّ، فلا بدَّ من الجمع بين «الخلق» و«الأمر» و«القدر» الذي قدره الله ﷻ، وكثيرٌ من الناس لم يتَّسع صدره لذلك، فردُّوا قدر الله، وجعلوا هذا راجعًا إلى المخلوق فقط، وليس إلى الله ﷻ، قالوا: «إن الله لم يُقدِّر على المخلوق أن يكون عاصيًا، ولا أن يكون كافرًا، وإنما أمره بالإيمان وأمره بالطاعة، وهو الذي يعصي، ويكفر بدون أمر الله وقدره»، وهذه تفرقة بين أمر الله وبين قَدَرِه وخَلْقِه، وهو من الضلال كما هو معلومٌ.

قوله: «وَيَنْفِي عَنْهُ مَا يَجِبُ نَفْيُهُ عَنْهُ مِمَّا يُضَادُّ هَذِهِ الْحَالَ»، يعني: يضادُّ الكمال فيُنفَى عنه النقص، وكلُّ هذا مبنيٌّ على ما جاء به كتاب الله وسنة رسوله ﷺ،

ولو سلكنا هذا الطريق لسَلِمنا من الخلافات والانحرافات والشقاق والشجار.

فكلُّ ما ضادَّ الكمال فالله لا يوصف به؛ لأنه المنزَّه عن النقص، وله الكمال من كُلِّ وجه؛ ومع هذا فنحن لا نفعل ذلك من عند أنفسنا أو نبتكر شيئًا من هذه الأمور ابتكارًا بعقولنا وأفكارنا، بل لا بدَّ أن نكون في النفي والإثبات مُتَّبعينَ قول ربِّنا وقول رسولنا ﷺ؛ لأن الله ﷻ غيبٌ، فلا يطَّلع عليه أحد فيصِفه، وليس له مثيل فيقاس عليه.

وإنما الإخبار عنه بالنفي أو الإثبات يتوقَّف على خبر الله ورسوله ﷺ؛ ولهذا يقول العلماء: «صفات الله مبناها على السمع»، أي: أنها توقيفية، ولا بُدَّ أن نقِفَ مع الخبر الذي جاءنا عن ربنا ﷻ أو رسولِه ﷺ، فهو أعلم بنفسه من غيره، فإذا وَصَف نفسه بصفةٍ قلنا بها واعتقدنا مدلولها، وما تدلُّ عليه من مضمون يطابق ذلك.

وكذلك الأمر في النفي؛ فإذا نفى عن نفسه شيئًا؛ فإنه يجب أن ننفِيَه عنه، والله ﷻ ينفي عن نفسه النقائص حتى تُثبَت الكمالات له، والنفي لا يكون نفيًا خالصًا محضًا، وإنما ينفي صفة ليثبت كمالَ ضِدِّها، فمثلًا في قوله ـ ﷻ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦﴾ [فصلت: ٤٦]، في الآية نفيُ الظلم عن الله ﷻ، ويقابل الظلم العدل، فيثبت له كمال العدل.

وكذلك إذا نفى عن نفسه الولد؛ وذلك لأنه صمد غني بذاته عن كل ما سواه، فهو صمد بنفسه، وكل مخلوقٍ يَصْمُد إليه ويحتاج إليه، إما لوجوده؛ ـ لا وجود للمخلوق إلا بالله ـ، أو لإنالته ما فيه بقاؤه، أو لإزاحة ما لا يستطيع إزاحته عنه؛ فهذا النفي يكون مقابِلُه كمالًا لله، أما النفي المحض؛ فهذا لا يكون إلا في المخلوق.

فالذي يُضَادُّ الكمال يجب أن يُنفى عنه؛ لأنه ﷻ كاملٌ في كلِّ شيء؛ في أسمائه، وأوصافه، وأفعاله، وكذلك ما يشرعه، وفي عدله وحكمه، وخبره، وجزائه؛ كلُّه فيه له الكمال المطلق، الذي يجب أن يعتقد أنه كاملٌ فيه من جميع الوجوه، وأنه لا يلحقه فيه نقصٌ في وجهٍ من الوجوه؛ لأنه ـ تعالى وتقدس ـ كلُّ أوصافه وكلُّ أفعاله تدلُّ على كماله، وكذلك على قدرته، وأنه على كلِّ شيء قدير، وبكلِّ شيء عليم.

فلا بُدَّ للعبد أن يثبت لله ما يجب إثباته من صفات الكمال، والله ﷻ لا يوصف

إلا بالكمال، فله الكمال المطلق في جميع أوصافه، ومعنى ذلك: أن الصفات ولو كانت متفِقة مع صفات المخلوق في الاسم، فهي تختلف في المعنى.

لأنه مثلًا إذا قال القائل في وصف مخلوق: «إنه رؤوف»، أو: «إنه رحيم»، قال: «إن الله رؤوف»، و«إن الله رحيم»؛ فهذا يكون مشابهًا له في الاسم فقط، وفي المعنى الذي هو معنى بعيدٌ، قبل أن يُضاف، ويخصص، يعني: رأفة ورحمة، إذا كانت لم تضفْ، أما إذا أضيفت إلى المخلوق، أو أضيفت إلى الله، قيل: رأفة فلان، أو رحمته، أو قيل: رأفة الله، أو رحمة الله؛ فتصبح خاصة بمن أضيفت إليه لا يشاركه فيها الآخر، فصفات الله تخصه ﷻ، وأسماؤه تخصه، ولا يكون الاشتراك في اللفظ أو في المعنى البعيد قبل الإضافة دالًّا على التشبيه كما زعمه من ضلَّ في هذا الباب.

فلا بُدَّ أيضًا من النفي؛ نفي النقائص عن الله ﷻ، والنفي لا يأتي في حق الله ﷻ نفيًا محضًا خالصًا بالنفي فقط، بل لا بُدَّ أن ينفي النقص، ويثبت كمال ذلك المنفي، مثاله: إذا قلت: «وما الله بظلام للعبيد»؛ هذا نفي؛ نفي الظلم، وفيه إثبات كمال العدل لله ﷻ؛ وهكذا إذا قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝٣٨﴾ [ق: ٣٨]، فقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝٣٨﴾ [ق: ٣٨]؛ نفيٌ، واللغوب هو التعب والإعياء، فنفيُ اللغوب دليلٌ على كمال قدرته وقُوَّتِه ـ تعالى وتقدس ـ، وفيه إثبات القدرة والقوة، وهكذا.

أما النفي الخالص؛ فهذا لا يكون إلا في حقِّ المخلوق فقط؛ لأن الله ﷻ له الكمال المطلق.

فلا بُدَّ للعبد أن يُثبت لله ما أثبته لنفسه، وينفي عن ربه ﷻ ما نفاه عن نفسه، هذا أمرٌ لازم لا بُدَّ منه، ولكن من أين؟ هل هذا من العقل؟ أو من النظر في المخلوقات؟ هذا لا يُمكن، هذا متوقِّفٌ على وروده عن الله ﷻ، لا بُدَّ أن يمتثل ذلك ولا يضلَّ.

وكذلك لا بُدَّ أن يمتثل أمره فيفعله، ونهيه فيجتنبه؛ وكذلك يؤمن بقدره، ولا يكون ممن يُجادِل الله بقدره على شرعه، أو أنه لا يؤمن بخلقه بعمومه، فيكون يقع في الشرك، **مثال ذلك**: الذين لم يؤمنوا بالقدر وقالوا: «إن القدر بأن تكون الأوامر والنواهي للإنسان باستقلال، فهو إن شاء آمن باستقلاله وإن شاء لم يؤمن، ولا دخل

لأمر الله في هذا وإرادته ومشيئته»، ويقابلهم مقابلٌ آخر ويقول: «الإنسان ليس عنده في هذا مقدرة ولا إرادة ولا قوة، وإنما هو بمنزلة الآلة التي تُدار، فالأمر كلُّه لله»، فهذا ضربُ القدر بالأمر أو رده، وجعل الإنسان خالقًا لفعله.

فالفريق الأول: القدرية الذين كذَّبوا بالقدر، **والفريق الثاني**: الجبرية الذين قالوا: «إنَّ الإنسان مجبورٌ».

وكلاهما في ضلالٍ عميق، والمشركون ردُّوا شرع الله بالقدر فقالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وهم كاذبون في هذا؛ لأنهم يقولون للرسول: «أنت جئت بالنهي عن الشرك، والشرك وقع بتقدير الله! فهل ترد تقدير الله؟».

فيُقال لهم: الله قدَّر كلَّ شيء، ولكن نهاكم عن الدخول في الشرك، وأنتم باستطاعتكم أن تجتنبوه وتمتنعوا منه، ولكنكم لا تريدون هذا، وتريدون أن تجعلوا اللوم على تقدير الله عنادًا وكفرًا وإباءً؛ وإلا فقَدَرُ الله لا يُنافي شَرْعَه، فالله لم يأمر العباد إلا بما يستطيعون فعله، ولهذا آمن من آمن، وكفَر بعضُهم أو جُلُّهم، ولو كان ممتنعًا ما استطاع أحدٌ أن يؤمن.

فالمقصود: أنه لا بُدَّ من التوفيق بين خبر الله، وأمره، وقَدَرِه:

- فيُصدِّق الخبر ويؤمن به.
- وكذلك يمتثل الأمر والنهي؛ فيفعل ما أُمر به ويجتنب ما نُهي عنه.
- ويؤمن بقدره، ويعلم علمًا يقينيًّا بأن الله ﷻ هو المتصرف في الأشياء، وأنه جعل للإنسان قدرة وإرادة، وبهذه القدرة والإرادة يستطيع الامتثال أو الامتناع، فالأمر إليه.

ثُمَّ وعد وأوعد على هذا؛ وعد الطائعين الوعد الحسن الجميل، وأوعد العاصين بالعقاب الأليم، وسوف يقع هذا ولا بُدَّ، إما أن يكون في الدنيا ثم تتصل به الآخرة؛ - أي: العذاب - أو أنه يقع في الآخرة إذا أُمهل في الدنيا ولا بُدَّ. أما الذي يمتثل الأمر فسوف يجد المثوبة والطمأنينة؛ طمأنينة القلب والنفس والسعادة في هذه الدنيا قبل الآخرة، ثم ما بعد الموت أفضل وأعلى.

قوله: «وَلَا بُدَّ لَهُ فِي أَحْكَامِهِ مِنْ أَنْ يُثْبِتَ خَلْقَهُ وَأَمْرَه». الحكم هو الذي يَحكُم به أمرًا ما، إما أمرًا قدريًّا كونيًّا، وإما أمرًا دينيًّا شرعيًّا جاءت به الرسل، وكلُّه يكون كمالًا له، ويجب أن يُتبع ويعتقد ما حكمه الأمري الكوني، ويؤمن به، ويسلم له، وأما حكمه الأمري الشرعي فيُتبع ويُطاع.

وهذا إذا كان الإنسان سبقت له من الله الحسنى، فإنه يُوفَّق لهذا ويكون من أهل السعادة بذلك؛ لأنه لا سعادة للإنسان إلا بهذا، فيؤمن بخلقه المتضمن كمال قدرته، وخلقه؛ أي: أنه هو الخالق وحده، ويدخل في ذلك تقديره للأشياء، وكذلك عموم مشيئته؛ أي: أنه لا يقع إلا ما يشاء، فمشيئته عامة شاملة.

ويُثبت أمره المتضمن بيان ما يحبه، إلى أمره الديني الذي أمر عباده أن يمتثلوه، فلا بُدَّ من إثباته وامتثاله، ويرضى به، بل يجب أن يغتبط به ويفرح، كما قال الله ﷻ: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس: ٥٨].

والله ﷻ هو الخالق وحده، فكلُّ ما يحدث وما حدث، وما يكون من حركة وغيرها؛ فهو الذي خلقها وشاءها، ولولا ذلك؛ لما وُجد شيءٌ من ذلك؛ أما الأمر فهو أمره، فنؤمن بهذا ونقبله ونتبعه ونتعبده ﷻ به.

قوله: «**فَيُؤْمِنَ بِخَلْقِهِ الْمُتَضَمِّنِ كَمَالَ قُدْرَتِهِ**»؛ لأنه ﷻ هو القادر على كلِّ شيء، وليس معه مدبِّر أو مالك، فهو المالك لكلِّ شيء، المتصرِّف في كلِّ شيء، ولا قيام له أو وجود إلا بقدرته، فالخلق الذي يدخل فيه قدَر الله ﷻ وقدرته لا تحدُّ بحدٍّ، فهو على كل شيء قدير.

قوله: «**وَعُمُومَ مَشِيئَتِهِ**». مقصوده بذلك: أن ما يفعله الإنسان، وما يقع له أنه بمشيئة الله، داخلٌ في مشيئة الله؛ كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، فالله جعل للعبد مشيئة، ولكن مشيئته بعد مشيئة الله ﷻ.

فالمشيئة التي للعبد هي التي يختار بها الفعل أو التَّرك، فإذا فعل فعلًا أُمر به فهذا طاعة، وإذا امتنع وترك فهي معصية، وكلُّ ذلك يقع بمشيئته وقدرته، فالله لا يكلِّف أحدًا إلا ما يستطيع، خلق الله ﷻ للعبد مشيئة وقدرة، وأمره بما يستطيع فعله بهذه القدرة وبهذه المشيئة.

فإذا امتنع صار عاصيًا استحق عقابَ الله، وإذا امتثل صار طائعًا مستحقًّا للإثابة، أما أن يقال: أنه لا قدرة له فهذا ضلالٌ، أو يقال: أن قدرته هي التي يخلق بها أفعاله وإرادته، ولا دخل لله في ذلك، فهذا أيضًا ضلالٌ، فالحقُّ بين هذين الأمرين، وهذا مراد المؤلف رحمه الله.

قوله: «**وَيُثْبِتَ أَمْرَهُ الْمُتَضَمِّنَ بَيَانَ مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ...**»، يعني: عبادته بأنواع العبادة التي أمر بها.

إن الشرع هو الأمر الذي يأمُر به، والنهي الذي ينهى عنه، فهو إلى الله ﷻ، هو المشرِّع لعباده، وهذا من خصائص ربوبيته ﷻ، وإذا نازعه منازعٌ من الخلق كان ذلك المنازع طاغوتًا، تعدَّى حدّه، واستحقَّ عذاب الله ﷻ، فلا ينازع الله ﷻ في أمره وشرعه ولا في قدره وخلقه ـ تعالى وتقدس ـ، ولا بد من الإيمان بهذا إيمانًا خاليًا من الخطأ ومن الزلل والانحراف، حتى يكون الإنسان ناجيًا من عذاب الله ﷻ؛ لأن الله ﷻ بيَّن هذا على ألسنة الرسل ووضَّحه، وكلَّف العباد بفعلِه واعتقاده، واتباع أمره، واجتناب نهيه.

قوله: «**مِنْ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ**». «**القول**»: أن يقول: لا إله إلا الله، وأن يذكُرَه، وأن يتلُوَ كتابه، وأن يتقرَّب إليه بكلِّ ما ينطق به، ويتكلم به، يكون برضا الله وحسْب أمرِه، وكذلك شرْعُه الذي شرَعه يجب أن يؤمن به، ويمتثلَه، ويتَّبعَه، ويكون أيضًا خاليًا من الزَّلل والخطأ، هذا حسب الأوامر الظاهرة. أما الامتثال من الإنسان، فلا بُدَّ أن يقع له خطأ، ولكن الخطأ إذا تبين للعبد المؤمن أنه مخطئ رجع وتاب واستغفر، والله يتوب عليه. فـ«**القول**»: أن نذكره فنقول: «لا إله إلا الله»، وأن نتلو كتابَه، وأن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، وننصح لمن أمرنا الله ﷻ بالنصح له وما أشبه ذلك من الأقوال.

وأما «العمل»: فهو أن نعبده بأفعالنا من صلاةٍ وصدقةٍ وحجٍّ وما أشبه ذلك، وهو ظاهرٌ.

قوله: «**خَالِيًا مِنْ الزَّلَلِ**»: يعني: خاليًا من الأفكار، ومن منتجات العقول التي تخالف أمر الله ﷻ ونهيه، والمصيبة أنَّ كثيرًا من الناس على عكس هذه القضية، فجعل العقل هو الأصل، وصار يَقِيس الشرع عليه، ولهذا ضَلُّوا وحادُوا عن الحقِّ وابتعدوا.

✲ ✲ ✲

قال رحمه الله تعالى:

«وَهَذَا يَتَضَمَّنُ التَّوْحِيدَ فِي عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ فِي الْقَصْدِ وَالْإِرَادَةِ وَالْعَمَلِ، وَالْأَوَّلُ يَتَضَمَّنُ التَّوْحِيدَ فِي الْعِلْمِ وَالْقَوْلِ، كَمَا دلت عَلَى ذَلِكَ سُورَةُ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١] وَدلت عَلَى الْآخَرِ سُورَةُ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون: ١] وَهُمَا سُورَتَا الْإِخْلَاصِ، وَبِهِمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ بَعْدَ الْفَاتِحَةِ فِي رَكْعَتَيْ الْفَجْرِ وَرَكْعَتَيْ الطَّوَافِ وَغَيْرِ ذَلِكَ».

الشرح

قوله: «وَهَذَا يَتَضَمَّنُ التَّوْحِيدَ فِي عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ...»، يعني: الذي هو الأمر والنهي؛ لا بُدَّ أن يعبد ربه ويجتنب الشرك ويجتنب نواهِيَه.

و«**العبادة والإلهية**»: التألُّه. يقول ﷻ: ﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، أي: نحن نعبده بأمره ونهيه، ونمتثل أمرَه ونجتنب نهيَه، **ولهذا قال: «يَتَضَمَّنُ التَّوْحِيدَ فِي عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ»**، يعني: في أمره ونهيه، هذا التوحيد في العبادة بالأمر والنهي، يعني: يُتبع أمره ويُجتنب نهيه ﷻ، ولا يكون شريكًا له في ذلك أحدٌ ـ تعالى وتقدَّس ـ، فإذا أمر بأمر يجب أن تكون الطاعة له؛ وطاعة رسوله طاعة له ﷻ.

قوله: «وَهُوَ التَّوْحِيدُ فِي الْقَصْدِ وَالْإِرَادَةِ وَالْعَمَلِ».

«**القصد**»: النيَّة وعمل القلوب، وهذا يدلُّنا على أن التوحيد لا بُدَّ فيه من العلم، والنِّيَّة والإرادة، ولا بُدَّ فيه من العمل الذي هو الامتثال ـ امتثال الأمر ـ، ولا بدَّ فيه من القول؛ ولهذا قال لنا ﷻ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٦]، فيجب أن يقول العبد: «آمنت بالله، وآمنت بملائكته وكُتُبه ورسله»، فالرسول ﷺ يقول: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»، فحدد ذلك بالقول، «**فَإِذَا قَالُوهَا، عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ**»(١)، يعني: أعمال

(١) أخرجه بنصه أبو داود في سننه، في كتاب الجهاد، باب على ما يقاتل المشركون (٣/ ٤٤) برقم (٢٦٤٠) بلفظ: «منعوا»، والترمذي في سننه، في أبواب الإيمان، باب ما جاء أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله (٥/ ٧١٧) برقم (٢٦٠٦)، والنسائي في سننه، =

القلوب التي تنطوي عليها: هذا يكون إلى الله، هو الذي يعلم ذلك ويحاسبهم عليها، هل يكونون صادقين؟ أم يكونون منافقين يُظهِرون قولًا ويُبطِنون خلافَه؟ فلهذا قال: «**وحسابهم على الله**».

القصد والإرادة كلاهما عملٌ، ولهذا سُمِّي توحيدَ العبادة؛ أي: إفرادُ اللهِ بأفعال العبد، فيجب أن تكون له وحدَه لا شريك له، ولا يُقصَد بها أمرٌ آخر؛ ثم لا بد أن يكون هذا التوحيد على وَفْق أمرِه واجتناب نهيه.

فـ «**توحيد القصد والإرادة والعمل**» هو الذي يسمى «**توحيد العبادة**»، وهو الذي يكون امتثالًا لأمر الله واجتنابًا لنهيه. أما «**توحيد الخبر والعلم**» فهذا «**توحيد الأسماء والصفات**»، يعني: إنه مبنيٌّ على تصديق خبر الله ﷻ ولا بدَّ فيه من العلم، ويتضمن التوحيد في العلم وفي القول، والقول يجب أن يكون مطابقًا للعلم، ومطابقًا لما في القلب.

قوله: «**وَالْأَوَّلُ يَتَضَمَّنُ التَّوْحِيدَ فِي الْعِلْمِ وَالْقَوْلِ**»، يعني: أن «**توحيد الأسماء والصفات**» في العلم والقول، كونه يَصِف الله ﷻ بصفات الكمال؛ مثل: أنه الأحد، والصمد.. إلخ، ومعلوم أن القول لا بُدَّ أن يسبقه العلم، كما أن العمل يسبقه العلم، فالعلم يكون بالقلب أولًا.

قوله: «**كَمَا دَلَّت عَلَى ذَلِكَ سُورَةُ** ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١]»؛ لأن كل سورة الإخلاص خبرٌ عن الله ﷻ، يعني: على توحيد العلم والقول، دلت عليه سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾؛ فهي دلَّت بعمومها على أمورٍ مهمَّة جدًّا يختص الله ﷻ بها.

ومعنى ﴿أَحَدٌ﴾: لا نظير له، ولا مثيل له، فهو متوحِّدٌ في كلِّ ما هو من خصائصه ـ تعالى وتقدَّس ـ في الصفات، وفي الخلق؛ وكذلك في الأمر والنهي، وفيما يجب له ـ تعالى وتقدس ـ يجب أن يكون موحَّدًا في هذا لا يُشرَكُ فيه أحدٌ.

= في كتاب تحريم الدم (٧/ ٧٧) برقم (٣٩٧١)، وابن ماجه في سننه، في كتاب الفتن، باب الكف عمن قال لا إله إلا الله (٢/ ١٢٩٥) برقم (٣٩٢٧)، من حديث أبي هريرة ﷺ، وله أصل في البخاري في كتاب الإيمان، باب ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] (١/ ١٤) برقم (٢٥)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، برقم (٢٢)، من حديث عبد الله بن عمر ﷺ.

والمعنى: أنه أحدٌ في كلِّ ما له من الصفات، وما له من الأفعال، وما له في الحقوق، فحقُّه يجب أن يكون له، الذي هو عبادته لا يُشرِكُه فيه أحد، وخلقه كلُّه متفرِّدٌ به، وهو أحدٌ أيضًا في أوصافه وأسمائه، ليس له سَمِيٌّ ولا نظيرٌ، تعالى الله وتقدَّس.

قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص: ٢]. الصمد هو الذي يكون مستغنيًا بنفسه عن كل شيء، وهو القائم بنفسه الغني عن خلقه، وهو الذي يصمد إليه كلُّ أحدٍ بحاجته، فقيرٌ إليه، يدعوه ويسأله ما لا يستغني عنه، فهو ﷻ صمدٌ في نفسه، وكذلك صمد فيما يحتاج إليه الخلق.

و﴿ٱلصَّمَدُ﴾ يدخل فيه أنه لا جوفَ له، يُطعِم ولا يُطعَم - تعالى وتقدس - لأنه غني؛ ولهذا لما ذكر ﷻ ردَّه على النصارى قال: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ﴾ [المائدة: ٧٥]. فالذي يأكل الطعام لا يكون إلهًا؛ لأنه فقيرٌ؛ فقيرٌ إلى الأكل، وإذا أكل يكون فقيرًا إلى هذا الأكل، وما يُخرج منه ما لا حاجة إليه، فالله ﷻ صمدٌ لا يحتاج إلى شيء، فهو غنيٌّ عن كلِّ شيء.

قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ [الإخلاص: ٣] خبرٌ عن الله أنه ﷻ متوحِّدٌ لا أوَّل له، ولا أصل له، ولا فرع له - تعالى وتقدس -، ولهذا صارت هذه السورة خاصة بصفات الله ﷻ، فهي تتضمن «**توحيد الأسماء والصفات**».

قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٤]. الكُفُوُ هو المكافِئ والنظير والمشابه. فهو لا نظيرَ له، ولا يكون مثله شيءٌ - تعالى وتقدس -، وتضمنت السورة صفات الله الكمالية كلَّها، ولهذا يجب أن تُفهم هذه السورة، وقد عدَّها الرسول ﷺ «ثلث القرآن»، فعن أبي سعيدٍ الخدريِّ، أنَّ رجلًا سَمِعَ رجلًا يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ يُرَدِّدُهَا، فلمَّا أصبحَ جاءَ إلى رسولِ الله ﷺ فذَكَرَ ذلك له، وكأنَّ الرَّجُلَ يَتَقَالُّهَا، فقال رسولُ الله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ**»[1]؛ لأنها خالصة في صفات الله ﷻ، والقرآن أُنزل لثلاثة أمور:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب فضل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، (٦/١٨٩) برقم (٥٠١٣)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، (١/٥٥٦) برقم (٨١١)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

الأول: أوصاف الله ﷻ وأخباره عن نفسه التي يتعرف بها إلى عباده، وسورة الإخلاص خاصة بهذا.

الثاني: أمره ونهيه وشرعه.

الثالث: خبره ووعده ووعيده.

فصارت سورة الإخلاص خالصة في الأمر الأول، وبهذا صارت تعدِلُ ثلث القرآن.

قوله: «**وَدَلَّت عَلَى الآخَرِ**»؛ أي: الأمر.

قوله: «**سُورَةُ**: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون: ١]». دلَّت سورة الكافرون على «**توحيد الإرادة والنية والقصد والعمل**»، يقول الله ﷻ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾؛ أي: الذين كفروا بما جاء به الرسول، وفي هذا النداء تنبيهٌ وإلفاتٌ لأنظارهم حتى يسمعوا وينتبهوا؛ لأنَّ هذا الأمر مهم.

قوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾؛ نفى الله تعالى أن تكون العبادة لغيره، ولا بدَّ من نفيٍ وإثباتٍ في هذا، وشهادة التوحيد تتضمن النفي والإثبات، فـ «لا إله» نفيٌ من أن يكون هناك آلهةٌ تُعبَد في الكون كلِّه، ثم استثنى الله «إلا الله»، فبهذا النفي والإثبات بطَلَت الآلهة كلُّها التي تُعبَد من دون الله.

قوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ من الأصنام وغيرها، فأنا أعبد الله وحدَه؛ لأنهم يعبدون الله ويعبدون معه غيره، وهذه ليست عبادة، هذه شركٌ؛ فالعبادة لا تُسمى عبادةً في الشرع إلا إذا كانت خالصةً لله ﷻ، ولهذا نفى العبادة عن المشركين؛ أي: لا أعبد معبوداتكم التي تعبدونها من دون الله، ومعلوم أنهم يعبدون آلهة كثيرة، ويعبدون الله أيضًا، ولكن هذه العبادة المخلوطة بالحق والباطل باطلةٌ، وهي غير عبادةٍ لله، ولا تكون عبادةٌ لله صحيحةً إلا إذا كانت خالصةً له وحدَه فقط، ولهذا قال: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾، لوجود الشرك، وهو مفسِدٌ للعمل كلِّه، ويجعله مردودًا وغير معتبرٍ.

وهذا يدلُّ على أنهم وإن كانوا يعبدون الله إلا أن عبادتهم باطلة؛ هم يزعمون أنهم يعبدون الله، ولكن الله نفى عبادتهم لوجود الشرك؛ ثم كرَّر هذا ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥﴾؛ للتأكيد وزيادة النفي، مع أنهم كانوا يعبدون الله، ولكنهم خلطوا عبادة الله مع عبادة الحجارة

والأشجار والأموات والأحياء من المخلوقات، فصار هذا مُبطلًا لعبادتهم لله ﷻ فهي ليست عبادة.

ثم قال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾، يعني: لكم الشرك وعبادة المخلوقات، ثم تلاقون جزاءكم، فجزاؤكم جهنم؛ ولي عبادتي التي هي عبادة ربي مخلصًا له ديني، لا أشرك به شيئًا ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٢﴾ [الأنعام: ١٦٢].

ومعلوم أن المشركين يعبدون الله، ولكن يعبدون معه غيره، فإذا وجدتَ عبادة غير الله مع عبادته، فالعبادة ليست عبادة شرعية، وإن كان أطلق عليها عبادة في اللغة، ولكنها في الشرع باطلة؛ لأن الله لا يقبل أن يكون عابده يعبد معه شيئًا آخر، وهذا هو معنى الإخلاص، فالله لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا لوجهه.

قوله: «**وَهُمَا سُورَتَا الْإِخْلَاصِ**»، يعني: **سورة** ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، **وسورة** ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١﴾؛ الأولى دلت على «الإخلاص في الصفات»، والثانية دلت على «الإخلاص في العبادة»، ولهذا سُميتا سورتي الإخلاص.

قوله: «**وَبِهِمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ بَعْدَ الْفَاتِحَةِ فِي رَكْعَتَيْ الْفَجْرِ وَرَكْعَتَيْ الطَّوَافِ وَغَيْرِ ذَلِكَ**»؛ أي: وغير هاتين الركعتين؛ لأن قراءته بهما تحقيقًا للإخلاص والتوحيد، وهكذا ينبغي للقارئ أن يتفهمها حتى يكون مراده ذلك، أنه مخلص لله ﷻ في «توحيد الخبر والعلم»، وفي «توحيد الطلب» - الذي طلبٌ الله منه -، وإرادته أيضًا التي يريد بها وجه الله ﷻ.

وكان الرسول ﷺ يقرأ بهما فيما يختم به عمله، فركعتي الفجر يختم فيها عمل الليل، يعني: سنة الفجر؛ والفجرُ هي في النهار ليست في الليل، وإن كانت ركعتي الفجر تكون تبعًا لها؛ وكذلك إذا ختم الطواف قرأ بهاتين السورتين إشارةً بأنه بدأ بالتوحيد، ويختم بهما دائمًا، وأنَّ التوحيد هو الذي يجب أن تكون الأعمال دائرةً عليه دائمًا وأبدًا، وربما يكون في ذلك حِكَمٌ غير هذا، ممَّا يقصده الرسول ﷺ.

وكذلك أنه بَرِئ من المشركين وأعمالهم، فهذه متلازمةٌ؛ عبادة الله وحده، والبراءة من الشرك وأهله، لا بُدَّ منه؛ وهذا الذي يشير إليه بقراءة هاتَين السورتَين، ويردد ذلك في ركعتي الفجر، وبعد كلِّ طواف يطوفه.

المقصود أن التوحيد قسمان:

القسم الأول: خبري علمي.

القسم الثاني: أمري شرعي.

فالأول: الذي يخبر الله ﷻ به عن نفسه، وخبره حقٌّ وصدقٌ يجب أن يُؤمَن به على ظاهره كما جاء، ويُعتقَد مدلوله من الكمال المطلق الذي يكون لله ﷻ.

أما الثاني: فهو أمر إلزامي، يُلزَم به العباد أن يفعلوه، وهو أن يعبدوه وحدَه ويمتثلوا ما جاء به الرسول ﷺ من أمره ونهيه. والإسلام كلُّه على هذا المنوال؛ ولهذا يقول: «**كَمَا دلَّت عَلَى ذَلِك سُورَةُ** ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾»؛ فالأول دلَّت عليه سورة الإخلاص وغيرها من سور القرآن، كثيرًا ما يذكر ﷻ أوصافه، وأسماءه حتى يُعتقد ذلك ويُؤمَن به.

ففي السورة الأولى إخلاص العلم والقول، وفي الثانية إخلاص الإرادة والقصد والعبادة، ولا بدَّ من اجتماع هذين التوحيدَين، ويدخل في ذلك توحيد الخَلْق، فالله هو الخالق وحده لا شريك له، وتوحيد الخلق هو الأصل في وجوب هذين الشيئين، فبظهوره وجلائه هو الأصل في توحيد العبادة وتوحيد الأسماء والصفات.

ولهذا كثيرًا ما يستدِلُّ الله ﷻ به على المشركين في وجوب عبادته، فقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١﴾ [البقرة: ٢١]، فهذا لا حيلة لهم فيه، فلا يمكن أن يقولوا: «قد خَلَقَنا معه غيرُه»، فهو الذي خلقهم وخلق من قبلهم؛ فإذا كان هو الذي خلقهم وخلق من قبلهم فإنه يجب أن يعبدوه وحده، فالخالق هو الذي يجب أن يُعبَد.

ثم قرر هذا وأكده وبيَّنه ووضَّحه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١﴾ [البقرة: ٢١]، فهم يعلمون أنه هو المتفرِّد بخلق الأرض والسماء وإنزال المطر وإنبات النبات، كما أنهم يعلمون أنه هو المتفرد بخلقهم وخلق من قبلهم، فإذا كان الأمر كذلك؛ فإنه يتعين أن تكون العبادة له وحده، وكثيرٌ من الآيات في القرآن على هذا المنوال، ولهذا قال كثيرٌ من العلماء: «إن هذا لا يلزم أن تأتي الرسل به أو تنزل الكتب به؛ لظهوره وجلائه، فمن عبد غير الله؛ فلا حجة له ولا عذر له، وسيكون في النار؛ سواء جاءته الرسل أو لم

تأته؛ لظهور هذا وجلائه بالنظر، والله ﷻ رزَق الإنسان عقلًا، فيجب أن يتبصر به ويعقل وينظر في هذه المخلوقات، فلم يخلق الله هذه المخلوقات عبثًا، وإلا لماذا جعل فيه العقل، وجعل فيه الإرادة والنظر والفكر؟ فإذا عطل عقله عُذِّب وهلك».

فالذين يطيعون رؤساءهم وكبراءهم طاعةً عمياءَ، يقولون يوم القيامة: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: ٦٧ ـ ٦٨]؛ فأصبحوا يعادونهم؛ لأنهم يرون أنَّ الضلال كان بسببهم، ولكن جزاؤهم بسبب عدم النظر والتفكُّر، وهذا كثيرٌ في كتاب الله ﷻ.

ومثل هذا: الأمورُ الظاهرةُ التي لا يُعذَر أحدٌ بارتكابها؛ مثل: قتل النفس بغير حق، وأخذ أموال الناس بالباطل، وانتهاك الأعراض، فكلُّ هذه الأمور لا يُعذَر من فعلها، ولهذا يقول العلماء: «إنها من الضروريات التي أجمع عليها الخلق»، فإذا كانت ضرورية فلا يلزم أن يأتي الأمرُ بها.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَأَمَّا الْأَوَّلُ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ فِي الصِّفَاتِ، فَالْأَصْلُ فِي هَذَا الْبَابِ أَنْ يُوصَفَ اللهُ تَعالى بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَبِمَا وَصَفَتْهُ بِهِ رُسُلُهُ: نَفْيًا وَإِثْبَاتًا؛ فَيُثْبِتُ لِلَّهِ مَا أَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ، وَيَنْفِي عَنْهُ مَا نَفَاهُ عَنْ نَفْسِهِ».

الشرح

بعدما ذكر الشيخ رحمه الله أن التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام ـ وبعضهم يجعله قسمين ـ، بدأ بما هو موضوع الكتاب نفسه، وهو «القسم الأول»، لكن «القسم الثاني» سيأتي في آخر الكتاب، كما أنه سيأتي «القسم الثالث» وهو القضاء والقدر.

فهو في هذا الكتاب جعل الدين دائرًا بين «**الخبر**» و«**الإنشاء**»، و«**الخبر**» يدخل فيه أسماءُ الله وصفاته، أما «**الإنشاء**» فهو يدخل فيه «**توحيد العبادة**»؛ لأنه أمرٌ ونهيٌ، و«**الإنشاء**» عبارةٌ عن: «الأمر، والنهي، والاستفهام، والإباحة»، و«القَدَرُ» داخِلٌ في الأوَّل كما سيأتي.

قوله: «فَأَمَّا الْأَوَّلُ وَهُوَ التَّوْحِيدُ فِي الصِّفَاتِ فَالْأَصْلُ فِي هَذَا الْبَابِ أَنْ يُوصَفَ اللهُ تعالى بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَبِمَا وَصَفَته بِهِ رُسُله نَفْيًا وَإِثْبَاتًا». هذا تفصيلٌ بعد الإجمال؛ حيث قال: «**فَأَمَّا الْأَوَّلُ**»، يعني: «توحيد العلم والعقيدة». و«**العقيدة**»: هي التي يَعقِدُ عليها القلب تصميمَه وعزْمَه وقصْدَه، فهو مبنيٌّ على الخبر.

فما وصف الله ﷻ به نفسَه، ووصف به رسولُه ﷺ يجب أن يثبت على ما جاء بدون تحريفٍ، ولا تعطيلٍ، ولا تأويلٍ، ولا تكييفٍ، فيثبت ما أثبته لنفسه على وجه الكمال على حدِّ قوله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]؛ وكذلك ما أثبته الرسول ﷺ.

وينفي عنه ما نفاه عن نفسه على وجه المعرفة والعلم بذلك، لإثبات ما يضادُّ النفي ـ كما سبق ـ، فهذا «أمرٌ توقيفيٌّ»؛ أي: يقِفُ معه على الخبر الذي جاء عن الله وعن رسوله، وليس للعقل وللاجتهاد فيه دخلٌ.

هذا التوحيد يشتمل على النفي والإثبات، والإثبات فيه أكثر، وهو الذي جاء

به كتاب الله، وقلَّ أن نزلت آيةٌ إلَّا ويأتي فيها وصفٌ من أوصاف الله؛ إما بالفعل بأنه يفعل ويخلق ويأمر، أو بالوصف الذي يتَّصف به، و«**الوصف**»: هو المعنى الذي يقوم بذات الرب ﷻ، و«**الفعل**»: هو الذي يتعلق بمشيئته ـ تعالى وتقدس ـ.

ولهذا قسم العلماء صفات الله ﷻ إلى «صفات ذاتٍ»، و«صفات أفعالٍ»:

فـ «**صفات الذات**»: هي التي لا تنفك عنه بحالٍ من الأحوال، تكون قائمةً به دائمًا وأبدًا.

أما «صفات الأفعال»: فهي التي تتعلَّق بمشيته؛ إذا شاء أن يفعلَها فعلَها بمشيئته، وإن شاء ألَّا يفعلها لا يفعلُها؛ كالخلق، والرِّزق، والإحياء، والإماتة، وغير ذلك، فالأصل فيه الإثبات؛ أما النفي فتُنفى عنه النقائص، فالله ﷻ يوصف بالكمال المطلَق ولا يوصف بشيء فيه نقصٌ ـ تعالى وتقدس ـ، **ولكن النَّفي ـ كما سبق ـ نوعان:**

النَّوع الأول: نفيٌ لشيء قد أُثبت من قِبَل المشركين، كما أثبتوا لله الولد فنفاه الله ﷻ، وأثبتوا له الزوجة فنفاها، وأثبتوا له الشريك فنفاه ـ تعالى وتقدس ـ، فهذا يكون لسببٍ.

النَّوع الثاني: نفيٌ لأجلِ الكمال؛ كقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٤]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مريم: ٦٥].

والنفي لا بُدَّ أيضًا أن يتضمَّن إثبات الكمال، ولا يأتي في وصف الله ﷻ نفيٌ محضٌ كما يقول أهلُ الباطل؛ فإنَّ المبتدعة من المعتزلة وغيرَهم غالبُ أوصافهم لله نفيٌ، ويسمونها «السُّلُوب»، فيقولون مثلًا: «ليس فوق، ليس تحت، ليس يمين، ليس شمال، ليس خارج العالم، ليس داخل العالم...» إلى آخر ما يقولون؛ وهذا في الواقع لا يجوز أن يوصف الله ﷻ به؛ لأن هذا هو صفة العدم.

فالله ﷻ لا يوصف نفيًا وإثباتًا إلا بما وصَفَ به نفسَه، أو وصَفَتْه به رسلُه بالوحي؛ ولهذا سمّي هذا النوع «توحيد العلم الخبري»، ـ أن الله أخبر به ـ، وهو يجب أن يُتلقى من الوحي؛ ـ وحي الله ﷻ ـ، ولا يجوز أن يدخل فيه القياسات التي وضعها المتكلمون، ولا يجوز أن يدخله أيضًا القول: «العقل الذي يكون مجردًا عن السمع»، بل يجب أن يكون قد جاء من الوحي، **وذلك لأمرين:**

الأمر الأول: أن الله غيبٌ ـ تعالى وتقدس ـ كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]؛ أي: يؤمنون بالله، ويدخل في ذلك ما أخبر به من المغيَّبات، فكيف

يوصف الغائب؟ هل يصفه الذي لم يشاهده ولم يعلمه؟! هذا بالطبع لا بُدَّ أن يقعَ في الكَذِب.

الأمر الثاني: أن الله ليس له نظيرٌ ولا شبيهٌ فيقاس عليه، فصار الأمر متوقفًا على الخبر الذي يقوله ﷻ وتقولُه رسلُه بالوحي الذي يوحِيه إليهم، والله ﷻ أعلمُ بنفسه وبغيره من كلِّ أحدٍ.

وعلى هذا: فإذا جاء عن الله ﷻ وصفٌ، أو جاء عنه خبرٌ؛ يجب أن يُقبل على حسب ما دلَّ عليه الكلامُ، ودلَّت عليه الحالُ والقرائنُ، والله ﷻ ما جعل هذا أمرًا ملتبسًا مشتبهًا حتى يحتاج إلى تفسيرات المتكلِّمين، وتأويلات المبطلين، بل وضَّحه وبيَّنه؛ لأنه تعرَّف به إلى عباده، فإنه تعرَّف إلينا بأوصافه، وكذلك يدخل في هذا أفعاله التي هي الخلق؛ خلق السموات والأرض والجبال وغيرها من الحوادث التي تحدث ونشاهدها، مثل: هبوب الرياح، والسحب، ونزول المطر، وإنبات النبات، والإحياء، والإماتة وغير ذلك مما هو واقعٌ بفعله بمشيئته ﷻ وإرادته.

أما كونه يُقسم التوحيد هذه الأقسام فهذا دلَّ عليه كتاب الله ﷻ في آيات متعدِّدة كثيرةٍ، ومنها سورة «الفاتحة»؛ فإن الله ﷻ يقول فيها: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢]، و«ال» في ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ تدلُّ على الاستغراق؛ أي: أنَّ الحمد كلَّه لله كما قال الرسول ﷺ: «**لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ**»[١]، فجاءت «ال» لتشمل كلَّ المحامد اللائقة بعظمة الله ﷻ، وقوله: ﴿لِلَّهِ﴾؛ فكلمة «الله» أُخذت من الوصف، فـ «الله» أصله «الإله»، فدخل عليه التبديل والتغيير فصار «الله» من باب التفخيم، فُخِّمت اللام، وأُدخِلت عليها «أل»، ثم صارت ﴿لِلَّهِ﴾.

ولهذا جاء عن ابن عباس ﵄، قوله: «الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين»[٢]، و«ذو» يعني: صاحب، أي صاحب الألوهية، و«العبودية» أي: أنه هو المعبود، فإذًا هذا من خصائصه ولا يجوز أن يوصف مخلوقٌ بذلك.

وقوله: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ٢]، فـ «**الربُّ**» هو الذي يربُّ الشيء خلقًا وإيجادًا ويقوم عليه بما يصلحه، ويدفع عنه ما يُفسِدُه، و﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨/ ٣٧٨) برقم (٢٣٣٥٥)، من حديث حذيفة بن اليمان ﵁.
(٢) تفسير الطبري (١/ ١٢١).

جمع عالَم، دخل فيه الخلق كلُّهم؛ ناطِقُهم، وجامِدُهم، وحَيُّهم، ومَيِّتُهم، فهو ربُّهم الذي أوجدهم، وهو الذي يقوم على مصالحهم ويرزقهم ويُحيِيهم ويُمِيتُهم.

فإذًا: معنى «الرَّبِّ» المالكُ المتصرِّفُ، فهذا نوع آخر من أنواع التوحيد. **فالأول**: يتعلق بالعابد الذي يَأْلَه، ويحبُّ، ويُنِيب، ويخاف، ويُذَلُّ، **والثاني**: يتعلق بالربِّ ﷻ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفاتحة: ٣]، وهذا أيضًا وصفٌ آخر؛ «الرَّحمن»: الذي تقوم به الرحمة وهو كثيرها وعظيمها، و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ كذلك الذي تعلقت رحمته بالمخلوق، ولهذا جاء تعلُّق هذا بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣]، فهو رحيمٌ بالمؤمنين، فتعلقت هذه بخلقِه وخاصةً المؤمن، فهذا نوعٌ آخر أيضًا، وهكذا؛ وهذا كثيرٌ جدًّا في القرآن، فالعلم يؤخذ منه.

وليس معنى ذلك: أن هذا التقسيم أُخِذ من تقسيم المتكلِّمين أو تقسيم الناس، بل الله ﷻ قَسَمَ هذا التقسيم في أول سورة من القرآن، وفي آخر سورةٍ منه، يقول الله ﷻ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾﴾ [الناس: ١]، ثم قال: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾﴾ [الناس: ٢]، فـ «الربُّ» ـ كما سبق ـ: الذي يربُّ الشيء ويُوجِده، و«المالك»: الذي يملك الشيء ويتصرَّف فيه، ثم قال: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾﴾ [الناس: ٣]، فجاء التقسيم نفسُه في هذه السُّورة.

والمقصود: أنَّ هذا أُخِذَ من كتاب الله ﷻ وهو كثيرٌ جدًّا. نقول هذا؛ لأن بعض أهل البدع والضلالات يقولون: هذا تقسيمٌ مخترَعٌ، لم يقسمه إلا ابن تيمية وتَبِعَه على ذلك ابن عبد الوهاب؛ وذلك لأنهم لا يفهمون ولا يعرفون كتابَ الله كما ينبغي، وإنما يعرفون عبادة الأولياء وكبرائهم الذين يعظمونهم وهم لا يرون هذه الأشياء، فأقسام التَّوحيد أُخِذَت من كتاب الله، ومن كلام الله ﷻ، وكذلك من كلام رسوله ﷺ، فكلامُ رسوله ﷺ يدُلُّ على هذا في مواضع متعدِّدة.

قوله: «فَالْأَصْلُ فِي هَذَا الْبَابِ أَنْ يُوصَفَ اللهُ تعالى بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ...».

الإيمان جاءت به الرسل، فمن لم يؤمن بذلك فهو ليس بمؤمن، وهو أمرٌ ضروريٌّ لا بُدَّ منه، فالله ﷻ كلَّف عباده بذلك وأمرهم به، فمعرفة الله ﷻ لا تكون إلا بهذا، والمعرفة؛ معرفة الله يترتب عليها الإيمان به ثُم العمل بذلك.

والأصل في هذا هو خبر الله الذي يُخبِرُ به عن نفسِه وهو أصدق القائلين

ـ تعالى وتقدس ـ، وهو أعلم بنفسه من غيره، وأعلم بغيره من ذلك الغير، فيجب أن يُتَّبع في ذلك، ولكن يجب أن يُصان عن الظُّنون الفاسدة والأوهام الكاذبة، فيُعلم ذلك على ضوء ما قال الله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١].

فهو متفرِّدٌ ﷻ بأوصافه، وله الأوصاف الكاملة، فله الكمال المُطلق من كل وجه، وكذلك إذا نَفَى شيئًا يجب أن يُنفى، ولهذين الأمرين قواعدُ أُخذت من الشرع:

فقاعدة الإثبات: أنه يأتي مفصَّلًا.

وقاعدة النفي: أنه في الغالب يأتي مجمَلًا إلا إذا كان هناك سببٌ:

مثل: أن يُثبت المُبطِلون له ما يتعالَى عنه ويتقدَّس ـ كالذين أشركوا به ـ، فينفي الشرك أنه ليس له شريكٌ، وهذا من باب التفصيل.

وكذلك الذين وصفوه بأن له ولدًا ـ تعالى الله وتقدس ـ أو له صاحبه، فنصَّ على هذا ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ٣ ـ ٤].

أما ما عدا ذلك فيأتي مجملًا في النفي: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ٤]، و ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥]، وما أشبه ذلك.

فكل النفي يأتي مجملًا، والنفي لا يُقصد لذاته؛ أي في صفة الله، ولكنه يُنفى ذلك المعيَّن ويُثبَت كمال ضدِّه، كمال ضد المنفي؛ مثل:

ـ قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق: ٣٨] فقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ نفيٌ، و«اللُّغوب» هو الإعياء والتَّعب، وفي ضمنه إثباتُ القوة الكاملة لله ﷻ.

ـ وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦] هذا نفيٌ للظلم، وفي ضمنه إثبات كمال العدل لله ﷻ.

أما أن يأتي نفيٌ خالِصٌ في حقِّ الله فهذا لا يأتي؛ لأنَّ النفي الخالص معناه عدمٌ خالصٌ، والله لا يوصف بالعدم، وإنما يوصف بالإثبات، ويُنفَى عنه النقص فقط، فالله له الكمال المُطلق في المثبَت له وفي المنفي عنه ـ تعالى الله وتقدس ـ، وهذا لا يكون إلا لله تعالى.

فيجب أن يُثبَت ما أثبته لنفسِه ويُنفَى ما نفاه، مع الفهم لمراد الله وعبادته بذلك، كما قال الله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، يعني: اعبدوه به، تعبده بها. وكونُها «حُسنى» يعني: لا يتطرق إليها نقصٌ ولا عيبٌ ـ تعالى الله وتقدس ـ.

قوله: «**بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَبِمَا وَصَفَته بِهِ رُسُله...**». **المقصود** بـ«رسله» جنس الرسل، أي: كل رسولٍ يأتي لا بُدَّ أنَّه يأتي بما يجب الإيمان به مما أوحاه الله ﷻ إليه، من معرفة الله ﷻ ثم العمل بما يأمره به.

قوله: «**نَفْيًا وَإِثْبَاتًا**»، يعني: أن النفي والإثبات كلاهما يؤخذ من الوحي، ثم بيَّن هذا ووضَّحه.

قوله: «**فَيُثْبِتُ لِلَّهِ مَا أَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ، وَيَنْفِي عَنْهُ مَا نَفَاهُ عَنْ نَفْسِهِ**»، يعني: ليس هذا من فعل الخلق وعملهم واجتهادهم، بل هذا ممَّا أوحاه الله ﷻ إلى عباده.

✼ ✼ ✼

قال رحمه الله تعالى:

«وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ طَرِيقَةَ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا، إِثْبَاتُ مَا أَثْبَتَهُ مِنَ الصِّفَاتِ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَكَذَلِكَ يَنْفُونَ عَنْهُ مَا نَفَاهُ عَنْ نَفْسِهِ - مَعَ إِثْبَاتِ مَا أَثْبَتَهُ مِنَ الصِّفَاتِ - مِنْ غَيْرِ إِلْحَادٍ، لَا فِي أَسْمَائِهِ، وَلَا فِي آيَاتِهِ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى ذَمَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ وَآيَاتِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ [فصلت: ٤٠]».

الشرح

قوله: «وَقَدْ عُلِمَ...»، يعني: بالشرع الذي جاء به الرسول ﷺ، والعقل يطابقُه، ولكننا لا نعتمد على العقل في هذا؛ وهو تابعٌ للشرع، والشرع يكون مرشدًا للعقل ودالًّا عليه، فالعقل يكون تبعًا ولا يكون مستقلًّا؛ لأن العقل يَحارُ في أشياءَ كثيرةٍ، والشرع جاء بأمورٍ لا يعرفها العقل ولا يعلمها ولا يحيط بها.

قوله: «أَنَّ طَرِيقَةَ سَلَفِ الأُمَّة...»، يعني: «الصحابة ومن اتبعهم»؛ السلف المقصود بهم: الذين سَلَفوا وانتهوا وذهبوا، ولكنهم مُعيَّنون، وهم الصحابة وأتباعُهم، هؤلاء هم سلف الأمة الذين تلقَّوا عن رسول الله ﷺ العلمَ والعملَ معًا، وعَلِموا ثم عَمِلوا، فهم على هدى ونور من الله ﷻ.

فإذا لم يكن الإنسان عنده من اليقين والهدى الذي تطمئن به نفسُه، فيتبع طريقهم؛ وطريقهم على الهدى والنُّور. فقد أخبر الله ﷻ أنه رضي عنهم وأنهم على امتثال أمر الله ﷻ واجتناب نَهْيِه، وأخبر بجزائه لهم أنه أعدَّ لهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، وأخبر أنه رضي عنهم، والله علَّام الغيوب، لا يُخبر عن أحدٍ أنه رضي عنه وهو يعلم أنه سينحرف وينتكس، هذا لا يُمكن، فهُمْ خيرُ الأمة، كما أخبر الرسول ﷺ بذلك وبيَّنه، فهم سلفٌ لمن يُريد النجاة.

وهذا لا يُنافي أنه يتعين على العبد امتثالُ أمْرِ الله وامتثالُ أمر رسوله ﷺ، واجتناب ما نُهِي عنه، فإنَّ الأوامر والنواهي كثيرةٌ؛ منها يحتاج إلى تفسير وإلى بيان؛ لأن أوامر الله تأتي غالبًا قواعدَ مجملةً عامَّة؛ فالله أنزل كتابه ليكون شاملًا لحوادث الخلق إلى يوم القيامة؛ كل الأمور التي تحدُث لهم فعلًا أو حُكمًا أو غير ذلك، فأحكامها موجودة في القرآن إلى يوم القيامة.

والصحابة - رضوان الله عليهم - هم أهل اللسان الذي نزل به القرآن، وهم أهل الفقه، والله ﷻ لما نظر إلى العباد رأى أن خير قلوب العباد قلبُ محمد ﷺ، ونظر إلى الناس ورأى أن خير قلوب الناس بعد ذلك قلوبُ أصحابه فاختارهم له.

فعن عبد الله بنِ مسعودٍ رضي الله عنه، قال: «**إِنَّ اللهَ نَظَرَ في قُلُوبِ العِبَادِ، فوَجدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ خيرَ قُلُوبِ العِبَادِ، فاصطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، فَابْتَعثَهُ بِرِسَالَتِهِ، ثمَّ نظَرَ في قُلُوبِ العِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحمَّدٍ، فوَجَدَ قُلُوبَ أَصحابِهِ خيرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَجعَلَهُمْ وُزَراءَ نَبِيِّهِ، يُقَاتِلُونَ علَى دِينِهِ..**»[(١)]، فخيرُ الخلق بعد الرُّسُلِ هم الصَّحابةُ؛ كما قال المصطفى ﷺ: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»، فأطلق العموم، قال: «**خَيْرُ النَّاسِ...**» ثم قال: «**ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أحدِهِمْ يَمِينَهُ، ويَمِينُهُ شَهَادَتَهُ**»، قالَ إبراهِيم النخعي رحمه الله: «**وكَانُوا يَضْرِبُونَنَا على الشَّهَادَةِ، والعَهْدِ**»[(٢)]، وتخلُف الخُلوف، وتحدُثُ الفتن والشبهات، والانحرافات كثيرةٌ ومستمرة إلى يوم القيامة.

فمراده بـ «السَّلَف»:

- هم هؤلاء الصحابةُ وأتباعُهم وأتباعُ أتباعِهم، وإن كان حَدَث فيهم من غيرهم ما حدَث من مبدأ الخلاف.

- وطريقة السلف والأئمة؛ مثل: الإمام أبي حنيفة، والإمام مالك، والإمام الشافعي، والإمام أحمد، وغيرهم؛ الأئمة الذين عُرِفوا بالعقائد السليمة والصَّحيحة، وكانوا يأمرون باتِّباع الكتاب والسنة.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٨٤) برقم (٣٦٠٠)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الشهادات، باب: لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، (٣/ ١٧١) برقم (٢٦٥٢)، عن عبد الله بن مسعود، واللفظ له، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، (٤/ ١٩٦٣) برقم (٢٥٣٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله: «**وَأَئِمَّتِهَا**»، يعني: علماء الأمة، فهم الذين يُقتدى بهم، وليسوا كلَّ العُلماء، بل الذين عُرفت هدايتُهم، وعُرف علمهم وفهمهم لكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، هؤلاء هم الأئمة؛ لأنهم اتَّبعوا الوحي، ولم يتبعوا ما يقوله المتكلمون من العقل الذي سمَّوه برهانًا، وجعلوا أدلة الكتاب والسنة ظُنونًا فضلُّوا وأضلُّوا كثيرًا من الناس بهذا، ولما تعمَّقوا بهذا حاروا في النهاية، وباتوا لا يدرون ماذا يصنعون أو يقولون!

كما هو واقع لأذكيائهم وكبرائهم؛ فإنه في نهاية أمرهم يحارون في ذلك، ويقولون: «لا ندري ما نعتقد»!، والسبب أنهم تركوا الطريق السَّوِيَّ الصحيح الذي فيه العصمة من الزَّلَل.

كما في القصة المشهورة التي وقعت في مسجد رسول الله ﷺ لأحد كِبَارهم، قال أبو جعفر بن أبي عليّ الحافظ: «سمِعت أبا المَعَالِي الجُوَينِيّ وقد سُئِلَ عن قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝﴾ [طه: ٥]، فقال: كانَ الله ولا عرش وجعل يتخبط في الكلَام! فقلت: قد علمنَا ما أشرت إليهِ فهَل عنْدك للضرورات من حِيلَة؟ فقالَ: ما تُرِيدُ بِهذا القول وما تعنِي بهذهِ الإشارة فقلت: ما قالَ عَارِف قطّ يا رباه إلَّا قبل أن يَتحَرَّك لِسَانه قامَ من بَاطِنه قصد لا يلْتَفت يمنة ولا يسرة يقْصد الفوق فهل لهذا القَصْد الضَّرُورِيّ عنْدك من حِيلَة فنبئنا نتخلص من الفوق والتحت وبكيت وَبكى الْخلق فَضرب الْأُسْتَاذ بكمه على السرير وَصَاح يا للحيرة وخرق ما كان عليهِ وانخلع وصارَت قِيامَة في المسجِد ونزل ولم يجبني إلَّا يا حبِيبِي الحيرَة الحيرَة، والدهشة الدهشة، فسمِعت بعد ذلك أصحابه يقولُونَ سمعناه يقُول: حيرني الهمدانِي»[1].

حيَّره بكلمة قالها!، ذهب علمه كلُّه الذي كان يقرِّره ويعيش عليه، وهكذا غيره أيضًا في نهاية الأمر يَحارون، فإذا حضر الموت صار يوصي أصحابه: (يا أصحابي لا تعتقدوا هذه الاعتقادات، ولا تدخلوا في علم الكلام، فلو كنت أعلم أنني أصل إلى ما وصلت إليه ما دخلتُ فيه، ثم يستشهد أصحابه ويقول: اعلموا أني ما علمت شيئًا، وأني أموت على عقائد العجائز)[2]، ولكن هل يمكن هذا؟! الشيء الذي

(١) كتاب العلو للعلي الغفار للذهبي (ص٢٥٩).
(٢) المصدر السابق (ص٢٥٨).

ارْتَسَم في قلبه وفي ذهنه لا ينمحي، وكلُّ هذا عقاب من الله ﷻ لهؤلاء الذين تركوا كتاب الله واعتاضوا عنه بالأفكار؛ بأفكار الرجال التي لا تُجدِي شيئًا ولا تُفيد.

قوله: «**إِثْبَاتُ مَا أَثْبَتَهُ مِنْ الصِّفَاتِ...**» لنفسه ـ تعالى وتقدس ـ.

قوله: «**مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ...**». **التكييف**: هو طلب الكيفية ـ كيفية الصفة ـ؛ كأن يقول: «كيف سمْعُه؟ كيف علْمُه؟ كيف استواؤه؟»، وما أشبه ذلك، فهذا ممنوعٌ؛ لأن هذا لا يمكنُ علمُ المخلوق به، فيجب أن يُعرِض عن هذا ولا يطلبه.

فنقول: نثبت الصفات بلا كيفٍ، والكيفُ الذي يسأل عنه أهلُ البدع؛ كما قال المبتدع الذي دخل على الإمام مالكٍ في مجلسه، وقال له: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، كيف استوى؟

فأطرق الإمام مالكٌ، وصار يتصبَّب العرقُ منه، ثم قال: «الاستواء معلومٌ، والكيف مجهولٌ، والإيمان به واجبٌ، والسؤال عنه بدعةٌ، ولا أُراك إلا رجلَ سوءٍ»، ثم أمر به فأُخرِج من مجلِسه. وهذا الذي ينبغي أن يُصنَع بأهل البدع؛ لأن الكيف لا يمكن أن يَصِل إليه أحدٌ؛ لأن الله ﷻ لا يُشاهَد.

ولا يقول إنسان: ثبتَت النُّصوص في أنَّ أهل الجنة يرون ربهم، أيرون ربَّهم ولا يحيطون به ـ تعالى وتقدس ـ؟

نعم؛ لا يُحاط به، إنما يرون وجهه الكريم ـ جل وتقدس ـ، وكذلك يرَوْنه في الموقف بلا إحاطة.

والكيفية تقتضي أن الإنسان الذي يعرف، أنه يحيط بالشيء الذي يُكيِّفُه؛ وإلَّا يكون غيرَ عارِفٍ له، فهذا معنى **قوله**: «**مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ**»؛ فالتكييف هو طلب الكيفية، والكيفية هي الحال التي يكون عليها الموصوف، وهذا يتوقَّف على المشاهدة ـ كما سبق ـ، وهي ممتنعةٌ، فلا أحد يشاهد الله ﷻ.

وبهذا يُعلم أنَّ نفي الكيفية هو نفيُ عِلْم الخَلْق بها، وليس نفيَ الكيفية ذاتها عن الرَّبِّ، فكلُّ شيء له كيفية، ولكنها ممتنعة على المخلوق فلا علم له بها، لأنه غيبٌ ولا نظير له. فأقل شيء للتكييف أن يكون للمكيَّف مثيلٌ يُقاس عليه، وكلا الأمرين ممتنعٌ، فإذًا لا طمع في ذلك، يجب أن يُغلِق الإنسان هذا الباب أمامه.

«**مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ**» يعني: معرفة الكيفية، وليس معنى ذلك أنه لا كيفية له، لا

كيف له؛ بل له كيفٌ، ولكن العلم به ممتنعٌ، لا يُمكن الوصول إليه، ولهذا قال: «**مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ**».

«**وَلَا تَمْثِيلٍ**». «التمثيل»: هو «التشبيه»؛ أن يُمثِّل صفاته بصفات الخلق ـ تعالى الله وتقدَّس ـ، وقد يكون «التشبيه» مع «التمثيل» بينهما شيءٌ من الفرق كما سيأتي، ولكن هي ألفاظٌ متقاربة.

فـ «التمثيل» هو «التشبيه» بأن يقول: مثلُ كذا وكذا ـ تعالى الله وتقدس ـ، وقد قال الله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]، وقال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥]، فهو ﷻ لا مثيل له، ولا شبيه له ـ تعالى وتقدس ـ.

ولكن المؤلف ـ رحمه الله ـ اختار كلمة «**تَمْثِيل**»؛ لأنَّ التشبيه فيه اشتباهٌ، وفيه التباس، فبعض أهل البدع سمى إثبات الصفات تشبيهًا؛ ولهذا اجتنب كلمة «تشبيه» لأجل ذلك، ولما أُخذ الإمام أحمد رحمه الله وصار يُضرب وهو في الفتنة، ويقولون له: لا يمكن أن نتركك حتى تقول: «إن الله لا شبيه له بوجه من الوجوه»، فأبى أن يقول هذا؛ لأن هذا معناه أن ينفوا عن الله السَّمْع، والبصر، والعلم، والقدرة، والإرادة، وينفوا عنه صفاته؛ لأنه إذا قال: «أنه له سمعٌ وبصرٌ»، قالوا: «الإنسان له سمعٌ وبصرٌ، هذا تشبيه»، فأبى أن يقول ذلك لأجل هذا.

ثم كذلك «التشبيه» صار عند أهل الكلام نسبيًا، ومعنى «نسبي» أن كلَّ فريقٍ نفى شيئًا، فإذا أثبته غيرُه سماه مُشَبِّهًا؛ فمثلًا:

ـ الجهمية لا يُثبِتون أسماءً ولا صفاتٍ؛ لا يثبتون لله اسمًا ولا صفةً، وهذا معروف أن هذا كفر بالله ﷻ وإلحاد.

ـ أما إخوانهم الذين تَبِعُوهم من المعتزلة، فهم يُثبِتون الأسماء بلا صفاتٍ، ويقولون مثلًا: «سميعٌ بلا سمع، بصيرٌ بلا بصر، عليمٌ بلا علم»، كيف يكون؟! فإذا جاء من يقول لهم: «إن الله سميع يسمع حقيقةً، وعليم يعلم»، قالوا: هذا مُشَبِّهٌ، ولهذا جعلوا من مسمى التوحيد عندهم «نفي الصفات»، فنفي الصفات عندهم هو التوحيد، وهذا عكس الحق.

ـ كذلك الأشاعرة عندهم يُثبِتون سبعَ صفاتٍ، وما عداها يقولون: «يجب أن يُؤَوَّل أو يفوَّض»، فإذا جاء من يُثبِت مثلًا اليدَين والوجه والرجلين والاستواء والعلو، قالوا: هذا مُشَبِّهٌ، وهكذا.

فلما كان هذا موجودا في هذه الكلمة، اجتنبه المؤلف رَحِمَهُ اللهُ، فجاء بكلام لا دخلَ لأحد فيه، ولهذا قال: «**وَلَا تَمْثِيلٍ**»؛ لأنه ما مِن أحدٍ يقول: إنه إذا قال: «**وَلَا تَمْثِيلٍ**» أن هذا فيه محظور أو أنه التباسٌ، فالتَّمثيل هو أن يكون له مثيلٌ ـ تعالى الله وتقدس ـ؛ فلا مثيل له؛ لا في ذاته، ولا في أوصافه، ولا حتى في أفعاله ـ تعالى وتقدس ـ، ولا في حَقِّه.

والله ﷻ لا مثيل له في ذاته، وهذا أمرٌ متَّفَقٌ عليه، لا يختلف فيه أحد حتى المعتزلة، ولا مثيلَ له في أوصافِه، ولا مثيل له في أفعاله، وهذا يأْبَوْنه؛ لأنهم أصحاب أقيسةٍ، وهم يشبِّهون أفعال الرب ﷻ بأفعال المخلوق، تعالى الله وتقدس، ولا مثيل له في حقه، الحق الذي أحقَّه على عباده يجب أن يكون له وحدَه فقط، فإن جُعل لأحدٍ منه شيءٌ من المخلوقين فهو الشرك الذي أخبر ﷻ بأنه لا يغفره، فهو لا مثيل له في هذه الأمور ـ تعالى وتقدس ـ.

والله ليس له مثيلٌ؛ لا في ذاتِه، ولا في صفاتِه، ولا في أفعاله، ولا في حَقِّه أيضًا، وهذه أربعة أمور يجب أن تكون خالصة لله ﷻ:

أمَّا الأول فهو متَّفَقٌ عليه، ولم يخالف فيه أحَدٌ، فلا مِثْلَ له في ذاته، فإذا كان كذلك؛ فيجب أن يكون أصلًا، وعليه يَلزَمُ أنه لا مثيل له في صفاته وفي أفعاله أيضًا، فأفعاله لا مثيل لها؛ **مثال ذلك**: كثرة الذاكرين اللهَ تعالى، فكلُّهم يستمع الله إليهم في آنٍ واحدٍ، لا يشغله سماعُه لهذا عن سماعِه لهذا، فهل يوجد شيء من الخلق يستطيع مثل هذا؟!

فنقول: لا مثيل له في أفعاله، وعلى هذا فتكون أفعاله كلها على هذا المنوال، كما أنه لا مثيل له ﷻ في وصفه، وكذلك في ذاته التي اتفق عليه.

ولا مثيل له أيضًا في حقه ـ وهو العبادة ـ، فلا يمكن أن يكون له مثيل يُعبَدُ، قال الله ﷻ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٢٢﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فأخبر أنه ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ﴾ يعني: في السماء والأرض ﴿ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾، فلا يمكن أن تستقيم، فلا بُدَّ أن يكون هو المعبود وحدَه.

قوله: «**وَمِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ**». «التَّحريف» مأخوذ من الحَرْف، وهو أن يُجعل الكلام على جانب من المعنى الذي أراده المتكلم، والتحريف يكون بالألفاظ، ويكون بالمعاني.

ولكن تحريف الألفاظ قليلٌ؛ لأن الله ﷻ تولى حفظ كتابه فما استطاعوا أن يحرِّفوه مع أنهم حاولوا:

- ففي زمن المأمون لما كان السيطرة، والقضاء، والتعليم، والاستشارة عند المأمون لأهل البدع - للمعتزلة -، كتبوا على ستار الكعبة: «ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم»[1]، تركوا السَّميع البصير؛ لأنهم يقولون: «السمع والبصر يدلُّ على التشبيه»، ولكن لم يَدُم هذا الباطل، بل بقي فترة ثم أزيل وأصبح رسمًا بعد أن كان عينًا، لأنه باطل.

- وجاء أحدهم إلى أحد القراء الكبار فقال: «أريد أن تقرأ قوله ﷻ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾» يجعل المكلِّم هو موسى فقال: «هب أني قرأتُ كما تريد، كيف تصنع بقوله ﷻ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾» [الأعراف: ١٤٣]؟! فبُهِت. **فالمقصود**: أنهم حاولوا أن يحرفوا الكلام - الألفاظ -، ولكن ما استطاعوا.

- وكثيرٌ منهم يقول: «لو استطعت أن أحُكَّ قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾ [طه: ٥]، من المصحف لحكَكْتُه».

ولهذا تسلَّطوا على تحريف المعاني، فقالوا: «الاستواء: الاستيلاء»، وقالوا: «العلم: القدرة»، وقالوا: «الرحمة هي: النعمة أو الإنعام، والغضب: العذاب»، وهكذا.

وهذا كثيرٌ جدًّا؛ تحريفٌ لأوصاف الله ﷻ، لهذا قال: «**وَمِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ**»؛ فـ «التحريف» يعني: صرفُ اللفظ وتحريفه عما أراد به المتكلم، بأن يجعله على غيرِ قصْدِ المتكلم.

فالواجب: أننا نتعرَّف على مقصود المتكلم، ثم نؤمن به على مرادِه هو، وليس على مرادِنا نحن، وهو ما يفعله أهلُ التأويل، فهم يصرفون الكلامَ عن مراد المتكلم إلى معنًى بعيدٍ غير مرادٍ!

قوله: «**وَلَا تَعْطِيلٍ**». «التعطيل»: أن يُعَطِّلَه عما أُرِيد به، فيعطِّل المعاني، أو يعطل الرَّبَّ ﷻ عما أراده من خلقه، ومن أمره. فـ «التعطيلُ» مأخوذ من العطل وهو الخلو، يقال: جِيدٌ عاطِلٌ، والجِيدُ: الرقبة، وعاطِلٌ يعني: ليس فيها حُلِيٌّ، كما

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (ص٩٦).

قال ﷻ في الهالكة امرأة أبي لهب: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ [المسد: ٥]، وهذا معروفٌ في كلام العرب، والله ﷻ يقول: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ۝٤٥﴾ [الحج: ٤٥]، معطَّلة عن العمل ما فيها ما يستخرج الماء ويعمل فيها، عُطِّلت لأن أهلها أُهلِكوا.

وتعطيلُ الكلام: إخلاؤه من المعنى الذي أراده المتكلِّمُ، فأهل السنة يُنزِّهون ربهم ﷻ عن هذه الأمور، عن التكييف، والتمثيل، والتحريف، والتعطيل، فهذه أمورٌ واقعةٌ في كثيرٍ من الناس، ولهذا نصَّ عليها المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قوله: «وَكَذَلِكَ يَنْفُونَ عَنْهُ مَا نَفَاهُ عَنْ نَفْسِهِ...»؛ اتِّباعًا لما جاء به الرسول ﷺ.

ولكن النَّفيَ يجِبُ أن يُرادُ به إثباتُ كمال ضِدِّه، والله ﷻ يقول: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٤٦﴾ [فصلت: ٤٦] نَفى الظُّلْمَ، وفي نَفْيِ الظُّلم إثباتُ كمال عدْلِه - تعالى وتقدس -، وكذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝٣٨﴾ [ق: ٣٨]، واللُّغوب هو التعب والإعياء، ففي نفي اللُّغوب إثبات كمال القدرة أنه على كلِّ شيء قدير، لا يُعجِزُه شيء؛ وهكذا في جميع النفي الذي جاء في القرآن.

أمَّا أن يأتي نفيٌ خالِصٌ محضٌ في أوصاف الله فهذا لا يكون؛ لأن النفي الخالص يدلُّ على الخُلُوِّ فقط والعدم، وهذا ليس فيه كمالٌ، وكلُّ ما يضاف إلى الله من الإثبات والنفي يجب أن يكون متضمِّنًا للكمال، والنفي الخالِصُ لا كمالَ فيه ولا مدح.

قوله: «مَعَ إِثْبَاتِ مَا أَثْبَتَهُ مِنَ الصِّفَاتِ...». إنَّ النفي لا بُدَّ أن يتضمن الوصف الذي يضاف إلى الله، وإلا لا يدخل في أسماء الله وصفاته، ولا بُدَّ من الجمع بين الإثبات والنفي، ولكن باتباع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. وهذا الأمرُ لا يدخل فيه اجتهادٌ ولا دخلَ للعقول فيه نفيًا أو إثباتًا، ولهذا يقولُ أهلُ السُّنَّة: «أسماء الله وصفاته توقيفيةٌ، وكذلك شرعُه توقيفيٌّ»، يعني: العبادة توقيفية، ومعنى «توقيفي»: يجب أن تَقِفَ مع النص ولا تتعدَّاه.

قوله: «مِنْ غَيْرِ إِلْحَادٍ فِي أَسْمَائِهِ...». «الإلحاد» مأخوذٌ من الميل والعدول، ولهذا يُسمى اللَّحد في القبر؛ لأنه يميل إلى جهة القبلة عن سَمْتِ الحفرة، فسُمِّي لحدًا؛ حيث مال عن القصد.

والإلحاد في الأسماء: هو أن تُصرَف عن المراد الذي أراده الله ﷻ، والتأويل يدخل في الأحكام ويدخل في الأخبار.

قوله: «**وَلَا فِي آيَاتِهِ**». آياتُه ﷻ يدخل فيها الآيات القولِيَّة والخَلْقِيَّة، يعني: هذا يدخل فيه الآيات الخلقية، والآيات الأمرِيَّة، والآيات الكونِيَّة؛ ومعنى ذلك: أنه يجعلها غير دالَّةٍ على مراد الله ﷻ.

والإلحاد في صفات الله أنواع:

منها: التعطيل.

ومنها: التشبيه؛ وكلاهما إلحاد.

ومنها: أن يُشتَقَّ لأسماء المعبودات اسمٌ من اسمِه؛ كما قالوا: «اللَّات والعُزَّى»، فهذا إلحاد، وكذلك سَمَّوا الأصنام آلهة؛ فهو إلحادٌ.

ومنها: أن يوصف بما يتقدس عنه ويتعالى، كما قال شَرُّ اليهود: «إنه فقير» وقالوا: «يده مغلولة»؛ فهذا من الإلحاد.

ومنها: أن يُسمى بما يتعالى ويتقدَّس منه، كما سَمَّوْه أبًا، أو الفلاسفة يسمونه «عِلَّة مُوجبة» وما أشبه ذلك؛ فهذا من الإلحاد، أن يُدخَل في أسمائه ما ليس منها، كما وصفوه بالعجز أو بالتعب بالإعياء.

فإذًا: الإلحاد خمسة أقسام:

- إما تعطيل.
- وإما تشبيه.
- وإما أن يُشتق لأسماء المخلوقات من اسمه.
- وإما أن يوصف بما يتعالى عنه ويتقدس.
- وإما أن يُدخل في أسمائه ما ليس منها.

أما الإلحاد في آياته بأن تُخرَج عن مُراده الذي أراده، بتأويلها وتحريفها عن مُراد المتكلم، فلا يجوز أن يُلحَد في أسمائه، وكذلك آياته؛ آيات الله ﷻ القولية، وكذلك الفعليَّة، لا يجوز ذلك، وهذا فعل أكثر أهل البدع، ألحدوا في أسمائه، وفي صفاته، وقد توعدهم الله ﷻ.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٨٠﴾، **وَقَالَ تَعَالَى**: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ﴾، توعَّد الله الفريقين ـ الذين أَلْحَدُوا في أسمائه وصفاته، والذين ألحدوا في آياته ـ في هاتين الآيتين:

قال الله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، فبدأ بأنَّ الأسماء لله ﷻ؛ وهذا معناه أن الأسماء تكون دالة على المسمى.

قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، ﴿وَلِلَّهِ﴾؛ أي: أن الاسم للمسمى، ولا يقال: الاسم غير المسمى أو الاسم هو المسمى كما يقوله كثيرٌ من الناس. هذه مسألةٌ أيضًا من المسائل التي وقع الخلاف فيها، فقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ﴾ نقول إذًا؛ الأسماء للمسمى، والمسمى هو الذات التي قامت، سميت بهذه الأسماء.

قوله: ﴿ٱلْأَسْمَآءُ﴾ يَدُلُّ على الكثرة، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ﴾، يعني: أنها كثيرة، وقد عُلم أن لله مائة اسم إلا واحدًا، ذُكرت في القرآن، كما قال الرسول ﷺ: «**إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ**»(١)، وهذا لا يدل على الحصر فأسماء الله لا حصر لها:

- وقد جاء عنه ﷺ أنه قال: «**ما أصَابَ أحدًا قطُّ هَمٌّ ولا حزَنٌ، فقالَ: اللهُمَّ إنِّي عبدُكَ، ابنُ عبدِكَ، ابنُ أَمَتِكَ، ناصِيَتِي بِيدِكَ، ماضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عدلٌ فيَّ قضاؤُكَ، أسألُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هو لَكَ سمَّيتَ بِهِ نَفسَكَ، أو علَّمْتَهُ أحدًا مِنْ خلقِكَ، أو أنزَلْتَهُ في كِتابِكَ، أوِ استأْثَرْتَ بِهِ في عِلْمِ الغَيبِ عِندَكَ، أنْ تَجعَلَ القُرآنَ رَبِيعَ قَلبِي، ونُورَ صَدرِي، وجِلاءَ حُزنِي، وذهَابَ هَمِّي، إلَّا أذهَبَ اللهُ همَّهُ وحُزْنَهُ، وأبدلَهُ مكَانَهُ فَرَحًا**»، **قالَ: فقِيلَ: يا رَسُولَ اللهِ، ألا نَتَعلَّمُهَا؟ فقالَ: «بَلَى، يَنبغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أنْ يَتعلَّمَهَا»**(٢).

فقَسم الأسماء هنا إلى ثلاثة:

قسمٌ أنزله في كتابه؛ والمقصود بالكتاب هنا جنس الكتاب.

وقسم علَّمه من يشاء من عباده؛ لم ينزله في الكتاب.

وقسم استأثر به في علم الغيب عنده؛ لم ينزله ولم يعْلمه أحدٌ، فدَلَّ على كثرة أسماء الله، وأنَّها كثيرة جدًّا.

- ومن ذلك قوله ﷺ: «**لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**»(٣)، الثناء يكون بالأسماء الحسنى والصفات العليا.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب: «إن لله مائة اسم إلا واحدًا»، (٩/١١٨) برقم (٧٣٩٢)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦/٢٤٦) برقم (٣٧١٢)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، (١/٣٥٢) برقم (٤٨٦)، =

ـ وقال في حديث الشفاعة: «**ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ، وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ لِأَحَدٍ قَبْلِي**»[1]؛ أي: في ذلك الموقف.

ـ وجاء في قصة سليمان عليه السلام؛ في قصة الهدهد: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠]، فشاهده في لحظة، هذا الذي عنده علم الكتاب يقولون عنه: هو الذي يَعرِف اسم الله الأعظم، دعا ربَّه باسمه الأعظم، فحضر في لحظة، وهذا أيضًا يدُلُّ على أن بعض عباد الله يُعَلِّمه الله شيئًا قد لا يعلمه نبيٌّ، فسليمان ما عرف هذا.

فالمقصود: أن لله الأسماء الحسنى، وأسماء الله ﷻ كثيرةٌ جدًّا.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]؛ فجعلها حُسنَى، والحسنى هي التي لا يتطرَّق إليها نقصٌ ولا عيبٌ. وهي التي بلغت الغاية في الحسن، فأصبحت خالية من أي نقصٍ أو عيبٍ، والله لا يوصف إلا بالكمال.

فقوله: ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ يدُلُّنا على أن أسماء الله ﷻ لا يدخل فيها الحَسَنُ، ولا الذي يَحتَمِلُ حُسْنًا وغيرَ حُسْنٍ، بل كلُّها خالِصَةٌ حُسنَى، يعني: بلغت النِّهاية في الحسن؛ أما شيء يحتمل فيه، فلا يدخل في أسمائه ﷻ.

قوله: ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾، يعني: اعبدوه بأسمائه، تقول إذا أردت أن تطلب رزقًا: «يا رزاق ارزقني، يا رحيم ارحمني»، وهكذا، تدعوه بأسمائه ﷻ حسب ما أمر الله به، وهذا عبادة، بل هذا من أفضل العبادة.

قوله: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠]؛ فكلمة ﴿وَذَرُوا۟﴾ هذا تهديدٌ ووعيدٌ، لا تهتموا بهم، يعني: دعهم بما هم فيه، فسوف يَلْقَوْن جزاءهم، فأَمْرُهم إلى الله سوف يتولَّى عذابهم ولن يَفْلِتُوا منه ﷻ؛ حيث إن مصيرهم إليه؛ جزاؤهم أمامهم، وسوف يتولَّى الله جزاءهم، وهذا وعيدٌ شديدٌ للمُلحِدِين في أسمائه؛ ولهذا قال: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾، والسين للاستقبال؛ أي: في مستقبلهم، وهذا يدخل فيه ما يلاقونه في الدنيا، وما يكون في الآخرة وهو أشدُّ وأنكى.

= عن أبي هريرة، عن عائشة رضي الله عنهما.

(١) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء: ٣] (٦/ ٨٤) برقم (٤٧١٢)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب «أدنى أهل الجنة منزلة فيها»، (١/ ١٨٤) برقم (١٩٤)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال تعالى: ـ في الملحد في الآيات ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾، يعني: يَصْرِفُونها عن مرادِنا، وعمَّا قصدنا، وهذا أعمُّ من الأول.

فالإلحاد في الآيات يدخل فيه الإلحاد في أحكامه، وآياته التي هي الأوامر والنواهي، وآياته التي هي أيضًا دلائل عليه، وآياته القولية، ويدخل فيها أسماؤه ﷻ. وهذه الآية فيها وعيد شديد، والآيات يدخل فيها الآيات الأَمْرِيَّة والخَلْقِية والخبريَّة التي هي صفاته ﷻ.

قوله: ﴿لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ﴾؛ هذا وعيدٌ وتهديدٌ، والله لا يخفى عليه شيء، فالله علَّام الغيوب؛ يعلم ما يفعلون، وما يدور في قلوبهم، وما يقولونه ويعملونه في جوارِحهم، أي: أنه ﷻ محيطٌ بهم وبكلامِهِم وأعمالهم، فهي محفوظةٌ لدَيه، وأنه ﷻ لا يخفَى عليه شيء، وأنه يُمهِلُهُم ولكن غير مُهمَلِين، سوف يلقون جزاءهم؛ غير أن الدنيا ليست محلًّا لعقاب الملحد والمجرم؛ لأنها لا تساوي شيئًا؛ لأنه إذا عوقب فيها مات وانتهت الدُّنيا، فتنتهي بالموت، ولهذا يُترَك عذابهم ليومٍ لا نهاية له، ولا يموتُ ولا يحيا، فالعذابُ الشديدُ ينتظرهم ـ نسأل الله العافية ـ.

قوله: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾، بيَّن الفرق العظيم بين مَن يُلحِدُ في آياته وبيَّن من يؤمن بها ويَتبعها، يعني: لا يستوي هذا مع ذاك، هذا أيضًا فيه الخبر على أن من يلحد في آياته أنه مستحِقٌّ للنار أو يُلقَى فيها، فهل يستوي هو ومَن آمن بآياته واتَّبعها، وامتثل أمرَ ربِّه، فإنه يأتي يوم القيامة آمنًا.

ومعنى ذلك: أن من يفعل هذه الأفعال فإنه يكون من أهل النار، هؤلاء سيُلقون في النار، بخلاف الذين امتثلوا أمْرَ الله ﷻ ولم يُلحدوا في آياته.

قوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ هذا تهديد، يسميه أهل التفسير وأهل البلاغة أمرَ تهديدٍ؛ وهو ليس أمرًا لامتثال ذلك؛ بل هو أمرٌ للتهديد وليس للتخيير.

يقول: «قد تبين لك الأمر وسوف تلقى جزاءك»، وهذا تهديدٌ، فالعمل سيكون في وقت مؤجل وقريب ثم ينتهي، ثم مرجعكم إلى الله فتلقون جزاءكم. وقد عُلم من طريقة العرب أنهم يُطلِقون الأمر على التهديد كما في هذه الآية: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤٠﴾، ﴿بَصِيرٌ﴾ بما تقولونه وما تعملونه، و﴿بَصِيرٌ﴾ على وزن فعيل، ففيه المبالغة في بَصَرِه؛ أي: أنه لا يخفى عليه ﷻ عملكم، فأنتم سوف تجازون به.

قال رحمه الله تعالى:

«فَطَرِيقَتُهُمْ تَتَضَمَّنُ إِثْبَاتَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، مَعَ نَفْيِ مُمَاثَلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ، إِثْبَاتًا بِلَا تَشْبِيهٍ، وَتَنْزِيهًا بِلَا تَعْطِيلٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]، فَفِي قَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾؛ رَدٌّ لِلتَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾؛ رَدٌّ لِلْإِلْحَادِ وَالتَّعْطِيلِ».

الشَّرح

قوله: «**فَطَرِيقَتُهُمْ تَتَضَمَّنُ إِثْبَاتَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، مَعَ نَفْيِ مُمَاثَلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ، إِثْبَاتًا بِلَا تَشْبِيهٍ...**». «**فَطَرِيقَتُهُمْ**»، يعني: أهل السنة، **وقوله**: «**تَتَضَمَّنُ إِثْبَاتَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ...**»؛ عطف الصفات على الأسماء، وقد تُطلَق الصفات ويُراد بها أيضًا الأفعال، لقوله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٣]، فالخلق والفعل الذي يفعله يكون من صفاته ﷻ؛ لأنه خاص به.

الفرق بين الأسماء والصفات: أنَّ «الأسماء» تدلُّ على ذات المسمى، و«الصفات»: هي المعاني التي تقوم بالمسمى.

فمثلًا «الرحمن» اسم الله والرحمة صفته، و«العزيز» اسم الله والعزة صفته، فالعزة تقوم به ﷻ وكذلك الرحمن. أمَّا «الرحمن» و«العزيز» فهو يدل على المسمى - تعالى وتقدس -.

قوله: «**...مَعَ نَفْيِ مُمَاثَلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ**»، يعني: قبولها مع نفي مماثلة المخلوقات له، والله ﷻ يوصف بما وصف به نفسه إثباتًا، وكذلك يوصف بالنفي، وكلاهما يجب أن يكون - الإثبات والنفي - قد جاء بالنص؛ لأن العقول لا دخلَ لها في هذا.

ولهذا يقول: «**إِثْبَاتًا بِلَا تَشْبِيهٍ**»، يعني: أن صفاته ﷻ تخصُّه فلا يشبهه شيءٌ من خلقه؛ تثبت صفاته كما أثبت لنفسه ﷻ مع اعتقاد ما يليق بعظمته - تعالى وتقدس -، وأسماؤه وصفاته لا تشبه أسماء المخلوقين ولا صفاتهم.

و«**التشبيه**»: أن يجعل له شبيه من مخلوقاته؛ كأن يقال: عينه كعين الإنسان،

أو يَدُه كَيَدِ الإنسان، أو ما أشبه ذلك؛ هذا هو التشبيه. أمَّا إثبات الصفات فليس تشبيهًا، بل هو مما يجب أن يتبع، وهو داخِلٌ في الإيمان بالله، ومن لم يؤمن بذلك فإن إيمانه غير صحيح.

قوله: «وَتَنْزِيهًا بِلَا تَعْطِيلٍ»، يعني: نفيًا يتضمن الكمال، وقد تقدم أن النفي لا يكون نفيًا محضًا في حق الله، ولا بُدَّ أنه يتضمن إثبات كمال الضد، والتنزيه: هو النفي.

قوله: «بِلَا تَعْطِيلٍ»، يعني: أن النفي لا يتضمن نفي ما أثبته الله ﷻ، والتعطيل ـ كما سبق ـ مأخوذٌ من العَطَل؛ وهو الخلوُّ من الشيء، ومعناه: أنَّ أوصافَه وصفاتِه يجب أن تثبت كما أثبتها ﷻ لنفسه، وأثبتها له رسول ﷺ.

قوله: «كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾».

قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾؛ ﴿لَيْسَ﴾ معروفة أنها موضوعة للنفي، ولكن الكاف في ﴿كَمِثْلِهِۦ﴾، كأن المعنى فيه أنه نفيُ مماثلة المثل، والله لا مِثْلَ له.

ـ **ولكن أكثر المفسرين يقولون**: أنَّ الكاف صلةٌ زائدةٌ، يعني: ليس مثلَه شيءٌ، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾، وهذا الذي قاله أكثر المفسرين، ولكن ليس معنى أنها زائدةٌ لا معنى لها أصلًا؛ لأنَّ الحروف الزائدة يؤتى بها لتقوية المعنى وتثبيته، فهي كذلك للتقوية والتثبيت.

ـ **والقول الثاني**: أنها على بابها ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، يعني: ليس كمثله مثلٌ، لو قُدِّر أن له مثيلًا فليس لذلك المثيلِ مثيلٌ.

والقول الأول أصحُّ وأولى.

والله ﷻ نفى المماثلة في كلِّ ما هو من خصائصه ﷻ، والتي هي من خصائص أسمائه وصفاته وأفعاله، وقد ضَلَّ في هذا من ضلَّ، فجعلوا أفعاله كأفعال المخلوقين ـ تعالى الله وتقدس ـ ولا سيما المعتزلة:

فإنهم يقيسون أفعال الرب ﷻ على أفعال عباده، فضَلُّوا في هذا؛ ولهذا نَفَوْا وجود الجنة والنار من أجل ذلك.

قالوا: «لا يحصل من المخلوق العاقل أن يبنِيَ بيتًا ويزوِّقَه ويُودِعَه ما يحتاج إليه من مأكولٍ، ومشروبٍ، وملبوسٍ، ومفروشٍ ثم يُغلِقه فإن هذا عبثٌ».

وقالوا: «كذلك الجنة ما دام أنها ما جاء وقت سكناها فليست موجودة، وإنما

سيخلقها فيما بعد»؛ فهذا من التشبيه، مع أنهم يزعمون أنهم هم المنزِّهة، والواقع أنَّ كلَّ من نفى عن الله شيئا مما وصف به نفسه فإنه يقع في التشبيه. فوقعوا فيما فروا منه.

قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾. هذا نفي؛ ينفي أن يكون مماثلًا له شيء من المخلوقات، سواءٌ في الذات، أو الصفات التي تكون من خصائصه ومن أوصافه.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾. إثباتٌ لما يُتَّصَفُ به، والسِّرُّ - والله أعلم - في ختم هذه الآية بالسمع والبصر؛ لأن السمع والبصر يُوصَف به المخلوق؛ فكأنه ﷻ يقول: لا يحملكم قولي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ على أن تَنْفُوا ما أثبتُّه لنفسي من السمع والبصر الذي تتَّصِفُون به، فإن قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾؛ يبين أن سمعه وبصره خاص به، لا يشاركه فيه المخلوق الذي يوصف بسمع وبصر.

و«**التشبيه**» كَثُر ذكرُه في كلام المتكلمين؛ مع أنه لم يأتِ شيء منه في كتاب الله، أو في أحاديث رسوله ﷺ - وإنما نفى المماثلة؛ أن يكون له مثلٌ، وكذلك النِّدُّ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، والسَّمِي ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥]، والكفؤ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ٤]؛ لأن التشبيه فيه اشتباهٌ، فقد يريد النافي أمرًا ثابتًا لله فيزعم أنه تشبيه فينفيه.

ولهذا لما ابتُلي الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ بفتنة المعتزلة - كما سبق -، صاروا يُرغِمون الناس على القول بخلق القرآن، ومن لم يقُلْ من العلماء بذلك قتَلُوه، كانوا يضربونه ويقولون: لا نتركك حتى تقول: «إن الله لا شبيه له بوجه من الوجوه»، فأبى أن يقول ذلك؛ لأنه يعرف أنهم يقصدون بذلك نفي الصفات، أنه لا يكون له وجهٌ، ولا يكون له يَدَان، ولا يكون له عينان، ولا يكون له سمعٌ ولا بصرٌ، ولا رحمةٌ، ولا رِضًا، ولا غضبٌ، فهُمْ يُدخلون هذا في «التشبيه»، فيقولون: «من أثبت الصفات فقد شبَّه»، ويجعلون إثباتها شركًا؛ لهذا يُسَمُّون من يثبت الصفات مُشْرِكًا، وعندهم أن إثبات الصفات يقتضي تعدُّد الآلهة، ويقولون: تعدُّد القدماء؛ وكلُّ هذا من ضلالهم البيِّن الذي اتبعوا فيه اليونان، والصابئة، وغيرهم.

فالواجب على المسلم أن يتبع كتاب الله وما جاء عن رسوله ﷺ من إثبات ما أثبته الله ﷻ لنفسه، وأثبته له رسوله ﷺ، والله - تعالى - غيبٌ لم يطلع عليه أحد فيُشاهِده، وليس له مثيلٌ فيقاس عليه؛ ولهذا تعرَّف إلى عباده بأسمائه وأوصافه، وكذلك أفعاله ومخلوقاته التي جعلها دليلًا على وجوب عبادته.

وطريقة السَّلَف تتضمَّن إثبات الأسماء والصفات مع نفي مماثلة المخلوقات في أسمائه وصفاته، فهو ﷻ لا شبيه له ولا نظير له، بل يُثبَت ما أثبته لنفسه بلا تعطيلٍ للمعاني التي دلَّ عليها الكلام، كما قال ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى: ١١]، فنفى المماثلةَ وأثبت له السمعَ والبصرَ، فهذه الآية يجب أن تكون دليلًا يترسَّم به السالك في توحيد ربه ﷻ كثيرًا.

قوله: «**ففي قوله**: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، **رَدٌّ لِلتَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ**»، يعني: عطف «التمثيل» على «التشبيه» مما يدلُّ على أنهما متقاربان أو متماثِلان، يعني: التشبيه والتمثيل.

قوله: «﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾، **رَدٌّ لِلْإِلْحَادِ وَالتَّعْطِيلِ**». ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ إثباتٌ للأسماء والصفات، وردٌّ للتأويل والتعطيل والإلحاد. «الإلحاد» يعني: التأويل الباطل الذي يسلُكه أهل الباطل، والإلحاد: النفي ـ الذي هو تعطيلٌ للمعاني ـ، والإثبات يأتي مفصلًا، و«المفصل» معناه أنه كل صفة تُثبَت وحدَها، وكلَّ اسمٍ يُثبَت وحدَه؛ كما في هذه الآية: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾، والآيات كثيرة في هذا.

الإثبات المفصّل: أن تثبت كلَّ صفةٍ على حِدَة، كما قال ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى: ١١]؛ فأثبت السمع والبصر، وأثبت الرضا، وأثبت الغضب، وأثبت الرحمة، وأثبت المعِيَّة، وأثبت العُلُوَّ والاستواء وغير ذلك؛ كلُّ صفةٍ ينصُّ عليها يُثبِتُها لنفسه. أمَّا النفي فيأتي مجملًا، والإجمالُ فيه الكمال.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ إثباتٌ للسمع والبصر، و«السمع» فيه إدراك المسموعات وإن دَقَّت، و«البصر» فيه إدراك المبصرات.

يقول بعض العلماء: إنَّ ختم هذه الآية بهذين الاسمين ـ ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ ـ يدلُّ على وجوب إثبات الأسماء والصفات...؛ كأن الله ﷻ يقول لنا: لا يحملكم قولي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ أن تَنْفُوا عني ما وصفْتُ به نفسي...، فَذَكَرَ الشيء الذي يتَّصِف به المخلوق وهو السمع والبصر، حتى لا يتوهَّم متوهِّمٌ أن موافقة الاسم للاسم يدلُّ على النفي، أو أنه يقتضي المشابهة ـ تعالى الله وتقدس ـ.

فإذا أضيف السمع والبصر إلى مخلوق فهو يليق بالمخلوق لضعفه، والله لا يشاركه فيه، وإذا أضيف إلى رب العالمين فهو يخصُّه، والمخلوق لا يشارِكُه، لهذا

قال: «**ففي قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ رد للتشبيه والتمثيل**»؛ لأنه نفي، وهذا النفي ليس المقصود به مجرد النفي، وإنما قُصِد به نفي المشابهة والمماثلة، وإثبات الكمال، ولهذا جاء بعده الإثبات، وهذه القاعدة مضطردة في أسماء الله ﷻ كلِّها.

فيؤخذ من هذا قاعدتان:

القاعدة الأولى: أنَّ النفي لا يأتي في أوصاف الله نفيًا محضًا، ليس فيه إثباتٌ.

القاعدة الثانية: أنَّ النفي يأتي مجملًا والإثبات يأتي مفصَّلًا، وهذا في الغالب، وهو أكثر ما جاء في كتاب الله ﷻ.

وذلك أن النفي في الإجمال يكون أحسن، وأكثر معنى، وأبعد عن المشابهة؛ والتفصيل لا يأتي إلا إذا اقتضى ذلك سببًا مثل الشيء الذي أثبته الكفار؛ مثل الولد، والصاحبة، والعَجْز، واللُّغوب، والبخل؛ نفاه ربنا ﷻ، أما أن يُنَصَّ على شيء لم يأتِ له سببٌ من المنفيَّات فهذا لا يأتي، وإنما يأتي مجمَلًا.

الإلحاد ـ سبق تعريفُه أنه ـ: مأخوذٌ من الميْل والعُدُول عن السَّمْت المقصود، والإلحاد الذي قاله أهل الإلحاد أنواعٌ:

منها: الكفر، كقوله ﷻ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠]، فهذا من الإلحاد في أسمائه.

ومنها: وصفه بما يتقدس ويتعالى؛ كقول أخبث اليهود: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقولهم: «إنَّ الله تَعِب لمَّا خلق السماوات والأرض فاستراح»، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق: ٣٨]، فهذا إلحادٌ وكفرٌ بالله ﷻ وبأسمائه وصفاته.

ومن الإلحاد: الشِّرك؛ كونه يشرك بالله ﷻ.

ومن الإلحاد: اشتقاق أسماءٍ لمخلوقاتٍ من أسمائه كقولهم: «الإله» للصنم والمعبود، وقولهم: «الآلهة»، هذا إلحادٌ في أسماء الله ﷻ؛ لأن الإله يجب أن يكون خاصًا بالله فقط، ولهذا جاءت الكلمة التي هي أصل الإسلام «لا إله إلا الله»؛ فقوله: «لا إله»؛ نفيٌ لكلِّ مألوهٍ في الكون كلِّه، وقوله: «إلا الله» إثبات للإلهية لله ﷻ وحدَه، وهذا الذي يجب أن يُفهم من الكلمة، يُعلم حتى يُعمل بها، يفهم معناها ويعمل بها.

أما «التعطيل» - فسبق أيضًا تعريفه بأنه -: مأخوذ من الخُلُوِّ والفراغ، يعني: كونه أخلا الكلام عن معناه المراد، وهذا مَسْلَك المتكلمين، عطلوا الله؛ سواءٌ كانوا مُؤوِّلة أو مُعطِّلة مُبطِلة، فكلُّهم وقعوا في التعطيل؛ لأن المؤولة عيّنوا معنى ليس هو المعنى الذي أراده الله، فعطلوا معنى الكلام عن المعنى الحق المراد منه، فصاروا من المعطِّلة.

والتعطيل نوعان:

النوع الأول: تعطيلٌ لله ﷻ عما يستحِقُّه ويستوجِبُه.

النوع الثاني: تعطيلٌ للمخلوق عن خالقه ومُوجِدِه.

وكلا الأمرين موجودٌ في الناس.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

۞ «وَاللهُ سُبْحَانَهُ بَعَثَ رُسُلَهُ بِإِثْبَاتِ مُفَصَّلٍ وَنَفْيٍ مُجْمَلٍ، فَأَثْبَتُوا لِلَّهِ الصِّفَاتِ عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ، وَنَفَوْا عَنْهُ مَا لَا يَصْلُحُ لَهُ مِنَ التَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥]، قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ أَيْ نَظِيرًا يَسْتَحِقُّ مِثْلَ اسْمِهِ، وَيُقَالُ: مُسَامِيًا يُسَامِيهِ، وَهَذَا مَعْنَى مَا يُرْوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا مِثْلًا أَوْ شَبِيهًا.

۞ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ٣ ـ ٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام: ١٠٠ ـ ١٠١]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان: ١ ـ ٢].

۞ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات ١٤٩ ـ ١٨٢].

ﷻ فَسَبَّحَ نَفْسَهُ عَمَّا يَصِفُهُ الْمُفْتَرُونَ الْمُشْرِكُونَ، وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، لِسَلَامَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ الْإِفْكِ وَالشِّرْكِ، وَحَمِدَ نَفْسَهُ؛ إِذْ هُوَ سُبْحَانَهُ الْمُسْتَحِقُّ لِلْحَمْدِ بِمَا لَهُ مِن الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَبَدِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ».

الشَّرح

قوله: «وَاللهُ سُبْحَانَهُ بَعَثَ رُسُلَهُ بِإِثْبَاتٍ مُفَصَّلٍ وَنَفْيٍ مُجْمَلٍ». يعني: أنه يُوصَف بكلِّ صفة يأتي لها خبر يقولها ﷻ، وهذا التفصيل. وأما النفي فمجمل؛ لأن الإجمال في النفي هو الكمال وفيه الأدب، بخلاف التفصيل؛ فالتفصيل فيه إساءة أدب وفيه نقصٌ.

وهذا حتى في المخلوق، فلو قابل إنسانٌ أميرًا فقال له: «أنت لست كالحجام، ولست كالحلَّاق، ولست كالكنَّاس، ولست كالخباز، ولست كذا وكذا»؛ فإن في هذا إساءة أدبٍ، بخلاف ما لو قال: «أنت لستَ كأحد من شعبك»، فهذا فيه الإجمال، وفيه الأدب.

أما إذا قال: «أنت لست كالكنَّاس، ولا الحجَّام، ولا الغسَّال، ولا كذا وكذا؟!». فإننا نقول: هذا من إساءة الأدب؛ بخلاف ما إذا قال: «إنك لست كأحد من شعبك»، فهذا إجمال وأدب، فالله ﷻ له المثل الأعلى، مع أنَّ هذا لا يكفي، نقول: إن الله لا يجوز أن يوصف نفيًا إلا بما أثبت لنفسه، أو أثبته له رسوله ﷺ.

فالذي يأتي بأمورٍ لم تأت في كتاب الله ولا سنة رسوله، نقولُ: هذه بدعٌ يجب أن تُرَدَّ، غيرَ أنه إذا جاء بشيء مجملٍ؛ يجب أن يُستفصلَ منه، لئلا يُرَدَّ معنًى صحيحا؛ فإن تبين أنه يريد حقًّا قُبِل الحقُّ ورُدَّ الباطل.

فأهل السنة ـ الذين اتبعوا السلف ـ أثبتوا له الصفات على وجه التفصيل، يعني: اتباعًا للكتاب الذي أنزله الله على رسوله ﷺ، وفيه التفصيل في الإثبات.

أما المتكلمون فعكسوا هذا الأمر، فجاؤوا بنفي مفصَّلٍ وإثباتٍ مجمَلٍ، وقالوا: «هو موجود، هو حقٌّ»، أمَّا النفي فهم يقولون: «ليس فوق، ولا تحت، ولا يمين، ولا شمال، ولا في العالَم، ولا فوق العالَم، ولا يجري عليه زمانٌ، ولا يكون في مكانٍ، وليس بعرَضٍ، وليس بجوهر. . .» إلخ.

ولهذا لما سَمِع هذا الكلام بعضُ أمراء المسلمين قال: «لو قلنا لك: صِفْ لنا العدم...»، فلا تجد أكثر من هذا، فهذا الذي يصفونه هو العدم، وهذا هو التعطيل المحض.

فإذا كان ليس فوق، وليس تحت، وليس يمين، وليس شمال، وليس داخل العالم، ولا خارج العالم؛ فأين يكون؟! هل يكون لا وجود له؟! هذا غير صحيح.

لهذا هؤلاء وأتباعهم انقسموا إلى قسمين:

القسم الأول: صدَّقوهم في هذا القول واتَّبعوهم، فصاروا ملاحِدَةً لا يَعبُدون شيئًا، يقولون: «هذا عدمٌ، ما فيه معبودٌ»، ونتج من ذلك الإلحاد الذي هو الكفر بالله وبالآخرة، وبوعده وبالجنة وبالنار، وقالوا: «الحياةُ مادَّةٌ، وليس فيه إلا هذه الحياة، وبعد هذه الحياة ينتهي الإنسان، ويصير ذرة من ذرات التراب، لا بعثَ ولا جزاءَ!».

القسم الثاني: جعلوا الخالق ﷻ حالًّا في كلِّ شيء؛ جعلوه هو والمخلوق واحدًا، وبعضهم جعل الخالق هو المخلوق، والمخلوق هو الخالق، ليس هناك اثنان بل واحدٌ، فالعابد إذا عَبَد فهو يعبد نفسه، وكلُّ الأمور الثلاثة كفرٌ صريحٌ واضحٌ، فهذه نتيجةُ تَرْكِ ما جاءت به الرُّسُل.

قوله: «وَنَفَوْا عَنْهُ مَا لَا يَصْلُحُ لَهُ مِنَ التَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ»، يعني: اتبعوا قوله إثباتًا ونفيًا؛ اتباعًا لقول الله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مريم: ٦٥].

قوله: «كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مريم: ٦٥]»، فهذا من نفي الإجمال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾؛ فليس له من يُماثله، لا في الاسم ولا في المعنى ـ تعالى الله وتقدس ـ.

ومعلومٌ أنَّ النفي المفصل فيه سوء أدبٍ ونقصٍ، وهذا حتى في المخلوق ـ كما تقدم ـ.

فالتفصيل في النفي فيه إساءة الأدب في حقِّ الله، وفيه الضلال عن الحق، والله ﷻ في وصفه لنفسه جاء بالكمال في الإثبات المفصل؛ كصفة العلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والحياة والقوة والعُلُو والنزول، وغير ذلك، وهذا على سبيل التفصيل. أما النفي فهو على سبيل الإجمال؛ كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾،

وقوله ﷻ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾، وقوله ﷻ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، وما أشبه ذلك، فهذا هو الكمال.

ولا يَنتقِض هذا بأنه فصَّل في النفي في بعض الأمور، مثل الولد والصاحبة، فالله نفى ذلك بخصوصه، والسبب أن بعض المشركين أثبتوه لله، فنفاه بعينه ﷻ، فلا تنتقض هذه القاعدة بذلك.

قوله: «**قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ**: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ **أَيْ: نَظِيرًا يَسْتَحِقُّ مِثْلَ اسْمِهِ، وَيُقَالُ: مُسَامِيًا يُسَامِيهِ**»، يعني: مثيلًا يُماثله، فالمسامي هو المماثل، «**وَهَذَا مَعْنَى مَا يُرْوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ** ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾: **مَثِيلًا أَوْ شَبِيهًا**».

معنى ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾؛ السَّمِيُّ: هو المماثل المشابِه. أي: أنَّ هذا لا وجودَ له، فهو ﷻ لا سَمِيَّ له ولا مثيلَ له ولا نظيرَ له ـ تعالى الله وتقدس ـ.

يعني: من يماثِلُه ويناظِرُه ويساميه؛ سواء قال: سَمِيًّا يستحقُّ اسمه، أو سَمِيًّا يُسامِيه، يعني: يُماثِله: وكلُّه حقٌّ، وكلُّه تدُلُّ عليه الآية؛ وهذا أيضًا إجمالٌ وعمومٌ ونفيٌ عامٌّ.

هذه الآيات التي ذكرها المؤلف للتمثيل لقوله، أمثلةٌ في قولِه بأنه ﷻ موصوفٌ بالإثبات والنفي، ولكن الإثبات جاء مفصَّلًا، والنفي جاء مُجمَلًا، وهذا في الغالب، وإلا قد يأتي النفيُ مفصَّلًا، ولكن لأسباب ـ كما سبق ـ.

قوله: «**وَقَالَ تَعَالَى**: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾».

في هذا المثال بدأ بذِكْر التفصيل في الإثبات والنفي كذلك، فقال: «**وقال الله تعالى**: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾»: الولدُ فرعٌ عن الوالد، والوالدُ أصلٌ للولد، والله ﷻ أوَّلٌ بلا بداية، وهو الآخر بلا نهاية، فلا يكون من أصلٍ، وليس له فرعٌ، بل هو الأحد الصمد، و«الصمد»: هو الذي استغنى بنفسِه عن كلِّ شيء، وكلُّ شيء يصْمد إليه بحاجته.

وقد جاء في فضل هذه السورة ـ سورة الإخلاص ـ حديثٌ؛ فعن أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه، أنَّ رجُلًا سَمِعَ رجُلًا يقرأُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ يُرَدِّدُهَا، فلمَّا أصبحَ جاءَ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ فذَكَرَ ذلك لهُ، وكأنَّ الرَّجُلَ يَتَقَالُّهَا، فقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**والَّذي نَفْسِي بِيدِهِ إِنَّها لَتَعدِلُ ثُلُثَ القُرآنِ**»[1]، يعني: إذا قرأها

(١) سبق تخريجه.

ثلاثَ مرَّاتٍ كأنه قرأ القرآن كلَّه، وليس معنى ذلك أنه يُكتفى بها عن قراءة القرآن، ولكن يقول العلماء: معنى ذلك أن القرآن نزل لثلاثة أغراض رئيسية:

الأول: ما يخصُّ الله ﷻ من الصفات والأسماء.

الثاني: أمره ونهيه الذي يترتب عليه الجزاء والعقاب على فعله وعلى تركه.

الثالث: الوعد والوعيد الذي يكون، والأخبار التي وقعت لمن كفر بالله، ولمن آمن بالله وغير ذلك.

وسورة الإخلاص خاصَّة في الغرض الأوَّل ـ أي: ما يخص الله ـ، فصارت تعدِل ثُلُثَ القرآن من هذا الوجه.

قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ من النفي المفصل الذي جاء لسببٍ؛ عن أُبيِّ بن كَعب ﷺ: «أنَّ المشركين قالوا للنَّبيِّ ﷺ: يا مُحمَّدُ، انْسُبْ لنا ربَّكَ، فأنزَلَ اللهُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾»[1] فصَّل في النفي؛ لأنه نصَّ على الولد، ولكنه في المعنى مجملٌ؛ أي: ليس له أصل تولَّد منه، وليس له فرعٌ يتولَّد منه، فهو ﷻ قائمٌ بنفسه، غنيٌّ بنفسه عن كلِّ شيء، فلا يَحتاج إلى شيء، وكل شيء محتاج إليه.

وهذا معنى قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ يعني: أنه صمدٌ بنفسه، وهو غني بذاته عن كل ما سواه، وهذا الذي يسميه أهل الكلام «واجب الوجود»، يعنون: أن وجوده حتمٌ لا بُدَّ منه.

وللصَّمد معنى آخر، وهو الذي تصمد إليه الخلائق لحاجتها في الوجود، فلا وجود لهم إلا به، فهو الذي أوجدهم؛ فكلُّ الخلق يصمدون إليه ويقصِدونه لحاجتهم إليه، ولا وجود لهم ولا بقاء لهم إلا به.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾؛ فمعنى ﴿أَحَدٌ﴾: أنه متوحدٌ لا نظيرَ له ـ تعالى وتقدس ـ، ولهذا لا يجوز أن يقال لمخلوق: «أحد»، إلا في النفي. أمَّا في الإثبات فهذا لا يجوز؛ لأن هذا خاصٌّ بالله ﷻ. تقول: «ما في البيت أحدٌ»، أما أن تقول: «فيه أحدٌ»، فهذا لا يجوز؛ لأن هذا لا يصلح إلا لله ﷻ.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٥/ ١٤٣) برقم (٢١٢١٩).

فـ «الأحد»: هو الذي لا نظير له، ولا مثيل له؛ لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا فيما يجب له من الحقوق ـ تعالى وتقدس ـ.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾، «الصَّمَدُ»: الذي قام بنفسه واستغنى عن كلِّ شيء، فهو غنيٌّ بذاته عن كلِّ شيء؛ فإذا ذكر ﷻ أنه خلق العرشَ، وخلق السماوات والأرض، ليس معنى ذلك أنه محتاجٌ إلى شيء من ذلك، فهو الغنيُّ بذاته عن العرش وعن غيره، ولكن خلقها لحكمةٍ أرادها ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾، وهو كذلك من معاني «الصمد» الذي يُصمد إليه ويُقصد للحوائج، فكلُّ حيٍّ مفتقِرٌ إليه.

وجاء عن بعض السَّلف أنه فسَّر «الصمد»: «أنه الذي لا جوف له»، وهذا صحيح، ولكن ليس هذا معناه فقط. **وقالوا**: «إنه جاء في قراءة في قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يَطۡعَمُ﴾»، هكذا جاء، وقراءة ﴿وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ﴾ [الأنعام: ١٤] ـ تعالى الله وتقدس ـ.

فالله تعالى غنيٌّ عن كلِّ شيء؛ ولهذا وُصِف المخلوق الضعيف الذي جعلته الجَهَلَةُ والظَّلَمَةُ والكَفَرَةُ هو الله، أو ابن الله ـ تعالى الله وتقدَّس ـ عيسى بن مريم ﷺ، فقال: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ [المائدة: ٧٥]. فالذي يأكل الطعام فقيرٌ، ما يصلح أن يكون إلَهًا، مفتقرٌ إلى الأكل، وإلى الشرب، وكذلك إذا أكل وشرب فله نتائج مفتقرٌ إليها.

قوله: ﴿لَمۡ يَلِدۡ﴾، يعني: أنه ﷻ ليس له أصلٌ تفرَّع عنه، كما أنه ليس له فرع تفرَّع عنه أيضًا. ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣﴾؛ فهو أوَّلٌ بلا بداية، كما أنه آخِرٌ بلا نهاية، تعالى الله وتقدس، فلا بداية لأوَّليته ولا نهاية لآخِريَّتِه، ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: ٣].

قوله: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ۝٤﴾، يعني: لا يماثله أحدٌ، فهذا كقوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى: ١١]، والكُفء هو المماثل والمشابه ـ تعالى الله وتقدس ـ، فلا مماثل له ولا مشابه، وهذا في ذاته، وفي أوصافه، وأسمائه، وفي أفعاله.

و﴿أَحَدُۢ﴾ إذا جاء في الإثبات فلا يجوز إطلاقه إلا على الله ﷻ، بخلاف النفي فإنه يجوز أن يطلق على المخلوق.

قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾، يعني: أنه لم يكن له مكافئ ومماثلٌ يماثله، فهو فردٌ ﷻ متوحِّدٌ في ذاته، وأوصافه، وأفعاله.

وهكذا كلُّ النفي غالبًا يأتي مجمَلًا، أما إذا جاء النفي مفصَّلًا، فهو لسبب؛ كقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾، وكقوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾ [الجن: ٣]؛ فنفى أن يكون له زوجة، ونفى أن يكون له ولدٌ؛ لأنَّ الكفار أثبتوا هذا، فلمَّا أثبتوه نصّ على نفيه.

ثم هذا يدُلُّنا على أن النفي من أوصاف الله يجب أن يُتبع فيه كتابُ الله وسنَّةُ رسوله، فلا ننفي شيئًا لم ينْفِه الله، بل نتوقَّف فيه. وإذا جاء من ينفِيه مثلًا، نقول: ماذا تريد؟

* **مثل الذي يقول:** «إن الله ليس في جهة»، أو «إن الله ليس بجسم»، أو «إن الله لا تحوزه المخلوقات، وليس في حيز»: فيقال له: ماذا تريد بالجهة؟

- إن كنت تريد جهة مخلوقة فنعم، الله لا يكون في مخلوقاته، وهو فوق عرشِه - تعالى الله وتقدَّس.

- وإن كنت تريد بالجهة العرش، وأنه فوق عرشه، فنقول: كلامك لفظًا ومعنى كلُّه مردود.

أما الأول فنردُّ اللفظ ونُثبِت المعنى. **ونقول له:** يجب أن تعبر عن المعاني الصحيحة بالعبارات الشرعية التي جاءت في كتاب الله، وكذلك في سنة رسوله ﷺ، وقالها واتبعها السلف؛ سلف الأمة من الصحابة وأتباعهم.

* **وكذلك إذا قال:** «إن الله ليس في حيِّزٍ»، أو قال: «في حيِّزٍ»؛ كلاهما مردودٌ.

نقول: ماذا تريد بالحيِّز؟

- هل تريد أنه منحازٌ في مكان؟ نقول: تعالى الله عن ذلك، أو تريد: إنَّ مكانًا يحوزُه؟ نقول: تعالى الله عن ذلك، وإن أردت أنه بائن من خلقه، **فنقول:** هذا حق، ولكن يُعبر عنه بما جاء في كتاب الله؛ بأنه مستوٍ على عرشه.

- فإن قال: أريد أنه ليس مع خلقه، أنه لا تحوزه المخلوقات، قيل: هذا المعنى صحيح، ولكن يجب أن تعبِّر عنه بالعبارات الشرعية، والعبارات البدعية يجب أن تُردَّ، فيُؤخَذُ المعنى ويُردُّ اللفظ.

أمَّا إذا كان معناه باطلًا؛ فيرد لفظه ومعناه، وذلك لأنه كما قال العلماء: «إن أسماء الله ﷻ توقيفية»، ومعنى توقيفية، أنه يوقف معها على النص المتعلق بالأسماء والصفات.

فالنفي والإثبات كلاهما يجب أن يوقف فيهما على النص فقط ولا يُتعدّى؛ لأنه مثل ما سبق أن الله ﷻ غيبٌ لا يتطلَّع عليه أحدٌ، وهو لا مثيلَ له حتى يُقاس، ـ تعالى ـ الله وتقدس.

* **وكذلك إذا قال**: «إن الله ليس بجسم، أو: «إن الله جسم»، **نقول**: هذا كلام باطل ولفظ مبتدع لم يأتِ في كتاب الله، ولا في حديث رسوله ﷺ:

ـ فإن كنت تريد بقولك «إن الله جسم» أنه ﷻ قائمٌ بنفسه، وأنه فوق خلقه، فيجب أن تقول مثل ما قال الله ﷻ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٨]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النحل: ٥٠]، وما أشبه ذلك مما هو من العبارات الشرعية.

ـ أما «الجسم»، فماذا تريد؟

فبعضهم يقول: الجسم الذي تصِحُ الإشارة إليه، فإن كان يقول هذا، فنقول: الله أكبر من كلِّ شيء، وأعظم من كلِّ شيء.

وإن قال: الجسم المركب من لحم ودَم، وعظام، **فنقول**: الله ﷻ يتعالى ويتقدس أن يكون كذلك، ولا يجوز أن تأتي بالعبارات البدعية، ولكن في هذا تقول: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾، مثل ما قال الله ﷻ، وهكذا نقول في كل ما قاله الناس من الأمور التي لم تَرِدْ وصفًا لله؛ لا إثباتًا، ولا نفيًا.

قوله: «**وقال تعالى**: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة: ٢٢]»، يعني: لا تجعلوا له شركاء وأنتم تعلمون أنه هو المتفرِّد بالخلق.

و«النِّدُّ»: هو المثيل والشبيه، ولو في صفةٍ من الصفات، أو فعلٍ من الأفعال؛ ولهذا لما قال رجلٌ لرسول الله ﷺ: ما شاء اللهُ وشئتَ، قال: «أجعلتني لله عدْلًا؟!»؛ لأنه عطف مشيئة الرسول ﷺ على مشيئة الله بالواو التي تدل على الجمع، وتقتضيه، فقال: «**أَجَعَلْتَنِي للهِ عدْلًا؟ قُلْ: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**»[1]؛ وفي رواية: «**قل: ما**

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الكفارات، باب النهي أن يقال: ما شاء الله وشئت (١/ ٦٨٤)، =

شاء الله ثم شئت»؛ لأن «ثم» تدُلُّ على الترتيب والتعقيب، فالترتيب يعني أن هذا يُرَتَّب على هذا، وليس هذا مشاركًا لهذا.

فهو ﷻ لا نِدّ له، لا فيما يخصُّه من الذات، ولا ما يخصُّه من الأسماء والصِّفَات، ولا في أفعاله ﷻ، وكذلك الحقُّ الذي أوجبه على عباده يجب أن يكون له وحدَه، ليس له مشارِك فيه.

يعني: لا تجعلوا له نظراء وشُبَهَاء لا في الأوصاف، ولا في الأفعال، ولا في الحق الذي أوجبه عليكم، فالله ﷻ لا مثيلَ له، ولا نِدَّ له، ـ تعالى وتقدَّس ـ؛ فهذا من النفي المجمل.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: تعلمون أنه هو المتفرِّد بخلقكم، وخَلقِ آبائكم، ومَن قبلكم، وخَلقِ السَّماوات والأرض، فهو الخالق وحدَه؛ فكيف تجعلون له آلهةً تعبدونها معه؟! فهذا ضلالٌ وانحرافٌ.

فهذا خطاب لهم في الشيء الذي يعلمونه، حيث يقول ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١ ـ ٢٢]، يعني: تعلمون أنه هو المتفرِّدُ بخلْقِكم، وخَلْق من قبلكم، وهو الذي خَلَق الأرض لكم، وجعلها على هذه الصفة التي تنتفعون بها في المسير والحرث وغير ذلك، وكذلك رفع السماء فوقكم تشاهدونها، وأنزل لكم ماء من السماء من فوقكم، فأنبت به ما تحتاجون إليه من طعامٍ وغيره، تعلمون هذا تمامًا أنه هو المنفرد بهذا، وأنه لا يُشارِكُه أحدٌ في ذلك، فإذا كان كذلك فيجب أن تعبدوه وحدَه؛ لأنَّ الخالق المتفرِّد بالخلق هو الذي يجب أن يفرد بالعبادة.

فالمقصود: أنه ليس له نِدٌّ لا في ذاته، ولا في أوصافه، والأندادُ إذا جعل الإنسان لله شريكًا يُدعى ويُسأل، فمن فعل ذلك فقد اتخذ شريكًا له، ولهذا: الكفار المشركون لما كانوا يطلبون شفعاء من دونه صاروا مشركين كفَرَة بالله ﷻ. فإذا جعل الإنسان لمخلوق شيئًا من حقوق الله ومن خصائصه، فقد جعل له نِدًّا.

= برقم (٢١١٧)، وأحمد في مسنده (٣/ ٣٣٩) برقم (١٨٣٩)، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

و«النِّدُّ» يكون في الذات، ويكون في الصفات، ويكون في الأفعال، ويكون في الحق الذي أوجبه على عباده، فلا يجوز أن يكون له مماثلٌ:

- لا في ذاته.
- ولا في أوصافِه التي يتَّصِف بها - وهي من خصائصِه -.
- ولا في أفعالِه؛ لأنَّ أفعاله لا تُشبِه أفعال المخلوقين، فهو ﷻ الكامل في كلِّ شيء؛ ولهذا: الدَّاعون الله ﷻ ملءَ السماوات، وملءَ الأرض يستمع الله إليهم في آنٍ واحدٍ، ولا يشغله سماعُ هذه عن سماع هذا، وهذا لا يكون له شبيهٌ في خلقه.

ومن أفعاله: أنه إذا أراد الشيء قال له: «كن فيكون»، فيحتاج له المخلوق الضعيف من استعدادات وآلات، وما أشبه ذلك.

فأفعاله تخصُّه، وكذلك صفاته تخصُّه ﷻ، لا يشاركه فيها غيرُه، ولا بُدَّ من معرفة الله ﷻ بصفاتِه، وأفعاله، وآياته؛ وإلا لا يكون الإنسان قام بما يجب عليه من الإيمان الذي أوجبه الله عليه.

قوله: «وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]» مثل الآية التي قبلها؛ أي: أن الله ﷻ أمر ألَّا يكون له نِدٌّ مُطلقًا، وهذا لا يجوز أن يكون؛ لا في الأوصاف، ولا في الذات - والذات أمرٌ متفقٌ عليه -، ولا في الأسماء، ولا في الأفعال، ولا ما هو في خصائصه ﷻ.

والأنداد الشُّبَهاء والنُّظَراء: هذا في شرك المشركين، فهم يُحِبُّون أندادهم محبَّةَ ذُلٍّ وتعبُّدٍ وخوفٍ، وكذلك هم يحبُّون الله، وهذا هو الشرك الذي يجعل العبادة باطلة، وهي وإن كانت تسمَّى عبادةً في اللغة إلا أنها لا تسمى عبادة في الشرع لوجود الشرك، وكلُّ عبادة دخلها الشرك فليست عبادة في الشرع.

هذه الأنداد التي يتخذونها هي في الحُبِّ فقط؛ أمَّا الخلق والفعل والتصرُّف، والكمال، فهذا لا أحدَ من بني آدم له عقلٌ يجعل المخلوقَ نظيرًا للخالق ﷻ؛ ولهذا ذكر الله ﷻ عن هؤلاء أنهم إذا كانوا في النار يقولون لمن اتخذوهم أندادًا، يقول: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨]، يعني: سَوُّوهم به في المحبة فقط، الحبُّ الذي هو حبُّ الذُّلِّ والخوف والتعظيم، فهذا عبادةٌ لهم، فهم كانوا هكذا معهم، فتبين لهم ضلالهم، وهذا الذي ذكره الله ﷻ

في هذه الآية ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

إن الحب الذي يكون لله ﷻ، وهو حبُّ الذُّلِّ والخضوع والتعظيم، لا يجوز أن يكون لمخلوق؛ حُبَّ التَّأَلُّه، الذي فيه ذلٌّ وطلبٌ وخوفٌ، فإذا وقع الحبُّ الذي فيه هذا الوصف فهو حبُّ عبادة، وحبُّ العبادة يجب أن يكون لله وحده.

ولهذا يُقسم الحب إلى قسمين:

القسم الأول: حبٌّ خاصٌّ، أي: حبَّ الذل والخوف والإنابة والطلب والرَّهْب، هذا لا يجوز أن يكون لغير الله ﷻ.

والقسم الثاني: حبٌّ مشتركٌ، كالحبّ الطَّبَعِي، مثل حُبِّ الأكل للجائع، وحُبِّ الشراب للظمآن، أو حُبِّ الألفة والاستئناس. فالإنسان إذا كان مع زملاء له يصير بينهم محبةُ أُلْفَة. وهذا يوجد حتى في الحيوانات، فالحيوانات إذا أخذت واحدة من الجماعة صارت تصيح تريد إِلْفَها؛ وكذلك حبُّ الحُنُوِّ والرَّحْمة كحُبِّ الولد الصغير، وحُبِّ التقدير والاعتبار كحُبِّ الوالد وما أشبه ذلك، هذه لا ضَيْرَ فيها على الناس.

ولكن الأوَّل: هو الذي يجب أن يكون خاصًّا لله، وبهذا يتبين أن كثيرًا من الناس لم يعرف الحبَّ الواجب لله ﷻ، فخلَط بين الحب الذي يجب لله والحب الذي يكون مشترك، فصاروا يُحِبُّون الرسول ﷺ مثل محبَّة الله ﷻ وهذا شركٌ بالله ﷻ، فمحبة الرسول ومحبة أولياء الله يجب أن تكون تبعًا لمحبة الله وفي الله.

وخلاصة الأمر: أنَّ الذي يُحَبُّ لذاته هو الله وحدَه فقط، ولا يوجد في الكون كلِّه شيءٌ يُحَبُّ لذاته من المخلوقات، وإنما تُحَبُّ المخلوقات لأوصافها، لما يقوم بها من الوصف والفعل، وبهذا يتبين الفرق. وهذا أمر يجب أن يُعتَنَى به؛ لأن كثيرًا من الناس وقع في الباطل في هذا، ووقع في الشرك، فيكون قد أحبَّ الله والرَّسول، يحبُّ فلانًا والله، فهذا شرك بالله ﷻ.

ومحبة الله لا بُدَّ منها؛ لأنها هي التَّألُّه، ولا بُدَّ أن يُحَبَّ الله، ولكن المحبة تتفاوت من الناس؛ منهم من يحب الله حبًّا يمنعه من مخالفة الله، ويمنعه من أن يترك أمر الله، ومنهم من يكون حبُّه خفيفًا فلا يمنعه من المعاصي.

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾؛ لأنَّ الذين آمنوا جمعوا حبَّهم لله وحدَه ولم يتفرَّق، فصاروا أشَدَّ في حبِّ هؤلاء، فمن أحب مع الله غيره فقد وقع في الشرك الأكبر.

قوله: «**وقال تعالى**: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام: ١٠٠ ـ ١٠١]».

قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟﴾؛ أي: الكفار من قريشٍ ونحوهم في العبادة؛ قالوا: «إنَّ الجنَّ شركاء لله ﷻ»، فعبدوهم؛ كما قال ﷻ عنهم، ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ [الجن: ٦] وهذه الآية أيضًا مثلها.

ولهذا يسألهم يوم القيامة: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ [سبأ: ٤٠] يسألهم: كيف جعلوهم شركاء؟! وإن كان هذا من التمتع الذي ذكره الله ﷻ. ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢٨]. فـ «الاستمتاع»: هو إدراك شيء من الأغراض التي يدركونها في طلبهم ودعائهم؛ لأنه إذا عُبد الشيطان قد يأتي بشيء يسيرٍ للعابد من المنافع ليفتنه في ذلك حتى يستديم على هذه العبادة، ما هو لأجله، بل لأجل أن يبقى على الشرك.

قالوا: إنَّ الجن شركاء لله، ﴿وَجَعَلُوا۟﴾؛ هنا يجوز أن يكون لمجرد القول، ويجوز أن يكون بسبب الاعتقاد.

قوله: ﴿ٱلْجِنَّ﴾؛ لأنهم كانوا يعبدونهم؛ وسواء قُصد بالجنِّ: الذين هم بنو الشيطان، أو الملائكة؛ لأن الملائكة لا يُرون، فالجنُّ الذين خَفَوْا عن الناظر، فهو لا يراهم؛ فزعموا أن الملائكة بنات الله، تعالى الله وتقدس عن قولهم، وزعموا أن الجن أصهارٌ إلى الله ـ تعالى الله وتقدَّس ـ، قبحهم الله! كيف يَصِفُون الله بما يصفون به أنفسهم؟!

قوله: ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ كيف يكون المخلوق شريكًا للخالق ـ تعالى الله وتقدس ـ؟! أي: كيف يكونوا شركاء وهو خالقهم؟! كيف يخلقهم ويكونون له شركاء؟! فهم يُقِرُّون أن الله هو الخالق لكلِّ شيء، فهذا تناقُضٌ وضلالٌ بَيِّن، يعني: كيف هم مخلوقون ثم يُجعلون شركاء؟! هل يرضى عاقِلٌ أنه يشتري مثلًا عبدًا ليخْدُمَه ثم يجعله شريكًا له في مالِه، وفي بيته... إلخ؟! هذا من الانتكاس في العقل، وفيه أيضًا ظلمٌ.

قوله: ﴿وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ﴾؛ خرقوا: كَذَبوا، فالخرق هو الكَذِب، يعني: قالوا: إن الله ـ تعالى وتقدَّس ـ صاهَرَ إلى الجن، والملائكة بناتُه! تعالى الله وتقدَّس عن قولهم.

قوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، يعني: قولٌ بالخَرْصِ والكَذِب والتزوير، لا علم لهم بذلك؛ يقولون ذلك: خرْصًا وكذبًا وظنًّا كاذبًا، وليس لهم أي أمارة من علم.

قوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ مأخوذٌ من السَّبَح، وهو البُعْد في الجَرْي، سَبَح نفسَه تعالى وهو بعيدٌ عن ذلك كلَّ البُعد، سبح نفسه ونزَّه نفسه؛ لأن الناس ما يستطيعون أن ينزهوا ربهم حيث وقعوا في الشرك، نسأل الله العافية عما يصفون ربهم ﷻ به.

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ﴾، يعني: تعاظَم وتقدَّس أن يكون كما قال هؤلاء الظالمون؛ وكما يَصِفه هؤلاء، تعاظم وتقدس أن يكون كما قال هؤلاء الضُّلَّال الكَفَرة عما يصفونه به.

قوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ الذي أبدعهما وخلقهما بدون مشارك له، وبدون مثال سابق - تعالى الله وتقدس -، الذي أبدعهما بدون سابق تفكير أو تخطيط، كما يفعله المخلوق حيث لا بدَّ له من التخطيط والتفكير المتقدّم، أو الاقتداء بمن قبله؛ أمّا الله فهو بديع السماوات والأرض - تعالى وتقدس -.

وكثيرًا ما يَذكُر الله ﷻ خلقَ السماوات والأرض عندما يذكُر خصائِصَه أو يذكُر وجوب امتثال أمره في عبادته، وذلك أن السماوات هي أكبر المشاهدات المخلوقات وكذلك الأرض؛ لأنها أقرب من السماء وإن كانت صغيرة بالنسبة للسماء.

إذا كان الله ﷻ خلَقَ السماوات والأرض كلها، وهو المتصرف فيها، الموجد لها، فهو لا يحتاج إلى ولد، ولا إلى معاوِنٍ، ولا مساعِدٍ، لهذا قال: ﴿أَنَّىٰ﴾، يعني: بعيدٌ أن يكون له ولدٌ، وهو الكامل الكمالَ المطلقَ الذي كلُّ شيء تحت يَدِه، وفي تصرُّفِه.

قوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾. ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ﴾؛ أي: بعيدٌ؛ حيث لا يُمكن أن يكون له ولدٌ؛ لأنه هو الغني بذاته عن كل ما سواه، والولد يُتخذ للحاجة والمعاوَنة فيتخذه الفقير حتى يكون وارثًا له، ويكون معاونًا له.

والولد من باب النقص في حقِّ الله، وإن كان في بني آدم كمالًا، فالذي يُولَد له أكملُ من الذي لا يولَد له؛ لأن ابن آدم كلُّه نقصٌ.

والولد يحتاج إلى زوجة، والله ﷻ هو الغني بذاته عن كل ما سواه، ولكنَّ الإنسان ظَلومٌ جَهولٌ، إذا اجتمع الظلم والجهل حصل الشَّرُّ كلُّه، نسأل الله العافية.

قوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾، يعني: زوجة - تعالى الله وتقدس

عن ذلك ـ؛ فالولد لا بُدَّ أن يكون تَوَلَّد بين ذكَرٍ وأنثى، مع أنه لا يكون إلا بأمر الله ﷻ وخلقه، أما الخلق فلا يستطيعون أن يصنعوا شيئًا.

قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ...﴾، هذا فيه النفي المجمل والإثبات المفصل، وهذا أيضًا من العمومات التي لا يخرج عنها شيء، كلُّ شيء مخلوقٌ له، فهو ﷻ لا يحتاج إلى أن يكون له ولدٌ أو صاحبة، أو مساعد أو وزير، أو شريك؛ لأنه على كلِّ شيء قدير، وخلق كلَّ شيء، وهو بكلِّ شيء عليم، فعِلْمُه لا يفوته شيء، ولا يخلو منه مكانٌ.

الخالق لا يحتاج إلى أنه يتَّخذ ولدًا، إذا أراد شيئًا قال له: «كن فيكون» ـ تعالى الله وتقدس ـ، فكلُّ شيء مخلوقٌ له ـ تعالى وتقدس ـ، يعني: أنه الخالق لكلِّ شيء، فلا يحتاج إلى شيء.

قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾؛ أي: علمه محيطٌ بكلِّ شيء، يعني: له الكمال المطلق، فعلمه محيط بكلِّ شيء كما أنه على كلِّ شيء قدير.

قوله: ﴿تَبَارَكَ﴾، يعني: تعاظم، وكثرت صفاته العظيمة، الواسعة التي لا يحيط بها خلقُه، فهو العظيم الذي ليس شيء أعظمَ منه.

و﴿تَبَارَكَ﴾: هذا من الإثبات المجمل الذي يأتي ويُراد به معانٍ كثيرةٌ، ولا تجوز هذه الصيغة أن تقال إلا في حق الله ﷻ على هذه الصيغة، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، جاء هذا في آيات متعددة، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٤]، فهذا فعل من البركة ولا يجوز أن يطلق إلا على رب العالمين.

وبعض الناس يقول: «تباركوا بكذا»، أو: «تباركوا بالنواصي» أو: «تباركوا بالأماكن»، وهذا شركٌ بالله ﷻ، لا يجوز أن يقال هذا، ولا يجوز أن تطلق هذه الكلمة إلا على ربِّ العالمين. تقول: «تبارك الله»؛ أما المخلوق فنقول: «مُبارَك» وليس: «تبارك»، فـ«المبارَك»: إذا بارك الله فيه، وبارك عليه ﷻ، والبركة هي النماء وزيادة الخير وكثرته.

قوله: ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾. الذي فرَّق به بين الحق والباطل، وبين المؤمن والكافر، وبين الهدى والضَّلال؛ أي: أنزل القرآن على رسوله ﷺ، والفرقان ـ كما قلنا ـ هو الذي فرق بين الحق والباطل، وبين الشرك والتوحيد، وبين وصف المخلوق ووصف الخالق ﷻ، وبين كلِّ ما يحتاج إليه وما لا يحتاج إليه.

والمعنى: أنه امتنَّ بذلك على عباده، فنزل عليهم كتابه الذي يفرق بين الحقِّ والباطل؛ فمن اتَّبعه سَلِم من الباطل ومن الضلال ومن الشقاء في الدنيا والآخرة، ومن أعرض عنه فإنَّ له معيشةً ضنكًا، وسوف يحشره الله يوم القيامة أعمى، ثم يُصْلِيه جهنم وبئس المصير، فالفرقان لا سلامة إلا باتِّباعه، من لم يتَّبِعْه فهو من حَطَبِ جهنم.

قوله: ﴿عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ الذي هو رسولُه، **والمقصود به:** محمَّدٌ ﷺ، فهو عبدٌ تعبَّدَه الله بعبادَتِه، ليس له مع الله شيء، لا يملك مع الله شيئًا. وأفضل ما يُتَّصَفُ به ابن آدم أن يكون عبدًا لله، يعني: عبدًا حقًّا، وأكثر الخلق صاروا عُبَّادًا؛ إما لأنفسهم وشهواتهم، وإما للشياطين، وإما لرؤسائهم، أو غير ذلك، حتى أحدهم قد يكون عبدًا لزَوْجَتِه، وقد يكون عبدًا لمركوبه إذا قدَّمه على طاعة الله ﷻ.

ولهذا يقول المصطفى ﷺ كما في «صحيح البخاري»: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ والخَمِيلة**»(١) «**الخَمِيصة**» - هي فراشٌ يُوطَأ بالقدَمين، وكونه عبدًا له ليس المعنى أنه يَسجُد لهذه ويدْعُوها، ولكن المعنى أنَّ عمله يكون لهذا، فتكون حياته للدُّنيا فقط؛ فأكثر الناس هكذا عبدٌ لغير الله ﷻ؛ فالعبودية من أشرف ما يُتَّصف به العبد، بل هي أشرف ما يُتَّصف به الإنسان.

و«الخَمِيلة» كساءٌ له خُمل يُلبس -؛ كيف يكون الإنسان العاقل عبدًا لملبوسه؟! ثُمَّ العبد عبدٌ، ولا بُدَّ إن لم يَعبد الله عَبد غيره، فإن لم يعبد الله عبد الشياطين والمظاهر الأخرى، وهذا جزاءٌ من جنس العمل، ﴿جَزَآءٗ وِفَاقًا ٢٦﴾ [النبأ: ٢٦].

قوله: ﴿لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ١﴾. **المقصود** بـ (العالمين) هنا: بنو آدم وبنو الشيطان من الجن، فهو نذيرٌ لهم، أُرسِلَ إليهم جميعًا، وهذا يدلنا على أن القرآن يكفي أن يكون نذيرًا، إذا بُلِّغ الإنسانُ القرآن فهو نذيرٌ، والنِّذارة هي الإعلام بمواقع الخوف وأن الخوفَ متوقَّعٌ، والعذاب متوقَّعٌ إن لم يمتثل المُنذَر، فالرسول ﷺ نذيرٌ وبشيرٌ، بشير لمن أطاعه بالفضل والخير والجزاء العظيم، ونذيرٌ لمن عصاه بأنَّ أمامه عذابٌ شديدٌ.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال (٨/ ٩٢) برقم (٦٤٣٥)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

القرآن يكفي أن يكون نذيرًا للناس، ولهذا تولى الله ﷻ حفظه، فهو نذير لكل من بلغه القرآن، ومن لم يؤمن به كان كافرًا. **ومعنى «بلوغ القرآن»**: أن يعلم أنه نزل من عند الله، **وليس معناه**: أن يَفهم ويعرف تفسيره.

فهو النذير الباقي والنذير هو الذي يخوف بمواقع الخطر القريبة، وكذلك هو بشيرٌ؛ بشيرٌ ونذيرٌ.

و«النَّذير»: هو الذي يُعلِم بالأَمْر الذي يتضمن الخوف وهو قريبٌ، وأن النذير يكون في الأمر المخُوفِ، والبشير في الأمر المحبوب المرغوب.

و«الرسول» وكذلك «الكتاب» نذيرٌ وبشيرٌ؛ فهو يبشِّر من اتَّبعه وآمن به، ويُنذِر من خالفه أو كفر به أنَّ له عذابًا في الدنيا والآخرة.

قوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، يعني: ليس في حاجة، فهو غني بذاته عن كلِّ شيء؛ لأنَّ الولد يُتَّخذ لمساعدة والده ولإرثه لأنه يَرِثُه؛ لأنه سوف يموت، ويكون ولده بعده.

كلُّ شيء ملك لله، ولا لأحَدٍ معه ملكٌ، ولكنه يهب الملك لمن يشاء ثم ينزعه منه؛ إما بموت هذا المالك، أو بأن يأخذه غيرُه ولا بُدَّ؛ أما مُلْكُه ﷻ فلا يتغير، فالملك له.

ولهذا يقول ﷻ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] لماذا لم تأتوا به؟! ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ [الأنعام: ٩٤] أين هم؟

هناك تنقطع الحجج كلها والبهرج، والأمور التي يتعلَّقون بها انتهت، حقَّت الحقائق وبُهتوا، وجاءهم العذاب من كلِّ مكان، نسأل الله العافية.

قوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ ﷻ: فهذا من النفي المجمل والمفصَّل أيضًا؛ ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ من المفصل، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ﴾ وهذا من النفي المجمل، وقوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ تعالى الله وتقدَّس؛ لأنهم نسبوا له الولد، فنفى ذلك عن نفسه ـ تعالى وتقدس ـ.

قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾؛ أي: وكذلك الواجب ألا يكون له شريكٌ في الحق ـ في الأمر ـ، ولكن الخلق خالفوا هذا.

وهذا من مدحه والثناء عليه ﷻ، فهو المالك لكل شيء، لا أحدَ يملك معه

شيئًا، لا في السماوات ولا في الأرض؛ فله الكمال كله ﷻ، يعني: الملك له وحدَه ﷻ. وإن كان لأحد مُلكٌ فهو مستعارٌ سوف يُرَدُّ إلى مالكه، أو يموت الذي له الملك ويرثه غيرُه، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ ولا شريك أيضًا في العبادة تعالى الله وتقدس.

قوله: «وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾»، يعني: يختارون الولد، ثم يقولون: «الملائكة بنات الله» تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾، يعني: هؤلاء الظلمة المشركين: اسألهم على وجه التهديد والتوبيخ كيف يجعلون لله بناتٍ وهم يأنفون منهن؟! يقولون: «الملائكة بنات الله»؟! والآية تكذيبٌ لهم. والملائكة ليسوا إناثًا، وسوف يُسألون عن قولهم هذا؛ لأنهم لا علم لهم بذلك، يعني: أنهم يضيفون البنات إلى الله، ويقولون: «الملائكة بنات الله»، وهم يأنفون من البنت؛ فإذا وُلِدَ لأحدهم بنتٌ حَزِن؛ لذلك قال الله ﷻ فيهم: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل: ٥٨ ـ ٥٩]، هل يدُسُّها في التراب حيةً؟ أو أنه يتركها على مضضٍ واحتقار كما هي سنتهم في البنات؟! ثم مع هذا يجعلون البنات لله، ويجعلون البنين لهم ـ تعالى الله وتقدَّس ـ، فجورُ الإنسان وظُلمُه لا حصرَ له.

الكفار كانوا يأنفون أن يكون مولودهم أنثى لأنها ناقصة، فكانوا إذا بشر أحدهم بأنه وُلِد له أنثى ظل وجهُه مسوَدًّا وهو كظيم، يعني: يكظم المصيبة التي أصابته على حدِّ زعمه، ثم يبطن في نفسه ماذا يصنع بهذا المولود؟ هل يدفنه حيًّا، أو يمسكه على هوان؟ فهم يهينون البنات؛ لأنهم يقولون: لا يركبنَ الخيل، ولا يقتلنَ العدو، ولا يدفعن عن العِرْض، وإنما يريدون الولد، ثم مع هذا النقص الذي يرمون به المرأة يُضيفُونه إلى رب العالمين، تعالى الله وتقدس عن قولهم، فهذا ظلمٌ على ظلم.

قوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾؛ هم يقولون: «إنَّ الملائكة بنات الله»، فهل شهدوا خلقهم؟! وهذا كله من باب التكذيب لهم والوعيد لهم، هل شاهدوا خلقهم حتى يقولوا: «إنها بنات الله»، أو «أن الملائكة إناثٌ»؟!

فالملائكة لا يجوز أن توصَف لا بالذكورة ولا بالأنوثة، إن الملائكة رُسل الله

وعِبادُه، خلقهم ﷻ لعبادته، فلا يجوز أن يوصفوا بأنهم إناثٌ ولا بناتٌ، ولا غير ذلك، أما جعْلُهم بناتٍ لله؛ فهذا الكفر الكبير الذي ليس عليه أمارة من علم، بل هو ضلالٌ وكذبٌ وزُورٌ.

قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾﴾ الإفكُ: هو الافتراء والكذب الظاهر، يعني: إنه إفكٌ وكَذِبٌ، والإفك هو أشدُّ الكذب وأعظمه. ﴿مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾، يعني: من كذبهم إفكٌ ظاهر.

قوله: ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾، تعالى الله وتقدس أن يكون له ولدٌ، ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ تعالى الله وتقدس، هذا ردٌّ لقولهم الكَذِبَ الذي وضعوه على ربِّ العالمين.

قوله: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾. في الآية استفهامٌ للإنكار، و«الاصطفاء»: هو الاختيار، كونه اختارَهم دونه. أي: تضيفون البنات إلى الله وأنتم تختارون البنين؟! وهذا معناه: أن البنين أفضل من البنات.

أما الآن فيريدون أن يفضِّلوا النساء على الرجال؛ ويريدون أن يقلبوا الأوضاع، ويجعلوا ما للرجل للمرأة، أو يجعلوا المرأة مع الرجل سواء بسواء؛ وهم أذنابُ الغرب، الذين ينْعِقُون بأصواتهم ويدعون بدعائهم، فهم لا يعقلون. وهم تربية الغرب وصنيعته؛ ربوهم وصنعوهم وأرسلوهم إلى قومهم ليفسدوا أديانهم وأخلاقهم، ويكونوا أداةَ هدمٍ لهم.

فالغرب عرفوا كيف يصنعون في المسلمين؛ غزَوهم من داخلهم. والمقصود من ذلك كلِّه، أن يُشبِعوا غرائزهم من شهواتهم، وكذلك يحملوا المسلمين على ما عَهِدُوا عليه الكفار، فصاروا يتكلَّمون على كتاب الله ﷻ ويقدحون فيه بهذا، فبئس الحال، وبئس المصير، والله ينكر أن يكون الولد مثل البنت. ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾.

قوله: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾، يعني: ما هذا الحكم الجائر الظالم؟! هذا حكم الجور والظلم والكذب والتزوير.

قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾، يعني: ترجعون إلى عقولكم وإلى أبصاركم وما يحيط بكم من الأدلة تنظرون إليه. أليس عندكم عقلٌ وعندكم شيءٌ من الفكر تتفكرون فيه، كيف تضعون الناقص بربِّ العالمين وأنتم تختارون الكامل؟!

قوله: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾، يعني: حُجَّة، هل لكم حُجَّةٌ على هذا القول؟!

قوله: ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾، يعني: فأتوا بالحُجَّة التي في الكتب المعتمدة، ولكن ليس لهم إلا الافتراء والكذب والضلال، والكفر البيِّن الذي اتبعوا فيه الشيطان.

وليس عندهم سلطان؛ ـ لا حُجَّةَ، ولا بُرهان ـ، وإنما هو كَذِبٌ وخَرْصٌ، ولهذا قال: ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾، يعني: ائتوا بالدليل على هذا القول الذي تقولونه، ولا دليل لهم على هذا، وإنما هي أفكار منحرفة خبيثة أو اتباع للشيطان.

قوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾. ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ﴾؛ أي: بين الله، قالوا: «إنه صاهَرَ الجنَّ» ـ تعالى الله وتقدَّس ـ؛ فهذا من البُهْتان والكذب، وهذا من الجُرأة والكفر، مما استحقوا معه أن يكونوا في طبقات جهنم، نسأل الله العافية.

قوله: ﴿الْجِنَّةِ﴾؛ لأنهم مُجْتَنون عن أنظار الناس، لا يُشاهدُهم أحَدٌ وهم الجنُّ، فهم يعلمون أن هؤلاء مُعذَّبون؛ لأنهم كذَبوا وظلموا.

قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾، يعني: الجِنَّة علموا أنهم مُحضَرُون في عذاب الله، وهم الشياطين، يعني: أنَّ الجنَّ أعلم منهم في هذا، فَهُم محضَرون في عذاب الله بسبب هذا القول.

قوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾. سَبَّح نفسَه عن وصفهم الذي هو ظلمٌ وكفرٌ وتكذيبٌ على رب العالمين، ﴿سُبْحَانَ﴾ اسم مصدر، وهو مأخوذٌ من السَّبح والبُعْد، يعني: تنزيهًا لله وإبعادًا له عما يقولُه هؤلاء الظلمة؛ سبَّح نفسه ﷻ منزَّهًا مقدَّسًا عما يقول هؤلاء المفترون.

قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ الذين سلكوا الطريق الذي أوجبه الله عليهم، وسَلِمُوا من هذا الانحراف والغيِّ والضلال، وهم الملائكة، وكذلك الرُّسُل، هم المخلصون الذين يصفون الله بما يستحقُّ من الأوصاف، وينزِّهونه عن النقائص التي رماه بها الكفرة من بني آدم.

قوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ﴾؛ هذا تكرارٌ للتسبيح ـ تسبيحه وتحميده ـ؛ لأن التسبيح هو البعد عما ذُكر، مأخوذٌ من السَّبح، وهو جَريُ الفرَس، والفرس السَّبُوح التي تسرع في جَرْيِها.

قوله: ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾. ﴿رَبِّ﴾: مضاف، و﴿الْعِزَّةِ﴾: مضافة إليه، والذي يُضاف

إلى الربِّ قد يكون معنى، وقد يكون ذاتًا، أو عينًا معينًا، فإذا كان معنًى فهو صفةٌ.

والمربوب عادة يكون مخلوقًا، ولكن هنا معناه: «صاحبُ العزة»، «العزة» هنا صفة، و﴿رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ﴾؛ أي: صاحب العزة الذي له العزة الكاملة، صفته ﷻ.

و«الرب» إذا أضيف إلى معنًى؛ فالمعنى يكون وصفًا له أو يكون مفعولًا له، لكن هنا لا يصحُّ أن يكون مفعولًا، فإذًا لا بد أن نقول: «صاحبُ العزة»، فنَزَّه نفسَه عما يَصِفه هؤلاء الكاذبون المفترون.

فالعزة لله كلُّها ـ تعالى وتقدس ـ، عمَّا يصفه الواصفون بالكذب والزور، قال رجلٌ في جنازة في البقيع: «اللهم رب القرآن ارحمه»، فزجره ابن عباس قال: «مَهْ، القرآنُ ليسَ مربُوبًا»[(١)]، القرآن كلام الله، لأن المربوب يكون مخلوقًا، فهنا معنى «رب العزة» يعني: «صاحب العزة».

قوله: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠﴾، يعني: يصفونه به؛ فإنهم ظَلَمَةٌ، وصفوه بما يتعالى ويتقدَّس عنه.

قوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٨١﴾؛ لأنَّ المرسلين جاءوا بما هو سالمٌ من النَّقص، وفيه الكمال لله ﷻ في الحق، وفي الوصف؛ فسَلَّمَ عليهم لأجل ذلك، الذين لا يكون في قولهم أو فعلهم أو عقيدتهم شيء مما يقوله هؤلاء.

سلَّم على المرسَلِين؛ لأن ما جاءوا به فيه السلامة وهو سالمٌ من الانحراف والميل؛ سَلَّم على المرسلين لسلامة ما جاءوا به من العيب والنقص والإلحاد والظلم، فهم سالمون من ذلك، وإنما هذا في قول المشركين الظلمة.

قوله: ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٨٢﴾. هو المحمود في أفعاله وعلى صفاته وعلى خلقه وعلى كل ما تصدر منه ـ تعالى وتقدس ـ، فله الكمال المطلق؛ حيث صار له الحمد المطلق من كلِّ وجهٍ، فهو مستحِقٌّ له، وإن لم يَعْلَم ذلك عبادُه.

جميع المحامد التي تشتمل على الكمال المطلق له ﷻ ومنها تنزيهه عما لا يليق بعظمته وجلاله ـ تعالى وتقدس ـ، فله الحمد وهو الذي حَمِد نفسه؛ لأن الخلقَ

---

(١) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (١/ ٥٩٠) برقم (٥١٩)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (٥/ ٢٧٠) برقم (٤٠)، واللالكائي في شرح الأصول (٢/ ٢٥٦)، برقم (٣٧٥)، من طريق عكرمة؛ بلفظ: «الْقُرْآنُ كَلَامُ اللهِ لَيْسَ بِمَرْبُوبٍ مِنْهُ خَرَجَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ».

خلقُه لا يستطيعون أن يقوموا بحمدِه كما ينبغي، ولهذا سَبَّح نفسه عما يَصِفُه المفترون، المشركون، المكذبون، وسلَّم على المرسلين لسلامة ما جاءوا به، من الإفك والشِّرْك.

وحَمِد نفسه؛ إذ هو المحمود على كلِّ حالٍ ـ تعالى وتقدس ـ، فهو سبحانه المستحقُّ للحمد؛ لما له من الأسماء والصفات والأفعال الكاملة وهو ﷻ حليمٌ يحلم على عباده الذين يتعَدَّوْن طورهم ويَصِفُونه بما يتقدَّس ويتعالى عنه، فلا يأخذهم؛ وإلا لولا حلمُه لاستحقوا أن يُعذَّبوا بالحال، وهو بديعُ المخلوقات الذي ابتدعها وأوجدها بلا مثالٍ سابق.

الحمد لله على كل حال؛ له الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم وإليه يُرجعون، فالمفترون المشركون الذين افتروا على الله ﷻ مجانِبُون لذلك؛ أي: للسلامة والهدى، فلهم الضلالُ ولهم العذاب، وهم أصحاب الإفك والشرك، والله هو المحمود ﷻ على وصفِه، وعلى أمرِه، وعلى خَلْقِه؛ وله الحمدُ على كلِّ حالٍ، فله الأسماء الحسنى والصفات العليا، وهو المحمود أولًا وآخِرًا.

قوله: «فَسَبَّحَ نَفْسَهُ عَمَّا يَصِفُهُ الْمُفْتَرُونَ الْمُشْرِكُونَ وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ لِسَلَامَةِ مَا قَالُوهُ مِنْ الْإِفْكِ وَالشِّرْكِ وَحَمِدَ نَفْسَهُ»؛ لأنه ـ سبحانه تعالى ـ هو المستحِقُّ للحمد من كل وجهٍ. فله الحمد المطلق، بل له الحمد كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، تعالى الله وتقدَّس، فهو محمودٌ بما له من الصفات الكاملة، والأسماء الحسنى، وله الخلق وله الأمر وبيده الحكم، فهو يحكم بين عبادِه يوم يجمعهم في صعيدٍ واحدٍ.

✲ ✲ ✲

قال رحمه الله تعالى:

«وَأَمَّا الْإِثْبَاتُ الْمُفَصَّلُ: فَإِنَّهُ ذَكَرَ مِنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ مَا أَنْزَلَهُ فِي مُحْكَمِ آيَاتِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، الْآيَةَ بِكَمَالِهَا، وَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤]».

الشرح

هذا مثالٌ لما سبق؛ فالله ﷻ وصف نفسَه بالإثبات المفصَّل والنفي المجمل، هذه الآيات أمثلةٌ للإثبات المفصَّل، وهو لو أتى بآيةٍ أو آيتينِ لكفى التمثيل، ولكن المفروض أنَّ طالب العلم يكون حافظًا لمثل هذه المتون، فيُريد أن تكون هذه من محفوظاتِ الطالب، ويكون فيها سلاحٌ له يُقابل به المبطِلين، الذين لا يُثبتون إلا ما هَدَتْهُم إليه عقولهم وأنظارهم، أما كتاب الله ﷻ فجعلوه غيرَ يقينيٍّ!، فهم يقولون: أدلَّته ظنِّية وإن كانت ألفاظُه يقينِيَّةَ الثبوت، ولكن مدلولاتها عندهم أمورٌ مظنونةٌ. وكذَبوا في هذا؛ فإذا لم تكن يقينيةً فأين يكون اليقين؟ أيكون في تُرَّهاتهم وشُبُهاتِهم وما يسمونه براهينَ؟! هذا كذبٌ.

قوله: «مِنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ»، يعني: أن أسماءه ليست محصورةً فيما ذُكر، فله أسماءٌ كثيرةٌ، بعضها أنزلها في كتابِه، وبعضها علَّمه من يشاء من خَلْقِه، وبعضها استأثر به في علم الغيب عنده، ولهذا وصف نفسَه بأنه الحميد المجيد الذي لا يُحاطُ به في وصفه، فهو واسعُ الأوصاف ـ تعالى وتقدس ـ.

فالمقصود أنَّ الآيات التي فيها التفصيل بأوصاف الله ﷻ كثيرةٌ جدًّا، والقرآن مملوءٌ منها، قَلَّ أن تجد آيةً في كتاب الله إلا وفيها شيءٌ من أسمائه وصفاته ـ تعالى وتقدس ـ.

سبق أن الله ﷻ يُوصَف بالنفي والإثبات، وأنَّ النفي الغالب أنه يأتي مجملًا، وأما الإثبات فإنه يأتي مُفصَّلا، ومَثَّل للنفي بالآيات السابقة، وفي هذه الجُمل يُمثِّل للإثبات المفصَّل.

ومعنى «المفصَّل»: كونه تُذكَر كلُّ صفةٍ بعد صفة، أو يُجمع بينهما، ويُنَصُّ عليها بأنه له هذا الوصف أو هذا الاسم، كما قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فأثبت أنه الإله الحقُّ الذي لا إله غيره، والإله هو الذي تَأْلَهُهُ القلوب رجاءً وخوفًا وحبًّا وإنابة، وهذا من خصائص الله ﷻ، فمن جَعَلَ مِن التَّأَلُّه لغيره شيئًا فقد وقَعَ في الشِّرْك.

قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾. هذه الكلمة التي لا يصحُ لأحدٍ دينٌ ولا إسلامٌ إلا أن يأتي بها صادقًا، ولا بُدَّ من معرفة معناها والعمل بذلك، وهي لها معانٍ عظيمةٌ، فيجب أن يُعتَنى بها، وأن يتعلَّمَ العبدُ معانِيَها هذه التي لا بُدَّ منها.

و«الإله»: هو المألوه، وهذا أيضًا مما يختصُّ الله ﷻ به، ومعنى «الله» كما قال ابن عباس ﵄: «ذو الألوهية والعبودية على خلقِه أجمعين»[(١)]، يعني صاحبَ الألوهية، فهو الذي يجب أن يُؤَلَّه وحدَه، فهذا من خصائصه.

قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: تأكيدٌ لقوله: «الله». ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، يعني: أنه هو المألوه وحده، وكل آلهةٍ غيره تكون باطِلَةً.

قوله: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ نصَّ على اسمه ﴿ٱلْحَىُّ﴾، وجاء بـ «ال» ليعمَّ، فالألف واللام في ﴿ٱلْحَىُّ﴾ تدل على الكمال، فيكون موصوفًا بجميع صفات الذات من العِلْم والقُدْرة والإرادة والسمع والبصر وغير ذلك، ولهذا يقولون: إنَّ هذا الاسم ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ انتظم جميع الأسماء التي تتعلَّق بالذات والتي تتعلَّق بالمشيئة.

فـ «**الحيُّ**» تتعلَّق بذاته ـ تعالى وتقدس ـ، فله كمالُ الأسماء والصفات؛ لأنه حيٌّ الحياةَ الكاملة؛ فمن كانت الحياةُ الكاملة له فله السَّمْع، وله البَصَر، وله العِلْم، وله الإرادة، وله الحكمة، وله جميع الصفات والأسماء التي تَلْزَمُ للحياة الكاملة.

و«**القيوم**» كذلك هو القائم بنفسه الذي لم يحتَجْ في قيامه لأحدٍ بشيء، فهو غنيٌّ بنفسه عن كلِّ ما سواه، ولا قيام لأحدٍ إلا به، فهو القيوم على كُلِّ شيء، هو الذي قام بنفسِه بدون مقيمٍ له، واستغنى بنفسِه عما سواه، وهو المقيمُ لِكُلِّ شيء، وكلُّ شيء لا قيامَ له إلا به، فاشتمل على جميع الأسماء التي تتعلق بالمشيئة.

وقال بعض العلماء: «إن ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ الاسم الأعظم لله، لجمعهما معاني

---

(١) تفسير الطبري (١/ ١٢١).

الأسماء والصفات كلها»؛ ولهذا قالوا: «إن هذين الاسمين معًا ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ هما الاسم الأعظم الذي إذا دُعي الله ﷻ به أجاب، وإذا سُئل به أعطى».

«عن أبي أُمامة يرفعُهُ، قال: «اسمُ اللهِ الأعظمُ الَّذِي إذا دُعِيَ به أجابَ في ثلاثٍ: سُورةِ البقرةِ، وآل عمرانَ وطَهَ» وقال هشامٌ وهو ابنُ عمَّارٍ خطيبُ دمشقَ أمَّا البقرةُ فـ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، وفي آل عمرانَ: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢﴾، وفي طهَ: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾»[(١)].

﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ اسمان جَمَعا جميع الأسماء، وجميع المعاني؛ لأن «الحي» الذي له الحياة الكاملة، والحياة الكاملة تقتضي جميع صفات الحياة - وهي كثيرة -، وكذلك «القيوم» يجمع كلَّ أسماء الأفعال. ومعنى «القيوم»: الذي قام بنفسه واستغنى بذلك، وأقام غيره، ولا قيام لأحدٍ إلا به ﷻ؛ وكذلك حياته - تعالى وتقدس - فهي كاملة ولها الكمال المطلق.

ولهذا فُضلت هذه الآية على سائر آيِ القرآن؛ لأنها انتظمت جميع أسماء الله وصفاته، من صفات الذات وصفات الفعل.

قوله: «**الْآيَةَ بِكَمَالِهَا**»؛ أي: تمام آية الكرسي.

قوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾. هذا من تمام حياته وقيوميته - تعالى وتقدس -، فالسِّنَة هي مبادئ النوم، والنوم نقصٌ، فهو شبيه بالموت، النوم أخو الموت، ولهذا لما سُئل الرسول ﷺ: أينام أهل الجنة؟ قال: «**لا، النوم أخو الموت**»[(٢)]، فهو نقصٌ في الحياة، ولهذا نفاه رب العالمين ﷻ عن نفسه، ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ لكمال حياته ﷻ، فلكمال حياته نَفَى عنه السِّنَة والنوم، - تعالى وتقدس -.

قوله: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾. مُلْكًا وتصرُّفًا. فبيَّن أنه له ما في السماوات وما في الأرض، مُلْكًا لأنه هو الذي أوجده، وهو الذي يتصرَّف فيه كما يشاء.

قوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، يعني: من تمام مُلكه أن لا أحد يستطيع أن يتقدَّم طلبًا للشفاعة حتى يأمُرَه بذلك، كما ثبت ذلك عن رسول الله. وهذا معنى قولِه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾؛ فـ ﴿مَن﴾ هنا استفهامُ إنكارٍ

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٥١٦).

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٢٧٩)، والبيهقي في «شُعب الإيمان» (٤٧٤٥).

على المشركين الذين يزعمون أن الشفاعة تقع بدون إذنه، في المتقدمين والمتأخرين. فلا تقع؛ لا من مَلَكٍ، ولا من رسولٍ، ولا من وليٍّ، ولا من غيرِهم حتى يأذن الله ﷻ، وهذا من تمام ملكه ـ تعالى وتقدس ـ.

وهذه الآية فيها نفيُ الشَّفاعة التي يُزعم أنها تقع بدون أن يأذن الله، وفيها إثباتُ الشفاعة التي تكون بإذنه.

و«الشفاعة»: هي دعاء الشافع، حينما يدعو للمشفوع له، فيضمُّ دعاه إلى دعائه فصار شفعًا بعد ما كان وترًا؛ لأنَّ الشفاعة مأخوذةٌ من الشفع، ولهذا قال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣﴾ [الفجر: ١ ـ ٣] أن الشفع هو المخلوقات، والوتر هو الله؛ لأنه وترٌ لا نظير له ﷻ.

قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾. فيه إثبات العلم الكامل لله ﷻ؛ فعلمه محيطٌ بكلِّ شيء، علم بالسَّابق وباللَّاحق وبالحالي، ولا يفوته شيء، فله العلم الكامل، العلم الذي هو علمه الأزليُّ الذي لا يحتاج إلى زيادةٍ ولا تجدُّدٍ ـ تعالى الله وتقدَّس ـ، وعلمه ﷻ محيطٌ بكُلِّ شيء، بالأمور الماضية وبالأمور المستقبَلة، فلا يفوتُ علمَه شيءٌ من الأشياء دقَّ أو جَلَّ.

قوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾، يعني: لا يدركون شيئًا من معلوماته التي يعلمها إلا من علَّمه الله شيئًا منها؛ أي: أنه لا أحدَ له علمٌ إلا بمشيئة الله ﷻ، فهو المعلِّم ﷻ وإن كان هذا له أسباب معلومة، ولكن هو الذي يُيَسِّرُها ويُسَهِّلُها، وإذا شاء لم يعلِّم شيئًا.

قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ لِعِظَم الكرسي الذي يكون هو أيضًا تحت العرش، فهو أوسعُ من السماوات والأرض، والعرشُ أعظم منه. فأخبر بمخلوقاته العظيمة؛ ليدُلَّ ذلك على عظمة الله ـ تعالى وتقدس ـ.

والكرسيُّ غيرُ العرش، بل هو تحت العرش، وهو أعظم من السماوات كلها والأرضين، والعرش أكبرُ منه بكثير، ولهذا جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أن السماوات بالنسبة للكرسي كسبعة دراهم ألقيت في أرضٍ من فَلَاةٍ، وأنَّ الكرسي بالنسبة للعرش كدرهمٍ أُلقي في فَلَاةٍ»[1]؛ فأكبر المخلوقات هو العرش.

(١) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٢٩٩) برقم (٨٦١)، وابن بطة في الإبانة الكبرى =

و«العرش» في اللغة: اسم السرير الذي يجلس عليه المَلِك، كما قال الله ﷻ في قصة سليمان مع الهدهد: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾ [النمل: ٢٣]، يعني: لها كُرْسِيٌّ تجلِس عليه، فالعرش ما جُعِل للجلوس وهو مرتفع.

فعرش الرحمن ﷻ أعظم المخلوقات وأكبرها، وليس عليه إلا رب العالمين ـ تعالى وتقدس ـ، وهذا يدُلُّنا على أنَّ الكرسيَّ غيرُ العرش، والذي فسَّره بـ«العلم» أخطأ؛ فإنَّ الكرسيَّ كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: «الكرسِيُّ موضِعُ القدمينِ والعرشُ لا يُقَدِّرُهُ إِلَّا الله ﷻ»[1] يعني: قدَمَي الرَّحمن ﷻ، المتنزه عن كل نقص والأحد الذي لا مثيل له.

قوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ﴾، لا يثقله ولا يتعبه حِفْظُ السماوات والأرض، فهو الذي يحفظهما ولا يكترثُ بذلك، ولا يكون عليه ثقيلًا، بل سهلًا ميسورًا، يعني: لا يُثقِله ولا يتبرم به، فهو سهلٌ ميسور عليه حفظُ السماوات والأرض؛ لأنه خلقهما وهو ﷻ القادر على كلِّ شيء، ولا يعجزه شيء.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾. كلُّ هذه من الأسماء المفصَّلة والصِّفات؛ لأنَّ كلَّ اسمٍ أُخذ من صفةٍ، ففي ضمنه الصفة.

والعُلُوُّ له ثلاثةُ معاني:

الأول: علو القَدْر، وهذا لا يُنكره أحدٌ غيرَ أنه لا يَعمل به إلا قليل، فهو العليُّ علو القدر في قلوب عباده المتقين، أما كثيرٌ من الناس فلا قدْرَ لله عنده، ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١].

الثاني: علو القهر، وهذا أيضًا لا يُنكره أحد.

الثالث: علو الذات، وهذا الذي أنكره أهل البدع.

فهو عليٌّ دائمًا، وهذه الأمور ملازمةٌ له ﷻ، علو القدر وعلو القهر وعلو الذات، أما علو القدر فهو كذلك له، ولكن العامل به هم عباده المتقون.

= (٧/ ١٨١) برقم (١٣٦)، من طريق أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

(١) المستدرك للحاكم (٢/ ٢٨٢)، موقوفًا، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وتفسير ابن كثير (١/ ٦٨٠).

المقصود: أن هذه الآية أعظم آية في كتاب الله، لنصِّ أحاديث رسوله ﷺ، ولها خصائص ليس لغيرها من الآيات:

منها: أنها إذا قرأها إنسان حين يأوي إلى فراشه لم يقربه شيطان، ولا يزال عليه من الله حافِظٌ حتى يُصبح، كما في حديث أبي هريرة ﷺ، في «الصحيح»[(١)].

ومنها: أنها جمعت معاني لم تجتمع في غيرها.

ختم الآية بهذين الاسمين ﴿ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٢٥٥﴾:

و﴿ٱلْعَلِىُّ﴾، يعني: له العلو المطلق، علو الذات فهو فوق خلقه، وعلو القهر فهو قاهِرٌ لخلقه ولكلِّ شيء، وعلو القدر؛ ولكن علو القدر فيمن يعرفه في قلوب الملائكة والعِباد المؤمنين الذين يؤمنون به، فله العلو في هذه الأمور الثلاثة.

قوله: ﴿ٱلْعَظِيمُ ۝٢٥٥﴾؛ العظيم في كُلِّ شيء، فهو أعظم من كُلِّ شيء، وأكبر من كُلِّ شيء، ـ تعالى وتقدس ـ.

قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾. عن أُبيِّ بن كَعبٍ ﷺ: أنَّ المشركين قالوا للنَّبيِّ صلَى اللهُ عليه وسلَم: يا مُحمَّدُ، انْسُبْ لنَا ربَّكَ، فأنزَلَ اللهُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾[(٢)]، فهي نَسَبُ ربِّ العالمين، فالله ﷻ فردٌ لا نظير له، وهو ﷻ القائم بنفسه لا أصلَ له، الذي استغنى بنفسِه عن كلِّ شيء، من والدٍ وولد ـ تعالى وتقدس ـ.

قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾: الصمد الذي ليس له جوفٌ، وليس يتطرَّق إليه حاجة، فهو صامدٌ بنفسِه مستغنٍ بها، ويَصمُد إليه كلُّ مخلوقٍ، يسأله حاجَته، ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣﴾ [مريم: ٩٣] ذليلًا خاضعًا، ليس له شيء من دونه يتصرف فيه، وكل مخلوق مفتقر في وجوده إليه تعالى.

قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾، يعني: ليس له أصلٌ صار منه، وليس له فرعٌ تَولَّد منه، ـ تعالى وتقدس ـ.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الوكالة، باب إذا وكَّل رجلًا، فترك الوكيلُ شيئًا فأجازه الموكل فهو جائزٌ، وإن أقرضه إلى أجلٍ مسمًّى جازَ، برقم (٢٣١١).

(٢) سبق تخريجه.

قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾، يعني: أنه ليس له مكافئ، وليس له نظيرٌ ومثَلٌ، ـ تعالى الله وتقدّس ـ.

فهذه السورة خَلُصَت في وصف الله ﷻ، ولهذا سُمِّيَتْ وصفَ الرحمن، ثبت في «الصحيح»: «أن رجلًا أمَّره الرسول ﷺ على سَرِيَّة، فكان إذا قرأ لهم في الصلاة ختم بهذه السورة، فقالوا له: إما أن تقتصر عليها، وإما أن تكتفي بالسورة التي تقرؤها، فقال: ما أنا بفاعل، فلما أَتَوا إلى النبي ﷺ أخبروه، فقال: «**سلوه لِمَ يصنع ذلك؟**» فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن وأنا أحِبُّها، فقال ﷺ: «**أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ**» أو قال: «**أدخله الجنة بحبِّه إياها**»[(١)].

وجاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ، قال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ**»[(٢)]، ومعنى ذلك أن القرآن نزل **لأغراض ثلاثة**:

الأول: الإخبار؛ أي: الإخبارات في الماضي والمستقبل، من قصص الرسل، وقصص الخلق، وما يؤولون إليه.

الثاني: الأمر والنهي الذي هو تكليفه ـ تعالى وتقدس ـ.

الثالث: ما يتعلق بذاته من وصفٍ أو اسمٍ وهي خالصةٌ لهذا.

وقد تقدم الكلام على هذه السورة.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى (٩/ ١١٥) برقم (٧٣٧٥)، ومسلم في صحيحه، في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ (١/ ٥٥٧) برقم (٨١٣).

(٢) تقدم تخريجه.

قال رحمه الله تعالى:

«وَقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ [التحريم: ٢]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ۝٥٤﴾ [الروم: ٥٤]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى: ١١]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٤﴾ [إبراهيم: ٤]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٠٧﴾ [يونس: ١٠٧]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾ [البروج: ١٤ ـ ١٦]».

الشَّرح

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾. جمع بين العلم والحكمة، فهو يضع الأمور في مواضعها ـ تعالى وتقدس ـ، وهو عليمٌ بمحالِّ فضله، كما أنه عليمٌ بمواقع عَدلِه ـ تعالى وتقدس ـ.

والآية تفيد: إثبات العلم مع الحكمة؛ فالحكمةُ كونُه يعلم الأشياء على ما هي عليه، ويضعها في أماكنها ـ تعالى وتقدس ـ اللائقة بها، فهو مع علمه التام الكامل حكيمٌ، والحكيم: البصيرُ بالأشياء التي يفعلها ويأمر بها ويخلقها وغير ذلك.

وقوله: ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ كلاهما صيغةُ مبالغةٍ؛ أي: عظيم العلم الذي عَلِمَه، وقد أحاط بكلِّ شيء، فهو الذي لا يخْفَى عليه شيء، وعِلْمُه محيطٌ في الأزل وفي المستقبل وفي الحالِ، فلا يفوتُه شيءٌ.

فاسمه ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ وله صفة «العلم» التي تقوم بذاته ـ تعالى وتقدس ـ، و﴿ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ الذي أحكم كل شيء في خَلْقِه وحُكْمِه وجزائِه، فهو حكيمٌ ـ صيغة مبالغة ـ أنه أحكَمَ كلَّ شيء، إذا أمر بشيء فهو محكَمٌ، وإذا قضى بشيء فهو محكَمٌ، وجزاؤه كذلك بالإحكام، فهو يضع الأمور في مواضعها، ـ تعالى وتقدس ـ، ولا يفعل شيئًا إلا لحكمة عظيمة، وقد يُطْلِع عليها بعض خلقه، وقد لا يُطْلِع عليها أحدًا.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ۝٥٤﴾. القدير: هو القادر على كلِّ شيء الذي، لا يُعجِزُه شيء.

جمع بين العلم والقدرة ـ ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ ـ، فهو «عليم» صيغة مبالغة، يعني كثيرَ العِلْم وعظيمَه، مع القدرة على كلِّ شيء «قدير»، فإذا حصل كمالُ العلم مع كمال القدرة، كمل الموصوف بذلك. فالله ﷻ له القدرة التامة، فهو على كل شيء قدير، لا يُعجِزُه شيء، وإذا أراد شيئًا قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾. جمع بين السمع والبصر؛ و«السمع»: هو إدراك المسموعات، و«البصر»: إدراك المبصرات؛ لا يشركه فيها غيره.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾: السميع والبصير كلاهما صيغة مبالغة، يعني: عظيم السمع الذي لا يَفُوتُ سمعَه شيءٌ، فيسمع دَبِيب النمل على الصفا في ظلمة الليل، ولا يَفُوتُ سمعَه أيُّ تحرُّكٍ، وإن دَقَّ وخفي.

قالت عائشة ﵂: سبحان من وَسِعَ سمعُه الأصواتَ، لقد جاءت المجادِلَةُ ـ يعني: المرأة التي تجادِلُ في زوجها، حينما ظاهرَ منها، وهي خولة ـ تسأل النبي ﷺ: ما الحكم؟ وماذا يكون؟ فقال: «**لا أراك إلا قد حُرِّمْت عليه**»، وهي تقول: «أشكُو إلى اللهِ فاقتِي وشِدَّةَ حالِي وإنَّ لِي صِبيةً صِغارًا إن ضَمَمتُهُمْ إليه ضاعُوا وإنْ ضَمَمْتُهُمْ إلَيَّ جَاعُوا»(١)، تقول عائشة: يخفى عليَّ بعض كلامها لا أسمعه، وأنا في طائفة البيت، والبيت عبارةٌ عن غرفة واحدة، فأنزل الله من فوق سبع سماوات ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١].

﴿ٱلْبَصِيرُ﴾: عظيم البصر الذي لا يَفُوتُ بصرَه شيءٌ، ولا يحجبه شيءٌ ـ تعالى وتقدس ـ.

وفي «الصحيح» من حديث أبي موسى قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»(٢). و«سُبُحَات وجْهِه»: بهاؤه وجماله وحسنه، تعالى الله وتقدس.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، في كتاب الطلاق، باب في الظهار(٢/ ٢٦٦) برقم (٢٢١٤)، وأحمد في مسنده (٤٥/ ٣٠٠) برقم (٢٧٣١٩)، من حديث خولة بنت ثعلبة ﵂.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «**إن الله لا ينام**»، وفي قوله: «**حجابه النور لو كشفه...**» (١/ ١٦١) برقم (١٧٩)، من حديث أبي موسى الأشعري ﵁.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٤﴾. في هذا جمع بين اسمي «العزيز» و«الحكيم» ليُبيِّن ﷻ أنه مع عزته وكبريائه وعظمته حكيمٌ يضع الأشياء في مواضعها ـ تعالى وتقدس ـ.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: الذي غلب كلَّ شيء وامتنع من كلِّ شيء، وهو ﷻ الذي لا يحتاج إلى شيءٍ في عزته؛ لأنه ﷻ ممتنعٌ بعزَّته ومستغْنٍ بذلك، تعالى الله وتقدس.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٠٧﴾:

﴿ٱلْغَفُورُ﴾: كثير المغفرة، والغَفْرُ معناه السّتْر مع الوقاية؛ لأن هذا أُخِذ من المِغْفر، و«المِغفر»: هو الذي يُوضَع على الرأس ليَقِيَ الرأس من السلاح.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: بليغ الرحمة، غفورٌ كثيرُ المغفرة وعظيمُها، و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ يعني: بليغ الرحمة، و«الرحيم» تتعلق بالمرحوم الذي هو المؤمن، ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝٤٣﴾، و﴿ٱلرَّحْمَٰنَ﴾، فإنه أوسع وأعم.

والرحمة العامة من «الرحمن»، ولهذا جاء «رَحْمَنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ»[1]، فـ «الرحمن» رحمةٌ أعظمُ وأكثرُ، ولهذا يقول ابن عباس في «الرحمن الرحيم»: (اسمان رقيقان أحدهما أرَقُّ من الآخر»، يعني: يدُلَّان على الرجاء الكثير، وأحدُهُما أكثر رجاءً، وهو «الرحمن»؛ لأنه كُلَّما كثرت مباني الكلمة كثرت معانيها كما هو معروفٌ.

والرحمة تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: رحمةٌ هي صفةُ الله تقوم بذاته، لا يجوز أن تؤول ولا أن تُبدَّل ولا أن تُفسر التفسير الذي يُخرجها عن المعنى الذي أخبر الله ﷻ عنه. فهي صفته فليست متجزئةً ولا تُفارِقُه، وكما جاء في الحديث الصحيح أنه قال ﷻ للجنَّة: «**أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِلْؤُهَا**»[2].

---

(١) أخرجه البزار في مسنده (١/ ١٣١)، والبيهقي في الدعوات الكبير (١/ ٤١٢) برقم (٣٠٤)، من حديث عائشة ﵂.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠﴾ [ق: ٣٠] (٦/ ١٣٨) برقم (٤٨٥٠)، وأخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٤/ ٢١٨٦) برقم (٢٨٤٦)، من حديث أبي هريرة ﵁.

القسم الثاني: مخلوق، وهو أثرُ رحمة الله التي تقوم بذاته؛ كما جاء في الحديث الصحيح: «**إن الله خلَق الرحمة مئة جُزْءٍ، فأنزل جزءًا إلى الأرض يتراحَمُ به الخلقُ، وبذلك تَرْفَع الدَّابَّةُ رِجْلَها لولدها، وأمسَكَ عنده تسعًا وتسعين جزءًا؛ فإذا كان يوم القيامة أضاف هذا الجزء الذي أرسله إلى تلك الأجزاء ورحم العباد**»[1]، هذا أثرُ رحمة الله. وقال ﷻ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران: ١٠٧]، في رحمة الله يعني: في الجنة، فسمى الجنة رحمة؛ لأنها من آثار رحمته والعرب يسمون المطر رحمة؛ لأنه من آثار رحمة الله ﷻ.

والمقصود: أنَّ قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾، «الغفور» صيغة مبالغة، وكذلك «الرحيم» كثير المغفرة والرحمة.

و﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ و﴿ٱلْغَفُورُ﴾ كلاهما من أسماء الله ﷻ، وأُخذ هذا من معنى السّتر والوقاية، و«الغَفْر» أصله الستر مع الوقاية، ولهذا يُسَمَّى «المغفرُ» الذي يوضع على الرأس ليَقِي من السلاح، فإذا صار فيه وقاية وستر صار مِغفرًا، أما ستر بلا وقاية فلا يسمى مغفرًا.

فـ «الغفور» الذي يغفر الذنب ويقي أثره، فـ «الغفور» معناه الذي يستر على عباده، ويغفر زلّاتهم بدون مؤاخذة، و«الرحيم» عظيم الرحمة. وجاء «الرحيم» تعلُّقُه بالمؤمنين؛ فإنَّه جاء قوله: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ولكن هذا مطلقٌ هنا في هذه الآية، وليس معلَّقًا بأحدٍ، فيدلُّ على أنه شيءٌ عامٌّ، فرحمته تعمُّ ـ تعالى وتقدس ـ.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾. في هذا جمعٌ بين اسمه «الغفور» مع «الودود»، و«الودود»؛ مأخوذ من الوُدِّ، هو صافي المحبَّة وخالصها، وهذه من خصائصه ـ تعالى وتقدس ـ لا يَشركه فيها أحدٌ من خَلْقِه وإن كان الإنسان يوصَف بأنه غفورٌ؛ أي يغفر لمن أذنب عليه وأساء إليه، وكذلك الوَدُّ يوصَفُ بأنَّ بعض الناس يَوَدُّ بعضًا، ولكن هذه الأوصاف إذا أُضيفت إلى المخلوق فهي تخصُّه، والله لا يُشارِكه فيها، وإذا أُضيفت إلى الله فهي تخصُّه، والمخلوق لا يُشارِك الله في صفاته.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٤/ ٢١٠٩) برقم (٢٧٥٣)، من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه.

قوله: ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ١٥﴾. قُرئ ﴿ٱلۡمَجِيدُ﴾ بالرفع، وقُرئ بالجر؛ فإذا كان جرًّا فهو صفةٌ للعَرْش، وإذا كان بالرَّفع ﴿ٱلۡمَجِيدُ﴾ فهو صفةٌ لله، يعني: صفةٌ لِـ ﴿ذُو﴾، و ﴿ذُو﴾ يعني: صاحب. والعرش جاء مضافًا إلى الله ﷻ فهو خاصٌّ به، واختَصَّه ﷻ واستوى عليه.

و«المجيد» يعني: الواسع الجميل العظيم. و«المجد»: هو السَّعَة في الصفات والحُسن والجمال، و«المجد» كثرة الصفات العظيمة التي لا حصرَ لها؛ فـ «المجيد» معناه: الواسع الجميل الحسن الذي له صفات الكمال.

قوله: ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧﴾. وهذا من خصائِصِه، فلا يوجَدُ مخلوقٌ يفعل ما يُريد، وإنما الفعل يتعلَّق بمشيئة الله ـ إذا شاء الله وجودَ ذلك الفعل، وإلا لم يوجد ـ، أمَّا ربُّ العالمين ﷻ فهو القادِرُ على كلِّ شيء، وإذا أرد شيئًا فعله ولا يحُولُ بينه وبين ذلك حائلٌ.

وبهذا استدلَّ العلماء على أنَّ الله لم يزل يفعل، وأنه لا يجوز أن يكون «صار يفعلُ بعد أن لم يكن»؛ لأن كثيرًا من الناس ينظر في عقله ونظرِه فيقول: الذي جاءنا أن أول المخلوقات إما القلم وإما العرش، ثم السماوات والأرض؛ فما الذي قبلها؟ لم يذكر شيء! وكأنه يجعل لخلق الله مبدأً! وهذا نقصٌ وعيبٌ؛ فالله ﷻ لم يكن مُعطَّلًا عن الفعل، بل هو فَعَّالٌ لما يُريد، ولكن علم الخلق قاصر، ولا يحيطون بالله علمًا لا بذاته، ولا بأفعاله، وأوصافه ـ تعالى وتقدس ـ.

﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٦﴾ «فـعَّـالٌ»؛ أي: أنـه إذا أراد شـيـئًـا فـعـلـه، وهـذا مـن خصائصه ﷻ، فالخلق كلهم يريدون الشيء ولا يحصل، أما هو ﷻ فإذا أراد شيئًا فلا بُدَّ من وقوعه؛ لكماله ﷻ وتمام مُلكِه وتمامِ قُدرَته ـ تعالى وتقدس ـ.

المقصود: أنَّ قوله: ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧﴾ خاصٌّ بالله ﷻ، فكلما أراد شيئًا فعله، بخلاف المخلوق؛ فإنه يريد الشيء فلا يستطيع فعله.

فالله يفعل ما يشاء، وهو الذي جبر كل شيء على ما يريد، فهو قهَّارٌ جَبَّارٌ، له الكبر والكبرياء ـ تعالى وتقدس ـ، ومن نازعه شيئًا منها فإنه يُلقيه في جهنم، فالمشركون لا يعرفون أوصاف الله ولا يقدِّرونه قدره، فيُسبِّح الله نفسَه عما يقوله الظالمون.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وقوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤)﴾ [الحديد: ٣، ٤]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨)﴾ [محمد: ٢٨]، وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] الآيَةَ».

الشرح

قوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾. هذه الأسماء الأربعة متقابلة، ولا يُمكن أن يوصف مخلوقٌ بها؛ فمن كان أوّلًا لا يكون آخِرًا، ومن كان ظاهرًا لا يكون باطنًا، ولا تكون إلا لله تعالى، والله ﷻ اختصَّ بها، وهي من أوصاف الكمال. فهو أولٌ قبل كلِّ شيء، وليس لأوّليّته مبدأٌ ولا لآخريَّته منتهًى، وهو كذلك الظاهر فوق كلِّ شيء، وهو الباطن دون كل شيء.

وقد جاء تفسير هذه الأسماء الأربعة عن رسول الله ﷺ - كما في «صحيح مسلم» -، حيث قال: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ**»(١)، فهذا تفسيرٌ بليغٌ وجيزٌ بيِّنٌ واضِحٌ، فلا عدول لأهل الحق عن هذا الذي جاء عن المصطفى ﷺ، وهذا التفسير تفسيرٌ وجيزٌ بليغٌ ظاهرٌ معلوم، فلا يجوز العدول عنه.

وهذا أحسن ما تُفسَّر به هذه الأسماء، وهذه أسماء متقابلة؛ أي: أنَّ «الأول» يقابله «الآخر»، و«الظاهر» يقابله «الباطن»، وهذا لا يمكن أن يتصف به مخلوقٌ كما ذكرنا، فصفاتُ الله وأسماؤه تخصُّه، وفيها الكمال المطلق لله ﷻ، وهذا يدلُّنا على

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (٤/ ٢٠٨٤) برقم (٢٧١٣)، عن أبي صالح، وهو من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أنَّ الله ﷻ لا يتَّصف بأوصافِه ولا بمعانيها شيءٌ من المخلوقات؛ فإنه فوق هذا وأعظم.

وهذا أولى ما فُسِّرت به هذه الأسماء الكريمة.

قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾. فـ﴿شَيْءٍ﴾ نكرةٌ تفيد العموم، فهو بكل شيء عليمٌ، وعلمه بليغٌ وصل الغاية في الدقة والإحاطة، ولا يفوته شيء - تعالى وتقدس -، فله ﷻ العلم العامُّ الشامل لكل شيء، الذي لا يخرج عنه شيء.

قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾؛ أي: خلق السماوات والأرضين وما فيهنَّ وحدَه، ليس له مشارِكٌ ولا مُعِين، الخلق هو إبداع الشيء بلا تقديرٍ سابقٍ له، فهو ﷻ إذا أراد الشيء قال له: «كن» فيكون، وخلق السماوات والأرض في ستة أيام لحكمةٍ أرادها ﷻ، وإلا لو شاء لقال لها: «كوني» فتكون.

فخلق الله السماوات والأرَضِين في ستة أيام، وقد جاء تفصيل ذلك في سورة فصلت؛ فصّل أنه خلق الأرض في أربعة أيام، ثم استوى إلى السماء ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝١١﴾ [فصلت: ١١] فقضاهن في يومين، يعني: السماوات، وأول هذه الأيام يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة؛ كما ثبت ذلك في الحديث عن رسول الله ﷺ(١).

وهذا أمرٌ متَّفقٌ عليه عند الذين استقبلوا كُتب الله عن أنبيائه مثل: اليهود والنصارى، غيرَ أن اليهود يقولون - كما هو من طريقهم ونهجهم -: «إن الله لما خلق الخلق تَعِب فاستراح يوم السبت»، ولهذا اتخذوا يوم السبت لهم راحةً، وتكلموا في هذا كلامًا قبيحًا، فقال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝٣٨﴾ [ق: ٣٨] يعني: من إعياء وتعب - تعالى الله وتقدس -، فلِلَّهِ حكمةٌ في كونه خلقها في هذه الأيام، ثم هذه الأيامُ: الظاهر أنها كأيَّامنا هذه، ويجوز أن تكون بحركة أفلاكٍ وأمورٍ أخرى غيرُ هذه، والله أعلم.

المقصود: أنَّ هذه الأسماء والصفات يخبر ﷻ بها عن نفسه ليعلم ذلك عِبَادُه، فيعرفوه بما تعرَّف به إليهم؛ فأخبر أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وأخبر في آية أخرى أنه خلق الأرض في أربعة أيام، والسماوات في يومين.

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» برقم (٣٦٨٣) من حديث ابن عباس ﵄.

وهذه الأيام جاء تفسيرُها في الحديث: أنَّ أوَّلَها يوم الأحدُ وآخِرُها يوم الجمعةُ، وهذه الأيام: اللهُ أعلم ما هي؟ لأن خلق السماوات والأرض قبل أن يوجد ليلٌ ونهارٌ وشمسٌ وغيرُ ذلك. يقول بعض العلماء: هي بتقدير أجرامٍ أخرى غيرِ السماوات والأرض؛ لأن الله ﷻ لم يزل يفعل ما يشاء، ويُهلِكُ ما يشاء ويزيل ما يشاء ـ تعالى وتقدس ـ.

قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾. ﴿ثُمَّ﴾ للترتيب والتعقيب والعطف، فهو عطفٌ مرتَّب على خلق السماوات والأرض، ولهذا جاء مطردًا في ستة مواضع من كتاب الله؛ أي: ارتفع وعلا عليه بدون حاجة إليه، بل هو يحمل العرش والسماوات بقدرته، ومع عُلُوِّه لا يخفى عليه شيء في السماوات ولا في الأرض. والاستواءُ يجب أن يكون على ظاهره، وقد فسَّره العلماء؛ علماءُ السلف بأربعةِ ألفاظٍ وكلُّها مترادفةٌ، والتَّرادُف معناه: اختلاف اللفظ واتفاق المعنى؛ فالألفاظ تختلف، ولكن المعنى واحد؛ فقالوا:

الأول: استوى على.

الثاني: استقرَّ.

الثالث: صَعَدَ وعلا واستقرَّ، وكلها سواء.

الرابع: ارتفع.

وكلها بمعنًى واحد، ولا يجوز أن يُؤوَّل تأويلًا يُخرِجُه عن المعنى.

وقد زاد أهلُ البدع في ذلك بأن قالوا: استوى؛ استولى، وهذه الزيادة هذه اللام يقولون هي كـ «نون اليهود» حينما قيل لهم: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨]، فدخلوا يزحفون على أستاههم يقولون: «حبة حنطة»، فبدلوا الفعل والقول؛ لأن عندهم عنادا وتكبرا وإباءً على أنبيائهم. ولهذا لعنهم الله ﷻ وغَضِبَ عليهم.

فالاستيلاء لا يكون إلا بعد المغالبة، ولم يأتِ لا في نصٍّ من نصوص الوحي، ولا فيمن يتكلَّم في معاني الوحي ممن هو مُتَّبعٌ للرسول ﷺ، ذِكْرُ الاستواء على شيء إلا على العرش فقط. أما الاستيلاء فهو ﷻ مستولٍ على كل شيء؛ بمعنى أنه يتصرَّف فيه، فهو الحاكم فيه، هو المتصرِّف والمالك له، هو الذي أوجده، فهذا من الباطل الظَّاهر الجليِّ، ولهذا ضلَّ هؤلاء ضلالًا بعيدًا كما أنهم سلكوا هذا المسلك في صفات الله ﷻ فأصبحوا يؤولونها.

والعجب أنهم يوجبون التأويل، يعني: الكفر يكون واجبًا عندهم! يقولون: إما أن تُؤوّل وإما أن تُفوّض، والتفويض أشرُّ من التأويل. و«التفويض»: كلمة معناها إبطال المعنى نهائيًا، ويقول: «لا تبحث عن معناها فليس لها معنى، ولا يعلم أحدٌ معناها»، فهؤلاء هم أهل الضلَّال؛ الذين هذا وصْفُهم هم الأشاعرة والماتريدية الذين هم ذَنَبٌ للمعتزلةِ.

والمعتزلةُ أعقل منهم في هذه الأمور؛ لأنهم صاروا صُرحاء، ردُّوا ذلك ردًّا؛ حيث قالوا: «لا نقبله»، وبهذا يرتاح الناس منهم يعلمون أن هذا كفرٌ. أما هؤلاء فقالوا: «هذا مُراد الله، وهذا هو الحق، وهذا الذي يجب أن يُتَّبع!»، فأضلُّوا كثيرًا من الناس، وسيأتي الكلام على هذا ـ إن شاء الله ـ في القواعد الآتية.

هذا الاستواء رُتِّب على خلق السماوات والأرض، ولا يلزَمُ أن يكون ﷻ قبل ذلك غيرَ مستوٍ على العرش، فقد ثبت في «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**»[1]، فإذًا هذا التقدير وُجِدَ، والعرش والماء موجودان قبل ذلك، وعرْشُه ﷻ خاصٌّ به، وهو غنيٌّ عن العرش وعن غيره، فهو الذي يقيم العرش ويُمسِكُه بقُوَّتِه وقدرته، كما أنه هو الذي يمسك السماوات والأرض، قال ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ۚ﴾ [فاطر: ٤١]، وقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ﴾ [الرعد: ٣].

انظر إلى السماء كيف بناها رب العالمين. والرسول ﷺ عُرج به من بيت المقدس إلى السماء السابعة، بل إلى سدرة المنتهى التي هي فوق السماء السابعة، وفي كلِّ سماء يستفتح جبريل السماء ـ أي: يطلب ممن وكِّل بالباب أن يفتح له ـ؛ فإذا طرق الباب قيل له من؟ فيقول: جبريل، فيقولون ومن معك؟ فيقول: محمد، فيقولون: أَبُعِث؟ فيقول: نعم، فيفتحون له[2]، في كل سماءٍ ذكر ذلك. فالسماوات

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى ﷺ (٤/ ٢٠٤٤) برقم (٢٦٥٣)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (٤/ ١٠٩) برقم (٣٢٠٧)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ... (١/ ١٤٩) برقم (١٦٤)، من حديث مالك بن صعصعة ﷺ.

لها أبوابٌ ولها كثافة، ولذا قال ﷻ في الكافرين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، يعني: أنه مستحيل دخولهم الجنة.

فـ «الاستواء»: هو الاستقرار على الشيء والعلوُّ عليه والصُّعود فوقه، والله ﷻ استوى على العرش بدون حاجةٍ إليه فهو الغنيُّ عنه، ولكن لأمر أراده ﷻ؛ ولهذا افتتن كثيرٌ من الناس بذلك، وصار بعضُهم ينفي هذا نفيًا باتًّا، ويقول: «الذي يكون في مكانٍ يكون جسمًا»، وما أشبه ذلك، وصار الإنسان قد يكفر من وراء ذلك؛ أما أهل الإيمان فإنَّهم يؤمنون به على ما يليق بعظمته ﷻ ويقبلونه كما قاله ﷻ.

قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، يعني: يدخل فيها مما لا يعلمه إلا الله ﷻ؛ يدخل فيها من كل شيء؛ ماء أو دواب أو غير ذلك.

قوله: ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾. هذا من باب التفصيل، والخارج منها من حيوانٍ ونباتٍ وغيره، والمعنى: أن علمه دقيقٌ في كلِّ الأشياء، لا يفوته شيء.

قوله: ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾. نحن لا نعرف الذي يلج في الأرض أو الذي يخرج منها أو الذي ينزل من السماء أو الذي يعرج فيها؛ إلا نزرًا يسيرًا، والله يعلم كلَّ شيء، ولكنه يُخبرنا عن صفاته حتى نعرِفَه بذلك، وهذا من رحمته ﷻ، فالذي ينزل من السماء أشياء كثيرة، والله أعلم بها.

قوله: ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾، يعني: يصعد إليها، والعروج: هو الصعود.

قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾؛ أي: بعلمه واطِّلاعه وإحاطته، ولا يخفى عليه شيء ـ تعالى وتقدس ـ، فهو على عرشه وهو معنا محيطٌ بنا، لا يخفى عليه شيءٌ من أعمالنا، ولا يفوته شيءٌ من كلامنا، ويعلم ما نتقلَّب فيه، فعلمُه محيطٌ بكل شيء، وهو ﷻ المحيط بخلقه ـ تعالى وتقدس ـ من جميع الجهات.

وليست المعيَّةُ هي الاختلاط والامتزاج، وإنما المعية هي المصاحبة؛ ولهذا كان الرسول ﷺ يقول عندما يريد السفر: «**اللهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ**»، وهذا لا يكون إلا لله ﷻ؛ فمن كان خليفةً في الأهل لا يكون مصاحبًا للمسافر، ولكن الله ﷻ لا يفوتُه شيءٌ، وهو محيطٌ بكلِّ شيء، وهو على عرشه، وهو مع خلقه بعلْمِه وسمعِه وبصرِه وإحاطتِه وحفظِه وكلاءتِه أو مراقبته، وسيأتي كلامه في المعيَّة إن شاء الله. فمعنى: «**أنت الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ**»

أنه صاحبه في مسيره، وهو الذي يخلُفُه في أهله؛ لأنه ﷻ لا يفوته شيء، وهو محيطٌ بكل شيء - تعالى وتقدس -، فدلَّ على أن المعيَّة معناها المصاحبة.

وقد عُرِفَ في كلام العرب الذين نزل القرآن بلغتهم أنهم يقولون: «سَرَيْنا مع القمر»، والقمر في السماء وهم في الأرض، وهو كلامٌ فصيحٌ ظاهر، فالذي يعتقد أو يقول: أن المعية معناها الاختلاط بالخلق فهذا كلامٌ باطل، واعتقادٌ ضالٌ برب العالمين - تعالى وتقدس -.

ولهذا: فإن «المعية» انقسمت إلى قسمين - كما في هذه الآية، وفي قوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ [طه: ٤٦] -:

* **قسمٌ دلَّ على المراقبة والتخويف**؛ كما في هذه الآية، ويقول ﷻ لما ذكر أنه مستوٍ على العرش يقول: «لا يخفى عليَّ من أقوالكم ومن أفعالكم شيءٌ، فراقبوا ربكم، خافوه، فإن أعمالكم كلها محفوظة مشاهدة».

* **وأما في آية المعية الخاصة: فهي تدلُّ على الحفظ والكلاءة**. فقوله في موسى وأخيه ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾، يعني: دون فرعون وقومه؛ فهو مع موسى، وليس مع فرعون والكافرين.

ومثل ذلك قول المصطفى ﷺ في الغار لصاحبه أبي بكر، حين قال له أبو بكر: يا رسول الله، لو نظر أحدُهم إلى قدَمَيْه لأبصرنا، قال ﷺ: **«لا تخَفْ! مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا»**(١)، يعني: الله معهما دون الكافرين، فإذا كانت المعيَّة تنقسم لهذين القسمين امتنع أن يكون معناها الامتزاج والاختلاط بالشيء، تعالى الله وتقدس عن قول الظالمين الذين يظنون بالله ظن السوء.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ۝٤﴾. فمعِيَّته ﷻ لا تنافي علُوَّه، فهو العليُّ الأعلى وهو مع خلقه - تعالى وتقدس -، وهو بصيرٌ بعمل عبادِه، لا يخفى عليه شيء من ذلك ولا غيره.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: ٤٠] (٦/ ٦٦) برقم (٤٦٦٣)، ومسلم في صحيحه، في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل أبي بكر الصديق ﷺ (٤/ ١٨٥٤) برقم (٢٣٨١)، من حديث أبي بكر الصديق ﷺ.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٢٨﴾. هذا نوعٌ آخر من الأوصاف، وهو أن الله ﷻ يوصف بأنه يسْخَط على بعض عباده، وأنه يكرَه بعض الأمور من الأعيان والأفعال. فهذه الآية فيها ذكر السُّخْط، وأنه يسخط ﷻ ويرضى، فهو يرضى - تعالى وتقدس - عمن يطيعه، ويسخط على من يعصيه ويعصي رسله.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾. فالآية فيها ذكر السُّخْط، أن الله يسخط وأنه يرضى، فهذا أيضًا مما يُوصَف الله ﷻ به كما أخبر ذلك عن نفسه ﷻ، فهو ﷻ يسخط على من يشاء من عباده الذين يعملون بمساخطه - تعالى وتقدس -، كما أنه تعالى يرضى على من يتبع مرضاته ممن يوفقهم لما يحبه ويرضاه.

و«الحبوط» هو الإبطال نهائيًا أو إبطالُ الأثر، فلا يكون لهم أيُّ ثواب، ولكن يكون لهم عقابٌ يُعاقبون عليه.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَقَوْلِهِ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]، وَقَوْلِه: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٣]، وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [غافر: ١٠]، وَقَوْلِهِ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وَقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت: ١١]».

الشَّرح

قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. هذه الآية فيها المحبة؛ أنَّ الله يُحِب ويُحَب.

وقد أنكر أهل البدع هذه الأوصاف كلَّها؛ فأنكروا «السُّخْط»، وأنكروا «الرضا»، وأنكروا أيضًا «الحب». والسبب: أنهم قاسوه على ما يعرفون، فيقولون: «الحب يقتضي الحاجة» أو: «الحب يقتضي الميل إلى المحبوب، والميل فيه حاجةٌ»، وهذا يفسرونه بما يجدونه من أنفسهم، فهم شبَّهوا أولًا، ثم عطَّلوا ثانيًا، وهكذا أهلُ الباطل.

والله ﷻ حُبُّه من صفاته، وحُبُّه حبُّ ذُلٍّ وخوفٍ ورجاءٍ وإنابة. وأما كونه يحِبُّ عبادَه فهذا أيضًا من أوصافه التي لا يشارِكه فيها غيره - تعالى وتقدس -، وليس معنى ذلك أنه بحاجة إليهم، بل هو الغني بذاته عن كل من سواه. ومحبة الله ﷻ لعبده تكون محبَّةَ رحمةٍ وإثابةٍ وإحسانٍ، ولكنها صفةٌ تقوم بذاته، ولها أثرٌ يتعلق بالمخلوق.

المقصود: أنَّ قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ فيه إثبات أنه يُحِبُّ المؤمنين الذين يجاهدون في سبيله، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى

سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف: ٤]، فيحبُّ من يعمل بطاعته من المتَّقين والمحسنينَ والتَّوَّابين، ويرضى عمن يشاء من أهل الطاعة.

وكذلك المؤمنون يحبون الله، وحُبُّ الله هو التألُّه الذي فيه الذُّلُّ والتعظيم، وحبُّه ﷻ صفةٌ تليق بعظمته من غير حاجةٍ، فهو ﷻ الكامل بأوصافه وأفعاله.

قوله: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾. هذه أيضًا صفةٌ أخرى، وهي صفةُ «الرضا»، فإنَّ الله يرضى كما أنه يغضب؛ فمن رضي عنه فإنه يلزم أن يرضى عن ربه، وهذا لا عجبَ فيه، فالعبد يجب أن يرضى عن ربِّه على كلِّ حالٍ، ولكن هذا فخرٌ لمن خوطبوا بهذا، وفضلٌ ليس فوقه فضلٌ، وهؤلاء الذين خوطبوا بذلك هم الصحابة: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، ولهذا يُسمون أهل بيعة الرضوان، وكانوا ألفًا وأربعمائة أو زيادة(١).

وهو ﷻ يرضى عن كلِّ متقٍّ له متبعٍ لأمره مجتَنِبٍ لنهيه؛ فمن رضي الله عنه فقد سَعِد السعادة التي لا تُشبه السعادة المعروفة عندنا. فالله يرضى عمَّن يطيعه ويتَّبع رسله.

﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾: إخبارٌ عن الصحابة أنهم رضوا عن الله جزاءه لهم؛ فإنه رضي عنهم ورضوا عنه، وهذا خبرٌ من الله ﷻ عن الصحابة بأنهم أهل الرضا، وأهل الجزاء الذي سوف يجزيهم على ما رضي عنهم. وهذا جاء في آياتٍ عِدَّةٍ، يخبر عنهم بأنهم رضوا عن الله، وأنَّ الله رضي عنهم، وأنه سوف يجزيهم أفضل الجزاء. ومعلومٌ أنَّ الصحابة كما قال الرسول ﷺ: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»، فأطلق العموم، قال: «**خَيْرُ النَّاسِ...**» ثم قال: «**ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ**»(٢)، فهم أفضل الخلق بعد الرسل.

والله ﷻ يَرْضَى، ولكن ليس كَرِضَا عباده، كسائر صفاته فإنها لا تشبه صفات المخلوقين.

وكذلك المؤمنون يرضون عن ربهم ﷻ، ولكن المؤمنون لا مِنَّة على الله منهم، بل المِنَّة كلُّها من الله على جميع خلقه، فلا يمكن إلا أن يَرضَوا إذا جازاهم، ولكن معنى هذا أنه يجازيهم فوق ما يستحقُّونه بعملهم بأمورٍ كثيرةٍ.

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٤٥٩)، وتفسير القرطبي (١٦/ ٢٧٤).

(٢) سبق تخريجه.

قوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٣]. هذا فيه من الأوصاف كونه ﷻ يغضب، وكونه يلعن، فهو تعالى يغضب على من يستحقُّ الغضب، ويلعن من يستحقُّ اللعنة.

و«اللَّعن»: هو الطرد والإبعاد عن مَواطِن الرحمة، فمن لعنه الله فهو الملعون المبعد المطرود؛ فالله تعالى يغضب ويلعن من يشاء من أهل المعصية، ومن يرتكب ما نهاه عنه إذا لم يَتُب، كمن يقتلُ المؤمنَ متعمدًا.

فوصف ﷻ نفسَه بأنه يغضب وأنه يلعن، كما أنه يرضى ويرحم، فيجب أن نقرر له ما أخبر به عن نفسه ـ تعالى وتقدس ـ على ما يليق بعظمته.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾. لما ذكر الله ﷻ أنَّ الكافرين إذا عاينوا جزاءهم يَمْقُتون أنفسهم. و«المَقْتُ»: هو أشد الكراهية والبغض، فيقال لهم: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، ففيه إثبات أنَّ الله يمقُتُ من يستحقُّ المقت، فهو تعالى يَمْقُتُ أهلَ الكذب والإفك والكفر.

وهذا يكون يوم القيامة، والكفار يمْقُتون أنفسهم، يقولون: كيف كفرنا؟! كيف لم نؤمن؟ كيف يأتينا الرسول ولا نتبعه؟ فمعلومٌ أنهم بهذا يستحقُّون المقت، فيقول الله ﷻ: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: مَقْتُ الله أعظم من مَقتِكم أنفسكم، ولهذا صار من آثاره تعذيبكم في جهنم خالدين فيها أبدًا.

فالمقصود: أن الله ﷻ يُخبر أنه يمْقُت، كما قال ﷻ في آيةٍ أخرى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف: ٣].

قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾. الخطابُ لمن في الأرض للكافرين وغيرهم. **وقوله**: ﴿يَنظُرُونَ﴾، يعني: ينتظرون، وهذا وعدٌ ليوم القيامة؛ فإنه يأتي إلى الأرض ﷻ يفصل بين خلقه ويجازيهم، وإتيانه إلى الأرض وهو فوق عرشه لا يكون شيئًا فوقه؛ لأنه أكبر من كلِّ شيء وأعظم من كلِّ شيء ـ تعالى وتقدس ـ.

والإتيان والمجيء شيءٌ واحدٌ، ولهذا جاء في آية آخرى ذكر المجيء: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢٢]، وفي هذه الآية قال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾.

وما ورَدَ من الإتيان: فعلى ظاهرِه، يجب أن نؤمن به، ولكنه خاصٌّ بالله، ليس كالإتيان الذي يعرفه الناس من أفعالهم ونُظرائهم، وإنما هو إتيان يخصُّه ويليق بعظمته، فهو يأتي إلى الأرض وهو على عرشه فوق خلقه كلِّهم، لا يكون فوقه شيء؛ لأنَّ الفوقية والعلوَّ من لوازم الذات، فلا تنفكُّ هذه الصفة عنه ﷻ.

ومثل ذلك يُقال في النزول الذي تواترت الأحاديث فيه عن رسول الله ﷺ: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ**»[1]، وكل ذلك جودٌ وإحسانٌ وكرمٌ إلى عباده، وإلا فهو غنيٌّ عنهم وعن سؤالهم وتوبتهم: «**لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا**»[2]، وبالعكس لو اجتمعوا كلهم على التُّقَى والطاعة والاهتداء، ما زاد ذلك في مُلك الله شيئًا.

فليس له من خلقه لا عزة ولا تَكثُر ولا شيءٌ يكتسبه من صفاته، وإنما هو يُحسن إليهم ويُكرمهم، ولكن ابتلاهم بالأمر والنهي؛ فمن اتَّبع أمره واجتنب نهيه فله الكرامة والسعادة، ومن أبى فاللَّوم عليه ولا يَجني إلا على نفسه، ولا يضرُّ اللهَ شيئًا ولا يُعجز الله أينما كان.

المقصود: أن قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ هذا فيه وصف الإتيان لله ﷻ، وهذا يكون يوم القيامة إتيان إلى الأرض؛ فإنه ينزل إلى الأرض وهو على كرسيه فوق سماواته كلها، ويحكم بين خلقه بنفسه فهو الذي يحاسبهم ويخاطبهم جميعًا، ولكن كثير منهم لا يستحق الخطاب ولا يُكلَّم ولا يُزكَّى، بل يؤمر به إلى جهنم، والذي يكون عنده التَّخليط هو الذي يحاسَب.

والنَّاس في ذلك الموقف ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من يسبق إلى الجنة بلا حساب.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل (٢/ ٥٣) برقم (١١٤٥)، واللفظ له، ومسلم في صحيحه (١/ ٥٢٢) برقم (٧٥٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٤/ ١٩٩٤) برقم (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

القسم الثاني: من يُذهَب به إلى النار بلا حساب، بل تُعرَض عليه أعماله ويُقرَّر بها فقط.

القسم الثالث: الذين يُحاسَبون، والذين لهم الحسنات والسيئات.

أما الذين صارت حسناتهم هي الغالبة فهم لا يحاسبون؛ كما قال ﷺ في أمته: فيهم «**سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ**»(١).

فالمقصود: أنه يأتي إلى عباده وهم فوق الأرض وُقوفٌ، يحاسبهم ثم يذهبون إلى أماكنهم وإلى مساكنهم ـ إما إلى الجنة أو إلى النار ـ.

فالمؤمن إذا كان عنده ذنوب كثيرة واستحق بذلك الجزاء؛ فإنه لا يبقى في النار بل يخرج منها، ولكنهم يتفاوتون تفاوتًا عظيمًا في ذلك.

قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾، يعني: أن هذا يدل على علوه ـ تعالى وتقدس ـ وأنه مُرتفِعٌ.

يقصد بـ «السماء»: تارة السماء التي بناها تعالى، ولكن في هذه الآية قُصد بها العلو قطعًا وليس السماء المبنية؛ لأن هذا قبل وجودها، ولهذا يقول: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾.

وهذا يجب أن نؤمن به على ظاهره بأنها قالت حقيقةً، وكثيرٌ من المفسرين يقول: ﴿قَالَتَا﴾، يعني: أجابت ربَّهما بالفعل لا بالقول، ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾، هذا يجوز أن يكون قولًا باللسان، ويجوز أن يكون بالفعل أنها صارت كما أراد الله ﷻ.

قوله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا﴾ يفيد أنه يتكلم إذا شاء، ويكلِّم مَن يشاء من عباده، ويقول وقولُه الحق.

و«الاستواء»: هو العلو. ومعنى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: قصد إلى السماء أو صعد إليها.

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا﴾، يعني: إن لم تأتِ طوعًا تأتي كرهًا ولا بُدَّ؛ فإنه ﷻ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الطب، باب من لم يَرْقِ (٧/ ١٣٤) برقم (٥٧٥٢)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب (١/ ١٩٩) برقم (٢٢٠)، من حديث عبد الله بن عباس ﷺ.

إذا أراد شيئًا لا بُدَّ من إتيانه على ما أراد - تعالى وتقدس -. وقد قال بعض المفسرين في هذه الآية - مثل ابن كثير وغيره في قوله -: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ يقولون: «قصد»[1]؛ لأن السماء لم تكن حينئذٍ ولم توجد، واستدلوا بقوله ﷻ في سورة النازعات: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾ [النازعات: ٢٧ - ٣١]، فـ«الدَّحْوُ» هو إخراج الماء والمرعى وإرساءُ الجبال، وأرسيت الجبال حتى لا تضطرب بأهلها وبمَن عليها، فرَسَتْ وثبتت، فالجبال التي أمسكتها.

* * *

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢١٣)، وتفسير البغوي (١/ ٧٨).

قال رحمه الله تعالى:

«وَقَوْلِهِ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ [مريم: ٥٢]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [القصص: ٧٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، وَقَوْلِهِ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤]».

الشرح

هذه الآيات من أدلة صفة الكلام، وأنه يتكلم حقيقة. والكلام المعروف في اللغة وعند التخاطب هو: ما كان بحرفٍ وصوت، وغير ذلك لا يُسمى كلامًا إلا أن مقيَّدا، كأن يقال: «وقالوا بأنفسهم»، فلا بُدَّ من القيد.

أما إذا جاء: «قالوا» أو «تكلم» أو «نادى»، فهذا لا يكون إلا بالحرف والصوت. وهذا يُنكره أهل البدع ولا سيَّما الأشعريَّة؛ فإنهم يقولون: «الكلام: هو المعنى الواحد القائم بالذات، وهو عبارةٌ عن الأمر والنهي والخبر والاستخبار ومعنًى واحد، كيف يكون الكلام عن معنًى واحد؟ وكيف يكون قائما بالذات؟! هذا إنكارٌ! لأن الله ﷻ يتكلم إذا شاء ـ تعالى وتقدس ـ.

وهذه المسألة من أكبر المسائل، والضَّلال فيها ظاهرٌ وبيِّنٌ؛ فأول من أنكر «الكلام» و«الخلة» و«المحبة» رَجُلٌ مُتهم يُظنُّ أنه يهوديٌّ، ثم أخذ عنه من يُسمى الجعد بن درهم وأظهرَه، ولكن في ذلك الوقت كان الإسلام عزيزًا قويًا، فلما فاهَ بهذا المنكر أُخذ وقُيِّد وأتى به أحدُ القادة الذين يقودون الجيوش في القتال ـ في قتال الكفار ـ، وهو خالد بن عبد الله القسري رحمه الله، وكان في ذلك الوقت لا يُعيَّن قائدٌ إلا من كان عالمًا يخطب ويُصلِّي بالنَّاس.

فجاء به يومَ عيدِ أضحى ليُصلي بالناس، فصلى ثم خطب وفي آخر الخطبة قال: «ضحُّوا أيُّها النَّاسُ تقبل اللهُ ضحاياكُمْ، فإنِّي مُضحٍّ بالجعدِ بن درهم، إنَّهُ زعم أنَّ اللهَ لَمْ يَتَّخِذْ إبراهيمُ خلِيلًا، ولَمْ يُكَلِّمْ مُوسَى تَكلِيمًا، تعالى اللهُ عمَّا يقولُ الجعدُ علُوًّا كبيرًا ثمَّ نَزَلَ فذَبَحَهُ وكان ذلكَ في زمنِ التَّابِعِينَ، فشكَرُوا ذلك[1]؛ لأن هذا في الحقيقة ردعٌ للزنادقة، ولكن لا ينثنون عن باطلهم.

ولكن قبل هذا كان تتلمذ عليه رجلٌ يُقال له: الجهم بن صفوان، فهرب إلى المشرق لما قُتل شيخُه، وطُلب فأدركه أحدُ القادة؛ سَلْم بن أحوز فَادّعى جهم الأمان، فَقَالَ لَهُ سَلْم: لَو كنت فِي بَطْني لشققته حَتَّى أَقْتلك فَقتله[2]. جزاه الله خيرا، ولكن هل ذهب الباطل؟ بقيت شرورهم.

ولهذا كلُّ شرٍّ من هذا القبيل يُضاف إلى الجهمية الذين إمامهم هو الجعد، ثم كانوا معتزلةً بعد ذلك. ولم تكن المعتزلةُ أول أمرهم جهمية، بل ثم صاروا جهميةً، ثم صارت الأشاعرة جهميَّةً فيما يقولونه في الله ﷻ؛ فإنهم يتبعون أهل الباطل في كثير مما يقولونه.

والمقصود: أن هذا من الأمور الكبيرة، وهو إثبات كونِ الله يتكلَّم حقيقةً. وإنكارُ الكلام يلزم منه إنكارُ الإسلام كلِّه من مبدأه إلى منتهاه. إذا كان الله لا يتكلَّم؛ فكيف أرسل الرسل؟ وكيف شرع شرائعه؟ وكيف أمر ونهى؟ وكيف أنزل الكتب؟

لكنهم بناءً على مذهبهم الفاسد يقولون: «الكُتب هي معاني كلام الله وليست هي كلام الله!»، فيقال: فإذًا: المصحف يجوز أنه يُدنَّس، ويجوز أن يُداسَ بالأقدام، ويجوز أنه لا يُحترم؛ لأنه ليس كلام الله، وإنما هو معنى كلام الله؟!، هذا مقتضى كلامهم، وقد يطبقون ذلك ويفعلونه!

إذًا: من الذي اطلع على ما في نفس الله حتى يأتي بهذا المعنى؟! وهذا من العجائب! يقولون: «إن جبريل أخذه من اللوح المحفوظ!». وهذا تناقض ومنكر. وإن كانوا في الأصل يقولون: «نفرُّ من التشبيه»، والحقيقة أن التشبيه مُستكِنٌّ في

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٩).
(٢) توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة ابن القيم لابن عيسى (١/ ٤٦).

نفوسهم، وهو الذي حملهم على التعطيل والتأويل الفاسد، بل التحريف، وليس تأويلًا؛ لأن التأويل قد يكون له معنًى صحيحًا، أما تأويلهم فهو في الحقيقة تحريفٌ ولعب؛ لعبٌ في كتاب الله، وفي آيات الله وأسمائه وصفاته ـ تعالى وتقدس ـ.

ثم إذا كان معنًى واحدًا، فيلزم أن تكون: «آية الدين»، هي «آية الكرسي»، وهي: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ ولا فرق؛ لأنها معنًى واحدٌ، كلها معنى واحد، والتوراة هي الإنجيل، والإنجيل هو القرآن، لأنهم يقولون: «هذا معنى واحد!».

فالمقصود: أنَّ الباطل له توابعُ كثيرةٌ وهي باطلة.

ثم من نتبع؟ نتبع أصحاب الشكوك والأوهام الذين شكوا في ربهم ومعبودهم؟ أم نتبع كلام ربنا ﷻ وكلام رسولنا ﷺ؟!

أمَّا قولهم: «إن الكلام يتطلب أدوات الكلام»، ويقولون: «يكون باللسان والشفتين واللهاة والحنجرة وحبال صوتيه إلى آخرها»، فكلام من هذا الذي يتطلب هذه الأمور؟

كلام المخلوق، كلام الإنسان! فمعنى هذا أن التشبيه عندهم ابتداءً ثابت، فصار هذا مُستكنًّا في نفوسهم، فنفوا الكلام عن الله ﷻ لئلا تلزم هذه اللوازم.

ولكن يُقال لهم: الله ﷻ يُنطِق كل شيء ويتكلم كيف يشاء، **فهل الأعضاءُ لها لسان**، والسمع والبصر له لسان، كما قال الله ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٠﴾ [فصلت: ٢٠]؛ فما هو لسان الجِلْد؟! والأرض لها لسان: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ [الزلزلة: ٤ ـ ٥]. فالأرض كلُّها تتكلم وتقول: «عُمل علي كذا وكذا يوم كذا وكذا في كذا وكذا»، والصحابة كانوا يسمعون تسبيح الطعام وهم يأكلونه، وتسبيح الحصى وغير ذلك، ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

ثم يقولون أيضًا تبعًا للمعتزلة: «الكلام يكون له مقاطعُ، وله أوَّلٌ وآخِرٌ ووسَطٌ، وما كان كذلك فهو يكون حادثًا، وما كان مَحَلًا للحوادث فهو حادِثٌ، فالذي يتكلم يكون حادثًا مُحدَثًا»، فعلى هذا الأساس: من أين هذا الدليل؟

هل نزل به الوحي أو أنه زُبالة الأفكار ونُحاتَة الأذهان الفاسدة التي أنتجها الشيطان حتى يصدوا بذلك عن دين الله؟! وكم من الأمم ضَلَّت بهذه الأمور؟! أُممٌ

من هذه الأمة لا حصر لهم ضلوا في هذا، وكانوا يتبعون هذه التُّرهات، وهذا الباطل وماتوا على ذلك، من المسئول عن هؤلاء؟

هم مسؤولون عن أنفسهم بلا شك؛ لأنَّ عندهم عقولًا وأفكارًا؛ قال ﷺ: «**ومن دَعَا إلى ضَلالةٍ، كانَ عليهِ مِنَ الإثمِ مِثْلُ آثَامِ منْ تَبعهُ، لا يَنقُصُ ذلِكَ مِنْ آثَامِهِم شيئًا**»[١]، فكيف من يُضِلُّ بهذا السبيل أُمَمًا متتابعة؟! ولكن لا يبالون بمثل هذا؛ لأنهم يرون أن هذا هو الذي يجب أن يُعتقد ويُقال به، وإن كانوا لا يشعرون بضلالهم، فهم في غيِّهم يعمهون، يحسبون أنهم على هدًى وهم في ضلالٍ.

نقول: إنَّ هذه نظرٌ للمخلوق؛ لأنكم شبَّهتم أولًا ثم عطَّلتم ثانيًا، ولو أنكم اتبعتم الحق وآمنتم بقول الله من أوَّل الأمر لسَلِمتم من هذا الانحراف.

قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ١٦٤﴾ أفاد إثبات صفة الكلام.

والتكليمُ مصدرٌ، يُعَيِّنُ أن يكون المرادُ: الكلام الذي هو النطق بالحروف والصوت؛ لأن المصدر إذا جاء تأكيدًا للفعل فلا يقبل إلا الحقيقة التي تُكلم بها.

فإذا قال أحد: «فلانٌ كلَّم فلانًا»، فهذا يحتمل أنه كلَّمه بالإشارة أو كلمه بالكتابة أو كلمه بالمشافهة، فإذا جيء بعد ذلك «تكليمًا» فهذا لا يحتمل إلا الكلام اللفظي المسموع الذي يُسمَع؛ فأُكد الكلام بالمصدر الذي يدل على الحقيقة؛ مثل ما إذا قال الإنسان مثلًا: «ضربت فلانًا» هذا يحتمل أنه ضربه بكلامٍ يجرح خاطره أو ضربه بشيء أخذه منه، من مالٍ أو حق أو ضربه بالسوط أو بيده، فإذا قال: «ضربته ضربًا» فلا يحتمل إلا الضرب الذي يكون باليد، سواءٌ كان بآلة أو بغير آلة.

فالله ﷻ وصف نفسه بأنه يتكلم، وأنه كلَّم موسى بلا واسطةٍ، وهو على عرشه وموسى بالأرض - تعالى الله وتقدس -، وسمع موسى كلام الله ﷻ ووعاه كما أراد الله ﷻ، وهنا لما قال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ١٦٤﴾، فصار نصًّا في إثبات الكلام لله ﷻ، لا يحتمل غير هذا.

كلامُه ﷻ من كماله، والذي يتكلَّم أكمل من الذي لا يتكلَّم، ولهذا عاب الله ﷻ على الكافرين الذين يَدْعُون حَجَرًا أو شجرًا أو الذين دَعَوا العجل أنه

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة (٤/ ٢٠٦٠) برقم (٢٦٧٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لا يكلِّمهم ولا يهديهم. فالكلام جاء ذكره وصفًا لربِّ العالمين في آياتٍ كثيرةٍ، ومنكر الكلام يلزمه أن ينكر الرسالة وينكر الدِّين كله؛ لأن الرسالة حاصلة بالكلام، فالله يرسل رسوله ويكلمه بكلامٍ يأمره أن يذهب إلى قوم يبلغهم رسالة الله، وكذلك دينه هو كلامه أمرُه ونهيُه.

والمقصود: أن من صفات الله تعالى الكلام، فهو يتكلَّم إذا شاء، ويسمع كلامه من يشاء من خلقه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾، و﴿تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ مصدر يؤكد أنه كلام حقيقة.

قوله: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ٥٢﴾ [مريم: ٥٢] في هذه الآية جمع فيها بين المناداة والمناجاة ـ ناداه ثم ناجاه ـ، وهذا من أبلغ الأدلة على إثبات الكلام لله ﷻ.

و«المناداة» من أبلغ الأدلة على إثبات الكلام؛ لأن النداء هو رفع الصوت بالكلام، فالنداء يُقابله «المناجاة»، وربنا ﷻ موصوف بكليهما:

فيوصف بأنه يُنادي، وقد وقع أنه نادى آدم، ونادى من شاء. وقد جاء النداء في كتاب الله في اثنتي عشرة آية من كتاب الله؛ وثبت في «الصحيحين» أن الرسول ﷺ يقول: «**يَقُولُ اللهُ** ﷻ **يَوْمَ القِيَامَةِ: يَا آدَمُ، يَقُولُ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيُنَادَى بِصَوْتٍ**»، يُناديه بصوتٍ، هل فيه أبلغ من هذا؟ «**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ، قَالَ: يَا رَبِّ وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ**»(١). إذًا: الذي يدخل الجنة من بني آدم واحدٌ من الألف، والبقية كلُّهم في النار، نسأل الله العافية؛ لأنَّ أسباب الضلال كثيرة.

وكذلك نادى آدم في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢﴾ [الأعراف: ٢٢]؛ في اثنتي عشرة آية من كتاب الله ﷻ، في سورة القصص فقط أربعة مواضع؛ قال الله ﷻ: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ [الحج: ٢] (٦/٩٧) برقم (٤٧٤١)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب قوله: يقول الله لآدم أخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين (١/٢٠١) برقم (٢٢٢)، من حديث أبي سعيدٍ الخدري ﷺ.

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٠﴾ [القصص: ٣٠]، وقال ﷻ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٦٢﴾ [القصص: ٦٢]، وقال ﷻ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦٥﴾ [القصص: ٦٥]، وقال ﷻ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٦٢﴾ [القصص: ٧٤]، وفي غيرها أيضًا مفرقٌ في كتاب الله ﷻ.

قوله: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾. هذا في موسى عليه السلام. و«الطور»: الجبل الذي فيه شجر؛ فإذا كان الجبل فيه شجر ونبات فهو طُورٌ، وإذا لم يكن فيه شجر ونبات فليس بطور. ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾، يعني: من الجانب الأيمن، ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝٥٢﴾، فهو مقرَّبٌ، والله يناجيه والله فوق عرشه، وموسى في ذلك المكان، ففيه إثبات الكلام والنداء، وهذا من أبلغ ما يدلُّ على إثبات الكلام لله ﷻ؛ لأن النداء يكون بالصوت المرتفع، ولا بُدَّ أن يكون بحرفٍ وصوتٍ.

قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٦٢﴾ [القصص: ٦٢]. هذا يوم القيامة؛ وهذه الآية فيها إثبات الكلام؛ لأن إثبات النداء من أبلغ ما يُستدل به على إثبات كلام الله ﷻ.

ومقصوده بذلك: الرد على المُبطِلة المعطِّلة الذين نَفَوا كلام الله ﷻ وقالوا: إنه لا يتكلَّم، وقال الأشاعرة: إن كلام الله معنى واحدٌ قائمٌ بذاته، فمعنى «واحدٍ»: إما أن يتكلم بالكلام بحرفٍ وصوتٍ ويسمع، فهذا عندهم ممتنعٌ، وهذا من أبطل ما يكون، وكيف يكونون من أهل السنة وهم يقولون هذا القول؟!

قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾؛ أي: أنه يقول للأشياء: «كُن»، فإذا كان كلامه هو المعنى القائم بذاته، فكيف يقول للشيء: «كن» فيكون؟! وهذا من أبلغ ما يُبطل هذا القول الفاسد؛ مع أنه باطلٌ في نفسه ما يحتاج إلى استدلال على إبطاله؛ حيث أثبت أنه يقول ﷻ، وأنه إذا قال للشيء: «كن» فكان، وهذا يدلنا على أن كلامه ﷻ قد يكون كَوْنِيًّا، يكون به الأشياء، وقد يكون أمريًّا دينيًّا شرعيًّا، يكون به الأمر والنهي، وكلُّه حقٌّ.

والإرادة نوعان:

النوع الأول: إرادة كونية قدرية؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾.

النوع الثاني: إرادة شرعية دينية؛ كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾؛ أي: لتمام قوته وقدرته أنه إذا أراد خلق شيء أو إعدام شيء أو عذاب أحد أو ما أشبه ذلك قال: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ بعد قوله: «كن» مباشرة. وكثيرٌ من الناس يقول: سبحان من يكون أمره بين الكاف والنون، وهو ليس بين الكاف والنون، وإنما هو بعد قوله «كن»، فيكون مباشرة كما ذكر الله ﷻ ذلك.

قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾. هذا تقدَّم، وهو أنَّ التأله والتوجه إليه ﷻ أمرٌ لازمٌ ولا بُدَّ منه، فهو المألوه الذي يجب أن يُؤَلَّه، تَأْلَهُه قلوبُ عبادِه خوفًا وذلًّا ورجاء، ومن لم يؤلِّه الله ﷻ فهو من حطب جهنم، وكما سبق أن هذا فيه حصرُ الإلهية في ربِّ العالمين ﷻ، وأنه الإله الذي يجب أن يُؤلَّه ويُعبد وحده.

قوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ الغيب: هو كلُّ ما غاب عن الناس، **وهو قسمان:**

القسم الأول: غيبٌ نسبيٌّ، ومعنى «نسبي» أي أنه غيبٌ لمن غاب عنه، وغير غائبٍ لمن شاهده.

القسم الثاني: الغيب المطلق، وهو الذي غاب عن الخلق كلهم.

فهناك غيبٌ يعلمه بعضُ من شاء الله، فهو غيبٌ لمن غاب عنه، وليس غيبًا لمن عَلِمَه، وغيبٌ مطلق لا يعلمه أحدٌ من الخلق؛ سواءٌ الملائكة أو غيرهم، وهذا خاصٌّ برب العالمين.

وهو عالم الغيب، ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أيضًا هذا من الخصائص، و«الغيب»: كلُّ ما غاب عن المخلوقين، و«الشهادة»: المشاهَد، فهو يعلم كل شيء، والشهادة هي الشيء الذي يُشاهد ويُرى ويُعلم في الظاهر، فهو يعلمها ولا يفوته شيءٌ منها ـ تعالى الله وتقدَّس.

قوله: ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾. «الرحمن الرحيم» اسمان من أسماء الله ﷻ أُخِذَا من صفة «الرحمة»، وسبق أنَّ «الرحمن» أبلغُ من «الرحيم»، و«الرحيم» يكون تعلُّقُه بالمخلوق، و«الرحمن» عامٌّ مطلَق؛ و«الرحمن» صيغة مبالغة ومعناها: كثير الرحمة وعظيمها، و«الرحيم» بليغها، فالأول يدل على الكثرة والثاني يدل على المبالغة.

قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾.

قوله: ﴿ٱلْمَلِكُ﴾: الذي له الملك، ولا أحد يُنازعه في ملكه - تعالى وقدس -؛ فمن نازعه في ذلك أكبَّه في النار.

قوله: ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾: المنزَّه المطهَّر عن كلِّ نقصٍ وعيبٍ وعن كلام المشركين الذين جعلوا معه آلهةً أخرى، فله الكمال المطلق من كل وجه.

قوله: ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ الذي سَلِم من كلِّ نقصٍ وعيب، وسلمت أفعالُه وأقوالُه وأحكامُه وصفاتُه من كلِّ ما يكون فيه نقص.

قوله: ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ الذي آمن لرسله فصدَّقهم بالآيات، وكذلك أمَّن عباده المؤمنين مِن عذابِه وما قد يصدر من كافرٍ أو غير ذلك، وهو تعالى يُؤمِّن الخائفين منه.

قوله: ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾: المحيط بكلِّ شيء - تعالى وتقدس -، ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ الذي هيمن على كُلِّ شيء وراقبه وأحاط به، فلا يخفى عليه شيء، ولا يعزب عنه شيء، ولا يمتنع منه شيء - تعالى وتقدس -.

قوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: الذي له العزة والكبرياء، والعزة يُراد بها: الامتناع، ويُراد بها: القوة، ويُراد بها: الغلبة.

قوله: ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾: الذي جبر كلَّ شيء على ما يريد، والذي لا يُمكن أن يمتنع منه شيء، فهو جبارٌ جَبَرَ من شاء على ما يُريد - تعالى وتقدس -؛ فهو الجبار الذي له القوة كلها - تعالى وتقدس -.

قوله: ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾: فله الكبرياء والعظمة، وهذه من خصائصه، ومن يُنازعه في ذلك فإنه يُعذِّبه؛ فالكبرياء كله له ﷻ، ومن نازعه شيء منها عذَّبه.

قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾، يعني: بعيدًا كُلَّ البُعد عما يقوله هؤلاء الذين يُحرِّفون صِفاتِه؛ فإنهم يقعون في الشرك، فهؤلاء الذين يقولون هذه الأقوال لا ينفكون عن الشرك؛ لأنهم إما أن يُلحقوه بالناقصات، وإما أن يُلحقوه بالمخلوقات، وهذا شرك في الأسماء والصفات، وكذلك المشركون الذي يُشركون في حقه وعبادته.

سبح نفسه ﷻ عما يقوله المشركون الذين يجعلون المخلوق الضعيف شريكًا له؛ إما في العبادة، أو في شيء من خصائصه.

قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ﴾: الذي ليس معه من يخلق، فالخلق له وحده؛ «الخالق» الذي له الخلق وحده، تفرد بالخلق ولا يشاركه فيه أحَدٌ.

قوله: ﴿ٱلْبَارِئُ﴾: الذي ميَّز مخلوقاته ـ فهذا له خلقٌ خاصٌّ، وهذا له خلقٌ خاصٌّ ـ، الذي جعل لكلِّ مخلوقٍ صورة تخصُّه، الذي برأ النسم وجعل لكلِّ مخلوقٍ صورة تخصُّه، بل جعل المخلوقات ما تشتبه، هذا من صفة «الباري». ولهذا تجد بني آدم على كثرتهم من أولهم إلى آخرهم لا تجد اثنين يشتبه هذا بهذا، كلُّ واحد له صورةٌ تخصُّه، وميزة تخصُّه عن الآخر، ومثل ذلك يُقال في أوصافهم؛ في أصواتهم فيما في قلوبهم ونياتهم ومقاصدهم فهي تختلف، مع كونهم من أصلٍ واحِد، هذا من معاني قوله «البارئ».

قوله: ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾: المصوِّر أخصُّ من الخالق، ولهذا صار التصوير محرَّمًا، وقد جاءت نصوصٌ كثيرةٌ بالتوعُّد للمصورين، ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ الذي صوَّر كُلَّ ما يريد على صورة معينة، جعل لكلِّ مخلوقٍ صورةً تخُصُّه، وهذا من خصائصه، فهو الذي يصوِّر الأشياء، ولا يجوز أن يتشبَّه به إنسانٌ فيصوِّرَ صُوَرًا.

والمصوِّر من أسمائه ومن خصائصه، ولهذا توعَّد المصوِّرين بأشدِّ العذاب؛ لأنهم يضاهئون الله في المعنى الذي يخُصُّه ـ تعالى وتقدس ـ؛ يضاهئون الله أي: يشابهونه بالفعل، ويُكلَّف يومَ القيامة كلُّ واحِدٍ فيقال له: «انفخ الروح في الصورة التي صورتها»، وليس بنافِخ، وفي الحديث الصحيح: «**كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ؛ يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسًا فَتُعَذِّبُهُ فِي جَهَنَّمَ**»(١). ومن صَوَّرَ صُورةً عُذِّب بها يوم القيامة، وقيل له: «**أَحْيِ مَا خَلَقْتَ**»(٢)، فالمصوِّر من أسمائه، ولا يجوز أن يتسمَّى المخلوقُ أو يَفعل فعلًا من أفعاله التي تخصُّه.

قوله: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: أسماؤه كلُّها حسنى، و«الحسنى»: هي التي بلغت الغاية في الكمال، فلا يتطرَّق إليها نقصٌ ولا عيبٌ ـ تعالى الله وتقدَّس ـ.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب اللباس والزينة، باب لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة (٣/ ١٦٧٠) برقم (٢١١٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب اللباس، باب عذاب المصورين يوم القيامة (٧/ ١٦٧) برقم (٥٩٥١)، ومسلم في صحيحه، في كتاب اللباس والزينة، باب لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة (٣/ ١٦٦٩) برقم (٢١٠٨)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

قوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، يعني: كل من في السماوات والأرض يعبده إلا بعض بني آدم. أما غيرهم فهم يسبحونه ويعبدونه، وإن كان الذي يعبد غيره يُسَبِّحه، ولكن تسبيحه باطلٌ غيرُ مثاب عليه؛ لأنه خلطه مع الباطل.

يعبده بالتسبيح والتقديس ما في السماوات والأرض من الجماد والنبات - كالجبال والشجر والدواب والبحار والحجارة وغير ذلك -، فهي تسبح الله ﷻ كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣]، وقال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

فكل المخلوقات تسبِّح الله وتقدِّسه وتعبده، ما عدا بعض بني آدم والجن؛ أما ما عداهم فمُسَبِّحٌ لله ومقدِّس له، وعابدٌ له؛ فكلُّ ما في السماوات والأرض يسبِّحونه ويعبدونه ويحمدونه إلا من حقَّ عليه القول من بني آدم ومن بني الشيطان.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: الذي له العزة الكاملة، والقوة والقدرة والامتناع. وهو ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾: يضع الأمور فيما يليق بها - تعالى الله وتقدَّس -، الذي أحكم كلَّ شيء، فلذلك إذا فعل الشيء فإنه يفعله لحِكْمَةٍ - تعالى الله وتقدَّس -.

إلى غير ذلك من الآيات التي يتعرَّف بها ﷻ إلى عباده بأوصافه وأسمائه، يريد منهم أن يَعرفوه ويعبدوه على ما يليق بعظَمَته وجلاله، ويكون له قدرٌ عندهم، وأكثر الخلق لا يقدرون الله قدره؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧].

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الآيَاتِ وَالأَحَادِيثِ الثَّابِتَةِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي أَسْمَاءِ الرَّبِّ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ مِنْ إِثْبَاتِ ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ وَإِثْبَاتِ وَحْدَانِيَّتِهِ بِنَفْيِ التَّمْثِيلِ مَا هَدَى اللهُ بِهِ عِبَادَهُ إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ، فَهَذِهِ طَرِيقَةُ الرُّسُلِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ».

الشرح

قوله: «إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الآيَاتِ وَالأَحَادِيثِ...».

الأحاديث لم تُذكَر بعدُ، ولكن هو يشير إلى أن الأحاديث التي جاءت عن الرسول الله ﷺ تتفق مع الآيات التي ذكرها؛ لأن المخرج واحد، فكلُّها من عند الله ﷻ، وما كان من عند الله فهو متَّفِقٌ لا يختلف، وإنما الاختلاف يقع في أذهان الناس وآرائهم.

ومقصوده بهذا: أن الطريقة التي يجب أن تُسلَك هي اتِّباع كتاب الله ﷻ واتِّباعُ ما قاله الرسول ﷺ، لا ما يقوله أصحابُ المقالات الذين يقولون: «إنَّ الأصل في كلِّ ما يجب على الإنسان هو العقل، والكتاب والسنة تبعٌ للعقل»، ويقولون: «لأننا عرفنا صِدْق الرسل بالعقول، فصارت أصلًا!».

وهذا لا أصل له في كتاب الله، وإنما الأصل هو ما قاله الله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، وقوله: ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ لا يخرج عنه شيء؛ لا في الأصول ولا في الفروع، والذي يَشْجُر هو الخلاف، والذي يفصل بينهم هو «كتاب الله» و«سنة رسوله» ﷺ، وإلا لا يكون الإنسان مؤمنًا.

إن ما ذُكر من الآيات هي أمثلةٌ، وإلا فالآيات في صفات الله كثيرة، فيجب أن يحتذى هذا الحذو ويُسار على هذا الطريق. ومثلها الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ في أسماء الله تعالى وصفاته؛ فإن هذا فيه إثبات ما يستحقُّه ﷻ من الصفات، وهي التي يتعرف بها ربُّ العالمين إلى عباده حتى يعرفوه على الوجه الذي يجب أن يعبدوه عليه.

وأنها جاءت «**عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ**»؛ أي: إثبات كلِّ صفةٍ واسمٍ على حِدَتِه، ومعلومٌ أن الأسماء والصفات تكون لموصوف، ولمن قامت به الصفات.

والفرق بين «الاسم» و«الصفة»:

* إنَّ الاسم: هو الذي يدلُّ على الذات، وُضع ليدُلَّ عليها، فاسم «الرحمن» يدل على المسمى لهذا الاسم، وهو الله ﷻ.

* أما الصفة: فهي المعنى الذي يقوم بالموصوف؛ مثل: الرحمة، والعزَّة، والقدرة، والفرق بينهما واضحٌ في مثل هذا.

وسبق أنَّ الأصل في الأسماء هي الصفات، فالأسماء مشتقَّة منها، ولهذا «الاسم» يكون مشتملًا عليها. فإذا قلت: «الرحمن»، دلَّ على الرحمة العظيمة والمبالغة الواسعة؛ وكذلك «الرحيم» على الرحمة البليغة التي تتعلَّق بالمرحوم؛ وهكذا أسماؤه وصفاته.

قوله: «**وَالْأَحَادِيثِ الثَّابِتَةِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ**»، يعني: أن الأصل في هذا أن تكون الأحاديث صحيحةً، وهي ما نقلها العدول الضابطون عن أمثالهم. أما الأحاديث الضعيفة؛ فلا يجوز الاعتماد عليها - لا في الأصول ولا في الفروع -.

هذه أمثلة؛ التي ذكرها فقط، وإلا فالآيات لا حصر لها إلا بكُلْفَة ومشقَّة، ولكن هذا أمرٌ مهمٌّ جدًّا ينبغي لطالب العلم أن يحفظ هذه الآيات؛ لتكون له سلاحًا يُقابل بها المبطلين.

ما قلنا في آيات الصفات نقوله كذلك في الأحاديث الثابتة عن رسول الله ﷺ في أسماء الله وصفاته، وهو: وجوب الإيمان بها بلا تحريفٍ ولا تعطيل ولا تكييفٍ ولا تمثيل، بل نتبع فيها ما قاله السَّلَفُ الذين سلكوا سواء السبيل.

قوله: «**فَإِنَّ فِي ذَلِكَ مِنْ إِثْبَاتِ ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ**»؛ أي: أنَّ كل اسم ثابتٍ لله: يدلُّ على المسمَّى، وكلُّ صفة: تكون قائمةً بالموصوف - بالله -.

والله ﷻ له أسماء كثيرةٌ؛ ذكر بعضها في كتبه التي أنزلها، وقد علَّم بعضَها عِبادَه ولم ينزلها في كتبه، واستأثر ببعضها؛ فلم ينزلها في كتبه، ولم يعلِّمه أحدًا من خلقه.

ولهذا جاء في الحديث: «**ما أصابَ أحدًا قَطُّ همٌّ ولا حزنٌ، فقال: اللهُمَّ إنِّي عبدُكَ، ابنُ عبدِكَ، ابنُ أَمتِكَ، ناصِيتِي بيدِكَ، ماضٍ فيَّ حُكمُكَ، عدلٌ فيَّ قضاؤُكَ، أسأَلُكَ بكلِّ اسمٍ هو لَكَ سمَّيتَ به نفسَكَ، أو علَّمتَهُ أحدًا من خلقِكَ، أو أنزلتَهُ في كِتابِكَ، أو استأْثرتَ به في عِلْمِ الغيبِ عندكَ، أن تجعلَ القُرآنَ ربِيعَ قلبي، ونُورَ صدرِي، وجِلاءَ**

حُزنِي، وذهابَ همِّي، إلَّا أذهبَ اللهُ همَّهُ وحُزنَهُ، وأبدَلَهُ مكانَهُ فرحًا»(١).

فقسم النبي ﷺ الأسماء إلى ثلاثة أقسام في هذا الحديث:

القسم الأول: قسمٌ أخبر النبيُّ ﷺ أن الله أنزله في كتابه. والكتاب يعني جنسه، أي أنزله في كتبه.

القسم الثاني: قسم عَلَّمه من يشاء من عباده ولم يُنزِلْه في كتبه.

القسم الثالث: قسم استأثر به في علم الغيب عنده، ولم يُنزِلْه لا في كُتُبه ولم يُعْلِمْه أحدًا من خلقه؛ ومن ذلك قوله ﷺ: **«لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»**(٢)، والثناء يكون بأسمائه وصفاته، ومنه حديث الشفاعة: **«ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا، لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي»**(٣)، وغير ذلك من الأدلة على أن لله أسماءً كثيرةً، وأن ما ذُكر في كتابه ﷻ أمثلةٌ يجب أن يُحتذَى حَذْوُها وأن تكون دليلًا لعباد الله على رب العالمين، يعرفونه ويعبدونه بها.

قوله: **«وَإِثْبَاتِ وَحْدَانِيَّتِهِ»**. في ذاته، وأفعاله، وخلقه، وفي حقِّه ـ الذي أوجبه على عباده ـ.

قوله: **«بِنَفْيِ التَّمْثِيلِ»**: «التمثيل» هو «التشبيه»، أي: ينفى أن يكون له مثلٌ أو مثالٌ ـ تعالى الله وتقدَّس ـ.

قوله: **«مَا هَدَى اللهُ بِهِ عِبَادَهُ إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ»**. الذي أوجبه عليهم؛ هذا لِمَن قَبِلَ ذلك وآمَن به. أما الذي يتردَّد ويتشكَّك؛ فإنَّ الله يُضِلُّه سواء السبيل؛ فإنه لا يهتدى إلى السبيل الذي فيه النجاة في الدنيا والآخرة إلا باتباع ما جاء به المصطفى ﷺ، ومن ضلَّ عنه فهو من حطب جهنم.

قوله: **«فَهَذِهِ طَرِيقَةُ الرُّسُلِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ»**، يعني: هذا الطريق هو الذي يوصل إلى السلامة من عذاب الله ﷻ في الدنيا والآخرة، وأنه لا طريقَ غيرُها؛ فالطرائق كلها تفضي إلى العذاب في الدنيا والآخرة ما عدا طريقةِ الرسل، التي تعرِّف بالله ـ بأسمائه وصفاته وأفعاله وعبادته على ذلك وحدَه ـ.

---

(١) تقدم تخريجه. (٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ [الإسراء: ٣] (٦/ ٨٤) برقم (٤٧١٢)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١/ ١٨٤) برقم (١٩٤)، من حديث أبي هريرة ﵁.

قال رحمه الله تعالى:

«وَأَمَّا مَنْ زَاغَ وَحَادَ عَنْ سَبِيلِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَمَنْ دَخَلَ فِي هَؤُلَاءِ مِنَ الصَّابِئَةِ والمتفلسفة والجهمية وَالْقَرَامِطَةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ وَنَحْوِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ عَلَى ضِدِّ ذَلِكَ يَصِفُونَهُ بِالصِّفَاتِ السَّلْبِيَّةِ عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ، وَلَا يُثْبِتُونَ إِلَّا وُجُودًا مُطْلَقًا لَا حَقِيقَةَ لَهُ عِنْدَ التَّحْصِيلِ، وَإِنَّمَا يَرْجِعُ إِلَى وُجُودٍ فِي الْأَذْهَانِ يَمْتَنِعُ تَحَقُّقُهُ فِي الْأَعْيَانِ، فَقَوْلُهُمْ يَسْتَلْزِمُ غَايَةَ التَّعْطِيلِ وَغَايَةَ التَّمْثِيلِ؛ فَإِنَّهُمْ يُمَثِّلُونَهُ بِالْمُمْتَنِعَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ وَالْجَمَادَاتِ؛ وَيُعَطِّلُونَ الْأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ تَعْطِيلًا يَسْتَلْزِمُ نَفْيَ الذَّاتِ».

الشَّرح

قوله: «وَأَمَّا مَنْ زَاغَ وَحَادَ عَنْ سَبِيلِهِمْ»؛ أي: اتبع خلاف ما جاءت به الرسلُ.

و«الزَّيْغ» يكون في القلوب، و«الحيد» يكون في الفعل بالاجتناب، ومعلومٌ أن الأفعال تبعٌ لما في القلوب. وأكثرُ الناس على هذا النَّهْج؛ فإنهم زاغوا وحادوا عن الطريق:

* إما قصدًا وعمدًا.

* وإما ضلالًا في كونهم اعتمدوا على غير ما جاءت به الرسل، وزعموا أن هذا هو الأصل - كما يقوله من يقوله من المتكلمين؛ فإنهم اتبعوا في ذلك من ردَّ دعوة الرسل عليهم السلام -.

قوله: «مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ»:

* إن الكفار لم يعرفوا الله ﷻ ولم يصفوه بما وَصَفَ به نفسَه، إذ لو كانوا عرفوا ذلك لأسلموا وآمنوا واتبعوا الحق؛ ولكنهم أعرضوا أو عاندوا أو جحدوا وكذَّبوا.

* وكذلك المشرك الذي عبد غيرَ الله ﷻ؛ فإنه كذلك لم يعرف الله.

* وكذلك الذي وصف الله ﷻ بما يتَّصِفُ به المخلوقُ؛ فإنه أشرك بالله ﷻ حيث جعل أوصافه مثل أوصاف المخلوقين، وهذا شركٌ أكبر.

فالكُفَّار والمشركون تركوا سبيل الرُّسُل عنادًا وتكبُّرًا وإباءً.

وأما الذين زعموا أنهم استجابوا للنبي ﷺ ولم يتبعوا طريقَته، فإذا وردت عليهم آيةٌ من آيات الله ﷻ أو حديث من أحاديث النبي ﷺ اجتهدوا كل الاجتهاد في صرفها عن ظاهرها إلى أمور لا تدُلُّ عليها إلا بالتَّكلُّف، وجلب غريب اللغات والألفاظ: فهم المقصودون هنا في كلام المؤلف، هذا هو مَسْلَكُهم في النصوص.

قوله: «**أُوتُوا الْكِتَابَ وَمَنْ دَخَلَ فِي هَؤُلَاءِ**»، يعني: المنحرفين «**مِنْ الصَّابِئَةِ**».

و«الصابئة»: هم الذين بُعث فيهم إبراهيم؛ فهُم بقايا قوم إبراهيم ﵇، الذين يعبدون الكواكب والأجرام السماوية، ويبنون لها الهياكل وينادونها، ويزعمون أنها تنزل إليهم الروحانيات، وهي في الواقع تنزل إليهم الشياطين وتخاطبهم وتُضِلُّهم، كما وقع للمشركين الذين تُكلِّمُهم الشياطينُ من الشجر والحجر وغيرها، فهؤلاء مشركون مثل أولئك.

قوله: «**والمتفلسفة**». أصل «التفلسف» كلمة يونانية، وهي مجموعةٌ من «محبة الحكمة» أو «اتباع الحكمة»؛ فالحكمة عندهم ما تنتجه العقول.

والفلاسفة يتكلَّمون حسب ما يهديهم إليه نظرهم وعقلهم فقط، وكثيرٌ منهم لا يؤمن بالله، ولا يؤمن بأن بعد هذه الدنيا حياة وجزاء، ويقولون: «إن هذا الكون وُجد ليبقى ولن يزول»، فهؤلاء كفار لا قيمة لكلامهم ولا استنتاجاتهم فيما يتعلق بالله ﷻ وبالدِّين، ولكن لما عُرِّبت كتبهم من اليونان نُقِلَ كلامهم في كتب المسلمين، وهذه فتنةٌ وبلوى ولا خير فيها، بل هي ضررٌ محضٌ.

قوله: «**والجهمية**». هم: أتباع الجهم بن صفوان، وسبق الكلام فيهم.

و«الجهمية» مصطلح يُطلق على كل من عطَّل صفةَ الله ﷻ؛ لأنهم أول من تكلم بهذا الشيء، فصار الجهمي يطلق على كلِّ من أنكر الكلام أو رؤية الله ﷻ يوم القيامة أو عُلُوَّه، فيطلق هذا على أناس كثيرين.

قوله: «**وَالْقَرَامِطَة**». هم: أتباع قُرْمط ـ الذي كانت خُطاه قليلة ـ وهو رأس الملاحدة، وهو من شر الباطنية؛ لأنه من أخبث عباد الله وأفسدهم لخلق الله وأضلِّهم. والقرامطة أنواع شتى؛ ويدخل في هؤلاء كلُّ من سلك طريقهم من الباطنية الذين يعتقدون خلاف الحق ويظهرون خلاف ما يعتقدون.

قوله: «**وَالْبَاطِنِيَّةِ وَنَحْوِهِمْ**». ومن الباطنية: «الرافضة»؛ وكذلك «الإسماعلية»

و«النُصيرية»؛ كل هؤلاء أخرجهم كثيرٌ من العلماء من الثلاث والسبعين فرقة، وبينوا بأنهم ليسوا من هذه الأمة التي استجابت، ولكنهم من الكفار الذين لا يوصفون بأنهم استجابوا للرسول ﷺ لأمورٍ معروفة، ولهذا قال: «وَنَحْوِهِمْ» لأن هؤلاء كثير.

قوله: «**فَإِنَّهُمْ عَلَى ضِدِّ ذَلِكَ**»، يعني: على ضِدِّ وصف الله ﷻ بما وصف به نفسَه ووصفه به رسولُه على ظاهر الخطاب المفهوم من اللغة.

قوله: «**يَصِفُونَهُ بِالصِّفَاتِ السَّلْبِيَّةِ...**». «السَّلْب»: هو النفي؛ ووصفهم لله ﷻ بالسلب على سبيل التفصيل لا الإجمال، عكس ما في كتاب الله، فيقولون مثلًا: «ليس فوق، ليس تحت، ليس يمينًا، ليس شمالًا، ليس داخل العالم، ليس خارج العالم، ليس له مكان، ولا يجري عليه زمان...» إلى آخر الهذيان الذي لا ينطبق إلا على العدم الذي لا وجود له أصلًا.

قوله: «**وَلَا يُثْبِتُونَ إِلَّا وُجُودًا مُطْلَقًا لَا حَقِيقَةَ لَهُ عِنْدَ التَّحْصِيلِ**». «الوجود المطلق»: هو الذي لا وجود له في الحقيقة، وإنما هو في الأذهان، فيقولون: «هو موجود»، ولكن لا يثبتون العلو ولا المكان، ولا يثبتون له صفاتٍ. فالوجود المطلق: إنما هو في الذهن فقط؛ أما في الخارج أن يُعيّن فلا. ومعنى ذلك أنهم ملاحدة لا يؤمنون بالله أصلًا؛ ولهذا قال: «**لَا حَقِيقَةَ لَهُ**»، يعني: هذا الوجود المطلق لا حقيقة له «**عِنْدَ التَّحْصِيلِ**»، يعني: عند النظر والاستدلال. وهذا يقولُه كثيرٌ منهم تستُّرًا وخوفًا من المسلمين خشيةَ أن يقتلوهم؛ لأنَّ هذا القول كفرٌ بالله.

فهؤلاء يرجع إثباتهم إلى وجودٍ في الأذهان وهو لا حقيقة له، فهو مجرَّد خيالٍ يتخيَّله فقط، وهذا هو حقيقة ما يقولُه «أهل التأويل»؛ لأنهم في الحقيقة لا يُثبِتُون صفات الله تعالى، وإنما يثبتون شيئًا في أذهانهم، وإن كان هؤلاء أقلَّ من أولئك ضَلالًا.

قوله: «**وَإِنَّمَا يَرْجِعُ إِلَى وُجُودٍ فِي الْأَذْهَانِ**». مثل تصوُّر جبل زئبق فوق رأسك، ولكن هل هذا له وجود؟! لا وجود له. فهذا الإله الذين يعبدون؛ بهذا الشكل، فهم يعبدون عدمًا كما أن المشبِّه يعبد صنمًا، وإنما يَعبُدُ اللهَ: الذي عرفه بأوصافه وأسمائه.

قوله: «**يَمْتَنِعُ تَحَقُّقُهُ فِي الْأَعْيَانِ**». مثل قولهم: ليس بعَرَضٍ، ولا بجوهر، ولا يجري عليه زمانٌ، ولا يكون في مكانٍ، ولا تصِحُّ إليه الإشارة...» إلخ، فهذا كلُّه نفيٌ، فالذي يقولونه نفيٌ محضٌ.

قوله: «فَقَوْلُهُمْ يَسْتَلْزِمُ غَايَةَ التَّعْطِيلِ»؛ لأنهم لا يثبتون صفةً لله، فهم يعطلون صفات الله وينفونها، ويعطلون المخلوق عن خالقه، فهم قالوا بنوعي التعطيل.

قوله: «غَايَةَ التَّعْطِيلِ» معناه تعطيل الله عن أوصافه، وقد يكون تعطيل الخلق عن خالقهم، ليس لهم خالقٌ، وهذا يعني: أن التعطيل أنواعٌ.

قوله: «وَغَايَةَ التَّمْثِيلِ». «التمثيل» هو التشبيه. وهذا من المتضادَّات، فهم يعطِّلون صفات الله، وفي الوقت نفسه يمثلونه بالمعدومات، بل بالمستحيلات، وهذا غاية في الضلال والكفر؛ ثُمَّ هم مع ذلك يزعمون أنهم على الحق.

قوله: «فَإِنَّهُمْ يُمَثِّلُونَهُ بِالْمُمْتَنِعَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ وَالْجَمَادَاتِ». «الممتنع»: هو الذي لا يمكن وجوده.

فبعضُهم يُمثِّله بالمخلوقات، والذين يُمثلونه بالممتنع أشدُّ تشبيهًا وأمْعَنُ في الكفر من الذي يُمثله بالموجودات، ويَلِيه الذي يُمثِّله بالمعدومات؛ أما الذي يُمثله بالجمادات فهو مُشبِّهٌ مشركٌ خبيثٌ، ولكن الذي يُمثله بالممتنعات أشدُّ خُبثًا منه.

قوله: «وَيُعَطِّلُونَ الْأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ تَعْطِيلًا يَسْتَلْزِمُ نَفْيَ الذَّاتِ». هذا حقيقة مذهبهم الذي يقولونه معتمدين على أفكارهم وعقولهم ويدعون الناس إليه، فقد أضلُّوا كثيرًا من خلق الله ﷻ، أي: أنَّ أقوالهم تستلزم إنكار وجود الله. فما دام أنهم كفارٌ وبعيدون عن اتِّباع الرسل، فطُرُقهم تناسِبُهم.

وهم أيضًا لا يؤمنون بمعادٍ، ولا ببعثٍ، ولا بجنَّةٍ ونار، ولهذا يأتون بالأمور التي تكون ممتنعة في وصف الله حتى يُربِكُوا أهل الإيمان ويشوِّشوا عليهم، هذا هو مقصودهم، وليس مقصودهم أن يَصِلُوا إلى حقٍّ أو يُعرَفوا به.

فالأصل أن هؤلاء يُعرض عنهم نهائيًا - عن ذكر مذهبهم وأقوالهم -، ولكن لما انتشر هذا المذهب في كتب المتكلِّمين صاروا يذكرون أقوالهم ويردُّون عليهم، وقد يوافقونهم في بعض ما يقولونه= فلزم أن يُنبَّه طلبةُ العلم على ذلك. أما الذين لا يعرفونهم ولا يعرفون هذا المذهب، فالأصوب والأسلم ألا تُذكَر مذاهِبُهم ولا يُنظر فيها؛ فإنها لا خيرَ فيها، وهي معقَّدة في غاية التعقيد، فلا يفهمها إلا من يفهم اصطلاحاتهم.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «فَغالِيَتُهم يَسْلُبُونَ عَنْهُ النَّقِيضَيْنِ، فَيَقُولُونَ: لَا مَوْجُودَ وَلَا مَعْدُومَ، وَلَا حَيَّ وَلَا مَيِّتَ، وَلَا عَالِمَ وَلَا جَاهِلَ؛ لِأَنَّهُمْ - بزَعْمِهِمْ - أَنَّهُمْ إِذَا وَصَفُوهُ بِالْإِثْبَاتِ شَبَّهُوهُ بِالْمَوْجُودَاتِ، وَإِذَا وَصَفُوهُ بِالنَّفْيِ شَبَّهُوهُ بِالْمَعْدُومَاتِ، فَسَلَبُوا النَّقِيضَيْنِ، وَهَذَا مُمْتَنِعٌ فِي بَدَاهَةِ الْعُقُولِ؛ وَحَرَّفُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ تعالى مِنَ الْكِتَابِ، وَمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، فَوَقَعُوا فِي شَرٍّ مِمَّا فَرُّوا مِنْهُ، فَإِنَّهُمْ شَبَّهُوهُ بِالْمُمْتَنِعَاتِ، إِذْ سَلْبُ النَّقِيضَيْنِ كَجَمْعِ النَّقِيضَيْنِ، كِلَاهُمَا مِنَ الْمُمْتَنِعَاتِ».

الشَّرح

يعني: الحكم الذي وصلوا إليه أنهم صاروا أكْفَرَ خلقِ الله، وأكْفَرَ من إبليس، وأضلَّ منه؛ حيث شبَّهوا الله ﷻ بالشيء الممتنع؛ ومن شبَّهه بالممتنع جعله لا وجود له، وأنه ممتنعٌ وجوده.

وسلب النقيضَينِ ممتنعٌ في العقل أصلًا، ولكنهم ملاحدةٌ يُريدون أن يُلَبِّسوا على الناس، وإلا كيف تقول: «لا موجودٌ، ولا لا موجودٌ؟!». هذا عبث في الواقع، قولهم: «لا عالمٌ ولا جاهِلٌ»، «لا موجودٌ ولا معدومٌ»، «لا حيٌّ ولا ميِّتٌ»، «لا فوقَ ولا تحتَ»، أين يكون إذًا؟!

وسبب سلبهم عنه - تعالى وتقدس - النقيضينِ: أنهم لو قالوا: «إنه لا وجود له» لصار كفرُهُم صريحًا وواضِحًا ولا شكَّ لأحدٍ فيه، ولكن إذا جاءوا بهذه المتناقضات صار عند الناس تردُّدٌ وشَكٌّ، فلم يريدوا إلا التلبيس والتشويش في أذهان المسلمين. فهم زنادقة، وليس وراء هذا الكفر كفرٌ بالله ﷻ، فهو إنكارٌ لوجود الله.

فمن قال - مثلًا -: «إنَّ الإنسان حيٌّ ميِّتٌ» أو: «قائمٌ جالسٌ»، هذا معناه أنه يصف شيئًا لا وجودَ له، بل يصف عدمًا، أما هؤلاء فقد وصفوه بالعدم الممتنع، الذي لا يمكن حتى في العقل إيجاده، ولهذا يعلم أنهم كفرة وملاحدة لا يؤمنون بالله، ولا يُقِرُّون بأن له خلقًا، ولا أن له وعدًا ووعيدًا، فهُم من أبْعَدِ خلق الله عن

الإسلام، وقصدهم بذلك إفساد عقائد المسلمين والتشويش عليهم في عقائدهم، ولهذا يكون الإعراض عنهم أولى وأجدى، لا خيرَ في ذكرِهم ولا ذكرِ مذاهِبِهم.

قوله: «وَهَذَا مُمْتَنِعٌ فِي بَدَاهَةِ الْعُقُولِ». هم لبَّسوا على الناس، وزعموا أن هذا هو الذي يجب على العبد أن يعتقده بقلبه ويقول بلسانه، فَضَلَّ بذلك كثيرٌ من الناس، ولا سيما أنهم اعتقدوا أنهم علماء، وأنهم هم الذين يُميّزون بين المعقول وغير المعقول، وهذا سبيل المقلدة، فهم يهلكون في كل واد سحيق.

قوله: «وَحَرَّفُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ تعالى مِنَ الْكِتَابِ، وَمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، فَوَقَعُوا فِي شَرٍّ مِمَّا فَرُّوا مِنْهُ»، يعني: أنهم ضلوا بأنفسهم وأضلوا غيرَهم ممن وثق بهم واتبعهم، فوقعوا في الشَّرِّ كلِّه؛ لأن الأصل في عبادة الله واتباع الرسل هو العلم بالله ﷻ؛ فمن لم يعلم الله على ما وَصَفَ نفسَه ووصَفَه رسولُه ﷺ؛ فإنه لا يمكنه أن يعبد الله، فلما ضَلُّوا في هذا صاروا يدعون إلى هذا الضلال، فأضلُّوا كثيرًا من الناس.

قوله: «فَإِنَّهُمْ شَبَّهُوهُ بِالْمُمْتَنِعَاتِ، إِذْ سَلْبُ النَّقِيضَيْنِ كَجَمْعِ النَّقِيضَيْنِ، كِلَاهُمَا مِنَ الْمُمْتَنِعَاتِ»، يعني: كونه لا موجود ولا معدوم، فهذا نفي للنقيضين. ومعنى هذا: أنهم نفوا «العدم» ونفوا «الوجود»، وهذا يعتبر نقضًا للوجود الذي ينافي العدم، وكذلك نقضٌ للعدم المنافي للوجود، ولهذا تعذَّر الجمع بينهما، فيكون الجمع بينهما كَنَفْيِهما جميعًا، وكلُّ هذا من الممتنع، وهذا كفرٌ واضِحٌ وجَلِيٌّ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَقَدْ عُلِمَ بِالِاضْطِرَارِ أَنَّ الْوُجُودَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُوجِدٍ، وَاجِبٍ بِذَاتِهِ، غَنِيٍّ عَمَّا سِوَاهُ؛ وهو قَدِيمٌ أَزَلِيٌّ؛ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْحُدُوثُ وَلَا الْعَدَمُ، فَوَصَفُوهُ بِمَا يَمْتَنِعُ وُجُودُهُ، فَضْلًا عَنِ الْوُجُوبِ أَوِ الْوُجُودِ أَوِ الْقِدَمِ».

الشَّرح

قوله: «وَقَدْ عُلِمَ بِالِاضْطِرَارِ...». الاضطرار: هو الذي لا يحتاج إلى دليل ولا استدلال، ويكون أمره ظاهرا جليًا، لا يحتاج إلى إمعان النَّظر وكدِّ الفكر فيه. مثل قول: «السماء فوقك»، و«الأرض تحتك»: فهذا ما يحتاج إلى استدلال.

فإذا قيل: «قد عُلم أنَّ الموجود لا بُدَّ له من مُوجِدٍ»، فالموجود: هي المخلوقات من السماوات والأرض والجبال والشجر وغيرها. فهذه لا يمكن أن تكون خلقت نفسها، ولا يمكن أن يكون خلقها مثلُها فهي فقيرة، وكذلك جنسُها فقيرٌ، فلا بُدَّ أن يكون له موجِدٌ قائمٌ بنفسه غنيٌّ بذاته عن كلِّ ما سواه، وهو الذي يُعبَّر عنه بـ«واجب الوجود». فـ **«الوجود»**:

* إما أن يكون قائمًا بنفسه، غنيًا بذاته، أوَّلًا بلا بداية، لا يحتاج في وجوده إلى شيء.

* أو يكون فقيرًا إلى الوجود؛ لأنه كان عدمًا ثم افتقر إلى ما يصلحه في حياته أو في وجوده.

وليس هناك أمرٌ ثالثٌ؛ وهذا أمرٌ اضطراريٌّ، اضطر العقل إلى ذلك. ولهذا يقول الله ﷻ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور: ٣٥] فلم يُخلَقُوا من غير شيء، ولا هم الخالقون؛ إذًا: لا بُدَّ أن لهم خالقًا عليمًا حكيمًا قادرًا لا يخفى عليه شيء، ولا يُعجِزُه شيءٌ. فهذا كلُّ عاقلٍ لو نَظر فيه أدْرَكَه.

وإنما الذي ينجو به العبد طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، ولهذا ذكر الله ﷻ ذلك في كتابه عن المشركين كثيرًا: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، وفي الآية الأخرى: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف: ٩]،

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]. فإذا سئلوا: «من أنزل من السماء ماءً أخرج به من الثمرات رزقًا لكم»، قالوا: «الله»، فكلهم يُقِرُّون بهذا.

فهذه الموجودات دليلٌ قائمٌ يدلُّ على أنَّ لها خالقًا بصيرًا قديرًا لا يُعجِزُه شيءٌ، ولا يحتاج إلى شيء - تعالى وتقدس -، فهذا الأمر: أمرٌ فطريٌ عقليٌ اضطراريٌ لا يجعل الكافر مُسلِمًا، ولا يجعل الذي ينقاد لذلك ويعرفه يكون طائعًا، بل لا بدَّ من اتِّباع الرسول في طاعة المرسِل وعبادته التي أوجبها على عبادِه، وبهذا يفترق الناس إلى كافرٍ ومسلمٍ؛ فالكافرُ أُعِدَّت له جهنم، والمسلم لا بُدَّ أن يكون متبعًا للرسول ﷺ فيما أمره وفيما أخبره؛ لأنَّ رب العالمين ﷻ أحدٌ صمدٌ، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد.

قوله: «**أَنَّ الْوُجُودَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُوجِدٍ، وَاجِبٍ بِذَاتِهِ**». وذلك أن الموجودات الظاهرة مثل الأرض والسماء، والحوادث - من السحاب والأمطار والنبات والحياة والموت وغير ذلك - مشاهدة ولا تأتي بنفسها، وإنما لا بُدَّ لها من موجِدٍ.

و«الموجد» لا يجوز أن يكون شبيهًا لها؛ لأنها لا تملك لأنفسها نفعًا ولا ضرًا، ولا يجوز أن يوجِد المخلوق مخلوقًا مثله، ولا بُدَّ أن يكون الذي أوجدها «**غَنِيًّا عَمَّا سِوَاهُ**»، وهذا الذي يسمَّى «واجب الوجود»؛ فلا يحتاج في وجوده إلى مُوجِدٍ، فهو - كما مضى - الصمد الذي صَمَدَ (بنفسِه)، وصمَد إليه كلُّ أحدٍ، وهذا شيء ظاهِرٌ جَلِيٌّ؛ ولهذا لا تجد عاقلًا أنكرَ وجودَ الله.

والكُفَّارُ الذين أُرسلت إليهم الرسل - كما قصَّ الله علينا قصصهم - إنَّما يدعونهم إلى عبادة الله وحدَه: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ولم يقولوا لهم: «انظروا إلى المخلوقات، واستدِلُّوا على وجود الله حتى تعبدوه» كما يقوله هؤلاء الضُّلَّال.

فهذه المخلوقات لا بُدَّ لها من خالق، لا يُمكن أن تكون خلقت نفسها، ولا يُمكن أن يكون خلقها نظيرُها الذي مثلها، وهذا الذي يجب أن يكون خالقًا يجب ألَّا يكون محتاجًا إلى شيء، ولهذا قال: «**وَاجِب بِذَاتِهِ**» واجبٌ بنفسه، ومعنى ««واجب بنفسه»: غنيٌ بذاته عن كل شيء، لا يحتاج إلى شيء، ولهذا فسَّره بقوله: «**غَنِيّ عَمَّا سِوَاهُ**».

قوله: «**قَدِيم أَزَلِيٌّ**»: «القديمُ» لم تأتِ في أسماء الله؛ لأنَّ القديم يكون نسبيًّا؛

كما قال الله ﷻ: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ٣٩﴾ [يس: ٣٩]، فلا يكون قديمًا حتى يوجد الحديث؛ فإذا وُجِدَ الحديثُ من جِنسه صار قديمًا، وقال إخوةُ يوسف لأبيهم: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ٩٥﴾ [يوسف: ٩٥]، هكذا قالوا له؛ قابلوه بهذا.

قوله: «**لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْحُدُوثُ**». «الحدوث»: كونه وُجد بعد أن لم يوجد.

قوله: «**وَلَا الْعَدَمُ**». «العدم» هو ما يقوله هؤلاء الكفرة. ووجوده ﷻ لا بدايةَ له، فهو أزليٌّ؛ كما أن بقاءه لا نهاية له، فهو أوَّلٌ بلا ابتداءٍ، وآخِرٌ بلا انتهاء ـ تعالى وتقدس ـ.

والمخلوقات كلُّها حدثتْ بعد أن كانت عدمًا، وما وُجِدَ بعد العدم؛ فإنَّه فقيرٌ يحتاج إلى موجِدٍ، ويحتاجُ إلى من يقوم به. **فإذًا: الموجوداتُ في الكون لا تعدو عن نوعين**:

الأول: موجود قائم بنفسه، غني بذاته عن كل ما سواه؛ وهذا لا يكون إلا الله وحده ﷻ.

الثاني: موجود مفتقرٌ إلى غيره، لا قيام له بنفسه، ولا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، ولا جَلْبًا ولا دفعًا؛ إلا بإذن واجب الوجود.

والطريقة التي يسلكها أهلُ الضَّلال في الاستدلال على وجود الله طريقةٌ كلاميَّةٌ، وهذه الطريقة لم يأتِ بها الرسل؛ لأن وجود الله ﷻ ظاهرٌ جليٌّ، ولهذا قالت بعضُ الرسل لقومهم: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]، ﴿فَاطِرِ﴾، يعني: الذي خلقهما بلا مثال سابق؛ فهم لا يشكون في وجود الله تعالى، فهم يعرفون الله، ويعلمون أنه هو الذي خلقهم ورزقهم، ولكنهم يصرفون العبادة إلى غيره، ولهذا أرسل الله الرسل ليُخلِصوا العبادة لله وحدَه لا شريك له.

قوله: «**فَوَصَفُوهُ بِمَا يَمْتَنِعُ وُجُودُهُ، فَضْلًا عَنْ الْوُجُوبِ**». كونه يعني: واجب الوجود.

قوله: «**أَوْ الْوُجُودِ أَوْ الْقِدَمِ**»؛ مثل قولهم: «لا موجود، ولا معدوم، ولا حيَّ، ولا ميت، ولا داخل العالم، ولا خارجه، ولا فوق، ولا تحت، ولا يمين، ولا شمال، ولا له مكان، ولا يجري عليه زمان».

قال رحمه الله تعالى:

«وَقَارَبَهُمْ طَائِفَةٌ مِنَ الْفَلَاسِفَةِ وَأَتْبَاعِهِمْ، فَوَصَفُوهُ بِالسُّلُوبِ وَالْإِضَافَاتِ، دُونَ صِفَاتِ الْإِثْبَاتِ، وَجَعَلُوهُ هُوَ الْوُجُودَ الْمُطْلَقَ بِشَرْطِ الْإِطْلَاقِ».

الشرح

قوله: «وَقَارَبَهُمْ طَائِفَةٌ مِنَ الْفَلَاسِفَةِ...». الفلاسفة: هم علماء اليونان الذين لا يعرفون الله ولا يؤمنون به، وأتباعهم ممن دخل في الإسلام في الظاهر؛ مثل الفارابي وابن سينا وهم لا يعرفون الإسلام ولا يعملون به.

قوله: «فَوَصَفُوهُ بِالسُّلُوبِ وَالْإِضَافَاتِ». وصفوه بـ «السُّلوب» يعني: النفي فقط، حيث قالوا: «لا جسم، ولا فوق، ولا تحت، ولا يمين، ولا شمال، ولا داخل العالم، ولا خارج العالم»، وهذا عدمٌ محض.

وأما **«الإِضَافَات»**، يعني: أضافوا له صفاتٍ، مثل قولهم: إن الله مبدأ الكائنات، و«الإضافات»: هي أمورٌ لا تُفهَم إلا بما أضيف إليه، كقولهم: «مبدأ الموجودات وعلة الكائنات»؛ فـ «مبدأ» مضاف، و«الكائنات» مضاف إليه؛ هكذا يقولون، وكله في الحقيقة لا علم فيه، بل فيه ضلالٌ وكفرٌ بالله ﷻ، الله ﷻ يوصف بما وصف به نفسه، ووصفته به رسله.

و«مبدأ» و«الكائنات» بمعنى واحد، وهو ضلال واضح، فالله تعالى مُوجِد الكائنات وخالقها.

قوله: «دُونَ صِفَاتِ الْإِثْبَاتِ»، يعني: لا يقولون: «إن الله عليم»، ولا يقولون: «إن الله سميع»، ولا: «إن الله فوق»، ولا: «إنه مستوٍ على عرشه»، ولا: «إن له صفة»؛ كل هذا لا يثبتونه، وإنما يثبتون النفي فقط، وهذا دليلٌ على خُبْثِ مقصِدِهم، وأنهم يريدون إفساد عقائد المسلمين.

قوله: «وَجَعَلُوهُ هُوَ الْوُجُودَ الْمُطْلَقَ بِشَرْطِ الْإِطْلَاقِ»، يعني: أن الله ـ في زعمهم ـ مجرَّدٌ عن جميع الصفات الثبوتية، فليس له حياةٌ ولا علمٌ ولا قدرةٌ ولا كلامٌ.

«الوجود المطلق» لا حقيقة له، وإنما يُتصوَّر في الذهن كقوله: «الإنسانية» أو «الحيوانية»، فلا وجود لشيء اسمُه: «إنسانية» أو «حيوانية»، بل هو في الأذهان، وهذا غاية التعطيل والجحود والكفر الذي لم يصل إليه كُفْرُ إبليس.

فـ «الموجود» لا بُدَّ له من موجِدٍ غنيٍّ بنفسه عمَّن سواه، فمن أضلُّ من هؤلاء الذين جعلوا وجودَ الله تعالى الذي هو أظهر وأبْيَن من الليل والنهار والشمس والقمر؛ جعلوه عدمًا محضًا.

قوله: «**بِشَرْطِ الْإِطْلَاقِ**». الإطلاق معناه: أنه لا يُقيَّد بشيء، لا يقال ـ مثلًا ـ: «الله الخالق».

ويقولون: «إن الله لا فوق، ولا تحت، ولا يمين»؛ أما الوجود فيقولون: «إنه موجود فقط»، لو قلت: أين هو؟ هل له صفة؟ هل له علم؟ هل له خلق؟ ليس له شيء. فهم عطَّلوا الخالق عن المخلوق، وعطَّلوا المخلوق عن أن يكون له خالقٌ، فجاءوا بالتعطيل الكامل من جميع الوجوه، ومعلوم أن هذا كفرُه أعظمُ من كفرِ قريش الذين رَدُّوا دعوة الرسول ﷺ.

ولهذا نقول: لو أُعرض عنهم نهائيًا لكان أولى وأحسن؛ لأن أكثر المسلمين لا يعرفون عنهم شيئًا، ولا في معرفتهم فائدة، بل فيها تعبٌ وضلالٌ، وقد يكون فيها شبه.

وهؤلاء الذين هم من القرامطة ومن الباطنية وصَفُوه بهذه الأمور، كلُّ هذه الأمور لا توجد في المسلمين الذين يؤمنون بكتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ، ولكنها وُجدت فيمن يدَّعي الإسلام وهو مُندسٌّ في المسلمين ليفسد عقائدهم، وإلا هذا لا يُمكن وجوده.

غيرَ أن هذا انطلى على كثيرٍ من الناس، ولهذا كثيرٌ ممن ينتسب إلى الأمة، بل ينتسب إلى العلم وإلى الأئمة يقول ببعض هذه الأقوال؛ فإنهم يقولون: «ليس فوق وليس تحت، وليس يمين...»، ويقولون: «كان ولا مكان، وهو الآن على ما كان عليه قبل خلق المكان!»، إذًا: أين هو؟!

وهذا الذي كان يُقرِّره إمامُ الحرمين الجوينيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ـ كما سبق ـ كان يتكلَّم بهذا الكلام في مسجد النبي ﷺ، وهو على كرسيٍّ يُخاطب الناس ويُعلمهم هذه الأمور! هل الناس بحاجة إلى مثل هذه؟!

قال أبو جعفر بن أبي عليّ الحافظ: «سمِعت أبا المَعَالِي الجُوَينِيّ وقد سُئِلَ عن قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، فقال: كانَ الله ولا عرش وجعل يتخبط في الكلام! فقلت: قد علمنَا ما أشرت إليهِ فهَل عنْدك للضرورات من حِيلَة؟ فقالَ: ما تُرِيدُ بِهذا القول وما تعنِي بهذهِ الإشارة فقلت: ما قالَ عَارِف قطّ يا رباه إلّا قبل أن يَتحرَّك لِسَانه قامَ من بَاطِنه قصد لا يلْتَفت يمنة ولا يسرة يقْصد الفوق فهل لهذا القَصْد الضَّرُورِيّ عنْدك من حِيلَة فنبئنا نتخلص من الفوق والتحت وبكيت وَبكى الْخلق فَضرب الْأُسْتَاذ بكمه على السرير وَصَاح يا للحيرة وخرق ما كان عليهِ وانخلع وصارَت قِيامَة في المسجِد ونزل ولم يجبني إلّا يا حبِيبِي الحيرَة الحيرَة، والدهشة الدهشة، فسمِعت بعد ذلك أصحابه يقولُونَ سمعناه يقُول: حيرني الهمدانِي»[1]، ولكن هذا جزاء الذي يُعرض عن كتاب الله، يُصبح مضطربًا، ما يعرف ماذا يقول، وما يعرف ماذا يعتقد فيمن هو أكبر من كلِّ شيء، وأعظم من كلِّ شيء، فالذي يشكُّ في الله يشكُّ في كلِّ شيء، ولكن من سُنَّةِ الله أنَّ الإنسان إذا أعرض عن كتاب الله أنَّه يُعاقبه بأن يُعمي بصره؛ كما قال الله ﷻ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ۝١١٠﴾ [الأنعام: ١١٠]، والسبب أنهم ردوا الوحي الذي جاءهم.

* * *

(١) كتاب العلو للعلي الغفار للذهبي (ص٢٥٩).

قال رحمه الله تعالى:

﴿«وَقَدْ عُلِمَ بِصَرِيحِ الْعَقْلِ أَنَّ هَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الذِّهْنِ، لَا فِيمَا خَرَجَ عَنْهُ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ، وَجَعَلُوا الصِّفَةَ هِيَ الْمَوْصُوفَ، فَجَعَلُوا الْعِلْمَ عَيْنَ الْعَالِمِ، مُكَابَرَةً لِلْقَضَايَا الْبَدِيهِيَاتِ، وَجَعَلُوا هَذِهِ الصِّفَةَ هِيَ الْأُخْرَى فَلَمْ يُمَيِّزُوا بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْمَشِيئَةِ جَحْدًا لِلْعُلُومِ الضَّرُورِيَّاتِ».

الشرح

قوله: **«وَقَدْ عُلِمَ بِصَرِيحِ الْعَقْلِ أَنَّ هَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الذِّهْنِ»**. هذا أمرٌ آخر، وهذا لنوعٍ آخر من المتكلمين، يجعلون الصفات شيئًا واحدًا، فالقدرة والعلم والسمع والبصر صفةٌ واحدة؛ وهذه مكابرة عند كلِّ من يعرف التمييز بين هذا وهذا، والأمور التي بطلانها ظاهرٌ، فما ينبغي أن نقف عندها.

وهذه المتضادات لا وجود لها، ولا يمكن أن يكون الإنسان قائمًا جالسًا في آنٍ واحد، أو أنه حيٌّ ميِّتٌ، أو عالم جاهل، فالمتضادات لا تجتمع، وكذلك الجمع بين الممتنعات من هذا القبيل.

ومن ذلك قولهم: إن الله ﷻ ذكر أنه على كل شيء قدير؛ فهل هذا على إطلاقه؟ إذا قلتَ: «إنه على إطلاقه»؛ قالوا: فهل يقدر على أن يخلق مثله؟! وهذه من الأمور الباطلة الممتنعة، والممتنع ليس بشيء، والله ﷻ على كل شيء قدير على الإطلاق، والممتنع ليس بشيء.

فهم في الواقع يُلبِسون على من لم يعرف كلامهم ومقصودهم. وقد يتأثَّر بعض الناس بكلامهم، حتى تجد بعض العلماء قد ينقل شيئًا من كلامهم، كما نقل ذلك السيوطي: في تفسير سورة المائدة في آخر آية منها: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة: ١٢٠]، قال: «خص العقلُ ذاته، فليس عليها بقادرٍ»[(١)]، فهذا كلامٌ باطل!، معنى كلامه: «أن الله تعالى لا يقدر على أن يخلق

(١) تفسير الجلالين (ص١٦١).

مثل نفسه»، وهذا كلام هؤلاء المتفلسفة؛ فكيف ينقل السيوطي مثل هذا الكلام؟! لأنه لم يتصور حقيقة قولهم، وهذا غاية الامتناع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذا هو السؤال الذي يقال: إن بعض ملوك الهند أورده على بعض متكلمة المسلمين في إمارة هارون، فقال: هل يستطيع ربك أن يخلق مثل نفسه؟ إن قلتَ: نعم؛ فقد جعلتَ له مثلًا، وإن قلت: لا، فقد عجزته، فقال له: هذه المسألة ممتنعة مستحيلة في نفسها، وإذا كانت في نفسها ممتنعةً لم يكن جوابُها إلا كذلك؛ لأنك إذا قلت: «خلق مثل نفسه»؛ فقد فرضت مِثْلين: أحدهما خالق الآخر، ولو كان مِثْله لم يكن مخلوقًا له ولا كان الآخر خالقًا له؛ فإن التماثل يمنع هذا الاختلاف، ويوجب التساوي في القدم والحدوث، فبهت الذي كفر»(١).

فالله ﷻ يقول: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، غيره في السماوات والأرض ﴿لَفَسَدَتَا﴾، فلا يمكن أن تكون، وأنَّ كل آلهة تُؤَلَّه ويُتَّجه إليها؛ فهي باطلة، فكيف يكون معه مثله؟

ولهذا كان من أعظم الأدلة التي استدل الله ﷻ بها على المشركين أن الخلق متسق لخالق واحد: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ يعني: شركاءهم، ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الأحقاف: ٤]، كلُّهم يعلم أنَّ الخالق واحد، وكلُّ ما في السماوات: ملكُه وتدبيره، وليس معه مالِكٌ ولا مُدَبِّر.

قوله: «وَجَعَلُوا الصِّفَةَ هِيَ الْمَوْصُوفَ...». هذه هي طريقة المعتزلة، فهم يثبتون الاسم ويبادرون إلى نفي الصفة. فيقولون: «هذا الاسم هو هذا الاسم، أو هذه الصفة هي هذه الصفة»، وهذه مُكابرةٌ؛ فكيف يكون العلم هو الحياة؟! أو يكون مثلًا السمع والبصر؟

وهم يزعمون أنهم يسلكون طريق العقل، وإذا أُلزموا بالحجة وبالدليل كابروا!

قوله: «جَحْدًا لِلْعُلُومِ الضَّرُورِيَّاتِ». وهي الأمور التي لا تحتاج إلى استدلال؛ لظهورها ولوضوحها.

* * *

(١) ينظر: جواب الاعتراضات المصرية (ص١٢١).

قال رحمه الله تعالى:

﴿«وَقَارَبَهُمْ طَائِفَةٌ ثَالِثَةٌ مَنْ أَهْلِ الْكَلَامِ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَمَنِ اتَّبَعَهُمْ؛ فَأَثْبَتُوا لِلَّهِ الْأَسْمَاءَ دُونَ مَا تَتَضَمَّنُهُ مِنَ الصِّفَاتِ - فَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَ الْعَلِيمَ وَالْقَدِيرَ؛ وَالسَّمِيعَ؛ وَالْبَصِيرَ؛ كَالْأَعْلَامِ الْمَحْضَةِ الْمُتَرَادِفَاتِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: عَلِيمٌ بِلَا عِلْمٍ، قَدِيرٌ بِلَا قدرةٍ، سَمِيعٌ بَصِيرٌ بِلَا سَمْعٍ وَلَا بَصَرٍ، فَأَثْبَتُوا الِاسْمَ دُونَ مَا تَضَمَّنَهُ مِنَ الصِّفَاتِ».

الشَّرح

قوله: «**فَأَثْبَتُوا لِلَّهِ الْأَسْمَاءَ دُونَ مَا تَتَضَمَّنُهُ مِنَ الصِّفَاتِ**». «الاسم»: هو ما دلَّ على المسمَّى، و«الصفة»: هي المعنى الذي قام بذات المسمى، ففرقٌ بين هذا وهذا.

والمعتزلة لا يفرقون بين «الاسم» و«الصفة»، ويجعلون «الاسم» هو «الصفة»، وكثير من المعتزلة قالوا بهذا المذهب الباطل؛ يقولون: «تُثبت الأسماء ولكن بلا صفة»، ومنهم من يجعل هذه الأسماء شيئا واحدا، ولكن ليس لها معانٍ، ومنهم من ينصُّ على نفي المعنى فيقول: «سميعٌ بلا سمع، عليمٌ بلا عِلْمٍ، بصيرٌ بلا بصَرٍ»، كيف يكون مثلًا سميعًا بلا سمعٍ، إذًا ما معنى كونه سميعًا؟!

هذا من الباطل الظاهر الذي كلام الله ﷻ يُبطله، بل الواقع من اللغة والعرف يبطله، ويظهر أن هؤلاء إما لُبِّس عليهم، وإما أنهم وقعوا فيما وقع فيه مَن قبلهم من إرادة الإفساد؛ وإلا فهذا لا يخفى على العقلاء. فمن وُصف بالسمع فمعنى ذلك أنه يُدرك المسموعات، ومن وُصف بالبصر فهو يُدرك المبصرات. أما هذا الكلام بأنه سميعٌ بلا سمع، بصيرٌ بلا بصر= فهو عبث وكلامٌ باطل.

يقال لهم مثلًا: يصح أن تُسمي الأسطوانة هذه سميعةً ولكن بلا سمع؛ لأنها قد تُدرك كلامك وتسمع ولكن ما لها سمع، فأي ميزة في قولكم هذا؟ إنه قول باطل.

والله ﷻ لا يُماثِلُه شيء، ولا يجوز أن يكون شيءٌ مشاركًا له في وصفٍ من

أوصافه - تعالى وتقدَّس -؛ فأوصافُه وأسماؤه كلُّها خصائصُ، ومعنى خصائص: تخصُّه فقط.

وهؤلاء كثيرون في المسلمين، ولكنهم ضلُّوا ودخلهم الشرك، فأصبحوا لا ينفكُّ عنهم الشركُ؛ لأنهم أشركوا بالله ﷻ في أسمائه وصفاته، فوصفوه بما يوصف به المخلوق، بل جعلوه أقلَّ من صفات المخلوق، فنفوا الصفات.

لأنهم بزعمهم يقولون: «إذا أثبتنا الصفات، لزم أن نثبت مع الله قدماء كثيرين»!، فتصوَّروا أن الصفة تكون إلهًا بنفسها، وهذا باطِلٌ؛ فإن الصفة لا بُدَّ أن تقوم بالموصوف، ولا يُوجد صفةٌ قائمةٌ بنفسها، ولهذا قال العلماء: «لا يجوز دعاء الصفة»، أي: لا يجوز أن تقول: «يا رحمة الله»، «يا عزَّة الله»، إنما الله يُدْعَى بصفاته وبأسمائه؛ لأنَّ الصفة ليست إلهًا فيُدْعَى، فيكون هذا نوعًا من الشرك بالله ﷻ.

أما هؤلاء فهم ضلوا لكونهم اعتمدوا على عقولهم فقط، وأعرضوا عما جاء به الرسول ﷺ، وما استطاعوا أن يردُّوا كتاب الله، وإنما صاروا يحرِّفونه، ويبدِّلون المعاني التي أراد الله ﷻ بها؛ أراد من عباده أن يفهموها ويعبدوا ربهم بها، كما قال الله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وليس هناك أعظم من هذا الإلحاد، فقالوا: إنه سميعٌ بلا سمع، بصيرٌ بلا بصَرٍ، وعليمٌ بلا عِلْمٍ؛ كيف يكون عليمًا بلا علم، وسميعًا بلا سمع؟! هذا بالطبع ممتنعٌ.

قالوا: «إنَّا إذا أثبتنا السمع والبصر لزم من ذلك التشبيهُ؛ لأن المخلوق له سمعٌ وبصرٌ يسمع ويُبصِر»، فردُّوا الحقَّ الظاهر البيِّن الذي لا إشكال فيه معتلِّين بأنه يقتضي التشبيه.

يقال لهم: المخلوق موجود، والله موجودٌ، فهل الاشتراك في الوجود يكون تشبيهًا؟! هذا القدر لا بُدَّ من إثباته. وكذلك إذا قلنا: «إنَّ الله سميع»، فسمعُ الله يليق به ﷻ ويليق بعظمته، والإنسان سميعٌ وسمعُه أيضًا يليق بضعفه وهو محدودٌ، وإذا أضيف السمع إليه صار خاصًّا به.

أما الفريق الثاني منهم الذين جعلوها مجرَّد أعلامٍ لا معنى لها؛ كما لو سمَّيتَ المخلوق «هذا زيد»، و«هذا بكر»، و«هذا عبد الله»، و«هذا عبد الرحمن»، وُضِعت

هذه الأسماء على أبدانٍ متساوية ليميز هذا من هذا فقط، وليس لهم من الأسماء شيء إلا العبودية، يشتركون بها كلُّهم؛ فكلُّهم عبيدٌ، فليس هذا مختصًّا بهذا ولا هذا مختصٌ بهذا، فهم جعلوا أسماء الله بهذه المثابة ـ تعالى الله وتقدس ـ، وهذا ضلالٌ واضحٌ بَيِّنٌ.

فالمقصود: أنَّ ضلال هؤلاء في اتباع أهوائهم، والمعتزلة طوائف متعددة، وقد بلغت أكثرَ من أربعٍ وعشرين طائفةً، وكلُّ طائفة تُضلِّل الأخرى، وكذلك المرجئة والخوارج وغيرهم، فقد انقسموا إلى فرق.

ويقول العلماء: أصلُ الثلاث والسبعين التي أخبر عنها الرسول ﷺ أربعُ طوائف: «الرافضة، والقدرية، والخوارج، ونفاة الصفات»؛ سواءٌ سميتهم جهميَّةً، أو معتزلةً، أو أشاعرةً، فكلهم يدخلون في هذا»، وما عدا ذلك من الطوائف الأخرى فهي ترجع إليهم.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿«وَالْكَلَامُ عَلَى فَسَادِ مَقَالَةِ هَؤُلَاءِ وَبَيَانِ تَنَاقُضِهَا بِصَرِيحِ الْمَعْقُولِ الْمُطَابِقِ لِصَحِيحِ الْمَنْقُولِ مَذْكُورٌ فِي غَيْرِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ».

الشَّرح

قوله: «وَالْكَلَامُ عَلَى فَسَادِ مَقَالَةِ هَؤُلَاءِ...»، يعني: أنَّه ذكر هذا في مواضع من كتبه، متعددة، ولا سيما في كتابه: «درء تعارض العقل والنقل»، و«نقض تأسيس الجهمية»، وكذلك كتابه «التسعينية» و«السبعينية» وغيرها، وله كتبٌ كثيرة في هذا؛ وكلُّها ردودٌ على هؤلاء.

وكذلك على الذين اتبعوهم في أصولهم واختلفوا معهم في بعض القضايا؛ مثل الأشاعرة الذين هم فرعٌ عن المعتزلة. والأشاعرة سيأتي الكلام عليهم أنهم أثبتوا بعض الصفات وأوجبوا تأويل البعض أو التفويض.

قوله: «مَذْكُورٌ فِي غَيْرِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ...»، يعني: أنه ردَّ عليهم في كُتُبه الأخرى؛ لأنه كثيرًا ما يتكلم عليهم، حتى سُئل: لماذا لا تصنِّف في تفسير القرآن، وأحاديث الرَّسول ﷺ؟ فقال: «إني رأيت هؤلاء أضلُّوا المسلمين، وتأثيرهم في أفكار المسلمين لا نظير له، فالكلام فيهم وبيان ضلالهم من أعظم الجهاد في سبيل الله».

ولهذا كثر معادوه، وكثرت أذيتهم له، ومع ذلك أظهر الله ﷻ الحق على يده، ولا يزال الناس ينتفعون بكتبه رحمه الله تعالى.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَهَؤُلَاءِ جَمِيعُهُمْ يَفِرُّونَ مِنْ شَيْءٍ فَيَقَعُونَ فِي نَظِيرِهِ وَفِي شَرٍّ مِنْهُ، مَعَ مَا يَلْزَمُهُمْ مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّعْطِيلِ، وَلَوْ أَمْعَنُوا النَّظَرَ لَسَوَّوْا بَيْنَ الْمُتَمَاثِلَاتِ، وَفَرَّقُوا بَيْنَ الْمُخْتَلِفَاتِ، كَمَا تَقْتَضِيهِ الْمَعْقُولَاتُ؛ وَلَكَانُوا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِينَ يَرَوْنَ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ، وَلَكِنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الْمَجْهُولَاتِ الْمُشَبَّهَةِ بِالْمَعْقُولَاتِ، يُسَفْسِطُونَ فِي الْعَقْلِيَّاتِ، وَيُقَرْمِطُونَ فِي السَّمْعِيَّاتِ».

الشَّرح

قوله: «وهؤلاء جميعهم»، يعني: كل الذين تقدم ذكرهم؛ ما عدا الذين اتبعوا الكتاب والسنة من السلف، الذي مضى أنَّهم يتبعون ما قاله الله ﷻ وقاله الرسول ﷺ مع فهم المراد وتعقُّله وعبادة الله به، وأنَّ هذا هو الحقُّ الذي يجب على كلِّ مكلَّفٍ.

أما الذين ذكرهم بعدهم؛ سواءٌ كان ضلالهم بعيدًا أو لا يشبه ضلال الكفرة والملاحدة ـ لأنهم مسلمون في الجملة وليس بالجملة ـ فهم داخلون فيما ذكره الشيخ.

ونحن إذا قلنا: «في الجملة» نعني: أنهم حرَّفوا بعضَ الأشياء، فتركوا بعضها وأخذوا بعضها، فهُمْ أيضًا ضلُّوا في هذا المجال. أي: في الله؛ ومن أضلُّ ممن ضاع في ربِّه وضلَّ فيه، فلم يعرف من يَعْبُد؟!

ولهذا أذكياؤهم وكبراؤهم في نهاية الأمر يحارون، ويصبح أحدهم لا يدري ماذا يعبد؟ وكفى بهذا ضلالًا وبُعدًا عن الله ﷻ؟! كيف يضلون فيما يتعلق بالله، الذي هو أكبر من كلِّ شيء وأظهر من كلِّ شيء؟!

السبب: أنَّ الله عاقبهم لإعراضهم عن كتابه، وعما جاء به الرسول ﷺ، فوكلهم إلى عقولهم فضاعوا وضلُّوا. وهكذا كلُّ من ردَّ ما جاء به الرسول: أزاغ الله قلبه فأصبح يتخبَّط، لا يَدْرِي ماذا يفعل ـ سواءٌ كان في المعلومات أو في

العمليات ـ، كلُّ من أعرض عن دين الله، فلا بُدَّ أن يَضِلَّ ويُوكَل إلى نظرِه وإلى عقلِه، فلا يدري ماذا يسلك؟ وماذا يعتقد؟ وماذا يقول؟

ولهذا كبارهم في النهاية يقرُّ بأنه لا يدري ماذا يقول؟ ولا يدري ماذا يعتقد؟ وهذه هي غايتهم ـ نسأل الله العافية ـ. وذلك لأنَّ الله ﷻ غيبٌ لا يُدرَك بمجرد العقل. فلا بُدَّ فيما يُوصف ويُعلم ما يستحقُّ وما يجب له وما يمتنع عليه، من العلم الذي يأتي عن الله ﷻ عن طريق الرسل، **ولهذا قال: «وَهَؤُلَاءِ جَمِيعُهُمْ يَفِرُّونَ مِنْ شَيْءٍ فَيَقَعُونَ فِي نَظِيرِهِ وَفِي شَرٍّ مِنْهُ»** يعني: الذي يحسن فيه الظَّنَّ أنه فَرَّ من التشبيه فوقع في التعطيل الذي هو أشرُّ من التشبيه.

قوله: «مَعَ مَا يَلْزَمُهُمْ مِنَ التَّحْرِيفِ»، يعني: تحريف كلام الله ﷻ وكلام رسوله ﷺ، وتعطيل الكلام عن مدلوله الذي أريد به؛ لأنَّ لكل كلام مدلولًا، فلا بُدَّ أنه تكلم بشيءٍ يريد من المكلَّم أن يفعله أو أن يعتقده، هذا أمرٌ لا بُدَّ منه، وهم عطَّلوا هذا.

قوله: «وَلَوْ أَمْعَنُوا النَّظَرَ»، يعني: ووافقوا وامتثلوا لأمر الله ﷻ الذي يرشد العقول، فكتابه يرشد العقول ويهديها، كونه الخالقَ وهو المتصرف في مُلْكِه.

قوله: «لَسَوَّوْا بَيْنَ الْمُتَمَاثِلَاتِ»، يعني: المتماثلات العقلية.

قوله: «وَفَرَّقُوا بَيْنَ الْمُخْتَلِفَاتِ كَمَا تَقْتَضِيهِ الْمَعْقُولَاتُ». وهذا يشمل أهل التعطيل والتأويل. وهذا تفسير لما سبق من كونهم جمعوا بين الأمور الممتنعة، ووصفوه بالمعدومات أو بالممتنعات أو بالإضافات، والسبب في هذا أنهم نظروا إلى عقولهم، فصارت عقولهم تقيس ربَّ العالمين الذي هو غيبٌ لا يعلمونه ولا نظيرَ له على الموجودات؛ فضلُّوا في ذلك؛ لأنهم لما قاسوا قالوا: هذا تشبيهٌ، فنفوا عنه الصفات.

فالمخلوقات تستوي في كونها فقيرةً، وتستوي في كونها وُجِدَتْ بعد أن لم تُوجَد. أمَّا الذي أوجدها فلا بُدَّ أن يكون متميزًا مختصًّا بما له، لا يشاركه فيه شيء من الصفة والاسم، فلو كانوا أمعنوا العقل الذي يسترشد بالسمع ـ الذي يأتي به الرسول ـ لاهتدوا إلى هذا، ولكنهم لم يهتدوا.

وإنما اهتدى إليه أهلُ العلم الذين آمنوا بما جاءت به الرسل واتبعوهم، فاهتدوا إلى الطريق السوي وإلى ما فيه النجاة. أما هؤلاء فضلُّوا ووقعوا في الشرك؛

لأنهم أشركوا بالله ﷻ في صفاته، فجعلوا المخلوقات مشارِكَةً له ـ تعالى الله وتقدَّس ـ، بل كثيرٌ منهم جعل المخلوق مشاركًا للرَّبِّ ﷻ في الخلق والإيجاد، فزعموا أن المخلوق هو الذي يخلق الإيمان والكفر، وهو الذي يخلق أفعاله، ولا دخل لله ﷻ في ذلك، فضلوا ضلالًا بعيدًا.

هؤلاء جميعهم ـ وإن تفاوتَ ضلالُهم، وبعضهم يكون أبلغ من بعض ـ حادُوا عن الطريق السَّوِي واتبعوا المتشابهات، بل اتبعوا المنكرات الواضحات، وأعرضوا عن الآيات البينات التي أنزلها الله ﷻ هدايةً لعباده، وكذلك أعرضوا عن أقوال الرسول ﷺ، وإن كان ضلالهم يتفاوت؛ فبعضهم أقرب إلى الحق من بعض، وبعضهم بعيدٌ كلَّ البُعد عن الحقِّ، غيرَ أنَّ الضلال شَمَلَهم، وهذا وصفُ كلِّ من كفر.

فـ «المعطلة» فرُّوا من التشبيه فوقعوا في التعطيل، و«أهلُ التأويل» فرُّوا من التشبيه فوقعوا فيه أو في شرٍّ منه.

مثل الأشاعرة الذين تأوَّلوا صفة «الرحمة»، فقالوا: «هي إرادة الإحسان؛ لأن الرحمة رِقَّةٌ في القلب تقتضي ميل الراحم إلى المرحوم»، وفي هذا تشبيهٌ للخالق بالمخلوق!.

والجواب أن يقال: إن هذا الذي ذهبتم إليه في وصف الرحمة هو رحمة المخلوق، أما رحمة الله فهي معنى عظيمٌ قائمٌ بذاته، ولا يجوز أن تكون شبيهةً برحمة المخلوق، ثُمَّ إن الإحسان هو الميلُ إلى المحسن إليه، ففروا من التشبيه ووقعوا فيه، أو في شرٍّ منه.

وكذلك صفة «الغضب»؛ يقولون: «إن الغضب هو: غليان دم القلب، ثم طلب الانتقام».

فنقول: هذا غضب المخلوق، أما غضب الله ﷻ فلا يجوز أن يكون مشابهًا لهذا، وهو تعالى يخصُّه بخصائصه لا يشارِكُه المخلوقُ فيها.

ثم طلب الانتقام أليس ميلًا لذلك وحُبًّا له؟! فإذًا: هذا كما تقولون: إن الغضب غليان دم القلب إلى آخره، فهل تصفون الله ﷻ بذلك؟ فيقولون: لا، نحن فررنا من هذا التشبيه، فنقول: هذا من عندكم، ولو آمنتم بغضب الله ﷻ على ما جاء لسلِمْتم من هذه التأويلات الباطلة.

قال رحمه الله تعالى:

«وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ عُلِمَ بِضَرُورَةِ الْعَقْلِ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ مَوْجُودٍ قَدِيمٍ غَنِيٍّ عَمَّا سِوَاهُ، إِذْ نَحْنُ نُشَاهِدُ حُدُوثَ الْمُحْدَثَاتِ؛ كَالْحَيَوَانِ وَالْمَعْدِنِ وَالنَّبَاتِ، وَالْحَادِثُ مُمْكِنٌ لَيْسَ بِوَاجِبٍ وَلَا مُمْتَنِعٍ، وَقَدْ عُلِمَ بِالِاضْطِرَارِ أَنَّ الْمُحْدَثَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُحْدِثٍ، وَالْمُمْكِنَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُوجِبٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور: ٣٥]، فَإِذَا لَمْ يَكُونُوا خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ خَالِقٍ وَلَا هُمُ الْخَالِقُونَ لِأَنْفُسِهِمْ تَعَيَّنَ أَنَّ لَهُمْ خَالِقًا خَلَقَهُمْ».

الشرح

يعني: هذه أمورٌ عقليَّةٌ وبُرهانيَّةٌ دلَّ عليها كتابُ الله ﷻ، وكذلك دلَّت عليه العقولُ؛ لأنه يقول: «**وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ عُلِمَ بِضَرُورَةِ الْعَقْلِ**»، و«الضرورة» سبَق أنها الشيء الذي لا يحتاج إلى استدلالٍ، حيث إنه أمرٌ ظاهر.

والمعنى: أن المخلوق لا بُدَّ له من خالق، والموجود المشاهَد المعيَّنُ لا بُدَّ له من مُوجِدٍ، وهذا أمرٌ لا محيدَ عنه؛ لأنه لا يمكن أن يقال: «إن هذا البناء وُجد بنفسه»؛ فلا بُدَّ أن يكون هناك من بناه وجعله على هذه الصفة، ويمتنع أن يوجِدَ نفسَه؛ فكيف لهذا الكون المتقَن ـ الأرض والسماء والشمس والقمر والنجوم وغيرها ـ، وهي تسير بأدق نظامٍ وأحسنِه؛ فلا بُدَّ أن لها مدبِّرًا وخالقًا وموجدًا ومصرفًا.

قوله: «**أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ مَوْجُودٍ قَدِيمٍ**»؛ أي: أنَّ هذا الموجد قديمٌ أزليٌّ، وليس من أسماء الله: «القديم» ولا: «الأزلي»، وإنما هذا من باب الإخبار ومخاطبة الناس بما يعرفون.

وإنما من أسمائه: «الأول»، وهو أحسن من «القديم»؛ لأن «القديم» نسبةٌ لما جاء بعده، فكلُّ نوع مُتجدِّد يكون ما قبله قديمًا، كما قال الله ﷻ: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾﴾ [يس: ٣٩]، يعني: الذي جاء بعده عرجون آخر، وقالوا ليعقوب عليه السلام ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ [يوسف: ٩٥]، يعني: الذي

تتوهم بوجود يوسف. فـ «القديم» ليس من الأسماء الحسنى، وكذلك «الممكن»، و«الأزلي» و«الصانع»، وما أشبه ذلك.

وذكر الله ﷻ شيئًا من هذا في كتابه على سبيل الإخبار؛ كقوله ﷻ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة: ٦٣ ـ ٦٤]، فالله لا يسمى زارعًا، ولكن هذا من باب الخبر، فالله ﷻ ليس من أسمائه «الزارع»، ولكن يخبر عنه بأنه هو الذي ينبت الزرع وهو الذي يصلحه، ولا شيء يوجد في الموجودات إلا بفعله وإرادته ـ تعالى وتقدس ـ.

فالمقصود: أن الكلام في الاصطلاح فيما يتعارف عليه الإنسان لا يلزم منه الوصف ولا التسمية.

فـ «القديم» ليس من أسماء الله، ولكن الشيخ رحمه الله يُخاطبهم باصطلاحهم، فإنهم يجعلون «القدم» هو أخصّ وصف الله، هذا يدُلُّك على أنهم لم يأخذوا دينهم من كتاب الله ولا من سنة رسوله ﷺ، فإنهم أخذوه من عقولهم فقط.

قوله: «غَنِيٌّ عَمَّا سِوَاهُ»، يعني: أنه ﷻ لا يحتاج إلى أحدٍ، حيث استغنى بنفسه عن كلِّ شيء، ولكن كلُّ شيءٍ لا يستغني عنه ولا وجودَ له إلا به، وهذا أمرٌ مشاهَدٌ.

فإنك إذا شاهدت السماء والأرض والحيوان والنبات والرياح والسحاب وغيرها، تعلَمُ يقينًا أنَّ لها مُوجِدًا أوْجَدَها، وهي لا توجد بنفسها. فإذا رأيتها على هذا النظام الدقيق من جريان الأفلاك في أوقاتٍ معينة وذهاب الليل والنهار والجبال وغيرها= تعلم أنَّ لها صانعًا عليمًا حكيمًا خبيرًا ﷻ؛ وإن كانت كلمة «صانع» لا يجوز أن نقولها وصفًا لله، ولكن خبرًا يُخبَر بها عن الله ﷻ. وكذلك لفظ «الواجب»، فإن **المقصود به**: الذي لم يحتجْ وجوده إلى شيء، ووجوده أزليٌّ لم يزل ولن يزال، ويُغني عنه قوله ﷻ: ﴿ٱلْأَوَّلُ﴾، وقوله: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ فهو الذي قام بنفسه وصمد بنفسه ولم يحتج إلى مخلوق ولا إلى غير ذلك، بل كل الخلق يصمدون إليه بحاجتهم كما سبق.

إذًا: هذه مخلوقات لله ﷻ تدلُّ على أنه هو الخالق العليم البصير الذي يجب أن يُعبَد، ولهذا جعل الله ﷻ هذه المخلوقات دليلًا على وجوب عبادته؛ كما قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢١]، فالخالق لهذه الأشياء هو الواجب أن يُعبد، فهذا أمرٌ ظاهرٌ جدًا.

قوله: «**وَالْحَادِثُ مُمْكِنٌ لَيْسَ بِوَاجِبٍ وَلَا مُمْتَنِعٍ**». فـ «الممكن»: هو ما جاز وجوده وعدمه.

وقوله: «**وَقَدْ عُلِمَ بِالِاضْطِرَارِ**»؛ لأنها أمور ظاهرةٌ وجَلِيَّة.

قوله: «**الْمُحْدَث لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُحْدِثٍ، وَالْمُمْكِن لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُوجِب**». العبارتان بمعنى واحد، فـ «الممكن» و«المحدَث» هو المخلوق، و«المحدِث» و«الواجب» هو الله، و«الواجب» يقابله «الجائز». هكذا يُعبِّرون، وهي من عبارات المتكلمين.

فيقولون: إن الوجود كله لا يخلو من أن يكون واجبًا أو جائزًا، فـ «الجائز»: هو المخلوق الذي جاز عليه العدم، كما أنه سبقه العدم، وكلُّ ما سبقه العدم يلحقه العدم. أما «الواجب»: فهو الذي استغنى في ذاته عن كُلِّ ما سواه، فليس محتاجًا إلى شيء من المخلوقات أو غيرها ـ تعالى الله وتقدس ـ.

قوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥﴾ [الطور: ٣٥]، والتقدير في هذا عقلي، وهو أنَّ المخلوق لا يخلو من **ثلاثِ حالاتٍ**:

الأولى: إما أن يكون خَلَقَ نفسَه؛ وهذا ممتنعٌ.

الثانية: إما أن يكون خلَقَه نظيرُه؛ وهذا ممتنعٌ أيضًا.

الثالثة: إما أن له خالقًا عليمًا قديرًا غنيًّا بذاته عن كلِّ ما سواه.

وطريقة القرآن أنه إذا ذكر الباطل فإنه يسكت عن الحق؛ حتى ينظر العاقل ويتفكر في ذلك.

قوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾، يعني: من غير خالقٍ وهذا ممتنع، فلا يوجد شيء إلا وله مُوجِدٌ.

قوله: ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥﴾، يعني: أنهم خلقوا أنفسهم، وهذا ممتنعٌ أيضًا.

وبَقِي التقدير الثالث: وهو أن لهم خالقًا عظيمًا، وهذا قد فُطِر عليه الخلق، فكلُّ محدَثٍ له محدِثٌ، ولهذا قال المؤلِّف: «**فَإِذَا لَمْ يَكُونُوا خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ خَالِقٍ وَلَا هُمْ الْخَالِقُونَ لِأَنْفُسِهِمْ تَعَيَّنَ أَنَّ لَهُمْ خَالِقًا خَلَقَهُمْ**».

المقصود: أنَّ قوله ﷻ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾، يعني: من غير خالق، وهذا لا يمكن، فلا يمكن أن نشاهد سيَّارةً ونقول: هذه وُجدت بلا صانعٍ! هذا لو قاله قائلٌ لقيل: هذا مجنون. فلو شاهد إنسان أثرا وقال: «هذا ليس له مؤثِّرٌ»، لكان

مكابرا. بل حتى الطفل الصغير لو ضربه ضاربٌ ثم قلتَ له: «اسكت لم يضربك أحد»: لن يقتنع؛ لأنَّ الأثر له مؤثِّرٌ ولا بُدَّ.

فالمقصود: أنَّ هذا أمرٌ لا يمكن للإنسان أن يجهلَه، ولهذا قال: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥﴾؛ وهكذا عادة القرآن، يذكر الأمور الباطلة ويسكت عن الحق حتى يرشد العقل إلى الفكر في ذلك.

فإذا كانوا ما خُلقوا من غير خالقٍ، ولا هم خَلَقُوا أنفسهم، ولا أمهاتهم وآباءهم خلقوهم؛ فإذًا من الخالق؟ لا بُدَّ أنه ينظر في عقله ويعلم أنَّ الخالق هو الله ﷻ، الذي ليس كمثله شيءٌ وهو ﷻ غنيٌّ بذاته عن كلِّ ما سواه؛ ولهذا قال: «**فَإِذَا لَمْ يَكُونُوا خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ خَالِقٍ وَلَا هُمُ الْخَالِقُونَ لِأَنْفُسِهِمْ تَعَيَّنَ أَنَّ لَهُمْ خَالِقًا خَلَقَهُمْ**» عليمًا بصيرًا غنيًا عن خلقه ـ تعالى وتقدس ـ. فالمخلوق لم يخلق نفسه، ولم يخلقه نظيرُه، بل خلقه الله ـ تعالى وتقدس ـ.

وهذه المعرفة لا تكفي في دخول الإسلام، وذلك أنَّ الكفار كلهم يعلمون هذه القضية ويوقنون بها، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝٩﴾ [الزخرف: ٩]، وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣]؛ فهم يقرون بهذا ولا ينكرونه، ومع ذلك لم ينفعهم هذا في دخول الإسلام، وإنما يدخل الإنسانُ الإسلامَ بشهادة التَّوحيد، وهي أن يشهد أن لا إله إلا الله، فـ «الله» هو المألوه وحدَه، وكلُّ مألوهٍ غيره باطلٌ، وهذا أمرٌ اتفقت عليه الرسل.

وغايةُ هؤلاء المتفلسفة أنهم يستدلون على وجود الله بالعقل، وهذا أمر فطريٌّ لا يشكُّ فيه أحد، فهم قد أتعبوا أنفسهم غايةَ التعب على هذه المسألة، ولو سألتهم عن معنى «لا إله إلا الله» لما عرفوا الجواب!

وهذا من العجب، ولما سئل أحد كبرائهم[(١)] عن ذلك قال: «هو القادر على الاختراع!»، والقادر على الاختراع هو الرَّبُّ ﷻ؛ أما «الإله»: فهو المألوه الذي تألهه القلوب حُبًّا وخوفًا وذُلًّا وإنابةً وقصدًا.

---

(١) قال بذلك الإمام الأشعري رحمه الله ـ كما سيأتي ـ.

قال رحمه الله تعالى:

«وَإِذَا كَانَ مِنَ الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ فِي الْوُجُودِ مَا هُوَ قَدِيمٌ وَاجِبٌ بِنَفْسِهِ، وَمَا هُوَ مُحْدَثٌ مُمْكِنٌ، يَقْبَلُ الْوُجُودَ وَالْعَدَمَ، فَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا مَوْجُودٌ وَهَذَا مَوْجُودٌ وَلَا يَلْزَمُ مِنْ اتِّفَاقِهِمَا فِي مُسَمَّى «الْوُجُودِ» أَنْ يَكُونَ وُجُودُ هَذَا مِثْلَ وُجُودِ هَذَا، بَلْ وُجُودُ هَذَا يَخُصُّهُ وَوُجُودُ هَذَا يَخُصُّهُ، وَاتِّفَاقُهُمَا فِي اسْمٍ عَامٍّ لَا يَقْتَضِي تَمَاثُلَهُمَا فِي مُسَمَّى ذَلِكَ الِاسْمِ عِنْدَ الْإِضَافَةِ وَالتَّخْصِيصِ وَالتَّقْيِيدِ وَلَا فِي غَيْرِهِ.

فَلَا يَقُولُ عَاقِلٌ - إِذَا قِيلَ: إِنَّ الْعَرْشَ شَيْءٌ مَوْجُودٌ وَأَنَّ الْبَعُوضَ شَيْءٌ مَوْجُودٌ -: إِنَّ هَذَا مِثْلَ هَذَا؛ لِاتِّفَاقِهِمَا فِي مُسَمَّى «الشَّيْءِ» و«الْوُجُودِ»، لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْخَارِجِ شَيْءٌ مَوْجُودٌ غَيْرُهُمَا يَشْتَرِكَانِ فِيهِ، بَلْ الذِّهْنُ يَأْخُذُ مَعْنًى مُشْتَرَكًا كُلِّيًّا هُوَ مُسَمَّى الِاسْمِ الْمُطْلَقِ، وَإِذَا قِيلَ: هَذَا مَوْجُودٌ وَهَذَا مَوْجُودٌ، فَوُجُودُ كُلٍّ مِنْهُمَا يَخُصُّهُ لَا يَشْرَكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ؛ مَعَ أَنَّ الِاسْمَ حَقِيقَةٌ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا».

الشرح

قوله: «وَإِذَا كَانَ مِنَ الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ فِي الْوُجُودِ مَا هُوَ قَدِيمٌ وَاجِبٌ بِنَفْسِهِ...»، يعني: أن وجود الله تعالى واجبُ الوجود بنفسه، وأما وجود المخلوق فهو مُحدَثٌ، ويسبقه العدم ويلحقه العدم، وكلاهما موجود، ولكن فرقٌ بين وجود الله ووجود المخلوق؛ ولهذا قال: **«وَلَا يَلْزَمُ مِنْ اتِّفَاقِهِمَا فِي مُسَمَّى «الْوُجُودِ» أن يكون وجود هذا مثل وجود هذا»**، يعني: أنه لا يلزم من اشتراكهما في الاسم: التشبيه أو التَّمثيلُ.

وهذا الكلام أصلٌ يجب أن يُعتنى به، وهو الذي يزيل شُبَه هؤلاء؛ لأنهم زعموا أنَّ الذي حَدَا بهم إلى هذه الأقوال الفاسدة الباطلة هو الخوف من الوقوع في التشبيه، ومعنى ذلك: أن كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ عندهم يدلُّ على التشبيه، وكلُّ التصوُّرات باطلةٌ عندهم.

ثم المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر مثالًا على هذا، فقال: «**إِنَّ الْعَرْشَ شَيْءٌ مَوْجُودٌ وَأَنَّ الْبَعُوضَ شَيْءٌ مَوْجُودٌ**»، فالعرش هو أكبر المخلوقات على الإطلاق، والبعوض من أصغر المخلوقات، وكِلاهما يطلق عليه أنه «موجود»، ولا يكون بينهما اشتراك أو تشابُهٌ أو تماثُلٌ، وهكذا يقال في حقِّ الله ﷻ، فهو موجودٌ، والخلق موجودٌ، ولا يُشتَرَكُ بين الخالق الغني بذاته، وبين الفقير الذي احتاج إلى من يُوجِدُه ومن يرزقه ويعافيه ويزيل عنه المانع لبقائه.

فإذًا: هذا الزعم الذي يزعمونه من وقوع التشابه بين الله ﷻ وبين خلقه زعمٌ باطل، وكَذِبٌ وتزويرٌ وبهتٌ، وأكثرهم يريد الفساد ولا يريد الصلاح، وليس يَفِرُّ من التشبيه كما زَعَم، ولهذا تجدهم يكابرون، ولو جئتهم بأوضح آية من كتاب الله لم يقبلوها، وكذلك إذا جئتهم بأحاديث رسوله ﷺ؛ فإنهم لا يقبلونها.

وبناءً على هذا؛ يكون الصحابة ﷺ - على زعمهم - ضالِّين، ويكون الرسول ﷺ لم يبيِّن الحقَّ؛ لأنَّ الحقَّ في عقولهم! فهؤلاء من أبعدِ الخَلق عن الإسلام، فهم أرادوا إفسادَ دينِ المسلمين، فصاروا يُلبسون عليهم فيما يعتقدونه، وكثيرٌ من النَّاس يتبعهم على سبيل التقليد وحُسن الظَّنِّ بهم، فوقعوا في الضَّلال بهذا السبيل.

ومثل ذلك يقال في «أهل التأويل»؛ ففي قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾ [طه: ٥] الاستواء هو الجلوس، فيقولون: «إن الجلوس فعلُ مخلوقٍ، وعلى هذا تكون مُشَبِّهًا»، فنقول: إن استواء الله يخصُّه ويليق به، وجلوس المخلوق يخصُّه ويليق به.

ومثل ذلك يقال في صفة «الحياة»، فالله ﷻ حيٌّ، والمخلوق كذلك حي، ولا يمكن أن يقال: إن في هذا تشبيهًا أو تمثيلًا؛ لأن كل ما أضيف إلى الله فهو يخصُّه، ولا يشاركه فيه المخلوق، وما أُضِيفَ إلى المخلوق فهو يخصُّه ولا يشاركه الله فيه.

قوله: «وَاتِّفَاقُهُمَا فِي اسْمٍ عَامٍّ لَا يَقْتَضِي تَمَاثُلَهُمَا فِي مُسَمَّى ذَلِكَ الِاسْمِ عِنْدَ الْإِضَافَةِ وَالتَّخْصِيصِ وَالتَّقْيِيدِ وَلَا فِي غَيْرِهِ»، يعني: أنَّ مجرد الاتفاق في اسمٍ عامٍّ لا يلزم منه التشبيه أو التمثيل في حال إضافة هذا الاسم أو تقييده، فالموجودات لا تتماثل في الاسم إلا عند الإطلاق؛ أما إذا جاء التقييد للاسم أو الإضافة فإنها تختلف، وهذا ظاهر في المخلوقات، فمثلًا عمرو وزيد كلٌّ واحدٍ منهما له عقلٌ

وفكرٌ، وعلمٌ وجهلٌ، وهما مخلوقان، ولكن لكلٍّ واحد منهما وصفٌ يخُصُّه لا يشركه أحدٌ، فكيف بين الخالق والمخلوق، فلا شكَّ أنه أولى في عدم الاشتراك.

ولهذا نقول: تتميز الصفات والأسماء **بأمرَين**:

الأول: التخصيص؛ فإذا قيل: «هذا اسمٌ لله»؛ فإنَّ هذا مختصٌ بالله وحدَه، وكذا إذا قيل: «هذا اسمٌ للمخلوق»؛ فهو مختصٌّ به أيضًا.

الثاني: الإضافة؛ فإذا قيل: «سمعُ الله»، «علمُ الله»، «حياةُ الله»، فهذه الصفات أضيفت إلى الله، ولا يَشْرَكُه فيها المخلوق. وكذا إذا قيل: «حياة زيد»، «علم زيد»؛ فهذه الإضافة أزالت الاشتراك.

والاشتراك يكون عند الإطلاق؛ كإطلاق لفظ «الحياة» أو «العلم» أو «القدرة»، فهذا ليس فيه تخصيص أو إضافة إلى أحد، فهذا لا يمكن أن يكون شيئًا قائمًا بنفسه، ولا بُدَّ أن يُضاف أو يخصَّ بمن يقوم به؛ فإذا أضيف أو خُصَّ بمن يقوم به صار خاصًا به؛ سواءٌ كان الكريم العلي الكامل من كلِّ وجهٍ، أو كان الفقير الضعيف الذي يحتاج لحياته وبقائه إلى من يحييه ويبقيه ويرزقه.

فالمقصود: أن الأمر في هذا من أوضح الأمور، فهم يزعمون أنه من أشكل الأمور وأصعبها بناءً على ضلالهم، والعجب أن بعضهم يصرِّح بأن الأخذ بظاهر القرآن تشبيهٌ ـ نسأل الله العافية ـ، فهل صار ظاهرُ القرآن كفرًا؟! أما الأحاديث فهي أوضحُ، وقد صرَّح أحدُهم بأن بعض الرُّسُل مشبِّهةٌ! فهل يقول هذا مسلم؟!

أسماء الله تخصُّه وصفاته تخصُّه، وأسماء المخلوقين تخصُّهم وتليق بهم؛ فإذا اشترك الاسم قبل الإضافة والتخصيص، فهذا ليس له وجود في الخارج، وإنما هو شيءٌ في الذهن فقط؛ كما إذا قلت: «سمعٌ»، فلا يُفهم منه شيء إلا أنه سمعٌ فقط، ولكن إذا قلت: «سمعُ الله»، خصّ الله وأصبح المخلوق لا يشاركه فيه. وإذا قلتَ: «سمع زيد»، كان خاصًا بزيد والله ﷻ لا يشاركه في سمعه.

وهكذا جميعُ الصفات والأسماء؛ إذا أضيفت زال الاشتراك الذي يكون في الذهن قبل أن يُخَصَّ أو يضاف، حتى المخلوق؛ فإذا قلت: «عمروٌ موجود»، و«بكر موجود»؛ فعمرو له وجوده يخصه، وكذلك بكر وجوده يخصُّه، فضلًا عن الأسماء التي يشتركون فيها مثل السمع والبصر والعلم، فكلُّ اسم يضاف أو يخصص؛ فإنه لا يكون مشاركًا له غيره فيه.

وهذا من أعظم الأشياء بيانًا وأظهرِها وُجودًا، وهو الذي التبس على هؤلاء الضُّلَّال، فزعموا أننا إذا قلنا: «إنَّ الله سميعٌ» و«المخلوق سميعٌ»، صار هذا تشبيها؛ وهذا ضلالٌ بيِّنٌ، والله ﷻ قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١].

والمعنى المشترك يكون قبل الإضافة والتخصيص، هذا هو الذي فُهِم به الخطاب، يعني: لو لم يكن عندنا شيء اسمه «سمعٌ»، أو «بصرٌ» ولا نعرفه، ما عرفنا ما وصف الله به ﷻ نفسه، ولكنه لما قال لنا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾، عرفنا أنه ﷻ لا يشاركه المخلوق في شيءٍ من أسمائه وصفاته، وهذا يجب أن يقال في جميع أسماء الله وصفاته.

الله ﷻ موجودٌ والمخلوق موجودٌ، ولكن وجود الله غير وجود المخلوق، فهذا يدلُّنا على أن الله ﷻ إذا سمَّى نفسه باسمٍ قد تسمَّى بشيءٍ منه الخلقُ، فإنَّه ما يخص الله ﷻ لا يكون للمخلوق، كما أن ما يكون للمخلوق لا يكون للخالق.

ولهذا مثَّل بالعرش والبعوض؛ فالعرش أكبرُ المخلوقات وهو موجودٌ، والبَعوضُ من أصغر المخلوقات وهو موجودٌ، فلا يكون هذا مشابهًا لهذا؛ فكذلك الخالق ﷻ لا يكون مشابهًا للمخلوق.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَلِهَذَا سَمَّى اللهُ نَفْسَهُ بِأَسْمَاءٍ وَسَمَّى صِفَاتِهِ بِأَسْمَاءٍ، فَكَانَتْ تِلْكَ الْأَسْمَاءُ مُخْتَصَّةً بِهِ إِذَا أُضِيفَتْ إِلَيْهِ لَا يَشْرَكُهُ فِيهَا غَيْرُهُ، وَسَمَّى بَعْضَ مَخْلُوقَاتِهِ بِأَسْمَاءٍ مُخْتَصَّةٍ بِهِمْ مُضَافَةٍ إِلَيْهِمْ تُوَافِقُ تِلْكَ الْأَسْمَاءَ إِذَا قُطِعَتْ عَنِ الْإِضَافَةِ وَالتَّخْصِيصِ؛ وَلَمْ يَلْزَمْ مِنَ اتِّفَاقِ الِاسْمَيْنِ؛ تَمَاثُلِ مُسَمَّاهُمَا وَاتِّحَادِهِ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ وَالتَّجْرِيدِ عَنِ الْإِضَافَةِ وَالتَّخْصِيصِ، لا اتِّفَاقُهُمَا، وَلَا تَمَاثُلَ الْمُسَمَّى عِنْدَ الْإِضَافَةِ وَالتَّخْصِيصِ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَتَّحِدَ مُسَمَّاهُمَا عِنْدَ الْإِضَافَةِ وَالتَّخْصِيصِ».

فَقَدْ سَمَّى اللهُ نَفْسَهُ حَيًّا فَقَالَ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وَسَمَّى بَعْضَ عِبَادِهِ حَيًّا؛ فَقَالَ: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [الروم: ١٩] وَلَيْسَ هَذَا الْحَيُّ مِثْلَ هَذَا الْحَيِّ، لِأَنَّ قَوْلَهُ ﴿ٱلْحَىُّ﴾ اسْمٌ لِلَّهِ مُخْتَصٌّ بِهِ، وَقَوْلَهُ: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ اسْمٌ لِلْحَيِّ الْمَخْلُوقِ مُخْتَصٌّ بِهِ، وَإِنَّمَا يَتَّفِقَانِ إِذَا أُطْلِقَا وَجُرِّدَا عَنِ التَّخْصِيصِ».

الشرح

قوله: «وَلِهَذَا سَمَّى اللهُ نَفْسَهُ بِأَسْمَاءٍ وَسَمَّى صِفَاتِهِ بِأَسْمَاءٍ...». هذا الكلام كما تقدم، وهو إيضاحٌ وبيانٌ للجملة السابقة، وستأتي الأمثلة على ذلك.

قوله: «فَكَانَتْ تِلْكَ الْأَسْمَاءُ مُخْتَصَّةً بِهِ إِذَا أُضِيفَتْ إِلَيْهِ لَا يَشْرَكُهُ فِيهَا غَيْرُهُ..»، يعني: أنَّ اسم الله ﷻ واسمَ المخلوق يشتركانِ في مجرَّد التسمية، ولكن عند التخصيص لا يشركه فيها غيره؛ وقصده بـ«التخصيص» أن يضاف إلى الله أو يضاف إلى المخلوق؛ فإذا أضفناه إلى المخلوق صار مختصًا به، وإذا أضفناه إلى الله ﷻ صار مختصًّا به.

قوله: «فَقَدْ سَمَّى اللهُ نَفْسَهُ حَيًّا...»، يعني: أن الله سمى نفسه بـ ﴿ٱلْحَىُّ﴾، وسمى المخلوق بذلك أيضًا، وليس في هذا اشتراكٌ؛ فحياةُ الله غير حياة المخلوق.

وهذه المسألة أشكلت على كثير من المتكلمين، فقالوا: إذا قلنا: «إن الله فوق» أو «إن الله استوى»؛ فقد شبهنا الله بخلقه؛ لأن هذه الصفات يُتَّصَفُ بها المخلوق أيضًا، وهذا الذي جعلهم يُؤَوِّلون الصفات أو يعطلونها.

قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ لا يساوي قوله: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾؛ لأنَّ المقصود بـ «الحيِّ الذي يُخرَجُ» هو المؤمن الذي له حياة، ويكون والدُه كافرًا، والكافر ميتٌ؛ أي: ميت القلب، وميِّتٌ عن الإيمان ومعرفة الله ﷻ.

وكذلك بالعكس: ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾، يعني: يخرج كافرًا من مؤمنٍ، فهذا يخصُّ المخلوق وهو ضعيفٌ محتاجٌ إلى من يخرجه ومن يحييه ومن يقيمه في حياته، بخلاف ربِّ العالمين ﷻ فله الكمال المطلق.

والمقصود: أن الاشتراك في مجرد الاسم لا يقتضي تشبيهًا؛ لأن الاشتراك يزول عندما يقال: «حياة الله» أو «علم الله»، أو «حياة المخلوق» و«علم المخلوق»، فالذي أضيف إلى الله يخصه والذي أضيف إلى المخلوق يخصه، لا يشاركه الله ﷻ فيه، كما أن المخلوق لا يشارك الله فيما أضيف إليه.

قوله: «**وَإِنَّمَا يَتَّفِقَانِ إِذَا أُطْلِقَا وَجُرِّدَا عَنْ التَّخْصِيصِ**»، يعني: أنه لا يوجد اسم مطلق عام في الخارج، وإنما هذا يكون في الذهن فقط، فمثلًا إذا قلت: «حياة» أو «علم» أو «قدرة»، فهذه الأوصاف لا وجود لها في الخارج، وليست هي قائمة بنفسها، بل لا بُدَّ أن تضافَ إلى من يقوم به، وهذا الذي يكون فيه الاشتراك.

الإطلاق والتجريد أن يقال: «حي، ميت، سمع، بصر»؛ فهذا مجردٌ مطلقٌ، وهذا لا وجود له في الخارج، أي: لا تجد شيئًا قائمًا يسمى سمعًا، لم يتصف به مخلوقٌ أو الخالق، فهذا الذي لا وجود له في الخارج.

و«الخارج» معناه: خارج الذهن، خارج الفكر؛ وإنما هذا شيءٌ يتخيله الإنسان في فكره فقط، أما أن يكون قائمًا بنفسه يُشاهَد أو يُرَى فهذا لا وجود له، وإنما يوجد إذا أضيف إلى من يقوم به؛ لأن السمع معنى لا بُدَّ أن يقوم بذاتٍ تتَّصِف بهذا، وكذلك البصر، وكذلك العلم والجهل والمرض واللون وغير ذلك، كلُّ المعاني إذا أطلقت بدون إضافة فمعناها أنها لا وجودَ له، وإنما هو شيءٌ يُفرَض - يفرضه الذهن -.

* * *

قال الله تعالى:

«وَلَكِنْ لَيْسَ لِلْمُطْلَقِ مُسَمًّى مَوْجُودٌ فِي الْخَارِجِ، وَلَكِنَّ الْعَقْلَ يَفْهَمُ مِنَ الْمُطْلَقِ قَدْرًا مُشْتَرَكًا بَيْنَ الْمُسَمَّيَيْنِ».

الشَّرْح

قوله: «فِي الْخَارِجِ»، يعني: خارج الذهن.

قوله: «وَلَكِنْ لَيْسَ لِلْمُطْلَقِ مُسَمًّى مَوْجُودٌ فِي الْخَارِجِ»؛ فإذا قلنا: «علم» أو «قدرة» أو «حياة» بدون إضافة أو تخصيص؛ فإن هذه الصفة مطلقةٌ ولا تقوم بنفسها، فهنا يكون فيه اشتراكٌ في الذِّهْن فقط، ولا بُدَّ من إضافتها إلى من تقوم به؛ لأن الصفة لا تقوم بنفسها - بل بغيرها -.

فمثلًا: نحن لا نجد لونًا من الألوان إلا ويقوم بشيء يُرى به؛ كالجسد أو الجدار أو ما أشبه ذلك، أما أن تجد لونًا قائمًا بنفسه فهذا لا وجود له؛ وكذلك المعاني - كالحياة والقدرة والعلم والمرض والصحة وغير ذلك -؛ فهذه أمورٌ لا تجدها قائمةً بنفسها وتشاهدها. فإذا ذكرت هذه الأشياء فإنها ستُتصوَّر في الذِّهن فقط، ولهذا قال: **«وَلَكِنَّ الْعَقْلَ يُفْهَمُ مِنْ الْمُطْلَقِ قَدْرًا مُشْتَرَكًا بَيْنَ الْمُسَمَّيَيْنِ»**، أما في الخارج فلا تجدها محسوسة، بل لا بُدَّ أن تقوم بغيرها.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَعِنْدَ الِاخْتِصَاصِ يُقَيِّدُ ذَلِكَ بِمَا يَتَمَيَّزُ بِهِ الْخَالِقُ عَنِ الْمَخْلُوقِ وَالْمَخْلُوقُ عَنِ الْخَالِقِ، وَلَا بُدَّ مِنْ هَذَا فِي جَمِيعِ أَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ، يُفْهَمُ مِنْهَا مَا دَلَّ عَلَيْهِ الِاسْمُ بِالْمُوَاطَأَةِ وَالِاتِّفَاقِ، وَمَا دَلَّ عَلَيْهِ بِالْإِضَافَةِ وَالِاخْتِصَاصِ، الْمَانِعَةُ مِنْ مُشَارَكَةِ الْمَخْلُوقِ لِلْخَالِقِ فِي شَيْءٍ مِنْ خَصَائِصِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَكَذَلِكَ سَمَّى اللهُ نَفْسَهُ عَلِيمًا حَلِيمًا، وَسَمَّى بَعْضَ عِبَادِهِ عَلِيمًا، فَقَالَ: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٢٨﴾ [الذاريات: ٢٨] يعني: إِسْحَاقَ، وَسَمَّى آخَرَ حَلِيمًا فَقَالَ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ۝١٠١﴾ [الصافات: ١٠١] يعني: إِسْمَاعِيلَ، وَلَيْسَ الْعَلِيمُ كَالْعَلِيمِ، وَلَا الْحَلِيمُ كَالْحَلِيمِ.

وَسَمَّى نَفْسَهُ سَمِيعًا بَصِيرًا، فَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٥٨﴾ [النساء: ٥٨] وَسَمَّى بَعْضَ خَلْقِهِ سَمِيعًا بَصِيرًا فَقَالَ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾ [الإنسان: ٢] وَلَيْسَ السَّمِيعُ كَالسَّمِيعِ، وَلَا الْبَصِيرُ كَالْبَصِيرِ.

وَسَمَّى نَفْسَهُ بِالرَّءُوفِ الرَّحِيمِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٦٥﴾ [البقرة: ١٤٣]، وَسَمَّى بَعْضَ عِبَادِهِ بِالرَّءُوفِ الرَّحِيمِ فَقَالَ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ [التوبة: ٢٨]، وَلَيْسَ الرَّءُوفُ كَالرَّءُوفِ، وَلَا الرَّحِيمُ كَالرَّحِيمِ».

الشَّرح

قوله: «وَعِنْدَ الِاخْتِصَاصِ يُقَيِّدُ ذَلِكَ بِمَا يَتَمَيَّزُ بِهِ الْخَالِقُ عَنِ الْمَخْلُوقِ وَالْمَخْلُوقُ عَنِ الْخَالِقِ»، يعني: إذا وجدت الإضافة أو التخصيص فإنه يزول الاشتراك فيها، والاشتراك المطلق لا بُدَّ منه؛ لأنه لو لم يكن عندنا شيء اسمه «يد»

ولا نعرف شيئًا اسمه «يد»، ثم يخاطبنا الله ﷻ فيقول: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، ويقول ﷻ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، فلا يمكن أن نعرف هذا الشيء.

وهذا كذلك يكون في المخلوق؛ فلو لم يكن عندنا في الدنيا شيء نعرفه من عنب أو نخل أو رمان أو ما أشبه ذلك؛ فإننا لا نعرف ما يخاطبنا به ربُّنا مما في الجنة؛ لأنه لا وجود له، ثم يخاطب به بأنَّ في الجنة كذا وكذا؛ فلا يمكن أن نعرفه. فإنَّ ما في الجنة يتميَّز عما في الأرض؛ يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «لَيْسَ فِي الدُّنْيَا شَيْءٌ مِمَّا فِي الْجَنَّةِ إِلَّا الْأَسْمَاءَ»(١). أما اللون والطعم والرائحة وغيرها؛ فهي مختلفة.

فإذا انتفى التماثل بين المخلوق والمخلوق كما مثَّل المؤلف رحمه الله بين العرش والبعوضة، فكيف بين الخالق والمخلوق وتقدَّس الله وعلا علوًّا كبيرًا؟!

قوله: «يُفْهَمُ مِنْهَا مَا دَلَّ عَلَيْهِ الِاسْمُ بِالْمُوَاطَأَةِ وَالِاتِّفَاقِ»؛ أي: الاتفاق في المعنى والاسم، والمؤاطاة بالألفاظ والمعنى العام.

قوله: «وَمَا دَلَّ عَلَيْهِ بِالْإِضَافَةِ وَالِاخْتِصَاصِ»، وهذا ظاهِرٌ وبيِّنٌ، فالله ﷻ لا يمكن أن تكون صفته كصفة المخلوق، كما أن ذاته باتفاق جميع الطوائف لا تشبه ذوات المخلوقين، والصفات تكون تبعًا للذات، فنسير على هذا النهج ونحتذي هذا الحذو.

فالمقصود من كلام المؤلف: أن الله ﷻ لا يشبهه أحد من خلقه في ذاته، فكذلك الحال في أسمائه وصفاته وأفعاله، فهي لا تشبه أسماء المخلوقين ولا صفاتهم ولا أفعالهم، ولو سلك الناس هذا الطريق لسلموا من المجادلات والخلافات والضلالات التي أضلت كثيرًا منهم.

وهذه الأمثلة التي ذكرها كلها متناظرة، ومقصودُه بذلك أن يبين أنَّ ما كان عليه المتكلمون هو ضلالٌ؛ حيث زعموا أن مجرد الاشتراك في الاسم أو المشابهة البعيدة أنها تدل على التشبيه، فضلوا في ربهم ﷻ، فنَفَوْا عنه الصفات التي وَصَف بها نفسه، وكذلك الأسماء التي لها المعاني، فجعلوا أسماءه لا معنى لها، فإذا أثبتوا الاسم قالوا ـ مثلًا ـ: «عليمٌ» يبادرون إلى نفي المعنى، يقولون: «بلا علم»، وهذا شيءٌ غير معقول، فهم لما تركوا الحق الذي جاء به الرسول ﷺ، وجعلوا عقولهم هي التي تستقلُّ بذلك مُعرِضِين عن كتاب الله ﷻ، عاقبهم الله ﷻ بالضَّلال البَيِّن الذي يعرفه الجاهل الأمِّيُّ أنه ضلالٌ وبُعدٌ عن مرادِ الله ﷻ.

---

(١) سيأتي تخريجه.

قال رحمه الله تعالى:

«وَسَمَّى نَفْسَهُ بِالْمَلِكِ، فَقَالَ: ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ [الحشر: ٢٣]، وَسَمَّى بَعْضَ عِبَادِهِ بِالْمَلِكِ، فَقَالَ ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف: ٧٩]، ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾ [يوسف: ٥٠]، وَلَيْسَ الْمَلِكُ كَالْمَلِكِ.

وَسَمَّى نَفْسَهُ بِالْمُؤْمِنِ الْمُهَيْمِنِ، فقال: ﴿ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر: ٢٣]، وَسَمَّى بَعْضَ عِبَادِهِ بِالْمُؤْمِنِ فَقَالَ: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾ [السجدة: ١٨]، وَلَيْسَ الْمُؤْمِنُ كَالْمُؤْمِنِ.

وَسَمَّى نَفْسَهُ بِالْعَزِيزِ، فَقَالَ: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣]، وَسَمَّى بَعْضَ عِبَادِهِ بِالْعَزِيزِ، فَقَالَ: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ [يوسف: ٥١]، وَلَيْسَ الْعَزِيزُ كَالْعَزِيزِ».

الشرح

قوله: «وَسَمَّى نَفْسَهُ بِالْمَلِكِ»، كما قال أيضًا ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، وقال: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾﴾ [الناس: ٢].

قوله: «وَسَمَّى بَعْضَ عِبَادِهِ بِالْمَلِكِ». وفرقٌ بين الملك والملك؛ فالله ملكُه تامٌّ وكامِلٌ، فهو يملك كلَّ شيء، ومُلْكُه لا يزول، وأما ملك المخلوق فهو قاصرٌ، ومآله إلى الزوال والفناء.

قوله: «وَسَمَّى نَفْسَهُ بِالْعَزِيزِ». وهذا لا اشتراك فيه؛ لأن الاسم إذا أضيف أو خُصَّ فإن الاشتراك يزول.

والمقصود بهذه الأمثلة التي ذكرها المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: أن يبين أن الاتفاق في مجرد الاسم أو الصفة أيضًا لا يعطي المشابهة والمماثلة، بل الاسم إذا أضيف إلى الله ﷻ فهو يخصه ولا يشاركه المخلوق فيه، وإذا أضيف إلى المخلوق، فهو يخص المخلوق ولا يشارك الله ﷻ المخلوقَ في أسمائه.

ولكن الضُّلَّال سلكوا مسلكًا غير مسلك القرآن الذي أنزله الله ﷻ، الذي يكون

فصلًا بين الحقِّ والباطل، فضلُّوا حيث جعلوا عقولهم هي التي تدلُّهم على معرفة الله، ومعلومٌ أن العقل قاصِرٌ، والله ﷻ لا يحاطُ به، وهو أعظم من كل شيء وأكبر من كلِّ شيء، وهو الذي خلق الإنسان وجعل فيه العقل وجعله مفكرًا، وأحاطه بالمخلوقات التي جعلها دليلًا له على وجوب عبادة الله ﷻ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَسَمَّى نَفْسَهُ الْجَبَّارَ الْمُتَكَبِّرَ، وَسَمَّى بَعْضَ خَلْقِهِ بِالْجَبَّارِ الْمُتَكَبِّرِ، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ۝٣٥﴾ [غافر: ٣٥]، وَلَيْسَ الْجَبَّارُ كَالْجَبَّارِ وَلَا الْمُتَكَبِّرُ كَالْمُتَكَبِّرِ، وَنَظَائِرُ هَذَا مُتَعَدِّدَةٌ».

الشرح

هو انتهى من أمثلة الأسماء وبدأ بالصفات.

قوله: «وَنَظَائِرُ هَذَا مُتَعَدِّدَةٌ»؛ أي: في أسماء الله تعالى، فنسلك فيها منهجًا واحدًا، وكذلك تأتي الأمثلة في صفات الله تعالى، والطريقة واحدة.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَكَذَلِكَ سَمَّى صِفَاتِهِ بِأَسْمَاءٍ، وَسَمَّى صِفَات عِبَادِهِ بِنَظِيرِ ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦]، وَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥٨]، وَقَالَ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

وَسَمَّى صِفَةَ الْمَخْلُوقِ عِلْمًا وَقُوَّةً، فَقَالَ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾ [الإسراء: ٨٥]، وَقَالَ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ۝٧٦﴾ [يوسف: ٧٦]، وَقَالَ: ﴿فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣]».

الشرح

قوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ العلم صفةٌ تقوم بالموصوف، فجعل الله العلم خاصًّا به، ومعلومٌ أن الإنسان له علمٌ وله معلوماتٌ، ولكن علم الإنسان قاصرٌ، ولا يشارك الله ﷻ في علمه، والمخلوق يخصه ما يليق بنقصه.

قوله: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ من المفسرين من يقول: «أنزل علمه فيه»، يعني: أن القرآن هو من علمه؛ ومنهم من يقول: «أنزله عالمًا به وبما يكون ممن يقبله ممن يرده»، وكله حقٌّ.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ فـ ﴿ٱلرَّزَّاقُ﴾ اسمه ﷻ، و﴿ٱلْقُوَّةِ﴾ صفة الله، و﴿ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ صفة للقوة، فهو في قوته متينٌ ﷻ.

قوله: «وَسَمَّى صِفَةَ الْمَخْلُوقِ عِلْمًا وَقُوَّةً، فَقَالَ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾»، يعني: أن المخلوق يوصف بأن عنده «علمًا»، وقد يقال إنه: «عالمٌ»، وعلمه يتفاوت وكله يليق بضعفه، فلا بُدَّ أن يكون عنده قصورٌ في ذلك.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَقَالَ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم: ٥٤]، وَقَالَ: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢]».

الشرح

يعني: جعل من بعد ضَعفٍ قُوَّةً، وهذه صفة المخلوق؛ ولكن هذه القوة مؤقتة، وهي أيضًا محدودة قليلة، لا يجوز أن تكون كقوة الجبار المتكبر ﷻ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَقَالَ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧]، أَيْ: بِقُوَّةٍ، وَقَالَ: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ [ص: ١٧]، أَيْ: ذَا الْقُوَّةِ وَلَيْسَ الْعِلْمُ كَالْعِلْمِ وَلَا الْقُوَّةُ كَالْقُوَّةِ».

الشرح

قوله: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾، يعني: ذا القوة في طاعة الله، وفي أمر الله ﷻ، وليس المقصود بالقوة قوة البدن.

والمقصود الفرق بين صفة الخالق وصفة المخلوق.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿﴾ «وكذلك وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْمَشِيئَةِ، وَوَصَفَ عَبْدَهُ بِالْمَشِيئَةِ، فَقَالَ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير: ٢٨ ـ ٢٩]، وَقَالَ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝٢٩ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠﴾ [الإنسان: ٢٩ ـ ٣٠]».

الشرح

يعني: جعل للإنسان مشيئةً، ولكنها مشيئة محدودة، وتابعة لمشيئة الله ﷻ، فمشيئة الله محيطةٌ بها، فلا يقع شيءٌ إلا بمشيئة الله، فهو الذي خلق الأشياء كلها وأحاط بها، ولا يقع شيءٌ في الكون كله من حركة، أو سكون، أو حياة، أو موت، أو عز، أو ذل إلا بمشيئته ـ تعالى وتقدس ـ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَكَذَلِكَ وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْإِرَادَةِ، وَوصف عَبْدَهُ بِالْإِرَادَةِ فَقَالَ: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنفال: ٦٧]، وَوَصَفَ نَفْسَهُ بِالْمَحَبَّةِ وَوَصَفَ عَبْدَهُ بِالْمَحَبَّةِ فَقَالَ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، وَقَالَ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]».

الشرح

محبة الله ﷻ تليق بعظمته وجلاله، فهي محبةٌ تقوم بالمحبوب، بالله ﷻ الذي يُحَبُّ، أمَّا محبة المخلوق فهي تدلُّ على ضعفه وعلى أنه عبدٌ يجب أن يعبد من خلقه ومن أوجده من العدم، وإذا لم يفعل ذلك فإنه ناقصٌ، وسوف يُعذِّبه الله ﷻ.

ولكن المقصود: الفرق بين محبة الله ومحبة عبده المؤمن.

والذين غلطوا في هذا، تصوَّروا أنَّ المحبة التي هي صفة الله كمحبتهم فنفوها أو أوَّلوها؛ قالوا: «المحبة يعني: محبة الطاعة أو الإثابة»، فإما أن يجعلوها مخلوقةً أو يؤولوها بشيء غيرِ ما يتعلق بالله ﷻ، يؤولوها بصفةٍ أخرى.

ومثل ذلك «الإرادة»؛ فإنهم يقولون: «الإرادة التي يعرفونها هي الميل إلى المراد، والميل فيه شيءٌ من النقص»، فيقولون: «إرادة الله ﷻ أيضًا لا بُدَّ من تأويلها لئلا يقع التشبيه».

فالمقصود: أنهم تصوَّروا أنَّ بين ما يتعلَّق بالله ﷻ وما يقوم بالخلق أنه مثله، ففرُّوا من التشبيه ووقعوا في التعطيل، ولم يتخلَّصوا من التَّشبيه؛ لأن الذي وقعوا فيه نظيرَ الذي فرُّوا منه.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَوَصَفَ نَفْسَهُ بِالرِّضَا وَوَصَفَ عَبْدَهُ بِالرِّضَا فَقَالَ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَشِيئَةَ اللهِ لَيْسَتْ مِثْلَ مَشِيئَةِ الْعَبْدِ، وَلَا إِرَادَتَهُ مِثْلَ إِرَادَتِهِ، وَلَا مَحَبَّتَهُ مِثْلَ مَحَبَّتِهِ، وَلَا رِضَاهُ مِثْلَ رِضَاهُ».

الشَّرح

الله ﷻ ليس كعباده، والصفة تتبع الموصوف، فما دام هو ﷻ لا مثيل له ولا شبيه له ولا كفؤ له، فكذلك صفاته لا مثيل لها ولا شبيه لها. فهذا الواجب الذي يجب على العبد أنه يفعله ويقوله ويعتقده؛ وإلا وقع في الضلال ولا بُدَّ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَكَذَٰلِكَ وَصَفَ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ يَمْقُتُ الْكُفَّارَ، وَوَصَفَهُمْ بِالْمَقْتِ فَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ۝١٠﴾ [غافر: ١٠]، وَلَيْسَ الْمَقْتُ مِثْلَ الْمَقْتِ».

الشرح

هذا إذا استقرُّوا في عذاب الله، وأقرُّوا على أنفسهم بأنَّهم يستحقُّون هذا المكان، ولا يليق بهم إلا ذلك، فيقولون: «جاءتنا رسل الله فلم نستجب لهم، فهلمَّ نمْقُت أنفسنا» وهم في النار، فيُنادَون؛ والمنادي هنا إمَّا بأمر الله أو هو الله ﷻ، ولكن الظاهر أنَّ الملائكة تنادي الذين هم في النَّار؛ يقولون لهم: «مقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم»، والمقت هو أشدُّ الكراهية والبُغض؛ يقول ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٢ ـ ٣]، فالله يمقت على الكذب، وعلى الضلال الذي يضلُّ بعد ما تبيَّن له الهدى وجاءته الرسل.

والمقصود: أنه ﷻ يقوم بهذا الفعل الذي يقابل به مقت الكافرين. وكذلك الذين يقولون ما لا يفعلون فإن الله يمقتهم، وهو شيءٌ يقوم بالله ﷻ، والمخلوق كذلك يكون عنده مقتٌ، فالكراهية التي تقوم بنفسه، فهذه الكراهية تتفاوت، وأشدُّها هو المقت.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿«وَهَكَذَا وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْمَكْرِ وَالْكَيْدِ، كَمَا وَصَفَ عَبْدَهُ بِذَلِكَ فَقَالَ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وَقَالَ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥ ـ ١٦]، وَلَيْسَ الْمَكْرُ كَالْمَكْرِ، وَلَا الْكَيْدُ كَالْكَيْدِ».

الشرح

المقتُ والكيد والمكر والاستهزاء هذه أفعالٌ يفعلها الله ﷻ بمن يستحقُّ ذلك، وليست صفاتٍ، ولكن قول المؤلف: «وصفَ نفسَه» يقصد أن هذا يكون من الله ﷻ؛ هذا الفعل، ولا يقال: أن هذه صفة كصفة المحبة، وصفة الرضا، وصفة الرحمة وما أشبه ذلك؛ لأنَّ هذه لا تكون إلا مقابلَ فعلٍ قبيحٍ من العباد.

المقصود: أنَّ هذه ليست أوصافًا مطلقةً لله، وإنَّما هذا فعلٌ يضاف إلى الله على ما جاء في الكتاب والسنة فقط؛ وليست من الأسماء الحسنى أو الصفات العليا، والوصف أو الاسم الذي يدخل فيه احتمالُ المدح أو احتمالُ الذَّمِّ لا يدخل في أسمائه ولا صفاته.

ولهذا فإن العلماء لا يطلقونه على الله إلا كما جاء في كتاب الله مقيدًا؛ لأنه يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف: ٢ ـ ٣]، ويقول ﷻ في الكفار: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ [غافر: ١٠].

فالمقصود: أنَّ هذه الصفات لا يوصف الله بها على الإطلاق، بل هي مقيَّدةٌ على ما جاء في كتاب الله على سبيل الإخبار؛ لأنها تحتمل المدح والذم، والحق والباطل.

أما تعبير المؤلف في هذا؛ فهو لا يقصد أنها وصفٌ، ولكن يقصد أن هذا ذُكِرَ لله وأُضيف إليه، كما ذكر للمخلوق وأضيف إليه، وليس هذا كهذا.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«ووَصَفَ نَفْسَهُ بِالْعَمَلِ، فَقَالَ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ۝٧١﴾ [يس: ٧١]، وَوَصَفَ عَبْدَهُ بِالْعَمَلِ، فَقَالَ: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٤﴾ [السجدة: ١٧]، وَلَيْسَ الْعَمَلُ كَالْعَمَلِ».

الشرح

المقصود بـ«العمل»: الفعلُ؛ فعل الله ﷻ؛ فالله ﷻ يخلق، ويرزق ويحيي ويميت ويُدَبِّر ملكه كيف يشاء، لكن الأول فعلٌ يقوم بذاته، وهذا يتعدَّى إلى المفعولات. فمعنى هذا: أن الأفعال التي تسمى صفات مثل: المجيء، والنزول، والاستواء، والخلق، والإحياء، والإماتة، والرزق وغيرها: أنها **تنقسم إلى متعدٍّ ولازم**:

* **فاللازم**: الذي ليس له مفعولٌ مثل: النزول، والاستواء، والمجيء.

* **والمتعدي**: مثل: الخلق، والرزق، والإحياء والإماتة، وما أشبه ذلك، وهذا أيضًا يوصف به العبد؛ فإنَّ العبد أفعالُه تكون متعدِّية وتكون لازمةً، وكلٌّ يليق به ما يقوم به، فالعبدُ ضعيفٌ يليق به فعلُه وعمله، والله ﷻ لا يشبهه شيءٌ، أفعاله لا تشبه أفعالَ المخلوقين، كما أن صفاتِه وأسماءَه لا تُشبِه صفاتِ المخلوقين.

ولكن القاعدة التي يجب أن نترسَّمها: أن الصفة أو الاسم إذا كان يحتمل معنًى حقًّا ومعنًى باطلًا، فهذا لا يدخل في صفات الله ﷻ ولا في أسمائه؛ مثل: «المكر» و«الكيد»، وكذلك «المقت» وما أشبه ذلك؛ فإن هذا قد يكون فيه حقٌّ، وقد يكون فيه باطلٌ؛ وإذا أضيف إلى الله فبحقٍّ، ولكن لا يوصف به على الإطلاق، بل لا بُدَّ أن يكون في المورد الذي جاء به.

ففي قوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ نقول: إن الله يمقت الذين كفروا أشد المقت، ونقول: إن الله يمكر بالكافرين، ويستهزئ بالمستهزئ به أو بدينه أو برسوله، ونقف عند هذا فقط، ولا يجوز أن نُعَدِّيه ونجعله مطلقًا.

قال رحمه الله تعالى:

«وَوَصَفَ نَفْسَهُ بِالْمُنَادَاةِ وَالْمُنَاجَاةِ فَقَالَ: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ۝٥٢﴾ [مريم: ٥٢]، وَقَالَ: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ﴾ [القصص: ٦٢]، وَقَالَ: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ [الأعراف: ٢٢] وَوَصَفَ عِبَادَهُ بِالْمُنَادَاةِ وَالْمُنَاجَاةِ فَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ۝٤﴾ [الحجرات: ٤]، وَقَالَ: ﴿إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المجادلة: ١٢]، وَقَالَ: ﴿إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ [المجادلة: ٩]، وَلَيْسَ الْمُنَادَاةُ كالمُنَاداة، وَلَا الْمُنَاجَاةُ كَالْمُنَاجَاةِ».

الشرح

«النداء»: هو رفعُ الصوت بالكلام ويكون لمن كان بعيدًا، وأما «المناجاة» فهو الكلام بخفية يكون بين اثنين.

والله ﷻ ينادي من يشاء، وقد نادى آدم وزوجه لمَّا أكلا من الشجرة التي نهاهم الله عنها، وكذلك نادى موسى ﵇ وهو فوق عرشه وموسى في الأرض، وكلَّمه بلا واسطة كما أنه كلَّم آدم بلا واسطة. فـ «النداء» يدلُّ على الكلام، وأنه يكون بحَرفٍ وصَوتٍ، وقد جاء التَّصريحُ بهذا في أحاديثِ عن رسول الله ﷺ:

* كما قال ﷺ؛ لمَّا تلا قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢﴾ [الحج: ١ ـ ٢]؛ قال لأصحابه: **«أتدرون متى هذا؟»** قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **«هذا إذا نادى الله** ﷻ **آدم»**؛ إذا نادى الله آدم بصوتٍ: **«يا آدم! أخرج بعث النار من ذريتك»** ـ فأثبته وقال: ناداه بصوت ـ: **«فيقول: يا رب وما بعث النار؟ فيقول: من كلِّ ألفٍ تسعُمائة وتسعٌ وتسعون»**(١).

* وكذلك قوله ﷺ: **«يَحْشُرُ اللهُ العِبادَ، فيُنادِيهِم بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كَما**

---

(١) تقدم تخريجه.

يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ: أَنَا المَلِكُ، أَنَا الدَّيَّانُ»(١).

فالمقصود: أنَّ النداء يدلُّ على ثبوت الكلام، وأنَّه يكون مسموعًا، والمسموع يكون بصوتٍ، وهذا هو المعقول في النداء أو في الكلام؛ أما الذين نفوه فليس لهم أي دليلٍ، إلا أنهم يقولون: «المناداة تحتاج إلى أدوات... إلى آخره»، كضلالهم الذي يكون في الكلام كما سيأتي.

* * *

(١) أخرجه البخاري معلقًا في صحيحه، في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾... (٩/ ١٤١)، وأحمد موصولًا في مسنده (٢٥/ ٤٣١) برقم (١٦٠٤٢)، من حديث عبد الله بن أنيس ﷺ.

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «وَوَصَفَ نَفْسَهُ بِالتَّكْلِيمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [النساء: ١٦٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وَقَوْلِهِ: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وَوَصَفَ عَبْدَهُ بِالتَّكْلِيمِ فِي مثل قَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ٥٤﴾ [يوسف: ٥٤]، وَلَيْسَ التَّكْلِيمُ كَالتَّكْلِيمِ».

الشرح

هذا من أظهر الأشياء وأبْيَنِها كالذي سبق، فكلها أمورٌ ظاهرة وبَيِّنة. وذكر المؤلف لهذه الأمور ليبطل قول القائلين: «إن اجتماع الصفة أو الاسم واشتراكها بين الخالق والمخلوق لا يجوز؛ لأن هذا يقتضي المشابهة»، فبيَّن أن الذي يكون لله ﷻ يخصُّه، والذي يكون للمخلوق يخصُّه، فليس بينهما اشتراكٌ إلا بمجرَّد التسمية قبل الإضافة.

فربُّ العالمين ﷻ ليس بينه وبين خلقه مقاربة ولا مماثلة ولا مشابهة، فالذي يعتقد أن في ذلك تشبيهًا هو ضالٌّ؛ لأننا لا نفهم الكلام إلا بهذا الاشتراك البعيد قبل الإضافة، فكلمة «اسم» أو كلمة «صفة»، لا يفهم منها شيءٌ أصلًا، ولكن هذا وُضِع لشيء يكون قائمًا بمن يضافُ إليه؛ سواءٌ كان اسمًا أو كان صفةً، فإذا أضيف إلى من قام به صار خاصًّا به ولا يشاركه فيها غيرُه، وإن كان للمخلوق فالمخلوق أفعالُه تتماثل وتتشابه، ولا يجوز أن يكون فعل المخلوق أو اسم المخلوق أو صفة المخلوق أنها تشبه صفة الرب ﷻ أو فعلَه أو اسمَه.

وهذا الفرق؛ هو الذي قال الله ﷻ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى: ١١]؛ لأن الناس يوصفون بالسمع والبصر، فبيَّن أوَّلًا ﷻ أنَّه لا مثيل له، ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾؛ ولهذا قال: ﴿شَيۡءٞ﴾ حتَّى يدخل فيه «الاسم» ويدخل فيه «الذات»، ويدخل فيه «الفعل»، ويدخل فيه كل ما أضيف إلى الله: أنه لا يشبه ما يقوم بالمخلوق. فالمخلوق ضعيف يليق بضعفه تسميتُه

ووصفُه وفعلُه، والله ﷻ قويٌّ حميدٌ، وهو كبيرٌ متعال، تعالى وتقدَّس أن يكون شيء مما يقوم به مماثلًا للمخلوقات.

وهذا الذي في المماثلة بين «الاسم» و«الصفة» وكذلك «الفعل» علق في أذهان الذين لا يعرفون من هذه الأمور إلا ما يقوم بأنفسهم، فنفوا عن الله ﷻ ما سمَّى به نفسه أو وصف به نفسه؛ خوفًا بزعمهم من أن يقَعُوا في التشبيه.

وذلك أنهم ما عرفوا الله أوَّلًا، إلا ما عرفوا من أنفسهم، فتصوروا أن ما يقوم بالله كالذي يقوم بهم، فأولًا وقع في نفوسهم التشبيه الذي هو معلوم أنه من أنفسهم، ثم نفوا عن الله ﷻ ما وَصَف به نفسه أو سمى به نفسه، تعالى الله وتقدَّس عن قولهم وعن ظنونهم الكاذبة؛ فهذه كلُّها ظنونٌ كاذِبَةٌ ضالَّةٌ بعيدةٌ عن الهدى.

والله ﷻ فرَّق بين ما يكون له وبين ما يكون لعباده؛ فقال ﷻ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤]، ففرَّق بين الخلق وبين التعليم وبين ما هو صفتُه ـ تعالى وتقدس ـ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَوَصَفَ نَفْسَهُ بِالتَّنْبِئَةِ، وَوَصَفَ بَعْضَ الْخَلْقِ بِالتَّنْبِئَةِ، فَقَالَ: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾ [التحريم: ٣] وَلَيْسَ الإِنْبَاءُ كَالإِنْبَاءِ».

الشرح

«الإنباء»: هو الإخبار، و«النبأ»: هو الخبر بالشيء الذي يريد منه أن يعلمه أو أنه يعمل به، ومعلومٌ أن الإنسان إذا أراد أن يكلِّم غيرَه ينبئه، والله ﷻ أنبأ رسله وأخبرهم وقد كلَّمهم، فهو يعود إلى الكلام ـ كما سبق ـ والكلام يكون قائمًا بالمتكلِّم، ولا يجوز أن ينفكَّ عنه.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَوَصَفَ نَفْسَهُ بِالتَّعْلِيمِ، وَوَصَفَ عَبْدَهُ بِالتَّعْلِيمِ، فَقَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: ١ ـ ٤]، وَقَالَ: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤]، وَقَالَ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وَلَيْسَ التَّعْلِيمُ كَالتَّعْلِيمِ».

الشرح

قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١﴾: الرحمن اسمه ﷻ.

قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾: دلَّ على أن القرآن أيضًا عِلْمه أو فيه علمه.

قوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣﴾: دلَّ على أن الخلق أيضًا غير العلم، فالخلق فعلٌ يفعله الله ﷻ ويكون له أثرٌ ظاهِرٌ، فالأثر لا يتعلق بالله ﷻ إنما يتعلق به لأنه مفعوله.

قوله: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾، يعني: علَّم الإنسان النطق والكلام وكذلك الإفصاح عما في ضميره.

﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ هذا لا يكون ملازمًا للشيء دائمًا، وإنما يتعلق بمشيئته؛ إذا شاء أن يكلِّم كَلَّم، وإذا شاء ألا يكلِّم لا يُكلِّم. وهذا هو الكمال، بخلاف ظنون الكاذبين الذين يصفون الله ﷻ بما يتعالى عنه ويتقدَّس؛ لأنهم جعلوا نفوسَهم الأصل فقاسوا رَبَّ العالمين عليها، فهذا ضلالٌ وكُفرٌ بالله ﷻ وردٌّ لما أعلم خلقه به، وتعرَّف إليهم به، من صفاته وأسمائه وأفعاله التي ليس هناك طريق إلى معرفتها على وجه التفصيل إلا كتابه الذي أنزله على رسوله ﷺ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَهَكَذَا وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْغَضَبِ، فَقَالَ: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ [الفتح: ٦]، وَوَصَفَ عَبْدَهُ بِالْغَضَبِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ [الأعراف: ١٥٠] وَلَيْسَ الْغَضَبُ كَالْغَضَبِ».

الشَّرح

الغضب أيضًا مما يجب أن يوصف به الله ﷻ على ما وصف به نفسه بدون أن نُعدِّيه إلى أمور مطَّردة في هذا؛ فنقول: الله يغضب على من يشاء، كما أنه يلعن من يشاء؛ فهو يغضب على من عصاه، ومن أبى قبول ما جاءت به الرسل، ولم يمتثل أمره ويقوم بعبادته. وإذا غضب فإنه يعذِّب.

وليس غضبه عذابه كما تقوله الأشعرية وغيرُها من أهل الضلال، بل عذابه منفصلٌ عنه، وليس هو قائما به، بخلاف الغضب، فإنَّه يقوم به ﷻ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَوَصَفَ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ اسْتَوَى عَلَى عَرْشِهِ، فَذَكَرَ ذَلِكَ فِي سَبْعِ مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ أَنَّهُ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، وَوَصَفَ بَعْضَ خَلْقِهِ بِالِاسْتِوَاءِ عَلَى غَيْرِهِ، فِي مِثْلِ قَوْلِهِ: ﴿لِتَسْتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف: ١٣]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [المؤمنون: ٢٨]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤]، وَلَيْسَ الِاسْتِوَاءُ كَالِاسْتِوَاءِ».

الشَّرح

قوله: «فَذَكَرَ ذَلِكَ فِي سَبْعِ مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ...»، ستةٌ مطّردة في إتيانه بـ ﴿ثُمَّ﴾ بعد خلق السماوات والأرض، والسَّابع في سورة طه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]. أما الباقي فكلها ذكر الاستواء بعد خلق السماوات والأرض مرتّبًا له بـ ﴿ثُمَّ﴾ التي تدل على الترتيب والتعقيب: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وهكذا البقية.

والمقصود: أن الاستواء فعلٌ يتعلق بمشيئته، يفعله إذا شاء وهو من الأفعال اللازمة مثل النزول.

والعرش مخلوقٌ خلقه الله ﷻ، بل هو أكبر المخلوقات وأعظمها، وهو في اللغة: «السرير الذي يجلس عليه الملِك»، كما قال الله ﷻ في قصة بلقيس مع الهدهد قال: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۝٢٣﴾ [النمل: ٢٣]، يعني: الكرسي الذي تجلس عليه.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«ووصف نفسه ببسط اليدين فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [٦٤]، ووصف بعض خلقه ببسط اليد في قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وَلَيْسَ الْيَدُ كَالْيَدِ، وَلَا الْبَسْطُ كَالْبَسْطِ؛ وَإِذَا كَانَ الْمُرَادُ بِالْبَسْطِ الْإِعْطَاءَ وَالْجُودَ فَلَيْسَ إِعْطَاءُ اللهِ كَإِعْطَاءِ خَلْقِهِ، وَلَا جُودُهُ كَجُودِهِمْ، وَنَظَائِرُ هَذَا كَثِيرَةٌ».

الشرح

قوله: «**وَنَظَائِرُ هَذَا كَثِيرَةٌ**»، يعني: في سائر صفات الله ﷻ. فما أورده المؤلف هي أمثلة ليبين الفرق بين ما يقوم بالله ﷻ اسمًا أو صفةً أو فعلًا، وبين ما يقوم بالإنسان المخلوق الضعيف؛ فإن المعنى غير المعنى الذي يقوم بالله، فالمعنى الذي يقوم بالمخلوق يخصه ويليق به، والمعنى الذي يقوم برب العالمين يخصه ويليق بعظمته وجلاله، فيجب الفرق بين هذا. وهذا كالفرق بين الخالق والمخلوق، وهذا لا يغلط فيه أحد، أن الخالق ليس كالمخلوق ـ تعالى وتقدس ـ، فيجب أن تكون الأفعال والصفات على هذا المنوال.

والقدر المشترك بين الخالق والمخلوق لا يلزم منه التشبيه؛ لأن هذا القدر المشترك يكون في الذهن، ولا يكون في الخارج، فليس فيه اشتراك، فإذا أضيفت الصفة أو الاسم لله ﷻ أصبح مختصًا، وكذا الأفعال والأسماء. وأما إذا أضيفت إلى المخلوق؛ فإنها تخصه ولا يشركه فيها أحدٌ، فعند التخصيص والإضافة يزول الاشتراك الذي يقوم في الذهن.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَلَا بُدَّ مِنْ إِثْبَاتِ مَا أَثْبَتَهُ اللهُ لِنَفْسِهِ، وَنَفْيِ مُمَاثَلَتِهِ لِخَلْقِهِ، فَمَنْ قَالَ: لَيْسَ لِلَّهِ عِلْمٌ وَلَا قُوَّةٌ وَلَا رَحْمَةٌ وَلَا كَلَامٌ، وَلَا يُحِبُّ وَلَا يَرْضَى، وَلَا نَادَى وَلَا نَاجَى وَلَا اسْتَوَى، كَانَ مُعَطِّلًا، جَاحِدًا مُمَثِّلًا لِلَّهِ بِالْمَعْدُومَاتِ وَالْجَمَادَاتِ».

الشَّرح

قوله: «فَلَا بُدَّ مِنْ إِثْبَاتِ مَا أَثْبَتَهُ اللهُ لِنَفْسِهِ»، يعني: أن هذا أمر ملزم، ولا يكون الإنسان مسلمًا إلا بهذا؛ لأن هذا هو التوحيد، ولا يمكن أن يكون الإنسان عابدًا إلا إذا أثبت الله ﷻ ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات على ما يليق بعظمة الله تعالى بلا تشبيه.

قوله: «وَنَفْيِ مُمَاثَلَتِهِ لِخَلْقِهِ». وكذلك يجب أن يُنفى عنه مماثلتُه لخلقه؛ فالله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، فلا يُشَبَّه الله بأحدٍ من خلقه. والتشبيه قد يكون في شيء معيَّنٍ، وقد يكون بمعدومٍ، وهذه كلُّها واقعة من كثيرٍ من الناس، كمن يقول: «يَدُ الله كَيَدِ فلان»، أو «علمه كَعلم فلان». وكذلك يجب إثبات أفعال الله تعالى التي تليق به؛ كالاستواء والنزول والمجيء وغيرها.

قوله: «فَمَنْ قَالَ: لَيْسَ لِله عِلْمٌ وَلَا قُوَّةٌ...»، يعني: من نفى عن الله ﷻ صفاتِه فقد وقع في التعطيل، وعلى هذا يكون شبَّهه بالمعدومات كما تقدم.

فالذي ينفي صفات الله أو أسماءه يزعم أنه يفرُّ من التشبيه، فإنه يقع في التشبيه ويقع في التعطيل، **والتعطيل ينقسم إلى قسمين** ـ كما هو معلوم ـ:

القسم الأول: تعطيل للمخلوق عن خالقه وموجده.

القسم الثاني: تعطيل الخالق عن صفاته وأسمائه؛ كما وقع لكثير من المتكلمين، بل أكثرهم على هذا، فهم معطلة جعلوا الله مجردًا عن صفاته وعن أسمائه. وبعضهم ـ كالمعتزلة ـ أثبت اسمًا لا معنى له فقال: «عالمٌ بلا علم»، «بصيرٌ بلا بصر»، «مريدٌ بلا إرادة» وهكذا، فينفون الشيء المفهوم من الاسم.

وبعضهم نفى هذا وهذا ـ كالجهمية ـ، وبعضهم أثبت الأسماء وبعض الصفات كالأشاعرة أثبتوا سبع صفاتٍ فقط؛ والحقيقة أنهم لا يثبتون شيئًا؛ لأنهم يعودون عليها بالتأويل، أما ما عدا الصفات السبع فهم يقولون: «يجب أن تؤول أو تفوض»، فكيف التفرقة بين صفةٍ وصفة؟!

وكثير منهم إذا جاءت صفات الله ﷻ قال: إن هذا من المتشابه الذي يجب أن نقف عنده ونَكِل علمه إلى الله.

إن الله يعرف بفعله وباسمه وبصفته؛ لأنه ﷻ غيبٌ لا أحد يشاهده ولا له مثيلٌ فيقاس عليه ﷻ، فالطريق في ذلك أن نعرفه بأسمائه وصفاته، وكذلك بمخلوقاته وبأفعاله ـ تعالى وتقدس ـ، فهذا صار في كتاب الله أكثر من ذكر الصلاة والزكاة والصوم لضرورة الناس إليه؛ ولأنَّ الله عَلِم أنهم يختلفون فيه فأكثر منه حتى لا يكون لأحدٍ حُجَّةٌ أو متعلَّقٌ أو يقول: «أنا ما علمت»، فسوف يحاسبهم الله ويلقون جزاءهم يوم يَلْقَوْنَه، فلا بُدَّ من الرُّجوع إلى الله.

والذي لا يعرف الله ﷻ بأسمائه وصفاته وأفعاله ومخلوقاته، فمعناه أنه ما عرفه ولا عبد الله كما أمره الله ﷻ بذلك.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَمَنْ قَالَ: لَهُ عِلْمٌ كَعِلْمِي، أَوْ قُوَّةٌ كَقُوَّتِي، أَوْ حُبٌّ كَحُبِّي، أَوْ رِضَاءٌ كَرِضَايَ، أَوْ يَدَانِ كيداي، أَوْ اسْتِوَاءٌ كَاسْتِوَائِي، كَانَ مُشَبِّهًا مُمَثِّلًا لِلَّهِ بِالْحَيَوَانَاتِ؛ بَلْ لَا بُدَّ مِنْ إِثْبَاتٍ بِلَا تَمْثِيلٍ وَتَنْزِيهٍ بِلَا تَعْطِيلٍ».

الشَّرح

قوله: «وَمَنْ قَالَ: لَهُ عِلْمٌ كَعِلْمِي، أَوْ قُوَّةٌ كَقُوَّتِي...»، يعني: يُشبِّه الله بالمخلوقين ويُمثِّله بهم. هذا لا يقوله عاقلٌ فضلًا عن أن يكون مؤمنًا، وإن كان وُجد من الشُّذَّاذ قِلَّةٌ قليلة جدًّا قالوا بهذا القول، فأهلكهم الله ﷻ وهم قد عُرفوا بعدم الاستقامة، بل بعدم الدِّين وبالخروج عن الطاعة، وعُرِفُوا بشُرب الخمور وترك الصلاة وغير ذلك.

أما بعض من رُمي بهذا مثل: مقاتل بن سليمان وابن كرام، فهذا لم يثبت عنهم. وقد طُبع كتابٌ في التفسير لمقاتل بن سليمان، وليس فيه أي شيء يدلُّ على هذا، بل هو على منهج السلف في صفات الله ﷻ، والتفسير هو محلُّ معرفة أنه كان مشبهًا أو غير ذلك. فالذي يُرْوَى عن بعض العلماء؛ مثل الإمام أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: «جاءنا مذهبانِ من الشرق كلاهما باطل؛ مذهب جهم ومذهب مقاتل بن سليمان»، إمَّا أنه لا يثبت عن الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ، أو أن فيه تبديلًا وتحريفًا، أو أنه بلغه شيء لم يصحَّ عن مقاتل. أما جهمٌ فالذي قاله الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ عنه فهذا صحيح.

فالمقصود: أن تمثيل الله ﷻ بهذه الأشياء لا يوجد عند عاقل، فضلًا عن أن يكون مؤمنًا بالله ﷻ، وإنما الذي كثر في الناس وانتشر هو التعطيل بنفي الصفات.

وسبق أنَّ التعطيل يلزم منه التشبيه، ولكن لازم المذهب لا يكون مذهبًا، ولا يكون الذي مثلًا لزم من قوله كذا يكون ملتزمًا لذلك؛ لأنه قد لا يعلم ذلك ولا يتصوره، فإذا تصوَّره وعرفه تبرَّأ منه، ولكن هذا يدُلُّ على بطلان القول، وبطلان المذهب.

قوله: «بَلْ لَا بُدَّ مِنْ إِثْبَاتٍ بِلَا تَمْثِيلٍ وَتَنْزِيهٍ بِلَا تَعْطِيلٍ»، يعني: أن الطريقة السليمة هي أن نثبت لله ما أثبته لنفسه ورسوله على ما يليق به ولا نشبهه بخلقه، وأن ننفي عنه مماثلته لخلقه من غير أن نعطِّل صفاته الثابتة له.

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «وَيَتَبَيَّنُ هَذَا بِأَصْلَيْنِ شَرِيفَيْنِ، وَبِمَثَلَيْنِ مَضْرُوبَيْنِ - وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى - وَبِخَاتِمَةٍ جَامِعَةٍ».

الشرح

يعني: هذا سيأتي - إن شاء الله - زيادة في البيان والتفصيل في المثلين المضروبين وفي الخاتمة.

أما الخاتمة فهي اشتملت على قواعد، هذه القواعد سيذكرها مفصلة.

وأما المثلان، فأيضًا سيضرب المثلين بين الأمور التي تكون للخالق والمخلوق، وقد سبق التمثيل في ذلك:

فأحدهما: الروح؛ فالرُّوح مخلوقة وهي في الإنسان ولا يعرف حقيقتها، فإذا كانت مخلوقةً وبين جنبي الإنسان وهو لا يعرفها ولا يعرف حقيقتها، فكيف يطمع في معرفة الله ﷻ؟!

والمثل الثاني: بين مخلوقين أيضًا، وهو ما في الجنة من النعيم وما عندنا في هذه الدنيا، فالذي في الجنة لا يماثل ما عندنا، وكلاهما يتفقان في أنهما مخلوقان، وبأنهما أيضًا يُلتذُّ بهما ويُتنعَّم، ولكن فرق بين هذا وهذا.

فإذا كان الفرق والبون الشاسع بين المخلوق والمخلوق، تبين أن الفرق بين الخالق والمخلوق أكثر تباينًا وأبعد من أي تشابُهٍ. وإذا كان الإنسان أيضًا لا يعرف حقيقة الروح التي فيه، مع أنها وُصفت بأنها تُقبض وأنها تصعد وأنها تجيء وأنها تعلم وتنعم وغير ذلك وهو لا يعرف حقيقتها، فكيف يطمع بمعرفة شيء لا نظيرَ له عنده، وليس له نظيرٌ في الوجود وهو ربُّ العالمين، وسيأتي تفصيل ذلك - إن شاء الله -.

فهذا الكتاب كله سيكون في هذين الأصلين وبالمثلين والخاتمة؛ أما هذا الذي تقدم فهو مقدمة وأمثلة، وسيأتي بمثالين بين الخالق والمخلوق، ويبين الفرق والبون الشاسع بين الخالق والمخلوق، وأن الذي يتصور ذلك قد ضل ضلالًا بعيدًا.

والأصلان سيتكلم فيهما بقواعد كما سيأتي - إن شاء الله -.

قال رحمه الله تعالى:

«فَصْلٌ:

فَأَمَّا الْأَصْلَانِ:

فَأَحَدُهُمَا أَنْ يُقَالَ: الْقَوْلُ فِي بَعْضِ الصِّفَاتِ كَالْقَوْلِ فِي بَعْضٍ.

فَإِنْ كَانَ الْمُخَاطَبُ مِمَّنْ يُقِرُّ: بِأَنَّ اللهَ حَيٌّ بِحَيَاةٍ، عَلِيمٌ بِعِلْمٍ، قَدِيرٌ بِقُدْرَةٍ، سَمِيعٌ بِسَمْعٍ، بَصِيرٌ بِبَصَرٍ، مُتَكَلِّمٌ بِكَلَامٍ، مُرِيدٌ بِإِرَادَةٍ، وَيَجْعَلُ ذَلِكَ كُلَّهُ حَقِيقَةً، وَيُنَازِعُ فِي مَحَبَّتِهِ وَرِضَاهُ وَغَضَبِهِ وَكَرَاهِيَتِهِ؛ فَيَجْعَلُ ذَلِكَ مَجَازًا، وَيُفَسِّرُهُ إِمَّا بِالْإِرَادَةِ، وَإِمَّا بِبَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ مِنَ النِّعَمِ وَالْعُقُوبَاتِ».

الشرح

قوله: «فَأَمَّا الْأَصْلَانِ: فَأَحَدُهُمَا أَنْ يُقَالَ: الْقَوْلُ فِي بَعْضِ الصِّفَاتِ كَالْقَوْلِ فِي بَعْضٍ». إن كل من يؤمن بالله يقول: «إن له ذاتًا لا تشبه ذوات المخلوقين»، وهذا لا خلاف فيه، فإذا كان كذلك؛ فإنه يلزمه أن يقول: وصفاته وأسماؤه لا تشبه صفات المخلوقين ولا أسماءهم، وهذه القاعدة جعلها المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أصلًا، وهذا القول قاله الخطابي رَحِمَهُ اللهُ[(١)].

الكلام في هذا مع الأشاعرة الذين يثبتون سبع صفات ثم يوجبون تأويل البقية أو التفويض والتأويل؛ وتأويلهم الذي يؤولونه في الحقيقة هو تحريف وليس تأويلًا؛ لأن التأويل في لغة العرب جاء في **معنيين**:

المعنى الأول: يقصد به ما يؤول إليه الأمر، حقيقة الشيء الذي يُخبر بها، كما قال الله ﷻ في قصة يوسف لما سجد أبواه له وأخوته، قال: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗا﴾ [يوسف: ١٠٠]، فحقيقة ما رآه: وقع فصار هو تأويله. وكذلك قول الله ﷻ: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ

(١) مجموع الفتاوى (٣٣/ ١٧٧).

رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣]، يعني: فتأويله هو حقيقة المُخبَر عنه، إذا وقع صار هذا تأويله، وهذا كثيرٌ في كتاب الله.

المعنى الثاني: التفسير؛ كما يقول إمام المُفسرين ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: «القول في تأويلِ قوله كذا وكذا»، وهذا أيضًا جاء معروفًا عن الصحابة رضوان الله عليهم.

أما المعنى الثالث: الذي جعلوه أيضًا معنًى للتأويل فهو مُبتدع لا يُعرف في لغة العرب، وهو صرفٌ للفظ عن ظاهره، صرف المعنى عن ظاهر اللفظ لمعنًى آخر لا يُفهم من الكلام إلا بكلفة، أو قد لا يُفهم أصلًا، مثل ما يصنع هؤلاء في صفات الرب جَلَّ جَلَالُهُ، فيجعلون «الرحمة» هي إرادة الإحسان أو هي الإحسان ذاته، إما أن يجعلوها إرادة أو يجعلوها شيئًا مخلوقًا.

ابتدأ المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بالكلام على الأشاعرة، وبدأ بهم لأنهم أشد الناس تلبيسًا وإضلالًا لكثير من الناس، حتى قال بعض العلماء: «إن شرَّهم أعظم من شرِّ المعتزلة؛ لأن المعتزلة أمرهم ظاهرٌ وجليٌّ ولا يخفى، أما الأشاعرة فقد أوّلوا الصفات وعيّنوا لها معاني غير مرادة، وقالوا: هذا هو الحق، ونحن أهل السنة! واغترَّ بهم كثيرٌ من الناس بذلك».

قوله: «فَإِنْ كَانَ الْمُخَاطَبُ مِمَّنْ يَقِرُّ: بِأَنَّ اللهَ حَيٌّ بِحَيَاةٍ...»، يعني: أن له صفة، والأشاعرة يثبتون سبع صفات، وهي: (الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام)، وهذه الصفات السبع لا يثبتونها إثباتًا حقيقيًا؛ فيقولون في صفة الكلام: «نثبت لله صفة الكلام»، ولكن الكلام عندهم هو المعنى الواحد القائم بذات الرب! أما الكلام الذي يُسمع ويشتمل على حرف وصوت فهذا لا يصفون الله به ولا يثبتونه، والمعنى الذي يقوم بالذات ليس بكلام، وإذا كان يقوم بذاته، فمن الذي يتكلم عنه؟! ولهذا قالوا: «إن القرآن عبارة عن كلام الله!»؛ فإذا كان القرآنُ عبارةً عن كلام الله؛ فلا بُدَّ أن يكون هناك مُعَبِّرٌ عبَّر عما في نفس الله، وهذا نقصٌ في حق الله ـ تعالى وتقدس ـ، ويكون هذا القرآن الذي يقرأه المسلون ليس كلام الله تعالى!

قوله: «وَيُنَازِعُ فِي مَحَبَّتِهِ وَرِضَاهُ وَغَضَبِهِ وَكَرَاهِيَتِهِ». فيثبتون سائر الصفات مجازًا.

قوله: «وَيُفَسِّرُهُ»؛ أي: يؤوّلونها إلى معنى آخر على غير مراد الله؛

«**إِمَّا بِالْإِرَادَةِ**»: فمثلًا قالوا في صفة الغضب: «إنه إرادة الانتقام»، وفي الرحمة قالوا: «إنها إرادة الإحسان»، ومعلوم أن الإحسان مخلوقٌ يخلقه الله ﷻ، وكذلك الغضب والرضا وغير ذلك، والاستواء أيضًا يؤولونه بالاستيلاء أو القهر أو المُلك أو الخلق أو ما أشبه ذلك؛ وكل هذا على خلاف ما تكلَّم به المُتكلِّم، فيكون هذا من البدع، بل هذا من تحريف الكلام.

فيقول هنا: «**الْقَوْلُ فِي بَعْضِ الصِّفَاتِ كَالْقَوْلِ فِي بَعْضٍ**». يعني: أنه ما دامت الصفات لموصوفٍ واحد يجب أن تكون على نمطٍ واحد، وطريقةٍ واحدة، فلا يجوز أن نأخذ بعضًا ونترك البعض الآخر؟! فنكون داخلين في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠]، ثم قال بعد ذلك: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ﴾ [النساء: ١٥١].

ثم يجب أن نعلم أن الصفات كالذات، يعني: إذا كانت مثلًا الذات لا تُشبه ذوات المخلوقين، وهذا أمرٌ متفقٌ عليه لا أحد ينازع فيه؛ فيجب أن تكون الصفات كذلك، صفات الذات التي لا تُشبه ذات المخلوقين هي كذلك لا تُشبه صفات المخلوقين؛ فهذا معنى يُحتذى به ويُسار على طريقته.

ثم عندنا قاعدة قد سبق التنبيه عليها وهي: «أن الله ﷻ لا يوصف إلا بما وصف به نفسه، ولا يسمى إلا بما سمى به نفسه»، ولكن قد يأتي خطابٌ يُقصد به الإخبار أو يُقصد به مُخاطبة أصحاب الاصطلاح باصطلاحهم، مثل ما يقول المؤلف هنا يقول: «**مُتَكَلِّمٌ بِكَلَامٍ، مُرِيدٌ بِإِرَادَةٍ**»، متكلم هذا لم يأتِ في صفات الله ﷻ و«**مُريد**» لم يأتِ في صفات الله ﷻ، وإنما جاء أنه يريد وأراد، وكذلك تكلم ويُكلم، وقال ويقول، وما أشبه ذلك، فالواجب أن نتبع ما قاله الله ﷻ وقاله رسوله ﷺ، ولا يجوز أن يُتساهل في هذا الباب؛ لأن الله ﷻ يُخبرُنا بأوصافه وبأسمائه، يُعلِّمنا ذلك حتى نعرفه بها، والله ﷻ أعلم بما في نفسه وبغيره من خلقه ـ تعالى وتقدس ـ، فالتعريفات يجب أن تكون واضحة.

ثم سبق أن العلة في هذا أن الله ﷻ غيبٌ لا يُطَّلَع عليه فيوصف، وليس له مثيلٌ فيُقاس عليه، فلا طريق إلا أن نأخذ ذلك عن ربنا ﷻ الذي يُرسِل به الرسولَ ﷺ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«قِيلَ لَهُ: لَا فَرْقَ بَيْنَ مَا نَفَيْتَهُ وَبَيْنَ مَا أَثْبَتَّهُ، بَلْ الْقَوْلُ فِي أَحَدِهِمَا كَالْقَوْلِ فِي الْآخَرِ؛ فَإِنْ قُلْت: إنَّ إرَادَتَهُ مِثْلُ إرَادَةِ الْمَخْلُوقِينَ، فَكَذَلِكَ مَحَبَّتُهُ وَرِضَاهُ وَغَضَبُهُ، وَهَذَا هُوَ التَّمْثِيلُ، وَإِنْ قُلْت: لَهُ إرَادَةٌ تَلِيقُ بِهِ؛ كَمَا أَنَّ لِلْمَخْلُوقِ إرَادَةً تَلِيقُ بِهِ، قِيلَ لَك: وَكَذَلِكَ لَهُ مَحَبَّةٌ تَلِيقُ بِهِ، وَلِلْمَخْلُوقِ مَحَبَّةٌ تَلِيقُ بِهِ، وَلَهُ رِضًا وَغَضَبٌ يَلِيقُ بِهِ وَلِلْمَخْلُوقِ رِضًا وَغَضَبٌ يَلِيقُ بِهِ».

الشرح

قوله: «قِيلَ لَهُ: لَا فَرْقَ بَيْنَ مَا نَفَيْتَهُ وَبَيْنَ مَا أَثْبَتَّهُ...»، يعني: الطريق واحدة، فما دام أنكم أثبتم لله الحياة، وقلتم: «إنها حياة لا تشبه حياة المخلوق»؛ فهذا يلزمكم أن تثبتوا لله الغضب والرضا والرحمة، وتقولوا أيضًا: «إنها تخصُّه ولا تشبه صفة المخلوقين»، فالقول في بعض الصفات كالقول في الآخر، وإلا وقعتم في التناقض.

ولهذا ينبغي ألَّا ننسى هذه القاعدة، وهي: أن الله لا يوصف إلا بما وصف به نفسه، فلم يأتِ في أسماء الله أنه «متكلِّم»، وإنَّما الذي ثبت أنه تكلَّم، فنثبت له صفة الكلام؛ أما اسم «المتكلِّم» ـ اسم فاعل ـ، فهذا لم يثبت لله؛ لأن الصفات أوسعُ من الأسماء، ولا يشتق من الصفات أسماءٌ، إلا إذا ثبت ذلك في كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ؛ لأنه اتفق عليها، ولا ينافي هذا أن الأسماء اشتقت من الصفات؛ لأن المقصود أن لها معانٍ أخذت منها، فمثلًا «الرحمن» أُخذ من الرحمة، و«العزيز» من العزة، وهكذا.

فالمقصود: أن هذا جواب التفرقة الذي يُفرق بين هذا وهذا، ممن يؤمن بالإرادة، وبالكلام، وبالسمع، والبصر، والحياة، والقدرة، ولا يقبل المحبة والغضب والرضا والاستواء وما أشبه ذلك، فيُقال: لا فرق بين ما أقررت به وما نفيته، لأنه كُلُّه صفةٌ لموصوفٍ واحدٍ ـ تعالى وتقدس ـ، وإذا تأولتَ بعضًا لزمك في البعض الثاني مثلُه، وإذا أقررت بعضًا يجب أن تقر بالكُلِّ؛ وإلا يحصل التناقض.

قال رحمه الله تعالى:

«وَإِنْ قَالَ: الْغَضَبُ غَلَيَانُ دَمِ الْقَلْبِ لِطَلَبِ الِانْتِقَامِ. قيل لَهُ: وَالْإِرَادَةُ مَيْلُ النَّفْسِ إِلَى جَلْبِ مَنْفَعَةٍ أَوْ دَفْعِ مَضَرَّةٍ، فَإِنْ قُلْتَ: هَذِهِ إِرَادَةُ الْمَخْلُوقِ، قِيلَ لَكَ: وَهَذَا غَضَبُ الْمَخْلُوقِ».

الشرح

قوله: «الْغَضَبُ غَلَيَانُ دَمِ الْقَلْبِ لِطَلَبِ الِانْتِقَامِ»، يعني: أنهم تأوَّلوا الغضب بإرادة الانتقام، بناءً على ما يعرفون من أنفسهم، ولا يصفونه بالغضب؛ لأن هذا هو الذي تعقله عقولهم؛ أي: أنهم يثبتون الإرادة وينفون الغضب، فيكون الغضب فيه تشبيه؛ لأنه هو غليان دم القلب، ثم طلب الانتقام.

وهذا تشبيهٌ؛ لأنك تصف غضب المخلوق، وليس هذا هو غضب الله؛ غضب الله يليق بعظمته، وجلاله ولا يجوز أن تقول: إنه غليان دم القلب، ولا أن لله قلبًا، ولا أن لله دمًا، وغير ذلك، فهذا كُلُّه من الضلال البيِّن ومن التشبيه، حيث جعلوا المخلوق هو الأصل ثم قاسوا عليه رب العالمين - تعالى الله وتقدس -.

ثم إن هذا التأويل الذي تأوَّلَه، يلزمه فيما أثبته: فالإرادة المعقولة من إرادات الخلق والعباد: هي الميل إلى المُراد، و«الميلُ» فيه حاجة؛ فلا يجوز أن نُسمي مثلًا أن الله ﷻ يميل إلى كذا وكذا يكون مُحتاجًا به، فمعنى ذلك أنه يُلزَم بنظير ما فرَّ منه في الغضب مثلًا، فإذا قبله وقال به: يكون متناقضًا؛ فلا بُدَّ أن يُجرَى إلى معنى واحد في الصفات كُلها، فيُحتذى بها حذوها، ويسار على طريقة واحدة حتى لا يحصل التناقض، ولا يحصُل أيضًا التشبيه بصفات المخلوقين.

فالمقصود: أن يقال في الجواب عن ذلك أن: «**الْإِرَادَةَ**» التي وصفتم الله ﷻ بها هي: «ميلُ النفس إلى جلب منفعة أو دفع مضرة»، فإن قالوا: «**هَذِهِ إِرَادَةُ الْمَخْلُوقِ**» وهي إرادة خاصة به؛ قيل لهم أيضًا: «**وَهَذَا غَضَبُ الْمَخْلُوقِ**» الذي يخصُّه ولا يَشْرَكه فيه أحد، فنثبت الغضب ولا نشبهه بغضب المخلوق.

أما غضب الله وإرادة الله، وكذلك سائر صفاته فهي لا تشبه صفات المخلوقين، ولهذا يجب أن يسلكوا هذا المسلك حتى يسْلَموا من التأويل ومن

التعطيل ومن التناقض؛ لأن كلَّ مُؤَوِّل معطِّل ولا بُدَّ؛ لأنه إذا أَوَّل الصِّفة عن المعنى الذي أريد به إلى معنى آخر؛ فإنه قد وقع في التعطيل.

والذي حملهم على التأويل هو الخوفُ من الوقوع في التشبيه، والحقيقة أن التشبيه مستقرٌّ في نفوسهم، فقالوا: «إننا نخاف أن نقع في التشبيه وهو كفر؛ فلا بد من التأويل»، ولهذا يوجبون التأويل، وهذا أمر عجيب، فيقولون: «يجب أن تُؤوِّل أو تفوض»، أما أن تأخذ ظاهر النص؛ فهذا لا يجوز بل كفرٌ، فصار الحق محرَّمًا عندهم والباطل واجبًا، وهذا من أعجب الأشياء ـ نسأل الله السلامة ـ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «وَكَذَلِكَ يُلْزَم بالْقَوْلُ فِي كَلَامِهِ وَسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ؛ إنْ نُفِيَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَالْمَحَبَّةُ وَالرِّضَا وَنَحْوُ ذَلِكَ مَّا هُوَ مِنْ خَصَائِصِ الْمَخْلُوقِينَ؛ فَهَذَا مُنْتَفٍ عَنْ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ وَجَمِيعِ الصِّفَاتِ، وَإِنْ قَالَ: أَنَّهُ لَا حَقِيقَةَ لِهَذَا إِلَّا مَا يَخْتَصُّ بِالْمَخْلُوقِينَ؛ فَيَجِبُ نَفْيُهُ عَنْهُ قِيلَ لَهُ: وَهَكَذَا السَّمْعُ وَالْبَصَرُ، وَالْكَلَامُ وَالْعِلْمُ وَالْقُدْرَةُ».

الشَّرح

قوله: «وَكَذَلِكَ يُلْزَم بالْقَوْلُ فِي كَلَامِهِ وَسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ...». إن بين الأشاعرة والمعتزلة خلافًا؛ لأن المعتزلة لا يثبتون شيئًا من الصفات، وأما الأشاعرة فإنهم يثبتون سبع صفات.

فالمعتزلة يقولون: ليس له إرادة ولا كلام قائم به؛ لأن هذه الصفات لا تقوم إلا بالمخلوقات؛ فإذا جاء المعتزلي للأشعري وقال: إذا أثبتم الصفات السبعة فإنه يلزمكم التشبيه!

فيرد الأشعري على المعتزلي بقوله: إن هذه الصفات يتصف بها رب العالمين ﷻ، ولا تكون كصفات المخلوقين المحدَثين.

وهكذا يقال له هو أيضًا في الصفات التي تأوَّلها ـ كالرحمة والغضب والرضا ـ، فيقول له: الأمر الذي فررْت منه هو في صفات المخلوقين؛ أما صفات الله ﷻ فإنها لا تشبه صفات المخلوق، فيجب أن تسلك مسلكًا واحدًا في جميع الصفات حتى تسلم من التناقض، وتسلم أيضًا من الذي لا يوافقك في إثبات الصفات ويجادلك وينقض عليك قولك؛ لأنه كما قال: «الغضب إرادة الانتقام»، أو «هو الانتقام»، فيقال: الإرادة التي زعمت أنه الغضب هي «الميل إلى المراد»، وهذه صفة المخلوق، أما الانتقام فهو مخلوق، فهل نجعل صفة الله مخلوقة؟! وهكذا يقال في كل صفة يأولونها.

المقصود: أنهم يثبتون الكلام، ولكن الكلام الذي يثبتونه لا حقيقة له، فهم

يقولون: «كلام الله معنًى قائمٌ بذاته، معنًى واحدٌ»، ويفسرون «المعنى الواحد»: بأنه الأمر والنهي، والخبر والاستفهام، وقد يقولون: «الاستخبار»، ومقصودهم الاستفهام. أما أن يكون كلامًا بحرفٍ وصوتٍ فهذا ينفونه عن الله ﷻ، ينفون الكلام المعقول، فيُقال لهم: هذا الذي تثبتونه هو كلام المخلوق.

وقد يقولون: الكلام يحتاج إلى لَهَاةٍ وإلى حُنجرة، وإلى حِبَالٍ صوتية وإلى شفتين وإلى غيرها؛ فبهذا يتبين أنهم يصفون كلام المخلوق، وليس هذا هو كلام الله؛ لأن الله لا يُشبه المخلوق في شيء.

وسبق أنه لولا المعنى العام المُطلق وكذلك الاسم العام المُطلق قبل الإضافة والتخصيص؛ لولا هذا المعنى بين المُخبَر عنه، وما هو معروفٌ عند الخلق= ما فُهم الخطاب.

ثم إذا حصلت الإضافة أو التخصيص، زال هذا الاشتباه أو الاشتراك نهائيًا وأصبح كل منهما بعد الإضافة أو التخصيص كلاهما يخُص ما أُضيفت إليه، ويكون له فقط دون الآخر، ولا يحصل بذلك تشبيه أو تمثيلٌ لله بخلقه.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَهَذَا الْمُفَرِّقُ بَيْنَ بَعْضِ الصِّفَاتِ وَبَعْضٍ، يُقَالُ لَهُ: فِيمَا نَفَاهُ كَمَا يَقُولُهُ هُوَ لِمُنَازِعِهِ فِيمَا أَثْبَتَهُ، فَإِذَا قَالَ الْمُعْتَزِلِيُّ: لَيْسَ لَهُ إِرَادَةٌ وَلَا كَلَامٌ قَائِمٌ بِهِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ لَا تَقُومُ إِلَّا بِالْمَخْلُوقَاتِ، فَإِنَّهُ يُبَيِّنُ لِلْمُعْتَزِلِيِّ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ يَتَّصِفُ بِهَا الْقَدِيمُ، وَلَا تَكُونُ كَصِفَاتِ الْمُحْدَثَاتِ، فَهَكَذَا يَقُولُ لَهُ الْمُثْبِتُونَ لِسَائِرِ الصِّفَاتِ مِنَ الْمَحَبَّةِ وَالرِّضَا وَنَحْوِ ذَلِكَ».

الشرح

يعني: هم بينهم جدالٌ؛ بين الأشاعرة والمعتزلة؛ فالمعتزلة لا يثبتون صفةً لله ﷻ، وهؤلاء يثبتون بعض الصفات ويتأوّلون البعض:

فقد يقول له الذي ينفي الصفة: «أنه ليس له إرادة».

فيُلزمه بإثباتها، فيقول: «لأن الله له إرادة لا تُشبه الإرادات»؛ فهكذا يقول له أهل السُّنَّة، وأيضًا له محبة لا تُشبه محبة المخلوقين، وله غضبٌ لا يُشبه غضب المخلوقين إلى آخره.

وإذا لم يُقرّ بذلك، يقال له كما ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: أن الإكرام يدل على المحبة، والعذاب يدل على الكراهية والبغض.

والغايات المحمودة تدل على الحكمة، وهكذا بقية الصفات.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَإِنْ قَالَ: تِلْكَ الصِّفَاتُ أَثْبَتَهَا بِالْعَقْلِ، لِأَنَّ الْفِعْلَ الْحَادِثَ دَلَّ عَلَى الْقُدْرَةِ، وَالتَّخْصِيصَ دَلَّ عَلَى الْإِرَادَةِ، وَالْإِحْكَامَ دَلَّ عَلَى الْعِلْمِ، وَهَذِهِ الصِّفَاتُ مُسْتَلْزِمَةٌ لِلْحَيَاةِ، وَالْحَيُّ لَا يَخْلُو عَنِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ أَوْ ضِدِّ ذَلِكَ.

قَالَ لَهُ سَائِرُ أَهْلِ الْإِثْبَاتِ: لَك جَوَابَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يُقَالَ: عَدَمُ الدَّلِيلِ الْمُعَيَّنِ لَا يَسْتَلْزِمُ عَدَمَ الْمَدْلُولِ الْمُعَيَّنِ، فَهَبْ أَنَّ مَا سَلَكْته مِنْ الدَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ لَا يُثْبِتُ ذَلِكَ فَإِنَّهُ لَا يَنْفِيهِ، وَلَيْسَ لَك أَنْ تَنْفِيَهُ بِغَيْرِ دَلِيلٍ، لِأَنَّ النَّافِيَ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ، كَمَا عَلَى الْمُثْبِتِ، وَالسَّمْعُ قَدْ دَلَّ عَلَيْهِ وَلَمْ يُعَارِضْ ذَلِكَ مُعَارِضٌ عَقْلِيٌّ وَلَا سَمْعِيٌّ، فَيَجِبُ إثْبَاتُ مَا أَثْبَتَهُ الدَّلِيلُ السَّالِمُ عَنِ الْمُعَارِضِ الْمُقَاوِمِ».

الشرح

قوله: «تِلْكَ الصِّفَاتُ أَثْبَتَهَا بِالْعَقْلِ»، يعني: أن هذه الصفات السبع أثبتها عن طريق العقل.

ووجه استدلالهم العقلي أنهم قالوا: «**الْفِعْلَ الْحَادِث دَلَّ عَلَى الْقُدْرَةِ، وَالتَّخْصِيص دَلَّ عَلَى الْإِرَادَةِ، وَالْإِحْكَامَ دَلَّ عَلَى الْعِلْمِ، وَهَذِهِ الصِّفَاتُ مُسْتَلْزِمَةٌ لِلْحَيَاةِ، وَالْحَيُّ لَا يَخْلُو عَنْ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ أَوْ ضِدِّ ذَلِكَ**».

فيقال لهم: إن الصفات التي نفيتها أنت إنما نفيتها على قياس عقلي، فيقول مثلًا: الغضب إرادة الانتقام، والرحمة إرادة الإحسان، وهكذا بقية الصفات يتأوَّلها كلَّها، وترجع إلى الإرادة كما تقدم، وهي صفة للمخلوق. وذكر المؤلف الجواب على هذا الاستدلال العقلي من وجهين:

الوجه الأول: قال: «**عَدَمُ الدَّلِيلِ الْمُعَيَّنِ لَا يَسْتَلْزِمُ عَدَمَ الْمَدْلُولِ الْمُعَيَّنِ**». لو سَلَّمْنا أن هذا الاستدلال صحيحٌ، لكن ليس لك دليل فيما نفيته من الصفات،

فكونك لم تعرف الدليل أو أنك تقول: هذه عليها دليلٌ عقليٌّ، وتلك ليس عليها دليلٌ عقليٌّ، فيقال له: هب أنها ليس عليها دليل عقلي عندك، ولكن غيرك أوجد لها دليلًا عقليًّا مع دليل آخر سمعي، فلا يجوز أن تنفي شيئًا بحجة أنك لم تدرك الدليل في هذا الشيء، وهذا جواب عام.

هذا جوابٌ مُجملٌ؛ يقال في جميع الصفات التي ينفيها المُتكلِّم الذي يعتمد على العقل وعلى النظر، مع أن هذا لا يجوز في صفات الله ﷻ، ولكن هذا من باب المُجادلة، وإلزام النافي للحق، فيُقال له:

إذا قال: «إن هذه الصفات ما دل عليها العقل» ـ لأنهم هكذا يُثبتون هذه الأشياء زعموا بالعقول، مع أن العقل لا يصل إلى هذا، وليس هو الطريق في إثبات صفات الله، وإنما الطريق الوحي؛ لأنه كما سبق هذا أمرٌ غيبي، فالعقل لا يُدركه وإنما عليه أن يُسلم، وينقاد لذلك ـ.

فيقُال: إذا زعمت أنه ليس على الاستواء دليلٌ يدل عليه من العقل: فهب أنه ليس هناك دليلٌ، ونحن لسنا بحاجةٍ إليه؛ لأننا نثبتُه بالأدلة التي جاءت في كتاب الله وبأحاديث رسوله ﷺ وتغنينا عن ذلك. ولا يجوز للعقل أن يقضي على السمع، والسمع معناه: قولُ الله، وقولُ رسوله ﷺ؛ لأنه يُدرك بالسَّمع فسموه سمعًا.

فنقول: هذا يكفينا في الاستدلال؛ لأن الله ﷻ يُخبرنا عن شيءٍ لا ندركه نحن بعقولنا؛ فإن علينا أن نُسلم وننقاد لذلك ويكفي المؤمن هذا؛ فإنه إن لم يسلِّم ولم يرض بهذا فإن إيمانه فيه شكٌّ، بل فيه تردد، فهذا يُقال في جميع ما نُفي عن الله ﷻ مما يقوله المتكلمون.

ويقال: عدم الدليل المعين لا يلزم منه عدم المدلول عليه، وكونك لم تدرك الدليل عليه لا يجوز أن تنفيه عن غيرك.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«الثَّانِي أَنْ يُقَالَ: يُمْكِنُ إِثْبَاتُ هَذِهِ الصِّفَاتِ بِنَظِيرِ مَا أَثْبَتَ بِهِ تِلْكَ مِنَ الْعَقْلِيَّاتِ، فَيُقَالُ: نَفْعُ الْعِبَادِ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ يدلّ عَلَى الرَّحْمَةِ، كَدَلَالَةِ التَّخْصِيصِ عَلَى الْمَشِيئَةِ، وَإِكْرَامُ الطَّائِعِينَ يَدُلُّ عَلَى مَحَبَّتِهِمْ، وَعِقَابُ الْكَافِرِينَ يَدُلُّ عَلَى بُغْضِهِمْ، كَمَا قَدْ ثَبَتَ بِالشَّاهد وَالْخَبَرِ: مِنْ إِكْرَامِ أَوْلِيَائِهِ وَعِقَابِ أَعْدَائِهِ، وَالْغَايَاتُ الْمَحْمُودَةُ فِي مَفْعُولَاتِهِ وَمَأْمُورَاتِهِ - وَهِيَ مَا تَنْتَهِي إِلَيْهِ مَفْعُولَاتُهُ وَمَأْمُورَاتُهُ مِنَ الْعَوَاقِبِ الْحَمِيدَةِ - تَدُلُّ عَلَى حِكْمَتِهِ الْبَالِغَةِ؛ كَمَا يَدُلُّ التَّخْصِيصُ عَلَى الْمَشِيئَةِ وَأَوْلَى، لِقُوَّةِ الْعِلَّةِ الغائية؛ وَلِهَذَا كَانَ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ بَيَانِ مَا فِي مَخْلُوقَاتِهِ، مِنَ النِّعَمِ وَالْحِكَمِ: أَعْظَمُ مِمَّا فِي الْقُرْآنِ مِنْ بَيَانِ مَا فِيهَا مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى مَحْضِ الْمَشِيئَةِ».

الشرح

هذا الجواب مع الذي قبله: جوابٌ للذين ينفون الصفات ما عدا السبع ويثبتون الأسماء، والذين أيضًا ينفون الأسماء والصفات وهم أبلغ في هذا، فهو جوابٌ لكل هؤلاء؛ فيقال لهم: أنتم لا تثبتون إلا ما ثبت بالعقل، لا يمكن أن يُثبت ذلك بالعقل الذي نفيتموه.

الوجه الثاني: قال: «**يُمْكِنُ إِثْبَاتُ هَذِهِ الصِّفَاتِ بِنَظِيرِ مَا أَثْبَتَ بِهِ تِلْكَ مِنَ الْعَقْلِيَّاتِ**»؛ أي: إن تخصيص العقل هذه الصفات السبع تخصيصٌ باطلٌ ولا يُسلَّم به، فكما أنه استعمل العقل في إثبات القدرة والإرادة والحياة؛ فإنه لا مانع من استعماله في إثبات بقية الصفات، فيمكن أن تُثْبَتْ في نظير ما أثبتَه.

فهم يقولون: إن هذه الصفات السبع اجتمعت عليها أدلة العقل وأدلة السمع فأثبتناها، وأما البقية فيجب علينا أن نؤوِّلَها.

فيقال لهم: والبقية يدلُّ عليها العقل أيضًا؛ فمثلًا «الرحمة» يقال فيها:

«**نَفْعُ الْعِبَادِ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ يَدُلُّ عَلَى الرَّحْمَةِ**»، وكذلك الإتقان في المخلوقات يدلُّ على الحكمة، وهم ينفون حكمة الله ﷻ؛ وهكذا بقية الصفات.

مع أن القاعدة في إثبات صفات الله وأسمائه هي: «مجيءُ الخبر بها من الكتاب والسنة»، وليس العقل؛ ولكن يقال هذا في المجادلة، ومن باب إبطال الباطل وإحقاق الحق.

قوله: «**نَفْعُ الْعِبَادِ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ**»، وإكرامهم بالقيام على ما ينفعُهم ودفع ما يضُرُّهم؛ كلُّ ذلك يدل على الرحمة؛ لأن المتصرف في هذا هو الله ﷻ، فلا بُدَّ أن يكون له صفةٌ هي الرحمة يرحم بها خلقه، وهذا ظاهرٌ وآثارها ظهرت على خلقه؛ وإذا ظهرت آثار الصفة فإثباتُها أمرٌ ضروريٌّ.

قوله: «**إِكْرَامُ الطَّائِعِينَ يَدُلُّ عَلَى مَحَبَّتِهِمْ...**»، ونصرهُ وتأييده على الكفار؛ يدلُّ على بُغض الكافرين وبُغض العصاة؛ لأنه أكرمَ ضدهم، وهكذا يقال في سائر الصفات على هذا المنوال.

لكن هؤلاء المبتدعة لن يقتنعوا بمثل ذلك، وإنما يَقتَنِعُ به من كان يريدُ الحقَّ، والذي يريد الحقَّ يجب أن يكون اعتمادُهُ على ما قاله الله وقاله رسوله ﷺ.

قوله: «...**وَعِقَابُ الْكَافِرِينَ يَدُلُّ عَلَى بُغْضِهِمْ**»؛ فالله يثيب الطائع، وجزاؤه في الجنَّة، وهذه تدلُّ على محبَّة الله للمؤمنين، وكذا عقاب الكافرين يدلُّ على بغضهم ومقتهم.

قوله: «**وَالْغَايَاتُ الْمَحْمُودَةُ فِي مَفْعُولَاتِهِ وَمَأْمُورَاتِهِ ـ وَهِيَ مَا تَنْتَهِي إِلَيْهِ مَفْعُولَاتُهُ وَمَأْمُورَاتُهُ مِنْ الْعَوَاقِبِ الْحَمِيدَةِ ـ تَدُلُّ عَلَى حِكْمَتِهِ الْبَالِغَةِ**»، يعني: أن الأمور المحمودة التي تُشاهَد وتُرَى في مخلوقات الله ﷻ تدلُّ أيضًا على حكمته ورحمته وإحسانه وإتقانه لكل شيء؛ فهو حكيمٌ ورحيمٌ وحليمٌ، وهم لا يثبتون هذه الصفات.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَإِنْ كَانَ الْمُخَاطَبُ مِمَّنْ يُنْكِرُ الصِّفَاتِ وَيُقِرُّ بِالْأَسْمَاءِ كَالْمُعْتَزِلِيِّ الَّذِي يَقُولُ: إِنَّهُ حَيٌّ عَلِيمٌ قَدِيرٌ، وَيُنْكِرُ أَنْ يَتَّصِفَ بِالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ.

قِيلَ لَهُ: لَا فَرْقَ بَيْنَ إِثْبَاتِ الْأَسْمَاءِ وَإِثْبَاتِ الصِّفَاتِ، فَإِنَّك إِنْ قُلْت: إِثْبَاتُ الْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ يَقْتَضِي تَشْبِيهًا أَوْ تَجْسِيمًا، لِأَنَّا لَا نَجِدُ فِي الشَّاهِدِ مُتَّصِفًا بِالصِّفَاتِ إِلَّا مَا هُوَ جِسْمٌ، قِيلَ لَك: وَلَا تَجِدُ فِي الشَّاهِدِ مَا هُوَ مُسَمًّى بأنه حَيٌّ عَلِيمٌ قَدِيرٌ إِلَّا مَا هُوَ جِسْمٌ، فَإِنْ نَفَيْت مَا نَفَيْت لِكَوْنِك لَمْ تَجِدْهُ فِي الشَّاهِدِ إِلَّا لِلْجِسْمِ؛ فَانْفِ الْأَسْمَاءَ، بَلْ وَكُلَّ شَيْءٍ لِأَنَّك لَا تَجِدُهُ فِي الشَّاهِدِ إِلَّا لِجِسْمٍ».

الشرح

المقصود بـ «الشَّاهِدِ»: الأمر الذي يُحس ويُنظر، ويكون مُشاهَدًا بالعيان، أي: في المخلوقات التي تُشاهد؛ فقولُه: «**مِمَّنْ يُنْكِرُ الصِّفَاتِ وَيُقِرُّ بِالْأَسْمَاءِ كَالْمُعْتَزِلِيِّ**».

يقال لهم أيضًا: أنتم تتناقضون؛ لأن الصفات حُكمها حُكم الأسماء؛ فلماذا نفيتموها وأثبتم أسماءً بلا صفات؟!

قالوا: إن هذا الذي تقوم به الصفة لا نعقلُه إلا ما كان جسمًا، وهم يقولون: التجسيم كُفرٌ بالله ﷻ.

فكلُّ أمرهم يدور على التشبيه الذي استكنَّ في نفوسهم أولًا، ولم يتكلموا به هؤلاء وهؤلاء، ولهذا نفوا هذه الصفات خوفًا من الوقوع مما خطر في نفوسهم؛ هذا إذا أُحسن الظَّنُّ بهم.

وكثيرٌ منهم يريد إرباك المسلمين وإفسادَ عقائدِهم؛ لأنهم دخلوا الإسلام لأجل ذلك، وليس عن اقتناع ولا عن رغبةٍ فيه؛ فكثيرٌ منهم هذا أمرُه وحالُه، أو رؤسائهم الذين جاءوا بهذه البدع وهذه الضلالات، فرؤسائهم لا يُشَكُّون لحظة أنهم على هذا النهج، ولما أحسن العامة الظنَّ بهم صاروا يتطلبون الأمور التي تنطبق على قواعدهم!

فلا بُدَّ أن يكون المرء المُسلم متبعًا لكتاب ربه مستغنيًا عن هذه التُّرَّهات وهذه المُجادلات؛ لأن هذه المُجادلات لا تزيد الإنسان إلا بُعدًا عن الله، ولا تزيد القلوب إلا شكًّا وريبة؛ فإنها لا يوجد فيها علمٌ، ولا يوجد بها خوفٌ من الله وخشية، بل بالعكس. ولهذا تجد أكثر الناس قسوةً للقلب هؤلاء الذي يجادلون في ربهم - تعالى وتقدس -.

فهم يتعاونون مع الشيطان في دحض الحق وإبطاله، وإن كانت هذه المجادلات قد ينتفع بها مريد الحق الذي غره هؤلاء.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَكُلُّ مَا يَحْتَجُّ بِهِ مَنْ نَفَى الصِّفَاتِ، يَحْتَجُّ بِهِ نَافِي الأَسْمَاءِ الْحُسْنَى؛ فَمَا كَانَ جَوَابًا لِذَلِكَ كَانَ جَوَابًا لِمُثْبِتِي الصِّفَاتِ».

الشَّرْح

قوله: «فَكُلُّ مَا يَحْتَجُّ بِهِ مَنْ نَفَى الصِّفَاتِ يَحْتَجُّ بِهِ نَافِي الأَسْمَاءِ الْحُسْنَى».

هذا من باب المُجادلة مع من ينفي الصفات ويثبت الأسماء، فكل ما يحتج به في نفي الصفات من الأمور العقلية، يحتج عليه أيضًا من يُثبت الصفات والاسماء - وهم أهل السنة - فالذين يثبتون الأسماء دون الصفات هم المعتزلة، وهذا تناقض؛ لأن الذي يلزم على أثبات الصفات يلزم على إثبات الأسماء، كما تناقض إخوانهم الأشاعرة.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «وَإِنْ كَانَ الْمُخَاطَبُ مِنَ الْغُلَاةِ؛ نفاة الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَقَالَ: لَا أَقُولُ هُوَ مَوْجُودٌ وَلَا حَيٌّ وَلَا عَلِيمٌ وَلَا قَدِيرٌ؛ بَلْ هَذِهِ الْأَسْمَاءُ لِمَخْلُوقَاتِهِ أو هِيَ مَجَازٌ، لِأَنَّ إِثْبَاتَ ذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ التَّشْبِيهَ بِالْمَوْجُودِ الْحَيِّ الْعَلِيمِ القدير.

﴿ قِيلَ لَهُ: كَذَلِكَ إِذَا قُلْت: لَيْسَ بِمَوْجُودٍ وَلَا حَيٍّ وَلَا عَلِيمٍ وَلَا قَدِيرٍ، كَانَ ذَلِكَ تَشْبِيهًا بِالْمَعْدُومَاتِ، وَذَلِكَ أَقْبَحُ مِنَ التَّشْبِيهِ بِالْمَوْجُودَاتِ».

الشرح

هؤلاء أضل من أولئك وأكثر بُعدًا عن الله ﷻ، والمؤلف رحمه الله يريد أن يبطل الباطل من كل وجه، والكلام هنا لأهل العلم الذين يخوضون في مثل هذه الأشياء، وهم الذين يدخلون في المُجادلات، ثم في النهاية يتبين بُطلان الباطل، ويتبين أن الحق يجب أن يُثبت من كل وجه، من جهة العقل ومن جهة السمع والبصر، ومن جهة الفطرة.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَإِنْ قَالَ: أَنَا أَنْفِي النَّفْيَ وَالْإِثْبَاتَ.

قِيلَ لَهُ: فَيَلْزَمُكَ التَّشْبِيهُ بِمَا اجْتَمَعَ فِيهِ النَّقِيضَانِ مِنَ الْمُمْتَنِعَاتِ، فَإِنَّهُ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ مَوْجُودًا مَعْدُومًا، أَوْ لَا مَوْجُودًا وَلَا مَعْدُومًا، وَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ يُوصَفُ ذَلِكَ بِاجْتِمَاعِ الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ، والْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ، أَوْ الْعِلْمِ وَالْجَهْلِ، أَوْ يُوصَفُ بِنَفْيِ الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ، وَنَفْيِ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ، وَنَفْيِ الْعِلْمِ وَالْجَهْلِ».

الشرح

وكذلك كلُّ موجودٍ له صفةٌ حتى الجماد، حتى الصفا له صفة اليبوسة وصفة القساوة، وغير ذلك. أما أن يوجد موجودٌ لا يوصف بصفةٍ ولا يُسمى باسمٍ فهذا ممتنع لا وجود لمثل هذا.

فالواقع أنهم كانوا ينفون وجود الله ﷻ؛ يدلك على هذا أوصافهم التي يُطلقونها على الله ﷻ؛ فإنهم يقولون: «إن الله ليس فوق، وليس تحت، وليس يمين ولا شمال، ولا خارج العالم، ولا داخل العالم، ولا يجري عليه زمان، ولا يكون بمكان»، ولو قيل للذي يقول هذا القول: صف لنا العدم ما هو؟ لا يصفه بأكثر من ذلك، ولكن يوهمون الجُهَّال بأنهم أهل تنزيه، وهم في الحقيقة يَنفُون وجودَ الله ﷻ وأنه لا وجود له؛ لأن هذا الذي يصفونه هو العدم المحض الذي لا يُمكن أن يكون موجودًا في الخارج!، فلا وجه لحملهم على الفرار من التشبيه.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَإِنْ قُلْت إِنَّمَا يَمْتَنِعُ نَفْيُ النَّقِيضَيْنِ عَمَّا يَكُونُ قَابِلًا لَهُمَا، وَهَذَانِ يَتَقَابَلَانِ تَقَابُلَ الْعَدَمِ وَالْمَلَكَةِ؛ لَا تَقَابُلَ السَّلْبِ وَالْإِيجَابِ، فَإِنَّ الْجِدَارَ لَا يُقَالُ لَهُ: أَعْمَى وَلَا بَصِيرٌ، وَلَا حَيٌّ وَلَا مَيِّتٌ؛ إذْ لَيْسَ بِقَابِلٍ لَهُمَا.

قِيلَ لَك: أَوَّلًا هَذَا لَا يَصِحُّ فِي الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ، فإنهما مُتَقَابِلَانِ تَقَابُلَ السَّلْبِ وَالْإِيجَابِ، بِاتِّفَاقِ الْعُقَلَاءِ؛ فَيَلْزَمُ مِنْ رَفْعِ أَحَدِهِمَا ثُبُوتُ الْآخَرِ».

الشَّرح

هذا الكلامُ في اصطلاح المُتكلِّمين، بل مأخوذٌ من اليونان؛ أما التقابل فهذا معروف؛ لأن الموت يُقابل الحياة، والحياة تقابل الموت، والوجود يقابل العدم، والصحة تقابل المرض، وهكذا، أما «الملَكة» فمعناها: الاتصال بشيءٍ من ذلك، يعني: اتصال بسمعٍ... أي: قبوله كونَه يقبل هذا الاتصال، فهم يجعلون الله غير قابلٍ للسمع والبصر وغيرها، ويقولون: «الملَكة» حتى لا يُفهم ذلك؛ لأن «الملَكة» عندهم هي صفة راسخة في النفس، فإنه إذا حصل للنفس هيئة بسبب فعل من الأفعال، فيقال لتلك الهيئة كيفية نفسية، وتسمى «حالة» ما دامت سريعة الزوال فإذا رسخت سميت «الملَكة».

ونحن في غنى عن هذه التُرَّهات وهذا الكلام الباطل.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿«وَأَمَّا مَا ذَكَرْته مِنْ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ، وَالْعِلْمِ وَالْجَهْلِ؛ فَهَذَا اصْطِلَاحٌ اصْطَلَحَتْ عَلَيْهِ الْمُتَفَلْسِفَةُ الْمَشَّاؤونَ، وَالِاصْطِلَاحَاتُ اللَّفْظِيَّةُ لَيْسَتْ دَلِيلًا عَلَى نَفْيِ الْحَقَائِقِ الْعَقْلِيَّةِ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ [النحل: ٢٠ ـ ٢١]، فَسَمَّى الْجَمَادَ مَيِّتًا وَهَذَا مَشْهُورٌ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ».

الشرح

يعني: سمى هذه التي لا تملك شيئًا، لا سمعًا ولا بصرًا ولا علمًا أنها أموات، مثل: الشجر أو القبر وما أشبه ذلك، فهي لا تردُّ جوابًا ولا تسمع، ولا تنفع ولا تضر، فهي موات بذلك.

وأما المشَّاؤون: فهم جماعةٌ من المتفلسفة الذي يتعلَّمون وهم يمشون، يعني: يدورون وهم يتعلمون، مِن فلاسفة اليونان الذي يقولون: إنهم مُحبو الحكمة، وهم قبل الميلاد بزمنٍ طويل ـ أكثر من أربعمائة سنة ـ، ولا يعرفون دينًا ولا يعرفون رسولًا، وإنما علمهم بالنظر لهذه المخلوقات. ولهذا يُنكرون وجود الله، وينكرون الجنة والنار، بل ينكرون البعث وينكرون العالم الأخروي ويقولون: «إن العالم لم يزل هكذا ولن يزول، سيبقى دائمًا كذلك»، وهم يقولون بقِدَم العالم وبدوامه، والعالم المقصود به هذه الموجودات من السماء والأرض والأفلاك، وغيرها.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَقِيلَ لَك، ثَانِيًا: فَمَا لَا يَقْبَلُ الِاتِّصَافَ بِالْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ، وَالْعَمَى وَالْبَصَرِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ الْمُتَقَابِلَاتِ أَنْقَصُ مِمَّا يَقْبَلُ ذَلِكَ ـ فَالْأَعْمَى الَّذِي يَقْبَلُ الِاتِّصَافَ بِالْبَصَرِ أَكْمَلُ مِنْ الْجَمَادِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ وَاحِدًا مِنْهُمَا، فَأَنْتَ فَرَرْت مِنْ تَشْبِيهِهِ بِالْحَيَوَانَاتِ الْقَابِلَةِ لِصِفَاتِ الْكَمَالِ، وَوَصَفْته بِصِفَاتِ الْجَمَادَاتِ الَّتِي لَا تَقْبَلُ ذَلِكَ».

الشرح

لا يجرؤ عاقلٌ أن يقول ذلك فيما هو أظهر من كل شيء، وأكبر من كل شيء، رب العالمين ﷻ كيف يقال: أنه لا يقبل الاتصاف بالصفات؟! وما كان ذلك إلا لبُعدهم عن كلام الله وكلام رسوله؛ فهم لا يريدون أن يعرفوا ربهم بما تعرَّف به إلى عباده ـ تعالى وتقدس ـ، مع أنَّ معرفته ﷻ فطريَّةٌ.

فالموجودات التي تُحيط بهم، بل أنفسهم تدل على الله ﷻ، وأنه بكل شيءٍ عليم، وعلى كل شيءٍ قدير، وأنه المُتصرِّف في الكون كُلِّه؛ فلو كانوا يريدون الحق فهذا ظاهرٌ، ولا يخفى على أحد، ولهذا يذكرون عن بعض الأعراب الذين لا يعرفون علمًا ولا درسوا دراسةً نظرية أو عقلية، قيل لأحدهم: كيف عرفت ربك؟ قال: وهل يخفى رب العالمين؟! ثم قال: سماءٌ ذات أبراج، وأرضٌ ذات فجاج، وبحارٌ ذات أمواج، ألا تدل على الحكيم الخبير؛ فإن الأثر يدل على المسير، والبعرة تدلُّ على البعير.

فالله له الكمال المُطلق في جميع ما يتصف به ﷻ، ولكن هؤلاء المجادلين يجعلون المخلوقات هي الأصل ثم يقولون: «إن هذه المخلوقات يلزم عليها كذا وكذا»، ثم ينفونها! وقد علم الخلق أنهم كفرةٌ، فصاروا يأتون بهذه الأمور التي قد لا يُدركها السامع ويظنها، لكثرة ما فيها من الغموض والبُعد أنها تنزيه، وفي الحقيقة هي تعطيل لله ﷻ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿«وَأَيْضًا فَمَا لَا يَقْبَلُ الْوُجُودَ وَالْعَدَمَ: أَعْظَمُ امْتِنَاعًا مِنَ الْقَابِلِ لِلْوُجُودِ وَالْعَدَمِ؛ بَلْ وَمِنْ اجْتِمَاعِ الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ، وَنَفْيِهِمَا جَمِيعًا، فَمَا نَفَيْت عَنْهُ قَبُول الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ، كَانَ أَعْظَمَ امْتِنَاعًا مِمَّا نَفَيْت عَنْهُ الْوُجُودَ وَالْعَدَمَ، وَإِذَا كَانَ هَذَا مُمْتَنِعًا فِي صَرَائِحِ الْعُقُولِ فَذَلِكَ أَعْظَمُ امْتِنَاعًا؛ فَجَعَلْت الْوُجُودَ الْوَاجِبَ الَّذِي لَا يَقْبَلُ الْعَدَمَ هُوَ أَعْظَمُ الْمُمْتَنِعَاتِ، وَهَذَا غَايَةُ التَّنَاقُضِ وَالْفَسَادِ».

الشَّرح

قوله: «فَجَعَلْت الْوُجُودَ الْوَاجِبَ الَّذِي لَا يَقْبَلُ الْعَدَمَ»، معنى «واجب الوجود»: أنه الغني بذاته عن كلِّ ما سواه، الذي لا يحتاج إلى غيره، وهذا لا يكون إلا الله ﷻ، وهو الذي خلق المخلوقات بلا حاجةً إليها، وبلا تعبٍ ولا إعياء، بل يقول لها كوني فتكون كما أراد ﷻ، ولكن هؤلاء أكفر من الكُفَّار الذين يردون دعوة الرُسل، بل أكفر من إبليس، ولكن مجادلتهم ليست من أجلهم، بل من أجل من اغتر بهم.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَهَؤُلَاءِ الْبَاطِنِيَّةُ مِنْهُمْ مَنْ يُصَرِّحُ بِرَفْعِ النَّقِيضَيْنِ: الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ؛ وَرَفْعُهُمَا كَجَمْعِهِمَا، وَمَنْهم يَقُولُ: لَا أُثْبِتُ وَاحِدًا مِنْهُمَا، وامْتِنَاعُهُ عَنْ إِثْبَاتِ أَحَدِهِمَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ؛ لَا يَمْنَعُ تَحَقُّقَ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَإِنَّمَا هُوَ كَجَهْلِ الْجَاهِلِ وَسُكُوتِ السَّاكِتِ الَّذِي لَا يُعَبِّرُ عَنِ الْحَقَائِقِ».

الشرح

يعني: ما يوجد نهار وليل، ولا حر وبر، ونحو ذلك، ومثل هؤلاء لا ينطبق عليهم الفعل فلا يستحقون المخاطبة، وعكسهم كذلك، ولكن كل هذا يدل على أن غالبهم في الكفر والعناد، فيكون الأولى مخاطبتهم بالسيف.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَإِذَا كَانَ مَا لَا يَقْبَلُ الْوُجُودَ وَلَا الْعَدَمَ أَعْظَمَ امْتِنَاعًا مِمَّا يُقَدَّرُ قَبُولُهُ لَهُمَا ـ مَعَ نَفْيِهِمَا عَنْهُ ـ فَمَا يُقَدَّرُ لَا يَقْبَلُ الْحَيَاةَ وَلَا الْمَوْتَ، وَلَا الْعِلْمَ وَلَا الْجَهْلَ، وَلَا الْقُدْرَةَ وَلَا الْعَجْزَ، وَلَا الْكَلَامَ وَلَا الْخَرَسَ، وَلَا الْعَمَى وَلَا الْبَصَرَ، وَلَا السَّمْعَ وَلَا الصَّمَمَ: أَقْرَبُ إِلَى الْمَعْدُومِ والْمُمْتَنِعِ مِمَّا يُقَدَّرُ قَابِلًا لَهُمَا ـ مَعَ نَفْيِهِمَا عَنْهُ ـ.

وَحِينَئِذٍ فَنَفْيُهُمَا مَعَ كَوْنِهِ قَابِلًا لَهُمَا أَقْرَبُ إِلَى الْوُجُودِ وَالْمُمْكِنِ، وَمَا جَازَ لِوَاجِبِ الْوُجُودِ ـ قَابِلًا ـ وَجَبَ لَهُ؛ لِعَدَمِ تَوَقُّفِ صِفَاتِهِ عَلَى غَيْرِهِ؛ فَإِذَا جَازَ الْقَبُولُ وَجَبَ؛ وَإِذَا جَازَ وُجُودُ الْقَبُولِ وَجَبَ.

وَقَدْ بُسِطَ هَذَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ وَبُيِّنَ وُجُوبُ اتِّصَافِهِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ الَّتِي لَا نَقْصَ فِيهَا بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ.

وَقِيلَ لَهُ أَيْضًا: اتِّفَاقُ الْمُسَمَّيَيْنِ فِي بَعْضِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ: لَيْسَ هُوَ التَّشْبِيهَ وَالتَّمْثِيلَ، الَّذِي نَفَتْهُ الْأَدِلَّةُ السَّمْعِيَّاتُ وَالْعَقْلِيَّاتُ، وَإِنَّمَا نَفَتْ مَا يَسْتَلْزِمُ اشْتِرَاكَهُمَا فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِ الْخَالِقُ، مِمَّا يَخْتَصُّ بِوُجُوبِهِ أَوْ جَوَازِهِ أَوْ امْتِنَاعِهِ؛ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَشْرَكَهُ فِيهِ مَخْلُوقٌ، وَلَا يَشْرَكَهُ مَخْلُوقٌ فِي شَيْءٍ مِنْ خَصَائِصِهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ».

الشرح

تعللهم بالتشبيه غير صحيح، بل هم أصحاب عناد وكفر متناهي، وقد أخبر الله تعالى بأنه أنزل الكتاب والحديد؛ لأن الكتاب لمن يقبل الخطاب ويعي الكلام، والحديد لمثل هؤلاء الذين لا يقبلون خطابًا ولا يعون كتابًا.

وقد تقدم الكلام؛ أن الله سمى نفسه بأسماء وسمى بعض مخلوقاته بأسماء، وأنه لا اشتراك بينهما في المعنى الذي يخُصُّ أحدهما.

قال رحمه الله تعالى:

❁ «وَأَمَّا مَا نَفَيْته فَهُوَ ثَابِتٌ بِالشَّرْعِ وَالْعَقْلِ، وَتَسْمِيَتُك ذَلِكَ تَشْبِيهًا وَتَجْسِيمًا تَمْوِيهًا عَلَى الْجُهَّالِ، الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّ كُلَّ مَعْنًى سَمَّاهُ مُسَمٍّ بِهَذَا الِاسْمِ يَجِبُ نَفْيُهُ؛ وَلَوْ سَاغَ هَذَا لَكَانَ كُلُّ مُبْطِلٍ يُسَمِّي الْحَقَّ بِأَسْمَاءٍ يُنْفِرُ عَنْهَا بَعْضَ النَّاسِ؛ لِيُكَذِّبَ النَّاسُ بِالْحَقِّ الْمَعْلُومِ بِالسَّمْعِ وَالْعَقْلِ.

❁ وَبِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ: أَفْسَدَتْ الْمَلَاحِدَةُ عَلَى طَوَائِفِ من النَّاسِ عقولهمْ وَدِينَهُمْ، حَتَّى أَخْرَجُوهُمْ إلَى أَعْظَمِ الْكُفْرِ وَالْجَهَالَةِ، وَأَبْلَغِ الْغَيِّ وَالضَّلَالَةِ».

الشَّرح

وهم هذا مرادُهم بهذه المُجادلات، وهذه المُهاترات يريدون أن يُخرجوا من يستطيعون إخراجه من الدين الإسلامي، ومعلومٌ أن الأساس في هذا الاعتقاد في ربِّ العالمين؛ فإذا فسدت العقيدةُ في الله ﷻ فسد كل شيء، وأصبح الإنسان لا يعرف الحق من الباطل، بل تنعكس الأمور لديه، وهذا الذي دعا المؤلف إلى مجادلة هؤلاء وبيان ضلالهم بهذه الطريقة.

❁ ❁ ❁

قال رحمه الله تعالى:

«وَإِنْ قَالَ نُفاة الصِّفَاتِ: إِثْبَاتُ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ يسْتَلْزِمُ تَعَدُّدَ الصِّفَاتِ وَهَذَا تَرْكِيبٌ مُمْتَنِعٌ.

قِيلَ: وَإِذَا قُلْتُمْ: هُوَ مَوْجُودٌ وَاجِبٌ، وَعَقْلٌ وَعَاقِلٌ وَمَعْقُولٌ، وَعَاشِقٌ وَمَعْشُوقٌ، وَلَذِيذٌ وَمُلْتَذٌّ وَلَذَّةٌ، أَفَلَيْسَ الْمَفْهُومُ مِنْ هَذَا هُوَ الْمَفْهُومُ مِنْ هَذَا؟ فَهَذِهِ مَعَانٍ مُتَعَدِّدَةٌ مُتَغَايِرَةٌ فِي الْعَقْلِ وَهَذَا تَرْكِيبٌ عِنْدَكُمْ، وَأَنْتُمْ تُثْبِتُونَهُ وَتُسَمُّونَهُ تَوْحِيدًا».

الشرح

يعني: أنهم يصفون الله ﷻ بهذا فيقولون: «**عَقْلٌ وَعَاقِلٌ وَمَعْقُولٌ، وَعَاشِقٌ وَمَعْشُوقٌ، وَلَذِيذٌ وَمُلْتَذٌّ وَلَذَّةٌ... إلى آخره**»، ويعدلون عما جاء في كتاب الله وسنة رسوله، وكل هذا دليلٌ على كفرهم، وعلى بُعدهم عن الحقِّ، وأنهم لا يريدون معرفة الحق، وإنما يريدون إفساد الحق، وإفساد العقول بذلك، وهذا لا يقولونه إلا لمن يثقون به، ولمن يستمع إلى كلامهم، أما المُسلم الذي هداه الله ﷻ إلى معرفته بما تعرف به؛ فإنه لا يقبل ذلك، وينفرُ عنه أشد النفر، وهؤلاء هم الفلاسفة، الذين يعظمهم بعض الناس، فهم أكفر من الشيطان!.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَإِنْ قَالُوا: هَذَا تَوْحِيدٌ فِي الْحَقِيقَةِ وَلَيْسَ هَذَا تَرْكِيبًا مُمْتَنِعًا. قِيلَ لَهُمْ: وَاتِّصَافُ الذَّاتِ بِالصِّفَاتِ اللَّازِمَةِ لَهَا تَوْحِيدٌ فِي الْحَقِيقَةِ؛ وَلَيْسَ هُوَ تَرْكِيبًا مُمْتَنِعًا.

وَذَلِكَ أَنَّهُ مِنَ الْمَعْلُومِ بِصَرِيحِ الْمَعْقُولِ أَنَّهُ لَيْسَ مَعْنَى كَوْنِ الشَّيْءِ عَالِمًا هُوَ مَعْنَى كَوْنِهِ قَادِرًا، وَلَا نَفْسُ ذَاتِهِ هُوَ نَفْسُ كَوْنِهِ عَالِمًا قَادِرًا؛ فَمَنْ جَوَّزَ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الصِّفَةُ هِيَ الأخرى، وأن تكون الصفة هي الْمَوْصُوفَ فَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ سَفْسَطَةً.

ثُمَّ إِنَّهُ مُتَنَاقِضٌ، فَإِنَّهُ إِنْ جَوَّزَ ذَلِكَ جَازَ أَنْ يَكُونَ وُجُودُ هَذَا هُوَ وُجُودَ هَذَا فَيَكُونُ الْوُجُودُ وَاحِدًا بِالْعَيْنِ لَا بِالنَّوْعِ.

وَحِينَئِذٍ فَإِذَا كَانَ وُجُودُ الْمُمْكِنِ هُوَ وُجُودَ الْوَاجِبِ؛ كَانَ وُجُودُ مَخْلُوقٍ ـ يُعْدَمُ بِعَدَمِ وُجُودِهِ، وَيُوجَدُ بَعْدَ عَدَمِهِ ـ هُوَ نَفْسُ وُجُودِ الْحَقِّ الْقَدِيمِ الدَّائِمِ، الْبَاقِي الَّذِي لَا يَقْبَلُ الْعَدَمَ.

وَإِذَا قُدِّرَ هَذَا، كَانَ الْوُجُودُ الْوَاجِبُ مَوْصُوفًا بِكُلِّ تَشْبِيهٍ وَتَجْسِيمٍ، وَكُلِّ نَقْصٍ وَكُلِّ عَيْبٍ؛ كَمَا يُصَرِّحُ بِذَلِكَ أَهْلُ وَحْدَةِ الْوُجُودِ، الَّذِينَ طَرَدُوا هَذَا الْأَصْلَ الْفَاسِدَ، وَحِينَئِذٍ فَتَكُونُ أَقْوَالُ نُفَاةِ الصِّفَاتِ بَاطِلَةً عَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ».

الشَّرح

السَّفْسَطَةُ: هي التمويه والخداع والمغالطة، ويقولون: إنها كلمة يونانية، مركبة، معناها: حكمة مموهة[1].

المقصود: التقديرات التي يُمكن أن يتصورها العقل، كلُّها تبطل هذا القول

---

(١) ينظر: تاج العروس (١٩/ ٣٥٣)، والمعجم الوسيط (ص٤٣٣).

ويتبين بها أنه تمويه وتضليل يُراد به هدم الإسلام، وأما الذين طردوا ذلك، وقالوا بوحدة الوجود، أي: أنهم قالوا: «إن الله هذه المخلوقات المُشاهدة، لا يوجد خلقٌ وخالق ومخلوق، كلهم خالقون، الخالق هو المخلوق والمخلوق هو الخالق»؛ فهؤلاء هم الذين يسمون أصحاب وحدة الوجود؛ أن الوجود واحد.

وهذا غاية الكُفر، ليس وراء هذا الكفر كفرٌ، فكُفْر النصارى أقل من هذا بكثير.

❊ ❊ ❊

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «وَهَذَا بَابٌ مُطَّرِدٌ، فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ النفاة لِمَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ مِنْ الصِّفَاتِ لَا يَنْفِي شَيْئًا - فِرَارًا مِمَّا هُوَ مَحْذُورٌ - إِلَّا وَقَدْ أَثْبَتَ مَا يَلْزَمُهُ فِيهِ نَظِيرُ مَا فَرَّ مِنْهُ، فَلَا بُدَّ فِي آخِرِ الْأَمْرِ مِنْ أَنْ يُثْبِتَ مَوْجُودًا وَاجِبًا قَدِيمًا مُتَّصِفًا بِصِفَاتٍ تُمَيِّزُهُ عَنْ غَيْرِهِ، وَلَا يَكُونُ فِيهَا مُمَاثِلًا لِخَلْقِهِ، فَيُقَالُ لَهُ: هَكَذَا الْقَوْلُ فِي جَمْعِ الصِّفَاتِ، وَكُلُّ مَا نُثْبِتُهُ مِنْ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ: فَلَا بُدَّ أَنْ يَدُلَّ عَلَى قَدْرٍ مشترك تَوَاطَأُ فِيهِ الْمُسَمَّيَاتُ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا فُهِمَ الْخِطَابُ؛ وَلَكِنْ نَعْلَمُ أَنَّ مَا اخْتَصَّ اللهُ بِهِ، وَامْتَازَ عَنْ خَلْقِهِ أَعْظَمُ مِمَّا يَخْطِرُ بِالْبَالِ أَوْ يَدُورُ فِي الْخَيَالِ».

الشَّرح

التواطؤ والاشتراك يكون في الأسماء. فعلى سبيل المثال: الأمور المُشكَّكة والتي يقولون عنها: مُشككة ومتواطئة؛ أي: أنها يُشك فيها أن هذا هو ذاك، وتتواطأ مع غيرها في الاسم لا في المعنى، والمعنى يكون بينهما مُشتركًا، غير أنه يتميز هذا عن ذاك، كما إذا قلت: البائع (باعَه، أو ابتاعه)؛ فهذا يُطلق على البائع وعلى المُشتري كما قال الله ﷻ في قصة يوسف: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ﴾ [يوسف: ٢٠]، اشتروه يعني: باعوه.

كذلك إذا قلت: «المُشتري»، فيُطلق على الذي يعتاض نقودًا بسلعة، ويُطلق على النجم الذي يسمى «مُشتري»؛ فهذه تسمى مُشككة.

وعلى كل حال: لا نحتاج لمثل هذه الأمور؛ لأنها أمورٌ لا تُعطي لا إيمانًا ولا علمًا، وإنما هي أمورٌ فيها من التعب ومن إتعاب الذهن والعقل ما لا فائدة من وراء ذلك، والعلم والخير والفضل والإيمان فيما قاله الله وقاله رسوله ﷺ، ويغني عن كلِّ ما يقوله المتكلمون؛ غيرَ أن أهل الباطل لا بُدَّ من بيان باطلِهم حتى لا يغترَّ به مغترٌّ.

قال رحمه الله تعالى:

«وهذا يتبيَّن بالأصل الثاني؛ وهو أن يقال: القول في الصفات كالقول في الذات؛ فإن الله ليس كمثله شيءٌ، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فإذا كان له ذاتٌ حقيقةٌ لا تماثل الذوات، فالذات متصفةٌ بصفات حقيقة لا تماثل صفات سائر الذوات».

الشَّرح

الأصل الأول: الذي بيَّن أن صفات الله ﷻ تخصُّه وصفات المخلوق تخصُّه كذلك.

والأصل الثاني: إن القول في الصفات يتبع القول في الذات، والذات هنا سواء كان الموصوف هو رب العالمين أو مخلوقًا من المخلوقات.

يعني: هذا بيانٌ لقاعدة الفصل السابق فقط، وإلَّا فهو داخلٌ فيه؛ لأن الصفات التي تتبع الموصوف تليق به، فإن كان ضعيفًا فهي تليق بضعفه، وإن كان هو الغني بذاته عن كل ما سواه فصفاته كذلك تناسبه وتليق به، فهذا أصلٌ يجب أن يُحتذى، وهو مأخوذٌ من آيات الصفات.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «فَإِذَا قَالَ السَّائِلُ: كَيْفَ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ؟ قِيلَ لَهُ ـ كَمَا قَالَ رَبِيعَةُ وَمَالِكٌ وَغَيْرُهُمَا ـ: الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ، وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنِ الْكَيْفِيَّةِ بِدْعَةٌ، لِأَنَّهُ سُؤَالٌ عَمَّا لَا يَعْلَمُهُ الْبَشَرُ، وَلَا يُمْكِنُهُمُ الْإِجَابَةُ عَنْهُ».

الشَّرح

سبق الأصل الأول أن ما يخصُّ الله ﷻ لا يكون المخلوق مشاركًا فيه رب العالمين، وكذلك ما يخُصُ المخلوق فلا يكون الله تعالى مشاركًا المخلوق فيه.

وفي هذا الأصل الثاني يبين أن الاسم والصفة تتبع المُسمى والموصوف؛ فإذا كان الموصوف لا شبيه له ولا نظير، فيجب أن تكون صفتُهُ واسمه كذلك يليقان به ﷻ.

ثم المخلوقُ قد أُحيط به وعُلم أنه ضعيف، وأنه ليس له من الصفة إلا ما تليق به، فذكر جواب الإمام مالكٍ وكذلك شيخه ربيعة، ورُوِي أيضًا عن أم سلمة ﵂ في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، قالت: «**الكيف غير معقول، والاستواء غيرُ مجهول، والإقرار به إيمان، والجحود به كفرٌ**».

قوله: «فَإِذَا قَالَ السَّائِلُ: كَيْفَ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ؟».

نقول: كيف هو؟ فيقول: هذا لا يُعلم، نقول له كذلك: كيفية الصفات لا تُعلم؛ لأنها تبعٌ ـ كما سبق ـ للموصوف.

قوله: «الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ»، يعني: في اللغة وفي المعنى، فمعلوم أنه الاستقرار على الشيء، والارتفاع فوقه، والعلوُّ عليه، والصعود؛ هذا معنى الاستواء، فإذَن: علينا أن نؤمن بالخطاب الذي خوطِبنا على المعنى اللغوي، الذي رُكِّب الكلام عليه، وهو ظاهرٌ؛ ولهذا قال: «**الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ**»، يعني: معناه معلوم، وليس كما يقول بعض الجهمية: معلوم ورودُه بالكتاب! هذا لا يجهله أحدٌ ولا يُسئل عن هذا، وإنما يُسئل عن المعنى القائم بالموصوف، وهذا يتطلب المشاهدة، ولا تمكن.

قوله: «**وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ**». هذا مُطلقٌ في جميع صفات الله ﷻ وأسمائه؛ لأن الكيف هو الحالة التي عليها الموصوف، وهذه تتطلب المُشاهدة والاحاطة، ولا سبيل إليها، فيجب أن يقف الإنسان على المعنى الذي أراده المُتكلِّم منه في هذا، ولا يدخل في الشَّيء الذي مُنع منه وهو الكيف، وهذا يُقال في جميع الصِّفات، إذا قال: كيف يده؟ نقول: اليد معلومةٌ، أي: في اللغة وفي المعنى، والإيمان بها واجب؛ لأن الله ﷻ وصف نفسه بذلك.

فيجب أن يقف الإنسان حيث أوقفه الله ﷻ، وهكذا يُقال في السمع والبصر والكلام وغير ذلك، فهو جوابٌ يكون في جميع الصفات.

فالمقصود: أن هذا يدُلنا على أن الموصوف بصفةٍ تكون صفته مناسبة له ولائقةً به؛ فإن كان رب العالمين؛ فرب العالمين لا نظير له، ولا شبيه له ـ تعالى وتقدس ـ. وإن كان مخلوقًا فالمخلوق يُعلم، ويعُرف حالته لأنه يُشاهد، ولأنه له نوعٌ وله جنسٌ يُرى ويُعلم؛ فيجب أن يُقال هذا في جميع صفات الله ﷻ.

فالكيفية ممنوعة، حتى في بعض المخلوقات كما في الأمور التي ذكرها الله ﷻ في الآخرة؛ فإن كيفيتها مجهولةٌ لنا، ولا نعلمُها حتى نُشاهدها ونراها.

قوله: «**وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ**»؛ لأن الله أخبر به عن نفسه، وأخبر كذلك به رسوله ﷺ فيجب الإيمان به على ما يليق بعظمة الله ﷻ وجلاله، وليس كاستواء المخلوق.

والله ذكر أن المخلوق يستوي على الفُلك، كما قال ﷻ: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [المؤمنون: ٢٨]، وعلى الأنعام كما قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الزخرف: ١٢ ـ ١٣]، ولكنه بحاجةٍ إلى ذلك، إذ لو سقط ما تحته سقطَ هو أيضًا.

أما رب العالمين فهو الغني بذاته عن كل ما سواه، فهو الغنيُّ عن العرش وعن غير العرش، فهو ليس بحاجةٍ إلى ذلك، ولكن خَلَق العرش واستوى عليه لحكمةٍ أرادها ﷻ لا لحاجة.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَكَذَلِكَ إذَا قَالَ: كَيْفَ يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا؟ قِيلَ لَهُ: كَيْفَ هُوَ؟ فَإِذَا قَالَ: أنا لَا أَعْلَمُ كَيْفِيَّتَهُ. قِيلَ لَهُ: وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ كَيْفِيَّةَ نُزُولِهِ، إِذْ الْعِلْمُ بِكَيْفِيَّةِ الصِّفَةِ، يَسْتَلْزِمُ الْعِلْمَ بِكَيْفِيَّةِ الْمَوْصُوفِ، وَهُوَ فَرْعٌ لَهُ، وَتَابِعٌ لَهُ؛ فَكَيْفَ تُطَالِبُنِي بِالْعِلْمِ بِكَيْفِيَّةِ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَتَكْلِيمِهِ وَنُزُولِهِ وَاسْتِوَائِهِ وَأَنْتَ لَا تَعْلَمُ كَيْفِيَّةَ ذَاتِهِ؟!».

الشرح

هذا تفسير لما سبق، وهو نفس الكلام، يعني: أن هذا شيءٌ لا يصل إليه علم البشر ولا قواهم، وذلك ـ كما سبق ـ أن الله ﷻ غائبٌ عن الناس، وهو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، فكيف يُسئل عن الكيفية؟!

والكيفية ـ كما سبق ـ: هي الحالة التي يكون عليها الموصوف؛ فهذه تتطلب المشاهدة، وإذا لم تكن مشاهَدةً فأقل ما يُقال: إنه تتطلب أن يكون له مثيلٌ فيُقاس عليه؛ يؤخذ القياس من مثيله فيُقاس عليه، وكلا الأمرين ممتنع في حق الله؛ فإنه لا مثيل له ـ تعالى وتقدس ـ ولا أحد يشاهده.

فإذَن: هذا ليس من قوى البشر، ليس من قوى الخلق كلهم؛ فهو ممتنع، وليس المقصود أنه لا كيفية لصفته ولا كيفية لذاته، ولكن المقصود: نفيُ علم الخلق بذلك.

وهؤلاء يقولون: «إن النزول وكذلك غيرُه من الأفعال بل ومن صفات الذات»، يجعلونها كما يعرفونه بأنفسهم. لكنهم لا يجرؤون على النطق بذلك؛ لأنهم لو نطقوا بهذا لعلم الناس كُفرهم، ولكن هذا مستكنٌّ في أنفسهم. فلهذا صاروا يحرفون الكلام، بل يُعطلونه عن المعاني التي أُريد بها، فيُصبح المعنى الذي يقولونه لا حقيقة له ـ كما سبق ـ.

فهم في الواقع لا يُثبتون شيئًا؛ غير أنهم لا يجرؤون على التصريح بالتعطيل، ولا يجرؤون بالتصريح على التشبيه أوَّلًا، ولهذا يقول العلماء: «كل معطلٍ مُشبه»، ولا بُدَّ؛ لأنه شبَّه أوَّلًا، ثم عطَّل ثانيًا»، وهكذا كل من انحرف عما أراده الله ﷻ وقاله رسوله ﷺ؛ فهو يخوض في الباطل ولا بُدّ.

قال رحمه الله تعالى:

«وَإِذَا كُنْت تُقِرُّ بِأَنَّ لَهُ ذاتًا حَقِيقَةً ثَابِتَةً فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، مُسْتَوْجِبَةً لِصِفَاتِ الْكَمَالِ لَا يُمَاثِلُهَا شَيْءٌ، فَسَمْعُهُ وَبَصَرُهُ، وَكَلَامُهُ وَنُزُولُهُ وَاسْتِوَاؤُهُ ثَابِتٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَهُوَ مُتَّصِفٌ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ الَّتِي لَا يُشَابِهُهُ فِيهَا سَمْعُ الْمَخْلُوقِينَ وَبَصَرُهُمْ، وَكَلَامُهُمْ وَنُزُولُهُمْ وَاسْتِوَاؤُهُمْ».

الشَّرح

يعني؛ لأنه لا يُشبه أحدًا من خلقه؛ كما قال الله ﷻ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾، وهذا ليس في الذات فقط، وإنما هو في كل ما له يخُصه؛ فكل ما له من الأسماء والصفات فهي خصائص تليق بعظمته لا يشاركه فيها غيرُه ﷻ.

ومن الضلال البيِّن أن يتوهَّم الإنسانُ أنَّ أسماء الله كأسماء المخلوقين أو صفاته كصفات المخلوقين أو أنه لا يفهم منها إلا ما يفهم من نفسه؛ فإن هذا ضلالٌ واضح، وعدولٌ عن الحق الذي أخبر الله ﷻ به عن نفسه وجاءت به كُتبه، وأجمعت عليه الأمم التي اهتدت بما جاءت به الرُسل.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَهَذَا الْكَلَامُ لَازِمٌ لَهُمْ فِي الْعَقْلِيَّاتِ وَفِي تَأْوِيلِ السَّمْعِيَّاتِ: فَإِنَّ مَنْ أَثْبَتَ شَيْئًا، وَنَفَى شَيْئًا بِالْعَقْلِ، إِذَا أُلْزِمَ فِيمَا نَفَاهُ مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ نَظِيرَ مَا يَلْزَمُهُ فِيمَا أَثْبَتَهُ، وطُولِبَ بِالْفَرْقِ بَيْنَ الْمَحْذُورِ فِي هَذَا وَهَذَا؛ لَمْ يَجِدْ بَيْنَهُمَا فَرْقًا».

الشَّرح

قوله: «لَازِمٌ لَهُمْ فِي الْعَقْلِيَّاتِ»، يعني: كما تقول المعتزلة: إنهم لا يقرُّون إلا بما دلَّت عليه العقول، أمَّا التأويل في السمعيات فمسلك المعتزلة في بعض الأشياء؛ وكذلك سلكه الأشاعرة؛ فهم إذا أوَّلوا شيئًا وأثبتوا شيئًا يُقال لهم: لماذا أوَّلتم هذا وأثبتُّم ذاك؟! فإن المعنى واحدٌ والموصوف واحدٌ، وهذا تناقض ـ كما سبق ـ!

أما العقل: فالعقل سبق أنه لا يستقل بشيء من صفات الله ﷻ وأسمائه والأمور الغائبة، وإنما العقل يقيس الغائب بالحاضر، وهذا لا سبيل إليه في صفات الله ﷻ.

مقصودُه بالعقليات ـ كما سبق ـ أن الموصوف بصفةٍ يلزم أن تكون صفته تليق به وتُناسبهُ. وما ذكر بعد ذلك مما سبق هي أمثلة على هذا، والعقل يجب أن يكون تابعًا للسمع، ولا سيما في الأمور الغيبية والأمور التي ليس لها شبيهٌ عندنا ولا مثيل؛ فلا بُدَّ أن نقف فيها على ما أُخبرنا به ونقتنع بهذا، وإلا يكون الإنسان وقع في الحيرة أو في الضلال ولا بُدَّ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَلِهَذَا لَا يُوجَدُ لنفاة بَعْضِ الصِّفَاتِ دُونَ بَعْضٍ - الَّذِينَ يُوجِبُونَ فِيمَا نَفَوْهُ: إِمَّا التَّفْوِيضَ، وَإِمَّا التَّأْوِيلَ الْمُخَالِفَ لِمُقْتَضَى اللَّفْظِ - قَانُونٌ مُسْتَقِيمٌ.

فَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: لِمَ تَأَوَّلْتُمْ هَذَا وَأَقْرَرْتُمْ هَذَا، وَالسُّؤَالُ فِيهِمَا وَاحِدٌ؟ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَوَابٌ صَحِيحٌ فَهَذَا تَنَاقُضُهُمْ فِي النَّفْيِ».

الشرح

يقصد بذلك الأشاعرة الذين أثبتوا سبع صفات، ثم أوجبوا تأويل البقية أو تفويضه؛ أما التأويل فذكرنا أنواعه، وقلنا: إنها نوعان، أما النوع الثالث الذي قالوا به؛ فهو نوعٌ مُبتدع لا يعرفُه السلف ولا يعرف في كلام العرب، وهو: «صرف اللفظ عن معناه الذي يتبادر من اللفظ إلى معنًى لا يدُل عليه لفظه إلا بدليلٍ آخر».

أما التفويض فهو أشرُّ من التأويل، والتفويض عندهم: «كلامٌ غير مفهوم، ولا أحد يستطيع أن يفهم منه شيئًا»، وكفى بهذا ضلالًا بينًا؛ ولهذا أبطل مذهبهم كل من خالفهم حتى من المتكلمين مثل المعتزلة.

والأمور الغائبة - كما سبق - إذا لم يكن لها مثيلٌ في الشاهد الحاضر فلا يصل العقل إلى شيء.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَكَذَلك تَنَاقُضُهُمْ فِي الْإِثْبَاتِ؛ فَإِنَّ مَنْ تَأَوَّلَ النُّصُوصَ عَلَى مَعْنًى مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي يُثْبِتُهَا، فَإِنَّهُمْ إِذَا صَرَفُوا النَّصَّ عَنِ الْمَعْنَى الَّذِي هُوَ مُقْتَضَاهُ إِلَى مَعْنًى آخَرَ، لَزِمَهُمْ فِي الْمَعْنَى الْمَصْرُوفِ إِلَيْهِ مَا كَانَ يَلْزَمُهُمْ فِي الْمَعْنَى الْمَصْرُوفِ عَنْهُ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: تَأْوِيلُ مَحَبَّتِهِ وَرِضَاهُ وَغَضَبِهِ وَسَخَطِهِ؛ هُوَ إِرَادَتُهُ لِلثَّوَابِ وَالْعِقَابِ؛ كَانَ مَا يَلْزَمُهُ فِي الْإِرَادَةِ نَظِيرَ مَا يَلْزَمُهُ فِي الْحُبِّ وَالْمَقْتِ وَالرِّضَا وَالسَّخَطِ.

وَلَوْ فَسَّرَ ذَلِكَ بِمَفْعُولَاتِهِ ـ وَهُوَ مَا يَخْلُقُهُ مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ ـ فَإِنَّهُ يَلْزَمُهُ فِي ذَلِكَ نَظِيرُ مَا فَرَّ مِنْهُ، فَإِنَّ الْفِعْلَ المعقول لَا بُدَّ أَنْ يَقُومَ أَوَّلًا بِالْفَاعِلِ، وَالثَّوَابُ وَالْعِقَابُ الْمَفْعُولُ إِنَّمَا يَكُونُ عَلَى فِعْلِ مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَيَسْخَطُهُ وَيُبْغِضُهُ الْمُثِيبُ الْمُعَاقِبُ؛ فَهُمْ إِنْ أَثْبَتُوا الْفِعْلَ عَلَى مِثْلِ الْوَجْهِ الْمَعْقُولِ فِي الشَّاهِدِ لِلْعَبْدِ مَثَّلُوا، وَإِنْ أَثْبَتُوهُ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ فَكَذَلِكَ سائر الصِّفَاتُ».

الشَّرْح

قوله: «**فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: تَأْوِيلُ مَحَبَّتِهِ وَرِضَاهُ وَغَضَبِهِ وَسَخَطِهِ: هُوَ إِرَادَتُهُ لِلثَّوَابِ وَالْعِقَابِ..**». يعني: هذا بيانٌ لتناقضهم في التأويل؛ فهم إذا تأوّلوا مثلًا: الرحمة بالثواب أو بإرادة الثواب ـ إما هذا أو هذا ـ فيقال لهم: ماذا تقولون بالإرادة؟ هل تؤولونها؟

فإن قالوا: الرحمة هي الثواب.

قيل لهم: الثواب مخلوق، فكيف تجعلون المخلوق صفةً للخالق ﷻ؟! والله هو الخالق المتصرف، والمخلوق غير الخالق؛ لا بد أن يكون منفصلًا عنه وليس هو من صفاته، ولكنه من آثار أفعاله؛ وأفعاله صفة.

فعلى كل حال: لا بُدَّ من إثباتٍ بلا تأويل ولا تحريفٍ ولا تعطيل، وإلا يلزم من ذلك التناقض أو الخروج عمَّا تكلم به المتكلِّم، أي: ألَّا يعمل بكلامه.

قوله: «**وَلَوْ فَسَّرَ ذَلِكَ بِمَفْعُولَاتِهِ وَهُوَ مَا يَخْلُقُهُ مِنْ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ...**». يقصد بهذا الرد على هؤلاء المتناقضين؛ فإنهم إذا قالوا مثلًا: لا يجوز أن نصف الله ﷻ بالمحبة؛ لأن المحبة تدل على الميل للمحبوب، والميل يدل على الحاجة.

فنقول:

أوَّلًا: هذا التفسير هو تفسيرُ محبَّة المخلوق، ومحبَّةُ الله ﷻ تليق بعظمته وجلاله، وأنتم شبَّهتم محبة الله بمحبة المخلوق فوقعتم في التشبيه.

الثاني: إن قولكم هذا يلزمكم فيما أثبتّموه من «الإرادة»؛ فالإرادة نقول لكم فيها مثل ما قلتم في المحبة، فإنَّ «الإرادة»: هي الميل إلى المُراد، والميل ـ مثل ما تقولون ـ فيه حاجةٌ أو فيه مُناسبةٌ، وهكذا يُقال في جميع ما أثبتوه.

والتناقض والباطل لا يخفى على من عنده عقل، أو من كان عنده علم، ولكن التعلق بالمذاهب وتعظيم أصحابها يُعمي العقول والأبصار. وإذا عمي الإنسان عن الحق؛ فإنه لا حيلة فيه إلا أن يرفع يديه إلى ربه ليهديه كما هدى من شاء من عباده؛ غيرَ أن سُنَّة الله ﷻ في خلقه: أن الإنسان إذا رد الحقَّ قصدًا أنه لا يهتدي؛ لأن الله يزيده ضلالًا، ولهذا إذا جادلتَهم في مثل هذه الأمور لا يزدادوا إلا بُعدًا في الضلال وإيغالًا فيه، وكراهيةً للحقِّ وابتعادًا عنه.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

فَصْلٌ

«وَأَمَّا الْمَثَلَانِ الْمَضْرُوبَانِ:

فَإِنَّ اللهَ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ أَخْبَرَنَا عَمَّا فِي الْجَنَّةِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، مِنْ أَصْنَافِ الْمَطَاعِمِ وَالْمَلَابِسِ والمناكح وَالْمَسَاكِنِ؛ فَأَخْبَرَنَا: أَنَّ فِيهَا لَبَنًا وَعَسَلًا وَخَمْرًا وَمَاءً وَلَحْمًا وَحَرِيرًا وَذَهَبًا وَفِضَّةً وَفَاكِهَةً وَحُورًا وَقُصُورًا.

وَقَدْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﵄: «لَيْسَ فِي الدُّنْيَا شَيْءٌ مِمَّا فِي الْجَنَّةِ إِلَّا الْأَسْمَاءَ»(١)، فَإِذَا كَانَتْ تِلْكَ الْحَقَائِقُ الَّتِي أَخْبَرَ اللهُ عَنْهَا، هِيَ مُوَافِقَةٌ فِي الْأَسْمَاءِ لِلْحَقَائِقِ الْمَوْجُودَةِ فِي الدُّنْيَا، وَلَيْسَتْ مُمَاثِلَةً لَهَا؛ بَلْ بَيْنَهُمَا مِنَ التَّبَايُنِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ تَعَالَى: فَالْخَالِقُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ أَعْظَمُ مُبَايَنَةً لِلْمَخْلُوقَاتِ مِنْ مُبَايَنَةِ الْمَخْلُوقِ لِلْمَخْلُوقِ، وَمُبَايَنَتُهُ لِمَخْلُوقَاتِهِ: أَعْظَمُ مِنْ مُبَايَنَةِ مَوْجُودِ الْآخِرَةِ لِمَوْجُودِ الدُّنْيَا؛ إِذْ الْمَخْلُوقُ أَقْرَبُ إِلَى الْمَخْلُوقِ الْمُوَافِقِ لَهُ فِي الِاسْمِ مِنْ الْخَالِقِ إِلَى الْمَخْلُوقِ وَهَذَا بَيِّنٌ وَاضِحٌ».

الشَّرح

الذي في الجنة يُدرَك في السمع بأخبار الله ﷻ وأخبار رسوله ﷺ.

وقد أخبر ﷻ أنَّ لبن الجنة وعسلها وخمرها أنه أنهارٌ، قال ﷻ: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد: ١٥].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ٣٩١ ـ ٣٩٢)، والدر المنثور (١/ ٣٨)، والزهد لهناد (١/ ٥١/ ٨) وتفسير ابن كثير» (١/ ٦٤)، وتفسير ابن أبي حاتم (١/ ٦٦) برقم (٢٦٠)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (١/ ١٤٧)، برقم (١٢٤)، والبيهقي في «البعث والنشور» (ص٢١٠) برقم (٣٣٢).

وأن اللبن الذي في الدنيا يخرجُ من بين فرثٍ ودم، هذا في الصفة، أما في الطعم والمنفعة والرائحة والحقيقة فهذا شيءٌ غير مُدرَك، وإنما نعلم أنه سميٌّ لما عندنا، ولولا أن عندنا لبنًا وعسلًا وغير ذلك، ما فهمنا ما خاطبنا الله ﷻ به في ذلك؛ فإذا كانت هذه المُباينة العظيمة بين مخلوقٍ ومخلوق؛ فالمُباينة بين الخالق والمخلوق أعظم.

ومن الضلال كونُ الإنسان يشتبه عليه هذا الأمرُ؛ فإن هذا من أوضح الواضحات وأبينِها.

ولما كان ﷺ في صلاة الكسوف تقدم في صلاته؛ فتقدمت خلفه الصفوف، فرأه الصحابة مد يده ثم قبضها، ثم بعد ذلك رأوه تقهقر، يعني: ذهب خلف؛ فتقهقرت الصفوف خلفه؛ فلما انتهى من الصلاة خطبهم وقال: «**عُرضت عليَّ الجنة والنار دون هذا الحائط**، - يعني: حائط المسجد - **فهممتُ أن آخُذَ من الجنة قطفًا، ثم بدا لي أن لا آخذه، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا**»(١)، والقطف عنقود عنب، فهذا حقيقتُه أنه لا يفنى؛ لأنه من الجنة، لهذا قال: «**لأكلتم منه ما بقيت الدنيا**»، كلما ذهب شيءٌ منه عاد مكانه.

فالجنة غيبٌ أخبر الله ﷻ عباده ليؤمنوا بها وليعملوا ويجتهدوا حتى يكونوا فيها، وإذا كُشف شيءٌ منه زالت الحكمة.

وكذلك الأخبار التي جاءت في النار، فالنار أخبر الله ﷻ أن فيها سلاسل، وفيها مقامع، وفيها أعمدة مؤصدة في الأبواب، فالأبواب مُغلقة ومؤصدةٌ بأعمدة من حديد مُمددة؛ هم لن يخرجوا ولن يستطيعوا، وكل هذا تنكيل بهم في نفوسهم وفي أجسامهم وغير ذلك، ونحن نعرف الأبواب ونعرف أعمدة الحديد، ونعرف المقامع والسلاسل، ولكن ليست كذلك؛ إذا كان مثلًا أحدهم يجر بسلسلة فيها سبعون ذراعًا، هل الإنسان مثلًا يستطيع أن يجر سلسلة ولو ذراعين من تلك السلاسل.

فالمقصود: أن الأمور التي في الآخرة هي مخلوقةٌ لله ﷻ، ومع ذلك لا تُشبه ما عندنا.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الأذان، باب رفع البصر إلى الإمام في الصلاة (١/ ١٥٠) برقم (٧٤٨)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار (٢/ ٦٢٦) برقم (٩٠٧)، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

ولذلك فمن الضلال الواضح أن يشتبه على الإنسان صفات الرب ﷻ وأسماؤه، بصفة المخلوق الصغير الضعيف الذي لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ولا هدى ولا ضلالًا؛ فالله يتصرف فيه إن شاء هداه وإن شاء أضلَّه.

والله تعالى ذكر أن في الجنة أصنافًا من النعيم من لبن وعسل وماء وفواكه، وأشياء غير هذه مما أخبرنا عنها ربنا ﷻ يرغِّبنا فيها، وفيها أمور لا نعلمها، كما قال ﷺ: «**قَالَ اللهُ ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**»[1]، فمجرد الشيء الذي نعرفه أخبرنا عنه بأسماء معلومة عندنا، أما الذي لا نعرفه فقد أُخبرنا أنه لم يسمع عنه مخلوق ولم يره، فالمماثلة بينهما لا وجود لها، وإنما هي مجرد أسماء.

ثم الشيء الذي نُخبَر عنه، لو لم يكن له نظيرٌ عندنا في الاسم أو في المعنى؛ لما عرفناه، فمثلًا لو لم يكن عندنا سمعٌ وبصرٌ؛ لما استطعنا أن نعرف معنى السمع والبصر بالنسبة لله، فالاشتراك الذي يكون بين الخالق والمخلوق إنما يكون في مجرد الاسم، وأما المعنى فيُعرف بعد الإضافة أو التخصيص كما تقدم، فإذا أُضيف إلى رب العالمين زال الاشتراك كليًّا.

فإذا حصل التباين بين المخلوق والمخلوق، فالتباين بين الخالق والمخلوق أبعد في العقل وفي النظر.

وقول ابن عباس ﵄: «**لَيْسَ فِي الدُّنْيَا شَيْءٌ مِمَّا فِي الْجَنَّةِ إِلَّا الْأَسْمَاءَ**»، يعني: أن المعاني والطعوم والألوان والروائح والمنافع وغيرها مما توجد في الدنيا، فالاشتراك في الاسم فقط، أما المعنى فهو مختلف تمامًا عما في الدنيا.

ومع ذلك أهل الجنة يأكلون ويشربون وليس لهم فضلاتٌ، وطعامهم كلُّه منافع وليس فيه مضارٌّ، بخلاف الحال في الدنيا، فهذا هو الاختلاف، ولهذا قال المؤلف: «**فَالْخَالِقُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ أَعْظَمُ مُبَايَنَةً لِلْمَخْلُوقَاتِ مِنْ مُبَايَنَةِ الْمَخْلُوقِ لِلْمَخْلُوقِ**»؛ فإذا كانت الفروق بين المخلوق والمخلوق متباينةً، فالتباين بين الخالق والمخلوق أعظم وأولى. فإذا أخبر ﷻ أن له يدينِ وسمعًا وبصرًا ورحمةً وغضبًا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٤/ ١١٨) برقم (٣٢٤٤)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٤/ ٢١٧٤) برقم (٢٨٢٤)، من حديث أبي هريرة ﵁.

ورضًا؛ فلا يَتصوَّر أنَّ هذا مثل الذي عند المخلوق الضعيف؛ إلا منكوس الفكر الذي لا يعرف الله ﷻ.

ومثل هذه الأمور التي طرأت على هؤلاء المشبهة المعطلة لم تخطر على بال الصحابة ﷺ، ولهذا لا تجد أن واحدًا منهم توقَّف أو سأل: كيف كذا أو كيف كذا؟ ولو أن الإنسان تكلَّف بالبحث في كتب الحديث أو التفسير أو السِّير بصحيحها وضعيفها لما وجد شيئًا من هذا الذي يقوله المعطلة والمشبهة، وإنما وُجد هذا لمَّا اختلطت اللغات والألسن بمن هو موتورٌ في دنياه وملكه أو هو حاقدٌ على المسلمين ودينهم.

ثم ليس كل الناس عندهم العلم الذي يدفع الشبهات، ولا بُدَّ أن يعلق في أذهانهم وقلوبهم ما يثيره شياطين الإنس والجن.

وهذا الذي حدا هؤلاء الذين حرَّفوا كلامَ الله وكلامَ رسولِه ﷺ عما أُرِيدَ به إلى أمورٍ لا تليق بالله تعالى، فظنُّوا أنهم سيقعون في التشبيه إذا تركوا النصوص على ظاهرها؛ وذلك أنهم لم يعرفوا من هذه الصفات إلا ما عرفوا من أنفسهم، ولهذا يُسمون أهلَ الحديث الذين يثبتون الصِّفات على ما جاءت به النصوص؛ مشبِّهةً!، وكل هذا ضلال بيِّن واضحٌ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَلِهَذَا افْتَرَقَ النَّاسُ فِي هَذَا الْمَقَامِ ثَلَاثَ فِرَقٍ:

فَالسَّلَفُ وَالْأَئِمَّةُ وَأَتْبَاعُهُمْ: آمَنُوا بِمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ، وَعَنْ الْيَوْمِ الْآخِرِ، مَعَ عِلْمِهِمْ بِالْمُبَايَنَةِ الَّتِي بَيْنَ مَا فِي الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مُبَايَنَةَ اللهِ لِخَلْقِهِ أَعْظَمُ».

الشرح

قوله: «وَلِهَذَا افْتَرَقَ النَّاسُ فِي هَذَا الْمَقَامِ ثَلَاثَ فِرَقٍ».

المؤلف رَحِمَهُ اللهُ كان إذا ذكر الفِرق والمذاهب؛ فإنه يحاول أن يجمع الأقوال كلها، سواء كانت أقوال المسلمين، أو الملاحدة وهم أكفر من اليهود والنصارى؛ كالباطنية والفلاسفة ونحوهم؛ ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: ما أظن الله يغفل عن المأمون بسبب تعريب كتب الروم المشركين، ولا بُدَّ أن يقابله على ما اعتمده مع هذه الأمة من إدخال هذه العلوم الفلسفية بين أهلها، وقال رَحِمَهُ اللهُ: «فعرب بعض كتب الأعاجم الفلاسفة من الروم والفرس والهند في أثناء الدولة العباسية. ثم طلبت كتبهم في دولة المأمون من بلاد الروم فعربت ودرسها الناس وظهر بسبب ذلك من البدع ما ظهر»[(١)]، ولهذا يذكر هذه الأشياء؛ لأن كثيرًا من المعتزلة وغيرهم يأخذون من كتبهم.

الواجب على كل عَبدٍ مُكلَّفٍ أن يؤمن بالله ويؤمن برُسله وبكتبه، وبشرعه الذي جعلهُ ليُعمَل به في هذه الدُنيا، ويؤمنَ بما أخبر الله ﷻ به مما سيكون من الجزاء والعذاب في الآخرة، كذلك ما يكون من الحساب وغير ذلك.

وكل ما أخبرنا الله ﷻ به وجب علينا أن نؤمن به؛ أخبرنا عن أشياء لا نُدركُها، كالأخبار التي في القرآن، فهي واضحةٌ ولكنها على خلاف المعهود لنا.

فمثلًا: أخبر الله ﷻ أن أهل الجنة يتساءلون، منهم من يسأل بعضهم بعضًا،

(١) ينظر: مجموع الفتاوى (٢/ ٨٤) و(٢/ ١٧١) و(١٢/ ٣١).

قال ﷻ: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٥٠ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝٥١﴾ [الصافات: ٥٠ ـ ٥١]، أي: في الدُنيا، ﴿يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢﴾ [الصافات: ٥٢]، يعني: أنه ينهاه عن الإيمان واتباع الرسول، ثم يقول لأصحابه: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤﴾ [الصافات: ٥٤]، مُطلعون: يعني: مُطلعون في النار، ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۝٥٥﴾ [الصافات: ٥٥]، فصار يخاطبه: قال له: ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ۝٥٧﴾ [الصافات: ٥٦ ـ ٥٧].

كيف يستطيع الإنسان أنه يذهب إلى النار مع أن الله ﷻ أخبرنا أن الجنة فوق السماء السابعة، وجهنم في أسفل سافلين؛ ثم إذا أراد أحدٌ من أهل الجنة أن يطّلع في النار اطلع فيها؛ بل إذا أراد أن يُخاطب أحدًا من أهل النار خاطبه؟!

كل هذا على خلاف ما نعهده ونعرفهُ، وهو واقعٌ في الآخرة، وهذا من الأمور المخلوقة التي خلقها الله ﷻ، وكذلك في الجنة فيها أشياء لا يُمكن أن تقع لنا في الدُنيا، ونحن نؤمن بها كما أخبرنا الله ﷻ؟!

إذا كان هذا في أمورٍ مخلوقة وفيها شيءٌ ليست موجودةً عندنا في الدُنيا ولا ممكنة، فنؤمن بها كما أخبرنا الله بها؛ فصفاته ﷻ وذاتهُ أعظم مُباينة وأعظم مُفارقة لما يكون للمخلوق من صفةٍ أو اسم.

قوله: «فَالسَّلَفُ وَالأَئِمَّةُ وَأَتْبَاعُهُمْ». هذا هو الفريق الأول، وهم الذين **«آمَنُوا بِمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنِ الْيَوْمِ الآخِرِ، مَعَ عِلْمِهِمْ بِالْمُبَايَنَةِ الَّتِي بَيْنَ مَا فِي الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مُبَايَنَةَ اللهِ لِخَلْقِهِ أَعْظَمُ»** هذا هو الواجب؛ لأن هذا الذي دلَّت عليه النصوص، ودلَّ عليه العقلُ أيضًا، فهم ينظرون إلى مراد الله ﷻ ومراد رسوله ﷺ ويؤمنون به على ظاهره؛ لأن هذا هو الذي يدلُّ عليه الخطاب والعقل والفطرة.

ولا يمكن أن يكون ربُنا ﷻ أو رسولُنا ﷺ يخبرنا عن شيء ظاهرُه باطلٌ، فهذا ممتنع ولا يقوله إلا من يريد أن يفسد على المسلمين دينهم.

فالله ﷻ أقدرُ على البيان من خلقه، وقولُه فيه الهدى والنور، فلا يمكن أن يدلَّ كلامه على باطل، وإنما يدل على الحق والهداية، وكذلك رسولُه ﷺ، فقد أُعطي من البيان والعلم والنُّصح والهُدى ما لا يكون لغيره من أُمَّتِه، فلا بُدَّ من الثقة بكلام الله ﷻ وكلام رسولِه ﷺ، والواجب أخذُه وعدمُ النَّظرِ إلى ما عارضه من أفكار العقول ونتائجها أو قول المتقدمين أو غيرهم من المتأخرين.

قال رحمه الله تعالى:

«وَالْفَرِيقُ الثَّانِي: الَّذِينَ أَثْبَتُوا مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فِي الْآخِرَةِ مِنْ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَنَفَوْا كَثِيرًا مِمَّا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ الصِّفَاتِ؛ مِثْلُ طَوَائِفَ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ المعتزلة ومن وافقهم».

الشَّرح

هؤلاء أصحاب الأقيسة العقلية زعموا، والواقع أنها أمورٌ ليست لا عقلية ولا سمعية، بل هي أمورٌ خيالية تخيلوها وضلوا بها، فهم أثبتوا ما أخبر الله ﷻ في الآخرة على وَفْقِ ما يعرفونه في الدُنيا، وكذلك العقاب والثواب، كما أنهم تخيَّلوا أن صفات الله ﷻ كما يتصفون به هم؛ فنفوا صفات الله وعطَّلوها، وأمَّا ما أخبر الله ﷻ به من الثواب والعقاب فجعلوه على وفق عقولهم فقط.

ولهذا قالوا: إنَّ الجنة ليست موجودةً، والنار ليست موجودةً، وإنما ستوجد يوم القيامة، أي: سيوجدانِ يوم القيامة، أمَّا الآن فلا وجود لهما؛ اعتلالًا بأنهم يقولون: «لو أن رجلًا بنى بيتًا ووضع فيه ما يحتاجُ إليه من المأكول والملبوس، والمفروش وغير ذلك من الأمتعة ثم غلقه؛ لكان هذا عبثا»، فقالوا: «النار والجنة ما دام أن أهلها لم يأتوا بعد لا تكون مخلوقةً وإنما ستغلق فيما بعد»، وكلُّ ذلك قالوه حُكمًا بعقولهم القاصرة على الله ﷻ، وكذلك حكموا بعقولهم على صفاته وأسمائه؛ فضلوا ضلالًا بعيدًا.

وهؤلاء الذين قاسوا أفعال الرب ﷻ بأفعالهم، فهم متناقضون، وردُّوا كثيرًا مما جاء به الخبر، مثل: الميزان والصراط وعذاب القبر وغير ذلك. فالسبب: أن عقولهم ما استوعبت هذا.

ومعلوم أن عقل الإنسان محدودٌ، فلا تستوعب ما أخبر الله ﷻ به؛ ولهذا: الأمر مثلما يقول الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «آمنت بالله وبما جاء عن الله، على مراد الله، وآمنت برسول الله، وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله»[1]، يعني: على

(١) ينظر: لمعة الاعتقاد لابن قدامة ص (٧)، وقال شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (٦/ ٣٥٤): =

التسليم والانقياد، فإن أدرك بعقله الحقائق المخبَر عنها وإلا عليه التسليم، ولا يجوز أن يحكِّم عقله في الأمور التي لا نظير لها عنده.

أما زعمهم أن هذه النظائر موجودة هنا، فهذا قياسٌ فاسدٌ؛ لأنهم قاسوا الشيء الموجود في الدنيا على الشيء الذي لا تُعلم حقيقته.

قوله: «مِثْلُ طَوَائِفَ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ المعتزلة ومن وافقهم». يقصد الذين وافقهم من الأشاعرة، ومن أتباع الأئمة الأربعة؛ الحنفية والشافعية والحنابلة وغيرهم، فلا يخلو هؤلاء من أن لهم أتباعًا للمعتزلة اتبعوهم في استنتاجاتهم وعقولهم وأقوالهم، فضّلوا في هذا المجال، والإنسان قد يكون عنده ضلال وهدى، وكفرٌ وإيمانٌ، وفسقٌ وطاعةٌ، وهو لما غلب عليه، وهؤلاء تأثروا بالأفكار والعقول التي يقولها المتكلمون، ويجعلون لهم قواعد في هذا، ويقولون: «إن الأصل في الإيمان هو العقل؛ لأن العقل هو الذي دلّنا على صدق الرسول»، هكذا يقولون!

وقد قرَّر ذلك الفخر الرازي، الذي صار عمدة لمتأخري الأشاعرة، فعلى كتبه يعتمدون، وليس على كتاب الله ولا على سنة رسوله ﷺ، وهو يقول: «إذا تعارض العقل مع النقل؛ فلا يعقل أننا نقدم النقل؛ لأن العقل هو الأصل، فإذا تعارضا فنحن نقدم العقل على النقل!»، وهذا كلام ضلالٌ، بل قد يكون كفرًا بالله ﷻ، ولهذا ضلوا في هذا المجال، والمعتزلة سلكوا هذا المسلك من قبله.

* * *

= «أمَّا ما قالهُ الشَّافعيُّ فإنَّه حقٌّ يجبُ على كلِّ مُسلِمٍ أن يَعتقدَهُ ومن اعتَقَدَهُ ولم يأتِ بقول يُناقِضُهُ فإنَّهُ سالِكٌ سبِيل السَّلامة في الدُّنيا والآخرة» اهـ.

قال رحمه الله تعالى:

«وَالْفَرِيقُ الثَّالِثُ: نَفَوْا هَذَا وَهَذَا، كَالْقَرَامِطَةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ وَالْفَلَاسِفَةِ وأَتْبَاعِ الْمَشَّائِينَ، وَنَحْوِهِمْ مِنْ الْمَلَاحِدَةِ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ حَقَائِقَ مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ الْيَوْمِ الْآخِرِ».

الشرح

قوله: «وَالْفَرِيقُ الثَّالِثُ: نَفَوْا هَذَا وَهَذَا...». الفريق الثالث ليسوا بمؤمنين أصلًا، وليسوا من الإسلام في شيء، وذِكر مثل أقوالهم هنا في الكُتب التي تُدرس، ويتعلمها الناس ـ حتى لا يقع الإنسان في ضلالهم فقط، ويعلم أنهم على ضلالٍ بيِّنٍ وواضحٍ؛ لأن أمرهم قد التبس على بعض الناس، فلزم أن تُذكر أقوالهم خوفًا من أن يقع فيها من لا يعرف حالهم.

من البلاء أن نذكر الفلاسفة القدامى الذين كانوا قبل مولد المسيح عليه السلام بخمسمائة سنة، وهم المشاؤون ـ الذين كانوا يتعلمون وهم يمشون، جعلوا لهم رواقًا مستورًا عن الشمس فشيخهم يمشي ويعلمهم، ولهذا سُموا «المشائين» ـ، وهم على ضلالٍ بيِّنٍ، وما كان ذلك ليكون إلا بتعريب كُتبهم في زمن المأمون، صار الناس ينقلون أقوال هؤلاء، وينقلون ما في كُتبهم وهو ضلالٌ واضحٌ، ولم يكن المسلمون في حاجةٍ إلى أقوالهم وإلى ضلالهم، بل هم في غُنية، ولكن بُلوا بأن المُتكلمين صاروا ينقلون عنهم، يريدون بذلك الاستدلال بأقوالهم والاهتداء بضلالهم، وهذا من الضلال البيِّن!

كيف يُترك كتاب الله ﷻ وما جاء به الرسول ﷺ ويؤخذ بأقوال الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر؟! ولا يومنون ببعث ولا بجنة ولا بنار ولا بجزاء؟! وإنما يقولون: هذا الكون قديمٌ أزلي وسيظل قائمًا أبديًا، وإنما الناس فقط يموت جيل ويحيى آخر، ومن مات فلا بعث ولا جزاء.

هؤلاء كُفرهُم أعظم من كُفر المُشركين، الذين يعبدون الأصنام وغيرهم، مع أنهم كانوا أيضًا مشركين، وهؤلاء ليسوا من المسلمين؛ غيرَ أن الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ أراد أن يستوعب في هذا الكلام كلام كل من تكلم في هذا، في صفات الله أو في أخبار الله التي أُخبروا بها عن آخره.

ويقولون: إن النبوة يمكن تُكتسب؛ لأنه إذا جمع الإنسان ثلاث صفات صار نبيًّا، قوة التخيل، يعني: يكون يتخيل الأشياء ثم يخبر عنها؛ وكذلك كونه مثلًا: نفسه مستعدةٌ لقبول الانفعالات وغير ذلك؛ ولهذا يقولون: كان ابن سبعين ينتظر أن يكون نبيًّا، لما قيل له: إن الرسول ﷺ خاتم الأنبياء. قال: «لقد تحجَّر ابن آمنة واسعًا حيثُ قالَ لا نبي بعدِي»[1]؛ زعم أن الناس فيهم كثير من الأنبياء في هذا، كيف مثل هذا يُضم أقواله إلى أقوال أهل الإسلام!

ولهذا ردُّوا على الأشاعرة ردًّا ما استطاعت الأشاعرة تتخلص منه، فقالوا: أنتم تتأوَّلون الصفات، ونصوص الصفات أكثر من نصوص المعاد، الذي تنكرون علينا أن نتأوَّله. فما استطاعوا أن يردوا على هذا الكلام. وهذا صحيح؛ فإن نصوص الصفات أكثر من نصوص المعاد بكثير، فكيف تتأولون الكثير وتنكرون على مَن يتأوَّل القليل؟!

وهؤلاء أرادوا إفساد الإسلام وتحريفه، ولا يزال طوائفُ منهم موجودةً كالإسماعلية والنصيرية، وبعض أئمتهم يحرفون الواجبات والأركان كالصلاة والصيام، فيقولون: «إن المقصود بالصيام كتم الأسرار، والمقصود بالصلاة طاعة الأئمة»، وهكذا يتلاعبون بعقول الناس وأفكارهم؛ وكثير من الناس إذا قال له معلمه أو من يثق به قولًا اتبعه وإن كان كفرًا بواحًا.

فهؤلاء لا عبرة فيهم، ولا يجوز النظر فيما يقولونه أو ما يقررونه، ومقصود المؤلف هنا حصر مذاهب الناس في الباب، وهؤلاء «**يُنْكِرُونَ حَقَائِقَ مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ الْيَوْمِ الْآخِرِ**».

* * *

(١) ينظر: نعمة الذريعة في نصرة الشريعة (ص١١٦).

قال رحمه الله تعالى:

«ثُمَّ إنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَجْعَلُونَ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ مِنْ هَذَا الْبَابِ؛ فَيَجْعَلُونَ الشَّرَائِعَ الْمَأْمُورَ بِهَا، وَالْمَحْظُورَاتِ الْمَنْهِيَّ عَنْهَا، لَهَا تَأْوِيلَاتٌ بَاطِنَةٌ تُخَالِفُ مَا يَعْرِفُهُ الْمُسْلِمُونَ مِنْهَا، كَمَا يَتَأَوَّلُونَ مِنْ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَصِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ وَحَجِّ الْبَيْتِ، فَيَقُولُونَ: إنَّ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ مَعْرِفَةُ أَسْرَارِهِمْ، وَإِنَّ صِيَامَ شَهْرِ رَمَضَانَ كِتْمَانُ أَسْرَارِهِمْ، وَإِنَّ حَجَّ الْبَيْتِ السَّفَرُ إلَى شُيُوخِهِمْ، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنْ التَّأْوِيلَاتِ الَّتِي يُعْلَمُ بِالِاضْطِرَارِ أَنَّهَا كَذِبٌ وَافْتِرَاءٌ عَلَى الرُّسُلِ - صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ - وَتَحْرِيفٌ لِكَلَامِ اللهِ وَرَسُولِهِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَإِلْحَادٌ فِي آيَاتِ اللهِ».

الشَّرح

قوله: «ثُمَّ إنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَجْعَلُونَ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ مِنْ هَذَا الْبَابِ...». هذا فريق آخر من الصوفية المتطرفة المنحرفة التي كفرت بالله، وكفرت بشرعه وبرسوله، فهم يقولون: «إن التكاليف والأوامر والنواهي تلزم أهل الظاهر، أما أهل الباطن الذين وصلوا إلى الحقائق؛ فترفع عنهم التكاليف»، ويقولون: «إن الله ﷻ يقول: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٩]، وفسروا ﴿ٱلْيَقِينُ﴾ بالعلم؛ فإذا وصلت إلى درجة العلم الذي وصلنا إليه فليس عليك عبادة»، بل قد يجعلون الإنسان يستوي مع ربه ﷻ، وهذا كفرٌ لم يصل إليه كفر الشيطان. ومنهم من يقول: إنه إذا وصل إلى هذا الحد فليس عليه شيء محرَّمٌ، وكل شيء يكون مباحًا له، فالماء والخمر سواء، والزوجة والأجنبية سواء.

وإذا قيل لأحدهم: إن هذا جاء في الشرع تحريمه؛ يقول: «هذا محرم على أهل الحجاب الذين حجبوا عما وصلنا إليه، أما الذي وصل إلى هذا الحد فإنه رفعت عنه التكاليف، ورفع عنه التحريم».

ومعلومٌ أن هذه الإباحة التي يريدون أن يصلوا إليها إنَّما هي لنيل الشهوات من كل وجهٍ أو إفساد أديان الناس، ومثل هؤلاء لا عبرة فيهم، والأولى أن لا ينقل كلامهم ولا يُذكر؛ لأن بطلانه أظهر من أن يُرد عليه؛ كمن يقول: «إن فرعون كان

مؤمنًا، وأنه على الحق، وإن موسى هو الذي ضاق عطنه، وأصبح نظره ضيقًا، فقال لفرعون: إنه كافر، وذلك؛ لأن قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤﴾ [النازعات: ٢٤]، له وجه صحيح، فهو الأعلى على قومه وهو ربهم»!! وكمن يقول: «إن المشركين أخطؤوا في كونهم عينوا معبوداتهم، أما لو عبدوا كل شيء لكانوا على حق؛ لأنهم يقولون: إن الله هو الوجود كله، فلا فرق بين الخالق والمخلوق، فالخالق هو المخلوق والمخلوق هو الخالق»!

فمثل هذا الكلام لا يجوز أن يُذكر؛ لأن أمرهم واضح وجلي؛ ولكن الذي يجب أن نبحث فيه ونذكره هو الأمر الذي يشتبه على كثير من الناس، فهذا الذي يُذكر ويُرد عليه؛ كمن يزعم أنه على المذهب الحق مثل الأشاعرة الذين يقولون: «إن الرحمة هي إرادة الإحسان، وإن الغضب إرادة الانتقام، والاستواء هو الاستيلاء، والنزول هو نزول أمر الله أو ملائكته أو عذابه أو رحمته»، فهؤلاء يجعلون المعاني التي ذهبوا إليها هي مراد الله ورسوله، ويقولون: «هذا هو الحق الذي أراده الله ورسوله»، وهذا يلتبس على كثير من الناس، وهؤلاء خطرهم على الناس أكثر.

أما أولئك فكفرهم أبينُ وأظهرُ من أي كفر، فلا فائدة في الاشتغال في ذكر مذاهبهم، وإنما يجب أن الإنسان يكون متحصنًا عما يخاف أن يقع فيه. هل هؤلاء يكونوا من الإسلام في شيء؟!

الحج عندهم قصدٌ لقبور كبرائهم أو قصدُ الموجود منهم، يسمونه حجًّا، وكل ذلك لأجل التلبيس على الجُهال الذين لا يعرفون معاني ما أخبر الله ﷻ به، وما أخبر به الرسول ﷺ، فيقولون هذا المقصود منكم.

ثم الصلاة التي يقولون: «إنها معرفة الأسرار»، يعني: لا تُصلي الصلاة الشرعية وإنما إذا عرفت الأسرار فأنت تكتمها ولا تُبينها؛ لأنها كُفرٌ واضحٌ؛ فإذا بانت لغيرهم تبيّن كُفرهم وتبين ما يعملون به من الدسائس لإفساد الإسلام.

ويكفيك بهذا أن هؤلاء هم الذين قتلوا الحُجاج في بيت الله، وألقوهم في زمزم، وصعد رئيسهم على الكعبة ـ عدو الله أبو طاهر القرمطي ـ؛ وقال:

أنا بالله وبالله أنا يخلق الخلق وأقتلهم أنا[1]

---

(١) العبر في خبر من غبر للذهبي (ص٤٧٤).

وهم في جرأة على الله ﷻ، واقتلعوا الحجر الأسود وذهبوا به إلى بلادهم؛ بقي عندهم ما يقرب من عشرين سنة، وذلك لتضييع الأمر من قبل الخُلفاء وعجزهم عن قتالهم.

وهم في الواقع كانوا مجوسًا، يُسِرُّون المجوسية ويظهرون الباطنية التي يقولون بها، فهم يريدون أن ينكلوا بالمسلمين الذين هَدُّوا عروشهم وقضوا على مُلكهم، ولكن دين الله ﷻ سيبقى إلى الأبد، وإن حصل ما حصل للمُسلمين من هزائم ومن كوارث؛ كل ذلك يكون بسبب إعراضهم عن كتاب الله ﷻ، وسبب عدم اتباعهم للرسول ﷺ.

فالله وعد رسولَه ﷺ النصر والتأييد، وأعطاه أيضًا أن أعداءه يرهبونه ويخافونه مسيرة شهر؛ وإذا اتبعته أمته على ما جاء به فهذا لهم أيضًا، أما إذا تركوا أمر الله فإن الله يُسلِّط عليهم أشرَّ عباده مثل هؤلاء، وهذا هو السبب في ذلك.

قوله: «كَمَا يَتَأَوَّلُونَ مِنْ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَصِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ وَحَجِّ الْبَيْتِ...»
هذا قول القرامطة الذين يقولون: «الصلاة أن تكتم السر»، فلا صلاة فيها تكبير وركوع وسجود وقراءة، والصوم كذلك، مثل ما ذكر، يعني: أنك تقصد أئمتهم وتزورهم وتتأثر بهم. . .، إلى آخره، وهذا لا ينطلي إلا على مَن هو أجهلُ الخلق وأضلُّهم وأبعدُهم عمَّا جاء به الرسول ﷺ، إذ هو تلاعب بالشرع وعدم مبالاة بالمسلمين.

❊ ❊ ❊

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «وَقَدْ يَقُولُونَ: الشَّرَائِعُ تَلْزَمُ الْعَامَّةَ دُونَ الْخَاصَّةِ، فَإِذَا صَارَ الرَّجُلُ مِنْ عَارِفِيهِمْ وَمُحَقِّقِيهِمْ وَمُوَحِّدِيهِمْ؛ رَفَعُوا عَنْهُ الْوَاجِبَاتِ، وَأَبَاحُوا لَهُ الْمَحْظُورَاتِ.

﴿ وَقَدْ يوجد فِي الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى التَّصَوُّفِ وَالسُّلُوكِ مَنْ يَدْخُلُ فِي بَعْضِ هَذِهِ الْمَذَاهِبِ».

الشرح

يعني: هذا في الواقع تلاعبٌ وإضلالٌ للناس؛ يقولون: «الشرائع ليس لها حقيقة، وإنَّ الشرائع تلزم العامة، أما الخاصة فهم خرجوا من ذلك»، ومثل ذلك يقوله بعض الصوفية، ويستدل بقوله: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحجر: ٩٩]، عنده (اليقين): العلم. إذا وصلت للعلم فلا عبادة؛ فهذا اتباع الهوى واتباع الشهوات، فيبيحون لأنفسهم ما حرَّمه الله ﷻ على غيرهم.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَهَؤُلَاءِ الْبَاطِنِيَّةُ الْمَلَاحِدَةُ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّهُمْ أَكْفَرُ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى».

الشَرح

قوله: «وَهَؤُلَاءِ الْبَاطِنِيَّةُ الْمَلَاحِدَةُ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّهُمْ أَكْفَرُ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى»؛ بل هم أكفر من إبليس، وإبليس لا يصل إلى الكفر الذي وصلوا إليه ولم يقله، بل يقول: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩]، فيقر بأن الله ﷻ هو الذي يضل ويهدي، ويملك التصرف؛ أما هؤلاء فجاؤوا بكفر لم يعرفه إبليسُ وأكفرُ مَن في الأرض؛ إبليسُ ما وصل كفره إلى هذا الشيء؛ لأن هذا إنكارٌ للحقائق وإبطالٌ للشرع، وإبطالٌ لكل ما يتعارَف عليه الناس.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَمَا يَحْتَجُّ بِهِ أَهْلُ الْإِيمَانِ وَالْإِثْبَاتِ عَلَى الْمَلَاحِدَةِ؛ يَحْتَجُّ بِهِ كُلُّ مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْإِثْبَاتِ عَلَى مَنْ يُشْرِكُ هَؤُلَاءِ فِي بَعْضِ إِلْحَادِهِمْ، فَإِذَا أَثْبَتَ لِلَّهِ تَعَالَى الصِّفَاتِ، وَنَفَى عَنْهُ مُمَاثَلَةَ الْمَخْلُوقَاتِ، كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْآيَاتُ الْبَيِّنَاتُ، كَانَ ذَلِكَ هُوَ الْحَقَّ الَّذِي يُوَافِقُ الْمَنْقُولَ وَالْمَعْقُولَ، وَيَهْدِمُ أَسَاسَ الْإِلْحَادِ وَالضَّلَالَاتِ».

الشرح

قوله: «**وَمَا يَحْتَجُّ بِهِ أَهْلُ الْإِيمَانِ وَالْإِثْبَاتِ عَلَى الْمَلَاحِدَةِ...**»؛ أي: أن كثيرًا من الناس يلبس الحق بالباطل، فيلتبس على كثير من الناس، فيجب أن يفرق بين الحق والباطل بالفرقان الذي أنزله الله تعالى هاديًا للعالمين، وبما قاله رسول الهدى ﷺ، وبما بيّنه العلماء بكتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ، وفي ذلك غُنية وهُدًى.

قوله: «**يُشْرِكُ هَؤُلَاءِ...**»، يعني: مثل بعض المتكلمين؛ فإنهم يدخلون في ذلك، ومثل بعض الصوفية؛ فإنهم دخلوا في شيءٍ من ذلك، فأهل السنة يجعلون الطريق واحدًا، ويقولون: لكم نصيب من هؤلاء ولهؤلاء، حيث وافقتموهم في بعض الأقوال.

ومعلومٌ: أن هذا هو الذي دلَّ عليه الدليل ـ دليل السمع ودليل العقل ـ، فلا يفرَّق بين المتماثلات كما لا يُجمع بين المفترقات والمتباينات.

والمقصود: أنه لا بدَّ من كون أهل الحق يستدلون بما جاء عن الرسول ﷺ ويردُّون على الكفر، ويردُّون أقوال الكافرين عليهم، ولكن إذا شبهوا على عامة المسلمين يجب أن يُبين ويوضح، والحمد لله الذي تولى حفظ كتابه بنفسه ففيه الهدى إلى أن يشاء الله ﷻ في نهاية هذا الكون.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «وَاللهُ سُبْحَانَهُ لَا تُضْرَبُ لَهُ الْأَمْثَالُ الَّتِي فِيهَا مُمَاثَلَةٌ لِخَلْقِهِ، فَإِنَّ اللهَ لَا مَثِيلَ لَهُ؛ بَلْ لَهُ «الْمَثَلُ الْأَعْلَى» فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُشْرَكَ هُوَ وَالْمَخْلُوقَاتُ فِي قِيَاسِ تَمْثِيلٍ، وَلَا فِي قِيَاسِ شُمُولٍ تَسْتَوِي أَفْرَادُهُ، وَلَكِنْ يُسْتَعْمَلُ فِي حَقِّهِ «الْمَثَلُ الْأَعْلَى» وَهُوَ أَنَّ كُلَّ مَا اتَّصَفَ بِهِ الْمَخْلُوقُ مِنْ كَمَالٍ فَالْخَالِقُ أَوْلَى بِهِ، وَكُلَّ مَا تُنَزَّهُ عَنْهُ الْمَخْلُوقُ مِنْ نَقْصٍ فَالْخَالِقُ أَوْلَى بِالتَّنْزِيهِ عَنْهُ، فَإِذَا كَانَ الْمَخْلُوقُ مُنَزَّهًا عَنْ مُمَاثَلَةِ الْمَخْلُوقِ مَعَ الْمُوَافَقَةِ فِي الِاسْمِ: فَالْخَالِقُ أَوْلَى أَنْ يُنَزَّهَ عَنْ مُمَاثَلَةِ الْمَخْلُوقِ، وَإِنْ حَصَلَتْ مُوَافَقَةٌ فِي الِاسْمِ».

الشرح

قوله: «وَاللهُ سُبْحَانَهُ لَا تُضْرَبُ لَهُ الْأَمْثَالُ الَّتِي فِيهَا مُمَاثَلَةٌ لِخَلْقِهِ».

القياس له ثلاثة أقسام:

القسم الأول: قياس التمثيل، وهو الذي يذكره أصحاب الأصول، وهو أن يكون هناك أصلٌ، وفرعٌ يقاس عليه، ويجمع بينهما علة؛ هذا معروف للأمور التي فيها التكليف والأمر والنهي؛ مثل قول الرسول ﷺ: **«كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ»**(١)، فيقولون: عصيرُ العنب إذا على فهو خمرٌ، لأنه يسكر، ويكون مثل الخمر الذي لا خلاف فيه؛ والعلة الجامعة بينهما هي الإسكار، وعلى هذا يكون كل مسكر مزيلًا للعقل، فهو ملحق في هذه العلة، وهذا القسم لا يجوز أن يكون في حق الله تعالى، فالله لا يمثل بمخلوقاته، كما قال المؤلف: **«فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُشْرَكَ هُوَ وَالْمَخْلُوقَاتُ فِي قِيَاسِ تَمْثِيلٍ»**.

القسم الثاني: قياس الشمول، وهو ما استعمل في الكلام الشامل، مثل قول

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى، ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع (٥/ ١٦١) برقم (٤٣٤٣)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام (٣/ ١٥٨٦) برقم (١٧٣٣)، من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

المتكلمين: «كل حادث يتصل بمخلوق فهو يدلُّ على حدوثه، فالله ﷻ لا يجوز أن يضاف إليه حدث أو يكون هو محل الحدث»، والحدث عندهم هو الفعل، فإذا استعملوا هذا فهم جعلوه كالمخلوق ـ تعالى الله وتقدس ـ، وهذا الاستعمال باطلٌ، فالله لا يجوز أن يكون مثل المخلوق أو يجمعه معه قياسٌ في أي حكمٍ كان.

القسم الثالث: قياس الأولى، وهو الذي ذكره المؤلف بقوله: «**وَهُوَ أَنَّ كُلَّ مَا اتَّصَفَ بِهِ الْمَخْلُوقُ مِنْ كَمَالٍ فَالْخَالِقُ أَوْلَى بِهِ، وَكُلَّ مَا تُنَزَّهُ عَنْهُ الْمَخْلُوقُ مِنْ نَقْصٍ فَالْخَالِقُ أَوْلَى بِالتَّنْزِيهِ عَنْهُ**»، ويكون من وجهين:

الوجه الأول: أن يكون على سبيل تحقيق الكمال. فالمخلوق يتَّصف بالكلام، فلا يستوي من يتكلَّم بطلاقةٍ وفصاحةٍ مع من هو أخرس ولا يستطيع أن يتكلم، فيكون المتكلِّم أكملَ من غير المتكلم، وهذا الكمال إنما جاء من الله تعالى، فهو الذي أعطاه هذا الكمال، وعلى هذا: لا يكون واهبُ الكمال فاقدًا له، والأَولى أن يكون هو متَّصفًا بالكمال من كل وجه؛ ومثل ذلك من يمتدح المخلوق بالكرم أو العدل أو الإحسان إلى الناس؛ فيقول: إن الله أَولى بأن يكون هو الكريم والعادل الذي لا يَظلم، وهذا من الأدلة على وجوب إثبات الكمال لله تعالى.

الوجه الثاني: أن يكون على سبيل التَّنزُّه عن النقائص؛ فالمخلوق يأنف إذا كان له مملوك اشتراه بماله أن يكون شريكٌ له في ملكه أو ماله أو أهله أو بيته، فكيف يكون مملوكًا ثم يكون شريكه؟ وعلى هذا ننزه الله تعالى من الشركاء والأنداد من باب أولى.

ففي هذه الأمثلة لا يُستعمل في حقه ﷻ لا قياس التمثيل الذي هو يُستعمل في أصول الفقه ـ أن يكون بين الفرع والأصل تشابه، وهناك علةٌ تُلحِق الفرع بالأصل، فهذا يسمى قياس تمثيل ـ، وليس قياس شمول؛ الذي يستعمله المتكلمون، ـ فيقولون: «كل قائم بنفسه جسم، فالله ﷻ ليس جسمًا، فلا يجوز أن نصفه بصفة».

وقياس الشمول هو الذي يُستعمل فيه لفظة «كل» التي تشمل الأصل والفرع؛ أما قياس الأوْلَى: فهو أن الكمال لله ﷻ مطلقًا؛ فإذا وُجد في المخلوق كمالٌ لا نقص فيه بوجه من الوجوه، قيل: الواهب له أوْلى بالكمال، أوْلى من المخلوق؛ فهذا يسمى «قياس الأوْلى»، فهذا الذي يُستعمل في حق الله.

أما قياس الشمول أو قياس التمثيل، فلا يجوز أن يُستعمل في حقِّ الله؛

لأن الله ﷻ يقول: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]؛ لأنه لا مثيل له ولا نظير له يُقاس عليه، تعالى الله وتقدَّس.

قوله: «فَإِنَّ اللهَ لَا مَثِيلَ لَهُ؛ بَلْ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى». هو تعظيمُه وتقديسه وتنزيهه في قلوب عباده العارفين، وهو ﷻ أكبر وأعظم من أن يقاس بمخلوق تعالى الله وتقدس، فهذا الذي يقاس عليه؛ ولأنه هو واهبُ الكمال، وكلُّ كمالٍ يتَّصف به المخلوق ليس من عند ذاته ونفسه، وإنما هو من عند ربه ﷻ هو الذي وهبه له، فواهبُ الكمال لا يكون فاقدًا له، بل هو أولى به ممَّن وهب له.

قوله: «بَلْ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى». فسَّره بأنه: «كلُّ كمالٍ اتصف به المخلوق لا نقص فيه بوجه من الوجوه فالخالق أولى به»؛ لأنه هو الذي وهب الكمال، وواهب الكمال لا يكون فاقدَه، فـ«المثل الأعلى» فُسِّر بهذا، وفُسِّر بأنه ما في قلوب عباده العارفين له من عظمته، وتقديره»، وإلا فأكثر الناس لم يقدروا الله حق قدره، كما قال ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧] وكذلك لا يجوز أن يُستعمل في حقه الأقيسةُ العقليَّةُ.

قوله: «فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُشْرَكَ هُوَ وَالْمَخْلُوقَاتُ». في شيءٍ من الأشياء، لا في الصفات ولا في أحكامها، فيجب أنه يكون وصفه وتسميته خاصًّا به؛ فأوصافه خصائصُ وكذلك أسماؤه خصائصُ، وما كان وصفَه كان خاصًّا به لا يُشاركه فيه غيره؛ فلا يصح أن يقع في حقِّه قياس أصلًا؛ لذلك قال: «**فَإِذَا كَانَ الْمَخْلُوقُ مُنَزَّهًا عَنْ مُمَاثَلَةِ الْمَخْلُوقِ مَعَ الْمُوَافَقَةِ فِي الِاسْمِ: فَالْخَالِقُ أَوْلَى أَنْ يُنَزَّهَ عَنْ مُمَاثَلَةِ الْمَخْلُوقِ**».

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَهَكَذَا الْقَوْلُ فِي الْمَثَلِ الثَّانِي: وَهُوَ الرُّوح الَّتِي فِينَا - فَإِنَّهَا قَدْ وُصِفَتْ بِصِفَاتٍ ثُبُوتِيَّةٍ وَسَلْبِيَّةٍ، وَقَدْ أَخْبَرَتْ النُّصُوصُ أَنَّهَا تَعْرُجُ وَتَصْعَدُ مِنْ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ، وَأَنَّهَا تُقْبَضُ مِنْ الْبَدَنِ، وَتُسَلُّ مِنْهُ كَمَا تُسَلُّ الشَّعْرَةُ مِنْ الْعَجِينِ».

الشَّرح

سبق **المثل الأول** أنه ما بين المخلوقات التي خلقها الله ﷻ في الجنة، والمخلوقات التي تكون في الدنيا، أنه لا مماثلة بينها، فإذا كان المخلوق لا يماثل المخلوق؛ فالخالق أولى ألَّا يماثله.

وهذا المثل الثاني: وهو الروح التي بها حياةُ الإنسان، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥].

وأصلُ الروح التي في الإنسان: هي من نفخة الله ﷻ في آدم؛ فإن الله ﷻ لما خلقه وصوَّره قال للملائكة: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: ٢٩]، نفخ فيه من روحه فصارت الحياة، أما أولاده وذريته فالروح التي فيهم أصلها من نفخة الملك الذي يأتي وهو في بطن أمه، كما ثبت بحديث عبد الله بن مسعود وغيره: «**إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَوْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً**، - نطفة - **ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَهُ**، - علقة: يعني قطعة دم - **ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَهُ، ثُمَّ يُبْعَثُ إِلَيْهِ المَلَكُ فَيُؤْذَنُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيَكْتُبُ: رِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَعَمَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ**»(١)، هذا شيءٌ غيرُ معلومٍ لنا ما يعرفهُ أحدٌ، ومع ذلك وصفت بأنَّها تخرج من البدن، وأنَّها يُصعد بها على السماء، وأنها تهبط، وأنها تُقبض، وأنها تألم، وتنعم، وكذلك

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [الصافات: ١٧١] (٩/ ١٣٥) برقم (٧٤٥٤)، ومسلم في صحيحه، في كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه... (٤/ ٢٠٣٦) برقم (٢٦٤٣)، من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.

تفارق البدن وتجتمع به؛ كما في الحديث: «**إذا وضع في قبره فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ فَيَاتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ ويسألانه**»(١).

والناس مضطربون في الروح، ولن يصلوا إلى حقيقتها مع أنها مخلوقةٌ وفي أبدانهم؛ فإذا كانت الروح التي في أبدانهم لا يعرفونها؛ فكيف يطمع أحدهم أنه يعرف حقيقة رب العالمين أو صفاتِه؛ هذا هو وجهُ ضرب المثل في هذا. فقوله: «**وَهَكَذَا الْقَوْلُ فِي الْمَثَلِ الثَّانِي: وَهُوَ الرُّوح الَّتِي فِينَا...**»، يعني: أن الروح لها صفات أُخبر بها أنها تُقبض وتذهب وتألم وتنعم، وغير ذلك، ونحن لا نعرف حقيقتها، كما قال الله ﷻ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥].

والصحيح: أن المقصود بالروح: التي هي الحياة، وليست الروح جبريل عليه السلام كما يقول بعضُ المفسرين، وإن كان جبريل عليه السلام يسمى روحًا، ولكن في هذه الآية المقصود بها: الروح التي فيها الحياة، التي أصلها نفخُ الله ﷻ لآدم، فهي نفخةٌ من الله، فلا تُعلم ما هي حقيقتها.

أما ذرية آدم؛ فالأصل فيها نفخة الملَك؛ فإنَّ الملَك إذا كمُل خلقُ الجنين، يدخل عليه في الرحم، وينفخ فيه الروح، ويكتب رزقه وأجله وعمله وشقيٌّ أو سعيدٌ؛ كما ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ، فهي لا تُعلم وهي مخلوقة، وإذا كانت لا يُدركها الناس ـ لا فلاسفة ولا مسلمون ولا غيرهم ـ، وحصلت محاولات إلى معرفة الروح فما استطاعوا أن يعرفوها.

واليهود لما سألوا رسول الله ﷺ أُجيبوا بهذا الكلام: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥]، يعني: ما أُخبروا بحقيقتها؛ فإذا كانت هذه مخلوقة ونحن لا نعرف حقيقتها، فكيف يحاول الإنسان أنه يعرف حقائق صفات الله أو يعرف ذات الله تعالى الله وتقدَّس؟! فإن هذا ضلالٌ بيِّن، هذا هو وجه ضرب المثل.

بل الإنسان ما يعرف حقائق المخلوق الذي يكون بارزًا، وقد يكون مشاهدًا، فمثلًا: جبريل له أكثر من ستمائة جناح، أين الأجنحة هذه؟! لو قلنا جناحين واحد

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، في كتاب السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر (٤/ ٢٣٩) برقم (٤٧٥٣)، وأحمد في مسنده (٣٠/ ٤٩٩) برقم (١٨٥٣٤)، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

في جنب والثاني في الجنب الثاني، البقية أين تكون؟! كيف يتصور الإنسان أكثر من ستمائة جناح؟! وهو مخلوق من مخلوقات الله ﷻ، فكونه مثلًا يحاول أنه يعرف شيئًا من حقائق صفات الله أو يعرف ذات الله، فهذا جهلٌ فظيع، والعلم بأن هذا لا يمكن هو العلم الذي ينبغي أن يُقال ويُسلك.

فهذا هو المثل الثاني الذي جعله دليلًا على مباينة الرَّبِّ ﷻ من مخلوقاته، ودليلًا على قصور علم الإنسان، وأنَّه لا يعلم إلا ما علَّمه الله ﷻ.

الروح هي التي بها الحياة، وهي موجودة في ابن آدم وفي كل حيوان، وإذا خرجت الروح من بدنه مات وصار هامدًا، وهي لا تُعلم، فليست هي الدم الجاري في البدن، وليست هي النَّفَس الذي يتردد في صدر الإنسان ويخرج من منخريه وفمه ويدخل ويخرج إلى الرئة، فهي شيء آخر لا نعلمه.

وقد أخبر الله ﷻ أنها تُقبض وتنتشر في البدن، وأنها تسيل من الفم، كما تسيل قطرةُ الماء مِن فيِّ السقاء، وأنه يُصعد بها وتحس وتتألم وتنعم وغير ذلك. والحقيقةُ أنها غير معلومة لنا؛ فلا ندري ما هي، والله ﷻ يقول: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥]، وأصلها نفخة الله ﷻ في آدم لمَّا نفخ فيه من روحه، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: ٢٩]، يعني: صارت فيه الحياة؛ لأنه صوَّره من الطِّين فصار جسدًا بلا رُوحٍ، ثُمَّ نفخ الله فيه الروح فصار حيًّا سميعًا متكلِّمًا.

أما أصلُها في بني آدم؛ فهي نفخةُ الملك حينما يدخل في رحم المرأة؛ إذا وصل الجنين المخلوق إلى حدّ معين وحصل تخليقه وتصويره، فيدخل الملك إليه وينفخ فيه الروح، هذا أصلُها في بني آدم وغيرِهم من الحيوانات.

فالروح غيرُ معلومة لنا، ولا نعرفها مع وجود الأوصاف التي وصفت بها من الصعود والنزول، والألم والنعيم، والاقتران والافتراق.

وثبت في الحديث أن الإنسان إذا كان في إقبال من الآخرة وإدبار من الدنيا؛ فإن مَلَك الموت يجلس عند رأس المحتضر، ويخاطب الروح، فإن كان كافرًا فاجرًا؛ فإنها تتفرق في بدنه وتتشبث بعروقه ولحمه، فينتزعها كما ينتزع السفُّود إذا احتمى وأدخل في الصوف المبلول، فيتعلق عليه الصوف ويصير لزقًا، هكذا الروح إذا عرفت أنها ستخرج إلى العذاب، فإنها تتشبث بالبدن، ولا تخرج إلا بقوة ونزع.

فالمقصود: أنها محسوسةٌ مشاهدَة للملائكة، وتخاطب وتقبل الخطاب وتصعد؛ فإذا خرجت من بدن الإنسان وكانت من أهل الإيمان والتقى فإنه يصعد بها إلى السماء، وتفتح لها أبواب السماء إلى أن تصل إلى السماء السابعة، ويقول الله ﷻ للملائكة: «**اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ**»[1]، وهذا كله يكون بين تغسيله والصلاة عليه ودفنه؛ فإذا وضع في قبره عادت إليه روحه فجاءته الملائكة تختبره وتسأله، ببدنه وروحه، ولكنها إعادةٌ ليست كهذه الإعادة التي في الدنيا، وإنما إعادة على شكل آخر، فهو مدفون وهو حي، وهذا يدلُّ على أن الروح ليست هي النَّفَس الذي يتردد في صدر الإنسان، وكذلك ليست هي الدم الذي يجري فيه، ولو كان كذلك لما أمكنه من الحياة في البرزخ.

فالمقصود أنها غيرُ معلومةٍ لنا؛ فإذا كانت توصف بهذه الصفات وهي غير معلومة لنا؛ فكيف يحاول العبد الضعيف الذي فكره محدودٌ وعلمه قاصرٌ أن يعرف ربَّه ويصفه بما يصف به المخلوق، هذا هو المقصود من ذكر الروح.

* * *

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠/ ٤٩٩) برقم (١٨٥٣٤)، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى:

﴿«وَالنَّاسُ مُضْطَرِبُونَ فِيهَا: فَمِنْهُمْ طَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ يَجْعَلُونَهَا جُزْءًا مِنَ الْبَدَنِ، أَوْ صِفَةً مِنْ صِفَاتِهِ، كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ: إِنَّهَا النَّفَسُ أَوْ الرِّيحُ الَّتِي تردد فِي الْبَدَنِ، وَقَوْلِ بَعْضِهِمْ: إِنَّهَا الْحَيَاةُ أَوْ الْمِزَاجُ أَوْ نَفْسُ الْبَدَنِ».

الشرح

يعني: قال بعضهم: «أن النفس والريح شيء واحد»، وهذا ليس بصحيح، ليست الريح النفَس، وليست الدم الذي يجري في البدن ويضخه القلب، وإذا توقف القلب مات الإنسان، ليست هذه هي؛ لأنها وُصفت بأنها تعرج، وتذهب، إذا قُبض الإنسان؛ فالذي يقبضه الملائكة.

والقبض: هو إخراج الروح، كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾، قوله: ﴿بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾ بالضرب؛ يضربونهم: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾، يقولون لهم: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾، يعني: أرواحكم. ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣]، فتتفرق الروح في الجسد، وتشبَّث به وتتمسك به، فينتزعونها انتزاعًا شديدًا.

يقول الرسول ﷺ: **«كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ»**(١)، **«السفود»**، يعني: الحديد، الذي يُشوى به اللحم، إذا أُحمي في النار ثم أدخلته في صوفٍ فيه بلل؛ يتمسك عليه الصوف، يصير كتلة عليه؛ فكذلك الروح تتمسك بالأعصاب واللحم فينتزعونها انتزاعًا شديدً، فيخرج معها شيئًا؛ لأنها ترى العذاب وتُخاطب به، فلا تريد تخرج للعذاب.

فهذا مشاهد: يقول لي أحدُ الأطباء ـ الذي شاهد نزعَ الناسِ أرواحهم ـ؛ يقول: شاهدتُ في أوروبا الأموات، ما يموت الواحد منهم إلا بعد جهد ومشقة عظيمة، أما المسلمون فتخرج روحهم بسهولة.

وهذا موجودةٌ في نصوص القرآن والسنة، فالرسول ﷺ يقول: «**إذا كانت**

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠/ ٤٩٩) برقم (١٨٥٣٤)، من حديث البراء بن عازب ﷺ.

الروح طيبة جاء ملك الموت جلس عند رأسه، يخاطبه: أيتها الروح، اخْرُجِي رَاضِيَةً مَرْضِيًّا عَنْكِ إِلَى رَوْحِ اللهِ، وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ»[1] فتخرج تُسلُّ من فيه مثل قطرة الماء الذي تخرج مِن فِي السقا ـ يعني بسهولة ـ؛ أما إذا خوطب قيل: اخرجي إلى عذاب الله وسخطه؛ فإنها يصعب خروجها.

ولهذا يقول: «**ينتزعها انتزاعًا**» ملك الموت، كل هذه حقائق لا نعرف حقيقتها، ولكن نؤمن بما قاله الله وقاله الرسول ﷺ.

والشاهد في هذا: أنَّ لها حقيقةً، وتُمسك، وتذهب، تصعد إلى المساء؛ فإنها إذا كانت طيبة فُتحت لها أبواب السماء إلى أن تنتهي إلى السماء السابعة مع الملائكة، فيخاطبهم الله يقول: «**اكتبوا كتابه في عليين وأعيدوه إلى الأرض**»، فتُعاد إلى بدنها؛ فإذا كمُل دفنه، جاءته الملائكة، جاءه ملكانِ فأجلساه ـ روحه وبدنه وعقله وما كان عليه قبل خروجه من الدنيا ـ، فيسألانه الأسئلة التي عُرف أنه يُسئل عن ربِّه وعن دينه وعن نبيه.

فهذا كله أمرٌ أخبر به الرسول ﷺ، ونحن لا نعرف حقيقة هذا الشيء، ولا يُطمح في معرفته؛ لأنه أمرٌ غيبيٌّ.

فإذا كان هذا في الروح التي فيها الحياة ـ حياة الإنسان ـ وهي في داخلَ بدنه، فكيف الإنسان يبحث عن حقائق صفات الله وعن ذات الله ـ تعالى الله وتقدَّس ـ؟!

* * *

(١) أخرجه النسائي في سننه، في كتاب الجنائز، باب ما يلقى به المؤمن من الكرامة عند خروج نفسه (٤/٨) برقم (١٨٣٣)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

قال رحمه الله تعالى:

«وَمِنْهُمْ طَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ الْفَلْسَفَةِ يَصِفُونَهَا بِمَا يَصِفُونَ بِهِ وَاجِبَ الْوُجُودِ عِنْدَهُم، وَهِيَ أُمُورٌ لَا يَتَّصِفُ بِهَا إِلَّا مُمْتَنِعُ الْوُجُودِ، فَيَقُولُونَ: لَا هِيَ دَاخِلَةٌ فِي الْبَدَنِ وَلَا خَارِجَةٌ، وَلَا مُبَايِنَةٌ لَهُ وَلَا مُدَاخِلَةٌ لَهُ، وَلَا مُتَحَرِّكَةٌ وَلَا سَاكِنَةٌ، وَلَا تَصْعَدُ وَلَا تَهْبِطُ، وَلَا هِيَ جِسْمٌ وَلَا عَرَضٌ».

الشَّرح

كذلك من اضطرابهم أنهم يقولون: «النَّفَس الذي يخرج من البدن ويرجع فيه، فإذا انقطع النَفَس مات الإنسان»، ومنهم من يقول: «هي الدم الذي فيه»؛ وكلُّ هذا كذبٌ، فالله ﷻ أخبر أنهم لا يعلمون شيئًا منها.

وليست الروح هي النَفَس ولا الدم ولا الريح، ولا هي جزءٌ من البدن ولا المزاج، وإنما هي خلقٌ لا يعلمه إلا الله، كما أخفى أمرها ﷻ؛ فإنه لا يمكن للإنسان أن يعرف إلا ما علَّمه الله ﷻ، فقال ﷻ: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥]، فهي من أمر الله ﷻ وليست هي أمرُه، وليست هي من صفاته، بل هي من صفات الإنسان، وهي أيضًا تتألَم، وتتنعم، وتستقلُّ عن البدن، ثم ترجع إليه، وهي التي بها حياةُ البدن؛ وإذا فارقت البدن صار البدن هامدًا لا حركة فيه، ومعلوم أنها تفارقه ودمه فيه.

قوله: «وَمِنْهُمْ طَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ الْفَلْسَفَةِ يَصِفُونَهَا بِمَا يَصِفُونَ بِهِ وَاجِبَ الْوُجُودِ عِنْدَهُم». هذا من أبعد الأشياء؛ لأنهم يصفون شيئًا لا حقيقةَ له؛ لأنهم يقولون: «لا فوق، ولا تحت، ولا يمين، ولا شمال، ولا داخل العالم، ولا خارج العالم، ولا تصح الإشارة إليه»، إلى آخر الهذيان الذين يهذون به، وكلُّه وصفٌ للعدم المحض الذي لا يُمكن أن يوجد مع هذه الأوصاف؛ فكذلك الروح يصفونها بهذه الأشياء؛ هذا كلام أشبه بكلام المجانين.

المقصود: أنَّ هذا من الكذب والدجل، وردٌّ للأمور التي يُخبر الله ﷻ بها، مثل الكلام الفارغ الذي لا قيمة له، إنما هو تكذيبٌ لما يخبر الله ﷻ به ويخبر به

رسوله، ولكن ـ مثل ما سبق ـ المؤلف أراد أن يجمع أقوال الناس، وهو قد اطلع على أقوال الخلق في هذه المجالات كلها؛ من أقوال الكافرين وأقوال الملاحدة وأقوال أهل الإسلام؛ حيث صار عنده من الذكاء والفطنة والحفظ الشيء الغريب الذي يُستغرب.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَقَدْ يَقُولُونَ: أَنَّهَا لَا تُدْرِكُ الْأُمُورَ الْمُعَيَّنَةَ، وَالْحَقَائِقَ الْمَوْجُودَةَ فِي الْخَارِجِ؛ وَإِنَّمَا تُدْرِكُ الْأُمُورَ الْكُلِّيَّةَ الْمُطْلَقَةَ».

الشَّرح

قوله: «**الْكُلِّيَّةَ**». التي لا حقيقة لها، مثل: إذا قلت: «إنسانية»، «حيوانية». هل لها حقيقة؟! ليس لها حقيقة، ولكن لو قلت: «إنها ليست جوهرًا ولا عرَضًا»، يقولون: كل الوجود لا يخرج عن هذا الشيء؛ إما أن يكون جوهرًا، أو يكون عرَضًا، و«**الجوهر**»: هو ما قام بنفسه وشغل مكانًا وشوهد، **أما** «**العرَض**»: فهو الذي لا يقوم بنفسه، وإنما يقوم بغيره، مثل: العلم والجهل، والألوان، وغيرها؛ فهم يصفون رب العالمين بذلك، يقولون: «ليس بجوهرٍ ولا عرَضٍ»، والجوهر والعرَض صار من الأمور المنكرة، التي كُذِّب الله ﷻ بها وكُذِّب به رسوله؛ غيرَ أن هذه أمورٌ مدرَكة في الأمور المادية والمخلوقة، أما أن يقال ذلك في رب العالمين فلا يجوز؛ فهم يقولون ذلك في الروح، يقولون ليست بجوهر ولا عرَض! إذن.. ماذا تكون؟! يعني لا وجود لها!

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «وَقَدْ يَقُولُونَ: أَنَّهَا لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ، وَلَا مُبَايِنَةٌ لَهُ وَلَا مُدَاخِلَةٌ، وَرُبَّمَا قَالُوا: لَيْسَتْ دَاخِلَةً فِي أَجْسَامِ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَةً عَنْهَا، مَعَ تَفْسِيرِهِمْ لِلْجِسْمِ، بِمَا لَا يَقْبَلُ الْإِشَارَةَ الْحِسِّيَّةَ، فَيَصِفُونَهَا بِأَنَّهَا لَا يُمْكِنُ الْإِشَارَةُ إِلَيْهَا وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ السَّلْبِيَّةِ الَّتِي تُلْحِقُهَا بِالْمَعْدُومِ والْمُمْتَنِعِ».

الشَّرح

المقصودُ لنا أن الله ﷻ أخبر أنها في البدن، وأنها التي تحصلُ لها الحياة ونحن لا نعرف حقيقتها؛ فإذا كان كذلك لا نعرف حقيقة الروح وهي في أبداننا، فكيف يطمع العاقل أنَّه يعرف حقيقة رب العالمين وحقيقة أوصافه؟! هذا هو المقصود. أما كلام هؤلاء فهذا كلامٌ لا فائدة فيه، بل هو كلامٌ أشبه بهذيان السكران.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: إِثْبَاتُ مِثْلِ هَذَا مُمْتَنِعٌ فِي ضَرُورَةِ الْعَقْلِ. قَالُوا: بَلْ هَذَا مُمْكِنٌ، بِدَلِيلِ أَنَّ الْكُلِّيَّاتِ مُمْكِنَةٌ مَوْجُودَةٌ، وَهِيَ غَيْرُ مُشَارٍ إِلَيْهَا».

الشرح

قوله: «قَالُوا: بَلْ هَذَا مُمْكِنٌ بِدَلِيلِ أَنَّ الْكُلِّيَّاتِ...». الكليات هذه لا حقيقة لها؛ لأنها مثل إذا قُلت: «إنسانية»، «حيوانية»، وما أشبه ذلك، فهذا شيءٌ يُتكلَّم به فقط، شيءٌ يُتصوَّر في الذِّهن؛ أما أن يكون له حقيقةٌ في الخارج فلا.

والكليَّات لا حقيقة لها، والموجودة في الأذهان مِثل ما مُثِّل بالإنسانية والحيوانية؛ هذه أمور كليَّة، غير مشاهدة ولا قائمةٌ بنفسها ولا حقيقة لها أيضًا، فالخيال لا حَدَّ له؛ يتخيل الإنسان بعقله أشياء لا يكون لها حقيقة.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَقَدْ غَفَلُوا عَنْ كَوْنِ الْكُلِّيَّاتِ لَا تُوجَدُ كُلِّيَّةً إِلَّا فِي الْأَذْهَانِ لَا فِي الأعِيَانِ؛ فَيَعْتَمِدُونَ فِيمَا يَقُولُونَهُ فِي الْمَبْدَأِ وَالْمُعَادِ عَلَى مِثْلِ هَذَا الْخَيَالِ الَّذِي لَا يَخْفَى فَسَادُهُ عَلَى غَالِبِ الْجُهَّالِ».

الشَّرح

قوله: «وَقَدْ غَفَلُوا عَنْ كَوْنِ الْكُلِّيَّاتِ». الكليات لا وجود لها في الكون، إنما هي خيال يتخيله الذهن.

قوله: «الْمَبْدَأِ وَالْمُعَادِ»، يعني: مبدأ الخلق ومعادهم، فهم ينكرون كون هذا العالم وُجد بعد أن كان معدومًا، فيقولون: «لم يزل كذا»، وكذلك المعاد ينكرونه؛ وينكرون الحساب والجنة والنار وغير ذلك، وهؤلاء لا يُلتفت إليهم؛ لأنهم ليسوا مسلمين، وكلامهم مردودٌ عليهم ولا فائدة فيه، فإذا كان هذا قولهم، فهم كفرة ولا عبرة لقولهم.

قوله: «غَالِبِ الْجُهَّالِ»: يعني: إذا كان لا يخفى على الجُهَّال، فكيف يخفى على العلماء ظاهر المسائل؟!

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿«وَاضْطِرَابُ النفاة وَالْمُثْبِتَةِ فِي الرُّوحِ كَثِيرٌ، وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الرُّوحَ ـ الَّتِي تُسَمَّى بِالنَّفْسِ النَّاطِقَةِ عِنْدَ الْفَلَاسِفَةِ ـ لَيْسَتْ هِيَ مِنْ جِنْسِ هَذَا الْبَدَنِ، وَلَا مِنْ جِنْسِ الْعَنَاصِرِ وَالْمُوَلَّدَاتِ مِنْهَا؛ بَلْ هِيَ مِنْ جِنْسٍ آخَرَ مُخَالِفٍ لِهَذِهِ الْأَجْنَاسِ؛ فَصَارَ هَؤُلَاءِ لَا يَعْرِفُونَهَا إِلَّا بِالسُّلُوبِ الَّتِي تُوجِبُ مُخَالَفَتَهَا لِلْأَجْسَامِ الْمَشْهُودَةِ، وَأُولَئِكَ يَجْعَلُونَهَا مِنْ جِنْسِ الْأَجْسَامِ الْمَشْهُودَةِ، وَكِلَا الْقَوْلَيْنِ خَطَأٌ».

الشرح

قوله: «وَاضْطِرَابُ النفاة وَالْمُثْبِتَةِ فِي الرُّوحِ كَثِيرٌ...». وبعضهم يقول: «إنها جسم نوراني يذهب ويصعد ويأتي» كما يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «الروح»، وهذا لا دليل عليه، بل يجب أن نقول كما قال ربنا ـ: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾ [الإسراء: ٨٥]، لا تحيطون بها ولا تعرفونها ولن تعرفوها.

فالمقصود: أنها إذا كانت في بدن الإنسان وهو لا يعرفها؛ فكيف يحاول أن يعرف وصفَ الله ﷻ بالأوصاف التي هو أولى بها من المخلوق؟ فلهذا يجب أن نصف ربنا ﷻ بما وصف به نفسَه، ونجعل أوصافَه تليق به من العظمة، ولا يشاركه فيها المخلوق.

قوله: «كِلَا الْقَوْلَيْنِ خَطَأٌ». خطأ وظنون كاذبة؛ لأنه كلام بلا علمٍ. والإنسان إذا تكلَّم بالشَّيء الذي لا يعلمه، لا بُدَّ أن يخطئ.

يقولون: «ليست من جنس العناصر والمولَّدات»، العناصر مثل: اليبوسة، والرطوبة، والهواء، والماء وما أشبه ذلك من عنصر التراب، وعنصر الماء، وعنصر الهواء؛ هذه أمورٌ مشاهدة ومحسوسة. هم يقولون: «ليست من جنس هذه». نعم، هي ليست من جنس ذلك، ولكنها مخلوقة، الله خلقها ﷻ وجعل بها حياة الحيوانات التي تسير فيها الروح.

قال رحمه الله تعالى:

«وَإِطْلَاقُ الْقَوْلِ عَلَيْهَا بِأَنَّهَا جِسْمٌ، أَوْ لَيْسَتْ بِجِسْمٍ، يَحْتَاجُ إِلَى تَفْصِيلٍ، فَإِنَّ لَفْظَ «الْجِسْمِ» لِلنَّاسِ فِيهِ أَقْوَالٌ مُتَعَدِّدَةٌ اصْطِلَاحِيَّةٌ غَيْرُ مَعْنَاهُ اللُّغَوِيِّ».

الشَّرح

قوله: «وَإِطْلَاقُ الْقَوْلِ عَلَيْهَا بِأَنَّهَا جِسْمٌ»، يعني: إطلاق القول على الروح بأنها جسم فيه تفصيل، وذلك أن الناس تختلف في تعريف الجسم كما ذكر المؤلف.

ومن يقول: «إنها جسمٌ نوراني يصعد ويهبط وكذا...» فهذا غير صحيح؛ لأنها لا تُعرَف أهي جسمٌ أم غير جسم؟ هذا شيءٌ يجب أن نكلُه إلى الله ﷻ، ونقول كما قال لنا ربنا ﷻ: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾ [الإسراء: ٨٥]، والصحيح أن هذه الآية مقصود بها الروح التي هي الحياة.

وكما جاء في سبب النزول؛ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: كُنْتُ أمشِي مع رسول الله ﷺ في حرثٍ بالمدينةِ وهو مُتَّكِئٌ على عسِيبٍ، فمَرَّ بقومٍ من اليهود، فقال بعضهم لبعضٍ: سلُوهُ عن الرُّوحِ، وقال بعضهم: لا تسألُوهُ عن الرُّوحِ، فسألُوهُ، «فقَامَ مُتوكِّئًا على العسِيبِ وأنَا خلْفهُ فظَنَنْتُ أنَّهُ يُوحى إليه، فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾ [الإسراء: ٨٥]، فقالَ بعضُهُم لبعضٍ: قد قُلنَا لكُم لا تَسألُوهُ»[(١)].

فالمقصود: أنَّ الله ﷻ نفى علم الخلق بها وأخبر أنها من أمره - تعالى وتقدس -، فيجب أن نقف عند هذا ولا نبحث من ورائه.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧١﴾ [الصافات: ١٧١] (٩/ ١٣٥) برقم (٧٤٥٦)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب سؤال اليهود النبي ﷺ عن الروح وقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ﴾ [الإسراء: ٨٥]، (٤/ ٢١٥٢) برقم (٢٧٩٤).

والشاهد الذي أراده المؤلف هنا أن الروح تكون في البدن، وهي التي بها الحياة. ومع ذلك لا يعرفون حقيقتها مع أنها مخلوقةٌ، وموجودةٌ معهم؛ فكيف يُطمع في أن يعرف حقيقة ربِّ العالمين الذي هو لا يُماثله شيء، لا في صفاته، ولا في ذاته، ولا في فعله الذي يخُصُّه ـ تعالى وتقدس ـ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَأَهْلَ اللُّغَةِ يَقُولُونَ: الْجِسْمُ هُوَ الْجَسَدُ وَالْبَدَنُ. وَبِهَذَا الِاعْتِبَارِ فَالرُّوحُ لَيْسَتْ جِسْمًا؛ وَلِهَذَا يَقُولُونَ: الرُّوحُ وَالْجِسْمُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]».

الشرح

قوله: «**فَأَهْلَ اللُّغَةِ يَقُولُونَ: الْجِسْمُ هُوَ الْجَسَدُ وَالْبَدَنُ**»، يعني: البدن المعروف، وعلى هذا: فالروح لا تكون جسمًا على هذا الاصطلاح، وهم يفرِّقون بين الروح والجسم كما ذكر الله تعالى في قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، وقوله: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، فالروح والجسم في اللغة متغايران.

وتعريف أهل اللغة هو التعريف الصحيح، يعني: تعريف الجسم هو الجسد والبدن، أما أهل الكلام، فهم يختلفون اختلافًا كبيرًا؛ فمنهم مَن يقول: «الجسم ما كان مركَّبًا»، ومنهم مَن يقول: «الجسم ما شغل مكانًا»، ومنهم من يقول: «الجسم ما صحَّ أن يُقال هنا وهناك»... إلى آخره، وسيُذكَر بعضُ أقوالهم.

والروح لا تُرى، والرسول ﷺ لما أُسري به اجتمع بالأنبياء في بيت المقدس وصلَّى بهم، وكذلك مرَّ على موسى عليه السلام في قبره وهو قائمٌ يُصلي في قبره، ولما عُرج به إلى السماء شاهدهم في منازلهم، أي: المنازل التي أنزلهم الله إياها.

كل هذا: الله أعلم بحقيقته، وهم كلَّموه وسلَّموا عليه، ومعلومٌ أنهم قد ماتوا؛ فإذًا: هذا المُشاهد لا يخلو إما أن تكون صورهم فيها يعني: حقيقة أرواحهم وكلَّموه بذلك، أو أن الله ﷻ أحياهم له.

ومثل ذلك كثيرٌ، جاء في السُنة لا نعرف حقيقته، مثل قوله ﷺ: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ**

الأُمَمُ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ وَالنَّبِيَّانِ يَمُرُّونَ مَعَهُمُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»[١]، إلى آخره، وهو كثيرٌ في ذكره ﷺ، وكل ذلك من قدرة الله، والروح تخرج من البدن فيموت ثم يُصعد بها إلى السماء، وقد تغلق دونه أبوابُ السماء.

كما إذا كان كافرًا أو فاجرًا؛ كما في حديث البراء بن عازب وغيره[٢]، أخبر ﷺ أنه إذا وُضع في قبره أنَّ الرُّوح تُعاد إليه؛ ثم يأتيه الملكان ويسألانِه ويكون في عقله، وفي فكره الذي خرج به من الدُّنيا عندما يُسأل؛ والبدن لا يكون كذلك وحده، بل لا بُدَّ أن تجتمع فيه الروح، ثم يُفتح له بابٌ من قبره إلى الجنَّة وإلى النَّار ـ كلاهما معًا ـ، فيُقال له: «انظر إلى منزلك»؛ فإن كان من أهل الجنة يزداد غبطةً وسرورًا، وإن كان من أهل النار يزدادُ همًّا وعذابًا؛ لأنه فاته منزله في الجنة، وكل ذلك ليس على البدن فقط، بل على البدن والروح معًا.

* * *

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الطب، باب من اكتوى أو كوى غيره، وفضل من لم يكتو (١٢٦/٧) برقم (٥٧٠٥)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب (١٩٩/١) برقم (٢٢٠)، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد برقم (١٨٥٣٤)، وأبو داود برقم (٤٧٥٣)، والترمذي برقم (١٠٧١)، والحاكم برقم (١٠٧).

قال رحمه الله تعالى:

«وَأَمَّا أَهْلُ الْكَلَامِ: فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ الْجِسْمُ هُوَ الْمَوْجُودُ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هُوَ الْقَائِمُ بِنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هُوَ الْمُرَكَّبُ مِنَ الْجَوَاهِرِ الْمُفْرَدَةِ».

الشَّرح

قوله: «وَأَمَّا أَهْلُ الْكَلَامِ»، يعني: أنهم اختلفوا في تعريف الجسم، فمنهم من يقول: «**الْجِسْمُ هُوَ الْمَوْجُودُ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هُوَ الْقَائِمُ بِنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هُوَ الْمُرَكَّبُ مِنَ الْجَوَاهِرِ الْمُفْرَدَةِ**»، وذلك أن كل موجودٍ في الكون لا يخلو إمَّا أن يكون جوهرًا أو يكون عَرَضًا؛ فـ«**الجوهر**»: ما قام بنفسه، وأما «**العرض**»: فهو ما لا يقوم إلا بغيره؛ كالألوان والعلم والجهل والمرض والصحة، فلا بُدَّ أن تكون بغيرها، ولا تجدها قائمة بنفسها.

ولهذا بعضهم يجعل الصِّفات أعراضًا ويقول: «إن الله ليس بجوهر ولا عرضٍ»، وهؤلاء هم النُّفاة الذين يظنُّون أنهم ينزِّهون الله، وفي الواقع يعطِّلون صفاتِ الله ﷻ؛ لأنهم تصوَّروا أنَّ الله مثلهم - تعالى الله وتقدس عن قولهم علوًّا كبيرًا -.

المقصود: أنَّ هذا كُلَّه كلامهم في اضطرابهم في الجسم، والصحيح أن الجسم هو البدن المُركَّب من اللحم والعضم والدم، هذا جسم المخلوق، ولهذا أخبر الله ﷻ أن الرجل الذي صار مَلِكًا لبني إسرائيل زاده بسطةً في العلم والجسم، وهو واضح.

والآن صار هذا الكلام باطلًا في «**الْجَوَاهِرِ الْمُفْرَدَةِ**»؛ لأن عندهم الشيء ينتهي إلى جزءٍ لا يقبل التجزئة، وهذا الذي يسمونه جوهرًا منفردًا، وهذا تبيَّن أنه غير صحيح، فالذرة تصير إلى ما له نهاية، فبطل به هذا القول الذي يقوله المتكلمون.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هُوَ الْمُرَكَّبُ مِنَ الْمَادَّةِ وَالصُّورَةِ، وَكُلُّ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: إِنَّهُ مُشَارٌ إِلَيْهِ إِشَارَةً حِسِّيَّةً».

الشرح

يعني: هذا اختلافٌ في الشيء الذي يُشاهَد ويُحسُّ ويُرى، ولكن المقصود: كلمة «الجسم»؛ وهذا يجعلونه أصلًا في نفي الصفات؛ لأنهم يقولون: «لا نعرف قائمًا بنفسه يتصف بالصفات إلا جسمٌ، فإذا وصفتم الله بالصفات لزمكم أن تصفوه بأنه جسمٌ».

فيقال لهم: الله ليس كمثله شيء ـ تعالى وتقدس ـ، ولكن الجسم إذا كنتم تريدون أنه لا بُدَّ أن يكون قائمًا بنفسه فنحن نقول: نعم، هو قائمٌ بنفسه، وهو أكبر من كلِّ شيءٍ، ولكن لا نسمِّيه جسمًا، ولا يجوز أن يُسمَّى جسمًا.

قوله: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هُوَ الْمُرَكَّبُ مِنَ الْمَادَّةِ وَالصُّورَةِ». أي: ما تركب من شيئين فأكثر، فتصحُّ الإشارة إليه. و«**المادة**»: هي التي يكون فيها التركيب بين اثنينِ أو أكثرَ، تُسمَّى مادَّةً عندهم، و «**الصُّورة**» تكون بعد التَّركيب.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: لَيْسَ بمركب مِنْ هَذَا وَلَا مِنْ هَذَا، بَلْ هُوَ مِمَّا يُشَارُ إِلَيْهِ وَيُقَالُ: إِنَّهُ هُنَا أَوْ هُنَاكَ».

الشَّرْح

قوله: «بَلْ هُوَ مِمَّا يُشَارُ إِلَيْهِ»، يعني: كل ما صحت الإشارة إليه فهو جسم؛ كأن تقول: هو هنا أو هناك، أو فوق وتحت، أو يمين وشمال.

على كل حال: فالجسد في لغة العرب هو ما تكوَّن من اللحم والدم والعظام، وهو البدن كما قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، وقال: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، فالجسمُ هو المشاهَد للإنسان من وجهه ويديه ورجليه وسائر بدنه؛ ولهذا يقول المعطِّلة: «إن الله ليس بجسمٍ»، وكل هذا نفيٌ لما علق في أذهانهم.

فالله ﷻ يجب أن نقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى: ١١]، لا نقول: ليس كجسم؛ لأن الجسم لن يأتي نفيه ولا إثباته عن الله ﷻ، والشيء الذي لم يأتِ نفيه ولا إثباته يجب ألا نثبته ولا ننفيه.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «فَعَلَى هَذَا إِنْ كَانَتْ الرُّوحُ مِمَّا يُشَارُ إِلَيْهَا وَيَتْبَعُهَا بَصَرُ - الْمَيِّتِ - كَمَا قَالَ النَّبي ﷺ: «**أَنَّ الرُّوحَ إِذَا خَرَجَتْ تَبِعَهَا الْبَصَرُ وَأَنَّهَا تُقْبَضُ وَيُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ**»».

الشَّرح

يقول الرسول ﷺ: «**إِذَا حَضَرْتُم مَوْتَاكُمْ، فَأَغْمِضُوا الْبَصَرَ**»(١)، يعني: إذا تُرك مفتوحَ العينين، فقد يحدث له بعض التَّشوُّه؛ لأنه إذا تُرك قليلًا يبس، ولن تغمض عيناه، وإنما تُغمض مباشرة بعد ما تخرج الروح؛ حتى لا يكون به تشويهٌ، فهذا يقول: إن سبب فتح العينين خروج الروح، فإذا خرجت ينظر إليها البصر، فتبقى العينان مفتوحتين؛ ولهذا جاء الأمر بتغميضه مباشرة.

* * *

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، في كتاب الجنائز، باب ما جاء في تغميض الميت (١/٤٦٨)، برقم (١٤٥٥)، وأحمد في مسنده (٢٨/٣٥٩)، برقم (١٧١٣٦)، من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى:

«... كَانَتْ الرُّوحُ جِسْمًا بِهَذَا الِاصْطِلَاحِ...».

الشرح

هذا كلام لا فائدة فيه، ولا يُعطي أي حقيقةً من الحقائق؛ لأنه تخرُّصٌ ورجمٌ بالغيب؛ لأن الله ﷻ أخفى أمرها، لهذا لا أحد يطمع أن يُحاول إعادة الحياة.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ الرُّوحَ إِذَا كَانَتْ مَوْجُودَةً حَيَّةً عَالِمَةً قَادِرَةً، سَمِيعَةً بَصِيرَةً، تَصْعَدُ وَتَنْزِلُ، وَتَذْهَبُ وَتَجِيءُ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ...».

الشرح

قوله: «سَمِيعَةً بَصِيرَةً، تَصْعَدُ وَتَنْزِلُ، وَتَذْهَبُ... إلى آخره»، كل هذا لم يأتِ به شيء من كتاب الله ﷻ ولا من حديث رسوله ﷺ.

الذي ورد في الحديث؛ أن الملائكة تعرج بها، وأنها تعاد إلى جسدها، وغير ذلك.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَالْعُقُولُ قَاصِرَةٌ عَنْ تَكْيِيفِهَا وَتَحْدِيدِهَا؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُشَاهِدُوا لَهَا نَظِيرًا، وَالشَّيْءُ إِنَّمَا تُدْرَكُ حَقِيقَتُهُ إما بِمُشَاهَدَتِهِ أَوْ مُشَاهَدَةِ نَظِيرِهِ، فَإِذَا كَانَتْ الرُّوحُ مُتَّصِفَةً بِهَذِهِ الصِّفَاتِ مَعَ عَدَمِ مُمَاثَلَتِهَا لِمَا يُشَاهَدُ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ...».

الشَّرح

يقول: إن هذا المثال، مثالٌ لما يجعله هؤلاء المتكلمون أنه غير مُدركٌ بالعقل، **ويقول أيضًا**: الروح عندكم ما تُدرك في العقل وهي حقيقة موجودة وقد وصفت بهذه الصفات كُلها وأنتم ما استطعتم معرفة كنهها، فكيف تنفون أن يكون الله ﷻ له الحياة المُطلقة، وله الصفات الكاملة، وهو على كلِ شيءٍ قديرٌ، وبكل شيءٍ عليمٌ، وهو أكبرُ من كلِّ شيء، وأعظم من كلِّ شيء.

فإذا أنكر وجود الله فلا يصح في الأذهان شيء؛ فكل شيءٍ يمكن أن يُجحد ولا يكون له وجودٌ عند هذا المُنكر؛ إلا الوجود المُطلق الذي يكون داخل الفكر فقط، ليس خارجًا عنه!

ولو قيل مثلًا: صفوا لنا جبريل عليه السلام؟ لما استطاعوا، ولن يستطيع أحد من بني آدم أن يصفه؛ لأن جبريل عليه السلام له أكثر من ست مئة جناح، أين هذه الأجنحة؟ والرسول ﷺ رآه على صورته التي خلقه الله عليها وقد سد الأفق، فهي مخلوقة من مخلوقات الله ﷻ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

ﷺ «فَالْخَالِقُ أَوْلَى بِمُبَايَنَتِهِ لِمَخْلُوقَاتِهِ مَعَ اتِّصَافِهِ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ؛ وَأَهْلُ الْعُقُولِ هُمْ أَعْجَزُ عَنْ أَنْ يَحُدُّوهُ أَوْ يُكَيِّفُوهُ مِنْهُمْ عَنْ أَنْ يَحُدُّوا الرُّوحَ وَيُكَيِّفُوهَا».

الشَّرْح

هذا وجه ضرب المثل بهذا: أن الروح في أبداننا ولا نعرف حقيقتها مع أنها مخلوقة، ووُصفت بأنها تصعد وتهبط وتألم وتنعم، وغير ذلك من الأوصاف؛ ونحن لا نعرف حقيقتها، فكيف الإنسان ـ إذا كان عنده عقلٌ ـ يطمع في أن يعرف حقائق صفات الله وكيفياتها أو قد يترقَّى إلى معرفة ذات الرب؟! فهذا ممتنع أشد الامتناع.

فالمقصود: أن هذا تمثيل فقط، وإلَّا فالأمر أكبر من ذلك، أي: أن مباينة الرب ﷻ للمخلوقات أمرٌ كبيرٌ جدًّا.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿«فَإِذَا كَانَ مَنْ نَفَى صِفَاتِ الرُّوحِ جَاحِدًا مُعَطِّلًا لَهَا، وَمَنْ مَثَّلَهَا بِمَا يُشَاهِدُهُ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ جَاهِلًا مُمَثِّلًا لَهَا بِغَيْرِ شَكْلِهَا، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ ثَابِتَةٌ بِحَقِيقَةِ الْإِثْبَاتِ، مُسْتَحِقَّةٌ لِمَا لَهَا مِنَ الصِّفَاتِ: فَالْخَالِقُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ أَوْلَى أَنْ يَكُونَ مَنْ نَفَى صِفَاتِهِ جَاحِدًا مُعَطِّلًا وَمَنْ قَاسَهُ بِخَلْقِهِ جَاهِلًا بِهِ مُمَثِّلًا، وَهُوَ ـ سُبْحَانَهُ ـ ثَابِتٌ بِحَقِيقَةِ الْإِثْبَاتِ مُسْتَحِقٌّ لِمَا لَهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ».

الشَّرح

وهذا أمرٌ لا بدَّ منه، وإلا لا يكون الإنسان مُسلمًا ولا يكون سالمًا من عذاب الله ﷻ، والله خلق الإنسان ليكون عبدًا له، فإذا أنكر وجودَ الله وأنكر اتِّصافه بالصفات التي وصف به نفسه، وأنكر أسمائه فقد كفر بالله ﷻ، خرج عما خُلق له، فاستحقَّ أن يكون مع عدوِّ الله ﷻ، مع الشيطان.

ومعنى هذا أنه هو بنفسه اكتسب عذاب الله ﷻ؛ لأنه عنده عقلٌ وفكر، قد وُضع له آياتٌ كبيرة تدل على الله؛ فمخلوقات الله ﷻ كلُّها دلائلُ وحقائقُ تدلُّ على أن الله ﷻ هو الذي يجب أن يُعبد وأنه ليس كمثله شيء، وأنه تعالى هو المُتصرِّف في الكون كلِّه، وحتى في نفس الإنسان دلائلُ على هذا كما قال ﷻ: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢١]، فمن عمي عن هذه الأمور فهو في الآخرة أشد عمًى، ويحشره الله ﷻ يوم القيامة أعمى كما أخبر الله ﷻ عن هؤلاء.

قوله: «وَهُوَ ـ سُبْحَانَهُ ـ ثَابِتٌ بِحَقِيقَةِ الْإِثْبَاتِ مُسْتَحِقٌّ لِمَا لَهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ». هذا يجب أن يُؤخذ من كتاب الله ﷻ، أما إذا رجعنا إلى القياسات وإلى الأمور التي يقولها هؤلاء، حصل الاضطراب وحصل الجهل.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَصْلٌ: وَأَمَّا الْخَاتِمَةُ الْجَامِعَةُ فَفِيهَا قَوَاعِدُ نَافِعَةٌ...».

الشرح

قوله: «**وَأَمَّا الْخَاتِمَةُ الْجَامِعَةُ فَفِيهَا قَوَاعِدُ نَافِعَة**»، يعني: أن خاتمة الكتاب تحتوي على قواعد يرجع إليها فروع كثيرة، والقاعدة هي التي تكون مرجعًا لما يتفرع عنها من المعاني والأقوال التي تقال.

وهذه «**الْخَاتِمَةُ الْجَامِعَةُ**» هي التي ختم بها الكتاب، ولكنها خاتمة مطوَّلة، جعل فيها سبع قواعد سيذكرها، وهي قواعد في الصفات، وكل قاعدةٌ تُبطل ما عليه المتكلمون.

* * *

الْقَاعِدَةُ الْأُولَى

قال رحمه الله تعالى:

«الْقَاعِدَةُ الْأُولَى: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ مَوْصُوفٌ بِالْإِثْبَاتِ وَالنَّفْيِ.

فَالْإِثْبَاتُ كَإِخْبَارِهِ بِأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَعَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ، وَنَحْوُ ذَلِكَ، وَالنَّفْيُ كَقَوْلِهِ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ».

الشرح

«**القاعدة...**» هي: الكُلِّيَّة التي يُرجع إليها في أمورٍ كثيرة، والغالب أن آيات الله ﷻ كُلِّيَاتٌ، تدلُ على أمورٍ لمن فهمها، وكُلها إذا أُرجعت إليه تكون حقًا، وكذلك كلام رسوله ﷺ هو قواعد، كقوله: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»[(١)]، وقوله: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[(٢)]، وقوله: «**الحَلَالُ بَيِّنٌ، وَالحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبَهَاتٌ**»[(٣)] إلى آخره؛ فالقاعدة الجامعة التي يتفرع منها أمورٌ كثيرة، ويجب أن يُرجع إليها في الشيء الذي يُتخذ؛ إما في حكمٍ وإما في علمٍ، وهو لا يخرج عن ذلك من الأحكام والعلم.

قوله: «الْقَاعِدَةُ الْأُولَى: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ مَوْصُوفٌ بِالْإِثْبَاتِ وَالنَّفْيِ»، هذا معناه مأخوذٌ من كلام الله ﷻ، وليست القاعدة مثلًا أنَّ الخلق يأتون بأشياء لم يذكرها الله ﷻ، بل يجعلون أوصافه وكلامه هو الأصل في هذا، يعني: إخباره عن

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور (٣/ ١٣٤٣) برقم (١٧١٨)، من حديث أم المؤمنين عائشة ﵂، والبخاري معلقًا في صحيحه، في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم، فأخطأ... (٩/ ١٠٧).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه (١/ ٢٠) برقم (٥٢)، ومسلم في صحيحه في كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات (٣/ ١٢١٩) برقم (١٥٩٩)، من حديث النعمان بن بشير ﵄.

نفسه، وكذلك إخباره عن مخلوقاته، وكذلك أمرُه ونهيه يجب أن يكون القواعد تُرجع إلى هذا ولكنها فيها كُليات يُرجع إليها.

قوله: «**إنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ مَوْصُوفٌ بِالْإِثْبَاتِ وَالنَّفْيِ**»؛ هذا ظاهر جدًّا في كتاب الله وفي أحاديث رسوله ﷺ، فالله ﷻ أثبت لنفسه الصفات؛ كالسمع والبصر والعلم والقدرة والحياة، والإرادة والكلام وغير ذلك، ونفى عن نفسه أن يكون مشابهًا لخلقه.

وهذا مأخوذٌ من كلام الله ﷻ، من قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٢]، ثم قال: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ [الإخلاص: ٣]، فهذا الأول: إثباتٌ، والثاني: نفيٌ.

وقال ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، فهذا نفيٌ، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى: ١١]، إثباتٌ.

وقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، هذا نفيٌ، وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مريم: ٦٥]، هذا نفيٌ، وهكذا، وما أشبه ذلك، وهذه قاعدةٌ يجب أن نتمسَّك بها.

وهو مأخوذٌ من كلام الله ﷻ ومن كلام رسوله ﷺ، أما الناس فلا يأتون بشيءٍ من كلامهم واصطلاحاتهم فيجعلونها قواعدَ لمعرفة الله ﷻ، فهذا لا يُمكن؛ لأنه سبق أن القاعدة عند أهل السُنة: «أن الله لا يوصف إلا بما وصف به نفسه، ولا يُسمَّى إلا بما سمى به نفسه»؛ فنحن لا نخرج عن هذا إثباتًا ونفيًا.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «وَيَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ النَّفْيَ لَيْسَ فِيهِ مَدْحٌ وَلَا كَمَالٌ، إِلَّا إِذَا تَضَمَّنَ إِثْبَاتًا، وَإِلَّا فَمُجَرَّدُ النَّفْيِ لَيْسَ فِيهِ مَدْحٌ وَلَا كَمَالٌ».

الشَّرح

قوله: «**وَيَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ النَّفْيَ لَيْسَ فِيهِ مَدْحٌ وَلَا كَمَالٌ، إِلَّا إِذَا تَضَمَّنَ إِثْبَاتًا**»؛ فإذا قال ﷻ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦]، ففيه نفيُ الظلم وإثباتُ كمال العدل لله ﷻ؛ أما النفي المحض الذي لا يتضمن إثباتًا، فهذا لا يأتي في صفة الله ﷻ؛ لأن النفي المحض عدمٌ، والعدم ليس مدحًا بل ذمًّا.

والعدم ينقسم إلى قسمين:

الأول: عدم مطلق؛ فمن ذلك: الأمر التي يقدره الذهن ويفرضه في الخيال؛ كأن يفرض جبالًا من زئبقٍ واقفةٍ بين السماء والأرض، أو يتخيل إنسانًا نصفه ثلجٌ ونصفه نارٌ، وهذه أمور لا وجود لها إلا في الذهن، وهي عدمٌ في الواقع.

الثاني: عدم مقيد مؤقت؛ وهو إما وُجد في الأزل أو سيوجد في المستقبل، وهذا يكون نفيه في وقت ما كان عدمًا، كما قال الله ﷻ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان: ١]، وقال: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾﴾ [مريم: ٩]، يعني: لم تكن شيئًا موجودًا، فهذا يكون في ذلك الوقت عدمًا، ولكنه موجود في علم الله وكتابته، أنه سيوجد.

فالنفي المُطلق المحض الخالص: لا يجوز أن يكون في صفات الله، ولا يوصف الله ﷻ بالنفي الخالص، وإنما يوصف بالنفي الذي يكون فيه إثباتُ كمالِ ضدِّ ذلك المنفيِّ، كما إذا قال الله ﷻ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦]، فهنا نفي الظُّلم، وفيه إثبات كمال العدل؛ وكما قال الله ﷻ: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فهنا نفى السِّنَة والنوم لإثبات كمال الحياة، وكما قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق: ٣٨]، فنفى اللغوب ليدلّ على كمال القدرة. وهكذا في كلِّ نفيٍ يذكره الله ﷻ؛ لأنَّ أسماءه حسنًى، و«الحسنى»: هي التي بلغت في الحُسن الغاية، فلا يتطرق إليها نقصٌ ولا عيبٌ، أما أسماء المخلوقين فليست كذلك.

قال رحمه الله تعالى:

«لِأَنَّ النَّفْيَ الْمَحْضَ عَدَمٌ مَحْضٌ؛ وَالْعَدَمُ الْمَحْضُ لَيْسَ بِشَيْءٍ، وَمَا لَيْسَ بِشَيْءٍ، فَهُوَ كَمَا قِيلَ: لَيْسَ بِشَيْءٍ؛ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ مَدْحًا أَوْ كَمَالًا».

الشَّرْح

مقصوده أن النفي في حق الله لا بُدَّ أن يكون متضمِّنًا للشيء الذي نُفي وأن يكون فيه إثبات كمال ضدِّ ذلك المنفي، كما سبق التمثيل في هذا.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَلِأَنَّ النَّفْيَ الْمَحْضَ يُوصَفُ بِهِ الْمَعْدُومُ وَالْمُمْتَنِعُ، وَالْمَعْدُومُ وَالْمُمْتَنِعُ لَا يُوصَفُ بِمَدْحٍ وَلَا كَمَالٍ».

الشَّرح

قوله: «الْمَعْدُومُ وَالْمُمْتَنِعُ» ليس بشيء، والذي ليس بشيء لا حقيقة له، وكذلك الأمور التي يمتنع وجودها ليست بشيء؛ كقولهم: هل الله ﷻ يقدر على أن يخلق مثله، فهذا ممتنع امتناعًا لا يُمكن وجوده أصلًا، والممتنع تقديرهُ أو الكلام فيه ضلالٌ، وإنَّما يؤتى به إما لأنَّ الإنسان ما يتصور هذا الكلام الذي يقوله ولا يتصور الامتناع، وإما لأنه جاهلٌ في ذلك؛ وإلا فحتى المخلوق لا يُمكن أن يتصف به، تقول: «إنه حيٌّ ميت في آنٍ واحد»، أو: «أنه جالسٌ قائم»، أو: «أنه نائمٌ مستيقظٌ»، هذا لا يمكن؛ لأنَّ هذا من الممتنع.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿«فَلِهَذَا كَانَ عَامَّةُ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ مِنَ النَّفْيِ مُتَضَمِّنًا لِإِثْبَاتِ مَدْحٍ كَقَوْلِهِ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فَنَفْيُ السِّنَةِ وَالنَّوْمِ: يَتَضَمَّنُ كَمَالَ الْحَيَاةِ وَالْقِيَامِ؛ وهُوَ مُبَيِّنٌ لِكَمَالِ أَنَّهُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ».

الشرح

قوله: «عَامَّةُ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ»، يعني: أنَّ كلَّ ما جاء في صفات الله أن هذا حكمه، ولا يخرج عنه شيء منها.

إنَّ كلَّ ما نفاه الله عن نفسه ﷻ أو نبيه ﷺ فإنه يتضمن إثبات كمال الضد. ولا يوجد في وصف الله ﷻ نفيٌ محض ليس فيه إثباتٌ؛ لأن الله له الأسماء الحسنى، وله الصفات العليا، و«الحسنى»: هي التي بلغت في الحسن الغاية؛ أما النفي: فهو نقصٌ، وهو لا يكون لله ﷻ منه شيء.

وقصد المؤلف بهذا: إثبات القاعدة، وقد تقدمت الأمثلة إثبات القاعدة: أن الله ﷻ موصوفٌ بالنفي والإثبات، ووصفه بالنفي والإثبات مأخوذٌ من كلامه ﷻ، وليس من كلام الناس؛ فيجب أن يوصف على حسب ما ذكر الله ﷻ.

ثم ذكر أن النفي لا يكون نفيًا خالصًا، وإنما يجب أن يكون في النفي إثبات كمالِ ضد ذلك المنفي، وقد يأتي أيضًا النفي عامًّا، فالأصل في النفي في حقِّ الله ﷻ أن يكون مُجملًا وليس مفصلًا.

وأما الإثبات: فهو يأتي مفصلًا، كل صفةٌ تُثبت على حِدَتِها، أما النفي فيأتي مُجملًا. وفي ذلك: الكمالُ والأدبُ، أما إذا فُصِّل النفي ففيه إساءةُ أدبٍ، وفيه أيضًا نقصٌ، حتى في حق المخلوق، إذا قيل: «لو أن إنسانًا قابل رئيسًا أو ملِكًا وقال أنت لست كالخباز ولا الزبال، ولا الكناس ولا الحجام، ولا كذا وكذا»، لقال هذا أساء الأدب، بخلاف ما إذا قال: أنت لست كأحد من شعبك؛ فإنه لما أجمل، أجمل في الأدب، وهذا يعني: مثالٌ لكلام الناس.

أما ربُّ العالمين ﷻ فلا يجوز أن يُستعمل في حقه إلا ما قاله بنفسه، فيوصف بما وصف به نفسه في الإثبات والنفي، ويجب أن يكون العبد عبدًا لله ﷻ ممتثلًا لأمره ولا يكون خارجًا عن أمره فيكون متمردًا على ربه ﷻ ويكون مع الشيطان، وإذا كان مع الشيطان فإنه يُصبح عبدًا للشيطان وليس عبدًا لله ﷻ.

والأمثلة التي يذكرُها قد مضى الكلام عليها.

قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾ [البقرة: ٢٥٥]؛ أثبت الإلهية له، وفيه إبطال كل مألوه غير الله، أي: أن التأله يجب أن يكون له وحده، وما أُلِهَ غيرُه فهو باطل، ولا حقيقة لإلهية غيره؛ وإنما هي أمور وهمية، يزينها الشيطان لأتباعه.

وقوله: ﴿ٱلۡحَيُّ﴾: الذي له الحياة الكاملة، وهذا الاسم ﴿ٱلۡحَيُّ﴾ تضمن جميع صفات الذات.

وقوله: ﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾: كذلك، له القيام الكامل، قائمٌ بنفسه غير محتاجٍ إلى غيره، فهو الغني عن كل شيء، والمُقيم لغيره، لا قيام لغيره إلا به، وهذا أيضًا يتضمن كل صفات القيومية التي هي صفات الفعل.

وقوله: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾: هذا نفيٌ، والله ﷻ لكمال حياته لا يتطرق إليه سِنةٌ ولا نومٌ - تعالى وتقدس -.

و«السِّنة»: هي مبادئ النوم، والنوم هو الاستغراق في فقد الإحساس، وهو شبيهٌ بالموت، ولهذا سماه الله موتًا في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ﴾ [الزمر: ٤٢]؛ فالنائم مُتوفًّى يجوز أن ترجع روحه ويجوز ألّا ترجع، ولهذا قال: ﴿فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾، يعني: التي في النوم ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾؛ ولو شاء لأمسكها ثم مات ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٣﴾.

وقد كان الرسول ﷺ يقول عند نومه: «**فَإِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ**»[1]، ويقول: «**اللهُمَّ بِاسْمِكَ أَحْيَا،**

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الدعوات، باب: التعوذ والقراءة عند المنام (٨/ ٧٠) برقم (٦٣٢٠)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (٤/ ٢٠٨٤) برقم (٢٧١٤)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

وَبِاسْمِكَ أَمُوتُ»(١)، وسئل ﷺ عن أهل الجنة: هل ينامون؟ فقال: «**لا، النَّوْمُ أَخُو الْمَوْتِ**»(٢)، فأهل الجنة لا ينامون لكمال حياتهم، فهم لا يحتاجون إلى نوم، أما في هذه الدنيا فالإنسان في حاجة إلى الراحة.

والله ﷻ نفى عن نفسه السِّنَة وهي مبادئ النوم، فلا تعتريه ولا تتطرق إليه لكمال حياته، ونفي السِّنة والنوم يتضمن كمال حياة الله ﷻ.

وقوله ﷻ: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، يعني: ملكًا؛ هو الذي أوجده، وهو الذي يتصرف فيه كيف يشاء، وليس لأحدٍ فيه معه شيء، وإنما هو ﷻ يؤتي المُلك من يشاء، ثم ينزعه ممن يشاء، وكذلك هو يُعز من يشأ بطاعته، وهدايته، ويذل من يشأ بمعصيته واتباع الشيطان.

وقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ هذا نفيٌ يتضمن كمال الملك، فله الملك كله، ولا أحد يستطيع أن يشفع إلا إذا أذن الله له؛ لأنَّ الشافع ليس له شيءٌ، ولا يشفع بمجرد الدعاء إلا إذا أذن لهم، وقد عرف العلماء الشفاعة بأنها إرادة رحمة الله بالمشفوع له وإظهار كرامة الشافع، ولهذا يكرم الله ﷻ رسولَه بالشفاعة في الموقف وهو المقام المحمود.

فالمقصود: أنَّ النفي في صفات الله لا بُدَّ أن يتضمَّن كمالًا ومدحًا وثناءً في مقابِلِه، وإلا لا يدخل في أسماء الله تعالى.

* * *

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (٤/ ٢٠٨٣) برقم (٢٧١١)، من حديث البراء بن عازب ﷺ.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (١/ ٢٨٢) برقم (٩١٩)، وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٩٠)، والبيهقي في الآداب (ص٢٧٨) برقم (٦٧٧)، من حديث جابر بن عبد الله ﷺ.

قال رحمه الله تعالى:

ﷺ «وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، أَيْ لَا يُكْرِثُهُ وَلَا يُثْقِلُهُ، وَذَلِكَ مُسْتَلْزِمٌ لِكَمَالِ قُدْرَتِهِ وَتَمَامِهَا، بِخِلَافِ الْمَخْلُوقِ الْقَادِرِ إِذَا كَانَ يَقْدِرُ عَلَى الشَّيْءِ بِنَوْعِ كُلْفَةٍ وَمَشَقَّةٍ، فَإِنَّ هَذَا نَقْصٌ فِي قُدْرَتِهِ، وَعَيْبٌ فِي قُوَّتِهِ».

الشرح

قوله: «﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، **أي: لا يكرثه ولا يثقله**»، يعني: أنه سهلٌ عليه ﷻ كل السهولة، ولا يثقله حفظهما، فهو المقيم لهما، وهو الحافظ لهما، يعني: أنه سهلٌ ميسورٌ عليه حفظ السماوات والأرض وما فيهما، وهذا يدلُّ على أن كامل القدرة، فحفظ السماوات والأرض ميسور وسهل لكمال قدرته، بخلاف المخلوق القادر، فإن قدر على شيء فإنه سيكون بنوع كلفة ومشقة، وهذا نقص في قدرته وعيب في قوته.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَكَذَلِكَ قَوله تَعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣]، فَإِنَّ نَفْيَ الْعُزُوبِ مُسْتَلْزِمٌ لِعِلْمِهِ بِكُلِّ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ.

وَكَذَلِكَ قَوله تَعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق: ٣٨]، فَإِنَّ نَفْيَ مَسِّ اللُّغُوبِ الَّذِي هُوَ التَّعَبُ وَالإِعْيَاءُ دَلَّ عَلَى كَمَالِ الْقُدْرَةِ، وَنِهَايَةِ الْقُوَّةِ. بِخِلَافِ الْمَخْلُوقِ الَّذِي يَلْحَقُهُ مِنَ التَّعَبِ والكلال مَا يَلْحَقُهُ».

الشرح

قوله: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، يعني: لا يغيب عنه، وهذا يستلزم كمال علمه، فعلمه محيطٌ بكل شيء وإن دقَّ، فلا يخفى عليه شيء، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان: ١٦].

فالنفي في حق الله يجب أن يكون متضمنًا لإثبات كمال ذلك المنفي. وهذا ردٌّ على الذين وصفوه بالنقص؛ من اليهود ـ تعالى الله عن قولهم ـ؛ حيث قالوا: «إنه لما خلق السماوات والأرض تعب فاستراح يوم السبت»(١)؛ ولهذا يتَّخذون يوم السبت عندهم راحةً، وكُتب عليهم أيضًا قيامُ عدم العمل فيه والقتال وغيره.

قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق: ٣٨]. أول هذه الأيام الأحد وآخرها الجُمعة، وهذه الأيام يعلم الله ما هي؛ لأن هذا قبل وجود الشمس والليل والنهار، والمتبادر أنها كأيامنا هذه، وقد قالوا: أنها بأيامٍ بأجرامٍ أخرى غير السماوات والأرض؛ فالله أعلم.

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (٢٢/٣٧٦)، وتفسير ابن كثير (٧/٤٠٩).

قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: الضمير المجموع في قوله: ﴿خَلَقْنَا﴾، للعظمة والتعظيم، وليس لأن معه أعوانًا أو مساعدين.

هذه الآية نزلت جوابًا لأهل الباطل وهم اليهود، فهم يقولون: «إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام واستراح في اليوم السابع وهو يوم السبت؛ لأنه تعب»، قاتلهم الله أنى يؤفكون.

قوله: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾: هذا يدل على أن ما بين السماء والأرض مخلوق، وفيها ردٌّ على من يقول: «إنه فضاء!»، فكل الكون مخلوقٌ له، ولكن ليس فوق العرش مخلوقٌ، وإنما فوق العرش ربُّ العالمين، والعرش محيطٌ بالكون كلِّه، وهو فوقَه.

قوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾: اللغوب هو التعب، وهذا يدلُّ على كمال قدرته التَّامَّة؛ فإنه يقول للشيء: «كن» فيكون بعد قوله بدون فاصل؛ خلق هذه الأشياء وجعل السماء مرتفعة ارتفاعًا عظيمًا جدًّا لا نقدره ولا نعرفه.

ولهذا فإنَّ الكفار الذين استطاعوا أن يصلوا إلى شيء من مشاهدة مخلوقات الله ﷻ يصفون هذه بأوصافٍ قد لا تُعقل، فيقولون مثلًا: «النجوم بيننا وبينها آلاف السنين الضوئية»، والسنة الضوئية تقدر بشيء خيالي جدًّا، فيجعلون الكون كله فضاء فقط، وينكرون أن يكون هناك سماء مبنيةٌ، وذلك لبعدها عن الأنظار؛ ولأن الشيء إذا كان بعيدًا فإنه لا يمكن أن يُرى إلا أن يصطدم النظر بجسم أمامه، وهذا تكذيب لقول الله تعالى يقول: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ [ق: ٦]، ولا يمكن أن يأمرنا بالنظر إلى شيء عدم، وإنما يأمرنا بشيء محسوس مشاهد.

ولما عُرج برسول الله ﷺ مع جبريل ﵇ استفتح جبريل ﵇ باب السماء الدنيا، فقيل له: من؟ فقال: «جبريل»، قال: ومن معك؟ قال: «محمد»، قالوا: أرسل إليه؟ قال: «نعم»، ففتح له، وهكذا السماء الثانية والثالثة والرابعة والخامسة.

والله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، فيستحيل دخولهم الجنة؛ لاستحالة دخول الجمل في ثقب الإبرة؛ فهو ممتنع الحصول، والمعلق على الممتنع يكون ممتنعًا.

والمقصود: أنَّ ربَّ العالمين خلق السماوات على سعتها وعظمها في وقتٍ أقلَّ من خلق الأرض، ولو شاء لخلق هذا الكون كله في لحظة، ولكن لحكمة أرادها سبحانه، ولهذا أخبرنا أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وأول هذه الأيام هو يوم الأحد، وهذه الأيام: هل هي كأيامنا هذه وبمقدارها؟ وهذا هو المتبادر عند كثير ممن يسمع الكلام؛ أو أنها بتقدير أجسام أخرى غير هذه الأجسام التي عندنا؟ الله أعلم.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، إِنَّمَا نَفَى الْإِدْرَاكَ الَّذِي هُوَ الْإِحَاطَةُ، كَمَا قَالَهُ أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ. وَلَمْ يَنْفِ مُجَرَّدَ الرُّؤْيَةِ؛ لِأَنَّ الْمَعْدُومَ لَا يُرَى، وَلَيْسَ فِي كَوْنِهِ لَا يُرَى مَدْحٌ؛ إِذْ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَكَانَ الْمَعْدُومُ مَمْدُوحًا، وَإِنَّمَا الْمَدْحُ فِي كَوْنِهِ لَا يُحَاطُ بِهِ وَإِنْ رُئِيَ؛ كَمَا أَنَّهُ لَا يُحَاطُ بِهِ وَإِنْ عُلِمَ، فَكَمَا أَنَّهُ إِذَا عُلِمَ لَا يُحَاطُ بِهِ عِلْمًا، فَكَذَلِكَ إِذَا رُئِيَ لَا يُحَاطُ بِهِ رُؤْيَةً».

الشرح

قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، يعني: أنه لا تحيط به الأبصار، والرؤية غير الإدراك، وهذا يكون أيضًا في المخلوق، ومن ذلك ما قاله قوم موسى: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١﴾ [الشعراء: ٦١]، يعني: سوف يدركنا فرعون، فقال موسى: ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٦٢﴾ [الشعراء: ٦٢]؛ لأن ربه هو الذي أمره بهذا، فنفى الإدراك مع وجود الرؤية، يعني: فرعون رآهم ولم يدركهم.

وربنا ﷻ يُرَى وجهُه ولا يُحاطُ به، فهو أكبرُ من كلِّ شيء، وأعظمُ من كل شيء - تعالى الله وتقدس -.

واستدلالُ المعتزلة ونفاةُ الرؤية بالآية غيرُ صحيحٍ، وذلك أنَّه نفى الإدراك ولم ينفِ الرُّؤية، ولهذا لما سئل عكرمة مولى ابن عباس عن الآية فقال: أليس ترى السماء؟ قال: بلى، قال: أفكلها ترى؟! فالله أكبر وأعظم من ذلك.

فالرؤية لا يلزم منها الإدراك والإحاطة؛ لعظمته وكبريائه - تعالى وتقدس -، فهو وإن رآه بصرُ المخلوق في الموقف وفي الجنة؛ إلا أنه لا يحاط به ولا يُدرك.

المقصود أن الذي تمسكت به المعتزلة في نفي الرؤية ليس بصحيحٍ؛ لأن الآية فيها نفي الإدراك، وليس فيها نفي الرؤية، وقد قال الله ﷻ في قصة موسى أنه قال له أصحابه لما رأوا البحر: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]، يرون البحر أمامهم وفرعون خلفهم، فنفى موسى: ﴿قَالَ كَلَّآ﴾ [الشعراء: ٦٢] مع أنهم يرون البحر ويرون فرعون وجنوده ونفى أن يدركهم ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٦٢﴾ [الشعراء: ٦٢].

وفي الآية دليل على أن الإدراك غير الرؤية، و«الإدراك»: الإحاطة بالشيء من جميع الوجوه، وهذا لا يمكن في حقِّ الله ﷻ لمخلوق أنه يدرك الله؛ ولهذا ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وقد استدل أهل السُّنَّة بهذه الآية على إثبات الرؤية، يعني: عكس ما يقوله المعتزلة.

فأهل الباطل استدلوا بهذه الآية على نفي الرؤية، وهم لا يستدلون بشيءٍ من القرآن، ولا بشيءٍ من حديث رسول الله ﷺ؛ إلا إذا كان لهم فيه متعلَّقٌ، أما إذا كان عليهم فلا ينظرون إليه بل يردونه، ويقولون في أحاديث الرسول: «هي أخبار آحاد، وأخبار الآحاد لا نقبلها في العقيدة!». وأما القرآن فيقولون: «وإن ثبت التواتر لفظًا فدلالته ظنية»، هكذا يقولون، وكفى بذلك ضلالًا وردًّا للشرع الذي جاء به المُصطفى ﷺ. فإذا كانوا كذلك يسقط معهم الاحتجاج؛ لأنهم لا يريدون إلا ما تزينه لهم أفكارهم وشياطينهم فقط.

فالرؤية قد أثبتها الله ﷻ بقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣]، وبقوله ﷻ: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المطففين: ٣٥]، وقوله ﷻ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

عن صُهيب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**الْحُسْنَى: الْجَنَّةُ، وَالزِّيَادَةُ: النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللهِ الْكَرِيمِ**»[(١)]، وهذا هو أعلى نعيم أهل الجنة، كما ثبتت في أدعية الرسول ﷺ وأخباره، بأنه يقول لأصحابه: «**أترون القمر ليلة البدر ليس دونكم ودونه سحابٌ ولا قتر؟** قالوا: نعم، قال: **هل تُضارون في رؤيته؟** قالوا: لا، قال: **إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر ليس دونكم ودونه حائل**»[(٢)].

وكذلك قال في حديثٍ آخر: «**سترونه كما ترونَ الشَّمسَ صَحوًا ليس دونها سحاب ولا قتر**»[(٣)]، وهو ﷺ أكمل الخلقِ معرفةً بالله ﷻ، وهو أتمهم أيضًا علمًا

(١) أخرجه الدارقطني في سننه (ص٢٨١) برقم (١٨٣)، وابن جرير في التفسير (١٢/ ١٦٢)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٣/ ٥٠٥) برقم (٧٨٠)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر (١/ ١١٥) برقم (٥٥٤)، ومسلم في صحيحه، في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، والمحافظة عليهما (١/ ٤٣٩) برقم (٦٣٣)، من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية (ص١٠٢) برقم (١٧٠)، بألفاظ قريبة، وأورده بلفظه ابن تيمية في بيان تلبيس الجهمية (٤/ ٣٢٥).

وخوفًا من الله، وأكملهم نصحًا للأمة؛ فالذي لا يقبل قوله لا يكون مُسلمًا أصلًا؛ لأن مبنى الإسلام على شهادة أن لا إله إلا وأن مُحمدًا رسول الله، وإذا لم يصدقه بقوله ويقبل ما قاله ويتبعه في ذلك فإنه لم يشهد له؛ لأن معنى شهادة «أن مُحمدًا رسول الله»: إثبات أنه رسولٌ من عند الله بلا تردُّد، وطاعته في أمره، واجتنابه ما عنه نهى، وإذا لم يفعل العبد ذلك فإنه لم يشهد له بالرسالة.

وعلى كلِّ حالٍ: فآراء الناس وأفكارهم يجب أن تكون مُقيدة بكتاب الله وبما جاء به الرسول، ولا يجوز أن نُقيد كلام الله بآراء الناس وأفكارهم ونرجئ مفاهيم الكتاب والسنة إلى قول أهل البدع، إذا فعلنا ذلك ضللنا عن الهدى، وقد علم المسلمون أن هذا من الضلال البيِّن.

ورؤية الله ﷻ ثبتت في أحاديث لا مطعن فيها؛ كما أنها ثبتت في الآيات، كما جاءت التفاصيل في أحاديث الرسول ﷺ؛ فإنهم يرونه في الموقف كما ثبت في الصحيحين وغيرهما، ثم إذا دخلوا الجنة رأوه وصار هذا هو أعلى نعيمٍ يرونه؛ فإذا رأوه نسوا كل ما كانوا فيه من النعيم.

أما الذي ينكر رؤية الله ﷻ فهو يجوز أنه إن قُدِّر أنه يدخل الجنة أنه لا يراه، ويُحرم ذلك ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ۝٢٦﴾ [النبأ: ٢٦]؛ فإن من سنة الله ﷻ أن الإنسان يُعاقَب بنظير ما فعل من أفعاله.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَكَانَ فِي نَفْيِ الْإِدْرَاكِ مِنْ إِثْبَاتِ عَظَمَتِهِ مَا يَكُونُ مَدْحًا وَصِفَةَ كَمَالٍ، وَكَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى إِثْبَاتِ الرُّؤْيَةِ لَا عَلَى نَفْيِهَا، لَكِنَّهُ دَلِيلٌ عَلَى إِثْبَاتِ الرُّؤْيَةِ مَعَ عَدَمِ الْإِحَاطَةِ، وَهَذَا هُوَ الْحَقُّ الَّذِي اتَّفَقَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا.

وَإِذَا تَأَمَّلْت ذَلِكَ: وَجَدْت كُلَّ نَفْيٍ لَا يَسْتَلْزِمُ ثُبُوتًا هُوَ مِمَّا لَمْ يَصِفْ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ، فَالَّذِينَ لَا يَصِفُونَهُ إِلَّا بِالسُّلُوبِ لَمْ يُثْبِتُوا فِي الْحَقِيقَةِ إِلَهًا مَحْمُودًا، بَلْ وَلَا مَوْجُودًا».

الشرح

قوله: «فَالَّذِينَ لَا يَصِفُونَهُ إِلَّا بِالسُّلُوبِ لَمْ يُثْبِتُوا فِي الْحَقِيقَةِ إِلَهًا مَحْمُودًا، بَلْ وَلَا مَوْجُودًا»، يعني: يثبتون عدمًا محضًا، والعدم ليس بشيء، فإذًا لا يعبدون إلا العدم! وليس لهم ربٌّ - في زعمهم - معبودٌ، بل هذا يلزم منه الإلحاد المطلق الذي يكون إلحادًا وتعطيلًا للخالق، فيلزم منه: أن هذا العالم وُجد بنفسه، وسيبقى بنفسه، كما تقوله الفلاسفة، وربما يكون هذا مرادهم ومقصودهم، ولكن يتسترون بهذا الكلام الذي قد ينطلي على من يجهل مرادهم.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

۞ «وَكَذَلِكَ مَنْ شَارَكَهُمْ فِي بَعْضِ ذَلِكَ كَالَّذِينَ قَالُوا: إنه لَا يَتَكَلَّمُ، أَوْ لَا يُرَى، أَوْ لَيْسَ فَوْقَ الْعَالَمِ، أَوْ لَمْ يَسْتَوِ عَلَى الْعَرْشِ، وَيَقُولُونَ: لَيْسَ بِدَاخِلِ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ، وَلَا مُبَايِنًا لِلْعَالَمِ وَلَا محايثا لَهُ؛ إذْ هَذِهِ الصِّفَاتُ يُمْكِنُ أَنْ يُوصَفَ بِهَا الْمَعْدُومُ؛ وَلَيْسَتْ هِيَ صِفَةً مُسْتَلْزِمَةً صِفَةَ ثُبُوتٍ.

۞ وَلِهَذَا قَالَ مَحْمُودُ بْنُ سُبكتكين لِمَنْ ادَّعَى ذَلِكَ فِي الْخَالِقِ: مَيِّزْ لَنَا بَيْنَ هَذَا الرَّبِّ الَّذِي تُثْبِتُهُ وَبَيْنَ الْمَعْدُومِ».

الشَّرح

يقصد بذلك جميع أهل البدع، يقول: «**وَكَذَلِكَ مَنْ شَارَكَهُمْ فِي بَعْضِ ذَلِكَ**» من المعتزلة، وقبلهم الجهمية. والمعتزلة ليس كما يقول بعض الناس: «إنهم كانوا فبانوا فلا وجود لهم»، بل لهم وجود، ولكن الأسماء تتغير، والأفكار تبدل والعبارة والنتيجة واحدة؛ فيوجد الآن جماعاتٌ على هذا المذهب ينتسبون للإسلام، وينتسبون للمعرفة وهم على هذا المذهب الخبيث.

قوله: «كَالَّذِينَ قَالُوا: إنه لَا يَتَكَلَّمُ ولَا يُرَى أَوْ لَيْسَ فَوْقَ الْعَالَمِ...». هذا قاله ابن فُورك، وهو من أتباع الأشعري، وقال: «إنه ليس فوق ولا تحت»، وهو قول الجهمية والمعتزلة وغيرهم.

قوله: «قَالُوا: إنه لَا يَتَكَلَّمُ ولَا يُرَى أَوْ لَيْسَ فَوْقَ الْعَالَمِ أَوْ لَمْ يَسْتَوِ عَلَى الْعَرْشِ». هذه بعض أقوال من كان يرى الآن أنه على الحق، ويقولون: «الكلام هو المعنى الواحد القائم بذات الرب!»، ويقولون: «القرآن عبارة عن ذلك المعنى!». من الذي عبر؟! هل أحد عَلِم ما في نفس الله فعبَّر عما بنفسه ـ تعالى الله وتقدس ـ؟!

فمثل هذا لا يكون أثبت كلامًا لله ﷻ، بل جاء بأمورٍ مُنكرة غير معقولة، ولم يتكلم بها أحدٌ من أهل الحق وأتباع الرسول ﷺ.

وكذلك الذين يقولون: «يُرى ولكنه يُرى لا من جهة»؛ فهذا في حقيقته إنكارٌ

للرؤية، وكذلك الذين يقولون: «إنه ليس فوق بل هو في كلِّ مكان، ولم يستوِ على العرش وإنما استولى عليه»؛ كل هذا يقوله من يزعم أنه من أهل السُنة، مثل الأشعرية، فهذا مذهبهم.

فالمعتزلة ردوا الحق جهارًا، بدون التواء؛ فعلم الناس باطلهم، علموا انحرافهم، أما هؤلاء فصاروا يؤولون الكلام تأويلًا يزعمون أن هذا هو مُراد الله، وهو لا يكون مرادًا لله ﷻ، ويوجبون هذا الباطل؛ لأنهم أولًا قالوا: «إن صفات الله من المُتشابه»؛ مثل: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٨]، ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وما أشبه ذلك يقولون: «يجب أن نُؤولها أو نفوضها»، فصار الباطل عندهم واجبًا، نسأل الله العافية.

فالمقصود: أن أفكار الناس لا يمكن أن تنحصر، والعبد ليس له أي حُجةٍ أمام كتاب الله، وأحاديث رسوله ﷺ، وكل قائلٍ سوف يوقفه الله ﷻ بين يديه ويسأله عن قوله؛ فإن لم يكن له حُجة فإنه سوف يُعذّب؛ لأن كلام الله أوضح الكلام وأبينُه، وهو أعلم من خلقه بنفسه وبغيره، وقد وصف لنا ﷻ نفسه، بأوصافٍ واضحة جلية لا خفاء فيها.

أما هذه السلوب الذي هو النفي والعدم، كما «**قال: مَحْمُودُ بْنُ سُبكتكين لِمَنْ ادَّعَى ذَلِكَ فِي الْخَالِقِ: مَيِّزْ لَنَا بَيْنَ هَذَا الرَّبِّ الَّذِي تُثْبِتُهُ وَبَيْنَ الْمَعْدُومِ...**».

و«**مَحْمُودُ بْنُ سُبكتكين**»: هو أحد الكبراء الذين لهم تأثير في قتال الكفار، وهو من أهل السنة، ولما تكلّم أحدهم بهذا الكلام: «لا فوق، ولا تحت، ولا داخل العالم، ولا خارج العالم»؛ قال له: «**مَيِّزْ لَنَا بَيْنَ هَذَا الرَّبِّ الَّذِي تُثْبِتُهُ وَبَيْنَ الْمَعْدُومِ...**»، يعني: هل يوجد وصف للعدم أكثر من هذا؟ والعقل لا يقبل الشيء الذي لا حقيقة له.

وأحد هؤلاء هو ابن فُورك لما ذكر له عقيدته: «أنه ليس فوق، وليس يمين، وليس كذا وليس كذا»، قال له: «**مَيِّزْ لَنَا بَيْنَ هَذَا الرَّبِّ الَّذِي تُثْبِتُهُ وَبَيْنَ الْمَعْدُومِ**».

وهذا حقٌّ، فلا فرق بين المعدوم وبين ما يُثبتُه هؤلاء الضُلال الذي ضلوا في ربهم. ومن ضل فيما هو أكبر الأشياء وأعظمها وأبينُها ـ كما قالت الرُسل لقومهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [إبراهيم: ١٠] ـ، فكيف يهتدي في الأمور الأخرى؟ إذا ضلَّ في هذا، ضلت في كل شيء.

وابن فُورك له كتاب «تأويل الحديث»، وهو في الواقع تأويل الصفات، وليس تأويل الحديث!

فالهداية بيد الله ﷻ، فيجب على العبد أن يتجه لربه يسأله أن يهديه، فإن لم يهد الله ﷻ العبد فلا ينفعه؛ لا ذكاؤه، ولا علمه، ولا أفكاره، ولا شيخه ومذهبه، فإنه سوف يضل.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَكَذَلِكَ كَوْنُهُ لَا يَتَكَلَّمُ، أَوْ لَا يَنْزِلُ، لَيْسَ فِي ذَلِكَ صِفَةُ مَدْحٍ وَلَا كَمَالٍ؛ بَلْ هَذِهِ الصِّفَاتُ فِيهَا تَشْبِيهٌ لَهُ بِالْمَنْقُوصَاتِ أَوْ الْمَعْدُومَاتِ، فَهَذِهِ الصِّفَاتُ مِنْهَا مَا لَا يَتَّصِفُ بِهِ إلَّا الْمَعْدُومُ، وَمِنْهَا مَا لَا يَتَّصِفُ بِهِ إلَّا الْجَمَادَاتُ وَالنَّاقِصُ».

الشَّرح

يعني: النفي لا يتضمن مدحًا ولا كمالًا، بل يتضمن النقص أو العدم، والعدم ليس بشيء، والنقص يتعالى ربُّنا ﷻ ويتقدس عنه؛ فيجب أن نتبع قوله؛ ما قال في نفسه وما قالت رُسله، ونؤمن بذلك على ما يليق بعظمته وجلاله، مع نفي مُشاركة المخلوق له في شيءٍ من أوصافه أو من خصائصه ـ تعالى وتقدس ـ، وهي خصائص تخُصُّه لا يُشاركُه أحدٌ فيها، وهذا الذي يجب أن يُفهم ويكون قاعدة مُطردة في كل ما وصف الله ﷻ به نفسه.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَمَنْ قَالَ: لَا هُوَ مُبَايِنٌ لِلْعَالَمِ، ولا مُداخلٌ لِلْعَالَمِ، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ قَالَ: لَا هُوَ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ وَلَا بِغَيْرِهِ، وَلَا قَدِيمٌ وَلَا مُحْدَثٌ، وَلَا مُتَقَدِّمٌ عَلَى الْعَالَمِ وَلَا مُقَارِنٌ لَهُ».

الشَّرْح

والمقصود بـ «الْعَالَم» هو: المخلوقات المشاهدَة من السماء والأرض وما بينهما، وما تحت الأرض؛ والشيء المخلوق. وأكبر المخلوقات المشاهدة: السماوات؛ فإنا ما نشاهد إلا السماء الدنيا التي تلينا، فهذا مع أن الناس اليوم يقولون: هذه ليست سماء، وإنما هذه انعكاسات وأبخرة، يعني: بدليل أنك إذا ذهبت إلى فوق مسافاتٍ معينة ذهبت هذه الرؤية. والسبب في هذا: أن الرؤية لا بد أن يكون لها شيءٌ يعكس المرئي، وإلا لا يرى شيء.

فإذا ذهب تأثير الأرض فما يرى؛ لأن السماء بعيدة جدًّا، فهم يقولون: «فضاء»، هكذا يسمونها، ليس فيها إلا الأفلاك والنجوم التي تسبح، وبعض الفلاسفة يجعل النجوم والأفلاك هي السموات!؛ كل هذا باطل؛ فالسماء مشاهَدٌ، والله ﷻ يأمرنا بالنظر إليها، ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا﴾ [ق: ٦] فهل يأمرنا بشيءٍ لا وجود له!؟

ولمَّا عُرج بالرسول ﷺ مع جبريل عليه السلام، استفتح جبريل السماء، ويقولون له: «مَن؟»، فيقول: «جبريل». فيقولون: «ومن معك؟»، فيقول: «محمد». فيقولون: «أو بُعث؟»، فيقول: «نعم». فيفتحون.

وكذلك الله ﷻ يقول عن الذين كفروا: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [الأعراف: ٤٠].

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَمَنْ قَالَ: إِنَّهُ لَيْسَ بِحَيٍّ وَلَا مَيِّتٍ وَلَا سَمِيعٍ وَلَا بَصِيرٍ وَلَا مُتَكَلِّمٍ، لَزِمَهُ أَنْ يَكُونَ مَيِّتًا أَصَمَّ أَعْمَى أَبْكَمَ».

الشرح

قوله: «**وَمَنْ قَالَ: إِنَّهُ لَيْسَ بِحَيٍّ وَلَا مَيِّتٍ وَلَا سَمِيعٍ وَلَا بَصِيرٍ وَلَا مُتَكَلِّمٍ، لَزِمَهُ أَنْ يَكُونَ مَيِّتًا أَصَمَّ أَعْمَى أَبْكَمَ**»؛ لأنه لا يمكن ارتفاعُ النقيضين؛ كما لا يمكن اجتماعهما، والحياة نقيضها الموت، والسمع نقيضه: الصمم، والبصر نقيضه: العمى، فإما هذا وإما هذا؛ فإذا وُصِف بالسلوب ونُفِي عنه الحياة والسمع والبصر والكلام؛ صار أشبه بالجماد؛ لأنه لا يقبل السمع ولا البصر، وهذا كفرٌ بالله ﷻ وجحودٌ به؛ لأنه يعلم أن لله سمعًا وبصرًا ثم نفاه.

وحقيقة الأمر: أن هؤلاء أرادوا أن يُلبِّسوا على الناس، فصاروا يأتون بالنفي والسلوب التي تقتضي أن يكون الموصوف الذي وصفوه عدمًا محضًا، وهو تعطيل لله ﷻ عن أن يكون موجودًا، وتعطيلٌ للخلق عن أن يكون لهم خالقٌ!، فأرادوا إخفاء كفرهم إضلال عوام المسلمين.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَإِنْ قَالَ: الْعَمَى عَدَمُ الْبَصَرِ عَمَّا مَنْ شَأْنُهُ أَنْ يَقْبَلَ الْبَصَرَ، وَمَا لَمْ يَقْبَلْ الْبَصَرَ كَالْحَائِطِ لَا يُقَالُ لَهُ أَعْمَى وَلَا بَصِيرٌ.

قِيلَ لَهُ: هَذَا اصْطِلَاحٌ اصْطَلَحْتُمُوهُ وَإِلَّا فَمَا يُوصَفُ بِعَدَمِ الْحَيَاةِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ: يُمْكِنُ وَصْفُهُ بِالْمَوْتِ وَالْعَمَى وَالْخَرَسِ وَالْعُجْمَةِ».

الشَّرح

هذا قول الباطنية الذين هم أشرُّ من اليهود والنصارى، أما هؤلاء فهم ينفون عن الله حتى إمكان الاتصاف بالسمع والبصر والعلم وغير ذلك؛ فعندهم أنه غير ممكن.

والحقيقة: أنهم ينفون وجودَ الله، وبناءً على ذلك ينفون شرعَ الله، ولهذا يفسِّرونه بأشياء من أمورهم التي يريدون إفساد الدين بها؛ ولهذا صار أثرهم من أسوأ الأثر، حيث كانوا يُفسدون ولا يُصلحون لا في الدنيا ولا في الدين، وهؤلاء لهم أتباع.

قوله: «الْعَمَى عَدَمُ الْبَصَرِ عَمَّا مَنْ شَأْنُهُ أَنْ يَقْبَلَ الْبَصَرَ...»، يعني: قولهم هذا صفةٌ للجماد، فالجماد لا يتَّصف بالسمع والبصر، قالوا: «لا، الجماد لا يقبل ذلك، وأن الله ﷻ ليس له هذه الأشياء»، وكل هذا فرارًا من التشبيه زعموا؛ لأن المخلوق له سمعٌ وبصرٌ وعلمٌ وحياةٌ وقدرةٌ وإرادة.

وقالوا: «لو وصفناه بشي من ذلك؛ لكان مشابهًا للمخلوق»، وكل هذه تعليلات باطلة، وإلا إذا قيل له: «إن سمع الله ليس كسمعك ولا كسمع المخلوقات، وبصره ليس كبصرك» يغضب؛ كما غضب الزمخشري في ذلك، وقال: «إنكم تتسترون بالبلفكة»، يعني: التشبيه، «فإذا قيل لكم: أنتم مشبهة، قلتم: إن سمعه بلا كيف، وبصره بلا كيف، وهذا تستر منكم عن التشبيه، فأنتم مشبهة!».

فنقول له: وأنت معطل، فقد عطلت الله ﷻ عما وصف به نفسه، والذي تقوله لا تستطيع أن تثبته بدليل سمعي، لا من كتاب الله ولا من سنة رسوله ﷺ، وإنما هو

دعوى تدَّعيها أنت، فلا تُقبل دعواك، والمرجع إلى كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ، وفي كلام الله ورسوله الكمال والمدح والثناء، وفي كلامك أنت النقص والعدم.

فالمقصود: أن الذي يحاول أن يصفه بما ذكر، يكون معطِّلًا مبطلًا!؛ فمعنى ذلك: أنه يجعله معدومًا أو يجعله على أقل تقدير كالجماد الذي لا يتصف بالحياة ولا بالسمع، ولا بالبصر ولا بغير ذلك، وهذا اجتمع فيه التشبيه والتعطيل، فكلُّ معطِّل مشبِّه، وكل مشبِّه معطِّلٌ.

أما الذي يَسلم من التشبيه والتعطيل؛ فهو الذي يصف الله ﷻ ويسميه بما وصف وسمى به نفسه أو رسولُه ﷺ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَأَيْضًا: فَكُلُّ مَوْجُودٍ يَقْبَلُ الِاتِّصَافَ بِهَذِهِ الْأُمُورِ وَنَقَائِضِهَا، فَإِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى جَعْلِ الْجَمَادِ حَيًّا، كَمَا جَعَلَ عَصَى مُوسَى حَيَّةً، ابْتَلَعَتْ الْحِبَالَ وَالْعِصِيَّ».

الشَّرح

مع أنها عصًى عادية، يمسكها بيده ويهش بها على غنمه. ومعنى قوله: ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ [الأعراف: ٤٠]، يعني: يضرب الشجر حتى ينزل الورق، فتأكله الغنم.

والعصى: عصى عادية يمسكها بيده، ثم تصير حيَّة عظيمة، ومع كونها عظيمة ـ سريعة التحرك ـ فإنها جانٌّ، فالجان: هي الحية التي تُسرع التصرف والذهاب والمجيء بسرعة مع عِظَمها، أما الكبيرة ـ الذي هو الحنش ـ[1] ما يسرع التحرك، بطيء التحرك لِكِبره، فهي جمعت بين السرعة وبين الكِبَر، ثم صارت تتلقف ما أمامها.

والسحرة حين جاؤوا بحبالهم وعصيهم امتلأ الوادي بالحبال والعصي، فلما ألقى موسى عصاه، التقفت كل هذه العصي والحبال، وهي على حالها ما تتغير «عصى»، فبهذا سجد السحرة إيمانًا بالله؛ لأنهم يعلمون أن هذه آيةٌ وليست في مقدور البشر أصلًا، لأنه ﷺ جعل العصى اليابسة حيَّة، ثم الحيَّة هذه العادية إذا فغرت فاها التقمت ما أمامها.

والمفسرون يذكرون حكايات في هذا لا أصل لها، إلا أنها مأخوذةٌ من أهل الكتاب وغيرهم، أنها فتحت فاها فصار حنكها الأعلى فوق قصر فرعون!

* * *

(١) لسان العرب (٦/ ٢٨٩)، وغريب الحديث لابن قتيبة (١/ ٢٧٤).

قال رحمه الله تعالى:

«وَأَيْضًا: فَالَّذِي لَا يَقْبَلُ الاتِّصَافَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ أَعْظَمُ نَقْصًا مِمَّنْ يَقْبَلُ الاتِّصَافَ بِهَا مَعَ اتِّصَافِهِ بِنَقَائِضِهَا، فَالْجَمَادُ الَّذِي لَا يُوصَفُ بِالْبَصَرِ وَلَا الْعَمَى، وَلَا الْكَلَامِ وَلَا الْخَرَسِ، أَعْظَمُ نَقْصًا مِنَ الْحَيِّ الْأَعْمَى الْأَخْرَسِ».

الشَّرح

يعني: هؤلاء سقط الكلام معهم نهائيًا، ولكنه يريد أن يُبطل مذهبهم على كل حال؛ لأنه قد يغتر بقولهم بعض الجهلة، وإلا فالإعراض عن هؤلاء أولى؛ لأنهم ليسوا بمسلمين ولا يريدون الحقَّ، وإنما يريدون التلبيس على بعض الجهلة فقط، وأكثر الناس يعرف أنهم على ضلالٍ بيِّن، بل هم أضلُّ ممَّن ردَّ دعوة الرسول ﷺ رأسًا.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «فَإِذَا قِيلَ: إِنَّ الْبَارِي ﷻ لَا يُمْكِنُ اتِّصَافُهُ بِذَلِكَ، كَانَ فِي ذَلِكَ مِنْ وَصْفِهِ بِالنَّقْصِ أَعْظَم مِمَّا إِذَا وُصِفَ بِالْخَرَسِ وَالْعَمَى وَالصَّمَمِ وَنَحْوَ ذَلِكَ».

الشَّرح

وهذا لا يجرؤ أحد من خلق الله أنه يقوله؛ إن الله أصم أو أنه أخرس. وفي «الصحيحين» عن أبي موسى الأشعري قال: إذا كنا مع رسول الله ﷺ في السفر علونا نجزًا كَبَّرنا، وإذا هبطنا سبَّحنا، وكنا نذكر الله ﷻ؛ فأدركنا ﷺ وقال: «**أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ**»، يعني: أرفقوا، لا تكلفوا أنفسكم برفع الصوت، «**فَإِنَّكُمْ مَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا؛ إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ**»[(١)]، وهو فوق عرشه ـ تعالى وتقدس ـ؛ لأنه مُحيطٌ بكلِّ شيء، ولا يفوت سمعَه شيءٌ، كما لا يحجب بصرَه شيءٌ ـ تعالى ربنا وتقدس عن قول الظالمين ـ.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير (٤/٥٧) برقم (٢٩٩٢)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر (٤/٢٠٧٦) برقم (٢٧٠٤)، واللفظ لأحمد في مسنده (٣٢/٣٧٤) برقم (١٩٥٩٩)، من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

قال رحمه الله تعالى:

«مَعَ أَنَّهُ إِذَا جُعِلَ غَيْرَ قَابِلٍ لَهما كَانَ تَشْبِيهًا لَهُ بِالْجَمَادِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ الِاتِّصَافَ بِوَاحِدٍ مِنْهما، وَهَذَا تَشْبِيهٌ بِالْجَمَادَاتِ لَا بِالْحَيَوَانَاتِ؛ فَكَيْفَ يُنكِرُ مَنْ قَالَ ذَلِكَ على غَيْرِهِ مِمَّا يَزْعُمُ أَنَّهُ تَشْبِيهٌ بِالْحَيِّ!

وَأَيْضًا فَنَفْسُ نَفْيِ هَذِهِ الصِّفَاتِ نَقْصٌ، كَمَا أَنَّ إِثْبَاتَهَا كَمَالٌ، فَالْحَيَاةُ مِنْ حَيْثُ هِيَ، - هِيَ مَعَ قَطْعِ النَّظَرِ عَنْ تَعْيِينِ الْمَوْصُوفِ بِهَا - صِفَةُ كَمَالٍ.

وَكَذَلِكَ الْعِلْمُ وَالْقُدْرَةُ وَالسَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَالْكَلَامُ وَالْفِعْلُ وَنَحْوُ ذَلِكَ؛ وَمَا كَانَ صِفَةَ كَمَالٍ: فَهُوَ - سُبْحَانَهُ وتعالى - أَحَقُّ بِأَنْ يَتَّصِفَ بِهِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، فَلَوْ لَمْ يَتَّصِفْ بِهِ مَعَ اتِّصَافِ الْمَخْلُوقِ بِهِ، لَكَانَ الْمَخْلُوقُ أَكْمَلَ مِنْهُ».

الشَّرح

هذا الكلام يجب أن يوجه للعقلاء؛ أما الضُّلّال الذين يقصدون الباطل فلا فائدة في كلامهم بالأمور العقلية أو الأمور الشرعية الدينية، ولكن الكلام مع الذين يغترون بهم، خوفًا أن يلتبس كلامهم الباطل على من هو جاهلٌ بالله، وجاهلٌ بصفاته.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَاعْلَمْ أَنَّ الجهمية الْمَحْضَةَ كَالْقَرَامِطَةِ وَمَنْ ضَاهَاهُمْ: يَنْفُونَ عَنْهُ تَعَالَى اتِّصَافَهُ بِالنَّقِيضَيْنِ حَتَّى يَقُولُوا: لَيْسَ بِمَوْجُودٍ وَلَا لَيْسَ بِمَوْجُودٍ، وَلَا حَيٍّ وَلَا لَيْسَ بِحَيٍّ».

الشَّرْح

قوله: «وَاعْلَمْ أَنَّ الجهمية الْمَحْضَةَ كَالْقَرَامِطَةِ...». الجهمية: نسبة إلى الجهم بن صفوان، وهو رجل ضال مضل، فكان له أثر من التعطيل والفساد والانحراف في الأمة كبير، فصار كثير من الملاحدة والمبطلة يُنسبون إليه كالمعتزلة.

وأما المعتزلة؛ فهم أتباع واصل بن عطاء، وهو تلميذ الحسن البصري، وأصل فساده أنه لما جاء سائلٌ يسأل الحسن البصريَّ رحمه الله عن حكم مرتكب الكبيرة، فبادر واصلٌ بالجواب فقال: «لا مؤمن ولا كافر»، ثم اعتزل مجلس الحسن البصري وصار يقرِّر هذا المبدأ[1]، ثم صار له أتباعٌ، وعظم أمره باتباع عمرو بن عبيدٍ الزاهدِ المشهور لما اتبعه وسار معه، ثم كثروا فيما بعد وصاروا جهمية، فنفوا صفات الله ﷻ مطلقًا، وأثبتوا أسماء مجردة بلا صفات.

واستولوا على بعض الخلفاء كالمأمون، فصاروا هم الذين يعلمونه ويربونه، ثم لما تولى الخلافة قرَّبهم وجعلهم قضاةً، ثم ابتلى الله ﷻ المسلمين بهم، فصاروا يرغمون الناس على القول بأن القرآن مخلوق، وأن صفاته مخلوقة، فكانوا جهمية، وكذلك من ضاهاهم، فكل من عطل الله ﷻ صار يقال له: «جهمي»؛ لأن الجهم هو أول من تكلم بهذا.

قوله: «يَنْفُونَ عَنْهُ تَعَالَى اتِّصَافَهُ بِالنَّقِيضَيْنِ حَتَّى يَقُولُوا: لَيْسَ بِمَوْجُودٍ وَلَا لَيْسَ بِمَوْجُودٍ، وَلَا حَيٍّ وَلَا لَيْسَ بِحَيٍّ». مثلُ هذا يسقط الكلام معه؛ لأن مثل هذا كافرٌ صراحةً؛ فهو لا يُثبت وجود الله أصلًا، فالكلام مع مثل هؤلاء لا فائدة فيه، ولكن يُخشى أن أحدًا يلتبس عليه باطلهم، فيُبيَّن له أن هذا لا يجوز أن يفوه به عاقل، فضلًا عن أن يعتقده أو يقول به.

---

(١) الفرق بين الفرق للبغدادي (١/ ١٥)، والملل والنحل للشهرستاني (١/ ٤٣).

قال رحمه الله تعالى:

«وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْخُلُوَّ عَنْ النَّقِيضَيْنِ مُمْتَنِعٌ فِي بَدَائِهِ الْعُقُولِ، كَالْجَمْعِ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ».

الشَّرح

قوله: «الْخُلُوَّ عَنْ النَّقِيضَيْنِ»، يعني: أن يكون الشيء لا حي ولا ميت؛ لأن الحياة نقيض الموت، ولا يكون: «لا موجود ولا معدوم»؛ لأنَّ العدم نقيض الوجود، وما أشبه ذلك، فلا بد لهذا الكون العظيم من موجدٍ قديرٍ عليمٍ، قادر على كل شيء، وهو أكبر من كل شيء وأكمل من كل شيء، هذا لو لم تأت الرُسل بالكُتب من الله ﷻ، أما إذا جاءت رُسل الله وأنزل الله كُتبه فلا حُجة لأحدٍ معها.

فيجب أن يُضرب بقول كلِّ قائلٍ الحائط، ويقال: لا سمع ولا طاعة لك فيما تقول؛ لأننا نتبع قول ربنا وقول رسولنا ﷺ.

ولكن على أهل العلم بيان الحق ورد الباطل حتى لا يغتر جاهل.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَآخَرُونَ وَصَفُوهُ بِالنَّفْيِ فَقَطْ، فَقَالُوا: لَيْسَ بِحَيٍّ وَلَا سَمِيعٍ وَلَا بَصِيرٍ.

وَهَؤُلَاءِ أَعْظَمُ كُفْرًا مِنْ أُولَئِكَ مِنْ وَجْهٍ، وَأُولَئِكَ أَعْظَمُ كُفْرًا مِنْ هَؤُلَاءِ مِنْ وَجْهٍ».

الشَّرح

وكلاهما كافرٌ خبيثٌ، يعني: فإذا كانوا هكذا فالمُجادلة معهم لا فائدة فيها، هذه كلها تبعٌ للقاعدة وتفسيرٌ لها، وقد تقدَّم الكلام في هذا.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَإِذَا قِيلَ لِهَؤُلَاءِ هَذَا مُسْتَلْزِمٌ وَصْفَهُ بِنَقِيضِ ذَلِكَ كَالْمَوْتِ وَالصَّمَمِ وَالْبُكْمِ.

قَالُوا: إِنَّمَا يَلْزَمُ ذَلِكَ لَوْ كَانَ قَابِلًا لِذَلِكَ.

وَهَذَا الِاعْتِذَارُ يَزِيدُ قَوْلَهُمْ فَسَادًا.

وَكَذَلِكَ مَنْ ضَاهَى هَؤُلَاءِ، وَهُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ: لَيْسَ بِدَاخِلِ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ، إِذَا قِيلَ لهم: هَذَا مُمْتَنِعٌ فِي ضَرُورَةِ الْعَقْلِ، كَمَا إِذَا قِيلَ: لَيْسَ بِقَدِيمٍ وَلَا مُحْدَثٍ، وَلَا وَاجِبٍ وَلَا مُمْكِنٍ، وَلَا قَائِمٍ بِنَفْسِهِ وَلَا قَائِمٍ بِغَيْرِهِ».

الشَّرح

معناه: لا يقبل الاتصاف بهذا، وهذا كفرٌ؛ بل هو غاية الكفر - نسأل الله العافية - وتنقصٌ لله - تعالى وتقدس -، فهؤلاء أنكروا ما فطر الله عليه خلقه، فصاروا أشر من إبليس، وهم يعلمون ذلك، ولكن أرادوا إفساد عقائد الناس، وأمنوا سيف الحق.

كيف لا يقبل الاتصاف؟! يجعلونه كالجماد الذي لا يقبل الاتصاف، فهل هؤلاء آمنوا بالله؟! نقول: لم يؤمنوا بالله حقيقةً.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«قَالُوا: هَذَا إِنَّمَا يَكُونُ إِذَا كَانَ قَابِلًا لِذَلِكَ، وَالْقَبُولُ إِنَّمَا يَكُونُ مِنَ الْمُتَحَيِّزِ، فَإِذَا انْتَفَى التَّحَيُّزُ انْتَفَى قَبُولُ هَذَيْنِ الْمُتَنَاقِضَيْنِ».

الشرح

قوله: «وَالْقَبُولُ إِنَّمَا يَكُونُ مِنَ الْمُتَحَيِّزِ»، يعني: أن الله لا يقبل ذلك، فإذا كان لا يقبل ذلك فهو عدم، فالتحيز معناه عندهم أن يكون في مكان أو في جهة من الجهات.

قوله: «الْمُتَحَيِّز»، يعني الذي له وجود، وله مثلًا مُرتفع يرتفع فوق خلقه بأن يستوي على عرشه، فالتحيُّز معناه: عدم الاختلاط والامتزاج بالشيء؛ لأنهم لو قالوا: «ليس مُتحيزًا ولا ليس متحيزًا، ولا غير هذا»؛ ما أحد يُصدق بهذا؛ كما يقولون: «ليس خارجَ العالم ولا داخل العالم»، فأين يكون؟! إذا كان ليس فوق العالم، وليس في داخله، وليس يمينه ولا شماله، فكلهُ نفي محض، والنفي نقصٌ كُله، بل هذا كُفرٌ بالله ﷻ أعني: عدم اعتقاد أنه موجود.

المقصود: أن هذه هي علتهم: (التحيُّز والجسم). و«**التحيُّز**»: أن يكون في حيِّز، والحيز هو المكان.

يقال لهم: إذا أردتم التحيُّز أن مكانًا يحويه ويحيط به، فهذا باطِلٌ، أما إذا كنتم تقولون: ليس تحيُّزًا أي ليس على عرشه مستوٍ، فهذا باطل، وهو ردٌّ لكلام الله ﷻ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «فَيُقَالُ لَهُمْ: عِلْمُ الْخَلْقِ بِامْتِنَاعِ الْخُلُوِّ مِنْهُ هَذَيْنِ النَّقِيضَيْنِ: هُوَ عِلْمٌ مُطْلَقٌ، لَا يُسْتَثْنَى مِنْهُ مَوْجُودٌ، وَالتَّحَيُّزُ الْمَذْكُورُ: إِنْ أُرِيدَ بِهِ كَوْنُ الأحياز الْمَوْجُودَةِ تُحِيطُ بِهِ، فَهَذَا هُوَ الدَّاخِلُ فِي الْعَالَمِ؛ وَإِنْ أُرِيدَ بِهِ أَنَّهُ مُنْحَازٌ عَنْ الْمَخْلُوقَاتِ؛ أَيْ: مُبَايِنٌ لَهَا مُتَمَيِّزٌ عَنْهَا، فَهَذَا هُوَ الْخُرُوجُ».

الشرح

يعني: هو خارج العالم؛ ينفون هذا وهذا، ما يثبتون وجود الله في شيء؛ لأنهم قالوا: ليس داخل العالم ولا خارج العالم.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَالْمُتَحَيِّزُ يُرَادُ بِهِ تَارَةً مَا هُوَ دَاخِلُ الْعَالَمِ، وَتَارَةً مَا هُوَ خَارِجُ الْعَالَمِ؛ فَإِذَا قِيلَ: لَيْسَ بِمُتَحَيِّزٍ، كَانَ مَعْنَاهُ لَيْسَ بِدَاخِلِ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ».

الشَّرح

أن العالم من المخلوقات، يعني: هي ليس داخله، وهو كذلك؛ لا يكون داخل المخلوقات ـ تعالى وتقدس ـ، ولكنه فوقها.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿«فَهُمْ غَيَّرُوا الْعِبَارَةَ لِيُوهِمُوا مَنْ لَا يَفْهَمُ حَقِيقَةَ قَوْلِهِمْ أَنَّ هَذَا مَعْنًى آخَرَ، وَهُوَ الْمَعْنَى الَّذِي عُلِمَ فَسَادُهُ بِضَرُورَةِ الْعَقْلِ، كَمَا فَعَلَ أُولَئِكَ فِي قَوْلِهِمْ: لَيْسَ بِحَيٍّ وَلَا مَيِّتٍ، وَلَا مَوْجُودٍ وَلَا مَعْدُومٍ، وَلَا عَالِمٍ وَلَا جَاهِلٍ».

الشَّرح

يعني: ذكر الشيء الممتنع، الذي لا يمكن وجوده؛ فكيف يكون صفة العليم القدير ﷻ الذي هو أكبر من كل شيء وهو الذي أوجد كل شيء، وقام كلُ شيءٍ به - تعالى وتقدس -، والباطل لا يتناهى - نسأل الله السلامة -.

القرامطة هكذا يقولون، والفلاسفة، والمعتزلة والجهمية، وقاربهم أهل التأويل الباطل، وكل من لم يتَّبع الكتاب والسُنَّة على ظاهر الخطاب مع نفي مشابهة المخلوقات لله فقد ضلَّ ولا شكَّ.

ومعلومٌ أن القاعدة التي يُبنى عليها الدين: أن تكون معرفة الله بالقلب أولًا، فأول ما يبدأ به المؤمن: أن يقصد ربه من العلو، في قلبه أنه على العرش، ثم يبني أعماله على هذا، أما إذا لم يعتقد هذا ولم يقل به، اضطرب وأصبح مترددًا شاكًا، ولا يثبت شيئًا من ذلك، فهذا يدلُّك على أن الإيمان بالصفات على حقائقها هو أصل الإيمان بالله ومعرفته.

قوله: «فَهُمْ غَيَّرُوا الْعِبَارَةَ لِيُوهِمُوا مَنْ لَا يَفْهَمُ حَقِيقَةَ قَوْلِهِمْ أَنَّ هَذَا مَعْنًى آخَرَ»: مثل ذلك قولهم: «إن الله ليس له جارحة، أو ليس له أعضاء، أو ليس بجوهر ولا عَرَض، والجارحة»؛ أي أنه: ليس له يد، ولا وجه، ولا رِجل، ولا عينين، ولا يدين، فيجعلون هذه الجوارح، وهذا قد يؤثر على كثير ممن ينتسب إلى أهل السنة، كما يقول البيهقي رحمه الله في كتابه «الأسماء والصفات»: «باب ما جاء في إثبات اليدين لا من حيث الجارحة»(١)، وكل هذا من باب التنفير.

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (٢/ ١١٨).

والمقصود: أنَّ ما ذكره المؤلف في التفريع على هذه القاعدة: هو أن النفي لا يكون نفيًا محضًا فيما وصف الله ﷻ به نفسه، وإنما النفي الذي نفاه الله عن نفسه يتضمن كمالًا، أما أهل الباطل فإنَّ دينهم النفي الخالص الذي ليس فيه إثبات شيء، لأنهم ينكرون وجود الله تعالى، أو أن ذلك يلزمهم.

* * *

القَاعِدَةُ الثَّانية

قال رحمه الله تعالى:

«القاعدة الثَّانية: أن ما أخبر به الرسول ﷺ عن ربه ﷻ فإنه يجبُ الإيمان به، سواءٌ عرفنا معناه أو لم نعرف؛ لأنه الصادق المصدوق، فما جاء في الكتاب والسُّنَّة وجب على كلِّ مؤمنٍ الإيمان به وإن لم يفهم معناه».

الشَّرح

قوله: **«أن ما أخبر به الرسول ﷺ عن ربه ﷻ فإنه يجبُ الإيمان به، سواءٌ عرفنا معناه أو لم نعرف»**. هذا على سبيل التنزل والفرض؛ وإلا فالخطاب الذي يخاطبنا الله ﷻ به أو يخاطبنا به رسولُه ﷺ واضحٌ وجليٌّ؛ قال الله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ١١٨﴾ [آل عمران: ١١٨].

والرسول ﷺ قد أُعطي البيان والفصاحة والنصح والعلم، وكان إذا تكلَّم؛ تكلم بكلام قليل، ثم يكرره ثلاثًا حتى يُحفظ عنه، ويوضِّح للناس كلَّ الإيضاح. فدعوى أن في الكتاب والسنة شيئًا خوطبنا به لا يعلمه أحدٌ: كذبٌ على الله ﷻ وعلى رسوله.

والله ﷻ قد ذم الذين لا يفهمون الخطاب، فقال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ١٧﴾ [القمر: ١٧]. يقول المفسرون: «هل من طالب علم أو خير فيُعان عليه»(١).

ولا سيما أن هذا في الأصول، كالإيمان بالله ﷻ والإيمان برسوله ﷺ؛ فالإيمان جاء به الرسول ﷺ ووضَّحه ونُقل ذلك عنه نقلًا متواترًا بحيث إنه ليس فيه لبسٌ ولا اشتباهٌ.

ومعلومٌ أنَّ الرسول ﷺ يعلمنا الأشياء التي لو تركناها لم نأثم، مثل: أدب النوم، والأكل، والجلوس، واللباس، وقضاء الحاجة وما أشبه ذلك، وهذه كلُّها

(١) تفسير الطبري (٢٢/ ٥٨٤).

ليست لازمةً لنا، وإنما هي من باب الأدب فقط، فكيف يعلمنا هذه الأمور، ويترك باب معرفة الله ﷻ مغلقًا أو مشتبهًا وملتبسًا؟!

فالأمور التي تتعلق بالعبادة كلها واضحة وجلية، أما حقائق الأشياء فما كلفنا بها، فكيف يكون الذي أخبرنا عنه بالآخرة؟ أو كيف صفاته التي تقوم بذات الرب ﷻ؟ فهذه أمورٌ لم نُكلَّف بها، ولم نؤمر بها حتى يكون ذلك غير مُبيَّنٍ، وإنما كُلِّفنا بالمعاني التي خوطبنا بها.

فإذا قُدِّر أن العبد لم يعرف المعنى؛ فإنه يجب أن يقول كما قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «آمنت بالله وبما جاء عن الله، على مراد الله، وآمنت برسول الله، وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله»، وقال هذا لوجود أمورٍ صار فيها خلاف، والخلاف لا يكون في النصوص وإنما في المفاهيم.

وهذه قاعدة يجب أيضًا أن نعرف حقيقتها ونتحقَّقها؛ فكل ما جاء عن الله وعن رسوله وجب الإيمان به وقبوله والتسليم له، سواءٌ عرفت معناه أو لم تعرفه.

وبعض الناس لا يريد إلا أن يعرف الحقائق؟! حتى في الأحكام؛ مثل: الوضوء والصلاة والحج وما أشبه ذلك، يريدون أن يعرفوا العلل، فيقولون: «لماذا إذا أراد الإنسان أن يصلي يغسلُ وجهَه ويغسلُ يدَيْه ويغسل كذا وكذا؟ هل هو نجس؟!».

يقال: إن كلمة «لماذا» هذه يجب أن ترمي بها بعيدًا في مثل هذه الأشياء، يجب أن تقول: «آمنت بالله وامتثلت أمره»، وهذا سماها طهارة وتتطهر بها؛ وهكذا.

ويقول بعضهم: «لماذا نقصد مكة ونتعب أبداننا وننفق أموالنا ونجتمع هناك ونتزاحم والتعب الشديد وغيره؟» يقولون: «لا توجد حكمة!».

فهذا كله عناد وتكبُّرٌ على الله ﷻ، فهذه أمور الأحكام، أما ما يتعلق بالله ﷻ فهو أكبر من هذا وأعظمُ؛ يجب أن تقبله وتؤمن به وتسلِّم وتنقاد.

ولهذا كثيرًا ما يقول الفقهاء وغيرهم من العلماء: إذا جاءت قضيةٌ من قضايا الشرع غيرُ مدركة الحقائق يقولون: «هذا تعبُّد»، يعني: عليك أن تعبد الله وتتَّبع ذلك وتسلِّم وتنقاد لربك ﷻ، وإلَّا تكون معاندًا متكبرًا.

فهذه القاعدة في هذا المعنى.

قال رحمه الله تعالى:

«وكذلك ما ثبت باتفاق سلف الأمة وأئمتها.

مع أن هذا الباب يوجد عامته منصوصًا في الكتاب والسُّنَّة، متفقًا عليه بين سلف الأمة».

الشَّرح

يعني: سواءٌ كان بالأحكام أو في الأخبار التي يُخبر الله بها عن نفسه أو يُخبر بها عن جزائه، وكذلك في الماضي والمستقبل؛ كلها طريقها يجب أن تُقبل ويُؤمن بها على ما يفهم السامع من الخطاب وينقاد لذلك ويسلِّم؛ وإلَّا يكون معاندًا مكابرًا، والعناد والكبر من الكفر بالله ﷻ.

وأوصاف الله ﷻ وأسماؤه منصوصٌ عليها، وليست محلَّ طلبٍ للفهم والاستنتاج، وإنما هي نصوصٌ أخبر الله ﷻ بها، وهي أمورٌ غيبية يخبر بها عن نفسه.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وما تنازع فيه المتأخرون، نفيًا وإثباتًا، فليس على أحدٍ بل ولا له أن يوافق أحدًا على إثبات لفظٍ أو نفيه، حتى يعرف مراده، فإن أراد حقًّا قُبل، وإن أراد باطلًا رُدّ، وإن اشتمل كلامه على حقٍّ وباطل لم يُقبل مطلقًا ولم يُرد جميع معناه، بل يُوقف اللفظ ويُفسّر المعنى، كما تنازع الناس في الجهة والتحيز وغير ذلك».

الشَّرح

يجب على السامع إذا قيل له: «إن الله ليس في جهة، أو في جهة»، أن يقول: ماذا تريد في الجهة؟

- هل تريد بالجهة جهةً معينة محصورة؟ فلو قصد هذا فهذا كلامٌ باطل.

- وإن كنت تريد بالجهة أنه في العلو فوق العرش، فتقول: نعم، هذا صحيح، ولكن لا يجوز أن تعبِّر بـ«الجهة»، بل يجب أن تعبِّر بما عبَّر الله به، فتقول: «إن الله فوق»، أو «في العلو»، أو: «إن الله مستوٍ على العرش».

وهكذا «التحيُّز» و«الجسم» و«الجوهر» و«العرَض»، وغيرها من المصطلحات التي يتلفظون بها، لا بُدَّ من الاستفصال فيها؛ فلا تردُّها مطلقًا ولا تقبلها مطلقًا؛ بل يُستفصل، فإذا بيَّن أنه يريد حقًّا، نقول: الحق مقبول، ولكن يجب أن يُعبَّر عنه بالعبارات الشرعية، وإن أراد باطلًا، قلنا: لفظك ومعناك كلاهما مردود.

وهذه الكلمة «الجهة» و«الحيز» تحتمل أمورًا:

فإن قال قائل: «ليس في جهة» أو: «إنه في جهة»؛ فنقول: إن كان يريد أن الله ليس محصورًا في مخلوقاته؛ فنقول: إن هذا المعنى صحيح.

وكذا إن قال: «إن الله ليس في حيّز» أو: «إنه في حيّز»؛ فإن أراد أنه ليس محوزًا في مكان؛ فهذا المعنى صحيح، ولكن اللفظ غير صحيح، ويجب أن يعبِّر عنه بالعبارات الصحيحة الشرعية التي جاءت في الكتاب والسنة.

والألفاظ والمعاني الصحيحة واضحةٌ في الكتاب والسنة، فيقول: إن الله ليس

كمثله شيء، وإن الله فوق عباده، وإن الله استوى على عرشه، وما أشبه ذلك، والعبارات البدعية التي لم تأتِ في الكتاب ولا في السنة يجب أن تُرَدَّ ولا يوصف الله ﷻ بها، فلا يوصف إلا بما وَصَف به نفسه أو وصفه به رسولُه ﷺ.

ومثل ذلك «الجسم»:

فإذا قال: «إن الله جسم» أو: «إن الله ليس بجسم»؛ فنقول: ماذا يريد بالجسم؟

- أيريد أنه ليس مركبًا؟ أو أنه لا تصح الإشارة إليه؟ أو أنه ليس فوق؟ أو أنه ليس له مكان؟ فإن أراد هذه المعاني فهذا باطل لفظًا ومعنى.

- وإن كان يريد أنه ليس كأجساد الخلق أو أنه ليس مركبا كما تركب أجساد الناس، فنقول: هذا المعنى حقٌّ، والله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١].

ومثل ذلك إذا قال: «إن الله ليس بجوهر ولا عرض»؛ فنقول: إن أراد أنه ليس كالمخلوقات فهذا المعنى صحيح، ولكنَّ العبارة باطلة، ويجب أن يقول: إن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وهكذا.

وهذه الألفاظ التي يعبِّرون عن الله بها كثيرة، ولكن بعضهم يريد معنى باطلًا، ويأتي بألفاظ موهمة، والذي يسمعها ممن لا يعرف مراده يظن أنه يريد التنزيه، وفي الحقيقة أنهم يريدون تعطيل صفات الله ﷻ، كالذي يعبر عن اليد والوجه والرِّجل بالجارحة تنفيرًا.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «فلفظ: «الجهة» قد يُراد به شيء موجود غير الله فيكون مخلوقًا، كما إذا أريد بالجهة نفس العرش أو نفس السَّماوات.

﴿ وقد يُراد به ما ليس بموجود غير الله تعالى، كما إذا أُريد بالجهة ما فوق العالَم.

﴿ ومعلومٌ أنه ليس في النص إثباتُ لفظ «الجهة» ولا نفيه، كما فيه إثبات «العلو» و«الاستواء» و«الفوقية» و«العروج إليه» ونحو ذلك.

﴿ وقد عُلم أن ما ثَمَّ موجود إلا الخالق والمخلوق، والخالق مبايِنٌ للمخلوق ﷻ، ليس في مخلوقاته شيء من ذاته، ولا في ذاته شيءٌ من مخلوقاته.

﴿ فيقال لمن نَفَى الجهة: أتريد بالجهة أنها شيءٌ موجودٌ مخلوق؟ فالله ليس داخلًا في المخلوقات؛ أم تريد بالجهة ما وراء العالم؟ فلا ريب أن الله فوق العالَم، بائنٌ من المخلوقات.

﴿ وكذلك يقال ـ لمن قال: إن الله في جهةٍ ـ: أُتريد بذلك أن الله فوق العالم، أو تريد به أن الله داخلٌ في شيءٍ من المخلوقات؟

﴿ فإن أردت الأول فهو حقٌّ، وإن أردت الثاني فهو باطلٌ.

﴿ وكذلك لفظ «المُتحيِّز»، إن أراد به أن الله تحوَّزه المخلوقات، فالله أعظم وأكبر؛ بل قد وسع كرسيه السماوات والأرض، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧].

﴿ وقد ثبت في الصَّحاح عن النبي ﷺ أنه قال: «يقبض الله الأرض ويطوي السماوات بيمينه ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض...»[(١)].

(١) أخرجه البخاري (٤٨١٢)، ومسلم (٢٧٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

الشَّرح

قوله: «فلفظ «الجهة» قد يُراد به شيء موجود غيرُ الله فيكون مخلوقًا...»، يعني: إذا أثبت الجهة لله تعالى أو نفاها فإن هذا كله مردودٌ عليه؛ ونقول: إن هذا لفظ مبتدع لا يجوز أن يقال في حق الله ﷻ.

ولا بُدَّ من الاستفصال في مراده بـ«**الجهة**»؛ فإن أراد بأنَّ الله ليس محصورًا في مكانٍ فهذا حقٌّ، وإن أراد أنه ليس فوقَ وليس مستويًا على عرشه؛ فهذا باطلٌ، فيرد لفظه ومعناه إذا تبين أنه يريد باطلًا؛ أما إذا كان يريد حقًّا فنقول: الحق يجب أن يقبل، ولكن يعبِّر عنه بالعبارات الشرعية التي جاءت في الكتاب والسنة.

قوله: «ومعلومٌ أنه ليس في النص إثبات لفظ «الجهة» ولا نفيه»، يعني: أن لفظة «**الجهة**» لم ترد في النصوص الشرعية، وإنما ورد في الصفات: «العلو» و«الاستواء». وقد علم في الشرع وفي الفطرة السليمة بأن الله ليس مخالطًا لخلقه، وهو فوق عرشه بائنٌ منهم، ولهذا يعبِّر السلف بهذه العبارة فيقولون: «بائنٌ من خلقه» حتى يبطل قول الذين يقولون: «إن الله في كل مكان»، أو: «إن الله مع خلقه حالٌّ معهم»، أو: «إنه ليس داخلَ العالم وليس خارجَه، ولا تصح إليه الإشارة.....» إلى غير ذلك من عباراتهم المبتدعة، بخلاف أهل السنة فإنهم يأتون بالعبارات التي قالها الله وقالها رسوله ﷺ، ويبطلون هذه العبارات الفاسدة المبتدعة التي تتضمن باطلًا أو تتضمن إلحادًا أو حلولًا أو تعطيلًا.

قوله: «وقد عُلم أن ما ثَمَّ موجود إلا الخالق والمخلوق». فالخالق هو الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وأما المخلوق المقهور فالله ﷻ هو الذي أوجده وخلقه، وليس مماثلًا لله ﷻ.

قوله: «والخالق مباينٌ للمخلوق ﷻ»، فلا يكون الله مع هؤلاء المخلوقين حالًّا فيهم، بل هو مبايِنٌ لهم، وهو أكبر وأعظم من ذلك.

قوله: «ليس في مخلوقاته شيء من ذاته، ولا في ذاته شيءٌ من مخلوقاته». وهذا علمٌ ضروري، فليس داخلًا وحالًّا فيهم، ولا هم داخلين وحالِّين في الله - تعالى وتقدس -، ولا يقول ذلك إلا ضالٌّ مُضِلٌّ.

قوله: «فيقال لمن نفى الجهة: أتريد بالجهة أنها شيءٌ موجودٌ مخلوق؟ فالله

ليس داخلًا في المخلوقات...» هذا جواب لمن يثبت أو ينفي الجهة لله تعالى، وقد تقدم الكلام عليه قريبًا.

قوله: «**أم تُريد بالجهة ما وراء العالم؟**». المقصود بـ«العالم»: المخلوقات كالسماء والأرض، فالله ﷻ لا يكون في داخلها، ولا يكون شيء منها يحيط به أو يقله أو يظله ـ تعالى الله وتقدس ـ.

وإذا نزل ـ كما أخبر المصطفى ﷺ ـ إلى السماء الدنيا في كل ليلة؛ فإنه ينزل وهو فوق المخلوقات كلها وهو على عرشه، وكذلك إذا جاء للفصل بين عباده يوم القيامة إلى الأرض؛ فإنه يأتي وهو فوق مخلوقاته كلها وهو على عرشه.

والله ﷻ أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، ولا يجوز أن يُتوهم أن مجيئه ونزوله كنزول المخلوقات؛ لأن هذا تشبيه لله ﷻ، فالله لا يحاط به علمًا، ولا يحاط به ذاتًا ـ تعالى الله وتقدس ـ، وكل هذا يدلُّ على عظم الله ﷻ.

فالمقصود: أنَّ التوهُّم بأن شيئًا من مخلوقاته يحيط به أو يكون فوقه أو يكون مقلًّا وحاملًا له؛ فكلُّ هذا توهُّمٌ باطِلٌ، ويجب أن يكون لله قدرٌ في قلب المؤمن، ولهذا يذكر لنا ﷻ شيئًا من عظمته حتى نؤمن بذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]، فلم يعلموا قدره وعظمته التي هو عليها، فلهذا قالوا: «إن له شريكًا وولدًا، وإنه قد يفوته شيء»، ـ تعالى وتقدَّس عما يقولون ـ.

إنَّ المخلوقات بالنسبة إليه حقيرةٌ صغيرةٌ، على كِبرها وعِظمها يطويها ويقبضها بيده، فتكون كالخردلة ـ تعالى الله وتقدَّس ـ، فكيف يقال: إنه داخل العالم في مثل هذا؟!

يقول: هو ما عرَف الله، والذي لم يعرف الله لم يؤمن به؛ وهكذا ألفاظهم التي يجعلونها ذريعةً إلى إنكار الله، والكفر قد يكون متستِّرًا به صاحبه ويأتي بألفاظٍ مُجملة موهِمَة، قد يكون فيها حقٌّ وباطِلٌ؛ حتى لا يُمسَك عليه شيء، ومثل هذا لا بُدَّ من الاستفصال والسؤال ـ كما سبق ـ.

المقصود: إن قوله: «**وكذلك لفظ «المتحيِّز...»**» هذه كذلك من الألفاظ التي تحتمل حقًا وباطلًا، فإن «**أراد به أن الله تحوزه المخلوقات فالله أعظم وأكبر**»، وهذا هو المعنى الباطل، وإن أراد أنه متحيِّزٌ عن خلقه بائنٌ عنهم؛ فهذا المعنى حقٌّ.

قوله: «**بل قد وسع كرسيه السماوات والأرض**». جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما

قوله: «الكرسِيُّ موضِعُ القدمينِ والعرشُ لا يُقَدِّرُهُ إلَّا الله ﷻ»[١]؛ فإذا كان الكرسي أوسع من السماوات والأرض، والعرش أكبر منه بمرات كثيرة، والله أكبر من المخلوقات كلها وأعظم منها، فلا يتوهم متوهِّمٌ أن شيئًا من مخلوقاته يكون داخلا فيها - تعالى الله وتقدس -.

قوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾، يعني: أن الأرض بيده، والسماوات في اليد الأخرى، وقد تكون كلها في يد واحدة، وكل ذلك عليه سهل ميسور.

وقول النبي ﷺ: «**يقبض الله الأرض ويطوي السماوات بيمينه...**»، هذا الحديث يدلُّ على عظم الله ﷻ، وأن السماوات تطوى، وتكون الأرض في قبضته، كما قال ﷻ: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ [الزمر: ٦٧].

* * *

(١) سبق تخريجه.

قال رحمه الله تعالى:

﴿«وفي حديثٍ آخر: «وإنه ليدحوها كما يدحو الصبيان بالكرة...»[١].

الشَّرح

«الدَّحْو»: هو القذف، وهذا يدلُّ على أنها سهلة ميسورة عليه، وإذا شاء كل المخلوقات يدحوها أو يمسكها بيده ﷻ.

معنى «**ليدحوها**»: يقذفها وتتدحرج، «**كما يدحو الصبيان الكرة**»، يعني: يُبيِّن قدرته وعظمته ﷻ بما فيها من المخلوقات كلها.

* * *

(١) رواه الطبري (٢٠/ ٢٤٧).

قال رحمه الله تعالى:

«وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «ما السَّموات السبع والأرضون السبع وما فيهن في يد الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم»».

الشَّرح

هذا الحديث رواه ابن جرير وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما، ومثل هذا لا يقال بالرأي، وإنما يقال توقيفًا عن المصطفى ﷺ، وهذا الذي يقول العلماء فيه: الذي لا دخل له في الرأي حكمه حكم الرفع؛ أنه مرفوع.

وحديث ابن عباس رضي الله عنهما: **«ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن في يد الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم»**[1] هذا تمثيل وتقريب لعظمة الله جل جلاله بالشيء الذي نفهمه، وهو ﷺ يبين من عظمة الله الشيء الذي يجب أن نعتقده.

* * *

(١) رواه الطبري (٢٠/٢٤٦)، وابن منده في «الرد على الجهمية» (٥٧).

قال رحمه الله تعالى:

«وإن أراد به أنه منحازٌ عن المخلوقات؛ أي: مباينٌ لها، منفصلٌ عنها، ليس حالًّا فيها، فهو سبحانه كما قال أئمة السُّنَّة: فوق سماواته على عرشه بائنٌ من خلقه».

الشرح

قوله: «فوق سماواته على عرشه بائنٌ من خلقه». كلمة «بائنٌ» لم تأتِ في الكتاب والسنة، وإنما قالها السلف تفسيرًا وبيانًا لصفة العلو والفوقية وما أشبه ذلك.

ومعنى «البينونة»: أي: ليس داخل الخلق، وليس في خلقه شيءٌ منه ـ تعالى الله وتقدَّس ـ، أي غير مخالط لخلقه ولا داخل فيهم. فالذي يقول: «إنه حالٌّ فيهم» أو: «في كل مكان»؛ ردَّ السلف عليه بقولهم: «بائن من خلقه»، فهو تفسير وليس وصفًا؛ لأن الله لا يوصف إلا بما وصف به نفسه.

القَاعِدَةُ الثَّالثة

قال رحمه الله تعالى:

«القَاعِدَةُ الثَّالثة: إذا قال القائل: ظاهر النصوص مراد، أو ظاهرها ليس بمراد. فإنه يقال: لفظ «الظاهر» فيه إجمالٌ واشتراك، فإن كان القائل يعتقد أن ظاهرها التمثيل بصفات المخلوقين، أو ما هو من خصائصهم، فلا ريب أن هذا غير مراد، ولكن السلف والأئمة لم يكونوا يسمّون هذا ظاهرًا، ولا يرتضون أن يكون ظاهر القرآن والحديث كفرًا وباطلًا، والله ﷻ أعلم وأحكم من أن يكون كلامه الذي وصف به نفسه لا يظهر منه إلا ما هو كفر وضلال».

الشَرح

قوله: «القَاعِدَةُ الثَّالثة: إذا قال القائل: ظاهر النصوص مراد، أو ظاهرها ليس بمراد...»، يعني: الأشاعرة الذين يقولون: «إن صفات الله مِن المتشابه، فنحن نَكِل أمر المتشابه إلى الله»، فيجعلون هذا من باب التفويض؛ ولهذا أوجبوا التأويل، أو التفويض، لزعمهم أن ظاهرها التشبيه!

فإيجابهم التأويل أو التفويض معناه: أنهم يرون أن ظاهر النصوص كفر وأنه تشبيه ولا يجوز اعتقاده، وهذا من أظهر الباطل وأبطل الأقوال التي يقولها هؤلاء؛ لأن معنى ذلك: أن الله خاطبنا بأمورٍ لم يردها وإنما أراد غيرها، فهذا يكون من باب التدليس ومن باب التمويه.

ولهذا قال قائلٌ منهم: لو أخذنا بظاهر النصوص لكُنَّا كفارًا، كما قال الصاوي في حاشيته على «تفسير الجلالين» في سورة «الكهف» يقول: ظاهر القرآن كفر![1] نسأل الله العافية.

بل الظاهر حقٌّ، كما أخبر الله ﷻ به، ولكن ليس الظاهر هو الذي يُفهم من

---

(١) ينظر: حاشية الصاوي على تفسير الجلالين (٣/ ٩).

صفات المخلوقين. الأشاعرة أرادوا هذا، فيقولون مثلًا: «اليد مثل أيدِي الناس، ما نفهم منها إلا اليد المعروفة»؛ ولهذا الذين يؤلِّفون في هذا: كثيرٌ منهم يوجبون أن تؤوَّل. والبيهقي ـ رحمه الله تعالى ـ يقول في كتابه «الصفات»: «باب إثبات اليد لا من حيث الجارحة»[1]؛ هكذا يقول!؛ لأنه يتبادر عندهم أن اليد هي الجارحة التي يعرفونها.

يُقال: ولكن ظاهر القرآن، وظاهر الأحاديث ليس هذا هو الذي فهموه، وفهمهم أو الذي عيَّنوه هو الباطل، فإذا قال الله ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]، فهو على ظاهره. وإذا قال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥]، فهو على ظاهره؛ له يدان، ولكن يداه تليق بعظمته وجلاله.

وهكذا إذا قيل: إنه ﷻ قائمٌ بنفسه. نقول: هو ليس كمثل الأشياء والمخلوقات، وصفاته ـ سواءٌ كانت صفات ذات أو صفات فعل ـ هي تليق بعظمته وجلاله، مثل ما سبق: أن الله ﷻ لا يُشبه شيئًا؛ لا في ذاته، ولا في صفاته، والصفة تبعٌ للذات، تبعٌ للموصوف.

يعتقد بعض الناس أن ظاهر النصوص غيرُ مراد، وهذا يلزم منه بطلان ظاهر النصِّ؛ لأن عندهم ظاهرها التشبيهُ، فيصرفون المعنى الظاهر إلى معنى آخر غير مراد؛ ومن ذلك أن الله ﷻ أخبر عن نفسه أنَّ له وجهًا ويدين ورجلين وسمعًا وبصرًا وحياة وعلمًا؛ فيقولون: «إنَّ هذا يشبه ما يوصف العبد به»، ولهذا يوجبون التأويل أو التفويض.

وإذا كان التأويل أو التفويض واجبًا؛ فمعنى ذلك: أن القول بظاهر النص ـ على زعمهم ـ حرامٌ وكفرٌ، والواقع أن قولهم هذا هو الكفر بالله ﷻ، ولكن لا نكفرهم بأعيانهم؛ لأنهم ما قالوا هذا إلا لوجود شبهةٍ قامت عندهم وتربَّوا عليها وتلقَّوها ممن يعظِّمونهم من مشايخِهم، وهذا مانع من تكفيرهم؛ لوجود الشبهة والتأويل.

والواجب عليهم: الرجوعُ إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأن يعلموا أن كلام الله حقٌّ، وليس مراده الباطل الذي يعتقدونه.

---

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (٢/ ١١٨).

وهم يقولون: لا نعرف من صفة اليد إلا الجارحة التي تكون للإنسان!

فنقول: إن هذه المعرفة باطلةٌ، فالله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، في أي وصف أو اسم يطلقه على نفسه، وهو لا يماثل خلقه ـ تعالى الله وتقدس ـ في شيء من ذلك، فنثبت الصفات من غير تشبيهٍ كما جاء النص بذلك.

قوله: «لفظ (الظاهر) فيه إجمالٌ واشتراك»، يعني: أنه قد يراد به حقٌّ أو باطلٌ:

* أن يكون الظاهر هو المراد حقيقةً، فالله أراد حقيقة اليد والوجه، ولكن وجهه ويداه وصفاته لا تشبه صفة المخلوقين، ولهذا يقول ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]، فنصَّ على السمع والبصر؛ لأنهما موجودان في المخلوقات، فكأنه ﷻ يقول: لا يحملكم قولي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ على ألا تثبتوا الصفات، والله عليم حكيم، وظاهر الصفات حقٌّ على ما أخبر به ربُّنا ﷻ وعلى ما دلَّت عليه اللغة التي خوطبنا بها.

* والباطل: أن يُؤتى بمعانٍ ويُزعم أنها هي الظاهر! فنقول: هذا باطل ومردود على صاحبه، ولكن فهوم الناس واتجاهاتهم وتصوراتهم تختلف باختلاف التربية، فعندما يتعلم الإنسان من صغره ويتلقى عمن يظن أنه خبير وعالم بالأشياء؛ فإنه يصعب عليه أن يأخذ النصوص على ما أرادها المتكلم، فيكون كما أخبره معلمه أن الحكم بظاهر النص يعتبر تشبيهًا، ولهذا قال: «**فإن كان القائل يعتقد أن ظاهرها التمثيل بصفات المخلوقين، أو ما هو من خصائصهم، فلا ريب أن هذا غير مراد**»؛ لأن هذا تشبيه وتمثيل لله بمخلوقاته، والله ليس كمثله شيءٌ، فهذا الظاهر باطلٌ، ولا يجوز إطلاقه.

والذين يثبتون الصفات يسارعون إلى نفي هذا التوهم في كُتُبهم، فمثلًا يقولون: «باب إثبات اليدين لا من حيث الجارحة»[1]، وقوله: «لا من حيث الجارحة» لم تأتِ إلا من توهمه أن يدي الرحمن ﷻ جوارح، فنفى هذا التوهم؛ خوفًا من أن يكون إطلاق اليد هي الجارحة.

فإذا كان الله ﷻ في ذاته لا يشبه شيئًا؛ فكذلك أوصافه لا تشبه أوصاف

(١) الأسماء والصفات للبيهقي (٢/١١٨).

المخلوقين، سواء كانت الصفة ذاتية أو فعلية، فكلاهما حقٌّ وكلاهما تخصُّه ﷻ ولا يشاركه فيها المخلوق.

قوله: «**ولكن السلف والأئمة لم يكونوا يسمّون هذا ظاهرًا**». وتسميته ظاهرًا باطلٌ، يعني: الذي يُفهم من مشابهة المخلوقات هو باطل.

قوله: «**ولا يرتضون أن يكون ظاهرُ القرآن والحديث كُفرًا وباطلًا**»، يعني: لا يوجد مسلم يرتضي هذا، ولكن الذي يزعم أن ظاهره هذا، هو ضالٌّ مجانبٌ للحقِّ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«والذين يجعلون ظاهرها ذلك يغلطون من وجهين:

تارةً يجعلون المعنى الفاسد ظاهرَ اللفظ، حتى يجعلوه محتاجًا إلى تأويل يخالف الظاهر، ولا يكون كذلك، وتارةً يردون المعنى الحق الذي هو ظاهر اللفظ؛ لاعتقادهم أنه باطل».

الشَّرح

قوله: «تارةً يجعلون المعنى الفاسد ظاهر اللفظ، حتى يجعلوه محتاجًا إلى تأويل يخالف الظاهر» كما تقوله الأشعرية؛ ولهذا يوجبون التأويل، ويقولون: التأويل واجب أو التفويض.

قوله: «وتارةً يردون المعنى الحق الذي هو ظاهر اللفظ؛ لاعتقادهم أنه باطل»، يعني: هذا وهذا، كلاهما يقعون فيه، يجعلون ظاهر القرآن ظاهرًا فاسدًا باطلًا، ثم يصرفونه إلى معنًى فاسد، فوقعوا في محذورين:

المحذور الأول: كونهم ظنُّوا أن ظواهر النصوص تشبيه.

المحذور الثاني: أنهم صاروا يؤوِّلون النصوص إلى معانٍ فاسدة، باطلة؛ كما قالوا: «اليد»: النعمة أو القدرة؛ وهكذا في «الرحمة» و«الغضب» و«الرضا» وغير ذلك.

قوله: «والذين يجعلون ظاهرها ذلك يغلطون من وجهين...»، يعني: الذين يجعلون ظاهر نصوص الصفات يلزم منه مشابهة الخالق للمخلوق، فهم انقسموا إلى قسمين:

القسم الأول: وهم الذين **«يجعلون المعنى الفاسد ظاهر اللفظ، حتى يجعلوه محتاجًا إلى تأويل يخالف الظاهر، ولا يكون كذلك»**، وهؤلاء يوجبون التأويل أو التفويض كما تقوله الأشاعرة. و«التفويض» معناه: الجهل بمعنى الصفة، وتفويض علمه إلى الله وحدَه، فلا يعلمه الرَّسول ﷺ ولا جبريلُ؛ ولهذا قال في «جوهرة التوحيد»[1]:

(١) جوهرة التوحيد (ص٩١).

وكلُّ وصفٍ أوهَمَ التَّشْبِيهَا أَوِّلْهُ أو فَوِّضْ وَرُمْ تَنْزِيهَا

فكيف نُخاطَب بشيء لا نعرفه؟!

ويقولون: إنه خاطبنا بشيء ظاهره غير مراد من باب الامتحان والابتلاء والاختبار؛ حتى يعظم أجرنا، وحتى نطلب له المعاني بأذهاننا!

وهذا كلام باطلٌ، والله ﷻ خاطبنا بالخطاب الظاهر والواضح، وذمَّ الذين لا يفهمون الخطاب، فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢]، فالظاهر الذي يقولونه في هذا هو من أبطل الباطل.

القسم الثاني: وهم الذين «**يردون المعنى الحق الذي هو ظاهر اللفظ؛ لاعتقادهم أنه باطل**»، وهؤلاء هم المعطلة الذين يردُّون صفات الله تعالى ولا يثبتونها، مثل صفة المجيء في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢٢]، فهم يقولون: «جاء أمرُه»، أو: «جاءت ملائكتُه»، أو: «جاء عذابُه»، وما أشبه ذلك؛ وينفون مجيئه بنفسه، ويحرِّمون إطلاق هذا الوصف لله، فيقولون: «إن هذا يحتاج إلى ذهاب ومجيء وتحرُّك من مكان إلى آخر، والله لا يكون كذلك!».

هكذا يزعمون، فيردون الحق، ويتصورون أن الخطاب في الصفات والأفعال كمثلهم، ومثل ذلك الإتيان والاستواء وغير ذلك من الصفات، والنتيجة أنهم يعطلون صفات الله تعالى وأفعاله.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فالأول: كما قالوا في قوله: «عبدي جعت فلم تطعمني... الحديث»، وفي الأثر الآخر: «الحجر الأسود يمين الله في الأرض، فمن صافحه وقبَّله فكأنما صافح الله وقبَّل يمينه»».

الشرح

نصَّ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ على هذه الأحاديث؛ لأنَّ أكثرهم يرى أن هذه يجب أن تؤوَّل ولا يجوز أن نأخذ بظاهرها، ولكن الحقيقة: أنهم يؤولون جميع الصفات إلا الصفات السبع، وليس في هذه الأحاديث فقط.

فالحديث الأول يقول ـ وهذا الحديث صحيح ـ: «**عبدي جعت فلم تطعمني..**». فقال: كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟! قال: أما علمت أن عبدي فلانًا جاع؟ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي»[(١)]، فقوله: «**لوجدت ذلك عندي**» ظاهرٌ بأنه ليس هو الجائع، وإنما جعل جوع عبده كأنه جوعٌ له ـ تعالى الله وتقدس ـ.

الحديث يبيّن أن المعنى هو الجزاء والثواب، وهؤلاء يجعلون ظاهر هذا النص أن الله يجوع ويمرض تعالى الله تقدَّس، ولا شكَّ أن هذا المعنى باطِلٌ، فالله هو الذي يُطعِم ولا يَطعَم، وهو الصمد جَلَّ جَلَالُهُ.

الحديث الثاني، يعني: «**الحجر الأسود يمين الله في الأرض**»[(٢)]، فهذا الحديث ضعيفٌ، وهو موقوف على ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وإذا صحَّ فليس فيه تشبيهٌ، ولهذا قال: «**فمن صافحه فكأنما صافح الله**»، ومعلوم أنَّ المصافح غير الله جَلَّ جَلَالُهُ، فإنما هو حجرٌ. وهذا كقوله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]؛ فالرسول ﷺ يأمره الله

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل عيادة المريض (٤/ ١٩٩٠) برقم (٢٥٦٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٥/ ٣٨)، والفاكهي في أخبار مكة (١/ ٨٨) برقم (١٧)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بأمرٍ، فمن امتثل أمر الرسول فقد امتثل أمر الله تعالى، ولهذا قال ﷻ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠]، ومن بايع الرسول فهو عن أمر الله ﷻ، فهو عقد جاء به الرسول من الله ويجب الوفاء به، ولهذا قال: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ [الفتح: ١٠].

❊ ❊ ❊

قال رحمه الله تعالى:

«وقوله: «قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن».

فقالوا: قد عُلم أن ليس في قلوبنا أصابع الحق. فيقال لهم: لو أعطيتم النصوص حقها من الدلالة لعلمتم أنها لا تدل إلا على حق».

الشَّرح

قوله: «قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء»؛ أي: هو يتصرّف فيها، وأن الهداية والضلالة بيد الله تعالى. وهؤلاء يقولون: لا نرى في قلوبنا أصابع! ويزعمون أن هذا هو ظاهر النص، وليس الأمر كذلك؛ ولهذا قال ﷺ: «**يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ**»[(1)]، فمن أراد هدايته جعل قلبه قابلًا للحق مريدًا ومحبًّا له، ومن أراد إضلاله منعه هذا الخير، فهو فضلُ الله يعطيه من يشاء، ويمنعه من يشاء.

قوله: «بين أصبعين من أصابع الرحمن»، فيه إثبات الأصابع لله ﷻ، وليست كأصابع المخلوقين، فنثبتها من غير تمثيل ولا تشبيه بالمخلوق.

والرسول ﷺ إذا تكلّم بكلام، لا بُدَّ أن يبيِّنه ويوضحه، ولا يتركه مشتبهًا، مع أنَّ كلامه من أوضح الكلام، ولكن إذا كان الإنسان يعتقد اعتقادًا يخالف الحقَّ، فيحاول أن يكون النص يوافقه؛ فلهذا يصيرون إلى التأويلات الباطلة.

والواجب: أن يكون هو يوافق النص، ما يلوي النصوص حتى تتفق مع عقيدته، غير أن هذا صعب، فالإنسان يريد ألا يخرج عن عقيدته.

قوله: «لو أعطيتم النصوص حقها من الدلالة...»، يعني: أنهم لم يفهموا النصوص، فحرفوها عن مراد المتكلم، فضلوا وأضلوا كثيرًا.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء (٤/ ٢٠٤٥) برقم (٢٦٥٤)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، واللفظ للترمذي في سننه، في أبواب القدر عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن (٤/ ٤٤٨) برقم (٢١٤٠)، من حديث أنس رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى:

«أما الحديث الواحد فقوله: «الحجر الأسود يمين الله في الأرض، فمن صافحه وقبَّله فكأنما صافح الله وقبَّل يمينه» صريحٌ في أن الحجر الأسود ليس هو صفةٌ لله، ولا هو نفس يمينه؛ لأنه قال: «يمين الله في الأرض»، وقال: «فمن قبَّله وصافحه فكأنما صافح الله وقبَّل يمينه»».

الشَّرح

قوله: «صريحٌ في أن الحجر الأسود ليس هو صفةٌ لله، ولا هو نفس يمينه». لأنه قال: «**فكأنما صافح الله**».

قوله: «يمين الله في الأرض». هذا يبيِّن أنه ليس هو يده التي تكون صفةً لذاته؛ لأن الله ليس في الأرض، وإنما هو على عرشه.

والأمر الثاني: **قوله: «فمن قبَّله وصافحه فكأنما صافح الله».** والمشبَّه غير المشبَّه به.

فمن هذين الوجهين تبيَّن أن فهمهم لذلك خطأ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«ومعلومٌ أن المشبّه غير المشبَّه به، ففي نص الحديث بيان أن مستلمه ليس مصافحًا لله، وأنه ليس هو نفس يمينه، فكيف يجعل ظاهره كفرًا، وأنه محتاجٌ إلى التأويل! مع أن هذا الحديث إنما يُعرف عن ابن عبَّاس».

الشرح

يعني: أنه موقوف على ابن عباس رضي الله عنهما، وأيضًا هو حديث ضعيف، ولكن على تقدير صحته لا يدلُّ على ما يقولون.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وأما الحديث الآخر: فهو في الصحيح مفسَّرًا: «يقول الله: عبدي جعت فلم تُطعمني». فيقول: ربِّ كيف أُطعمك وأنت رب العالمين؟! فيقول: «أما علمت أن عبدي فلانًا جاع، فلو أطعمته لوجدت ذلك عندي»، «عبدي مرضت فلم تَعُدْني». فيقول: ربِّ كيف أعودك وأنت رب العالمين؟! فيقول: «أما علمت أن عبدي فلانًا مَرِضَ، فلو عُدْتَه لوجدتني عنده»».

الشرح

قوله: «وأما الحديث الآخر...». هذا يقوله ﷻ يوم القيامة مخاطبًا عباده، ومحاسبًا لهم ومجازيًا، وهو على ظاهره حقٌّ، فالله يكلِّم بعضَ عباده بمثل هذا الكلام، ولا يحتاج إلى تأويلٍ؛ لأن الكلام واضحٌ وبيِّنٌ في الحديث نفسه، وصريحٌ في أن المقصود: أنه ﷻ أمر بإطعام الجائع وبعيادة المريض، فإذا فعل ذلك العبد فإنه يجد ذلك عند الله، وصار الأمر أمره في قوله فيما يشرع لعباده؛ كأن الفاعل إذا فعل ذلك يجد هذا عند الله أو يجد هذا الأمر عنده؛ كما قال في القرآن في الذي مثَّل أعماله بالسراب أو بالظلمات: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ﴾ [النور: ٣٩]، يعني: إذا رجع إلى الله ـ ولا بُدَّ من الرجوع إليه ـ يجد ذلك عنده.

المقصود: أنه ما امتثل أمر الله، ولا طلب مرضاته، ولو فعل ذلك لوجده أحوج ما كان إليه حينما رجع إلى ربه ووقف بين يديه؛ ولهذا يذكِّره الله ﷻ بذلك، قال: «**أما علمت أن عبدي فلانًا مرض، فإنك لو عدته لوجدتني عنده**»، وقال في هذا: «**أما علمت أن عبدي فلانًا جاع، فلو أطعمته لوجدت ذلك عندي**»[1].

فقوله: «**لوجدت ذلك عندي**» يدلُّ على أنه ليس هو المُطعَم وليس هو الجائع، وإنما الذي أُطعم مَن أمر أن يُطعَم، والجائع: من أمر أن تُسدَّ خلَّته، فإذا امتثل أمره وجد ذلك عند الله، وقد وضح هذا المؤلف رحمه الله تعالى.

(١) تقدم تخريجه.

قال رحمه الله تعالى:

«وهذا صريحٌ في أن الله ﷻ لم يمرَضْ ولم يجُعْ، ولكن مرض عبده وجاع عبده، فجعل جوعَه جوعَه، ومرَضَه مرَضَه، مفسِّرًا ذلك بأنك «لو أطعمته لوجدت ذلك عندي، ولو عدته لوجدتني عنده». فلم يبقَ في الحديث لفظٌ يحتاج إلى تأويل.

وأما قوله: «قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن»، فإنه ليس في ظاهره أن القلب متصلٌ بالأصابع، ولا مماسٌّ لها، ولا أنها في جوفه، ولا في قول القائل: هذا بين يدَيّ، ما يقتضي مباشرته ليديه، وإذا قيل: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤] لم يقتضِ أن يكون مماسًّا للسماء والأرض، ونظائر هذا كثيرة».

الشرح

قوله: «فجعل جوعه جوعه». والله لا يجوع ولا يمرض، ولكن هذا بمنزلة الذي جاع، وإلا فالله ﷻ لا يجوز أن يقال عنه: إنه يجوع أو يمرض، ومراد المؤلف واضحٌ، فيقول: إن هذا الكلام يخاطب به الله ﷻ بعض عباده يوم القيامة، فيقول: إنك قصَّرت فيما أمرتُك به، ولم تفعله، فقد أمرتك بأن تطعم الجائع فلم تفعل، ولو أطعمته لوجدت أجرَ هذا يوم القيامة عندي.

وكذلك أمرتك على لسان رسولي أن تعود أخاك في الله إذا مرض فلم تفعل، ولو فعلته لوجدت الأجر الذي تحظى به في هذا اليوم، ولكنك لم تمتثل لأمر الله.

قوله: «فإنه ليس في ظاهره أن القلب متصلٌ بالأصابع...»، يعني: هذا لا يحتاج إلى تأويل، فمعلوم أن الأصابع غير متصلة بقلوب العباد، وهذا لا يلزم منه الاتصال، وإنما تُؤتى هؤلاء من جهلهم باللغة، وبما يخاطب الله به عباده.

والمقصود: أن المؤلف مثَّل بهذه الأحاديث؛ لأنهم يقولون: «إن هذه الأحاديث يجب أن تُأول؛ لأن ظاهرها يلزم منه التشبيه»، وفيها اشتباه على كثير من

الناس، فبيّن أن الظاهر ليس فيه تشبيه، والنص قد فسَّره النبي ﷺ وهو واضحٌ بيِّنٌ لا يحتاج إلى تفسير من أحد.

وكلمة «**بين**» هذه ظرفية لا تدل على الملاصقة ومباشرة للشيء، والمعنى: أن الله ﷻ يتصرَّف بقلوب العباد كيف يشاء؛ فهو الذي يقلِّبها.

وهم يقولون: «ما نجد في قلوبنا أصابع للرحمن»؛ وذلك أنهم جعلوا هذا هو الحقيقة، وأنه هو الظاهر من أن الأصابع في داخل جوف الإنسان وهي ملاصقةٌ للقلب!

فهذا الظاهر الذي يقولونه ليس ظاهرًا؛ فإنك إذا قلت: «بين يدَيَّ كتابٌ»، فيدل على المصاحبة أو التصرف بالشيء.

ولهذا مثَّل بقوله: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤] يعني: أن السحاب لا يمس الأرض ولا يمس السماء، وهو كلامٌ ظاهرٌ وواضِحٌ.

كذلك قوله في الحديث: «**قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن**»، يعني: فُسِّر بقوله: «**يُقلِّبها كيف يشاء**»[1].

* * *

(١) تقدم تخريجه.

قال رحمه الله تعالى:

«ومما يشبه هذا القول أن يُجعل اللفظ نظيرًا لما ليس مثله، كما قيل في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، فقيل: هو مثل قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ [يس: ٧١].

فهذا ليس مثل هذا؛ لأنه هنا أضاف الفعل إلى الأيدي فصار شبيهًا بقوله: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، وهناك أضاف الفعل إليه، فقال: ﴿لِمَا خَلَقْتُ﴾ [ص: ٧٥] ثم قال: ﴿بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]».

الشرح

قوله: «ومما يشبه هذا القول أن يجعل اللفظ نظيرًا لما ليس مثله». هناك ألفاظ في القرآن لها دلالات ومعانٍ مختلفةٌ، فلا يصح أن تحمل كل الألفاظ على معنى واحد؛ ويختلف هذا باختلاف سياق الآية.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾: في خطابه للشيطان، فلما امتنع من السجود لآدم قال له الله: «ما الذي حملك على أن تتنزه وتتكبر عن السجود لما خلقته بيدي؟!»؛ فالله خلق آدم بيده حقيقة، فأضاف الفعل إلى نفسه ﷻ.

قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] يعني: أضاف «اليدين» إلى ضمير الفاعل، وثنّاها.

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ [يس: ٧١]، يعني: أضاف اليد إلى (نا) التعظيم، فهذا يخالِفُ هذا، فلا يكون مثله؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] ما يلزم أن يكون مباشرًا باليد، ولكنه بالعمل الذي يعمله، ففرق بين هذا وهذا، فالتثنية والإضافة إلى الضمير تدلان على أن المقصود اليدان حقيقةً، بخلاف الآية الأخرى.

قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ فقد عبَّر باليد عن العمل والفعل؛ وأضاف الفعل إلى اليد؛ لأن الغالب أن الفاعل يتناول فعله بيده، وإن لم يكن تناوله به، ونظير هذا

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾، فقد يكون بالنظر أو السمع أو المشي أو بالكلام، وكل هذا يصحُّ أن يطلق عليه: إنه مما عملت يده، وخرج هذا مخرج الغالب.

فلا يصح أن تحمل جميع الألفاظ على معنى واحد، بل هي معانٍ مختلفة بحسب ما يقتضيه سياق الآية.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وأيضًا فإنه هناك ذكر نفسه المقدسة بصيغة المفرد، وفي اليدين ذكر لفظ التثنية، كما في قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وهنا أضاف الأيدي إلى صيغة الجمع، فصار كقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]».

الشرح

قوله ﷺ: «**فَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ**»(١)، يعني: كلتا يديه كاملة تامة لا يلحقها نقص ولا عيب، وليس المقصود ـ كما فهمه بعض من لا يفهم ـ أن كلتا يديه من جانب واحد! تعالى الله وتقدس، فإن هذا شوهة، والله له الكمال المطلق.

وذلك أن الآدمي يده اليمنى أكمل من يده الشمال، فلهذا قال: «**كلتا يديه يمين**»، والله يتعالى ويتقدس أن يكون كابن آدم الذي إحدى يديه أكمل من الأخرى، فكأنه يقول: كلتا يدي ربي كاملة لا يلحقها نقص ولا عيب، وهذا معنى «**كلتا يديه يمين**».

هم يسمون الذي يقول: «إن له يدين حقيقتين يخلق بهما ما يشاء كما خلق آدم» يقولون: إنه مُشبِّه، ويجعلون اليد والرجل أعضاء أو جوارح؛ وكذلك السمع والبصر أحيانًا يتعدون إلى أنهم يثبتون هذا، ويقولون: أن المقصود؛ العلم، ويفسِّرونه بهذا.

وكل ذلك من الضلال الواضح؛ لأن الإنسان يقطع قطعًا لا يتردد فيه أن قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] وقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] وقوله: ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧] وما أشبه ذلك من النصوص الكثيرة، يقطع قطعًا واضحًا أن لله ﷻ يدين حقيقيتين، إذا شاء أن يفعل بهما يفعل.

* * *

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر... (٣/١٤٥٨) برقم (١٨٢٧)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄.

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «وهذا في الجمع نظير قوله: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١] و﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦] في المفرد، فالله ﷻ يذكر نفسه تارةً بصيغة المفرد، مظهرًا أو مضمرًا، وتارةً بصيغة الجمع، كقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ①﴾ [الفتح: ١] وأمثال ذلك، ولا يذكر نفسه بصيغة التثنية قط؛ لأن صيغة الجمع تقتضي التعظيم الذي يستحقه، وربما تدل على معاني أسمائه، وأما صيغة التثنية فتدل على العدد المحصور، وهو مقدَّسٌ عن ذلك.

﴿ فلو قال: ما منعك أن تسجد لما خلقتُ يدِي، كان كقوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ [يس: ٧١]، وهو نظير قوله: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١] و﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، ولو قال: خلقتُ بيدِي ـ بصيغة الإفراد ـ لكان مفارقًا له، فكيف إذا قال: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] بصيغة التثنية».

الشرح

قوله: «فالله ﷻ يذكر نفسه تارةً بصيغة المفرد، مظهرًا أو مضمرًا».

فالمضمر مثل في قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، وكذلك قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقوله: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧].

والمظهر أيضًا كثير في كلام الله ﷻ؛ فإذا أضاف إلى اسم الجلالة أضاف إليه الفعل، فهو على حقيقته.

أما صيغة الجمع: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ①﴾، (نا) في ﴿أَنَّا﴾ تسمى (نا) التعظيم؛ لأن الذي يقولها العظيم، أو يقولها مَن له أعوان ومن له من يمتثل أمره؛ كما يقول الملِك: «نحن أمرنا بكذا وكذا»؛ لأن له من يمتثل ذلك، وهذا سائغٌ، ولكن رب العالمين ﷻ هو المتفرِّد في التصريف والخلق والإيجاد والمُلك وغير ذلك؛ غير أنه له ملائكةً يفعلون ما يشاء؛ ولهذا قيل في قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ⑯﴾ [ق: ١٦] كلمة ﴿وَنَحْنُ﴾

المقصود بها أنها الملائكة؛ وكذلك قوله في المحتضَر: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الواقعة: ٨٥]، أن هؤلاء الملائكة؛ لأنهم يفعلون ما أمرهم الله ﷻ به، فإذا قيل هذا؛ فهذا سائغ وقريب.

أما إذا قيل: إن هذه النون هي للتعظيم وليست للجمع، صار الفعل مضافًا إلى الله حقيقةً، وكلا الأمرين جائز، إذا احتملت النصوص ذلك، مثل هاتين الآيتين: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الواقعة: ٨٥]؛ لأن الملائكة هي التي تتولى قبض روح الميت وتحيط به، ولا أحد يبصرهم ولا ينظر إليهم، هم يفعلون ذلك حقيقةً بأمر الله ﷻ؛ أما قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ [الفتح: ١]، فهذا لا يحتمل ذلك.

قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ [الفتح: ١]، **ولا يذكر نفسه بصيغة التثنية قط...**» وإذا جاء مضافًا إليه؛ فإما أن يكون بالإفراد أو يكون بالجمع، والجمع للتعظيم.

وهذا يستعمل بين الناس كذلك؛ فالرؤساء والملوك إذا أمروا بشيء يقولون: «نحن أمرنا بكذا وكذا»، وكذلك لمن عنده عبيد يمتثلون أمره وينفذونه يصح أن يقول فيما يمتثلون ذلك ويفعلونه؛ لأنه هو الآمر، كما في قوله الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [ق: ١٦ ـ ١٧]، وكذلك قوله: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الواقعة: ٨٣ ـ ٨٥]، فيريد بذلك الملائكة التي تقبض روحه، فهم جاءوا بأمره يمتثلون أمره، فهم أقرب إلى المحتضر من أهله الذين يحيطون به؛ لأنه يجلس عند رأسه ويخاطبه، فيقول: «يا أيتها الروح اخرجي»؛ فتخرج.

فالمقصود: أنَّ الله ﷻ قد يخبر عما تفعله الملائكة بأنَّه فعله؛ لأنه هو الآمر به، فيأتي بصيغة الجمع، وكذلك قد يكون مجرد الإخبار بهذه الصيغة كما في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾، ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾، وما أشبه ذلك.

قوله: «...**فكيف إذا قال:** ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] **بصيغة التثنية**»، يعني: يتعيَّن العدد، أنها يدان.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«هذا مع دلالة الأحاديث المستفيضة بل المتواترة، وإجماع سلف الأمة على مثل ما دلَّ عليه القرآن، كما هو مبسوطٌ في موضعه، مثل قوله: «المقسطون عند الله على منابر من نورٍ عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولُوا»، وأمثال ذلك».

الشَّرح

من الأمور التي أيضًا تكون منكرة: ما فهمه بعضهم في هذا الحديث: «**كلتا يديه يمين**» جعل ذلك من جانبٍ واحد، «**كلتا يديه**» من جانبٍ واحد؛ فهذه شوهة ومنكرٌ عظيم، لا يجوز أن يُثبت ذلك؛ لأن معنى قوله: «**كلتا يديه يمين**»، يعني: كلتا يديه كاملة تامة لا يلحقها نقصٌ ولا عيب، ليست كَيَدِ المخلوق: يمينه أكمل من شماله، فهذا الذي أريد نفيه.

ولهذا لما ذكر الأخذ، خاطب الناس بما يعرفون، وهم يعرفون من أنفسهم: أن الضرب باليمين والأخذ بها أشد من اليسار، فقال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾ [الحاقة: ٤٥] يعني: بالقوة، باليد القوية.

وأما ربنا ﷻ فلا يلحق شيئًا من صفاته شيء من النقص ولا يعتريه؛ فلهذا السبب قال: «**كلتا يديه يمين**» فلا يجوز أن يكون المفهوم «**كلتا يديه**» من جانبٍ واحد ـ تعالى الله وتقدَّس ـ؛ فإن هذا شوهة للمخلوق، لو كان ذلك لكان نقصًا وعيبًا.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وإن كان القائل يعتقد أن ظاهر النصوص المتنازع في معناها من جنس ظاهر النصوص المتفق على معناها، والظاهر هو المراد في الجميع، فإن الله - تعالى - لما أخبر أنه ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٢٩﴾، وأنه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٠٦﴾، واتفق أهل السُّنَّة وأئمة المسلمين على أن هذا على ظاهره، وأن ظاهر ذلك مراد - كان من المعلوم أنهم لم يريدوا بهذا الظاهر أن يكون علمه كعلمنا، وقدرته كقدرتنا».

الشرح

قوله: «وإن كان القائل يعتقد أن ظاهر النصوص المتنازع في معناها من جنس ظاهر النصوص المتفق على معناها، والظاهر هو المراد في الجميع»، يعني: أنه يرجع بعض النصوص إلى بعض، مثل ما سبق أن الوصف يتبع الموصوف ويليق به.

وكذلك نقول في النصوص: إذا كان هناك نص صار فيه خلاف في صفات الله، يجب أن يُرجع للنص الذي ليس فيه خلاف؛ لأن المصدر واحد، والمتعلّق واحد، فيجب ألَّا يكون مخالفًا.

مثاله ذلك: كقوله ﷻ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٢١٠﴾ [البقرة: ٢١٠]: فالظاهر هنا إتيانُه بنفسه - تعالى وتقدس -، ولهذا عطف الملائكة عليه، وقال ﷻ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]؛ فهذا مع هذا التنويع يتعيَّن أن هذا إتيانٌ حقيقةً، ويكون الله ﷻ يأتي بنفسه، فإذا قلنا مثلًا: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ [النحل: ٢٦] هل يكون هذا مثل هذا؟! ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ [الحشر: ٢] هل يكون هذا مثل قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]؟!

إذا كان القائل يرى أن هذا مثل هذا، فنقول: هذا ليس كمثله.

أما إذا قال مثاله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢﴾ [الفجر: ٢٢]؛ لأن هذا كلمة (جاء) وتلك (يأتي)، فيقول: نعم، هذا نظيره، مثله.

أما قوله في آية «النحل»: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ [النحل: ٢٦] قلنا: هذا لا بُدَّ أنه عذابه قد أتاهم، وهذا هو ظاهر النص؛ لأن الله تعالى لا يأتي من سيسان الحيطان!

وقوله: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ [الحشر: ٢] هذا جنده وعذابه، جاءهم الرسول والصحابة والملائكة، وهم يظنون أنه لا أحد يستطيع أن يخرجهم من حصونهم ومساكنهم، فصاروا يخربون بيوتهم بأيديهم، فيكون هذا غير هذا.

فقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] نظير قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وهذه الآية يجعلونها من المجاز ـ مجاز الحذف ـ يقولون: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ يعني: وجاء أمره، وهكذا تأويلهم الفاسد!

المقصود: أن قوله: «**وإن كان القائل يعتقد أن ظاهر النصوص المتنازع في معناها من جنس ظاهر النصوص المتفق على معناها**»؛ كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنفال: ٧٥]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾ [النحل: ٧٧]، فظاهر هذه النصوص مراد، وليس الظاهر هو ما يتصف به المخلوق، فالله ليس كمثله شيء.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وكذلك لما اتفقوا على أنه حيٌّ حقيقةً، عالمٌ حقيقةً، قادرٌ حقيقة، لم يكن مرادهم أنه مثل المخلوق الذي هو حيٌّ عليمٌ قدير، فكذلك إذا قالوا في قوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقوله: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، إنه على ظاهره. لم يقتضِ ذلك أن يكون ظاهره استواءً كاستواء المخلوق، ولا حبًّا كحبه، ولا رضًا كرضاه».

الشرح

هذا عند أهل السُنَّة، أما عند هؤلاء الذين يجعلون ظاهر النصوص كفرًا ويوجبون تأويل هذه الآيات ونحوها، ولا يقبلون هذا القول، بل يتركون الحق الواضح الجلي؛ اتباعًا لما يقوله مشايخهم ومعظِّموهم، فهؤلاء ضلال.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وكذلك لما اتفقوا على أنه حيٌّ حقيقةً، عالمٌ حقيقةً، قادرٌ حقيقة، لم يكن مرادهم أنه مثل المخلوق الذي هو حيٌّ عليمٌ قدير».

الشرح

ولو كان ذلك مرادًا لصارت النصوص متناقضة، والله ﷻ يقول: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مريم: ٦٥]، ويقول: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، ويقول: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٤]، ويقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، فهم علموا أنه لا مثيلَ له، ولا سمي له، وعلموا أن النصوص ظاهرة، وأنها الحق، ولكنها تخصه ولا يشبهه فيها أحد.

وهذا أمر ظاهر، وليس خاصًا بالعلماء، بل هو عام لكل من خوطب بهذا وهو يفهم اللغة العربية، وإنما وقع الانحراف من الأمور التي طرأت على هؤلاء في فطرهم وفي معلوماتهم فانحرفوا، أو أنهم أرادوا إفساد عقائد الناس لأنهم منافقون.

قوله: «فكذلك إذا قالوا في قوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾...» المؤلف يذكر الأشياء التي يؤولونها، فالمحبة عندهم يجب أن تُؤول؛ لأنها مجانسة المحبوب والميل إليه، وما أشبه ذلك على حد زعمهم، فلا يكون أحد من جنسه ـ تعالى الله وتقدس ـ، فيجعلون نفوسهم هي الأصل، ثم يتوهمون أن ما أخبر الله ﷻ به عن نفسه إنما هو كما علموه من أنفسهم، ولهذا صاروا إلى التأويل!

وهذا أمر عجيب؛ إذ كيف يتركون النصوص التي فيها تنزيه الله عن التشبيه وعن مشابهة المخلوقين ـ كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٤] ـ، ولا يجمعون بين آيات التنزيه؟!

المقصود: أنَّ الضلال في هذا ليس من النصوص، وإنما الضلال طرأ عليهم مما أخذوه عن غيرهم وتربَّوْا عليه من مشايخهم أو توهموه، توهمًا فاسدًا.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فإن كان المستمع يظنُّ أن ظاهر الصفات تماثل صفات المخلوقين، لزمه ألَّا يكون شيءٌ من ظاهر ذلك مرادًا، وإن كان يعتقد أن ظاهرها هو ما يليق بالخالق ويختص به، لم يكن له نفي هذا الظاهر، ونفي أن يكون مرادًا إلا بدليلٍ يدلُّ على النفي.

وليس في العقل ولا في السمع ما ينفي هذا إلا من جنس ما ينفي به سائر الصفات، فيكون الكلام في الجميع واحدًا».

الشَّرح

قوله: «فإن كان المستمع يظن أن ظاهر الصفات تماثل صفات المخلوقين». إذا تكلم الإنسان بشيء؛ فإنه يجب أن يكون عن دليل، ولا سيما في الأمور الغائبة، والله ﷻ غيبٌ، فوجب أن يكون الكلام والاعتقاد على ضوء ما أخبرنا به الله ﷻ.

ومعلومٌ أن من الأمور التي تجب في هذا العلم: بأن الله لا مثيل له ولا كفء له؛ فإذا أخبر عن نفسه؛ فإنه يجب أن يكون هذا هو المراد في إخباره، وهو يخصُّه ولا يشاركه المخلوق الضعيف الذي جعلوه هو الأصل، ثم نفوا صفات الله عنه، وأنَّ الظاهر المزعوم باطلٌ عندهم وغير مراد، ولا تدلُّ عليه النصوص! هم يزعمون أنَّ لهم دليلًا، ولكن دليلهم عقلهم، والعقل منحرفٌ، فكيف يكون دليلًا وقد انحرف؟!

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وبيان هذا، أن صفاتنا منها ما هي أعيانٌ وأجسام، وهي أبعاض لنا، كالوجه واليد؛ ومنها ما هي معانٍ وأعراض، وهي قائمةٌ بنا، كالسمع والبصر والكلام والعلم والقدرة».

الشَّرح

فلا يجوز أن نصف الله ﷻ بالأبعاض والأغراض، ولا بالأعراض.

فالأبعاض: مثل اليد والوجه والرجل.

والأعراض: مثل الصفات التي أوّلوها؛ مثل: المحبة والرضا والغضب والسخط، وما أشبه ذلك.

والأغراض: مثل الحكمة، وكونه الحكيم، ويعمل لحكمة وما أشبه ذلك، يقولون هذا غرض، فينفون هذا.

ولكن الذي لا يفهم مرادهم يتصور أنهم ينزِّهون الله، والواقع: أنهم يعيِّنون شيئًا باطلًا، وينفون عن الله صفاته ـ تعالى وتقدس ـ من أجل ذلك.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«ثم إن من المعلوم أن الرب لما وصف نفسه بأنه حيٌّ عليمٌ قدير، لم يقل المسلمون: إن ظاهر هذا غير مراد؛ لأن مفهوم ذلك في حقه مثل مفهومه في حقنا، فكذلك لما وصف نفسه بأنه خلق آدم بيديه، لم يوجب ذلك أن يكون ظاهره غير مراد؛ لأن مفهوم ذلك في حقه كمفهومه في حقنا، بل صفة الموصوف تناسبه».

الشرح

أي: السلف قبلوا عن الرسول ﷺ ما قال. أما هؤلاء فلم يقبلوا وأرجعوا الأمور إلى عقولهم السخيفة التي لا تدلُّ إلا على باطلٍ؛ فلهذا وقعوا في هذه المحاذير، وفي الضلال البيِّن، فجعلوا ظاهر كلام الله ﷻ الكفر والتشبيه وألحدوا في أسماء الله وآياته.

قوله: «لأن مفهوم ذلك في حقه كمفهومه في حقنا، بل صفة الموصوف تناسبه»، يعني: تليق بعظمة الله أو تليق بضعف المخلوق، فالمخلوق تناسبه لأنه ضعيف فلا يشبه صفة الكامل من كل وجه، والذي له الكمال من كل وجه يجب أن ينزل الكلام منزلته اللائقة به حسب ما تكلم المتكلِّم به، فمراد المتكلم يظهر جليًّا في الخطاب بالسياق والقرائن، بل في النص في الأمور الغائبة.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فإذا كانت نفسه المقدسة ليست مثل ذوات المخلوقين، فصفاته كذاته ليست مثل صفات المخلوقين، ونسبة صفة المخلوق إليه، كنسبة صفة الخالق إليه، وليس المنسوب كالمنسوب، ولا المنسوب إليه كالمنسوب إليه، كما قال النبي ﷺ: «ترون ربكم كما ترون الشمس والقمر»، فشبَّه الرؤية بالرؤية، لا المرئي بالمرئي».

الشَّرح

قوله: «فإذا كانت نفسه المقدسة» يدلُّ على أنه إذا قال ﷻ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]، فالمقصود هو نفسه ـ تعالى وتقدس ـ، كما قاله كثير من المفسرين؛ كابن جرير وغيره.

وليس لله نفسٌ نصِفُه بها، نفسُ الله كما قال ابن خزيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «باب ذكر البيان من خبر النبي ﷺ في إثبات النفس لله ﷻ...»[1] يقول: أول ما نبدأ به من ذكر صفات خالقنا ﷻ في كتابنا هذا: ذِكْر نفسه، جل ربنا عن أن تكون نفسه كنفس خلقه، وعزَّ أن يكون عدمًا لا نفسَ له، وذكر الأدلة على ذلك.

وخالفه غيره فقال: إن المقصود بقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾، وقوله: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ [المائدة: ١١٦]، يعني: ذاته ﷻ.

ولهذا قال: **«فإذا كانت نفسه المقدسة ليست مثل ذوات المخلوقين»**، يعني: إذا كان هو ﷻ ليس كأحدٍ من خلقِه؛ لأن الصفة تتبع الموصوف، فإن كان ضعيفًا فهي ضعيفة كالمخلوق، وإن كان له الكمال المطلق فهي كاملةٌ كذلك ولا تشبه صفات المخلوقين، وهذه قاعدة يجب أن نسلكها في جميع الصفات.

قوله: «ترون ربكم كما ترون الشمس والقمر»[2]؛ فشبه الرؤية بالرؤية، لا المرئي بالمرئي. ووجه التشبيه ظاهر جدًّا، وهو أن الرؤية والبيان والوضوح ظاهرٌ

---

(١) كتاب التوحيد (ص١٢).
(٢) تقدم تخريجه.

جليٌّ لا خفاء فيه، ولهذا مثَّل بالقمر وهو أظهر شيء، وهذا التشبيه لتقريب المعنى، وهو تشبيه للرؤية، وليس تشبيهًا للمرئي.

خلاصة هذه القاعدة: أن مفهوم أهل الباطل الذي يقولون: «إن ظاهِرَ النصوص غيرُ مرادٍ»؛ أن كلمة الظاهر هذه فيها إجمالٌ وفيها اشتراكٌ:

فـ «**الإجمال**»: الذي قد يُفهم منه الباطل، و«**الاشتراك**» كذلك: قد يُفهم منه حقٌّ ويُفهم منه باطِلٌ.

وإذا كان كذلك: فيجب أن يُرجع إلى النصوص الأخرى الواضحة.

أما عند هؤلاء فالنصوص كلها يجب أن تؤوَّل، إلا ما استثنوه من السبع ـ الصفات السبع ـ؛ مع أنَّهم لا يأخذونها أيضًا على ظاهرها على كلِّ حالٍ، فيجعلون مثلًا صفة «الكلام» شيئًا لا يُفهم، بل لا يُعقل؛ حيث جعلوا وصف الله ﷻ بالكلام أنَّ كلامه معنًى واحدٌ قائمٌ بذاته، فكيف الكلام يكون المعنى؟! ثم كيف يكون معنًى واحدًا؟!

فإذا قالوا: إن هذا هو الظاهر الذي عيَّناه.

قلنا لهم: ليس هذا هو ظاهر النصوص؛ فظاهر النصوص تتفق مع ما ليس فيه إشكالٌ.

❁ ❁ ❁

القَاعِدَةُ الرَّابعة

قال رحمه الله تعالى:

﴿«وهذا يتبين بالقَاعِدة الرابعة: وهي أن كثيرًا من الناس يتوهم في بعض الصفات، أو في كثيرٍ منها، أو أكثرها، أو كلها، أنها تماثل صفات المخلوقين؛ ثم يريد أن ينفي ذلك الذي فهمه فيقع في أربعة أنواع من المحاذير...».

الشَرح

قوله: «وهي أن كثيرًا من الناس يتوهَّم في بعض الصفات...»، يعني: أنه يتوهم تلك الصفة في نفسه وفي ذهنه وفي فكره، وإن لم يصرح به، لكن دلَّ على ذلك تأويلُه وقولُه: «إن ظاهرها غير مراد!»، وقولُه: «إنَّ ظاهرها تشبيه!»؛ فجمع بين التشبيه وبين التعطيل، فشبَّه أولًا في ذهنه، واعتقد أن الصفة تشبه صفة المخلوق، ثم عطل اللفظ عما أريد به، فأوّلها عن المعنى المراد، فقال: «يراد باليد القوة، ويراد بالرحمة النعمة أو الإحسان، ويراد بالحب الأمر بالطاعة»، وما أشبه ذلك.

قصد المؤلف بهذا: أن الذي يؤوِّل النصوص يكون مبطلًا، والدليل على بطلان ما ذهب إليه هذه الأمور الأربعة، كما سيأتي:

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«أحدها: كونه مثَّل ما فهمه من النصوص بصفات المخلوقين، وظنَّ أن مدلول النصوص هو التمثيل».

الشَّرح

يعني: أنه مثَّل ما فهمه في النصوص بصفات المخلوقين، وهذا كفرٌ بالله ﷻ، يعني: جعل المفهوم من النصوص هو هذا، وهذا كفرٌ بالله ﷻ، «...**وظنَّ أن مدلول النصوص هو التمثيل**»، ولكن هذا الظنَّ باطلٌ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«الثاني: أنه إذا جعل ذلك هو مفهومها وعطّله بقيت النصوص معطلةً عمَّا دلَّت عليه من إثبات الصفات اللائقة بالله، فيبقى مع جنايته على النصوص، وظنه السيئ الذي ظنه بالله ورسوله؛ ـ حيث ظن أن الذي يُفهم من كلامهما هو التمثيل الباطل ـ، قد عطل ما أودع الله ورسوله في كلامهما من إثبات الصفات لله، والمعاني الإلهية اللائقة بجلال الله سبحانه».

الشَّرح

يعني: أنه عيَّن معنًى فاسدًا فجمع بين باطلين:

الباطل الأول: الظن السيئ بالنصوص؛ أن ظاهرها يشبه ما للمخلوق من الصفات.

والأمر الثاني: أنه عطَّل النصوص عما دلت عليه بفعله وقوله، وإلا فإنَّ النصوص واضحة، لا تقتضي ذلك.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«الثالث: أنه ينفي تلك الصفات عن الله بغير علم، فيكون معطلًا لما يستحقه الرب تعالى».

الشَرح

ينفيها بلا علم، وهذا من القول على الله بلا علم، وهو من أعظم المحرمات.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«الرابع: أنه يصف الرب بنقيض تلك الصفات من صفات الأموات والجمادات، أو صفات المعدومات».

الشَّرح

يعني هذا الأمر الرابع: أنه جمع الفساد كله والضلال كله.

فأولًا: ظنَّ أن النصوص ظاهرها كفر.

الثاني: أنه عطَّل النصوص عن معناها الذي دلت عليه.

الثالث: أنه نفى تلك الصفات عن الله ﷻ التي تعرَّف بها إلى عباده، وأراد من عباده أن يفهموها.

الرابع: أنه يصف الله ﷻ بما يتعالى عنه ويتقدس بنقيض ما يصف نفسه.

فجمع الشر كله في هذه الأمور.

المقصود: أن من عطَّل صفات الله تعالى خشية الوقوع في التشبيه وقع في **أربعة محاذير:**

المحذور الأول: أنه «مثَّل ما فهمه من النصوص بصفات المخلوقين»، فاعتقد أن الخطاب يدل على الكفر والباطل ـ وهو التشبيه ـ، وهذا ظنٌّ سيئ بكلام الله وكلام رسوله ﷺ.

المحذور الثاني: «أنه إذا جعل ذلك هو مفهومها وعطّله»، فعيَّن للخطاب معنى ليس مقصودًا للمخاطب، فعطله وضلَّ ضلالًا بعيدًا، وكل تأويلاتهم على هذا النحو.

والحق أن النصوص في ذاتها لا يلحقها قول هذا القائل؛ لأنها لا تستلزم التشبيه فضلًا عن أن تعطل؛ فالخطاب جاءنا بلغة عربية واضحة مفهومة، ولا يقع التشبيه والتعطيل إلا لمن اتبع غيره واقتدى بمشايخه الضالين؛ وإلا فالذي يعرف اللغة والخطاب لا تطرأ عليه هذه الأمور.

المحذور الثالث: «أنه ينفي تلك الصفات عن الله بغير علم، فيكون معطلًا لما

يستحقه الرب تعالى»؛ أي: أنه تعدَّى على الله ﷻ فوصفه بالسلب بغير علم ولا دليل، فعطل صفات الله التي تليق به ويستحقها.

المحذور الرابع: «أنه يصف الرب بنقيض تلك الصفات من صفات الأموات والجمادات، أو صفات المعدومات»؛ أي: أنه وصف الله تعالى بالعدم والموات؛ مثل الحجارة وغيرها التي ليس فيها حياة.

فهم وصفوا الله تعالى بالنفي المحض، وأما صفات المخلوق فالناس متفقون على أن الله ﷻ ليس كالمخلوق، وهذا الذي حملهم على تعطيل النصوص، فظنوا أن ظاهر النص كفر!

كيف يخاطبنا الله ﷻ ورسوله بما ظاهره الكفر؟! هذه كلها ظنونٌ كاذبة، ولهذا صارت النتائج ضلالًا بعيدًا عن مراد الله ﷻ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فيكون قد عطَّل صفات الكمال التي يستحقها الرب تعالى، ومثَّله بالمنقوصات والمعدومات، وعطَّل النصوص عما دلَّت عليه من الصفات، وجعل مدلولها هو التمثيل بالمخلوقات، فيجمع في الله وفي كلام الله بين التعطيل والتمثيل، فيكون ملحدًا في أسمائه وآياته».

الشرح

قوله: «فيكون قد عطَّل صفات الكمال التي يستحقها الرب»؛ لأنه نفى عن الله ما يستحِقُّه من صفات الكمال الثابتة له في الكتاب والسنة.

قوله: «ومثَّله بالمنقوصات والمعدومات»؛ لأن نفي الصفات عن الله يستلزم إثبات العدم والنقص كما تقدم.

قوله: «وعطَّل النصوص عما دلت عليه من الصفات، وجعل مدلولها هو التمثيل بالمخلوقات»، وهذا على قاعدتهم التي مشوا عليها، وهي أن القول بظاهر النص يستلزم التمثيل والتشبيه، فهم أساؤوا الظن بالنصوص، وظنوا أن ظاهر النص يلزم منه التشبيه بين الخالق والمخلوق، فنتج عن ذلك، وقوعهم في الشرك بالله، حيث ألحقوه بالمخلوقات، والشرك ملازم لهم على طريقتهم.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«مثال ذلك: أن النصوص كلها دلّت على وصف الإله بالعلو والفوقية على المخلوقات، واستوائه على العرش؛ فأما علوه ومباينته للمخلوقات فيُعلم بالعقل الموافق للسمع، وأما الاستواء على العرش فطريق العلم به هو السمع، وليس في الكتاب والسنة وصفٌ له بأنه لا داخل العالم ولا خارجه، ولا مباينه ولا مداخله».

الشَّرح

قوله: «أن النصوص كلّها دلَّت على وصف الإله بالعلو والفوقية على المخلوقات...». كقوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦]، ولما سأل النبي ﷺ الجارية: «**أين الله؟**» فقالت: «في السماء[(١)]»، وغيرها من النصوص الدالة على عُلو الله تعالى.

قوله: «فأما عُلُوُّه ومباينته للمخلوقات فيُعلم بالعقل الموافق للسمع، وأما الاستواء على العرش فطريق العلم به هو السمع»، يعني: أن العلو اجتمع فيه الدليل السمعي والعقلي والفطري.

فالعقلي أن يقال: إن الله ﷻ هو الخالق وحده، فهو الذي خلق الكون كله، ولا يمكن أن يقول عاقل: إنه خلقه في داخل ذاته ـ تعالى الله وتقدس ـ، ولما خلق المخلوقات جعل منها سافلًا وعاليًا، ولا يمكن أن يكون في أسفل المخلوقات ـ تعالى الله وتقدّس ـ، فلا بُدَّ أنه عالٍ عليها، وأنه فوق كلِّ شيء، والله ﷻ متَّصِفٌ بصفات الكمال، والعلو أكملُ الجهات على الإطلاق، والسُّفل لا يليق بالله تعالى.

وأيضًا دلت عليه الفطرة، فكلُّ داعٍ لربِّه يجد دافعًا يدفعه في نفسه أنه يطلب ربه من جهة العلو، ولا يدعو من جهة السُّفل أو اليمين أو الشمال.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب المساجد مواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته (٥٣٧)، عن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه.

فاتفق العقل والفطرة والسمع على علوه ـ تعالى وتقدس ـ.

وأما الاستواء فلا يثبت إلا بالسمع؛ لأن العقل لا يحيط به، وليس معنى ذلك أنه مخالفٌ للعقل، وإنما العقل لا يدركه؛ فهو إخبارٌ عن أمرٍ لا يحيط به العقل، وليس له نظير يُقاس عليه.

والاستواء قد ثبت في القرآن في سبعة مواضع، منها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣]، وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، وغيرها من الآيات.

وليس مراد المؤلف: التفرقة بين العلو والاستواء في أنَّ هذا دليله العقل وهذا دليله النص، وإلا نصوص العلو أكثر من نصوص الاستواء أضعافًا مضاعفة، وهي كثيرةٌ جدًّا.

والاستواء ـ وهو علوه وارتفاعه على العرش ـ لا بُدَّ من الخبر الذي يأتي عن الله ﷻ أو عن رسله في هذا.

قوله: «وليس في الكتاب والسنة وصفٌ له بأنه لا داخل العالم ولا خارجه، ولا مباينه ولا مداخله». هذا ردٌّ لقولهم: **«لا داخل العالم ولا خارجه...»**.

ولكن الأشاعرة يقولون: «إنه في كلِّ مكان!»، وهذا حُلُولٌ، فجعلوه يحلُّ في أمكنتهم، ويلزم من هذا أنه لا يخلو منه مكان حتى الأماكن القذرة ـ نسأل الله العافية ـ وإن كانوا هم لا يقولون هذا الكلام إلا أن هذا مقتضى كلامهم، والله ﷻ، فلا يجوز أن تضاف إليه المعاني الباطلة الكفرية أو أن يوصَف بها.

والمقصود: أن هذه صفةٌ واحدة مثَّل بها؛ وهي: العلو.

ومن أدلة العلو: الاستواء الذي أضافه ﷻ إليه.

و«**العلو**»: دلَّت عليه النصوص، ودلَّ عليه العقل، ودلَّت عليه الفِطر التي فطر الله الناس عليها ـ كما تقدم ـ.

أما «**الاستواء**»؛ فدلَّ عليه النصُّ؛ لأنه صفةٌ يفعلها ربنا ﷻ بمشيئته، فأخبر أنه استوى على العرش بعد خلق السموات والأرض.

النصوص في «العلو» كثيرة جدًّا، ومع ذلك هم ينفونه، ويقولون: «إن الله بكل مكان»؛ هذا بالنسبة للأشاعرة، أما بالنسبة لأساتذتهم من المعتزلة؛ فإنهم يقولون: «لا فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال»، ولا يثبتون ما أثبتته الأشعرية، بل كلامهم

يدل على التعطيل المتناهي، أما هؤلاء فجعلوه كالمخلوقات، وكلا الأمرين باطل.

فهذا المثال الذي ضربه، فيقول: فيظن المتوهم أنه إذا وصف ربه ﷻ بالفوقية والعلو أنه يكون جسمًا ويكون في مكانٍ، هذا شبهتهم؛ أما الاستواء، فعندهم: أنه يدلُّ على النُقلة وعلى الحركة، وهذا لا يجوزُ على الله؛ فالله عندهم لا يتحرَّك ولا ينتقل.

أما أهل السُنَّة فهم يقولون: إن الله يفعل ما يشاء ﷻ.

❁ ❁ ❁

قال رحمه الله تعالى:

«فيظن المتوهم أنه إذا وصف بالاستواء على العرش كان استواؤه كاستواء الإنسان على ظهور الفلك والأنعام، كقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف: ١٢ ـ ١٣]، فيتخيل أنه إذا كان مستويًا على العرش كان محتاجًا إليه كحاجة المستوي على الفلك والأنعام، فلو انخرقت السفينة لسقط المستوي عليها، ولو عثرت الدّابة لخرَّ المستوي عليها، فقياس هذا أنه لو عدم العرش لسقط الرب تبارك وتعالى».

الشَّرح

وأيضًا: زيادةً على هذا: يقولون: «إن الاستواء فعلٌ يحتاج إلى حركة، ويحتاج إلى ذهاب وإتيان وغير ذلك»، وعندهم: أن الله لا يتحرَّك، ويستدلُّون بقوله: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ۝٧٦﴾ [الأنعام: ٧٦] وما أشبه ذلك من الأمور التي قد يتوهَّمون أنها تدلُّ على مرادهم، وهي لا تدلُّ على مرادهم.

مع أنها في المخلوق، أي: الأفول هذا لمخلوقٍ، والله ﷻ غنيٌّ بذاته عن كُلِّ ما سواه، فالعرش محتاجٌ إلى الله وليس الله محتاجًا إلى العرش؛ فهو الذي يحمله بقدرته ﷻ، ولكن لحكمةٍ أرادها خَلَقَه فاستوى عليه.

إذًا: فالعلو دلَّت عليه الأدلة كلها: العقل، والسمع، والفطرة:

أما العقل: فالعقل السليم يدل على أن الله ﷻ لا يكون داخل المخلوقات؛ لمَّا خلق الخلق هل كان الخلق في داخل رب العالمين؟!

نقول: هذا كفر، لأنه لا يكون في داخلها، فإذًا لا بُدَّ أنه فوق؛ لأن الفوق هو أشرف مكان، والتحت فهو محل الشيطان وأتباعه في السُّفل.

وأما النصوص: فأكثر من أن تُحصر، كثيرة؛ مرةً تأتي بالتصريح بأنه فوق، ومرةً تأتي بأنه ﷻ ينزل منه القرآن وغيره؛ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾، وهذا كثيرٌ.

والفِطَر: فطر الله عباده أنهم إذا دعوا ربهم يطلبونه من العلو، يرفعون أيديهم،

ما ينكس رأسه ويسأله من تحت رجليه أو من يمينه أو غير ذلك، ولو فعل إنسانٌ هذا الشيء لقيل: هذا مجنونٌ.

أما الاستواء فهو بالنصِّ؛ لأنه فعلٌ يفعله الله ﷻ كسائر أفعاله.

المقصود: أن قوله: «**فيظن المتوهم أنه إذا وصف بالاستواء على العرش كان استواؤه كاستواء الإنسان على ظهور الفلك والأنعام**»: توهُّمٌ بأن الصفة التي يتصف الله ﷻ بها تكون كما يعرفونه من أنفسهم، وقد مثّل المؤلف رحمه الله: بالاستواء، فذكر أنهم يظنُّون أنهم إن أثبتوا الاستواء له فإنه يلزم أنه يحتاج إلى ما استوى عليه.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«ثم يريد ـ بزعمه ـ أن ينفي هذا فيقول: ليس استواؤه بقعودٍ ولا استقرار».

الشَّرح

قوله: «قعود واستقرار»: «الاستقرار» بمعنى الاستواء، ولكن القعود يحتاج إلى ثبوتٍ، فنقول: ليس بقعود، يعني: يقصدون قعود الإنسان ـ جلوسه ـ واستقراره، لا يقصدون ما يفعله الله ﷻ؛ وإلا قد جاء عن السلف أنهم فسَّروا الاستواء بالاستقرار، وفسروه بالعلو، وفسروه بالارتفاع، وفسروه بالصعود؛ فهي كلها تفسيرٌ للاستواء.

ولهذا يقولون: «**ليس استواؤه بقعود ولا استقرار**»، يعني: أنه لا يمسُّه شيء، ولا يمسُّ هو شيئًا ـ تعالى الله وتقدس ـ، وهذه كلُّها ضلالات؛ حيث تركوا اللفظ الذي يخبر الله ﷻ به عن نفسه، وكذلك ما يخبر رسوله ﷺ عن ربه؛ ثم ظنوا أن هذا اللفظ يدلُّ على باطل، فجاؤوا بألفاظٍ باطلةٍ معنًى ولفظًا، وهذا معنى كونهم: (فرُّوا من شيء فوقعوا في أسوأ منه).

وهكذا كل مُؤوِّل، فطريقتهم الجمع بين باطلين:

الأول: اعتقاد أن ظاهر النصوص كفرٌ وتشبيهٌ.

الثاني: تعيين أمور باطلة.

ولهذا وقعوا في التشبيه الذي استقرَّ في أذهانهم، وحملوا ظاهر النصوص على ذلك، ووقعوا في الإلحاد، وبناءً على هذا عطلوا النصوص عن مدلولها الذي أراده الله ﷻ، ويلزمهم الشرك، حيث وصفوا الله بالناقصات.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿«ولا يَعلم أن مسمى «القعود» و«الاستقرار»، يقال فيه ما يقال في مسمى «الاستواء»! فإن كانت الحاجة داخلةٌ في ذلك فلا فرق بين الاستواء والقعود والاستقرار، وليس هو بهذا المعنى مستويًا ولا مستقرًّا ولا قاعدًا، وإن لم يدخل في مسمى ذلك، إلا ما يدخل في مسمى «الاستواء»، فإثبات أحدهما ونفي الآخر تحكُّم».

الشَّرح

قوله: «ولا يَعلم أن مسمى...»؛ أي: هذا القائل.

المقصود بـ«المسمى»: ما دلَّ عليه الاستقرار والقعود.

«فإن كانت الحاجة داخلةً في ذلك فلا فرق بين الاستواء والقعود والاستقرار»، يعني: استواء الله استواءٌ يليق بعظمته، وليس معنى ذلك أنه محتاج إلى العرش، فتلزم اللوازم الباطلة. والاستواء يجب أن يكون على ما يليق بالموصوف، لا هو استواء الإنسان وقعود الإنسان واستقرار الإنسان ـ تعالى الله وتقدَّس عن ذلك ـ؛ فإن هذا الذي فهموه هم.

والمقصود بـ«المسمى» هو المعنى الذي وضع له ويدلُّ عليه، ولكن يجب أن نعلم أن الله لا يجوز أن نطلق عليه شيئًا لم يطلقه على نفسه، وكلامه هذا تنزُّلٌ معهم، وما قاله المؤلف إلا ليبطل كلامهم، وإلا فهو لا يصف ربه ﷻ بأنه يستقرُّ ويقعد ـ تعالى وتقدس ـ.

وقد تأتي بعض الألفاظ تفسيرًا لما قاله الله ﷻ؛ كصفة الاستواء، فقال بعض السلف: «إنه العلو»، وقال بعضهم: «إنه الارتفاع»، وقال بعضهم: «إنه الصعود»، وقال بعضهم: «إنه الاستقرار»، وكلُّ هذا تفسيرٌ، وليس هو نصٌّ على أنه يُوصف بهذا، وهذه الألفاظ كلُّها مترادِفَة. و«الترادف» معناه: أن كلَّ لفظ يقوم مقام الآخر في المعنى.

وإذا جاءت الألفاظ التي يعينونها؛ فإنهم يُناقَشون فيها حتى يرجعوا إلى الحق إذا أمكن، وإلا يُبيَّن أنهم على باطل حتى يحْذَر المسلم من الوقوع فيما وقعوا فيه.

قوله: «وليس هو بهذا المعنى مستويًا ولا مستقرًّا ولا قاعدًا». وإنما هو مستوٍ بعظمته واستغنائه عن المستوَى عليه.

قوله: «وإن لم يدخل في مسمى ذلك، إلا ما يدخل في مسمى «الاستواء»؛ فإثبات أحدهما ونفي الآخر تحكّم»: يعني: أن هذا نظيره.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وقد عُلم أن بين مسمى «الاستواء» و«الاستقرار» و«القعود» فروقًا معروفة، ولكن المقصود هنا أن يُعلم خطأ من ينفي الشيء مع إثبات نظيره».

الشَّرح

يعني هذه الفروق معروفة، يقول: «**وقد عُلم أن بين مسمى «الاستواء» و«الاستقرار» و«القعود» فروقًا معروفة**»؛ أي: بالنسبة لما يقوله هذا القائل، الذي جعل ذلك المفهوم هو ما يصدر من الإنسان.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «وكان هذا الخطأ من خطئه في مفهوم استوائه على العرش، حيث ظنَّ أنه مثل استواء الإنسان على ظهور الأنعام والفلك».

الشَّرح

يعني: إذا كان نظيره، فمعنى ذلك أنه محتاج إليه! ـ تعالى الله وتقدَّس ـ؛ فالإنسان إذا استوى على شيء فهو بحاجةٍ إليه؛ بحيث إنه لو زال لسقط.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وليس في اللفظ ما يدلُّ على ذلك، لأنه أضاف الاستواء إلى نفسه الكريمة، كما أضاف إليها سائر أفعاله وصفاته، فذكر أنه خلق ثم استوى، كما ذكر أنه قدَّر فهدى، وأنه بنى السماء بأيدٍ، وكما ذكر أنه مع موسى وهارون يسمع ويرى، وأمثال ذلك، فلم يذكر استواءً مطلقًا يصلح للمخلوق، ولا عامًّا يتناول المخلوق، كما لم يذكر مثل ذلك في سائر صفاته، وإنما ذكر استواءً أضافه إلى نفسه الكريمة».

الشرح

قوله: «وليس في اللفظ ما يدلُّ على ذلك؛ لأنَّه أضاف الاستواء إلى نفسه الكريمة، كما أضاف إليها سائر أفعاله وصفاته»، يعني: أنه قال استوى على العرش: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، فأضاف ذلك إليه ﷻ.

قال ﷻ: ﴿قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى: ٣]، ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ [الأعراف: ٥٤] ونحو ذلك من الأفعال التي يضيفها إلى نفسه، وكما أخبر ﷻ أنه مع موسى وهارون، وأنه مع المحسنين، فليست مَعِيَّته كمعيَّةِ المخلوق ـ تعالى الله وتقدَّس ـ؛ مَعِيَّته وهو على عرشِه فوق خلقِه كلِّهم، ومع ذلك يكون مع عبده الذي يمتثل أمره.

ومقتضى المعية ـ سواءً كانت معيةً عامَّة أو معيةً خاصة ـ الاطلاع والعلم والإحاطة، ولكن المعية الخاصة تختصُّ بالحفظ والكلاءة، والعامة تختصُّ بالمراقبة والتخويف، وكلُّ هذا يدلُّ على أنها ليست كمعية المخلوق.

وكذلك كلُّ ما يُضاف إلى الله، يجب أن يكون خاصًّا به كما سبق تقرير هذا في المقدمة، والتخصيص يجعل هذا الذي أضاف لنفسه غير مشترَك، يعني: لا يشترك بين رب العالمين وبين المخلوقات.

وكذلك إذا أضاف شيئًا إلى نفسه ـ وهو معنى من المعاني ـ يكون صفةً له خاصة به، فإذا تُوهِّم أن فيه اشتراكًا، فيزول الاشتراك بالإضافة وبالتخصيص.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «فلو قُدِّر - على وجه الفرض الممتنع - أنه هو مثل خلقه - تعالى الله عن ذلك - لكان استواؤه مثل استواء خلقه، أما إذا كان هو ليس مماثلًا لخلقه، بل قد عُلم أنه الغني عن الخلق، وأنه الخالق للعرش ولغيره، وأنَّ كلَّ ما سواه مفتقرٌ إليه، وهو الغني عن كلِّ ما سواه، وهو لم يذكر إلا استواءً يخصُّه، لم يذكر استواءً يتناول غيره ولا يصلح له، كما لم يذكر في علمه وقدرته ورؤيته وسمعه وخلقه إلا ما يختصُّ به، فكيف يجوز أن يُتوهم أنه إذا كان مستويًا على العرش كان محتاجًا إليه، وأنه لو سقط العرش لخرَّ من عليه! سبحانه عمَّا يقول الظالمون والجاحدون علوًّا كبيرًا».

الشرح

قصده بذلك: أن يبطل مفهوم هؤلاء الذين أوجبوا التأويل أو التفويض؛ لأنهم فهموا من النصوص ما يفهمونه من أنفسهم؛ سواءٌ كانت الصفات التي جاءت النصوص فيها صفاتِ ذاتٍ أو صفاتِ فعلٍ.

فـ «**صفاتُ الفعل**» مثل الاستواء والنزول والخلق والهدى والضلال وما أشبه ذلك؛ أما «**صفات الذات**» فكالحياة والسمع والبصر وغير ذلك، وكلها يجب أن تكون على طريقة واحدة؛ وهي: أنها صفاتٌ تخصُّه، ولا يشاركه فيها المخلوق، وهي تليق بعظمته ﷻ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«هل هذا إلا جهل محضٌ وضلالٌ ممَّن فهم ذلك، أو توهمه، أو ظنه ظاهر اللفظ ومدلوله، أو جوَّز ذلك على رب العالمين الغني عن الخلق، بل لو قُدِّر أن جاهلًا فهم مثل هذا، أو توهمه لبُيِّن له أن هذا لا يجوز، وأنه لم يدل اللفظ عليه أصلًا، كما لم يدل على نظائره في سائر ما وصف به الرب نفسَه».

الشَّرح

هذا تقريرٌ لما سبق: أنَّ هذا التوهم أو الظنون أرْدَتْ أصحابَها فضلُّوا ضلالًا بعيدًا ـ نسأل الله العافية ـ، والله ﷻ يتعرَّف بأوصافه إلى عباده بأنه غيبٌ، عرفوه بما تعرَّف به إليهم من وصفه وبأسمائه وكذلك أفعاله، وهؤلاء جعلوا هذا الذي تعرَّف به مشابهًا لما عندهم، فنفوه.

فإذًا: بقيت النصوص على قولهم غيرَ دالَّةٍ على المراد؛ بل يجب أنها تؤوَّل على حدِّ زعمهم، فيُراد بها شيءٌ آخر، ما يراد به ما دلَّ اللفظ عليه؛ وأيُّ ضلالٍ أكبرُ من هذا؟!

❊ ❊ ❊

قال رحمه الله تعالى:

«فلما قال ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧] فهل يتوهم متوهمٌ أن بناءه مثل بناء الآدمي المحتاج، الذي يحتاج إلى زُبُل ومجارف وأعوان وضرب لَبِنٍ وجَبْل طينٍ؟!».

الشرح

لا أحد يقول مثل هذا القول، ولكن يقال له: إنَّك إذا تأوَّلت قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] بـ«استولى»، فالذي دعاك إلى ذلك أنك توهَّمتَ أن الاستواء كاستواء المخلوق، مثل ما سبق في اليد وفي الوجه وفي غيرها من الصفات؛ لأن صفات الذات التي هي نصَّ عليها ﷻ بأن له يدينِ[١] وأن له وجهًا ـ تعالى وتقدس[٢] ـ، وله رجلين، ويضع رجله في النار فينزوي بعضها إلى بعض[٣]، تلتقي وتتضايق على أهلها = يقول: إن هذه ليس الظاهر منها مرادًا؛ لأن ظاهرها يشبه ما للمخلوق ـ يعني جوارح المخلوق: من اليد والوجه وغيرها ـ، فيقع في المحاذير الأربعة السابقة.

فيقال له: لما قال الله ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧] هل البناء مثل بناء المخلوق يحتاج إلى جهد وعمل وكذا وكذا؟! قطعًا سيقول: لا، فنقول: كيف؟ سيقول: أنه تعالى يقول لها: «كوني» فتكون.

إذًا: أفعاله لا تشبه أفعال المخلوق، قلْ في الصفات التي أوَّلتها مثل ما قلت في هذا: أنه لا يشبه أفعال المخلوقين؛ فهو كذلك صفاته لا تشبه صفات المخلوقين، واستواؤه كذلك.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر... (٣/ ١٤٥٨) برقم (١٨٢٧)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر (١/ ١١٥)، برقم (٥٥٤)، ومسلم في صحيحه، في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، والمحافظة عليهما (١/ ٤٣٩) برقم (٦٣٣)، من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب التوحيد، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٦﴾ (٩/ ١٣٤) برقم (٧٤٤٩)، ومسلم في صحيحه، في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء (٤/ ٢١٨٦) برقم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى:

﴿«ثم قد عُلم أن الله تعالى خلق العالَم بعضه فوق بعض، ولم يجعل عاليه مفتقرًا إلى سافله، فالهواء فوق الأرض، وليس مفتقرًا إلى أن تحمله الأرض، والسحاب أيضًا فوق الأرض، وليس مفتقرًا إلى أن تحمله».

الشَّرح

قوله: «وليس مفتقرًا إلى أن تحمله الأرض». والأرض كذلك ماذا يحملها؟ الأرض أيضًا معلَّقة كلها، الفضاء من حولها من جميع الجهات. فما الذي حملها؟ أو حمل بعضها ببعض؟! مع أن فيها من الثقل ما هو معروف، فالسماء محيطةٌ بها من جميع الجهات، وكذلك السماء الدنيا ما احتاجت إلى الأرض ولا إلى غيرها، وذلك بقدرة الله ﷻ.

فالأرض مثلًا إذا نظرت إليها، وجدناها شبه البيضة، وكأنها معلَّقةٌ في وسط السماء، مع أن البحار أكثر من اليابس، فلماذا ما تنسكب جميع المياه وتكون في جهةٍ واحدة؟! صارت المياه محيطةً وماسكةً بها؛ كل هذا بقدرة الله ﷻ.

إن الله ﷻ جعل هذه الأشياء بعضها غير محتاجٍ إلى بعض؛ فالسماء لا تحتاج إلى الأرض، والأرض لا تحتاج إلى شيءٍ تعتمد عليه، والسموات كلها هكذا، واحدة تحيط بالتي تحتها، فكل واحدة تحيط بالتي تحتها من جميع الجهات. أما العرش فهو له قوائمُ وله حملةٌ، وهو أوسعُ من المخلوقات كلها وأعظم، جعله الله خاصًا؛ ولهذا وصفه ﷻ بأنه كريم، والكرم يدل على السعة وعلى الحسن.

والمقصود: أن المخلوقات هذه مشاهدة أنها لا يحتاج بعضها إلى بعض، فكيف يُظن أن الله ﷻ إذا استوى على العرش أنه يَحتاج إليه! هذا المقصود.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿«... والسموات فوق الأرض، وليست مفتقرةٌ إلى حمل الأرض لها، فالعلي الأعلى رب كل شيء ومليكه إذا كان فوق جميع خلقه كيف يجب أن يكون محتاجًا إلى خلقه، أو عرشه؟! أو كيف يستلزم علوه على خلقه هذا الافتقار وهو ليس بمستلزمٍ في المخلوقات؟! وقد عُلم أن ما ثبت لمخلوقٍ من الغنى عن غيره فالخالق سبحانه أحق به وأَوْلَى».

الشرح

يعني: الأرض نفسُها ما احتاجت إلى السماء لتعتمد عليها، فكلٌّ واحدة من هذه المخلوقات جعله الله ﷻ مستغنيًا عما تحته، فإذا كان كذلك؛ فكيف تكون هذه مستغنيةً وربُّ العالمين لا يكون مستغنيًا عن العرش وغيره؟! هذا المقصود بالتمثيل.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وكذلك قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦﴾ [الملك: ١٦]، مَن توهم أن مقتضى هذه الآية أن يكون الله في داخل السموات، فهو جاهلٌ ضالٌ بالاتفاق، وإن كنا إذا قلنا: إن الشمس والقمر في السماء، يقتضي ذلك، فإن حرف «في» متعلق بما قبله وما بعده، فهو بحسب المضاف والمضاف إليه».

الشرح

يعني: قد يكون ظرفًا، وقد يكون بمعنى «على»، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦] يعني: ﴿مَّن﴾ أأمنتم مَن في العلو، فتكون «السماء» المقصود بها العُلو، وليس السماء المبنية.

وإذا قيل: «في» تكون بمعنى «على»؛ فيكون المعنى: «أأمنتم مَن على السماء». وتأتي «في» بمعنى «على» كثيرًا؛ كما قال ﷻ: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: ١١]، ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ [طه: ٧١]، وما أشبه ذلك.

فالمقصود: أن تعلق «في» بما قبلها وما بعدها؛ فهو بحسب المضاف والمضاف إليه.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«ولهذا يُفرَّق بين كون الشيء في المكان، وكون الجسم في الحَيِّز، وكون العَرَض في الجسم، وكون الوجه في المرآة، وكون الكلام في الورق، فإن لكل نوع من هذه الأنواع خاصية يتميز بها عن غيره، وإن كان حرف «في» مستعملًا في ذلك كله».

الشَّرح

قوله: «**ولهذا يُفرَّق بين كون الشيء في المكان**». كقولنا: «نحن في المسجد»، فيكون (المسجد) ظرفًا.

قوله: «**الجسم في الحَيِّز**». «**الحيز**»: هو الذي ينحاز إلى مكانٍ وجِهةٍ، أو أنه يحوز هذا الشيء.

قوله: «**وكون العَرَض في الجسم**». «**العرَض**» مثل: اللون، يعني: لا يقوم العرض بنفسه، ومثل: الجهل، والعلم، والمرض، والصحة، فلا بُدَّ أن يكون قائمًا بهذا الجسم مداخلًا له.

قوله: «**وكون الوجه في المرآة**»، يعني: انعكاسه فيها وليس هو فيها، وإنما انعكس ورأى صورته فيها فقط، ولهذا بعض الناس يسمي الصورة عكسًا؛ يقول هذا عكس وليست صورة.

قوله: «**وكون الكلام في الورق**»، يعني: الكتابة هي الكلام، ولكن كل نوع من هذه الأنواع له معنى.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فلو قال قائل: العرش في السماء أم في الأرض؟ لقيل: في السماء.

ولو قيل: الجنة في السماء أم في الأرض؟ لقيل: الجنة في السماء.

ولا يلزم من ذلك أن يكون العرش داخل السموات، بل ولا الجنة».

الشَّرح

ليس معنى ذلك أنها في داخل السماء، لا العرش ولا الجنة؛ لأن الجنة فوق السماء السابعة.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس؛ فإنها أعلى الجنة، وأوسط الجنة، وسقفها عرش الرحمن»».

الشرح

في هذا الحديث: «**إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس؛ فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة، وسقفها عرش الرحمن**»، وفي تمامه يقول: «...**وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ**»(١)، يعني: من الفردوس.

الشيء الذي يكون وسطه أعلاه لا بُدَّ أن يكون كرويًا ـ مثل الكرة ـ لهذا قال: «**وأوسط الجنة**».

* * *

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب التوحيد، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧]، ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة: ١٢٩] (٩/ ١٢٥) برقم (٧٤٢٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى:

«فهذه الجنة، سقفها الذي هو العرش فوق الأفلاك، مع أن الجنة في السماء، والسماء يراد بها العلو، سواءٌ كان فوق الأفلاك أو تحتها، قال تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [الحج: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ [الفرقان: ٤٨].»

الشرح

قال تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾: المقصود بـ«السماء»: السقف. و«السبب»: الحبل.

أي: من كان يظنُّ أن لن ينصر الله ورسوله فليعجِّل بهلاك نفسه، فليضع حبلًا في السقف ثم يضعه في رقبته ثم ليختنق، يعني: يعجِّل بهلاكه.

قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ [الفرقان: ٤٨] **المقصود بـ«السماء» هنا**: السحاب.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«ولما كان قد استقر في نفوس المخاطبين أن الله هو العلي الأعلى، وأنه فوق كل شيء، كان المفهوم من قوله: ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦]: أنه في السماء، وأنه في العلو وأنه فوق كل شيء.

وكذلك الجارية لما قال لها: «أين الله؟» قالت: في السماء، إنما أرادت العلو مع عدم تخصيصه بالأجسام المخلوقة وحلوله فيها».

الشَّرح

قوله: «ولما كان قد استقر في نفوس المخاطبين...»؛ أي: استقر في نفوس المخاطبين أن هذا هو معنى الكلام، واستقرَّ فِي نفوسهم، إما لأنه أمرٌ تعارفوا عليه أو أن هذا مفهوم الخطاب، وهو معناه في اللغة، وهو المقصود من المُخاطِب أن يفهمه المُخاطبون.

والنصوص لها مفاهيم واضحة، ويدركها المخاطب الذي يعرف اللغة التي خوطِب بها، وأنه ليس ظاهرُها إذا خوطب بها عمَّا يقوم بالله ﷻ كالذي يقوم بالمخلوق الضَّعيف، فالله له ما يخصُّه، والمخلوق له ما يخصُّه.

وكذلك الحروف لها معانٍ، وإذا قال: ﴿عَلَى﴾، فمعنى ذلك العلو، ولا يلزم أن يكون محتاجًا إلى العرش، بل العرش هو المحتاج إلى الله، فهو الذي يمسك العرش بقدرته، والمخلوقات ليست قائمة بأنفسها، فإنها لو زالتا ما أمسكهما من أحدٍ إلا الله، وهو الذي أقامها على هذا الوصف، وجعل بعضها غير محتاجٍ إلى بعضٍ، فتقوم بما أقامها الله ﷻ به، فكيف يُتوهَّم أنه ـ تعالى عن ذلك ـ محتاجٌ إليها، وهو الذي خلقها بعد أن لم تكُ شيئًا؟! وهو الغني عن كلِّ شيء ﷻ!

ولكن الله ﷻ لما خلقها وخلق عباده ابتلاهم، هل يؤمنون أو يتبعون أفكارهم وما تزينه لهم شياطينهم وعقولهم أو من يعلمهم الباطل فيضل عن ذلك.

فإذا خاطبهم الله ﷻ يقولون: «اتبعنا فلانًا ولم نتبع كلامك»، فيكون ذلك أحقَّ لعذابهم.

قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦]، يعني: في العُلو، فلا يُفهم غير هذا، أما أن يَقُول: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي أن السماء تُحيط به، هذا لا يفهمه إلا مُنحرف العقيدة، وضالٌ في لغته وفي فهمه، وفيما يجب عليه لله ﷻ.

قوله: «**وكذلك الجارية لما قال لها**: «أين الله؟» **قالت**: **في السماء**...». هذا الحديث في «صحيح مُسلم»[1] كما هو معروف، فهو حديثٌ صحيح، وله طرقٌ مُتعدِّدةٌ، وقد رواه غيرُ مُسلمٍ من أهل الحديث بكثرةٍ، فمعنى ذلك: أنه يجوز أن نسأل ونقول: أين الله؟!

والجهمية يُعيرون أهل السُّنة بهذا، يسمونهم «الأَيْنِيَّة»، يعني أنهم يسألون عن الله يقولون: «أين الله؟». فالذي سأل هو المُصطفى صلوات الله وسلامه عليه، وأهلُ السُّنَّة يتبعون سُنة المُصطفى ﷺ، وليس عندهم شيءٌ يبتدعونه ويأتون به من عند أنفسهم كالجهمية.

فيجوز أن يُسأل عن هذا أن يُقال: «أين الله؟»، فيُقال في الجواب: «إنه في السماء»، والمقصود بـ«السماء» كما دلَّ عليه هذا النص وغيرُه: أنه فوق مخلوقاته، عالٍ على عرشه، كما قَالَ ﷻ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦].

فالمقصود: أن في اللغة حروفًا تتعاقب، حرفٌ يكون بمعنى الآخر، مثل «في» و«على» قد يأتي كل واحدٍ بمعنى الآخر؛ ولكن الذي يُعيِّن المُرادَ السياقُ والقرائنُ والأدلَّةُ الأخرى، يجعل المراد مُعيَّنًا لا يجوز صرفه عن غيره كما في هذه الآية.

وسؤال الرسول ﷺ للجارية وقوله: «**أين الله؟**»، **قالت**: **في السماء**؛ أي: في العلو، فدل حديث الجارية على علو الله تعالى على مخلوقاته.

* * *

---

(١) تقدم تخريجه

قال رحمه الله تعالى:

ﷺ «وإذا قيل: «العلو»، فإنه يتناول ما فوق المخلوقات كلها، فما فوقها كلها هو في السماء، ولا يقتضي هذا أن يكون هناك ظرفٌ وجوديٌّ يحيط به؛ إذ ليس فوق العالم شيء موجودٌ إلا الله، كما لو قيل: إن العرش في السماء، فإنه لا يقتضي أن يكون العرش في شيءٍ آخر موجودٌ مخلوق».

الشَرح

قوله: «إذ ليس فوق العالم شيء موجودٌ إلا الله...». المقصود بـ «العالم»: المخلوقاتُ، فيدخل فيها: السموات كلها والعرش والكرسي والأرض وغيرها؛ ومعلومٌ أن الأرض في قلب السماء، فالسماء الدنيا تُحيط بالأرض من جميع الجهات، أينما ذهبت من الأرض فالسماء فوقك، وذلك أن الجهات الصَّحيحة الحقيقية جهتان فقط:

الجهة الأولى: العلو.

الجهة الثانية: السُّفل.

أما جهة أمام وخلف ويمين وشمال فهذه إضافية، ومعنى «إضافية»: أنها ليست حقيقية؛ لأن الذي يكون يمينًا لك يكون يسارًا لغيرك، والذي يكون أمامك يكون خلفًا لغيرك، فالحقيقة: الجهاتُ الحقيقيَّةُ «فوقَ» و«تحتَ»، والله لا يكون تحت، وإنما هو يكون فوق ـ تعالى وتقدس ـ.

فالأرض صغيرة جدًّا بالنسبة للسماء فهي في قلبها؛ ومع ذلك الأرض على كِبرها وما فيها من البحار وما فيها من البراري والجبال وغيرها هي تُقابل السماء؛ ولهذا كثيرًا ما يُذكر: الأرض مقابل السماء في الخلق: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [غافر: ٥٧]، وذلك أنهما من أكبر المُشاهدة، وهما دليلٌ على وجوب عبادة الله ﷻ.

ولهذا كلما ذكر الله ﷻ الأمر بعبادته ذكر أنه الخالق، وذلك أنه ليس هناك من يخلق غير الله، والخالق هو الذي يجب أن يُعبد، فهو خلق الأرض على هذا الوضع وجعلها في قلب السماء وجعلها مُعلقة، فمثل السموات مع أن البحار فيها أكثر من

اليابس، فلماذا تكون البحار مُمسكة بالأرض؟ لماذا لم تتصاول على جهة؟ لأن الماء من طبيعته أن يذهب إلى الأسفل؛ ولكن الله بقدرته جعله مُحيطًا بالأرض.

فالمقصود: أن الأرض على كونها بهذا الشكل هي كُرويةٌ، وهذا من أعجب الأشياء أنها كُروية والبحر يأتي معها في جميع الجهات!!

المفروض إذا كانت مثلًا كروية أن يتطاول الماء إلى جهةٍ واحدة؛ لكن قُدرة الله كما أمسك السماء فوق ثُمَّ السماء الثانية تُحيط بالسماء الدنيا من جميع الجهات، السماء الدنيا يعني القريبة للأرض، وأيْضًا في قلب السماء الثانية.

وهكذا حتى تكون السماء السابعة هي أوسع السماوات وأكبرها وأعظمها، وفوقها الجنة الَّتِي قَالَ ﷻ إن عرضها عرض السموات والأرض؛ هذا العرض، فما بالك بطولها؟! ولهذا أخبر الله ﷻ عن أهل الجنة أنهم في أملاكٍ واسعة وقصورٍ عالية ومُتعددة، ثم البحر الذي عليه العرش فوق الجنة، يعني فوق الجنة بحرٌ وفوقه الكرسي ثُمَّ فوقه العرش، والعرش على الماء كما قال ﷻ.

وليس فوق العرش شيءٌ من المخلوقات أصلًا، فالذي فوقه ربُّ العالمين ﷻ، وهو مُحيطٌ بخلقه، عالمٌ بكل شيء.

ويُقابل الجنة: النَّارُ؛ فالنار ليست في السماء، النار في قلب الأرض في جوف الأرض ووسطها، وهي سِجِّينٌ؛ أي الذي يُسجن به أهل الكفر والإلحاد.

والنار موجودة كما أن الجنة موجودة، ولهذا أحيانًا في بعض الأماكن تنفجر الأرض بنيرانٍ تتلهَّب يسمونها براكين ويسمونها كوارث طبيعية!

كيف تكون طبيعية؟ فالطبيعة لها إله يخلقها، لكن هكذا يصرفهم الشيطان عن إضافة المخلوقات إلى ربِّ العالمين ﷻ.

فجعل الله ﷻ هذا آيةً نموذجًا يعتبر به من أراد الاعتبار؛ وإلا فأكثر الناس لا يعترف بهذا، يجعل هذا أمورًا عاديَّةً، ويتفرج عليها فقط دون اتِّعاظٍ، ودون معرفة أن هذه مُستقرُّ الكافرين ـ نَسأَلُ اللهَ العَافِيَةَ ـ.

والجنة في عِليين، والنار في أسفل السافلين؛ إذا أراد أحدٌ من أهل الجنة أن يَطَّلع على من يشاء من أهل النار، اطلع بأمر الله ﷻ، مع هذا البُعد الشاسع البعيد جدًّا؛ وكذلك إذا أراد أن يسمع خطابًا سمع؛ كما قال ﷻ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ﴾ [الأعراف: ٤٤]، يعني: يسمعون

خطابهم يجيئونهم؛ إلى أن قال: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠﴾ [الأعراف: ٥٠].

فقال ﷻ ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ۝٢٧﴾ [الصافات: ٢٧]. فقال قائلٌ من أهل الجنة، أي: فريقٌ منهم أو أهل الجنة كلهم جماعة.

﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ۝٥١﴾ [الصافات: ٥١]، يعني: في الدنيا صاحب نصحبه يأمرني بالكفر: ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ ۝٥٢﴾ [الصافات: ٥٢]، يعني: المصدِّقين المؤمنين؟! ثُمَّ قال: ﴿هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤﴾ [الصافات: ٥٤]؟ يعني: على النار مُطلعون معي على النار؟ ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٥٥﴾ [الصافات: ٥٥]، فصار يُخاطبه، يقول له: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ۝٥٦ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ۝٥٧﴾ [الصافات: ٥٦ ـ ٥٧] يعني: معك في النار.

فبقدرة الله ﷻ رسولُنا ﷺ عُرج به إلى السماء السابعة في ليلةٍ واحدة، ذهب ورجع في ليلةٍ واحدة؛ بل ذهب إلى بيت المقدس، وصلَّى فيه بالأنبياء جمعوا له، ثُمَّ عُرج به من هناك، فصار معه جبريل يستفتح سماءً بعد سماء ويطرق الباب ويَقُول صاحب الباب: «من؟»، فيقول: «جبريل»، فيقول: «من معك؟»، فيَقُول: «معي مُحَمَّد»، فيقول: «أوبُعث؟»، فيقول: «نعم»، فيفتح؛ وهكذا حتى علا على السماء السابعة وخاطبه الله بما شاء.

فقُدرة الله ما يجوز أن نحدَّها بشيءٍ نعرفه لا من مسافات ولا من غيرها؛ ومع ذلك الإنسان إذا جاءه الموتُ وحضرته الملائكة وقبضت روحَه صعدت به إلى السَّماء السَّابعة إنَّ كان مُؤمنًا تقيًا، فتُفتح له الأبواب ويُخاطِب الله الملائكة يقول لهم: «**اكتبوا كتابه في عليين وأعيدوه إلى الأرض**»(١)، فيُعاد إلى الأرض. وإذا وُضع في قبره جاءت رُوحه معه، فَيحيى الحياة البرزخية فيأتيه الملكان ويُخاطبانه، فهذه الروح وترجع فيما بين أن يُغسل ويصلى عليه فقط، في هذه المدة القصيرة.

فالمقصود: أنَّ الأمور هذه لا يجوز أن نقيسها بالشيء الذي نعرفه، وهذه مخلوقات والذي يفعلها مخلوقٌ، هذا في الجنة وهذا في النار، هذا مُؤمن وهذا كافر؛ أما الكافر فما يصعد إلى السماء: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ [الأعراف: ٤٠]، أي: مُستحيل دخولهم الجنة، كما أنه مُستحيل دخول الجمل في ثقب الإبرة.

---

(١) تقدم تخريجه.

قال رحمه الله تعالى:

«وإذا قُدِّر أن «السماء» المراد بها الأفلاك كان المراد أنه عليها، كما قال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، وكما قال: ﴿فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، وكما قال: ﴿فَسِيحُوا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٢]، ويقال: فلانٌ في الجبل، وفي السطح. وإن كان على أعلى شيء فيه».

الشَّرح

قوله: «وإذا قُدِّر أن «السماء» المراد بها الأفلاك...». الألفاظ اللغوية مثل «في»، يتعين المراد منها بالسياق والقرينة، وقد تأتي «في» ويراد بها «على» كما ذكر المؤلف: في قول الله ﷻ: ﴿فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وليس المراد داخل الأرض، وإنما عليها؛ وكقوله عن فرعون: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، يعني: عليها، وليس في داخلها.

فإذا قال الله ﷻ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦]، فليس معنى ذلك أن السماء ظرفٌ لله ـ تعالى الله وتقدس ـ، وإنما المقصود هو العلو، أو أن «في» تكون بمعنى «على»؛ أي: فوق السماء؛ والأول أوضحُ وأظهرُ.

ولكن إذا قيل: «الماء في الكوز»، أو: «الماء في الإناء»، فهذا معنى آخر؛ لأن الماء لا بُدَّ أن يمسكه شيءٌ، ويكون في داخل شيءٍ. **وإذا قيل أيضًا**: «الكلام في الورق أو في الكتاب»، فهذا أيضًا له معنى آخر؛ وهكذا يجب أن نفهم الخطاب حسب السِّياق والقرائن ومرادِ المتكلِّم الذي يتبيَّن بذلك.

ولكن مَن أراد الحقَّ وكان مراده الحقَّ؛ فإنه لا شك أنه إذا بُيِّن له اتبعه. أما الذي يريد مذهبًا معينًا ويحاول أن يصرف الكلام وإن كان لا يدلُّ على ما يقوله؛ فإنه يحاول أن يكون دالًّا على مذهبه، فإذا خوطب بمثل هذا الخطاب لا يزداد إلا تمسكًا بما يقوله، والهداية بيد الله ﷻ.

خلاصة هذا الكلام في مسألة الاستواء والعلو: أنَّ الأدلة جاءت فيها: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦]:

ـ فإما أن يراد بالسماء العلو، ولا يكون ذلك المراد به الظرف؛ بل يقال: إن «السماء»: العلو، فتكون «في» على بابها.

ـ أو يراد بـ «في»: معنى «على» كمَّا مثَّل المؤلف بقوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طـه: ٧١]، ﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٢].

والمؤلف يرجح المعنى الأول، يعني: أن يكون المقصود بـ«السماء»: العلو، فتكون «في» على بابها.

❁ ❁ ❁

الْقَاعِدَةُ الْخَامِسَةُ

قال رحمه الله تعالى:

«الْقَاعِدَةُ الْخَامِسَةُ: أَنَّا نَعْلَمُ لما أُخْبِرْنَا بِهِ مِنْ وَجْهٍ دُونَ وَجْهٍ، فَإِنَّ اللهَ قَالَ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، وَقَالَ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وَقَالَ: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]، وَقَالَ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤]، فَأَمَرَ بِتَدَبُّرِ الْكِتَابِ كُلِّهِ».

الشَّرح

قوله: «الْقَاعِدَةُ الْخَامِسَةُ يقول: أَنَّا نَعْلَمُ لما أُخْبِرْنَا بِهِ مِنْ وَجْهٍ دُونَ وَجْهٍ». هذا في الجُملة؛ وإلا فكتاب الله ﷻ عربيٌّ مُبينٌ، ولا يجوز أن يكون فيه شيءٌ لا يُفهم ولا يُعرف، ومن زعم ذلك فقد كذب؛ لأن الله ﷻ أخبر أنه بينه ووضحه لعباده. ثم الرسول ﷺ بيَّن ما نزل إليه من ربه؛ كما أمره الله ﷻ بذلك، فمن يزعم أن صفات الله ﷻ من المُتشابه الذي لا يُعلم فهو كاذب؛ لأنه خلافُ ما أخبر الله ﷻ به.

وهذا هو مقصود المؤلف، فإنَّه يقول: إن صفات الله ﷻ من المُحكم الواضح البيِّن الذي لا إشكالَ فيه، ولكنَّها يختص بها ﷻ لا يُشاركُه المخلوق فيها، فإذا أخبر أنه يسمع وأنه يُبصر، وأنه يعلم، وأنه قادر، فليس سمعُه وبصرهُ وقدرته كسمع المخلوق وبصره وقدرته؛ وهكذا يُقال في جميع صفات الله ﷻ.

أما كوننا نعلم من وجهٍ دون وجه؛ فمقصودُه بالوجه الذي لا نعلمه: الحقائق التي يكون المتكلم عليها، وحقائق صفات الله ﷻ؛ فهذه لا يلزم أن نعرفها، وهي تتوقف على المُشاهدة، وأقلُّ ما يقال في ذلك: أنَّها تتوقف على القياس، والله ﷻ لا مثيل له حتى يقاس عليه؛ فتبين أنه لا طريق للعلم بحقائقها، وهذا الذي يسميه السلف «كُنه الصفات»؛ فإنها غيرُ معلومة؛ لأن «الكُنْهَ والحقيقة» لا بُدَّ فيه من

الوقوف على ذلك المُخبر؛ ومثل ذلك يُقال أيضًا في إخبار الله ﷻ عن يوم القيامة، بل وعن الأمور السابقة التي لا نعلمُها إلا بالخبر، فنُصدِّق الخبر الذي جاءنا.

فقد أخبرنا كما سبق أنَّ الجنة فيها أكلٌ وشربٌ، وفيها تلذُّذٌ، وفيها زوجاتٌ، وفيها غير ذلك، وليس الذي فيها من جنس ما عندنا في الدُّنيا، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لَيْسَ فِي الدُّنْيَا شَيْءٌ مِمَّا فِي الْجَنَّةِ إِلَّا الْأَسْمَاءَ»(١)، يعني مُسمَّى: عنب، وخمر، وماء، وعسل، ولبن، وغير ذلك، فهي تتفق معها في الأسماء فقط، أما في الحقائق فهي بعيدةٌ جدًا؛ لأن أمور الأخرة كُلها أمورٌ غيبية؛ وقد أخبر ﷺ أنَّ فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت.

ويُقال في مثل ذلك أيضًا في النار، التي أخبر الله ﷻ أن فيها شجرةَ الزَّقُّوم، وفيها سلاسلُ وفيها أغلالٌ، وفيها مقامعُ وغيرُ ذلك، ولكن نعرف هذا من الوجه الذي تتَّفق الأسماء فيه فقط. أما الحقائق فهي تختلف.

فكلام الله ﷻ الذي خاطبنا فيه، ذمَّ فيه الذين لا يفقهون، والذين لا يعرفون الخطاب، وهو لا يذمُّ إلا من ترك شيئًا يستطيعه بقدرته، أما الذي يترك الشيء الذي ليس بقدرته فهذا لا يُذَمُّ؛ لأن الله لا يُكلِّفُ نفسًا إلا وسعها.

قوله: «أَنَّا نَعْلَمُ لما أُخْبِرْنَا بِهِ مِنْ وَجْهٍ دُونَ وَجْهٍ»؛ وذلك أنَّ الله ﷻ أمرَنا بتدبُّر القرآن، ومن المحال أن يأمرنا الله بتدبُّر شيء لا يُفهم ولا يُعلم، ولا يلزم أن نعلم حقيقةَ كُلِّ ما أُخبرنا به من الأمور الماضية أو المستقبلة؛ كالحساب والقبر والمحشر والجنة والنار، وإنما الواجب أن نؤمن بها، وأن نعلم أن الجنة فيها نعيمٌ وهكذا؛ لأن حقائق الأشياء لا يعلمها إلا من رآها وعايشها، أو رآى مثلها فيعرفها بوجهٍ مقاربٍ؛ أما حقيقتها على ما هي عليه فلا تُعلم إلا بالمشاهدة.

وكذا الأمر في صفات الله ﷻ، فنحن نؤمن بأنَّ له سمعًا ـ و«السَّمع» به إدراكُ المسموعات ـ، ونؤمن بأنَّ له بَصَرًا ـ وبه إدراك المبصرات ـ، وأن الله لا يخفى عليه شيءٌ؛ أما الحقائق التي تتعلق بذات الرب فهذه لا نعرف حقيقتها. والقرآن فيه محكمٌ وفيه متشابهٌ، والتَّشابُه يكون نسبيًا، وليس تشابهًا في الكلام ذاته، وإنما تشابهه على بعض النَّاس.

---

(١) سبق تخريجه.

والمقصود بهذه القاعدة: أنَّ الأمور الغيبية التي لا نظير لها عندنا ولا نُشاهدها، يجب أن نُؤمن بها على وفق الخطاب الذي خوطبنا به؛ ولا نتعدى ذلك ولا نُفسِّره مِن عند أنفسنا، وإنما يجب أن نُرجعه إلى علم الله ﷻ. وقوله: «**نَعْلَمُ لما أُخْبِرْنَا بِهِ مِنْ وَجْهٍ دُونَ وَجْهٍ**»، يعني نعرف المعنى اللغوي الذي خوطبنا به، أما الحقائق فهذه تعود إلى الله ﷻ. ثُمَّ لا يجوز أن يكون هناك في كتاب الله شيءٌ مُبهم لا نعرفه؛

أما الحروف المُقطعة التي جاءت في أوائل السور ـ مثل ﴿الٓمٓ﴾ و﴿حمٓ﴾، فهي معلومة وقد تكلم فيها أهلُ التفسير وأهل اللغة:

ـ ومن أظهر الكلام فيها منهم قول من يَقُول: أنها أسماء من أسماء الله.

ـ ومنهم من يَقُول: بل هذه جاءت للتحدي؛ لأن الله ﷻ يقول للعرب: «هذا الكلام وهذا الخطاب وهذا القُرْآن بهذه الأحرف الثمانية والعشرين الَّتِي تتخاطبون بها فهي في خطابكم؛ فإن كنتم صادقين أنه ليس نبيًّا أو أن آلهتكم صحيحة وأنكم على حقٍّ = فأتوا بشيءٍ من مثل هذا الخطاب! فلن تستطيعوا»، فهذا هو الظاهر، والله أعلم. وإن كان بعضُ المفسِّرين إذا جاء إليه قَالَ: «الله أعلم بمراده»، ولكن من عباد الله من عَلم مُراد الله في هذا.

فالمقصود: أنه ليس في كتاب الله شيءٌ لا يُفهم؛ أما حقائق الأشياء فلا تُعلم حتى تأتي هذه، وهي الَّتِي تُسمى تأويلًا: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣]، يعني بتأويله: حقيقة الشيء الذي أُخبر عنه؛ فتأويل الصُّور هو قيام الساعة، وتأويل البعث هو قيامُهم من القبور، وكذلك الوقوف بين يدي الله وكذلك الجنة والنار وغيرها؛ وإن كانت يوم القيامة تتغير الأمور: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وتُسجر البحار نيرانًا: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾ [التكوير: ٦] أي: تصبح نارًا تتلهَّب ثُمَّ يُؤتى بها وتُحيط بالناس من جميع الجهات ولا عبور إلا من فوقها، وقد أحاطت بهم النارُ من جميع الجهات؛ فلا عبور إلا من فوق جهنم؛ هذا الذي فُسِّر به قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١].

قوله: «فإن الله تعالى قال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾ [النساء: ٨٢]». والتَّدبُّر هو التَّفهُّم والتَّعقُّل للشَّيء الذي يُفهم

ويعقل، ولو لم يكون معقولًا ومفهومًا ما ذم الذين لا يفهمون، وقد قال ﷻ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨]، يعني: تلاوة.

قوله: «**وقال تعالى**: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]». و«القول»: هو قولُ الله ﷻ الذي أنزله على رسوله ﷺ.

قوله: «﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]»، يعني: يتفهموها ويعلموها؛ فلو كانت ما تُفهم ما أمرنا بهذا.

أي: يتدبروها ويتفهموها ثم يعملوا بها؛ وإلا كانوا قد خالفوا أمر الله ﷻ واستحقُّوا عقابه.

قوله: «**وقال**: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤]»؛ أي: أن القلوب إذا أُقفلت وأعرضت عن القول الذي جاءها بلغتها، وبالخطاب الذي يفهمونه؛ أنهم قد ضلوا، ولم يقوموا بما أوجب عليهم، فهم مستحقون لعذاب الله.

قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾. المقصود منّا أن نفهم الخطاب الذي خوطبنا به، فما خوطبنا بشيءٍ لا مفهوم له، أو خوطبنا في شيءٍ ظاهره الكفر! فيجب أن يكون الخطاب مفهومًا، وإذا كان كذلك فلا بُدَّ أن يكون المخاطِب قد بيّن ووضّح، وهو كذلك؛ فقد بيَّن الله تعالى ما خاطبنا به ووضّحه، فلا إشكال فيه.

فدعوى أنه مشتبه أو أنَّ ظاهره يدلُّ على الباطل هي دعوًى باطلة، وهذا أيضًا تأكيدٌ من المؤلف لما سبق وزيادةُ بيان لهذه القاعدة.

معنى التدبر:

التدبر: تفهُّم الكلام، وعدم المرور بدون فهم، فالله ﷻ قد ذمَّ الذين لا يتدبرون القرآن، وهذا الذم يقتضي وجوب التدبر، ولا يُتدبر الشيءُ الذي يكون ظاهرُه غيرَ مرادٍ لا يمكن أن يُتدبر، كيف يتدبر شيء ما أريد ظاهره؟!

قوله: «**فأمرَ بِتَدَبُّر الكِتاب كله**»، يعني: ليس في الكتاب شيءٌ لا يُفهم.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾ [آل عمران: ٧]، وَجُمْهُورُ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَخَلَفِهَا عَلَى أَنَّ الْوَقْفَ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]، وَهَذَا هُوَ الْمَأْثُورُ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِمْ وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: التَّفْسِيرُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ: تَفْسِيرٌ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ مِنْ كَلَامِهَا، وَتَفْسِيرٌ لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِجَهَالَتِهِ، وَتَفْسِيرٌ تَعْلَمُهُ الْعُلَمَاءُ، وَتَفْسِيرٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ مَنِ ادَّعَى عِلْمَهُ فَهُوَ كَاذِبٌ».

الشرح

قوله: «وقد قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾».
المحكم: هو البيِّن الواضح الجليُّ، وهذا أكثرُ ما في كتاب الله ﷻ أو كلِّه.

ثُمَّ ربُّنا ﷻ قد وصف كتابه بأنه كُلُّه مُحكمٌ، كما وصفه بأنه متشابه؛ لأنَّ بعضه يُشبه بعضًا، وليس معنى ذلك أنه يشتبه على السامع فيُصبح ملتبسًا عليه مُشتبهًا، فليس هذا المُراد.

ولكن جعل فيه شيئًا يحتمل وجهينِ ابتلاءً وامتحانًا؛ ليتبين من يريد الحق، ومن يُريد الفتنة، ويريد أن يُحرِّف كلامَ الله إلى هواه، وإلى مذهبه الذي يذهبُ إليه؛ فلهذا قال: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ [آل عمران: ٧]، يعني: طلبًا للفتنة؛ يتبعون المُتشابه ليس طلبًا للحقِّ وامتثالًا لما خوطبوا به، وإنما طلبًا للضلال، وكذلك الذي يزيغ قلبه.

والهداية بيد الله ﷻ، والقلوب بين يدي أصبعين من أصابع الرحمن يُقلبها

كيف يشاء؛ من شاء أقامه على الحق، ومن شاء تركهُ ونفسُه وهواه وشيطانُه؛ فيضل ويهلك ولا بُدَّ.

﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧]، «**التأويل**»: هنا يُقصد به التفسير الذي يُفسرهُ على غير وجهه، فإذا قال ﷻ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ [الواقعة: ٨٥]، يقول: «هذا يدُل على التثليث، وإن الذي يُخاطبُنا جماعةٌ ـ وهو عيسى وأمه، وعزير، والله ـ»، وما أشبه ذلك! فهذا طلب الفتنة.

وكذلك الذي يقول في قول الله ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]: «لا يجوز أن نقول: إنَّ لله يدًا تُسمى يمينًا؛ فإنَّ هذا كُفرٌ وتشبيهٌ»!. نقول: هذا طلب التأويل الباطل، ابتغاء المذهب الباطل؛ الذي ذهب إليه.

قوله: «وَجُمْهُورُ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَخَلَفِهَا عَلَى أَنَّ الْوَقْفَ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾»، يعني: أن هذا «التأويل» هو حقائق الأشياء التي تصير إليها والأمور التي أُخبر عنها؛ فمثلًا: حقيقةُ ما أخبر عنه يوم القيامة: أن يشاهده الإنسان ويعيشه، وحقيقة الجنة أن يدخلها وينظر إليها ويتمتع بها، والنار كذلك.

أي: أنَّ التأويل الذي لا يعلمه إلا الله هو الحقائق التي تكون يوم القيامة، كما قال الله ﷻ: ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣]، يوم يأتي تأويله: يعني الحقائق التي أخبر عنها، حين يشاهدون الأمور التي أُخبروا بها.

ومن ذلك قول الله ﷻ في إخباره عن يوسف ﷺ لما قَدِم إليه أَبَوَاهُ وإخوتُه: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ﴾ [يوسف: ١٠٠]؛ لأنه قال قبل ذلك: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [يوسف: ٤]، فصارت «الكواكب» عبارةً عن إخوته، و«الشمس والقمر» عبارةً عن أبيه وأمه، فلما سجدوا له قال: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ﴾ [يوسف: ١٠٠]، يعني: التي رأيتها قبل ذلك.

فإذًا: التَّأويل في مثل هذا هو مجيءُ الشَّيء الذي أُخبر عنه؛ فهذا الذي لا يعلمه إلا الله، فلا أحدَ يعلم مجيءَ الساعة وحقيقتَها إلا الله، وكذلك خروج الناس من قبورهم، على أي كيفيَّةٍ، وعلى أي صفةٍ، وعلى أيِّ حالٍ؛ ووقوفهم في موقفٍ يجتمعون فيه مقداره خمسين ألف سنة... إلخ.

فهذه مُجرد خبرٍ أُخبِرْنا بها يجب أن نؤمن بها، ولكن حقيقتها سوف تأتي؛ وهكذا: الصراط، والميزان، والصحف التي تتطاير، وغير ذلك؛ فتأويلها إذا جاءت؛ فهذا لا يعلمه إلا الله ﷻ، ومن ادَّعى علمه فهو كاذبٌ. فإذا كان الوقوف على: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾»، فهذا معناه.

أمَّا إذا كان الوقوف على قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧]، فيكون المعنى: أنَّ «التأويل» يعلمُه الله، وكذلك يعلمهُ الرَّاسخون في العلم.

والوقف اللازم معناه: أنه لا يجوز للقارئ أن يتجاوز ذلك حتى يقف عليه؛ لأنه بهذا يتبين المعنى، وإذا لم يقف صار الأمر مُشتركًا بين ما أخبر الله ﷻ به عن نفسه، وما أخبر به عن أهل العلم.

وقصده بالوقف على لفظ الجلالة، كون قوله ﷻ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧] وقفًا تامًا، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقول في هذه الآية: «أنا من الراسخين في العلم». وقال مجاهد رحمه الله: أنا ممن يعلم تأويله[(١)].

أي: يجوز أن تقول: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾، أنَّ الراسخين في العلم يعلمون تأويلَه، وهذا هو القول الثاني؛ فلهذا سيأتي قول المؤلف: «لا منافاة بين القولين عند التحقيق؛ فإن لفظ «التأويل» قد صار بتعدد الاصطلاحات مستعملًا في ثلاثة معان».

قوله: وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: «التَّفْسِيرُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ: تَفْسِيرٌ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ مِنْ كلامها...». هو المعاني الَّتِي لا تخفى على عُموم الناس، يعني: أن القرآن نزل بلغة العرب، فمن كان يعرف لغة العرب فإنه يعرف ما خوطب به.

ومقصوده بـ «**التفسير**» هنا: مرادُ المتكلم بالكلام.

والمقصود بـ«**العرب**»: الذي يعرف اللغة العربية؛ ولا يلزم أن يكون أصله عربيًا، فكلُّ من تكلَّم باللغة العربية فهو عربيٌّ، فهو يعرف الخطاب.

وهذا القسم غالِبُ ما في القرآن والحديث، فالذي يعرف كلام العرب يعرف مراد الله ﷻ، في الغالب.

قوله: «وَتَفْسِيرٌ لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِجهالته»، هذا كقوله: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٣٦]،

---

(١) تفسير البغوي (١/ ٤١٢)، واللباب في علوم الكتاب (٥/ ٤٠)، وتفسير الثعلبي (٣/ ١٤).

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ [النساء: ٧٧]، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وما أشبه ذلك من الأوامر التي يأمر بها، فلا يُعذر أحدٌ بجهالَتِه؛ وهي الأوامر التي تلزم المكلَّف، فهذه لا يجوز أن تُجهَل، وهي معلومة عند الجميع. فهذه لا يجوز أن يجهلها أحدٌ ممَّن اتَّبع الرسول ﷺ، فهي واضحةٌ وجلِيَّةٌ؛ فإن جهلها فهو ظالم ومُقصِّر ويحُاسب على ذلك.

فإذا أمر ﷻ بالصلاة، فيجب أن يعرف الإنسان ما هو الذي يجب للصلاة من وضوءٍ، ومن قيامٍ، ومن غير ذلك مما بيَّنه الرسول؛ لأنَّ الله ﷻ قَالَ: ﴿أَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ [الأنعام: ٧٢]، لم يأت في القرآن أن الصلاة أربع ركعات أو ثلاث ركعات أو ركعتان، وإنما هذا ببيانِ رسولِ الله ﷺ، وهو المُراد بقوله: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، هذا لا يجوز أن يجُهل، فيجب أن يُعلم.

قوله: «وَتَفْسِيرٌ يعرِفُه الْعُلَمَاءُ»، يعني: الأمور التي تُستنتج وتُستخرج من الخطابات؛ إما مجموعةً، أو مفردة؛ فهذه إلى العلماء، كما قال الله ﷻ: ﴿فَسْـَٔلُوٓا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝﴾ [النحل: ٤٣]، فلولا أنهم يعلمون ذلك ما أمر بسؤالهم.

فهذا من الأمور التي تحتاج إلى فهم دقيقٍ واستنباطٍ لكلام الله ﷻ، وكلام رسوله ﷺ؛ لأن كلام الله وكلام رسوله جوامعُ، فالكلمة الواحدة تدلُّ على أمورٍ كثيرةٍ، وهذا لا يدركه إلا من تعلَّم طُرُقَ استنتاج الأحكام.

وكلام الله يأتي كليات عامة، كلُّ كليةٍ تدلُّ على أحكامٍ كثيرةٍ؛ لأنَّ الله أنزله ليكون حاكمًا للخلق إلى يوم القيامة، وحوادث الناس كثيرةٌ لا تنتهي، فإذا أرجعناها إلى القرآن بالفهم وجدناها حكمًا منصوصًا عليه، موجودًا فيه، ولكن الناس يختلفون في هذا، أي: فُهُومُهم تختلف في هذا، فتجد إنسانًا يستنتج من آيةٍ أحكامًا كثيرة، وآخر لا يستنتج إلا أحكامًا قليلةً.

المقصود: أنَّه ما في كلام الله شيءٌ يخفى، وأن المفاهيم التي تحتاج إلى تفكُّر ونظرٍ ومعرفة للقواعد وغير ذلك، يرجع توضيحه إلى العلماء.

قوله: «وَتَفْسِيرٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ، مَنْ ادَّعَى عِلْمَهُ فَهُوَ كَاذِبٌ». والشيء الذي لا يعلمه إلا الله، هو حقائق الأشياء الَّتِي أُخبر بها، مثل كيفية الصفات، ومثل حقائق الأمور التي لا تُعلم إلا بمعايشتها ومزاولتها، وقد قال الله ﷻ: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ

ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾ [التكاثر: ١ ـ ٦]، فعلم اليقين يكون في الأمر الذي تعايشه وتراه.

وخليلُ الرحمن إبراهيم عليه السلام يقول لربه: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فهو مؤمن بإحياء الموتى في الأصل، ولكن أراد أن ينتقل من «علم اليقين» إلى «عين اليقين»، فمشاهدة الأشياء ومزاولتها تعطي شيئًا غير ما يعطيه الخبر.

ولهذا موسى عليه السلام لما أخبره الله جل جلاله بأنَّ قومه عبدوا العجل غضب على قومه، ولكن لما شاهدهم ألقى الألواح وغضب أكثر، ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠]، وصار عنده انفعالٌ شديدٌ لمَّا شاهد قومه يعبدون العجل؛ لأن الحقائق لا تُتَصَوَّر كما ينبغي بالسمع، وإنما بالرؤية والمشاهدة؛ فإذا تصورها وشاهدها وعايشها صار هذا أمرا آخر زائدا؛ وكذا حقائقُ صفاتِ الله جل جلاله، فلا يمكن أن تقاس بما يكون من صفات المخلوقات، فهذا ممتنعٌ؛ لأن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾.

ومن أمثلة الحقيقة التي أخبر بها: النعيمُ الذي في الجنة، ما يعلمه أحدٌ من الخلق حتى يدخلوها؛ وكذلك النار ـ نسأل الله العافية ـ؛ وكذلك حقيقةُ الصِّراط والميزان وتطايُر الصحف؛ وكذلك الوقوف والعَرَقُ الذي يعرقه الناس؛ فبعضهم يصل العرق إلى حِقْوَيه، وبعضهم يُلْجِمُه إلجامًا، وهم في موقفٍ واحد، وبعضهم يقف خمسين ألف سنة، وبعضهم كأنه بعد العصر فقط؛ فكل هذا لا يعلم حقيقته إلا الله، ولكن إذا وقعت، فتأويلها وقوعُها.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَقَدْ رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَطَائِفَةٍ: أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ وَقَدْ قَالَ مُجَاهِدٌ: عَرَضْت الْمُصْحَفَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ فَاتِحَتِهِ إلَى خَاتِمَتِهِ أُوقِفُهُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ وَأَسْأَلُهُ عَنْ تَفْسِيرِهَا.

وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ عِنْدَ التَّحْقِيقِ فَإِنَّ لَفْظَ «التَّأْوِيلِ» قَدْ صَارَ بِتَعَدُّدِ الِاصْطِلَاحَاتِ مُسْتَعْمَلًا فِي ثَلَاثَةِ مَعَانٍ...».

الشَّرح

قوله: «أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ»، هذا إذا كانت الآية متصلة بلا وقفٍ وكان على قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾؛ أي: أنَّ الوقف ليس لازمًا على قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

ومعنى ﴿تَأْوِيلَهُۥ﴾؛ أي: تفسيره، وهذا الذي يقوله ابن عباس رضي الله عنهما وكذلك يقوله مجاهد ـ تبعًا لا بن عباس ـ، وليس هو حقيقة الشيء، وإنما هو تفسيرُه، ولكن يكون تفسيرُه ـ على قول ابن عباس ـ: «يعلمه العلماء».

هذا الذي رُوي عن مُجاهدٍ رحمه الله هو صحيح، وقوله: «أنه يعلم التأويل»؛ مثل ما جاء عن شيخه ابن عباس. ومُجاهدٌ قد اعتنى بتفسير كلام الله جل جلاله؛ ولهذا عرض القرآن على ابن عبَّاسٍ يوقفه عند كُلِّ آية ويسأله عن معناها، وفيمن نزلت، وسبب نزولها. ولهذا اعتمد البُخاريُّ رحمه الله تفسيرَ مُجاهدٍ في «صحيحه».

ولأنَّ الرَّسول ﷺ قال عن ابن عباس: «**اللَّهم فقِّهه في الدِّين وعلِّمه التَّأويل**»(١)، فلاحظَ المؤلف هذا المعنى، وهو دعوةُ الرَّسول ﷺ له بالفقه في الدين وعلم التأويل، أي: التفسير.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء (١/ ٤١) برقم (١٤٣)، ومسلم في صحيحه، في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (٤/ ١٩٢٧) برقم (٢٤٧٧)، واللفظ لأحمد في مسنده (٤/ ٢٢٥) برقم (٢٣٩٧)، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

و«التأويل» قد جاء على ثلاثة أقسام: قسمان مُتفق عليهما بين العلماء، والثالث فهو اصطلاحيٌّ حادث.

* **أما الأول**: فالمقصود به: حقائقُ الأشياء؛ وهذا أكثر ما جاء في كتاب الله ﷻ.

* **والتأويل الثاني**: معناه التفسير، كما يقول ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيرُه إذا بدأ بتفسير الآية: «القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا».

* **أما المعنى الثالث**: الاصطلاحي الحادث: فهو صرفُ الكلام عن ظاهره إلى ما لا يدُلُّ عليه بظاهرِه إلا بدليلٍ؛ وهذا لم يكن معروفًا عن السلف، ولم يكن معروفًا عند الصَّحابة والتَّابعين، وإنما استُحدث بعد ذلك؛ وهذا لا يجوز أن يُقال به إلا بالدليل الشرعي.

أما أن نُطلق ونقول بدليل العقل، فالعقل لا يقضي على كلام الله ﷻ؛ بل يجب أن يكون مسترشدًا بكلام الله، مهتديًا به؛ وإلا ضلَّ.

ولهذا أوَّلوا نصوص الصفات تأويلًا باطلًا أخرجها عن معناها الذي أراده المُتكلم، فضلوا بذلك، وإن كانوا لم يقصدوا الضلال، وإنما صُرفوا عن الحق لأسبابٍ كثيرة، أهمها وأعظمها: إعراضُهم عن كتاب الله ﷻ وتفهُّمِه، وعمَّا جاء عن رسول الله ﷺ.

قوله: «**وَقَدْ قَالَ مُجَاهِدٌ: عَرَضْت الْمُصْحَفَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ فَاتِحَتِهِ إلَى خَاتِمَتِهِ..**»، يعني: يسأله عن كل آية، وأن ابن عباس يعرف تفسيرَ القُرْآن كله، كما قد عرفه مجُاهِدٌ عنه؛ والبُخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ اعتمد تفسيرَ مُجاهدٍ في «صحيحه».

يَقُول: إن الرسول ﷺ قَالَ لابن عباس: «**اللهم علمه التأويل**»، فصار ابن عباس تُرجمان القُرْآن: «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**»، يعني بالتأويل هنا: تفسيره.

لأنَّ التَّأويل ـ كما سبق ـ يُطلقُ على أمرينِ:

الأول: حقيقة الشيء.

الثاني: تفسيره.

أما الأمر الثالث: فهو اصطلاحٌ حادثٌ جاء به المُتأخرون، وهو: «صرف الكلام عن ظاهره الذي يُفهم منه إلى معنًى لا يُفهم منه إلا بقرينة أو بدليلٍ آخر»،

وليس له أصلٌ في كتاب الله، ولا في سُنة رسوله ﷺ، ولا في لغة العرب.

ثُمَّ «الدليل» الذي يقصدون ليس دليلا شرعيًّا، إذ لو كان دليلًا شرعيًّا لكان الأمر سهلًا، ولكن يقصدون دليلًا عقليًّا، فحرَّفوا كلامَ الله وكلامَ رسوله بهذا التأويل الذي اصطلحوا عليه وجاءوا به من محُدثات الأمور وضلالاتها.

قوله: «**وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ عِنْدَ التَّحْقِيقِ...**»، يعني: **القول الأول**: الوقف على قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]؛ **والقول الثَّاني**: الوقف على قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧].

القول الأول: إذا كان الوقف على قوله ﷻ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧] يكون المقصود بذلك: حقائقُ الأشياء ومآلها والأمور التي أخبر الله عنها، وتأويلُ ذلك: إتيانُه، وكونُ الناس يكونون فيه، مثل: نعيم الجنة، وعذاب الآخرة، وكل ما وُعدوا، فتأويله: أن يأتي. وأما صفات الله وأسماؤه؛ فتأويلها حقائقها التي لا يعلمها إلا الله، لا ملك مقرَّب، ولا نبي مرسل، ولا غيرهما.

والقول الثاني: قال: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧] يعني: «أن الراسخين في العلم يعلمون تأويله» على هذا القول، فهذا قولُ بعضِ العلماء وطائفة من السلف. فيكون المعنى: أنهم يعلمون تفسيره الذي أريد به أن يفهمه المخاطبون؛ فلهذا قال: «**وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ عِنْدَ التَّحْقِيقِ**»؛ لأن هذا له معنى، وهذا له معنى.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«... أَحَدُهَا: وَهُوَ اصْطِلَاحُ كَثِيرٍ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي الْفِقْهِ وَأُصُولِهِ؛ أَنَّ التَّأْوِيلَ هُوَ صَرْفُ اللَّفْظِ عَنِ الِاحْتِمَالِ الرَّاجِحِ إِلَى الِاحْتِمَالِ الْمَرْجُوحِ؛ لِدَلِيلٍ يَقْتَرِنُ بِهِ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي عَنَاهُ أَكْثَرُ مَنْ تَكَلَّمَ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي تَأْوِيلِ نُصُوصِ الصِّفَاتِ وَتَرْكِ تَأْوِيلِهَا؛ وَهَلْ ذَلِكَ مَحْمُودٌ أَوْ مَذْمُومٌ أَوْ حَقٌّ أَوْ بَاطِلٌ؟».

الشَّرح

في قوله السابق: «... فَإِنَّ لَفْظَ «التَّأْوِيلِ» قَدْ صَارَ بِتَعَدُّدِ الِاصْطِلَاحَاتِ مُسْتَعْمَلًا فِي ثَلَاثَةِ مَعَانٍ، أَحَدُهَا: وَهُوَ اصْطِلَاحُ كَثِيرٍ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي الْفِقْهِ وَأُصُولِهِ...» أما الاصطلاح الأول الذي ذكره، فهو اصطلاح اصطلح عليه المتأخرون، أما ما سيذكره من أنَّ التأويل يُقصد به التفسير، والثاني يُقصد به حقائق الأشياء، فهذا ليس اصطلاحًا، لأنه في الواقع دلَّ عليه كتاب الله وسُنَّة رسوله ودلَّت عليه لغة العرب. فالاصطلاح هو الأول فقط، الذي قال فيه: «**وَهُوَ اصْطِلَاحُ كَثِيرٍ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ**»، والذي هو: «صرف اللفظ عن ظاهره الراجح إلى معنًى مرجوح لدليلٍ يقترن بذلك»، و«الدليل»: عند المتأخرين جعلوه العقل، ولا سيما في صفات الله؛ كما تقوله الأشاعرةُ وغيرُهم؛

ولهذا نقول: «هذا التأويل باطِلٌ»؛ بل هو مثل ما قال ابن القيم رحمه الله: «طاغوتٌ صدَّ عن معرفة معاني أسماء الله وصفاته»، كما استعمله هؤلاء الذين هم تركوا الحقَّ وسلكوا طريق الباطل.

وكذلك هو في الأحكام باطِلٌ، كونها تؤوَّل إلى معنًى آخر لا يحتمله الراجح، فهذا معناه: تغييرٌ لشرع الله وتبديلٌ له، غير أنه قد يأتي دليلٌ شرعيٌّ، ومثّلوا لهذا في الأحكام بقوله ﷺ: «**الْجَارُ أَحَقُّ بِصَقَبِهِ**»[1]، فهذا يدلُّ على أن الجار له الشفعة؛ إذا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الحيل، باب في الهبة والشفعة (٩/٢٧)، برقم (٦٩٧٧)، من حديث أبي رافع رضي الله عنه.

باع، فيقولون: «هذا هو الظاهر»، ويقولون: «جاء ما يدل على عن صرفه عن الظاهر إلى معنًى آخر؛ وهو: أن الجار المقصود به: الشريك»؛ لقوله ـ كما في حديث جابر ـ: «**إِذَا وَقَعَتِ الْحُدُودُ، وَصُرِّفَتِ الطُّرُقُ، فَلَا شُفْعَةَ**»[(١)].

من المعلوم أنه يجب على العباد أن يعملوا بخطاب الله ﷻ الذي خوطبوا به؛ فإذا قال ﷻ: ﴿أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ٧٧]، هل يجوز قائلًا أن يقول: إقامة الصلاة هي كتم الأسرار؟ ويقول: هذا تأويل! فمثل هذا لا يُسمَّى تأويلًا لا من قريب ولا من بعيد!

وكذلك إذا قال ﷻ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: ٥٠]، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦]، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨]، أن يكون مثل التأويل هذا أنه ﷻ مالكٌ لما في السماء، وما في الأرض، وأنه يتصرَّف فيهما، وأنه هو الذي يقوم على دفع ضُرّ من فيهما، وجلب النفع لهم، هل يجوز أن نقول هذا التأويل مفهومٌ من الكلام! نقول: هذا بعيدٌ جدًّا ولا يجوز أن يكون تأويلًا.

وإذا قيل لهم: ما الدليل لقولك: أنه صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح بدليلٍ يقترن به؟

يقول: لأني إذا قلتُ: «إن الله فوقٌ حقيقةً، فيقتضي أن يكون الله له مكانٌ، وأنه جسمٌ؛ وهذا كفرٌ»، فهذا يسميه: «دليلا»، لكن نقول: هذا أمرٌ مُخترعٌ من عندك.

فالله ﷻ أخبر أنه استوى على عرشه، وأن سماواته وأراضيه بالنسبة للعرش أنها صغيرة، واستواءه على عرشه ليس لأنه مُحتاجٌ إلى ذلك ـ تعالى وتقدس ـ؛ بل هو الذي يحمل العرش بقدرته، وهو الغني عن العرش وعن غيره.

والدليل الذي يجب أن يُصار إليه هو: إما قول الله أو قول رسوله؛ لأن هذا غيبٌ، أنت لم تُشاهد ذلك، وليس عندك شيءٌ تقيسُه عليه، وإنما قِسْت ذلك على

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب البيوع، باب بيع الشريك من شريكه (٣/ ٧٩) برقم (٢٢١٣)، واللفظ له، ومسلم في صحيحه، في كتاب المساقاة، باب الشفعة (٣/ ١٢٢٩) برقم (١٦٠٨)، من حديث جابر بن عبد الله ﷺ.

نفسك؛ لأنك إذا كُنت في السطح ثم نزلت عن السطح يكون السطح فوقك؛ وتكون مُحتاجًا إليه، فهذا قياسٌ فاسدٌ بل هو ضلالٌ بيِّنٌ. فمثل هذا نقول: هذا تأويلٌ باطلٌ، لا يجوز أن يُصارَ إليه، وهكذا يُقال في جميع الصفات التي تأوَّلها المُتكلمون.

قوله: «أَنَّ التَّأْوِيلَ هُوَ صَرْفُ اللَّفْظِ عَنْ الِاحْتِمَالِ الرَّاجِحِ إِلَى الِاحْتِمَالِ الْمَرْجُوحِ». صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى لا يدل عليه ظاهر الكلام إلا بدليل؛ هذا فيه إجمال ويلزمه تفصيل؛ فإن كان الدليل شرعيًّا، فالظاهر أن الذي يقوله فيه نزاع قد يكون ظاهرًا عند من يقول هذا، وقد لا يكون ظاهرًا عنده، ولكن لا يمكن أن يخبرنا الله ﷻ بشيء ظاهرُه باطِلٌ يجب أن يُأوَّل عنه. ثم الدليل لا يكون مخالِفًا لظاهر القرآن؛ لأنَّ القرآن هو كلام الله فلا يَتناقض، ومثل ذلك كلام رسوله ﷺ.

ونقول: إن هذا الاصطلاحُ حادِثٌ ما عَرَفَه السلف، والمبتدعة يحكِّمون العقل في صفات الله، والعقل لا ضابط له، فكلٌ يَدَّعي العقل ويقول: «الرحمة هي الإحسان أو إرادة الإحسان، بدليل أن رحمة المخلوق هي ميلٌ إلى المرحوم ورقَّة في قلبه، فلا يجوز أن نَصِف الله ﷻ به»، وهذا الذي يقوله لم يقل به أحدٌ من السلف، وهو تأويل باطل.

ثم هذا فيه محاذير:

أولًا: فيه تشبيهٌ للخالق بالمخلوق.

ثانيًا: صرف اللفظ عن ظاهره، وظاهره أن رحمة الله ﷻ تليق بعظمته وجلاله، وليست كرحمة المخلوق التي جعلوها أصلًا.

ثالثًا: فيه صرفٌ للفظ عما أراده الله تعالى، وهذا هو الذي اعتمده المتأخرون.

وهذا لا يوجد إلا نادرًا، ومثَّلوا له بقوله ﷺ: «**الجار أحق بِصَقَبه**»[(١)]، فقالوا: هذا الحديث ظاهره يدل على أن للجار الشفعة، ولكن لما جاء الحديث الآخر: «**إذا وقعت الحدود، وصرفت الطرق؛ فلا شفعة**»، فتبين أن الحديث الأول يقصد به الشريك. لكن هذا المثال لا يخالف ظاهر اللفظ، فمقصود المبتدع أن يكون ذلك في صفات الله ﷻ.

---

(١) تقدم تخريجه.

وقد يستعمل في نصوص المعاني كما يستعمله الفلاسفة الذين نفوا المعاد والجنة والنار، وقالوا: إن الكون سيبقى أبدًا، فيستعملون هذه الطريقة، ولما رد عليهم الأشاعرة قالوا لهم: أنتم تأوّلون نصوص الصفات، وهي أكثر وأوسع وأبلغ، وتعيبون علينا أن نتأول نصوص المعاد! وكلهم وقعوا في الباطل.

قوله: «**وَهَلْ ذَلِك مَحْمُودٌ أَوْ مَذْمُومٌ وَحَقٌّ أَوْ بَاطِلٌ؟!**». بل هو باطل ليس حقًّا؛ لا في صفات الله ولا في دينه وشرعه؛ لأنه ليس عليه دليلٌ، بل إنما هو اصطلاحٌ اصطلحوه، ولهذا قال: «**هُوَ اصْطِلَاحُ كَثِيرٍ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ والْمُتَكَلِّمِينَ**»، أما المُتقدِّمون فالتأويل عندهم هو التفسير، كما يقول ابن جرير: (القول في تأويل الآية: كذا وكذا) يعني: تفسيره.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«الثَّانِي: أَنَّ التَّأْوِيلَ بِمَعْنَى التَّفْسِيرِ، وَهَذَا هُوَ الْغَالِبُ عَلَى اصْطِلَاحِ الْمُفَسِّرِينَ لِلْقُرْآنِ كَمَا يَقُولُ ابْنُ جَرِيرٍ وَأَمْثَالُهُ - مِنَ الْمُصَنِّفِينَ فِي التَّفْسِيرِ - وَاخْتَلَفَ عُلَمَاءُ التَّأْوِيلِ وَمُجَاهِدٌ إِمَامُ الْمُفَسِّرِينَ؛ قَالَ الثَّوْرِيُّ: «إِذَا جَاءَكَ التَّفْسِيرُ عَنْ مُجَاهِدٍ فَحَسْبُكَ بِهِ»، وَعَلَى تَفْسِيرِهِ يَعْتَمِدُ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ بن حنبل وَالْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُمَا فَإِذَا ذَكَرَ أَنَّهُ يَعْلَمُ تَأْوِيلَ الْمُتَشَابِهِ، فَالْمُرَادُ بِهِ مَعْرِفَةُ تَفْسِيرِهِ».

الشرح

قوله: «الثَّانِي: أَنَّ التَّأْوِيلَ بِمَعْنَى التَّفْسِيرِ...»، يعني: أنه جاء ذكره في القرآن وفي كلام الصحابة والسلف، فهذا يعتمد، ولكن معناه: إيضاح الشيء وبيانه؛ لأنَّ التفسير من فسر الشيء؛ أي: بيانه وإيضاحه لمن لا يفهم ذلك، وهذا لا محظور فيه إذ هو بيِّنٌ وواضِحٌ.

وهذا «التفسير» دلَّ عليه كتاب الله ﷻ كما في قصة موسى مع الخضر: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ [الكهف: ٧٨]، ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ﴾ [الكهف: ٢٨] إلى آخره، يعني: هذا تفسيره، تفسيره ذلك. أما قول ابن جرير رحمه الله؛ فهو جارٍ على اللغة وعلى ما دلَّ عليه كتاب الله؛ وهذا يقوله في كل آية: (القول في تأويل قول الله ﷻ كذا وكذا)، ثم يذكر أقوال المفسرين.

قوله: «إِذَا جَاءَكَ التَّفْسِيرُ عَنْ مُجَاهِدٍ فَحَسْبُكَ بِهِ»، يعني: أنه تفسيرُ ابن عباس؛ هذا المقصود بـ«حسبك به»؛ لأنه أخذه عن ابن عباس كما قَالَ: **«عَرَضْتُ الْمُصْحَفَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ أُوقِفُهُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ وَأَسْأَلُهُ عَنْ تَفْسِيرِهَا وفيما نزلت»**، يعني: أسباب النزول أيضًا، فهو اعتنى بهذا الشيء.

قوله: «... فَإِذَا ذَكَرَ أَنَّهُ يَعْلَمُ تَأْوِيلَ الْمُتَشَابِهِ فَالْمُرَادُ بِهِ مَعْرِفَةُ تَفْسِيرِهِ»، يعني: في قول ابن عباس رضي الله عنهما: **«أنا من الراسخين في العلم»**، يعني: من الراسخين الَّذِينَ يعلمون تأويله، وكذلك قول مجاهد رحمه الله تابعٌ لابن عباس رضي الله عنهما في هذا.

قوله: «يَعْلَمُ تَأْوِيلَ الْمُتَشَابِهِ» والمقصود: تشابه نسبيٌّ؛ لأنه تشابه على بعض الناس، وعند بعض الناس هو واضِحٌ؛ فأهل العلم يعرفونه لا يشتبه عليهم ولا يلتبس؛ فهذا هو المشهور عن السلف أن التأويل: التفسير؛ وكذلك المعنى الثالث كما سيأتي فإنه واضحٌ من كلام الله ﷻ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«الثَّالِثُ مِنْ مَعَانِي التَّأْوِيلِ: هُوَ الْحَقِيقَةُ الَّتِي يُؤَوَّلُ إِلَيْهَا الْكَلَامُ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣]».

«فَتَأْوِيلُ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ أَخْبَارِ الْمُعَادِ هُوَ مَا أَخْبَرَ اللهُ تعالى بِهِ فِيهِ، مِمَّا يَكُونُ: مِنْ الْقِيَامَةِ وَالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي قِصَّةِ يُوسُفَ لَمَّا سَجَدَ أَبَوَاهُ وَإِخْوَتُهُ قَالَ: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ١٠٠]، فَجَعَلَ عَيْنَ مَا وُجِدَ فِي الْخَارِجِ هُوَ تَأْوِيلَ الرُّؤْيَا».

الشرح

هذا الخطاب ظاهر جدًّا في أنَّه المقصود به الحقائق؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأعراف: ٣٦]، إلى أن قال: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الأعراف: ٥٢]، إلى آخر الآية، فهم عندما يشاهدون ما أُخبروا عنه قالوا: «هذا تأويل ما جاءت به الرُسل وأخبرتنا عنه»؛ فهذا حقيقته؛ فلهذا يقولون: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣]، يعني: نُرد إلى الدنيا مرةً أُخرى فنؤمن به ونتبع الرُسل، وهيهات؛ فهذا كثير في كتاب الله ﷻ.

وأكثر ما يأتي في كتاب الله يُقصد به هذا المعنى في لفظ «التأويل».

يقول بعض العلماء: إن فيه قسمًا رابعًا لمعنى التأويل؛ وهو ما ذُكر في حديث عائشة الذي في «صحيح مسلم»: «إن النبي ﷺ بعد ما نزل عليه قوله ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾﴾ [النصر: ١] كان يقول في ركوعه وسجوده: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ، رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ**»[1]، وقول عائشة رضي الله عنها: «يتأول

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الأذان، باب التسبيح والدعاء في السجود (١/ ١٦٣) برقم (٨١٧)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود (١/ ٣٥٠) برقم (٤٨٤)، من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

القرآن» أي: قوله ﷻ: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾ [النصر: ١ ـ ٣]، فبعض العلماء يقول: هذا التأويل هو العمل الذي يتعلق به، فامتثل ذلك وصار يقول: «**سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي**»، وهذا امتثالٌ لقول الله ﷻ، ويكون هذا أيضًا تفسيرًا لها.

«**يتأوَّل القرآن**» يعني: يعمل به، فيكون على هذا من معاني التأويل: العمل؛ وهذا يدخل فيه القسم الثالث، غير أن القسم الثالث قد يختلف فيُقصد به حقيقة الشيء، ومجيئه. وهذا حقيقة الأمر؛ فإنَّ حقيقة الأمر أن يُمتثل ويُعمل به؛ فهو يكون من القسم الثالث.

قوله: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ١٠٠]، لما سجد له أبواه وإخوته؛ لأنه رأى أنَّ الشمس والقمر وأحد عشر كوكبًا تسجد له، فصار الشمس عبارة عن أمه والقمر عبارة عن أبيه والكواكب عبارة عن إخوته؛ لما ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾، وكان هذا جائزا في شرعِهم. قَالَ: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠]، يعني: هذا حقيقتها.

المقصود: أنَّ قوله: «**هُوَ الْحَقِيقَةُ الَّتِي يُؤَوَّلُ إِلَيْهَا الْكَلَامُ...**»، يعني: يكون الكلام واقعًا مشاهَدًا، فآل الكلام إلى الفعل في الواقع، وهذا هو أكثر ما جاء في القرآن.

وقد يأتي بمعنى «التفسير» كما في قصة الخضر مع موسى ﷺ لما ذكر له ذلك قال: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ۝٧٨﴾ [الكهف: ٧٨].

قوله: «**جَعَلَ عَيْنَ مَا وُجِدَ فِي الْخَارِجِ هُوَ تَأْوِيلَ الرُّؤْيَا**»، يعني: الذي وقع مُشاهدًا، وهو السجود له، فالخارج معناه خارج النفس، مما يُشاهد ويُرى ويُحس، بخلاف الشيء الذي يكون في القلب وفي الذهن؛ فإن هذا في داخل النفس، وداخل الذهن والقلب.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فالتأويل الثَّانِي: هُوَ تَفْسِيرُ الْكَلَامِ، وَهُوَ الْكَلَامُ الَّذِي يُفَسَّرُ بِهِ اللَّفْظُ حَتَّى يُفْهَمَ مَعْنَاهُ أَوْ تُعْرَفَ عِلَّتُهُ أَوْ دَلِيلُهُ.

وَهَذَا التَّأْوِيلُ الثَّالِثُ: هُوَ عَيْنُ مَا هُوَ مَوْجُودٌ فِي الْخَارِجِ وَمِنْهُ قَوْلُ عَائِشَةَ ﵂: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ» تعني: قَوْلَهُ تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: ٣]»، وَقَوْلُ سُفْيَانَ بْنِ عيينة: السُّنَّةُ هِيَ تَأْوِيلُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ».

الشَّرح

يعني: أنَّ التَّأويل هنا إما العمل بالشيء، وإما وجود الشيء نفسه حقيقته، فمثلًا إذا قلت لإنسان: «الرغيف»، فقد لا يفهم ما هو الرغيف؛ فتأخذ مثلًا خبزةً وتقول: «هذا الرغيف»، فيكون هذا تأويله وهذا حقيقته، هذا تأويل الشيء، ومثل ذلك «القميص»؛ قد لا يفهم ما هو القميص، ثم تأخذه وتقول: «هذا القميص»؛ فهذا يكون هو التأويل، تأويله مع حقيقته؛ ولهذا قالت عائشة ﵂ هذا القول: «**كان يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ استغفرك وأتوب إليك**»، هذا تأويل قول الله ﷻ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾ [النصر٣: ١]، فكان يقول: «**سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك**»[1]؛ فصار العمل في قوله تأويلًا.

قوله: «**يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ**»، يعني: يعمل به؛ لأن الله قال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: ٣]، كان يَقُول: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أستغفرك وأتوب إليك**»، يعني امتثالُ أمر الله، فهو تفسيرٌ وعملٌ؛ تفسيرٌ له وعملٌ به. فهذا سمَّته عائشة ﵂ تأويلًا؛ أي: يعمل به.

قوله: «**السُّنَّةُ هِيَ تَأْوِيلُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ**»، يعني: «تفسير الأمر والنهي»؛ أي: أن

---

(١) تقدم تخريجه.

السُّنة تُفسِّر القُرْآن مثل ما مرَّ أن الله أمر بالصلاة وأمر بالزكاة، فالقُرْآن ليس فيه أنصبة للزكاة، ففيه أمر بالزكاة فقط؛ والسُّنة بيَّنت أن الزكاة فِي أربعة أمور: الخارج من الأرض، وفي النقدين، وفي التجارة، وفي الماشية ـ بهيمة الأنعام ـ، وكذلك الصلاة.

وهذا معنى: «أن السُّنة تُفسر القُرْآن»؛ أي: أنها تبيّنه وتوضّحه كما في الصلوات والزكاة؛ فإنَّ الصلاة جاء في القرآن الأمرُ بإقامتها فقط، ولم يأتِ تفاصيلها: من عدد الركعات، والوقت، وغير ذلك، فجاءت السُّنَّة تبيِّن ذلك وتوضحه؛ وكذلك الزكاة: أنصبة الزكاة، وأيضًا نصَّ على الأموال التي تزكّى، جاء ذلك مفسرًا في السُّنَّة.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَإِنَّ نَفْسَ الْفِعْلِ الْمَأْمُورِ بِهِ: هُوَ تَأْوِيلُ الْأَمْرِ بِهِ، وَنَفْسَ الْمَوْجُودِ الْمُخْبَرِ عَنْهُ هُوَ تَأْوِيلُ الْخَبَرِ، وَالْكَلَامُ خَبَرٌ وَأَمْرٌ، وَلِهَذَا يَقُولُ أَبُو عُبَيْدٍ وَغَيْرُهُ: الْفُقَهَاءُ أَعْلَمُ بِالتَّأْوِيلِ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ، كَمَا ذَكَرُوا ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ اشْتِمَالِ الصَّمَّاءِ؛ لِأَنَّ الْفُقَهَاءَ يَعْلَمُونَ نفس مَا أَمَرَ بِهِ وَنفس ما نُهَى عَنْهُ؛ لِعِلْمِهِمْ بِمَقَاصِدِ الرَّسُولِ ﷺ كَمَا يَعْلَمُ أَتْبَاعُ أبو قراط وَسِيبَوَيْهِ وَنَحْوِهِمَا مِنْ مَقَاصِدِهِمَا مَا لَا يُعْلَمُ بِمُجَرَّدِ اللُّغَةِ».

الشرح

قوله: «والكَلَامُ خَبَرٌ وَأَمرٌ»، يعني: مجمل الكلام خبرٌ وأمرٌ؛ فالكلام الذي خوطبنا به:

- إما أن يكون خبرًا عن الماضي، مثل ما أخبرنا ﷺ عن خلق السماوات والأرض، وعن خلق آدم وسجود الملائكة، ثم الأمم السابقة التي سبقتنا، كقوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، وإبراهيم، وغيرهم؛ لولا هذا الخبر لم يكن عندنا بها علم، فهو يُخبر عن الشيء الذي يُتصور ويُعلم في الجُملة.

- أو خبرٌ عن المُستقبل، كالإخبارات التي يُخبر بها قبل وجودها، ثم توجد كما أخبر، من علامة الساعة، وكذلك ما يكون في القبر من الخطاب والعذاب والنعيم، وما يكون بعد البعث من القبر؛ ومنها كون الناس منهم من يمشي على رأسه، ومنهم من يكون أعمى يُحشرُ أعمى، ومنهم من يمشي على رجليه؛ ثم يُجمعون في مكانٍ واحد وقوفًا لرب العالمين، وتكون الشمس فوقهم، ثم إن منهم من يشتدُّ كربه ويُلجمه العرق، ومنهم من يكون دون ذلك، ومنهم من لا يكون عليه خوفٌ ولا حزن، كل ذلك سيقع كما أخبر الله ﷻ به. ثم بعد هذا الإتيان بجهنم تُحيطُ بهم من جميع الجهات، ثم ينصب الصراط من فوقها، الذي يعبر عليه الناس، فهي أمورٌ إخبارات عن مستقبل سيأتي وسيقع، وإذا وقع صار ذلك الوقوع هو تأويلها.

أما الأمر فهو مثل قوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦]، ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [النساء: ٧٧]، ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الأنعام: ١٥٢]،

وما أشبه ذلك من الأوامر التي يأمرنا بها، فهو يأمرنا بشيءٍ نعقله ونعرفه ثم نستطيع أن نعمل به أو نتركه؛ فإذا عملنا به استحققنا الثواب، وإذا تركناه بعد العلم فإنه يكون موجبًا للعذاب في الدُنيا والآخرة، وكما يعلم علماء الحديث مرادَ النبي ﷺ بألفاظه التي يتكلّم بها أكثر من غيرهم.

قوله: «**وَلِهذا يقولُ أبُو عُبيدٍ وغيرُهُ**». أَبُو عُبَيْدٍ من أئمة اللغة، وله كتاب عظيم في غريب الحديث، كان الإمَام أحمد يحرص على أن يأتي به يسمعه منه؛ وطُبع أخيرًا طبعةً يقول صاحبها: «إنها مُحققة» والله أعلم؛ أما الطبعة الأولى فهي غير مُرتبة والعثور على معنى منها فيه صعوبة.

قوله: «**الْفُقَهَاءُ أَعْلَمُ بِالتَّأْوِيلِ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ**»، يعني بـ«التأويل»: معرفة معاني كلام الله وكلام رسوله؛ لأن أهل اللغة يعرفون لغة العرب، ويعرفون غرائبها وغير الغرائب؛ أما الفقهاء فإنهم يعتنون بخطاب الله وبخطاب الرسول، فصاروا بعنايتهم بذلك أفهم من أهل اللغة بخطاب الله، وليس هذا عامًّا في كل شيء، فأهل اللغة في اللغة أعلم من الفقهاء بها، ولكن الفقهاء في معاني كتاب الله ومعاني كلام رسوله أعلم من أهل اللغة.

قوله: «**كَمَا ذَكَرُوا ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ اشْتِمَالِ الصَّمَّاءِ..**» «**اشْتِمَالِ الصَّمَّاءِ**»[(١)]، جاء في السُنة عن النهي عن اشتمال الصَّمَّاء، وهو أن يجلس الإنسان وينصب رجليه ثم يجعل كساءه مُحيطًا به؛ فهذا تفسير الفقهاء، أما اللغة فأعمُّ من هذا، يقول: حتى تمسك يداه برجليه المنصوبتين، فيكون هذا داخلا في اشتمال الصماء.

المقصود: أن الفقهاء يعتنون بالمعنى الذي أراده الشارع؛ فلهذا صاروا أعلم بالقرآن وبالسُّنة من أهل اللغة؛ لأن الرسول ﷺ قد يستعمل اللغة في غير ما يتعارف عليه أهلُها من الأمور الَّتِي تأتي بها.

مثل ما جاء مثلًا «النفاق»، وهي معروفة في اللغة؛ لما جاء به الرسول ﷺ حيث بيَّن أن الناس منهم المُنافق. وإن كانوا يقولون: لها أصلٌ في اللغة[(٢)] مأخوذةٌ

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ٩٨)، ولسان العرب (١٠/ ٣٥٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب الصلاة، باب ما يستر من العورة (١/ ٨٢)، برقم (٣٦٧)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ومسلم في صحيحه، في كتاب اللباس والزينة، باب في منع الاستلقاء على الظهر ووضع إحدى الرجلين على الأخرى (٣/ ١٦٦١) برقم (٢٠٩٩)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

من عمل اليربوع النَّافِقَاءِ الَّتِي هي المخرج لليربوع؛ لأن اليربوع يحفر بيته فيسد فم البيت الذي يحفر معه؛ ولكن النُفقاء هو الذي يأتي إلى نهاية البيت يرققه ويجعل قشرة الأرض فقط بحيث إنه إذا دخل عليه داخلٌ من الباب ضرب قشرة الأرض برأسه فانفتحت وخرج، فهي في الواقع غير معروفة خفيَّة ما تُعرف لما يُسقط عليها.

فلما كان المنافق يُخفي عقيدته ويُظهر أمرا آخر؛ قالوا: «النِفاق أُخذ من هذا المعنى؛ ولكن له معاني جاء بها الرسول ﷺ لا تُعرف فمثلًا: «الدعاء» أو «الصلاة».

فالصلاة في اللغة هي الدعاء: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، يعني: ادعُ لهم. ولكن الصلاة الَّتِي جاءت في الشرع الَّتِي تُفتتح بالتكبير وتُختتم بالتسليم؛ هذه ما كانوا يعرفونها في اللغة، وإنما جاء بها الرسول ﷺ وهلم جرا؛

فإذًا: الفقهاء أعلمُ من أهلِ اللُّغة بما قاله الله وقاله رسوله لاعتنائهم بهذه المعاني؛ هذا معنى كلام أبي عُبيد.

من اعتنى بشيء عرفه أكثر من غيره؛ فأهل اللغة يعتنون باللغة وجمعها، فيعرفونها أكثر من غيرهم، وإن كانت اللغة أصلها سليقة، إذا وُلد العربي بين أهله لا يُمكن أن يلحن، فهو يتكلم بلغته التي تلقَّاها من أهله.

يقول الأصمعي: ذهبت إلى البادية فرأيتُ طفلةً مُمسكة قِربةً وقد أعيتها، فنادت: يا أبتاه، غلبني فُوها؛ يا أبتاه أدرِك فاها، يا أبتاه لا طاقة لي بِفيها(١).

ولكن الخطابات التي يأتي بها الشارع، فالذين يعتنون بها هم الفُقَهَاء وشُرَّاح الحديث؛ فيكونون أعلم بها؛ لأنهم يعتنون بما يُريده الرسول ﷺ ويُريده الله ﷻ.

المقصود: أنَّ **قوله**: «**اشتمال الصَّمَّاء**» أهل اللغة فسّروه بتفسير، والفقهاء فسّروه بتفسيرٍ آخر؛ فأهلُ اللغة يقولون: «**اشتمالُ الصَّمَّاء**»: أن يشتمل الإنسان على كساءٍ ويدخل يديه، ولا يكون لهما مخرج، فكأنه محصورٌ في هذا الكساء؛ بحيث لو أتاه شيءٌ من الهوام والدواب ما يستطيع دفعه ويخرجه؛ لأنه ليس ليديه مخرج. وأما الفقهاء فيقولون: ليس هذا «**اشتمال الصَّمَّاء**» الذي أراده الرسول، بل «**اشتمال الصَّمَّاء**»: أن يشتمل على الكساء الواحد ـ الرداء ـ ثم ينصب رجليه، وقد يخرج يديه، وإنما المقصود: أنه إذا نصب رجليه قد تخرج عورته، فنهى عن ذلك، فالفقهاء في هذا أقرب إلى مراد النبي ﷺ.

(١) ينظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٧/ ٨٣).

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «وَلَكِنَّ تَأْوِيلَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ لَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَتِهِ بِخِلَافِ تَأْوِيلِ الْخَبَرِ.

﴿ إِذَا عُرِفَ ذَلِكَ: فَتَأْوِيلُ مَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَى بِهِ عَنْ نَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ الْمُتَّصِفَةِ بِمَا لَهَا مِنْ حَقَائِقِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، هُوَ حَقِيقَةٌ لِنَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ الْمُتَّصِفَةِ بِمَا لَهَا مِنْ حَقَائِقِ الصِّفَاتِ، وَتَأْوِيلِ مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ تَعَالَى مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ».

الشَّرح

قوله: «وَلَكِنَّ تَأْوِيلَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ لَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَتِهِ بِخِلَافِ تَأْوِيلِ الْخَبَرِ». الأمر مثل قول الله: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وما أشبه ذلك من الأوامر، والنهي مثل قوله: ﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء: ٣٦]، ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ﴾ [الإسراء: ٣٢]، فهذا لا بُدَّ من معرفته؛ لأن المخاطب مكلَّفٌ بذلك، فهو ظاهرٌ لا يخفى على من يعرف اللغة، وقد تقدم كلام ابن عباس ﷺ، «أنه لا يُعذر أحد بجهله»؛ فإذا لم يعمل به؛ فإنه يعتبر مقصِّرًا وسيعاقب؛ لأن الأمرَ واضِحٌ ولا يحتاج إلى مزيد توضيح.

قوله: «إِذَا عُرِفَ ذَلِكَ: فَتَأْوِيلُ مَا أَخْبَرَ الله تَعَالَى بِهِ عَنْ نَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ»، يعني: ما أخبر عنه ﷻ بأنه له يدان، وله سمعٌ وبصر وله وجه، وأنه يقول ويتكلم وغير ذلك؛ فإخباراته عن هذا ظاهرها مفهومةٌ ومعلومةٌ في اللغة، وفي المعنى الذي قصد ﷻ. ولا يجوز تأويلها في الأمور التي تُبعد عن هذا المعنى.

فإذا أوَّلت فهذا لا يُسمى تأويلًا، وإنما يسمى تحريفًا، وإن سموه تأويلًا فالتسمية غيرُ صحيحة؛ فهو تحريف الكلام عن معانيه التي أرادها المُتكلم؛ وهكذا في جميع صفاته ـ تعالى وتقدس ـ فهو غنيٌ بذاته عن كل ما سواه؛ لا يحتاج إلى شيء من المخلوقات.

فحينما استوى على عرشه ليس معنى ذلك أنه بحاجة إلى الاستواء عليه؛ بل العرش هو المُحتاج إليه، وهو الفقير إلى الله، ولولا إقامة الله له لما قام؛ وهكذا كل

ما أخبر الله ﷻ عنه؛ فإنه ﷻ هو الغني الذي هو صفته اللازمة له، بخلاف المخلوق مهما كان، فالمخلوق يتفاوت:

- منه صغير مثل الإنسان وإن كان له عقل وله فكر، وله إرادة فهو صغير حقير فقير، إذا تخلى الله عنه تقاذفته المُهلكات والموبقات من جميع الجهات. أما إذا اتصل بربه ﷻ واعتمد عليه وتوكل عليه فالله يحميه ويُحيطه بما يحفظه ويمده بما يُبقيه، ويسعده.

- وهكذا ما هو أكبر منه مثل السماء والأرض، كما قال الله ﷻ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، فالسماوات تُشاهد، والأرض تُشاهد، وهما لم يخلقا نفسهما، ولم يُخلق شيءٌ مثلهما، وإنما خلقها قادرٌ عليمٌ غنيٌ لا يحتاج إلى شيء، فهو ﷻ الغني بذاته عن سواه.

- وكذلك العرش الذي هو أكبرُ المخلوقات؛ فإنه فقيرٌ إلى الله؛ وهو كان بعد أن لم يكن، كان عدمًا فأوجده الله ﷻ؛ وقبل وجوده فالله قائمٌ بنفسه، لا يحتاج إلى شيء، ولكنَّ إيجاده ثم استواءه عليه لحكمةٍ أرادها، منها ابتلاءُ الخلق: هل يؤمنون بأن الله هو الغني عن كل شيء! أو أنهم يشبهون الله بمخلوقاته الصغيرة الفقيرة؛ فيكونون مستحقين لعذابه.

وهكذا يُقال في كل ما خلقه الله؛ لأنه ليس هناك إلا خالقٌ أو مخلوق فقط، الموجودات لا تخلو عن هذا، والخالق هو الله وحده، أما المعبودات التي تُعبد من دونه فهي مخلوقةٌ صغيرةٌ حقيرة؛ والإنسان لأنه انتكس في عقله وفكره وفطرته، فأصبح يعبُد شيئًا مثله أو أحقر منه ودونه إما في القدرة، وإما في الخلق والإيجاد والغنى والفقر.

فكلُّ مخلوقٍ فقيرٌ إلى الله ﷻ، فقيرٌ فقرًا لإيجاده ثم بعد إيجاده يكون فقيرًا لإبقائه، ثم كذلك في مآله فقيرًا إلى ما يُسعده، وينفعه، وينعمه، ويدفع عنه الأذى والعذاب.

إن الإنسان لو فكر في نفسه لاهتدى إلى ما أمره الله ﷻ به، ومع هذا كونه جُعل له العقل وأُحيط بالمخلوقات التي تكون من تحت قدمه إلى العرش، وعن يمينه وشماله ومن جميع الجوانب، كُلها تدله على أنه مخلوقٌ فقيرٌ وأنَّ له خالقًا عظيما يستحقُّ العبادة وأن العبادة لا يجوز أن تكون لغيره؛ فإن وُضعت في غير الله فهو

الظُّلم؛ لأن الظُّلم هو وضع الشيء في غير موضعه، وأعظم الظُّلم: الشرك.

فكيف بعاقل حيٍّ يذهب إلى حجر يعبده ويطلب منه النفع، أو دفع الضر، أو إلى شجرة أو إلى قبر رميم في التُّراب يسأله أن ينفعه أو يدفع عنه الضر؟! كل ذلك من تسويل الشياطين وتزيينها.

فالمقصود أن الله ﷻ هو الخالق لكل شيء، وهو الغني عن كل شيء، وهو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء؛ فلا يجوز أن يشتبه بخلقه ـ تعالى وتقدس ـ، فمن التبست صفات الله عليه بصفات المخلوقين فهو ضالٌّ في عقله، وفي فكره، وفي دينه وعبادته، والضلال نهايته جهنم ـ نسأل الله العافية ـ.

المقصود أن قوله: «هُوَ حَقِيقَةٌ لِنَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ الْمُتَّصِفَةِ بِمَا لَهَا مِنْ حَقَائِقِ الصِّفَاتِ». هذا لا مطمع في معرفته، ولا يجوز على الإنسان إنه يبحث فيه أصلًا أو يفكر فيه؛ لأنه لن يصل إلى نتيجة، كما قال ﷻ: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: ٤٢].

فكِّر في المخلوقات وفي المعاني، أما إذا وصل التفكير إلى ربك ﷻ فيجب أن تنتهي وتقف؛ لأنه لا نظير له ـ تعالى وتقدس ـ لا مثل له، ولا أحدَ يحيط به، ولا أحدَ يطَّلع عليه اطلاع إحاطةٍ؛ فإن رُئي فالرُّؤية لوجهه الكريم ﷻ، يرونه ولا يحيطون به ـ تعالى وتقدس ـ.

فحقائق الصفات والأسماء هي ذاتُه ـ تعالى وتقدس ـ، فهو يخبر عن ذاته وعمَّا يريد ﷻ من عباده أن يعرفوه بذلك، أما المعاني؛ فالمعاني ظاهرة: فالسمع معناه معروف، والبصر معناه مُدرَك معروف، والعزة والقوة وغير ذلك من أسمائه فلها معانٍ عظيمة يُخاطب الله ﷻ بها عباده؛ يريد منهم أن يعرفوه بها.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَلِهَذَا مَا يَجِيءُ فِي الْحَدِيثِ نَعْمَلُ بِمُحْكَمِهِ وَنُؤْمِنُ بِمُتَشَابِهِهِ؛ لِأَنَّ مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنِ الْيَوْمِ الْآخِرِ فِيهِ أَلْفَاظٌ مُتَشَابِهَةٌ، تُشْبِهُ مَعَانِيهَا مَا نَعْلَمُهُ فِي الدُّنْيَا، كَمَا أَخْبَرَ أَنَّ فِي الْجَنَّةِ لَحْمًا وَلَبَنًا وَعَسَلًا وَخَمْرًا وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَهَذَا يُشْبِهُ مَا فِي الدُّنْيَا لَفْظًا وَمَعْنًى؛ وَلَكِنْ لَيْسَ هُوَ مِثْلَهُ وَلَا حَقِيقَتَه كحَقِيقته».

الشَّرح

هذا قد سبقَ في القاعدة السابقة وفي القاعدة التي بعدها في المثلين المضروبين في الروح والإخبار عمَّا في الجنة، وكذلك القاعدة التي بعدها، وهو واضح وجلي؛ والله ﷻ يقول لنا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١].

فيجب أن نفهم أنه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ﴾ [الشورى: ١١]، أي: لا يكون شيءٌ من الأشياء مثل الله ـ تعالى الله وتقدس ـ؛ لا في ذاته وحقيقته، ولا في أوصافه، ولا في فعله، ولا حتى في حقه الذي يوجبه؛ فحقُّه العبادة ولا يجوز أن تكون العبادة لمخلوق من المخلوقات؛ لأنها حق الله ﷻ وحده.

ولهذا من جعل العبادة لله ولغيره يكون مُشركًا؛ وهذا معنى الشِّرك؛ لأن الشرك أن تقع العبادة لله ولغيره، والمُشرك مأواه النار ـ نسأل الله العافية ـ، فكذلك المخلوقات ـ كما سبق ـ صغيرةٌ حقيرة مُحتاجةٌ فقيرة؛ فهي كانت عدمًا فأُوجدت من العدم، وما كان عدمًا فهو ناقصٌ، ثم الموجَد من العدم لا بُدَّ أن يلحقه العدم، يعني يجوز أن يلحقه العدم؛ لأنه كان عدمًا، أما الخالق ﷻ فلا يجوز عليه العدم؛ لأنه الأول والآخر والظاهر والباطن؛ فهو أولٌ بلا ابتداء ليس لله ابتداء ـ تعالى وتقدس ـ، وهو آخرٌ بلا انتهاء ـ تعالى وتقدس ـ.

فأما المخلوق فهو فقيرٌ إلى من يوجده، وفقيرٌ إلى من يجلب النفع له، وفقيرٌ إلى من يدفع الضُر عنه، وأخبار الرسول ﷺ تتفق مع كلام الله، فهي كذلك فيها شيءٌ يلتبس على بعض الناس، ولكن إذا أُرجع هذا المُلتبس وهذا المُشتبه إلى المُحكم الظاهر، زال الاشتباه وانتهى؛ ولكن هذا لا يكون إلا لمن يطلب الحق،

أما الذي يطلب الفتنة ويطلب الضلالة فإنه لن يهتدي إلا أن يهديه الله ﷻ.

قوله: «لِأَنَّ مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنِ الْيَوْمِ الْآخِرِ فِيهِ أَلْفَاظٌ مُتَشَابِهَةٌ».

ولولا هذا التشابه في الاسم والمعنى لما عرفنا ما خوطبنا به، ويقال هذا أيضًا في صفات الله ﷻ، فلو لم يكن عندنا شيء اسمه سمعٌ وبصرٌ ويدٌ ووجهٌ وما أشبه ذلك، لما أمكن أن نعرف قولَ الله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى: ١١]، وقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، وما أشبه ذلك مما أخبرنا الله ﷻ به، ولما كان هذا معلومًا لدينا، وقد خاطبنا بقوله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، فعلمنا أنَّ الله ﷻ يتفرَّد بما يخصُّه، وعلمنا الفرق بين ما في المخلوقات وما يقوم بالله ﷻ، وهذا أمرٌ واضِحٌ لا خفاء فيه.

أما هؤلاء الذين صاروا يتأوَّلون الكلام ويحرفونه عن مراد المتكلم؛ فهم تصوروا أن ما أخبر الله به نفسه إنما هو مثل ما في أنفسهم، ولهذا يقال: «إن هؤلاء جمعوا بين التشبيه والتعطيل»، فاستكنَّ التشبيه في أنفسهم ثم صاروا يحرفون الكلام؛ لئلا يكون هذا باطلًا على حدِّ زعمهم! وهو ليس بباطل، فإن الباطل هو تصورُهم، وكونهم ظنُّوا ظنَّ السوء بالله ﷻ وبصفاته. فالله ﷻ لا يشبه أحدًا من خلقه، ولا يمكن أن يكون أحدٌ من خلقه شبيهًا له، فهذا من المحال.

قوله: «كَمَا أَخْبَرَ أَنَّ فِي الْجَنَّةِ لَحْمًا وَلَبَنًا وَعَسَلًا وَخَمْرًا وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَهَذَا يُشْبِهُ مَا فِي الدُّنْيَا لَفْظًا وَمَعْنًى؛ وَلَكِنْ لَيْسَ هُوَ مِثْلَهُ وَلَا حَقِيقَتُه كحقيقته». ثم هذا مخلوقٌ، كلاهما مخلوقٌ، ومع ذلك فيه التفاوت العظيم، مثل ما يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس في الدُّنْيَا شيءٌ مِمَّا في الجنَّةِ إلَّا الأسماءَ»[1]، يعني: مجرد الأسماء: كونه عنبًا، وكونه لحمًا، وأزواجًا، وغير ذلك؛ لأن هذا له نظير في الدنيا، ولولا هذا النظير الذي في الدنيا لم نفهم ما خوطبنا به.

أما الحقائق وما دلَّت عليه من طعومٍ وألوانٍ وروائح ومنافع وغير ذلك، فلا؛ فطعام أهل الجنة ما له فضلات، يأكلون ويشربون وتكون فضلاتهم رشحًا في أبدانهم؛ ولهذا ما يبولون ولا يتغوطون؛ فهم على خلاف ما في الدنيا.

---

(١) تقدم تخريجه.

قوله: «وَهَذَا يُشْبِهُ مَا فِي الدُّنْيَا لَفْظًا وَمَعْنًى». يشبهه في الاسم فقط، يعني: يوافقه في الاسم، وفي المعنى البعيد الذي لا يتَّفق مع ذلك؛ ولهذا حتَّى الذي في الجنة لما ذكر الجنَّة ﷻ جعلها جنانًا، ذكر أن بعضها أعلى من بعض.

قال الله ﷻ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦]، وقال: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾ [الرحمن: ٤٨]، وذكر أن فيها ﴿عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾﴾ [الرحمن: ٥٠]، وذكر أنهم ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤]، إذا كان بطائن الفُرُش من استبرق، فكيف ظاهرها؟

ثم قال: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الرحمن: ٥٤]، ثُمَّ قال: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ [الرحمن: ٥٦]، وفي الآخر قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ [الرحمن: ٦٢]، قال: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾﴾ [الرحمن: ٦٤]، ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾﴾ [الرحمن: ٦٦]، النضخ غير الجري. وقال: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الرحمن: ٦٨]، وفي الآخرة يقول ﴿مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾ [الرحمن: ٥٢].

ثم قال في النساء: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الرحمن: ٧٠]، وفي الأولى يقول: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ [الرحمن: ٥٦]، وفي هذه يقول: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾ [الرحمن: ٧٢]، فرق بين هذه وهذه، فالاختلاف واضح جدًّا.

ولما ذكر الشراب ذكر أن بعضها ممزوجٌ لأهل اليمين، يُمزج مزجا، والمقرَّبون يأخذونه صرفًا خالصًا ليس فيه مزجٌ، ففرق بين المخلوقات نفسها لا يعلمها إلا الله.

والمقصود: أن هذا مخلوق وهذا مخلوق، ومع ذلك بينهما من التفاوت البعيد الذي لا تدرك حقائق أحدهما مع حقائق الآخر.

«وفيها ما لا عين رأته ولا أذن سمعت»(١)، يعني: شيء ما نعرفه، ما أخبرنا به، ولو أُخبرنا به ما نعرفه أصلًا، ولكن هذه التي أُخبرنا بها الماء والعسل واللبن.

هذا اللبن الذي عندنا يخرج من ضروعٍ ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾ [النحل: ٦٦]، أما هذه فأنهارٌ؛ فلبن الجنة نهر يجري، لا هو من حيوانات؛ وكذلك العسل الذي عندنا من النحل، وهناك أنهار من عسل مُصفًّى، والماء كذلك؛ ولهذا قال: ﴿مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ [محمد: ١٥]، والآسن هو المتغير الذي يطول مكثه.

---

(١) تقدم تخريجه.

والمقصود: أننا نعرف الماء، ونعرف العسل، ونعرف الخمر، ولكن الذي في الجنة على خلاف ذلك، فالتشابه في مُجرد الأسماء فقط، كما قال ابن عباس: «ليس عندكم ما في الجنة إلا الأسماء»؛ لذلك لولا أننا نعرف أن هناك لحمًا وعسلًا ولبانًا وخمرًا، لم نفهم ما خُوطبنا به.

هذا بالنسبة للمخلوق، فكيف الخالق مع المخلوق ـ تعالى الله وتقدس ـ؟ فهو أعلى وأعظم، أعظم بونًا وبعدًا من المشابهة، كما سبق في أول الكتاب أنه مثل بهذا.

فكيف إذا نُظر إلى أسماء الله ﷻ وصفاته مع أسماء المخلوقين وصفاتهم! فالبونُ أبعدُ، ولا يجوز أن يكون هناك مقارنة أصلًا؛ فما لله ﷻ يخصُّه ولا أحد يشاركه فيه؛ لا في الصفات والأسماء، ولا في الأفعال.

فلا يتصوَّر الإنسان أنه إذا أخبر الله ﷻ عن فعلٍ يفعله أن يكون كالفعل الذي يشاهده من الخلق، فمثلًا: ربُّنا ﷻ أخبرنا أنه يأتي يوم القيامة إلى الأرض، فإتيانه ليس كالإتيان الذي نعرفه، وأخبر الرسول ﷺ «**إنه ينزل إلى سماء الدنيا**»(١)، فنزوله إلى سماء الدنيا ليس كالنزول الذي نعهده، الإنسان إذا نزل من العلو يصبح ذلك العلو فوقه؛ وكذلك سائر ما يخبر به من الأفعال التي يفعلها؛ فهي تخصُّه؛ فهو يأتي يوم القيامة وهو فوق كل شيء وهو على عرشه ـ تعالى وتقدس ـ، ينزل وهو على عرشه ـ تعالى وتقدس ـ، ولا يكون شيءٌ فوقه أصلًا؛ لأن العلو ـ كما يقول أهل السُنَّة ـ من صفات الذات الملازمة لذاته، التي لا تنفكُّ عنه.

* * *

---

(١) تقدم تخريجه.

قال رحمه الله تعالى:

ﷺ «فَأَسْمَاءُ اللهِ تَعَالَى وَصِفَاتُهُ أَوْلَى وَإِنْ كَانَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَسْمَاءِ الْعِبَادِ وَصِفَاتِهِمْ تَشَابُهٌ، أَنْ لَا يَكُونَ لِأَجْلِهَا الْخَالِقُ مِثْلَ الْمَخْلُوقِ، وَلَا حَقِيقَتُهُ كَحَقِيقَتِهِ».

الشَّرح

قوله: «فَأَسْمَاءُ اللهِ تَعَالَى وَصِفَاتُهُ أَوْلَى...» بألَّا يكون بينها في حقائق المخبر عنها تشابُهٌ أو تقارُبٌ، فالله ﷻ لا يشبه خلقه، وصفاته لا تشبه صفاتهم وإن كان ﷻ أخبرنا بما ينطبق بالأسماء عندنا من السمع وغيره من إخباره؛ وكذلك سائر ما أخبرنا به كله؛ له أسماء مطابقة للأسماء التي تسمى بها، والصفات مطابقة للصفات التي اتّصف بها لفظًا وشيئًا من المعنى، ولكن المعنى بعيد جدًّا.

فكون الإنسان ـ مثلًا ـ يغضب ويرضى ويتكلم، والله يتصف بذلك؛ فالمفارقة والمباينة بينهما كمفارقة ومباينة الخالق للمخلوقين، فمباينة صفاته كمباينة صفات هؤلاء، فلا يكون في هذا اشتباه.

ولولا مطابقة الاسم والمعنى البعيد؛ لما فهم الخطاب؛ ولهذا الذين فهموا هذا قالوا في قول الرسول ﷺ: «**إن الله خلق آدم على صورته**»(١)، قالوا: إن هذا لا إشكال فيه، فهذا مثل قوله ﷻ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وليس أغرب من هذا؛ لأن هذه حقيقة ما يخبر بها عن نفسه، فهي تخصُّه والاشتباه بعيدٌ، والمشابهة البعيدة لا يضرُّ وجودها، بل هذه التي يلزم لها فهم الكلام.

وهذا معنى قول المؤلف: «أَنَّا نَعْلَمُ لما أُخْبِرْنَا بِهِ مِنْ وَجْهٍ دُونَ وَجْهٍ»؛ يعني: نعلم المعنى العام الذي خوطبنا به، أما حقيقته فلا نعلمها، وأمرها إلى الله ﷻ.

الله ﷻ أخبرنا أن له يدين، وله عينًا، وله وجهًا، وله قدمين، وهذا شيءٌ نعرفه

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب العتق، باب إذا ضرب العبد فليجتنب الوجه (٣/١٥١) برقم (٢٥٥٩)، ومسلم في صحيحه، في كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن ضرب الوجه (٤/٢٠١٧) برقم (٢٦١٢)، واللفظ له، من حديث أبي هريرة ﵁.

من أنفسنا، ولكنه قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، فيجب أن نطبقه على الصفات كما نطبقه على ذات الله تعالى؛ لأن الصفة تتبع الذات، تتبع الموصوف. فيجب إذا كان الموصوف لا يُشبه شيئًا أن تكون صفته كذلك لا تُشبه صفات المخلوقين، هذا هو القياس، وهو الحق الذي وافق فيه العقل النقل والفطرة. أما إذا التبس على الإنسان هذا الأمر وقال: «هذا فيه تشبيه» فمعنى ذلك أنه التبس عليه الحق بالباطل، فهو بحاجةٍ إلى هداية الله.

قوله: «**وإن كان بينها وبين أسماء العباد وصفاتهم تشابه...**». التَّشابُه من أيِّ وجهٍ؟ التَّشابه يكون بالاسم؛ أن هذا وافق هذا في الاسم، وبالمعنى البعيد الذي لا يجوز أن يكون فيه مقارنة أصلًا؛ لأن سمع الإنسان هو إدراك المسموعات، وكذلك الله ﷻ بسمعه يدرك المسموعات والأصوات، والحركات، وغيرها.

ولكن لا يجوز أن نقارن هذا بهذا؛ فسمع الإنسان ضعيفٌ يناسب ضعفَه وكونَه مخلوقًا؛ ولهذا قد يذهب سمعه، وقد يكون قاصرًا جدًّا، وقد يكون يدرك القريب دون البعيد. أما سمع الله ﷻ فهو كامل لا يفوته شيء، يسمع دبيب النمل في ظلمة الليل على الصفاء الأصم؛ وكذلك سائر صفاته.

قوله: «**تشابه**» هو التشابه في الاسم والمعنى البعيد؛ الذي لا يجوز أن يكون مقارنًا لما لله ﷻ فيه، ومن هنا نعرف قوله ﷺ: «**خلق الله آدم على صورته**»(١)، أن هذا تشابهٌ بعيدٌ جدًّا لا يجوز فيه مقارنة.

❊ ❊ ❊

(١) تقدم تخريجه.

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «وَالْإِخْبَارُ عَنِ الْغَائِبِ لَا يُفْهَمُ إِنْ لَمْ يُعَبَّرْ عَنْهُ بِالْأَسْمَاءِ الْمَعْلُومَةِ مَعَانِيهَا فِي الشَّاهِدِ، وَيُعْلَمُ بِهَا مَا فِي الْغَائِبِ بِوَاسِطَةِ الْعِلْمِ بِمَا فِي الشَّاهِدِ؛ مَعَ الْعِلْمِ بِالْفَارِقِ الْمُمَيِّزِ، وَأَنَّ مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ مِنَ الْغَيْبِ أَعْظَمُ مِمَّا يُعْلَمُ فِي الشَّاهِدِ».

الشرح

مقصوده بهذا: أنَّ الأمور التي نُخبَر عنها هي غائبة لا نُشاهدها، لكن لا بدَّ أن يكون عندنا شيءٌ نعرفهُ مما في الخبر الغائب، فمثلًا: إذا قال ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧]، لولا أن عندنا شيءٌ اسمه يد يُقبض بها ويطوى بها الشيء ما فهمنا هذا الخطاب. وإذا أضفنا هذا إلى قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، زال كلُ باطلٍ أو اشتباهٍ قد يلقيه الشيطان في نفوس الناس.

وكذلك لو لم يكن عندنا شيء اسمه سمع، وشيءٌ اسمه بصر؛ فيقول لنا ﷻ: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]، لم نفهم هذا الشيء؛ فلا بُدَّ من تعريفنا لهذا الشيء؛ فعرفناه بواسطة ما عندنا؛ مع الفارق العظيم الذي لا يمكن أن يكون بينهما نسبة، فالله ﷻ أوصافهُ تخُصُّه، والمخلوق أوصافه تخُصه.

فالله لا يُشارك المخلوق في سمعه وبصره، كما أن المخلوق لا يُشارك الرب في سمعه وبصره؛ وهذا لو فهمه المتكلمون لسلموا من التحريف، ومن التأويلات، واللجوء إلى الباطل، ولكنهم لم يفهموا إلا ما فهموا من أنفسهم، فزعموا أن إخبارات الله ﷻ ورسوله عن رب العالمين أنها فيها تشبيهًا.

ولهذا يُسمون أهل السُّنة الذين يتبعون الكتاب والسُّنة: «مُشبِّهةً»، وقد يرمزون إليهم بالأنباز والألقاب التي تدلُّ على الاحتقار مثل: «الحشوية»، و«النابتة» وما أشبه ذلك؛ لأن الحشو يكون شيئًا زائدًا ينبغي أن يُزال، وكذلك النابت، النابت في الزرع مثلًا يكون مُضرًّا لا فائدة فيه.

فهم يلقبون أهل السنة بمثل هذه الأشياء، وهم في الواقع إذا نظر إليهم العاقل بالنسبة إلى ما هم فيه؛ فإنه يرحمهم؛ لأنهم ضلوا وأرادوا الحقَّ فأخطأوه، وإذا نظر إليهم في عملهم وفي نهجهم وما يقولونه ويدعون إليه؛ فإنه يراهم قد ابتعدوا عن الحق.

قوله: «**الشَّاهِد**»: هو الحاضر لنا؛ الذي ندركه ونشاهده ونعيشه.

قوله: «**والغائب**» **المقصود به**: ما أخبر الله ﷻ به، سواء أخبر به عن نفسه المقدسة ـ تعالى وتقدَّس ـ، أو أخبر به عن وعده ووعيده الذي سوف يأتي، أو أخبر به عن الأمور الماضية التي لا ندركها ولا نعلمها.

قوله: «**وَالْإِخْبَارُ عَنْ الْغَائِبِ لَا يُفْهَمُ إنْ لَمْ يُعَبَّرْ عَنْهُ بِالْأَسْمَاءِ الْمَعْلُومَةِ مَعَانِيهَا فِي الشَّاهِدِ**». مثلما مثَّلنا في السمع والبصر واليد، وغير ذلك، ولو لم يكن عندنا من هذا الشيء، لم نفهم الخطاب.

فإذا قال الله ﷻ: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]، ونحو ذلك ولكن لما ذكر هذه الأشياء قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، قال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥]، بيَّن أن هذه تخصُّه، والمخلوق لا يشاركه فيها، فما لله فهو يتفرد به؛ ولهذا قال الله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤]. وقال في حق المخلوق: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾ [المسد: ١]، فهذه تتعلق بالمخلوق ووصفه وحكمه وما يؤول إليه، وإن كان الكلام كله كلام الله ﷻ، ولكنه بحسب تعلقه يختلف ويتفاضل.

المقصود أن قوله: «**والإخبار عن الغائب لا يفهم إن لم يعبر عنه بالأسماء المعلومة معانيها في الشاهد**»، فلا بُدَّ من هذه المعرفة، فإذا أُخبرنا بشيء لا نعرفه فإنه لا يمكننا أن نفهمه؛ والرسول ﷺ قد استعمل هذه الأمور مما يخبر الناس عن أمور غائبة، ولم تكن موجودة ولا يعرفونها.

عن النُّواس بن سمعان ﵁، قال: ذكر رسول الله ﷺ الدَّجَّال ذات غداة، فخفض فيه ورفع، حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا، فقال: «**ما شأنكم؟**» قلنا: يا رسول الله ذكرت الدجال غداة، فخفضت فيه ورفعت، حتى ظنناه في طائفة النخل، فقال: «**غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي عَلَيْكُمْ، إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا**

فِيكُمْ، فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ، فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ وَاللهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ، عَيْنُهُ طَافِئَةٌ، كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قَطَنٍ، فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ، فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ، إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةً بَيْنَ الشَّأْمِ وَالْعِرَاقِ، فَعَاثَ يَمِينًا وَعَاثَ شِمَالًا، يَا عِبَادَ اللهِ فَاثْبُتُوا» قلنا: يا رسول الله وما لبثه في الأرض؟ قال: «أَرْبَعُونَ يَوْمًا، يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ» قلنا: يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة، أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: «لَا، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ» قلنا: يا رسول الله وما إسراعه في الأرض؟ قال: «كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ..» ـ يعني: مثل السحاب إذا سار خلفه عاصفة ـ، وقال: «فَيَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ، فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ، وَالْأَرْضَ فَتُنْبِتُ، فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ، أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرًا، وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا، وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ، ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ، فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ، فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَيَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ، فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكِ، فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ..»(١).

وجاء في حديث آخر ـ وإن كان فيه ضعف ـ عن الدجال أنه: «يأتي على بغلة من حديد»، وهذا لم يكن معهودًا عندهم؛ ولهذا يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «حدِّثُوا النَّاسَ، بِما يَعرفونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ ورَسُولُهُ؟»(٢).

ففي الإخبار عن الأمور الغائبة لا بُدَّ أن يكون عندنا شيء مشاهد مقارب لذلك الشيء في الاسم والمعنى وإن كان بعيدًا، أما لو لم يكن شيء من ذلك لما عرفنا، ولما صدَّق الناس ذلك؛ لأنه على خلاف المعهود المتعارف بين الناس، والناس ينكرون الشيء الذي لا يعرفونه، أو لا يعرفون نظيره، فيقولون: هذا ممتنع.

* * *

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه (٤/ ٢٢٥٠) برقم (٢٩٣٧)، من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوما دون قوم، كراهية أن لا يفهموا (١/ ٢٧) برقم (١٢٧)، معلقًا عن علي رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى:

«وَفِي الْغَائِبِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ».

الشَّرح

قوله: «مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ»، يعني: فيها شيءٌ ليس له نظيرٌ عندنا ولا نعرفه أصلًا، ولا عرفه أحدٌ من الخلق.

قوله: «وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ»، يعني: في الأصوات التي تكون في الجنة تكون مُطربة، كما قال: ﴿فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۝١٥﴾ [الروم: ١٥]، يعني: يسمعون من الأصوات الجميلة التي لا تشبه شيئًا من أصوات الدنيا؛ وكذلك غيره من المأكولات والمتنعم فيها.

قوله: «وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»؛ لأن البشر ما يدرك هذا الشيء ولا يعرفه؛ فالشيء الذي ليس له نظيرٌ عندنا ما نعرف عنه شيئًا أصلًا.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَنَحْنُ إذَا أَخْبَرَنَا اللهُ بِالْغَيْبِ الَّذِي اخْتَصَّ بِهِ: مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، عَلِمْنَا مَعْنَى ذَلِكَ، وَفَهِمْنَا مَا أُرِيدَ مِنَّا فَهْمُهُ بِذَلِكَ الْخِطَابِ، وَفَسَّرْنَا ذَلِكَ، وَأَمَّا نَفْسُ الْحَقِيقَةِ الْمُخْبَرِ عَنْهَا، مِثْلَ الَّتِي لَمْ تَكُنْ بَعْدُ؛ وَإِنَّمَا تَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَذَلِكَ مِنَ التَّأْوِيلِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ».

الشَّرح

يعني هذا من تفسير لما سبق، من أنه لا بُدَّ لنا في الشيء الذي نُخبَر عنه من شيءٍ معلوم لدينا في الجُملة ومع الفارق الكبير العظيم، وهذا شيء وضَّحه الله ﷻ وبيَّنه، وبيَّن أن صفاته تخُصه، كما أنه لا يشاركه أحد في الخلق والإيجاد، فكذلك لا يُشاركه أحدٌ من المخلوقات التي خلقها وأوجدها في الأوصاف.

وإنْ صار هناك اشتراكٌ في الأسماء فإنه يتميز هذا الاشتراك ويتبين ويزول عند الإضافة والتخصيص، عندما نُضيف الاسم إلى الله يتبين أنه خاصٌ به، وإذا أضفناه إلى المخلوق تبين أنه خاصٌ به، وهذا مثل «الرؤوف الرحيم»، فالرؤوف يُطلق على الله ويُطلق على المخلوق، فإذا أضيف للمخلوق فهو يخُصه والله لا يُشاركُه فيه، وإذا أُطلق على الله فهو يخصُه والمخلوق لا يشاركه فيه.

و«**التأويل**»: هو حقائق الأشياء أو الأمور الغائبة التي لا نعرفها إلا إذا أدركناها. فتأويل ما في الجنة: كونُ الإنسان يدخل الجنة ويعايش هذا الشيء ويتنعَّم به؛ وكذلك النار، وكذلك يوم القيامة، والخروج من القبور، وما في القبر من سؤالٍ ونعيمٍ وفتنةٍ، وغير ذلك، فتأويلُه: أن يشاهده ويعايشه، ومجيء ذلك.

أما تأويل صفات الله ﷻ، فالتفسير معروف، يعني: معرفة المعاني مُدركة ومعروفة، أما حقائقها فلا أحدَ يعرفها، وهو التأويل الذي لا يعلمه إلا الله.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿«وَلِهَذَا لَمَّا سُئِلَ مَالِكٌ وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، قَالُوا: الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ، وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ، وَكَذَلِكَ قَالَ رَبِيعَةُ شَيْخُ مَالِكٍ قَبْلَهُ: الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ، وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ، وَمِنَ اللهِ الْبَيَانُ، وَعَلَى الرَّسُولِ الْبَلَاغُ، وَعَلَيْنَا الْإِيمَانُ؛ فَبَيَّنَ أَنَّ الِاسْتِوَاءَ مَعْلُومٌ وَأَنَّ كَيْفِيَّةَ ذَلِكَ مَجْهُولَة».

الشرح

قوله: «ولهذا»، يعني لما تقدم من الكيفية التي لا تُعلم للخلق. والكيفية ـ كما سبق ـ هي الحالة التي يكون عليها الموصوف، ومعرفة هذه الحالة يتطلب الوقوف عليها، من النظر والمُشاهدة، وإن لم تكن مشاهدةً فأن يكون له مثيلٌ يُقاس عليه كما هو في أمور الدُّنيا مع أمور الآخرة. وهذا في كلا الأمرين في حق الله ممتنع؛ لا أحد يشاهده حتى يصفه ويعرف كيفية صفاته ـ تعالى وتقدس ـ، وليس له نظير حتى يقاس عليه ـ تعالى الله وتقدس ـ.

وليس معنى ذلك أنه لا كيفية له؛ وإنما المنفي علم الخلق بها، وإلا فلكل صفة لله ﷻ حقيقة؛ لأن «الكيف» كما قلنا هي الحالة التي يكون عليها.

قوله: «الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ»، يعني: معلومٌ ـ معنًى ولفظًا ـ أنه الاستقرار على الشيء أو الارتفاع عليه والعلو عليه والصعود عليه؛ فهذا شيءٌ لا يُجهل في اللغة، ونعرف معناه في اللغة، وليس كما يقول المُبطل الجهمي: «معلومٌ وروده في اللغة»[(١)]؛ أو «المعلوم وروده في القُرآن»، فهذا عبث، وإنما معلومٌ معناه في اللغةِ وكذلك في خطاب المُخاطِب.

قوله: «وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ». الكيفية هي الحالة التي يكون عليه الموصوف، وهذه مجهولةٌ للخلق، وليس معنى مجهول: أنها لا حقيقة لها ولا وجود لها، وإنما مجهولٌ عِلمُ الخلق بها.

---

(١) ينظر: الأثر المشهور عن الإمام مالك، للشيخ عبد الرزاق البدر (ص٤٤).

قوله: «وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ». لأن الله وصف نفسه بذلك فأوجب علينا أن نؤمن به، والسؤال عن الكيفية بدعة؛ لأنه لا يمكن معرفتها.

فإذا سأل السائل؛ فإما أن يكون جاهلًا يحتاج إلى أن يُعلَّم، وإما أن يكون مُبتدعًا يحتاج إلى أن يُردع بالتأديب والزجر.

وكذلك يُقال في جميع الصفات؛ فإذا قيل: «كيف الوجه؟»، نقول: الوجه معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب. وهكذا في كل صفةٍ من صفات ربنا ﷻ، فجواب الإمام مالك جوابٌ سديدٌ رفيع المعنى، فيُقال لكل صفةٍ من الصفات.

قوله: «وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ»؛ لأنَّ السؤال عن شيء لا يُوصَل إليه لا يجوز، فهو بدعة والبدعة ضلالة.

قوله: «وَعَلَيْنَا الْإِيمَانُ»؛ أي: علينا القبول والتسليم؛ وإن لم نفعل فالعذاب من وراء ذلك.

قوله: «فَبَيَّنَ أَنَّ الِاسْتِوَاءَ مَعْلُومٌ». ولهذا فسروه بأنه العلو والارتفاع على الشيء، والاستقرار عليه، والصعود إليه، هذه أمور عامة، ولكن حقيقة الاستواء - أي: «الكيفية» - فهي مجهولة لنا لا نعرفها، كما قال مالك وشيخه ربيعة؛ لأن هذا يحتاج إلى المشاهدة، وإن لم تكن مشاهدة فلا بُدَّ من أن يكون عندنا مثيله ونظيره حتى نقيسَه عليه = وكلا الأمرين ممتنع، ولهذا قالوا: «مجهول».

وهكذا في سائر الصفات؛ فإذا قيل: كيف يسمع؟ كيف يبصر؟ كيف ينزل؟ نقول: هذا كلّه مجهول لنا، ولكن المعنى معلومٌ، وهذا يقال في جميع صفات الله ﷻ.

بعض أهل البِدَع يقول: «معلوم وروده في الكتاب والسُنَّة»، وهذا عبَثٌ، لا أحد يجهل أن الاستواء مذكورٌ في الكتاب والسُنَّة، ولكن المراد: معلوم المعنى؛ أما الحقيقة - التي هي الكيفية - فهذه لا مطمع في إدراكها وعلمها، وهو الذي يقول الإمام مالك وغيره: **«وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ»**، يعني: للخلق كلهم؛ وهكذا يقال في «السمع» و«البصر» و«الرحمة» و«الغضب» وسائر صفات الله ﷻ وأسمائه.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَمِثْلُ هَذَا يُوجَدُ كَثِيرًا فِي كَلَامِ السَّلَفِ، وَالْأَئِمَّةُ يَنْفُونَ عِلْمَ الْعِبَادِ بِكَيْفِيَّةِ صِفَاتِ اللهِ، وَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ كَيْفَ اللهُ إِلَّا اللهُ فَلَا يَعْلَمُ مَا هُوَ إِلَّا هُوَ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ: «لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْك أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْت عَلَى نَفْسِك»، وَهَذَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ.

وَقَالَ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُك بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَك، سَمَّيْت بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْته فِي كِتَابِك، أَوْ عَلَّمْته أَحَدًا مَنْ خَلْقِك، أَوْ اسْتَأْثَرْت بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ»، وَهَذَا الْحَدِيثُ فِي الْمُسْنَدِ، وَصَحِيحِ أَبِي حَاتِمٍ، وَقَدْ أَخْبَرَ فِيهِ أَنَّ لِلَّهِ مِنْ الْأَسْمَاءِ مَا اسْتَأْثَرَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَهُ، فَمَعَانِي هَذِهِ الْأَسْمَاءِ الَّتِي اسْتَأْثَرَ اللهُ بِهَا فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَهُ لَا يَعْلَمُهَا غَيْرُهُ».

الشرح

قوله: «لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْك». الثناء يكون في الصفات؛ لأن الثناء هو المدح مع المحبة، المدح بما يكون وصفًا جميلًا وحسنًا مع الحب والتعظيم، فالثناء: حمدٌ معه حُبٌّ وتعظيمٌ، أما مُجرد وصفٌ بلا حُبٍّ ولا تعظيم؛ فهذا قد يسمى مدحًا فقط، ولا يسمى حمدًا، فالرَّسول ﷺ يحمد ربَّه ويقول: «**لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْك، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْت عَلَى نَفْسِك**»[1]، يعني: أنت الذي تعلم، كما في الحديث الثاني الذي سيذكره.

قوله: «لا أحصي ثناءً عليك»، يعني: أن الثناء يكون بأسمائه وصفاته، فلا أحد يحصي هذا. والثناء يكون بأسمائه وصفاته ـ تعالى وتقدس ـ، ومثل هذا ما جاء في حديث الشفاعة في قوله ﷺ: «**فيفتح الله عليَّ من المحامد والثناء ما لا أحسنه الآن**»[2]، فهو دليلٌ على أنَّ أسماءَ الله وصفاتِ الله غيرُ محصورةٍ، وأنها غير معلومة بنفس الأسماء لكثيرٍ من الخلق؛ لأنه قسمها إلى ثلاثة أقسام:

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

القسم الأول: أنزله في كتابه، والمقصود بكتابه: جنس الكتاب، أي: في كُتبه التي أنزلها من عنده.

القسم الثاني: لم ينزله في الكتاب، ولكنه علَّمه من يشاء من خلقه.

القسم الثالث: لم ينزله في الكتاب ولم يُعلمه أحدًا من خلقه؛ بل استأثر به في علم الغيب عنده، يعني: قسمٌ استأثر به في علم الغيب عنده، لم يطلع عليه لا نبيٌّ ولا ملَكٌ ولا غيرهما؛ يدخل في الخلق: الملائكة والرسل وغيرهم.

أما الذي قد يعلمه من يشاء من عباد الله؛ فهذا مثل ما جاء في قصة سُليمان عليه السلام مع الهدهد، لما قال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ۝٢٣﴾ [النمل: ٢٣]، إلى أن قال سُليمان: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ۝٣٨ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ۝٣٩ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾ [النمل: ٣٨ ـ ٤٠].

يقول المفسرون: (إن هذا الذي عنده علم الكتاب يعرف اسم الله الأعظم، فدعا الله باسمه الأعظم فحضر في طرفة عين)، فهذا الرجل عرف شيئًا لم يعرفه سليمان. فلو كان سليمان عليه السلام يعرف ذلك لدعا به وحضر، هذا دليل على قوله ﷺ: «**أو علَّمته أحدًا من خلقك**»، أي: علَّم شيئًا مجهولًا، ولم يُنزله في كتابه.

وقسمٌ استأثر به في علم الغيب عنده لم يعلمه أحد.

فأسماء الله لا تُحصى ولا حصر لها، أما قوله ﷺ: «**إنَّ لله تسعةً وتسعين اسم ـ مائة إلا واحد ـ، من أحصاها دخل الجنة**»[1]. **فالمقصود**: الإخبار عن حكم إحصاء هذه الأسماء، وليس المقصود إحصاء الأسماء أنها تسع وتسعين، ولكن هذه الأسماء التسع والتسعون من أحصاها دخل الجنة؛ هذا المقصود. هذا كما تقول: «عندي مائة كتاب أعددتها للإعارة»، ما ينافي أن يكون عندك مئاتٌ أخرى، وإنما أخبرتَ عن شيء أعددته للإعارة.

ولم يعرف ربَّه من يصفه بما يوصف المخلوق به، أو يعطِّله عن أوصافه ويُلحقُه بالناقصات ـ مثل الجمادات وغيرها ـ، ينفون عنه الفعل، وينفون عنه العلو

(١) تقدم تخريجه.

والاستواء، وينفون عنه القول والكلام وما أشبه ذلك، فهؤلاء ما عرفوا ربهم، ولا عبدوا الله كما ينبغي، وإنما عبدوا شيئًا تصوَّرُوه في أذهانهم، وهو غيرُ الله - تعالى الله وتقدس -.

فعبادةُ الله يجب أن تكون على ضوء الوحيِ الذي جاء به الرَّسول ﷺ، إن لم تكن بهذه الصفة فالإنسان لم يعبد ربه.

والله كلَّفنا وتعبَّدَنا بأسمائه وصفاته؛ فقال ﷻ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وهو أمرٌ للعباد أن يعبدوه بها، ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، و«الإلحاد»: هو الميل عن مقصود المُتكلِّم إلى معنًى آخر، ومن ذلك سُمِّي لَحْدُ القبر؛ لأنه يُمال به عن سمتِ الحُفرة إلى جهة القبلة؛ فسُمِّي لحدًا، فالمُلحِد هو الذي حرَّفَ أسماء الله لفظًا ومعنى.

المقصود: أنَّ الثناء يكون بأسمائه وصفاته، فمعنى ذلك: أن له أسماءً وصفاتٍ لا نعلمها، ومثل ذلك قوله ﷺ: «**ثم يفتح الله عليّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه على أحد قبلي**»(١)، فالمحامد والثناء بأسمائه وصفاته التي يتمدح بها ويثنى بها عليه.

❊ ❊ ❊

(١) تقدم تخريجه.

قال رحمه الله تعالى:

﴿«وَاللهُ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَنَا أَنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ، سَمِيعٌ، بَصِيرٌ، غَفُورٌ، رَحِيمٌ؛ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، فَنَحْنُ نَفْهَمُ مَعْنَى ذَلِكَ، وَنُمَيِّزُ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ، وَبَيْنَ الرَّحْمَةِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ، وَنَعْلَمُ أَنَّ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا اتَّفَقَتْ فِي دَلَالَتِهَا عَلَى ذَاتِ اللهِ، مَعَ تَنَوُّعِ مَعَانِيهَا، فَهِيَ مُتَّفِقَةٌ مُتَوَاطِئَةٌ مِنْ حَيْثُ الذَّاتُ، مُتَبَايِنَةٌ مِنْ جِهَةِ الصِّفَاتِ».

الشَّرْح

يعني: أنها كُلها أسماءٌ لمسمًّى واحدٍ، أو صفاتٌ لموصوفٍ واحدٍ، ولكن بينها تفاوتٌ في المعاني؛ فالعلم غير القُدرة، والسمع غير البصر، والوجه غيرُ اليد، وهكذا، فكلُّ اسم من الأسماء أو صفةٍ من الصفات لها معنًى ليس للاسم الآخر، وهذا أمرٌ واضحٌ لا إشكال فيه، ولكنها كُلها لمسمًّى واحد.

فمن الضلال أن يقول القائل كما تقول المُعتزلة وغيرهم: (إنَّ تعدد الأسماء والصفات يكون شركًا، فلا يجوز أن تتعدد الأوصاف للموصوف)؛ لأنه يقول: (إذا قُلتم كذلك لزم أن تكون صفاته وأسماؤه قديمة؛ فإذا كانت قديمة تكون آلهةً معه)!

وهذا كلامٌ سخيف يدل على الجهالة، أو على التعنت والانحراف، وإلا فمعلومٌ حتى لدى المخلوق أنه يكون له صفات مُتعددة، وتكون كُلها صفةً لموصوفٍ واحد، ولا تكون قديمةً قبله أو معه، أو غير ذلك.

وكل هذه وساوس يُلقيها الشيطان في أذهان هؤلاء الذين أضلهم عن الهدى؛ فحصل لهم ما حصل من الشكوك، وإضلال كثيرٍ من الناس؛ فإنهم ضلوا في أنفسهم وأضلوا غيرهم.

«التواطؤ»: هو الترادف، و«التباين»: الاختلاف.

فأسماء الله وصفاته متواطئةٌ من حيث أنها أسماء ذاتٍ واحدة ـ تعالى الله وتقدَّس ـ، ومتباينةٌ بحيث أن كل واحدٍ يدلُّ على معنًى لم يدل عليه الآخر، فالمعاني اختلفت؛ وكلها أسماء لمسمًّى واحد.

والمعتزلة يقولون: (أن التعدد هذا يكون خلاف التوحيد)؛ لأنهم لم يفهموا مراد الله ﷻ ولم يتدبروا كلامه، بل لم يهتموا به، وإنما عقولهم هي التي يجعلونها الحاكمة لهم، فجعلوا مسمَّى التوحيد نفي الصفات، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

فالتواطؤ أن يتفق اللفظ والمعنى على شيء، وأما «التباين» فهو عكس هذا تمامًا، فهو يباينه لفظًا ومعنى. وهذه الألفاظ اصطلاحية أخذت عن اليونان من علم المنطق، ونحن لسنا بحاجة إلى علم المنطق؛ لأن من عرف اللغة عرف الخطاب والمعاني التي تطابق الكلام من كل وجه والتي لا تطابقه إلا من وجه واحد، ولكن الدلالة التي يدل عليها اللفظ إما أن تكون مطابقة للفظه لفظًا ومعنى، أو تكون مطابقة لما أخبر به لفظًا دون المعنى، أو المعنى من وجه واللفظ من وجه، وكلُّ ذلك ما يمنع فهم الكلام الذي أخبر به.

❊ ❊ ❊

قال رحمه الله تعالى:

«وَكَذَلِكَ أَسْمَاءُ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلُ مُحَمَّدٍ، وَأَحْمَدَ، وَالْمَاحِي، وَالْحَاشِرِ، وَالْعَاقِبِ».

الشرح

هذا أسماء النبي ﷺ وكذلك أسماء القرآن، بل وأسماء الأشياء التي تُستعمل مثل: السيف، والخبز، والإناء، تقول: الخبز والرغيف، والثوب والقميص، وما أشبه ذلك، فتكون مترادفة، أما المسميات «**مِثْلُ مُحَمَّدٍ، وَأَحْمَدَ، وَالْمَاحِي، وَالْحَاشِرِ، وَالْعَاقِبِ**» كل اسم له معنى غير معنى الاسم الآخر، فتكون بهذا المعنى متباينة.

وكذلك القرآن؛ فالقرآن له معنى، والفرقان له معنى: فرّق بين الحق والباطل والهدى والنور؛ إلى آخره، فهي من حيث تعلقها بالموصوف متواطئة، يعني: كل واحدٍ مثل الآخر، ومن حيث دلالتها - ما دلَّ عليه الاسم - متباينةٌ.

وهكذا أسماء الأشياء حتى الحجر تستطيع تقول: إنه أملس، وصلب، وقوي؛ فكُلُّ المُسميات لها أسماء مُتعددة، وهي ترجع إلى مسمًّى واحد، فضلًا عن رب العالمين.

ولكن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ يقول هذا ليُبين ضلال الضالين الذين يقولون: (لا يجوز أن تتعدد الأسماء والصفات)؛ لأن هذا ضلالٌ بيِّن واضحٌ.

المقصود: أن قوله: «**وكذلك أسماء النبي ﷺ مثل مُحَمَّدٍ وَأَحْمَدَ وَالْمَاحِي وَالْحَاشِرِ وَالْعَاقِبِ**»، يعني: كُلها أسماء لمسمًّى واحد، وهو الرسول ﷺ، ولكن لكل اسم معنى غير المعنى الثاني.

فإذا نظرنا إلى المعنى صارت متباينة، وإذا نظرنا إلى الموصوف المسمى نفسه فهي مترادفة؛ لأنها أسماء لمسمًّى واحدٍ، وهكذا في اللغة أسماء، مثل: الخبز، والرغيف، والقرص، والثوب، والقميص، الملبوس، واللباس، ونحو ذلك، يكون لكل اسم منها معنى، ولكن بعض الأسماء تكون مُترادفة فقط.

كما سبق في معنى العُلو، معنى الاستواء، والاستواء: العلو، والارتفاع، والاستقرار والصعود، كلها مُترادفة تدلُّ على معنًى واحدٍ، ولكن هي بالنسبة لما وُصفت به، ولكن كل واحدٍ قد يكون عند المُخاطب له يكون أبْيَن من الآخر، ولهذا تُفسر بعض الأسماء بالمترادفات، ويكون أوضح عند بعض الناس.

قال رحمه الله تعالى:

«وَكَذَلِكَ أَسْمَاءُ الْقُرْآنِ مِثْلُ: الْقُرْآنِ، وَالْفُرْقَانِ، وَالْهُدَى، وَالنُّورِ، وَالتَّنْزِيلِ، وَالشِّفَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ».

الشَّرح

قوله: «وَكَذَلِكَ أَسْمَاءُ الْقُرْآنِ» متواطئة. وأكثر الأسماء أوصافٌ.

والفرق بين «الاسم» و«الصفة»: أن الاسم: ما دل على الذات، والصفة: هي المعنى الذي يقوم بالموصوف، مثل العلم والقُدرة، والسمع والبصر، وما أشبه ذلك؛ فالعليم: اسم الله، والعلم صفته، والرحمن اسم الله والرحمة صفته... وهكذا.

والأصلُ في الأسماء: الصفاتُ؛ فكل اسم له أصلٌ وهي الصفة التي أُخذ منها؛ لأنها لها معانٍ عظيمة، وهذا معنى قول العلماء: (أسماء الله مُشتقة)؛ أي لها معانٍ عظيمة قامت بالموصوف، قامت برب العالمين؛ فإذًا يكون الفرق:

أولًا: أن الأصل هو الصفة، وذلك عكس ما يقوله بعض طلبة العلم: إن الأصل الاسم والصفة أُخِذت منه؛ وهو جهلٌ.

الثاني: أن الاسم ما دل على الذات التي وُضع عليها هذا الاسم، والصفة هي المعنى الذي قام بالموصوف.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿«وَمِثْلُ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ تَنَازَعَ النَّاسُ فِيهَا؛ هَلْ هِيَ مِنْ قَبِيلِ الْمُتَرَادِفَةِ لِاتِّحَادِ الذَّاتِ أَوْ مِنْ قَبِيلِ الْمُتَبَايِنَةِ لِتَعَدُّدِ الصِّفَاتِ؟».

الشَّرح

هذا كُلُّهُ من كلام المناطقة ليس من كلام العرب، التواطؤ والتبايُن معلومٌ معناه، أما المُشكك والمتواطئ وغير ذلك فهو كلامٌ لا يُغني ولا يُسمن من جوع، ونكتفي باللغة التي جاء بها كتاب ربنا ﷻ؛ وإن كان معناها معروفًا وصار كثيرٌ من الناس يتخاطب بهذه الألفاظ؛ ويرون أن التخاطب بها أعلى وأبين من التخاطب باللغة العربية، وهذا ضلالٌ بيّن.

ولكن التواطؤ ـ مثلًا ـ إذا قلت: «المُشتري»، فالمُشتري يُطلَق على الذي بذل مالًا ليأخذ شيئًا ـ سلعة ـ وبالعكس، يُطلق على هذا وهذا، لهذا يقول ﷻ: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [يوسف: ٢٠]، اشتروه: يعني باعوه، هنا اشترى يعني: باع، ويُطلق على العكس فتقول: المُشتري الذي اشترى سلعة، والمُشترى نجمٌ معلوم يُطلق على هذا وهذا، وهذا يُسمى تواطؤ أو تشكيك؛ لأنك إذا قلت هذه اللفظة وسكتَّ؛ يشُك السامع: هل تقصد هذا أم ذاك؟ ولكن لا يوجد هذا المُطلق هكذا، لا بُدَّ أن يكون معه قرينة تُبين المُراد، إمَّا قرينة الحال أو قرينة المقال؛ فلا بُدَّ أن يكون ذلك، فنحنُ لسنا في حاجةٍ إلى هذه الأشياء، وإن كان معرفتُها لا تضُرُّ، ولكن الجهل بها لا يضر كذلك.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«كَمَا إِذَا قِيلَ: السَّيْفُ، وَالصَّارِمُ، وَالْمُهَنَّدُ، وَقُصِدَ بِالصَّارِمِ مَعْنَى الصَّرْمِ، وَفِي الْمُهَنَّدِ النِّسْبَةُ إِلَى الْهِنْدِ».

الشرح

يعني: أنه صُنع في الهند، وكلها أسماء مسمًّى واحد وهو السيف.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَالتَّحْقِيقُ أَنَّهَا مُتَرَادِفَةٌ فِي الذَّاتِ مُتَبَايِنَةٌ فِي الصِّفَاتِ».

الشَّرح

يعني: أسماء الله مُترادفة ومُتباينة؛ مترادفةٌ لأنها تدُلُّ على مسمًّى واحدٍ، ومُتباينة لأنَّ لكلِّ واحدٍ معنًى لا يدلُّ عليه معنى الاسم الآخر.

قوله: «مُتَرَادِفَةٌ فِي الذَّاتِ مُتَبَايِنَةٌ فِي الصِّفَاتِ»، يعني: مترادفة في ذات الشيء المخبر عنه، فالأسماء متباينة في معانيها، مترادفة في مسمَّاها، وهذا يوجد في الكلام، فتقول: الخبز، والرغيف، والقرص وما أشبه ذلك، وهذه أمور معلومة، وهكذا الأسماء التي نخبر بها من أسماء الله ﷻ، فهي كلها أسماء ذات واحدة، وأما معانيها فهي مختلفة؛ فالسمع غير البصر، والعلم غير الحياة، واليد غير الوجه، وهكذا، وهذا أمر واضح وظاهر.

ولكن بعض الناس يشتبه عليه مثل هذا الأمر، فيقول: كيف يكون واحدًا ويخبر عنه إخبارات كثيرة.

فالجواب: أن المعاني التي تتعلق بها كثيرة، وهذا ينطبق حتى مع الجماد، فالنخلة لها عَسِيب وخوص وليف ونبع وطلع وغير ذلك، فإذا ذكرت هذه الأشياء؛ قيل: إن المسمى واحد، والأسماء متعددة.

ولله المثل الأعلى، فالله له أسماءٌ وصفاتٌ متعددةٌ، وكل اسم وصفة له معنى خاص به، وكل الأسماء والصفات لمسمى واحدٍ وهو الله ﷻ، ولهذا **قال المؤلف: «مُتَرَادِفَةٌ فِي الذَّاتِ مُتَبَايِنَةٌ فِي الصِّفَاتِ»**، وهذا واضِحٌ ولا إشكالَ فيه.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿«وَمِمَّا يُوَضِّحُ هَذَا أَنَّ اللهَ وَصَفَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ بِأَنَّهُ مُحْكَمٌ وَبِأَنَّهُ مُتَشَابِهٌ، وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ جَعَلَ مِنْهُ مَا هُوَ مُحْكَمٌ وَمِنْهُ مَا هُوَ مُتَشَابِهٌ».

الشَّرح

قوله: «وَصَفَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ بِأَنَّهُ مُحْكَمٌ وَبِأَنَّهُ مُتَشَابِهٌ...»؛ «المحكم»: هو الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يتعارض في الظاهر، ويخبر عن أمور متفق على وقوعها أو أنها ستقع كما أخبر بها، وكذلك الأحكام التي يخبر بها، وأن الله أمر بها، فيجب ألا تختلف عند المخاطبين، وهذا كله من قبيل المحكم.

وأما «المتشابه»: فهو الذي يشبه بعضه بعضًا بالألفاظ والمعاني، وقد يكون متشابهًا عند قوم دون قوم.

قوله: «جَعَلَ مِنْهُ مَا هُوَ مُحْكَمٌ»، يعني: أنه أُحكمت آياته وفُصِّلت، فلا يأتيه باطلٌ من بين يديه ولا من خلفه، يعني: في أحكامه وفي أخباره أنه حقٌّ محكم؛ إحكام في صدق الخبر، وفي الحكمة في وضعه، والعدل وغيره.

أما كُون بعضه متشابهًا وبعضه محكمًا؛ فهذا نسبيٌّ، فالتشابه الذي اختلف فيه، الذي دلَّ على أكثر من معنى عند بعضهم، قلنا: الذي دلَّ على أكثر من معنى يكون متشابهًا، ولكن ليس عند كلِّ أحد؛ والمحكم هو الذي يدلُّ على معنًى واحدٍ، ليس له معانٍ متعدِّدة.

والصحيح: أن المُحكم هو البيِّن الواضح الجلي؛ ولهذا أمر بإرجاعه إليه، فعند إرجاع المتشابه إلى المُحكم يزول الاشتباه. ومن حكمة الله ﷻ أن جعل بعضه متشابهًا على بعض الناس حتى يُبتلى الإنسان: هل ينقاد ويتبع، ويرجع الشيء الذي اشتبه عليه إلى الأمر الواضح الجلي، فيكون المعنى واحدًا، ويستقيم وتستقيم الأمور، أو أنه يزيغ قلبه ويتتبع المتشابه ابتغاء الفتنة، يطلب الفتنة ويذهب إليه، فأصبح للاختبار والابتلاء.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَيَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ الْإِحْكَامُ وَالتَّشَابُهُ الَّذِي يَعُمُّهُ؛ وَالْإِحْكَامُ وَالتَّشَابُهُ الَّذِي يَخُصُّ بَعْضَهُ».

الشرح

يعني: أن فيه معنًى ثالثًا كما في آية آل عمران: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧]، فهذا معنًى ثالثٌ؛ المُحكم والمُتشابه.

والتشابه معناه: أنه يشتبه على بعض الناس، فيكون مثلًا يحتمل معنيين، وإذا أُرجع إلى المُحكم؛ تعين المعنى أنه يدُل على ما دلَّ عليه المُحكم، وهذا من الابتلاء الذي ابتلى الله ﷻ به عباده؛ ليظهر جليًّا بالفعل والعمل من يريد الحق ويتطلبه، ومن يريد الباطل واتباع الهوى، ففيه مجالٌ لأهل الأهواء؛ ولهذا تجد كلَّ صاحب هوى وبدعة يستدلُّ بآية أو بحديث، والواقع أنه لا يدُلُّ عليه؛ لأنَّ آيات الله ﷻ وأحاديث رسوله لا تدُلُّ على الباطل وإنما تدل على الحق.

قوله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ هذا الإحكام يعني: أنه كله متفق ما يختلف، ما تجد فيه آيةً تخالف الأخرى؛ فهذا الإحكام، وهو إحكامٌ كذلك في مدلولاته، كله دلَّ على الحق وكله يأمر بالإحسان، ولا تأتي آيةٌ مثلًا تأمر بخلاف ما أمرت به الآية الأخرى؛ فهو مُحكم من ناحية الصدق ومن ناحية كونه أيضًا كلامًا لله وحده، وهو متشابه أيضًا من ناحية أنَّ كل آيةٍ تدل على ما دلَّت عليه الأخرى، وهو مثاني؛ بحيث أنه تجد مرةً يذكر نعيم أهل الجنة ثم يُثنِّي بذكر عذاب أهل النار، ويذكر أهل الإيمان ثم يثنِّي بذكر الكفار أو المنافقين؛ وهكذا، فسمي «مثاني» من هذه الجهة.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ [هود: ١]، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ أَحْكَمَ آيَاتِهِ كُلَّهَا، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ كُلَّهُ مُتَشَابِهٌ.

وَالْحُكْمُ هُوَ الْفَصْلُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ، والْحَاكِمُ يَفْصِلُ بَيْنَ الْخَصْمَيْنِ، وَالْحُكْمُ فَصْلٌ بَيْنَ الْمُتَشَابِهَاتِ عِلْمًا وَعَمَلًا...».

الشرح

قوله: «قال تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ [هود: ١]».

يعني كُله مُحكم مُتقن، لا يأتيه الباطل، بل هو يدلُّ على ما يدلُّ عليه القسم الآخر؛ بخلاف الذي يكون من البشر فإنه لا يكون كذلك، لا بد أن يكون فيه اختلاف وفيه تنافر، وفيه تضاد؛ ولهذا يقول ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ [النساء: ٨٢]، ولما كان هذا من عند رب العالمين علام الغيوب؛ صار مُتقنًا، مُحكمًا وإن كان يُشبه بعضه بعضًا، فالتشابه في المعنى الذي قُصد به المُحكم، فالمُتشابه يُشبهه، ويقول ﷻ: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾ [يونس: ١]، يعني: جعل الكتاب هو الحكيم، يعني: أنه يحكم بالحق، ويفصل بين الحق والباطل، ويبيِّن ما يجب العمل به وما لا يجوز العمل به، وقال ﷻ: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾، يعني: أنه أُحكمت آياته، وهو كذلك حكيم.

قوله: «وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]».

متشابه: يعني يُشبه بعضه بعضًا، في الإحكام والإتقان والإخبار، والوعد والوعيد والصدق، وهو كذلك مُحكم بأنه لا يأتيه الباطل من بين يدَيه ولا من خلفه، فالمعنى لا يختلف عن هذا بل كُلها تدل على شيءٍ معين، وهو معلومٌ من خطاب المُخاطِب.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿ «إِذَا مَيَّزَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالصِّدْقِ وَالْكَذِبِ، وَالنَّافِعِ وَالضَّارِّ؛ وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ فِعْلَ النَّافِعِ وَتَرْكَ الضَّارِّ، فَيُقَالُ: حَكَمْت السَّفِيهَ وَأَحْكَمْته إذَا أَخَذْت عَلَى يَدَيْهِ، وَحَكَمْت الدَّابَّةَ وَأَحْكَمْتهَا إذَا جَعَلْت لَهَا حَكَمَةً وَهُوَ مَا أَحَاطَ بِالْحَنَكِ مِنْ اللِّجَامِ، وَإِحْكَامُ الشَّيْءِ إتْقَانُهُ فَإِحْكَامُ الْكَلَامِ إتْقَانُهُ بِتَمْيِيزِ الصِّدْقِ مِنْ الْكَذِبِ فِي أَخْبَارِهِ، وَتَمْيِيزِ الرُّشْدِ مِنْ الْغَيِّ فِي أَوَامِرِهِ».

الشَّرح

هذا معنى الإحكام في كتاب الله: أنه الفصل، والبيان، والهُدى، والشفا، والنور، الذي يكون للقلوب وللشبهات، وكذلك أمراض الأبدان يدخل فيه هذا؛ فإنه شفاءان:

* شفاءٌ لما في القلوب من الشُبهات، والشكوك.
* شفاءٌ لما في الأبدان من الأمراض؛ لأنَّ قوله ﷻ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ﴾ [الإسراء: ٨٢]، عامٌ مُطلقٌ، ولكنه قُيد بأنه للمؤمنين، وأما الضالون فإنه لا يزيدهم إلا خسارًا. وكذلك التشابُه؛ فإن بعضه يُشبه بعضًا، يُشبه بعضه بالإحكام والصدق والأمر والنهي، فلا تجد هذا آية فيها أمرٌ بكذا، وآيةٌ أخرى فيها النهي عن ذلك المأمور؛ هذا لا يوجد إلا في كلام الناس؛ فهو كُله يدلُ على دلالةٍ واحدة؛ سواء كان في الأمر أو كان في الخبر، أو كان في الوعد والوعيد والحُكم الذي يحكم بين الخلق.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَالْقُرْآنُ كُلُّهُ مُحْكَمٌ بِمَعْنَى الْإِتْقَانِ فَقَدْ سَمَّاهُ اللهُ حَكِيمًا بِقَوْلِهِ: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [يونس: ١]، فَالْحَكِيمُ بِمَعْنَى الْحَاكِمِ؛ كَمَا جَعَلَهُ يَقُصُّ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٧٦﴾ [النمل: ٧٦]، وَجَعَلَهُ مُفْتِيًا فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النساء: ١٢٧]: أَيْ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ».

الشرح

القرآن محكَمٌ بهذا المعنى كما وصفه الله ﷻ في **قوله**: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [يونس: ١]؛ فهو كله حكيم، ويصف الله ﷻ بعض عباده بأنه حكيم؛ لأنه يضع الأشياء في مواضعها بأمر الله ﷻ.

قوله: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النساء: ١٢٧]: يفتيكم، يُقال إن الله يفتي؛ وكذلك كتابه يفتي؛ لأنه يجب أن يُتّبع.

الفتوى: هي التعليم بذكر الحُكم الذي يريدونه، فهو يُعلِّم الخلق، والمُعلم هو المُتكلم به، ـ تعالى وتقدس ـ، فهو يعلمُ ما فيه هدايتهم وهو الحاكم بينهم ﷻ؛ فالحُكم من خصائصه، فلا يجوز أن يكون المخلوق حاكمًا، إلا إذا حكم بحكم الله؛ فإنه يكون حاكمًا بحكم الله، أما إذا حكم بغيره فيجب أن يُكفر به، فيكون طاغوتًا منافيًا لما جاء به الشرع.

كما قال الله ﷻ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾ [النساء: ٦٥]، فنفى الإيمان عمَّن لا يُحكِّم الكتاب والسُّنة التي جاء بها المُصطفى ﷺ، وأقسم ﷻ على أنه لا يحصل الإيمان لهؤلاء، والإيمان الذي فيه النجاة من العذاب في الدُنيا والآخرة.

وكذلك الأمر والنهي فهو من خصائص الله، وإذا أمر آمرٌ ممن تجب طاعته يجب أن يكون أمره بأمر الله وأمر رسوله؛ وإلا إذا كان أمرهُ مخالفًا لأمر الله وأمر

رسوله فلا سمع ولا طاعة له، كما قال المُصطفى ﷺ: «**لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ**»(١)، وإن كانت أمك وأبوك، إذا أمرك بمعصية الله فلا يجوز أن تُطيعه؛ لأن الأمر والنهي والحُكم والشرع كُله لله ﷻ كما له العبادة، وهذا من العبادة أيضًا، امتثال الأمر واجتناب النهي عبادة، والعبادة لا يجوز أن تكون إلا لله ﷻ.

* * *

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٣٣٣) برقم (١٠٩٥)، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

قال رحمه الله تعالى:

۞ «وَجَعَلَهُ هَادِيًا وَمُبَشِّرًا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الإسراء: ٩].

۞ وَأَمَّا التَّشَابُهُ الَّذِي يَعُمُّهُ فَهُوَ ضِدُّ الاخْتِلَافِ الْمَنْفِيِّ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، وَهُوَ الاخْتِلَافُ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾ [الذاريات: ٨ ـ ٩]».

الشرح

معاني القرآن كثيرة، ولكن هذه أمثلة فقط؛ لأن المعاني قد يعسر حصرها، وكلها ترجع على الإتقان والصدق في خبره.

والحقيقة أن كلام الله لا يشبه كلام الخلق، فهو كلام مُعجزٌ بلفظه ومعانيه وإخباره وبكل ما يكون من أوصافه؛ فأحكامه وصفاته كثيرة جدًّا، وإنما هذه فقط أمثلة.

قوله: «وَجَعَلَهُ هَادِيًا وَمُبَشِّرًا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾». هذا الإحكام، أما التشابه فهو الذي يعمه كله؛ كله متشابه ـ كما سبق ـ يُشبه بعضه بعضًا، فلا تجد مثلًا آيةً تأمر بشيء ثم تأتي آيةٌ تنهى عنه، هذا لا يمكن؛ ولهذا قال ﷻ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، فليس فيه اختلاف؛ بل هو كله على نمطٍ واحد، إذا أمر بشيء فكلُّه يأمر به، وإذا نهى عن شيء، فكذلك، وكذلك إذا أخبر بشيء، لا تجد آيةً تخبر بخلافه؛ فهو متشابه في إحكامه وفي أوامره وفي أنه عدل؛ يأمر بالعدل، وفي أنه صدق وحق، وفي أن أخباره وما يخبر عنه ستقع؛ كما قال ﷻ، وسيشاهدها الخلق.

قوله: «التَّشَابُهُ»، يعني: يشبه بعضه بعضًا، في الإتقان والصدق وعدل الأحكام ـ. والقرآن كله بهذا الاعتبار متشابه، وبخلاف الآيات السابقة؛ فإنه جعل بعضه متشابهًا وبعضه مُحكمًا، فيكون هذا معنًى آخر.

قوله: ﴿يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ ۝٩﴾ [الذاريات: ٩]؛ أي: يصرف عنه من صرفه الله عن فهمه والعمل به، وقوله: ﴿عَنۡهُ﴾ الضمير يعود على القرآن، يعني: يُصرف عن هذا القرآن البيِّن الواضح من صُرف ممن لا يُريد الحقَّ ولا يُحبهُ؛ وإنما يُريد الباطل ويتبعه، وإنما يوفق لاتباعه من هداه الله، والهداية فضلُ الله، يتفضل به على من يشاء وإذا منع فضله فهو أولى بفضله وأعلم بمواضعه ومواقعه، يضع فضله حيث يشاء.

فالمقصود: أن الإنسان لا هداية له بنفسه، ولا بعلمه، ولا بقوته، ولا بشيخه، ولا فصاحته وبلاغته، فإذا لم يهده الله وإن كان عالمًا فلا بُدَّ أن يضلَّ، فالهداية بيد الله؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ۝٨﴾ [الذاريات: ٨]، وهذا مثل ما يقولون فيه: «أنه ساحر أو كاهن»، كما كانوا يقولونه للرسول، أو أنهم يقولون في القرآن: «إنه سحرٌ أو كهانة» أو ما أشبه ذلك؛ فهم تفاوتت أقوالهم فيه، مُختلفون فيه؛ ولهذا قال: ﴿يُؤۡفَكُ عَنۡهُ﴾ [الذاريات: ٩]، يعني: عن القرآن أو عن الرسول، والصحيح عن القرآن، ﴿يُؤۡفَكُ عَنۡهُ﴾: يُصرف عنه من صُرف، في الأمور التي تُلقيها الشياطين.

فهم في القرآن «في قول مختلف»، منهم من يقول: «سحر»، ومنهم من يقول: «شعر»، ومنهم من يقول: «كهانة»، فكيف يتَّفق وهي كلها مختلفة؟! ﴿يُؤۡفَكُ عَنۡهُ﴾ يُصرف ﴿عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ ۝٩﴾، يعني: يُصرف عن فهمه والإيمان به والعمل به مَن استقبل الإفك وأراده واختاره لنفسه، فإنه يُصرَف عن معرفة القرآن والإيمان به؛ كما قال الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف: ٥].

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَالتَّشَابُهُ هُنَا: هُوَ تَمَاثُلُ الْكَلَامِ وَتَنَاسُبُهُ: بِحَيْثُ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا؛ فَإِذَا أَمَرَ بِأَمْرٍ لَمْ يَأْمُرْ بِنَقِيضِهِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ؛ بَلْ يَأْمُرُ بِهِ أَوْ بِنَظِيرِهِ، أَوْ بِمَلْزُومَاتِهِ؛ وَإِذَا نَهَى عَنْ شَيْءٍ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، بَلْ يَنْهَى عَنْهُ، أَوْ عَنْ نَظِيرِهِ، أَوْ عَنْ لوازمه، إِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ نَسْخٌ».

الشرح

قوله: «**فَالتَّشَابُهُ هُنَا: هُوَ تَمَاثُلُ الْكَلَامِ وَتَنَاسُبُهُ...**». وكذلك العمل نفسه، فلا يعمل به في موضع ويعمل بضدِّه في موضع آخر، وكذلك حقيقة الشيء الذي يخبر به، فلا يمكن أن تكون مختلفة.

وكذلك الأخبار، فلا يثبته في موضع وينفيه في موضع آخر، كما يتصوره بعض الناس، فيقول في قوله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، إن هذا حق، ولكن قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، يجب أن نتأوَّله، فهذا القول غير صحيح؛ لأنه كله كلام الله ﷻ، وكله حق يصدق بعضه بعضًا.

قوله: «**إِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ نَسْخٌ**»، يعني: استثنى النسخ؛ لأن النسخ هو إزالة الحُكم بنصٍ آخر، مثل: ما أزال حُكم استقبال بيت المقدس إلى استقبال الكعبة؛ فهذا يُضاد ذلك؛ فهذا نُسخ لفظًا وحكمًا.

النسخ: هو تبديل آيةٍ بآية، وهو رفع لفظها وحكمها، وقد يكون النسخ فقط رفع الحكم وبقاء اللفظ؛ كما في آية سورة «البقرة» في نفقة المطلقة، فإن الأولى نسخت الأخرى.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَكَذَلِكَ إِذَا أَخْبَرَ بِثُبُوتِ شَيْءٍ لَمْ يُخْبِرْ بِنَقِيضِ ذَلِكَ؛ بَلْ يُخْبِرُ بِثُبُوتِهِ، أَوْ بِثُبُوتِ مَلْزُومَاتِهِ، وَإِذَا أَخْبَرَ بِنَفْيِ شَيْءٍ لَمْ يُثْبِتْهُ، بَلْ يَنْفِيهِ، أَوْ يَنْفِي لَوَازِمَهُ، بِخِلَافِ الْقَوْلِ الْمُخْتَلِفِ الَّذِي يَنْقُضُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَيُثْبِتُ الشَّيْءَ تَارَةً وَيَنْفِيهِ أُخْرَى، أَوْ يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، أَوَ يُفَرِّقُ بَيْنَ الْمُتَمَاثِلَيْنِ فَيَمْدَحُ أَحَدَهُمَا وَيَذُمُّ الْآخَرَ؛ فَالْأَقْوَالُ الْمُخْتَلِفَةُ هُنَا: هِيَ الْمُتَضَادَّةُ، وَالْمُتَشَابِهَةُ: هِيَ الْمُتَوَافِقَةُ».

الشرح

يعني: أن كلام الناس لا بُدَّ أن تجد فيه شيئًا من الاختلاف؛ فلهذا لما قيل للإمام أحمد: إن غُنْدَر يَغْلَط، قال: سبحان الله! أليس من بني آدم؟! يعني كل بني آدم يغلطون، لا يوجد إنسان يكون معصومًا إلا رسول الله - ﷺ - فيما يخبر به عن ربه ﷻ، وإلا الغلط إذا كان معدودًا ومحصًى يكون هذا من كمال الإنسان، لكن أكثرهم لا يُحصى الغلط.

قوله: «وَكَذَلِكَ إِذَا أَخْبَرَ بِثُبُوتِ شَيْءٍ لَمْ يُخْبِرْ بِنَقِيضِ ذَلِكَ...». فالمقصود بالتشابه في قوله ﷻ: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣]: التوافق، فهو متوافق في المعاني والأوامر والأخبار، واللفظ قد يكون مختلفًا، ولكن المعنى لا يختلف أبدًا، والحقيقة التي يخبر عنها لا تختلف أيضًا.

قوله: «المُتشابهة»، يعني: التي يُشبه بعضها بعضًا والمتوافقة.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَهَذَا التَّشَابُهُ يَكُونُ فِي الْمَعَانِي وَإِنْ اخْتَلَفَتْ الْأَلْفَاظُ، فَإِذَا كَانَتْ الْمَعَانِي يُوَافِقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَيُعَضِّدُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَيُنَاسِبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَيَشْهَدُ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ، وَيَقْتَضِي بَعْضُهَا بَعْضًا، كَانَ الْكَلَامُ مُتَشَابِهًا؛ بِخِلَافِ الْكَلَامِ الْمُتَنَاقِضِ الَّذِي يُضَادُّ بَعْضُهُ بَعْضًا.

وهَذَا التَّشَابُهُ الْعَامُّ: لَا يُنَافِي الْإِحْكَامَ الْعَامَّ، بَلْ هُوَ مُصَدِّقٌ لَهُ، فَإِنَّ الْكَلَامَ الْمُحْكَمَ الْمُتْقَنَ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، ولَا يُنَاقِضُ بَعْضُهُ بَعْضًا».

الشرح

قوله: «وَهَذَا التَّشَابُهُ يَكُونُ فِي الْمَعَانِي...». كل الكلام السابق يريد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أن يبيّن أن الله ﷻ لما أخبرنا عن أسمائه وصفاته ذكر أن لها نظائر عندنا في اللفظ والمعنى، وهذا لا يقتضي التشابه، بل بينها من البون مثل ما بين الخالق والمخلوق كما تقدم، فكل هذه أمثلة لهذا المعنى.

ولولا هذا التشابه البعيد والتطابق في الأسماء لما عرف الذي يخبر عنه ولا معناه، فهذا شيء لا بُدَّ منه في الكلام حتى يعلم المخبَر بما أراده المخبِر من العمل أو الاعتقاد والعلم. وكلُّ هذا من معاني التفسير، ومن معاني كلام الله ﷻ الذي يجب على طالب العلم ألا يخفى عليه هذا؛ لأنه يقرأ كتاب الله، ولا بُدَّ في قراءته أنه يدرك المعاني، أما قراءة سرد بدون فهم المعنى، فهذه لا ينبغي للإنسان يفعل ذلك؛ لأن الله أمر بالتدبر وأمر بالفهم: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [محمد: ٢٤]، لهذا لما قيل لبعض السلف: إنه يوجد مَن يقرأ القرآن ولا يفهمه. قال: «هذه بدعة»؛ أي: ما كان معروفًا هذا، وإنما ظهر ذلك لما فسدت ألسُن الناس وداخلهم الأعاجم، وصاروا لا يعرفون معاني الخطاب، وصار الإنسان يقرأ القرآن ولا يفهم.

تجد كثيرًا من الناس هكذا؛ يقرؤه ولا يفهم شيئًا منه، صار مجرد قراءة حروف وكلمات فقط، وهذا لا يجدي شيئًا، فإنَّ المقصود: الفهم والعمل؛ أن يفهم ثم يعمل؛ كما قال الله ﷻ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩]،

فقوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ هذا العمل، يعني: اعلم أولًا، ثم اعمل ثانيًا.

ولهذا اتفق العلماء على أنه لا يجوز للإنسان أن يُقدم على عملٍ يتقرب به إلى الله حتى يعرف أنَّ الرسول ﷺ جاء به، وأن الله أمر به؛ أمَّا أن ينظر إلى الناس يعملون ثم يعمل، فهذا قصور وتفريط، وليس هذا علمًا، وعمله غير موثوقٌ به؛ لأنه ينظر إلى الناس فقط؛ والناس قد يكونون مخطئين.

قوله: «وهَذَا التَّشَابُهُ الْعَامُّ...». كما في قوله: ﴿كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ [الزمر: ٢٣]، بخلاف الآية الأولى؛ فإنها في الإحكام العام، فوُصِف كله بأنه محكم، ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ [هود: ١]، ووصف بأن بعضه متشابه وبعضه محكم، وهذا غير تلك؛ ولهذا صار الحكم غير هذا والمعنى غير هذا.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«بِخِلَافِ الْإِحْكَامِ الْخَاصِّ؛ فَإِنَّهُ ضِدُّ التَّشَابُهِ الْخَاصِّ، وَالتَّشَابُهُ الْخَاصُّ هُوَ مُشَابَهَةُ الشَّيْءِ لِغَيْرِهِ مِنْ وَجْهٍ مَعَ مُخَالَفَتِهِ لَهُ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ؛ بِحَيْثُ يَشْتَبِهُ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ إِنَّهُ هُوَ أو هُوَ مِثْلُهُ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ».

الشَّرح

قوله: «الْإِحْكَامِ الْخَاصِّ». هو الذي سبق بآية سورة آل عمران، وهو الإحكام والتشابه الخاصَّين. وهو تشابهٌ واشتباهٌ نسبي، أي: بالنسبة للسامع؛ فإنَّه قد يفهم غير المُراد؛ لكونه يحتمل أمرين فأكثر، ويكون أحد الأمرين أو واحدٌ منهم ظاهرًا جليًا، والأمور الأخرى يكون فيها خفاء.

وهي التي يُبتلى بها العباد؛ فالذي عنده زيغٌ أو عنده ضلالٌ فإنه يتبع الشَّيء الخفيَّ ويترك الواضحَ الجليَّ، لكن إذا أُرجع للمُحكم المُتقن؛ فإنه يزول التشابه.

وقد سبق المثال لذلك في قول الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الحشر: ٢٢]، ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ١٦٣]، مع قوله ﷻ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الواقعة: ٨٥]، وقوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ [الواقعة: ٥٧]، وما أشبه ذلك.

فكلمة: «نحن»، وكذلك «إنا» هذه تدل على الجماعة، فإذا أرجعت إلى الآيات المُحكمة زال الإشتباه، وإن كانت الدلالة التي يدعيها هذه ليست واضحةً، ولكن المُبطل يتمسك بها؛ فإذا أُرجعت إلى الواضح: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣]، زال الاشتباه.

ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾ [الأنعام: ٣]، وقوله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣]، يعني المُبطل قد يفهم من ذلك أنه مُختلطٌ مع أهل الأرض، ومختلطٌ مع أهل السماء؛ فإذا أُرجع إلى قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، زال ذلك الاشتباه، وهذا كثير في صفات الله ﷻ وفي أقواله، وإنما يلتبس على المُبطل، أمَّا من يريد الحق فهو واضح لا التباس فيه.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، ثم قال: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ هذا على القول الأول؛ وذكر: أنَّ ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧]، طلبًا لحقيقته وابتغاءَ الفتنة، فتجده ـ مثلًا ـ يصرف الكلام إلى مذهبه؛ وهذه هي طريقة أكثر أهل المذاهب؛ تجده إذا تكلم في آية يفسرها بما يعتقده وما يقوله وما تلقَّاه عن مشايخه، ومثل هذا هو الذي يقول ﷻ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ [آل عمران: ٧]. والتشابه هنا قد يكون تشابهًا بعيدًا.

وأما قوله ﷻ: ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧] يعني: أنهم يؤوِّلونه ابتغاء تفسيره أو حقيقته، أنهم يريدون ذلك وهم لا يصيبونه.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَالْإِحْكَامُ هُوَ الْفَصْلُ بَيْنَهُمَا بِحَيْثُ لَا يَشْتَبِهُ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ، وَهَذَا التَّشَابُهُ إِنَّمَا يَكُونُ بِقَدْرٍ مُشْتَرَكٍ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ مَعَ وُجُودِ الْفَاصِلِ بَيْنَهُمَا».

الشَّرح

قوله: «بين الشَّيْئَيْنِ مَعَ وُجُودِ الْفَاصِلِ بَيْنَهُمَا»، يعني: البيِّن الذي يوضح الحقَّ، إذا أرجع إلى ذلك الفاصل الذي يفصل، زال الاشتباه. أما قول القائل في مثل «نحن» قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾، [ق: ١٦]، وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الواقعة: ٨٥]، أن هذا يدل على آلهةٌ متعددة، وأن الله معهُ غيرُه؛ لأن الخطاب موضوعٌ لنحنُ = فهذا باطلٌ.

فـ «نحن» و«إنا» في لغة العرب، وضعت للمُعظِّم نفسَه أو لمن يتكلَّم وله من ينفِّذ أوامره ممن يكون تحت تصرُّفه، فيكون هذا ظاهرا في هذا.

أما أن يقول أنه يدل على التعدد؛ فليس كذلك، مع أن هاتين الآيتين لعلماء التفسير فيهما اختلافٌ؛ فمنهم من يقول: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الواقعة: ٨٥]، هؤلاء الملائكةُ؛ وذلك أن المُحتضر تقبض روحه الملائكة، والذي يقبض روحه ملك الموت، ولكن معه أعوان يتولَّون الروح يصعدون بها ويبشرونها أو يعذبونها كما هو مُبيَّن في أحاديث الرسول ﷺ وفي آيات الله.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦]، كذلك، قال بعض المُفسرين: إنَّ المقصود الملائكةُ الذين يسجِّلون عمله - واحدٌ عن يمينه والآخر عن شماله -، وكثيرٌ منهم يقول: (الخطاب يعود إلى الله ﷻ)، وإن كانت الملائكة يدخلون في هذا؛ فلا مانع من ذلك.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«ثُمَّ مِنْ النَّاسِ مَنْ لَا يَهْتَدِي لِلْفَصْلِ بَيْنَهُمَا، فَيَكُونُ مُشْتَبِهًا عَلَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَهْتَدِي إِلَى ذَلِكَ؛ فَالتَّشَابُهُ الَّذِي لَا تميز مَعَهُ قَدْ يَكُونُ مِنَ الْأُمُورِ النِّسْبِيَّةِ الْإِضَافِيَّةِ، بِحَيْثُ يَشْتَبِهُ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ دُونَ بَعْضٍ، وَمِثْلُ هَذَا يَعْرِفُ مِنْهُ أَهْلُ الْعِلْمِ مَا يُزِيلُ عَنْهُمْ هَذَا الِاشْتِبَاهُ».

الشَّرح

يعني: ومن الناس مَن يبتغي تأويله وقد فُتن وضلَّ؛ فهو يطلب الفتنة، والفتنة هي الضلال.

يقصد المؤلف أن هذا التشابه يكون لبعض الناس فقط، وليس في نفس الكلام تشابُه، فالكلام بعضها مع بعض ليس متشابهًا، ولا يختلف بعضه عن بعض، بل مُتشابه يُصدِّق بعضه بعضًا ويدُل على ما دل عليه الآخر.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«كَمَا إِذَا اشْتَبَهَ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ مَا وُعِدُوا بِهِ فِي الْآخِرَةِ بِمَا يَشْهَدُونَهُ فِي الدُّنْيَا؛ فَظَنَّ أَنَّهُ مِثْلُهُ، فَعَلِمَ الْعُلَمَاءُ أَنَّهُ لَيْسَ مِثْلَهُ وَإِنْ كَانَ مُشْبِهًا لَهُ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ.

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ الشُّبَهُ الَّتِي يَضِلُّ بِهَا بَعْضُ النَّاسِ، وَهِيَ مَا يَشْتَبِهُ فِيهَا الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ، حَتَّى يَشْتَبِهَ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ؛ وَمَنْ أُوتِيَ الْعِلْمَ بِالْفَصْلِ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا لَمْ يَشْتَبِهْ عَلَيْهِ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ.

وَالْقِيَاسُ الْفَاسِدُ إِنَّمَا هُوَ مِنْ بَابِ الشُّبُهَاتِ، لِأَنَّهُ تَشْبِيهٌ لِلشَّيْءِ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ بِمَا لَا يُشْبِهُهُ فِيهِ، فَمَنْ عَرَفَ الْفَصْلَ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ: اهْتَدَى لِلْفَرْقِ الَّذِي يَزُولُ بِهِ الِاشْتِبَاهُ وَالْقِيَاسُ الْفَاسِدُ».

الشرح

كل هذا ليُبين أنَّ أسماء الله وصفاتِه ليست مُتشابهة بمعنى أن معانيها مُلتبسة أو مُشتبهةٌ غيرُ معلومة، وإنما هذه دعوى ادَّعاها بعضُ الناس؛ وإلا فهي من المُحكم الواضح البيِّن؛ ليس فيها اشتباهٌ. والغرض من هذا التمثيل ليتبين الأمر، وهو بائنٌ وواضحٌ والحمد لله.

قوله: «وَمَنْ أُوتِيَ الْعِلْمَ بِالْفَصْلِ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا لَمْ يَشْتَبِهْ عَلَيْهِ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ...». القرآن يفصل بين هذه الأمور؛ وكذلك الوحي الثاني الذي جاء به المصطفى ﷺ تفصل بين هذه الأمور وتبيِّنها؛ فلا تجد مثلًا مسألةً اشتبهت على كثيرٍ من الناس إلَّا وهي مبيَّنة في كتاب الله وفي أحاديث رسوله ﷺ، ولكن الفتنة هي التي تصُدُّ أكثرَ الناس، فتجده متعصِّبًا لمذهبٍ من المذاهب، لا يريد أن يفهم خلاف هذا المذهب؛ فهذا يمنعه أن يعرف الحقَّ أو يهتدي إليه؛ فهذه الفتنة.

قوله: «وَالْقِيَاسُ الْفَاسِدُ إِنَّمَا هُوَ مِنْ بَابِ الشُّبُهَاتِ»، يعني: أنَّ قياس الغائب على الشَّاهد الذي يعرفونه لا يجوز أن يكون قياسًا مطابقًا من كلِّ وجهٍ إلا بين

المخلوقات التي عُلمت وأُحيط بها من كلِّ وجهٍ. وأما القياس بين الخالق والمخلوق في الصفات وفي الأسماء وفي المعاني؛ فهذا من أبطل ما يكون.

وهو الذي وقع بسببه الشركُ في الأمم كلها؛ لأنهم أخذوه من باب القياس، فقالوا: (إن الكبراء والعظماء والملوك والرؤساء إذا أراد الإنسانُ منهم شيئًا؛ فإنَّه لا يذهب إليهم مباشرةً، وإنما يذهب إلى من كان مقرَّبًا عندهم ـ من وزيرٍ أو قريبٍ أو ما أشبه ذلك ـ، ويطلب الوساطة والشفاعة له)، فمن هنا جاء الشِّرك.

فقالوا: (إذًا نحن نطلب من هذه المخلوقات أن تتوسَّط لنا عند الله؛ لأن هذا أنجعُ وأقربُ إلى وصول مطلوبنا!).

فوقعوا في الشرك الأكبر من باب القياس الفاسد، وقالوا: (هذا من باب التعظيم!).

ومن ذلك: قياس الشيطان، وهو أول من قاس، حينما قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢]، فقاس على الأصل في هذا أنَّ النَّار خيرٌ من الطين، فوقع في الضلال.

وأما القياس بين الرَّبِّ ﷻ وبين عباده؛ فهذا من أبطل الباطل، سواء كان في العمل ـ كما وقع الشرك فيه ـ أو كان في الاعتقاد والعلم، فكلاهما باطل، ومعلوم أن الاعتقاد والعلم يتبعه العمل.

أما «تشبيه الخالق بالمخلوق» فهو قليل، وإنما يتصوره بعضهم لما نظر إلى أسمائه وصفاته وجد أنَّ لها نظيرًا عندهم في مسمياتهم وصفاتهم، فقالوا: (إن هذا تشبيه)، وهذا ليس في الواقع تشبيهًا، ولكن هذا يلزم بالخبر أنه يخبر به حتى يفهموا، ولهذا قال لهم الله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾، والند يكون بالعلم والعقيدة والعمل، بأن يدعوه ويتجه إليه أو أنه يعتقد أنه كذلك.

وأما تشبيه المخلوق بالخالق فهو كثير جدًّا، ويكون في الطلب والدعاء والاتجاه إلى المخلوق، وهذا لا يزال بعض الناس يقع فيه، فيذهبون إلى من يزعمون أنه ولي، أو أنه يغيثه، أو أنه لا يدخل هذا البلد شيء إلا بإذنه، ولا يخرج شيء إلا بإذنه، أو أن يعتقد أن هناك قطبًا تدور عليه أمورُ الدنيا كلُّها من الناس. وكل هذا تشبيه المخلوق الضعيف بالخالق القوي القادر على كل شيء، وهو من الشرك الأكبر.

قال رحمه الله تعالى:

«وَمَا مِنْ شَيْئَيْنِ إِلَّا وَيَجْتَمِعَانِ فِي شَيْءٍ وَيَفْتَرِقَانِ فِي شَيْءٍ، فَبَيْنَهُمَا اشْتِبَاهٌ مِنْ وَجْهٍ وَافْتِرَاقٌ مِنْ وَجْهٍ، ولِهَذَا كَانَ ضَلَالُ بَنِي آدَمَ مِنْ قِبَلِ التَّشَابُهِ ـ وَالْقِيَاسِ الْفَاسِدِ لَا يَنْضَبِطُ ـ كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَكْثَرُ مَا يُخْطِئُ النَّاسُ مِنْ جِهَةِ التَّأْوِيلِ وَالْقِيَاسِ؛ فَالتَّأْوِيلُ: فِي الْأَدِلَّةِ السَّمْعِيَّةِ، وَالْقِيَاسُ: فِي الْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ وَهُوَ كَمَا قَالَ وَالتَّأْوِيلُ الْخَطَأُ إِنَّمَا يَكُونُ فِي الْأَلْفَاظِ الْمُتَشَابِهَةِ، وَالْقِيَاسُ الْخَطَأُ إِنَّمَا يَكُونُ فِي الْمَعَانِي الْمُتَشَابِهَةِ».

الشَّرْح

قوله: «ولِهَذَا كَانَ ضَلَالُ بَنِي آدَمَ مِنْ قِبَلِ التَّشَابُهِ...»، يعني: التشابه الذي يكون نسبيًّا، لا التشابه العام.

قوله: «وَالْقِيَاسِ الْفَاسِدِ لَا يَنْضَبِطُ». يعني بـ«الفاسد»: الذي لا ينضبط؛ لأنه يختلف باختلاف الأهواء واختلاف المشارب واختلاف المناهج؛ فكلٌّ يقيس على حسب ما يدعوه إليه هواه أو مذهبه أو غرضه الذي يريد.

والقياس الصحيح هو الذي ينضبط، أما الفاسد فلا ينضبط.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿«وَقَدْ وَقَعَ بَنُو آدَمَ فِي عَامَّةِ مَا يَتَنَاوَلُهُ هَذَا الْكَلَامُ مِنْ أَنْوَاعِ الضَّلَالَاتِ؛ حَتَّى آلَ الْأَمْرُ إِلَى مَنْ يَدَّعِي التَّحْقِيقَ وَالتَّوْحِيدَ وَالْعِرْفَانَ مِنْهُمْ إِلَى أَنْ اشْتَبَهَ عَلَيْهِ وُجُودُ الرَّبِّ بِوُجُودِ كُلِّ مَوْجُودٍ، فَظَنُّوا أَنَّهُ هُوَ فَجَعَلُوا وُجُودَ الْمَخْلُوقَاتِ عَيْنَ وُجُودِ الْخَالِقِ؛ مَعَ أَنَّهُ لَا شَيْءَ أَبْعَدَ عَنْ مُمَاثَلَةِ شَيْءٍ، وَأَنْ يَكُونَ إِيَّاهُ، أَوْ مُتَّحِدًا بِهِ؛ أَوْ حَالًّا فِيهِ مِنَ الْخَالِقِ مَعَ الْمَخْلُوقِ».

الشَّرح

من أعظم الضَّلال عند من أعطاه الله ﷻ عقلًا وفكرًا ونظرًا أن يشتبه عليه ربُّه ﷻ ومعبودُه الذي خلقه، بمخلوقه الذي هو مثله، فيلتبس عليه الأمر في هذا! وهذا كما يقول المؤلف: (إنه وقع فيه جماعاتٌ كثيرةٌ ممَّن هو من جُملة هذه الأُمَّة، فاشتبه عليهم الأمر)، فلهذا اختلفوا اختلافًا كثيرًا في هذا الباب:

* **فمنهم**: من أوجب التأويل في صفات الله ﷻ؛ خوفا من مشابهة المخلوق، وهذا من أخفها.

* **ومنهم**: من اشتبه عليه وجودُ الله بوجود المخلوق، وهؤلاء الذين يُسمون «أهل الحلول» أو «أهل الاتحاد»، ومبدأ هذا هو مذهب الجهمية الذين أنكروا صفات الله ﷻ وأسماءه، وهؤلاء انقسموا إلى **قسمين**:

قسمٌ هم أهلُ فكرٍ ونظرٍ وتدبُّر: فلما سمعوا قادتَهم وسادتَهم الذين يقلدونهم ويعظمونهم يقولون: (إن الله ليس فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال ولا داخل العالم ولا خارج العالم ولا تصح إليه الإشارة ولا يحويه مكان ولا يجري عليه زمان)، وما أشبه ذلك من الكلام الذي كله نفيٌ = التبس عليهم الأمر؛ فمنهم من قال: (إنه الوجود كله)، ومنهم من قال: (إنه سارٍ في هذا الوجود وحالٌّ فيه، فلا فرق بين خالقٍ ومخلوق، فالخالق هو المخلوق والمخلوق هو الخالق)، فهذا الذي يقوله هو من أعظم الضلال، ولا شكَّ أن هذا كفرٌ وخروج عن الفكر وعن العقل فضلًا عن الشرع.

وقسمٌ أقلُّ من هذا: فقالوا: (لا يجوز أن نصف الله ﷻ بالفوق أو بالاستواء على العرش؛ لأن الفوق مكان، والاستواء على العرش محصور).

بهذه الأفكار التي جعلوا المخلوق هو الأصل فيها، فقاسوا ربَّ العالمين على ما يشاهدونه من المخلوق الذي لا يكون قادرًا على كل شيء.

ثُمَّ إنه تصور بعضهم: أنَّ كونه ﷻ في جهة فوق مستويًا على العرش: أنه مُحتاجٌ إليه، وأنه لو سقط العرش لسقط - تعالى الله وتقدس -، وما علموا أنَّ الله ﷻ غنيٌّ بذاته عن كلِّ شيء؛ عن العرش وغيره.

وكذلك قالوا: (إذا قلنا: أن له وجهًا وله يدين وله سمعًا وله بصرًا وله محبة وإرادة وغضبًا ورضًا، فهذا يشتبه بما نعقله وما نعرفه من أنفسنا، فلا بُدَّ أن ننفي هذا؛ لئلا نقع في التشبيه)؛ وسبب ذلك أنهم لم يتبعوا قول الله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى: ١١]، فله السمع وله البصر.

وكذلك له سائر الصفات التي تخصه ولا يُشاركه فيه المخلوق؛ وكذلك أفعاله - مثل: الاستواء والنزول والمجي -، فهذه تخصه، لا يُشاركه فيها أحد؛ لأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، فإذا كان ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ في ذاته، فكذلك هو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ في صفاته وما يخصه من الأفعال.

فالاستواء يليق به؛ والنزول كذلك ليس كنزول الأجسام التي يعهدها بنو آدم أنه إذا نزل عن السطح كان السطح فوقه، فالله ينزل وهو فوق كل شيء - تعالى وتقدس -.

وقد أخبرنا ربُّنا ﷻ بأنَّه سيأتي إلى الأرض يوم القيامة: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢﴾ [الفجر: ٢٢]، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٢١٠﴾ [البقرة: ٢١٠]، فهو يأتي ليفصل بنفسه ويُحاسب عباده إلى الأرض وهو فوق عرشه لا يكون شيءٌ فوقه؛ لأنه أكبر من كلِّ شيء وأعظم من كلِّ شيء، وهو على كل شيءٍ قدير، فهذا الذي يجب أن يُعتقد.

أمَّا التفكير في ذاته، فهذا لا يجوز؛ لأنَّ أي فكرٍ تُفكره في رب العالمين فهو أكبر منه وأعظم. ومن أعظم الضَّلالِ: أن يلتبس الخالق الذي ليس كمثله شيء بمن هو فقيرٌ إلى من يُوجِدُه ومن يُزيل عنه الضرر ومن يجلب له النفع؛ وهذه صفة كل مخلوق.

فالله ﷻ هو الغنيُّ بذاته وحدَه، فالغنى والكمال له وحده ﷻ، فهو على خلاف ما يصفه هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم ووقعوا في الحيرة، أو وقعوا في الضلال البيِّن، وهذا الذي يُشير إليه **بقوله: «حَتَّى آلَ الْأَمْرُ بِمَنْ يَدَّعِي التَّحْقِيقَ وَالتَّوْحِيدَ»** ويُشير بهذا إلى مثل ابن عربي الذي يقول:

كُلُّ كَلامٍ فِي الوُجُودِ كَلامُهُ سَواءٌ عَلَيْنَا نَثْرُهُ ونِظَامُهُ[١]

ويقول: (ليس هناك فرقٌ بين الخالق والمخلوق، الخالق هو المخلوق والمخلوق هو الخالق)! حيث قال:

الرب حق وَالْعَبْد حق يَا لَيْت شعري من الْمُكَلف
إن قلت عبدٌ فَذَاك ميتٌ أَو قلت ربٌ أَنَّى يُكَلف[٢]

فهذه حَيرة وضلال، وكذلك أتباعه في هذا، ولا يزال هذا الأمر عند بعض الناس ـ نسأل الله السلامة ـ.

كذلك إذا اشتبهت أوصافه ﷻ وخصائصه بأوصاف المخلوق وخصائصه فإن هذا ضلالٌ بيِّن. ولذلك فالعاصم منه أوَّلًا: أن يعلم الإنسان العلم اليقينيَّ بأن الله ليس كمثله شيءٌ؛ لا في ذاته، ولا فيما يخصه من الأوصاف والأفعال.

وحقُّه يجب أن يكون خالصًا له، لا يُشاركه أحد فيه، ولهذا حرم الله ﷻ الجنة على المشرك الذي يجعل حق الله مشتركًا بينه وبين بعض مخلوقاته، وهو الشرك الذي وقع فيه كثيرٌ من الناس.

والشرك يقعُ في الحق الذي هو أمرُه ونهيُه، ويقع في وصف الله ﷻ، ويقع في أفعاله، ولكن وقوعُه في الحقِّ أكثر، وقد كثر أيضًا وقوع الشرك في أوصافه وأسمائه.

فيجب على العبد المؤمن الذي يخاف ربه ويعلم أنه سيرجع إليه ويُحاسبه وأنه سيقف بين يديه = أن يحذر الوقوع في مثل هذه الأمور الفظيعة التي تنزه الله ﷻ عنها، وأخبر أن له الكمال، وبيَّن ذلك رسولُه ﷺ غايةَ البيان.

---

(١) كتاب العرش للذهبي (ص٨٩)، شرح الطحاوية لابن أبي عبد العز (ص١٣٢).

(٢) الفتوحات المكية (١/ ٢).

والشيطان أوجد لديهم بأنَّ العقل هو الذي يجب أن يحكم على الآيات التي نزلت على أنبيائه؛ لأنهم يقولون: (إن العقل هو الأصل الذي دلَّنا على وجود الله؛ فكيف يكون فرعًا تابعًا لما دلَّ هو عليه)، هذا مبدأ الضلال في ذلك، وإلا فالكتاب هو الذي يُرشد العقل ويدله، كما تُشير إلى هذا آيات كثيرة من كتاب الله ﷻ؛ ولهذا يقول: «**مِنْهُمْ إِلَى أَنْ اشْتَبَهَ عَلَيْهِمْ وُجُودُ الرَّبِّ بِوُجُودِ كُلِّ مَوْجُودٍ**»، وهو إشارةٌ إلى أصحاب «وحدة الوجود»، أو «أصحاب الحلول». فالحلول قال به النصارى كما هو معروفٌ أو طائفةٌ من النصارى الذين قالوا: (حل اللاهوت في الناسوت)، فاللاهوت هو الإله، والناسوت هو الإنسان، ولهذا يعبدون اثنين أو ثلاثة وهذا عند طوائف منهم.

ثم أخبرنا رسولنا ﷺ أن هذه الأمة ستتبع من سبقها من الأمم حَذْو النعل بالنعل، لا يخْرِمون شيئًا مما عندهم، فوُجد هذا فيمن يقول: (إن المخلوق هو الخالق، والخالق هو المخلوق)، أو: (أنه حلَّ في المخلوق)، تعالى الله وتقدس عن قولهم!

المقصود: أن قوله: «**إِلَى أَنْ اشْتَبَهَ عَلَيْهِمْ وُجُودُ الرَّبِّ بِوُجُودِ كُلِّ مَوْجُودٍ**». ولا مبرر للقول به إلا دعوة الشيطان إلى ذلك؛ غير أن الذين وقعوا فيه، عندهم استعدادٌ للضلال، وليس عندهم طلبٌ للحق، ولو كان عندهم طلبُ الحق؛ ما وقعوا في الشيء الظاهر الذي هو ضلالٌ بيِّنٌ واضحٌ، فكيف يشتبه وجودُ الله بوجود المخلوق؟! تعالى الله وتقدس.

الذي من الصِّفات الظَّاهرة الجلية: كونه الخالقَ لكل شيء، المالكَ لكل شيء؛ ولهذا يتحدَّاهم ﷻ يقول: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٠]، يعني: معبوداتهم؛ كيف تعبد شيئًا ليس له خلق، ولا تدبير، ولا نفعٌ، ولا رُوحٌ؟! أين العقل؟! فأي قياس هذا؟! وأي اشتباه يشتبه على الإنسان في مثل هذا؟!

كيف بعاقلٍ يعرف أنَّ الله ﷻ هو المتفرد بالخلق، وبالإيجاد، وبالضُّر والنَّفع، ثُمَّ يقصد مخلوقًا ـ إما حجرًا، أو شجرة، أو ميِّتًا، أو غائبًا ـ، ثم يعبده ويدعوه ثم يطلب منه النفع؟! هل هذا قياسٌ أو هذا اشتباهٌ أو عقلٌ؟!

الذي اشتبه عليه هذا، قد خالف المحسوسات والمعقولات والأدلَّة التي جاءت بها الرسل؛ ولهذا صار هذا ليس له عذر عند الله، بل هو في جهنَّم إذا مات على

ذلك، كما أخبر المصطفى ﷺ بأنَّ «**كل مشرك في النار**»[(١)].

قوله: «**فَظَنُّوا أَنَّهُ هُوَ فَجَعَلُوا وُجُودَ الْمَخْلُوقَاتِ عَيْنَ وُجُودِ الْخَالِقِ...**»؛ وهذا الكلام الذي نقله المؤلف: من الضلال البيِّن الواضح الذي لا يقع فيه إلا مَن طمس الله عقله وأعمى بصيرته، فكيف يكون الخالق هو المخلوق، أو أن يكون داخلًا فيه، أو أن يكون مثله؟!

والضلال لا حَدَّ له، فقد يضلُّ الإنسان عن الأمور التي يتعجَّب منها الإنسان، فكيف يقول هذا وعنده عقلٌ ونظرٌ، ويرى حججًا واضحةً ظاهرةً؛ كخلق السماوات والأرض وغيرها، ثم يجعله حالًا في المخلوقات أو اتحد فيها؟!

و«الحلول» أن يكون ممازجًا له، وأما «الاتحاد» فهو أن يكون عينه عين هذا الشيء، وكلاهما غاية في الكفر، وهذا الذي يقوله ابن عربي والتلمساني وابن الفارض وغيرهم من كبار الصوفية الذين وقعوا في الاتحاد، وقالوا: (إن الأمور كلها عين واحدة، ولا يوجد شيء محرم وشيء حلال، فكلها عين واحدة وكلها حلال)، وهذا ضلالٌ ما وصلَ إليه حتى إبليس ـ نسأل الله العافية ـ.

قوله: «**مَعَ أَنَّهُ لَا شَيْءَ أَبْعَدَ عَنْ مُمَاثَلَة شَيْءٍ**». من مماثلة المخلوق الضعيف بالخالق الغني الكبير العظيم، ومع هذا البُعد وهذا الوضوح ضلوا في هذا، ومن ضلَّ في هذا فهو فيما سواه أعظم ضلالًا.

المقصود: أنَّ هذا قول أهل الباطل الذي يشتبه عليهم رب العالمين بالمخلوق، وسبب ذلك: هو السُلوب التي كانوا يطلقونه في حق الله أو يصفون الله ﷻ بها، لمَّا قالوا: (إن الله ليس فوق، وليس تحت، وليس يمين، ولا شمال، ولا أمام، ولا خلف، ولا خارج العالم، ولا داخل العالم، ولا له مكان، ولا يجري عليه زمان)؛ فأين يكون؟!

فالذين يتبعون هذا القول ـ الذين غلب عليهم التَّألُّه والتعبُّد قالوا: (إما أن يكون هو المخلوق، بأن اتحد فيه وصار هو والمخلوق شيءٌ واحد، أو أنه حلَّ في

---

(١) لحديث النبي ﷺ: «**حَيْثُمَا مَرَرْتَ بِقَبْرِ مُشْرِكٍ فَبَشِّرْهُ بِالنَّارِ**»، الذي رواه ابن ماجه في سننه، في كتاب الجنائز، باب ما جاء في زيارة قبور المشركين (١/ ٥٠١) برقم (١٥٧٣)، من حديث عبد الله بن عمر ﭭ.

المخلوق ـ كما قالت النصارى ـ، وهذا هو الذي يريده الشيطان؛ لأنه ليس بعد هذا الضلال ضلال، نسأل الله العافية.

ومن التبس عليه المخلوق بالخالق، فقد سُلب عقله وفطرته وكلُّ دليلٍ يمكن يُستدل به، حتى أنهم أطلقوا على إمام هذه الطائفة الاتحادية: «محيي الدين»!؛ محيي الدين ابن عربي الطائي، الذي هو أضلُّ من اليهود والنصارى، ولا يزال الناس يختلفون فيه؛ فمنهم من يجعله فوق كل العلماء، ومنهم من يرى أنه أكفر من اليهود والنصارى، وهذا هو الواقع.

والذين دونه هم أصحاب الحلول؛ مثل: الأشاعرة الذين يقولون: (إن الله في كلِّ مكان). وهذا حلولٌ، تعالى الله وتقدَّس عن ذلك، وإن كانوا لا يصرحون بهذا.

وهذا كثيرٌ في الناس؛ فظنوا أنَّ الله في كلِّ مكانٍ واعتقدوا هذا، وقالوا: (هذا يدلُّ عليه قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤])، وما أشبه ذلك من الخطابات التي زعموا أنها تدلُّ على قولهم الباطل.

وقد وضح الله ﷻ هذا في كتابه، قال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤]، هذا يدلُّ على أنه عالٍ؛ لأن العرش هو سقف المخلوقات، وهو أعلاها، فهو مستوٍ عليه، والاستواء: هو الاستقرار على الشيء، كما هو معلوم. قال ﷻ: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: ٤]؛ فبيَّن أنه وهو على عرشه لا يخفى عليه شيء.

فالمُبطل قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ٤]: يعني: مُختلطٌ معكم، وفي أماكنكم ومُداخلٌ للمخلوقات، وهذا القائل اشتبه عليه وجود الرب بوجود المخلوق، وهو من أعظم الضلال وأبينه، وأوضحه، ومَن يُردِ الله ﷻ به الهُدى هداه؛ ومن يُرِدْ أن يُضلَّه منعه فضله وهدايته، نسأل الله ﷻ أن يرزقنا الهدى، وألَّا يجعلنا ممن يلتبس عليه الباطل بالحّق، ولا يشتبه هذا بهذا فيضل.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَمَنْ اشْتَبَهَ عَلَيْهِم وُجُودُ الخَالِقِ بِوُجُودِ المخْلُوقَاتِ ـ حَتَّى ظَنُّوا وُجُودَهَا وُجُودَهُ ـ».

الشَّرح

قوله: «حَتَّى ظَنُّوا وُجُودَهَا وُجُودَهُ». كما يقولون: (الخالق هو المخلوق والمخلوق هو الخالق) ـ تعالى الله وتقدس ـ، ويقولون: (إذا صلى الإنسان فهو يُصلي لنفسه! وإذا عبد فهو يعبد نفسه!)، وهذا من أعظم الضلال.

قال ابن الفارض:

لها صلواتي بالمقام أقيمها ... وأشهدُ فيها أنها ليَ صلَّتِ
كلانا مُصلٍّ واحدٌ ساجدٌ إلى ... حقيقته بالجمع في كلِّ سجدةِ
وما كان لي صَلَّى سواي ولم تكن ... صلاتي لغيري في أدا كلِّ ركعةِ

إلى قوله:

وما زلتُ إيَّاها وإيَّايَ لم تزل ... ولا فَرْقَ بل ذاتي لذاتي أحبَّتِ[1]

* * *

(١) ينظر: الرد على الشاذلي لابن تيمية (ص١٥٣)، ودرء تعارض العقل والنقل (٦/ ١٦٩).

قال رحمه الله تعالى:

«فَهُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ ضَلَالًا مِنْ جِهَةِ الِاشْتِبَاهِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَوْجُودَاتِ تَشْتَرِكُ فِي مُسَمَّى «الْوُجُودِ» فَرَأَوْا الْوُجُودَ وَاحِدًا، وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ الْوَاحِدِ بِالْعَيْنِ وَالْوَاحِدِ بِالنَّوْعِ».

الشَّرح

هذا إذا كان يريد الحقَّ فأخطأ، أمَّا إذا كان يريد إضلال النَّاس ـ وهو يعرف الحقَّ ـ فهو أخو الشَّيطان، ويوجد من الناس من يكون هكذا، يعرف الحق ولا يريده، فيأتي بالباطل يدعو إليه، وهو يعرف أنه باطلٌ تمامًا.

ومن أسباب ضلال الطوائف في هذا الباب: أنهم جعلوا كلَّ لفظٍ يُطابق اللفظ يكون دالًّا على الاشتباه، فلا يجوز ـ عندهم ـ أن نقول: (إن لله سمعًا لأن الإنسان له سمع)، ولا يجوز أن نقول: (لله يدٌ لأن الإنسان له يدٌ)، وهكذا...، ثم وصل الأمر إلى «الوجود» فقالوا: (الوجود مشترك بين الخالق والمخلوق؛ فإما أن يكون وجود الرب هو وجود المخلوق، أو يكون وجوده أيضًا هو)، أي: أنه داخلٌ في المخلوق وحالٌّ فيه.

فلم يفرقوا بين من هو أعظم من كلِّ شيء وأكبر من كل شيء وهو العليم الرحيم، السميع البصير الذي لا يخفى عليه شيء ﷻ، وبين الضعيف الذي يحتاج إلى من يجلب له النفع ويدفع عنه الضر وهو فقيرٌ إلى الوجود، فقبل إيجاد الله له هو عدمٌ، وبعد إيجاده سوف يموت، فهو مفتقرٌ إلى ربِّه ﷻ، فكيف يشتبه هذا بهذا؟! هذا من أبعد الأمور مقارَبَةً ومشابَهَةً، ولكن الضلال لا نهاية له ـ نسأل الله العافية ـ.

قوله: «وَذَلِكَ أَنَّ الْمَوْجُودَاتِ تَشْتَرِكُ فِي مُسَمَّى (الْوُجُودِ)». مسمى (الوجود) هذا شيءٌ ذهنيٌّ لا يكون في الخارج، إذا قلتَ: «وجود» فلا بُدَّ أن تُضيفه إلى شيء فتقول: «وجود المخلوق»، أو: «وجود فلان»، أو: «وجود الأرض»، أو: «وجود السماء»، وما أشبه ذلك.

وهكذا إذا قلت: «علم»، فنحن لم نشاهد علمًا يقوم بنفسه، لا بُدَّ أن يقوم

العلم بعالِم، كما أن الفعل لا بُدَّ أن يقوم بفاعِلٍ، فهذا مبدأ الضَّلال الذي حاروا فيه مع أنه ظاهِرٌ وجليٌّ.

قوله: «**وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ الْوَاحِدِ بِالْعَيْنِ وَالْوَاحِدِ بِالنَّوْعِ**». «**الواحد بالعين**»؛ أي: كون فلان بعينه، «العين» هو المُعيَّن، تقول: «بكر» فَيُعرف بعينه ويتميز. فلا بُدَّ لكلِّ واحدٍ شيءٌ يخصُّه ويتميَّز به عن غيره.

أما «النوع» فإذا قلت: «شجرة»، فهي تطلق على كل شجرة حتى تميز وتعيِّن شجرة مخصوصةً، فتعينها بالإشارة أو الوصف وما أشبه ذلك، فالكليات التي في الأذهان لا بُدَّ من تعيينها حتَّى تتميز عن غيرها.

ف «النوع» هو: الشائع في جنسه مثل: شجرة، بقرة، سيارة، رجل، هذا يُطلق على كل من شمله هذا الاسم.

فالله ﷻ هو أكبر الأشياء وأعظمها وهو عين كل كمال وغنى، ﷻ، فالذي لا يفرق بين الخالق والمخلوق في هذه الصفات فضلاله واضحٌ وظاهر جلي، فكيف إذا جاء إلى الأسماء والصفات؟ هذا أعظم اشتباهًا وأعظم إنكارًا لها.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَآخَرُونَ تَوَهَّمُوا أَنَّهُ إِذَا قِيلَ: الْمَوْجُودَاتُ تَشْتَرِكُ فِي مُسَمَّى «الْوُجُودِ» لَزِمَ التَّشْبِيهُ وَالتَّرْكِيبُ، فَقَالُوا: لَفْظُ «الْوُجُودِ» مَقُولٌ بِالِاشْتِرَاكِ اللَّفْظِيِّ، فَخَالَفُوا مَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ الْعُقَلَاءُ مَعَ اخْتِلَافِ أَصْنَافِهِمْ مِنْ أَنَّ الْوُجُودَ يَنْقَسِمُ إِلَى قَدِيمٍ وَمُحْدَثٍ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ أَقْسَامِ الْمَوْجُودَاتِ».

الشرح

قوله: «وَآخَرُونَ تَوَهَّمُوا أَنَّهُ إِذَا قِيلَ: الْمَوْجُودَاتُ تَشْتَرِكُ فِي مُسَمَّى الْوُجُودِ»: فتوهموا أن هذا الاشتراك يدل على التشبيه، فيقول: (الله موجود والمخلوق موجود)، (الله شيء والمخلوق شيء)، وهذا أيضًا من جنس ما سبق من الضلال الظاهر البيِّن، ومن اشتبه عليه هذا فهو أشبه بالمجانين ومسلوب العقل.

فوجود الرب ﷻ لا يحتاج إلى استدلال، وهو غنيٌّ بذاته عن كل شيء، وهو الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، كيف يشتبه في وجود الضعيف الفقير الذي يحتاج إلى الوجود إلى أن يوجد؟! وقبل وجوده هو عدمٌ، فالله هو الذي أوجده من العدم ثم يلحقه الفناء والموت ولا بُدَّ، وهو أيضًا في حالة وجوده فقيرٌ إلى من يجلب له المنافع ويدفع عنه المضار، وهذا لا يكون إلا لله ﷻ ولا يكون لمخلوق، لا ملَكٍ ولا رسولٍ ولا وليٍّ، فهذا من أعظم الضلال.

والاشتراك اللفظيُّ هذا لا بُدَّ منه حتى يعرف الإنسان الشيء الذي خُوطب به، أما بدون معرفة الاشتراك اللفظي في الذهن فلن يفهم الخطاب ـ كما سبق ـ.

فلو لو لم يكن عندنا من لبن وخمر وعسل وماء، فكيف نعرف الخطاب إذا قيل إن الجنة فيها: ﴿أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]، وكذلك ذِكر الحور، وذكر الفواكه وغيرها؟ فلا بُدَّ أن يكون عندنا شيءٌ عرفناه عن هذه الأشياء المذكورة.

وإن كانت المماثلة مرفوعة، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أنه ليس عندنا في

الدنيا مما في الجنة إلا مجرد الأسماء فقط»[1]، أما اللون والطعم والحقيقة فهي تختلف، فإذا كان هذا في المخلوق فكيف الخالق رب العالمين الذي هو غنيٌّ بذاته عن كلِّ ما سواه، وهو الذي أوجد الموجودات وكانت عدمًا، وهو الذي يُفنيها إذا شاء ﷻ، فمن ضلَّ في هذا فهو ضلَّ ضلالًا بيِّنًا واضحًا عند جميع العقلاء.

قوله: «إنَّ الْوُجُودَ يَنْقَسِمُ إِلَى قَدِيمٍ وَمُحْدَثٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ أَقْسَامِ الْمَوْجُودَاتِ». قديم ومحدث وغني وفقير:

فالقديم من اصطلاح المتكلمين، والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يخاطبهم باصطلاحهم.

* والقديم الذي هو بمنزلة «الغني بالذات عن كلِّ شيء»، ما يحتاج إلى شيء، ما احتاج في وجوده إلى مُوجِد، ولا يحتاج في غِناه إلى من يُساعده أو يعاضده ـ تعالى الله وتقدس ـ، فأطلقوا اسم «القديم» على الغني بذاته عن كل شيء.

* أو القديم بمعنى: «الصمد»؛ لأن الصمد هو الذي قام بنفسه واستغنى بنفسه عن كلِّ شيء، وصمد إليه كل مخلوقٍ بحاجته؛ أنه محتاج مفتقر إليه.

والكون كلُّه لا يخلو عن خالقٍ ومخلوقٍ، فـ «الخالق» هو الواحد الأحد الذي لا يُشاركه شيءٌ في ذلك وهو الله ـ تعالى وتقدس ـ، و«المخلوق» كلُّ ما سواه من الأعيان والعقلاء والذوات وغيرها.

فالله ﷻ خلق السموات والأرض وما فيهنَّ، وهو الذي إذا شاء قبض السَّموات وطواها، وكذلك الأرض، كما قال ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٧﴾ [الزمر: ٦٧]، إذا كان من صفاته أن المخلوقات كلَّها يطويها ويقبضها بيديه ـ تعالى وتقدس ـ، فكيف يلتبس الأمر على من عنده عقلٌ وفكرٌ؟! وجُعلت الموجودات كلها آيات تدل على وجوب عبادة ربه وأنه لا يُشبه خلقه ـ تعالى الله وتقدس ـ.

فمما اتفق عليه العقلاء: أن «الوجود» ينقسم إلى وجود «قديم»، و«محدث». وكلمة «قديم» هذا الإطلاق من باب الاصطلاح، وإلا فلا يسمى الله ﷻ بأنه قديم، ولكن هكذا المتكلمون يجعلون من أخصِّ صفات الله «القِدم»، أما «المحدَث» فهو كلُّ مخلوقٍ.

---

(١) تقدم تخريجه.

ومقصودهم بهذا: أنَّ الوجود ينقسم إلى قسمَين فقط، وجود خالق ووجود مخلوق فقط.

وإطلاق (قديم) على الله تسميةً له به هذا لا يصح ولا يجوز، ولكن يجوز مخاطبة الناس بما يتخاطبون فيه، ولا يكون ذلك إقرارًا لهم على هذا، وإنما هو مخاطبةٌ لهم بما يعرفونه، أما أن يسمى ربُّنا ﷻ بأنه «قديم»؛ فهذا لا يجوز؛ لأن القديم نسبيٌّ، فكُل شيء يأتي نظيره بعده يسمى الذي قبله قديمًا، كما قال ﷻ في القمر: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝٣٩﴾ [يس: ٣٩]، وقال إخوة يوسف: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ۝٩٥﴾ [يوسف: ٩٥]، يعني بالقديم: الذي كان قبل هذا الوقت، أي: أنه جاء ضلالٌ جديدٌ غير الضلال القديم، وفي هذا العرجون القديم يعني الذي جاء الجديد بعده، والعرجون هو قِنْو النخلة؛ ينثني ويوضع على العسيب، ويكون شبه الهلال.

فالمقصود: أنَّ كلمة «قديم» هذه نسبية، لا يكون القديم: قبل كل شيء، وإنما يقال في حق الله: الأول، كما قال الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، وفسره الرسول ﷺ بأنه: «**الأول قبل كل شيء، والآخر بعد كل شيء، والظاهر فوق كل شيء، والباطن دون كل شيء**»[(١)]. فهذا من أحسن التفسير، أبلغها وأوجزها، فلا يجوز العدول عنه؛ لأن هذه أسماء خاصَّةٌ بالله ﷻ، لا يمكن أن يوصف بها مخلوق، كل من كان أوَّلًا لا يكون آخِرًا، ومن كان ظاهرًا لا يكون باطنًا.

قوله: بأنه «**يَنْقَسِمُ إِلَى قَدِيم وَمُحْدَثٍ**»، يعني: ينقسم إلى غنيٍّ بذاته عن كل شيء، وإلى فقير إلى من يوجده ويُحدثه، الثاني المخلوق، الأول: الخالق ﷻ.

قوله: «**قديم**»، يعني: هذا من اصطلاح المتكلمين، فهم دائمًا إذا تكلموا عن رب العالمين قالوا: «**قديم**»، والقِدم عندهم أخصُّ صفاته، مع أنه لم يأتِ لا في كتاب الله ولا في سُنَّة رسوله ﷺ تسميته بـ«**قديم**»، ولكن المؤلف يخاطبهم باصطلاحهم، فلهذا إذا قيل: «**قديم**» نقول: هذا من باب الخبر، وليس من باب التسمية.

---

(١) تقدم تخريجه.

والمقصود بـ«باب الأخبار»: أنه يُخبر عن الشيء وفيه توسُّعٌ، وليس من باب التسمية والوصف، كما قال الله ﷻ: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤﴾ [الواقعة: ٦٣ ـ ٦٤]؛ فلا يسمَّى ربُّنا زارعًا، ولكن يُخبر بأنه هو الذي يزرع ﷻ، كما أنَّه هو الذي يحيي ويميت، وهو الذي ينزل المطر وينبت النبات.

وكذلك «الوجود»: لا نسمي ربنا به، ولكن نخبر به عنه، فإذا قيل: «الله موجود»، نقول: نعم، الله موجود. ولكن ما نقول بأن من أسمائه: «الموجود»، فالذي يسمى: (عبد الموجود) خطأ؛ حيث لا يوجد من أسماء الله «الموجود».

المقصود في قول: «قَدِيم وَمُحْدَثٍ» أن «القديم» ليس اسمًا لله ﷻ، ولكن هكذا اصطلحوا عليه، فيطلقون «القديم» بإزاء «المحدث»، ويقصدون به الله تعالى، و«المحدث»؛ أي: المخلوقات.

وقد يعبِّرون بتعبير آخر، فيقولون: «الواجب» و«الجائز»:

«الواجب» عندهم: الغنيُّ بذاته عن كل ما سواه، لا في وجوده، ولا في أوصافه، ولا في أفعاله، فهو غني قائم بنفسه عن كل شيء من المخلوقات.

و«الجائزُ»: الذي وُجِدَ بعد أن لم يكن، وكذلك يعدم؛ لأنَّ ما سُبِق بالعدم يلحقه العدم، والمقصود بالعدم هو الموتُ.

أمَّا دوام أهل الجنة وأهل النار؛ فإن هذا ليس مما اكتسبته ذاته، وإنما هذه بإدامة الله لهم، فليس لهم وجود من أنفسهم. فكلُّ مخلوق هكذا إن لم يُدِمْه الله ﷻ أو لم يحيه؛ فإنه لا يستطيع أن يوجِد شيئًا من ذلك بنفسه.

والمقصود: أنَّ الموجوداتِ كُلَّها في الكون لا تخلو عن هذا:

* فإما أن يكون المخلوق واجبَ الوجود، وهذا لا يكون إلا لله فقط، لا يشاركه شيء في ذلك.

* أو أن يكون جائز الوجود، وهو المخلوق الذي كان بعد أن لم يكن، ويلحقه الموت.

وهذا تقسيم أُخذ بالعقل والنظر وسبر الأمور، وهو أمر واضح لا إشكال فيه.

فهل يكون وجودُ الله ﷻ كوجود مَن يفنى ويفتقر إلى من يوجده، وإذا لم يوجده الله ﷻ أو لم يزل عنه الموانع التي تمنع حياته فلا يستطيع أن يقوم بنفسه، ولا يستطيع أن يحيى؟! فإلحاق هذا بهذا من أعظم الضلال.

قال رحمه الله تعالى:

﴿«وَطَائِفَةٌ ظَنَّتْ أَنَّهُ إِذَا كَانَتْ الْمَوْجُودَاتُ تَشْتَرِكُ فِي مُسَمَّى «الْوُجُودِ» لَزِمَ أَنْ يَكُونَ فِي الْخَارِجِ عَنْ الْأَذْهَانِ مَوْجُودٌ مُشْتَرَكٌ فِيهِ، وَزَعَمُوا أَنَّ فِي الْخَارِجِ عَنْ الْأَذْهَانِ كُلِّيَّاتٍ مُطْلَقَةً: مِثْلَ وُجُودٍ مُطْلَقٍ، وَحَيَوَانٍ مُطْلَقٍ، وَجِسْمٍ مُطْلَقٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ فَخَالَفُوا الْحِسَّ وَالْعَقْلَ وَالشَّرْعَ، وَجَعَلُوا مَا فِي الْأَذْهَانِ ثَابِتًا فِي الْأَعْيَانِ، وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ أَنْوَعِ الِاشْتِبَاه».

الشرح

الذي اشتبه عليهم هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق، وهذا لا وجود له إلا في الذهن فقط، فلا بُدَّ أن يُضاف إلى شيء تقول: «وجود المخلوق»، «وجود زيد»، «وجود بكر»، «وجود الله»، «وجود الملائكة»، «وجود السماء».

أما مطلقًا دون إضافة فهذا لا حقيقة له، ولا وجود له في الخارج.

و«**الخارج**»: معناه الخارج عن الذهن؛ لأن الذهن قد يفرض شيئًا مستحيلًا ممتنعًا لا وجود له أصلًا، فالذي يشتبه عليه هذا الأمر فهو في غيره أولى بالاشتباه، فإذا اشتبه عليه الأمر وهو من الأمور الظاهرة الجلية فما بالك بما دونه!

قوله: «**كُلِّيَّاتٍ مُطْلَقَةً**». شرط الإطلاق هذا لا حقيقة له إلا في الذهن فقط، فهي خيالات؛ لأن الوجود لا بُدَّ أن يقول: «وجود العبد»، أو: «وجود الجبل»، أو: «وجود السماء»، أو: «وجود الأرض»، أو: «وجود الله» ﷻ.

أما أن يقول: «وجود»، فهذا شيءٌ ليس له حقيقة، وكذا إذا قلت: «حياة»، أو: «موت»، أو: «علم»، أو ما أشبه ذلك؛ لأن هذه كلها معانٍ، و«المعاني» لا تقوم بنفسها ولا تشاهَد، وإنما تقوم بذاتٍ تتَّصف بها تلك الصفات.

فالمقصود: أنَّ هذه الاصطلاحات دخلت على كثيرٍ من الناس من المنطق، فبعض الناس يتصور أن لها حقائقَ وهي لا حقائقَ لها في الواقع، وهؤلاء الضُّلَّال تصوروا أن «الوجود» واحِدٌ، ولا فرق بين وجود الخالق ووجود المخلوق، وأنَّ الوجود قد اتَّحد فيه!

وهذا غاية في الكفر ونهايته، وليس وراء هذا كفرٌ - نسأل الله العافية -، ومن اشتبه عليه الخالق بالمخلوق؛ فهو عنده أعظم الشُّبَه، وليس له عقل ولا نظر.

قوله: «**مِثْلَ وُجُودٍ مُطْلَقٍ**»؛ ليخرج منه الوجود المعين المضاف، فالوجود المطلق لا وجود له، شيءٌ ذهني فقط لا حقيقة له، وإنما الحقيقة في وجود الموجودات المعينة التي يُضاف إليها وجوده، وكلُّ موجود له وجود يخصُّه، ووجوده أيضًا ليس بنفسه، لم يكتسبه بنفسه وإنما الله ﷻ هو الذي أكسبه إيّاه، وإلا كان أوّلًا عدمًا، كما قال الله ﷻ: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝١﴾ [الإنسان: ١] أي: جنس الإنسان لم يكن شيئًا مذكورًا. ويقول: ﴿خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ۝٩﴾ [مريم: ٩]، فالله هو الذي يوجد الأشياء من العدم، وكل ما سبقه العدم يلحقه العدم ولا بُدَّ، وهذه صفة المخلوقات كلها. أما وجود الله ﷻ فلا يجوز أن يلتبس بوجود الضعيف الذي سُبق بالعدم ويلحقه العدم، وهو ﷻ الغني بذاته عن كل ما سواه.

والمقصود: أن الوجود المطلق لا وجود له وإنما هو في الذهن، وكذلك ما مثَّل من «**حَيَوَانٍ مُطْلَقٍ، وَجِسْمٍ مُطْلَقٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ**» فهذا كله لا وجود له إلا في التصور والذهن فقط، أما في الخارج فلا وجود له، ولا حقيقة له.

فالذهن يفرض شيئًا ممتنعًا أو مستحيلًا وليس ذلك بشيء، وإنَّما الشَّيء هو الذي له وجودٌ حقيقيٌّ. ومعلومٌ أن وجود المخلوق سُبق بالعدم وأنه إذا سُبق بالعدم يلحقه العدم كذلك، وليس معنى العدم أنه يُعدم كليةً؛ لأن العدم ينقسم إلى **قسمين**:

القسم الأول: عدمٌ مطلق: فهذا ليس بشيء، ولا وجود له أصلًا.

القسم الثاني: عدمٌ في الخارج والنظر والحس، ولكنه شيءٌ في علم الله، أن الله يعلم أنه سيوجد أو أنه سيفنى وينتهي، وهذا الذي ينطبق عليه المخلوقات كلها بهذه الصفة.

وهذه الطائفة ظنت أنه إذا كانت الموجودات تشترك في مسمَّى «الوجود»، وقد سبق الكلام فيه، مثل الفرق بين الذرة والعرش مثلًا، فالذرة موجودة والعرش موجود، فهل بينهما تماثل؟! تشابه في مجرد اللَّفظ، وذلك لا يقتضي التشابه.

فهؤلاء أخذوا مجرد الألفاظ وأعرضوا عن المعاني، وعن التفريق، وما دلَّ

على الفرقان من اللغة والوضع؛ وكذلك خطاب الله ﷻ وخطاب رسوله ـ ﷺ. ومن ضلَّ في مثل هذا كيف يهتدي في المعاني التي لا تُدرك إلا بالتأمُّل؟!

وكلمة «**المطلق**» هذا في الذهن فقط، فإذا قلت: «وجود مطلق»، يعني: غير مقيد؛ لأن المقيَّدات هي التي تتعيَّن وتوجد، أما المطلق فلا وجود له في الخارج، فلا يكون موجودًا.

وقد يكون الاصطلاح الذي يصطلح فيه غير هذا، مثل الذين قالوا: «إيمانٌ مطلق» أو: «الإيمان المطلق»، فعندهم «الإيمان المطلق» هو الإيمان الكامل، أما مطلق الإيمان يعني: جزءٌ من الإيمان أُطلق عليه، فيكون الفاسق عنده «مطلق الإيمان»، بخلاف كامل الإيمان فله عنده «الإيمان المطلق»، أي: الكامل.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَمَنْ هَدَاهُ اللهُ فَرَّقَ بَيْنَ الْأُمُورِ وَإِنْ اشْتَرَكَتْ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ، وَعَلِمَ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْجَمْعِ وَالْفَرْقِ، وَالتَّشَابُهِ وَالِاخْتِلَافِ؛ وَهَؤُلَاءِ لَا يَضِلُّونَ بِالْمُتَشَابِهِ مِنَ الْكَلَامِ لِأَنَّهُمْ يَجْمَعُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُحْكَمِ الْفَارِقِ الَّذِي يُبَيِّنُ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْفَصْلِ وَالِافْتِرَاقِ».

الشرح

قوله: «وَمَنْ هَدَاهُ اللهُ فَرَّقَ بَيْنَ الْأُمُورِ...». القرآن بيَّن هذا، وكذلك الرسول ﷺ وضَّحَ هذا، وليس فيما جاء به الرسول ﷺ؛ لا في كتاب الله ولا في سنته ﷺ شيءٌ يشتبه على من أراد الحقَّ، وإنما هناك شيءٌ أخبر به الرسول، مثل قوله ﷺ: «**الحلال بيِّنٌ والحرام بيِّن وبينهما أمورٌ مشتبهات**»، فهذه الأمور المشتبهات تشتبه على بعض الناس فقط، أما العلماء فما تشتبه عليهم، فإنهم يعرفونها؛ ولهذا قال: «**من اجتنب المتشابهات استبرأ لدِينه وعِرضه، ومن وقع فيها يوشك أن يقع في الحرام**»[1].

والكلام يكون فيه اشتباهٌ من وجه؛ لأن الله ﷻ أراد اختبار عباده وابتلاءهم حتى يتميز من يتبع الحق ويطلبه ويُريده، ممن يتبع الضلال؛ فالضَّالُّ يتمسك بالأمور المشتبهة كما قال الله ﷻ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧]، «الفتنة»: هي الضَّلال الذي ضلوا فيه؛ لأنهم يتبعون هذا المشتبه وإن كان بعيدًا، وإلا فإذا قال ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾، فهل يستطيع الإنسان ـ الذي سَلِم من الانحراف ـ أن يفهم أن سمعه وبصره كسمع المخلوق الضعيف وبصره؟!

هذا لا يفهمه إلا من عنده فتنةٌ وأراد الله ضلالَه، فضلًا عن الذي يأخذ من قول الله ﷻ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الواقعة: ٨٥]، وقوله: ﴿أَنَّا خَلَقْنَا﴾ [الإنسان: ٢]، وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩]،

(١) تقدم تخريجه.

وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإنسان: ٢٣] وما أشبه ذلك، أن الضمير «إنا» للجماعة!

قالت المبتدعة: هذا يدلُّ على أن الخالقين جماعة! فهل يُفهم هذا من هذا الخطاب؟! ما يفهمه إلا من استولت الفتنة على قلبه وضلَّ، وكل ضالٍّ فلا بُدَّ أن يجد شيئًا يتعلق به من الأمور التي فيها اشتباهٌ.

الله ﷻ يقول لنا: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣] فيأتي الضالُّ فيقول: (إذًا: الله في الأرض وفي السماء وفي كلِّ مكان؛ بدليل هذه الآية)، ويترك قول الله ﷻ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ﴾ [الملك: ١٦]، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨]، وما أشبه ذلك من الآيات الكثيرة!

والمقصود: أن من عنده ضلالٌ وعنده زيغٌ لا بُدَّ أن يجِدَ شيئًا يتمسك به وإن كان بعيدًا، وتمسُّكه به من باب طلب الفتنة وطلب التأويل البعيد الذي هو إخراجٌ للكلام عما أُريد به إلى معنًى آخر لا يدلُّ عليه، فالله ﷻ ابتلى خلقه بذلك، ولهذا جعل فيه المحكم والمشتبه. فالذي يريد الحق: إذا اشتبه عليه شيء من خطاب الله أو خطاب رسوله يقول: (آمنت به، كله من عند الله ربي، وأعلم أنه لا يتضارب ولا يختلف؛ لأنه من الله ـ تعالى وتقدس ـ علام الغيوب).

ولهذا أخبر عن أولي العلم أنهم: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، يعني: كلُّه حقٌّ، لا يتضارب ولا يخالف بعضه بعضًا، بل يُصدق بعضه بعضًا.

والله ﷻ حكَمٌ عدْلٌ لا يأخذ الإنسان إلا بما عَمِل عَمَلًا ظهرَ وبانَ، وكتبَتْه الكتَبَة وسجَّلته عليه؛ وإلا فهو يعلم أن هذا سيضِلُّ قبل وجوده، وأن هذا سيهتدي قبل وجودِه. لكن الله ﷻ لكمال عدله وإعذاره إلى خلقه لا يأخذهم إلا بأعمالهم الظاهرة التي يعملونها، ولا بُدَّ من إقرارهم وتقريرهم بذلك، ولهذا يُقِرُّون على أنفسهم بأنهم ضلُّوا، يشهدون على أنفسهم شهادةً ظاهرةً عندما يسألهم الله ﷻ يوم القيامة إذا ما يحق الحق ويذهب البهرج والأمور التي لا تُجدي شيئًا.

إنَّ الفرق بين الحق والباطل بيِّنٌ ظاهِرٌ، وأعظم الفروق: الفرق بين الخالق والمخلوق، والفروق بين أوصافه وأسمائه وأوصاف المخلوقين وأسمائهم، ويتبع

ذلك الفرق بين ما أوجبه الله لنفسه وما أباحه لخلقه؛ فالله أوجب لنفسه أن يكون هو المعبود وحدَه، وبيَّن العبادة بما أنزله من كتابه ﷻ على رسوله، والرسول ﷺ أيضًا تولى ذلك وبيَّنه ووضَّحه، وكلٌّ هذا من كمال عدْلِه ﷻ.

❁ ❁ ❁

قال رحمه الله تعالى:

«وَهَذَا كَمَا أَنَّ لَفْظَ «إِنَّا» وَ «نَحْنُ» وَغَيْرُهُمَا مِنْ صِيَغِ الْجَمْعِ يَتَكَلَّمُ بِهَا الْوَاحِدُ لَهُ شُرَكَاءُ فِي الْفِعْلِ، وَيَتَكَلَّمُ بِهَا الْوَاحِدُ الْعَظِيمُ، الَّذِي لَهُ صِفَاتٌ تَقُومُ كُلُّ صِفَةٍ مَقَامَ وَاحِدٍ، وَلَهُ أَعْوَانٌ تَابِعُونَ لَهُ؛ لَا شُرَكَاءُ لَهُ فَإِذَا تَمَسَّكَ النَّصْرَانِيُّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩] وَنَحْوَهُ عَلَى تَعَدُّدِ الْآلِهَةِ، كَانَ الْمُحْكَمُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٣]».

الشرح

قوله: «وَهَذَا». يشير إلى ما سبق.

فهذه الألفاظ أو المفردات قد تكون مشتبهةً على بعض النَّاس من وجهٍ دون وجهٍ، وقد يتعلق بها المبطل بأنَّ فيها شيئًا ممَّا يدلُّ على باطله. ومن ذلك ما ذكره المؤلف في قوله تعالى عن نفسه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩]، فلفظ «إنا» و«نحن» وضعت للجماعة الذين يتكلمون، ووضعت أيضًا للتعظيم، فصار الاشتباه من هذا القبيل، فيصحُّ أن تكون للجماعة ويصحُّ أن تكون للواحد المعظَّم، والنصارى عندهم آلهة متعددة، فيقولون: (إن هذا دليلٌ على أن الآلهة متعددة)، وهكذا أهل الباطل يتعلقون بأشياء بعيدة، ويزعمون أنها أدلة، ولكن لو كانت عليهم وتبطل باطلهم = ما استدلوا بها، ولا نظروا إليها. وهكذا كلُّ صاحب باطلٍ، فإنما يبحث عمَّا يدلُّ على باطله فقط.

ويُرَدُّ عليهم بالآيات المحكمة، كقوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٣]، ونحوها من الآيات.

قوله: «وَغَيْرُهُمَا». معطوف على «**كَمَا أَنَّ لَفْظَ «إِنَّا» وَ «نَحْنُ» وَغَيْرُهُمَا مِنْ صِيَغِ الْجَمْعِ**».

قوله: «**وَغَيْرُهُمَا مِنْ صِيَغِ الْجَمْعِ يَتَكَلَّمُ بِهَا الْوَاحِدُ لَهُ شُرَكَاءُ فِي الْفِعْلِ**»، يعني: «**إنا**» و«**نحن**» يتكلم بها الواحد الذي له شركاء في الفعل، الذي يفعلونه،

يتكلم بها الواحد العظيم، الذي له من يأتمر بأمره، ويقوم به، فتشترك؛ مثلما قالت النصارى: (إنَّ هذه الألفاظ تدلُّ على تعدد الآلهة)، وعندهم ـ كما هو معلوم ـ الآلهة ثلاثة: «الله سبحانه، ومريم، وابنها، ﷺ»؛ يقولون: (حلَّ اللاهوت بالناسوت)، أي أن الإله حلَّ بإنسان! وهذا ضلالٌ بيِّنٌ.

وهذا لا يدل على ما يقولون، ولكن المُبْطِل يبحث عن شيء يتعلَّق به، فإذا وجد لفظةً مثلًا فيها إجمال، وقد يكون فيها شيء من العموم؛ أخذوها لعمومها، وهي ترجع إلى الاصطلاح وإلى الخطاب وإلى غير ذلك.

فالمقصود: أن كلمة «إِنَّا» وَ «نَحْنُ» هذه فيها اشتباه عند بعض الناس؛ ولهذا النصارى استدلوا بها على التثليث، وهل تدلُّ على الباطل في كلام الله؟! فيقال: قوله ﷻ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣]، ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ [الإخلاص: ٢ ـ ٣]، فهذا يفسِّر ويبيِّن ويوضِّح أن الذي يقول بذلك يكون مخطئًا وطلب شيئًا ما دلَّت عليه الألفاظ، ولهذا فإنَّ هذه يقولها الواحد العظيم، الذي له أعوان مثل: الملك؛ فإنه يقول: «نحن أمرنا بكذا وكذا»، والذي ينفِّذ ذلك، هم من الوزراء والوكلاء وغيرهم ممن يقوم بهذا، فيكون كلامه صحيحًا.

قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦﴾ [ق: ١٦]، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝٨٥﴾ [الواقعة: ٨٥]؛ اختلف المفسرون في هذا: هل المقصود بالقرب هو الله أو المقصود الملائكة؟ ولكل قولٍ مسوغ؛ لأن الملائكة تقبض أرواح المحتضرين، والملائكة كذلك تسجِّل على الإنسان كل ما تلفظ به؛ ولهذا قال: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق: ١٧ ـ ١٨]، يعني: يترقب مستعدًّا للكتابة ما يلفظ من قول؛ فكلُّ ما يلفظ به يُكتب وسيُعرض عليه يوم القيامة.

والنصارى يقولون: «إِنَّا» وَ «نَحْنُ» هذا يدلُّ على الجماعة، على التثليث؛ لأنهم قالوا: (الله وعيسى وأمه كلهم آلهة)، فهل يدل على الباطل؟

نقول: كلا؛ ويقطع هذا الشك أو هذا التأويل الباطل كثيرٌ من الآيات في كتاب الله ﷻ.

وكذلك أهل الباطل الذين يؤولون الصفات أو يعطلون رب العالمين عن صفاته، نقول: إن استدلالهم لكل ما استدلوا به استدلال باطل، وكذلك أهل

الإرجاء والخوارج وغيرهم؛ فكل مبطلٍ يستدل بشيءٍ من القرآن، والقرآن لا يدلُّ على ذلك، ولكن صار فيه نوعُ اشتباهٍ لأهل الفتن، فافتتنوا بهذا.

قوله: «يَتَكَلَّمُ بِهَا الْوَاحِدُ الذي لَهُ شُرَكَاءُ فِي الْفِعْلِ، وَيَتَكَلَّمُ بِهَا الْوَاحِدُ الْعَظِيمُ...»؛ أي: أنها تطلق على الشيء المشترك، وتطلق على الواحد العظيم، يعني: إذا حملنا هذا على أن المقصود العظيم هو الله ﷻ فلا يجوز أن نقول: له أعوانٌ، بل يجب أن نقول: له عبيد، يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه، والله ليس له أعوانٌ. أما إذا قُصد بها عظماء الناس؛ فنعم، ولكن يقول: «**الَّذِي لَهُ صِفَاتٌ تَقُومُ كُلُّ صِفَةٍ مَقَامَ وَاحِدٍ**» لها معانٍ غير المعاني الأخرى، كل صفةٍ تقوم مقام واحد، وقد يقصد به العظيم من بني آدم.

قوله: «وَلَهُ أَعْوَانٌ تَابِعُونَ لَهُ». «أَعْوَانٌ»؛ يعني: للمخلوق، أمّا رب العالمين ﷻ فليس له أعوان، ولا يحتاج إلى أعوان ـ تعالى وتقدّس ـ؛ فإنه إذا أراد الشيء قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾، ولكن من حكمته: أنه جعل رسلًا من الملائكة يأمرهم وينفذون أوامره، يعني بواسطتهم تُنفَّذ الأمور، مثل: ما وكل ببني آدم من الحَفَظة ومِن الذين يقبضون أرواحهم، والذين وكَّلهم في إنزال الغيث والنبات وغير ذلك، وإلا فهو ﷻ إذا أراد الشيء قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾.

المقصود: أنَّ **قوله: «الْوَاحِدُ الْعَظِيمُ، الَّذِي لَهُ صِفَاتٌ تَقُومُ كُلُّ صِفَةٍ مَقَامَ وَاحِدٍ»** هل هذا يطلق على المخلوق، أعني: الذي له صفاتٌ كلُّ صفةٍ تقوم بمعنى الآخر؟ قد يكون هذا يقصد به مثل الملوك، ومثل الرؤساء، هذه معاني ما تصير لكلِّ أحد. فإذا أمر يُمتثل أمرُه، وكذلك له أعوانٌ.

ثم نقول: هذا يختلف باختلاف الصيغ والمناسبات، فالعظيم الذي له أعوانٌ مثل الملك والرئيس، إذا أراد أمرًا قال: (نحن أمرنا بكذا وكذا)، وإن كان الذي يُنفِّذ الأمر غيرُه من الوزراء والأمراء وغيرهم، فيقول: (نحن)، وهو يقصد به نفسَه ومن يمتثل أمره، فهذه صيغة في اللغة، ويجوز أن يكون الذي له صفاتٌ كثيرة.

ربُّ العالمين يقول: «نحن»؛ لأن كل صفة من صفاته لها معانٍ ساريةٌ في خلقه ـ تعالى وتقدس ـ، فهو عليمٌ يعلم كل شيء، ورحيمٌ شملت رحمته كلَّ مخلوق، وهو كذلك بصيرٌ وغير ذلك من الصفات. وكذلك له من يمتثل أمرَه وليس شريكًا له؛ بخلاف الملوك في الدنيا، فإن الملك أعوانُه شركاءُ في مُلكِه، وهم يُشاركونه في ذلك من الوزراء والأمراء وغيرهم، كلٌّ على جهةٍ معينة.

أما ربُّ العالمين فلا أحدَ يُمضِي شيئًا إلا بأمره، فملائكته الذين خلَقَهم ﷻ لعبادته ولا يعصونه ﷻ ولا يُخالفون أمره، هم عبيدٌ مكرمون، يمتثلون أمره طاعةً وخضوعًا وذُلًّا، ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٩]، ولهذا هم يخافونه خوفًا عظيمًا.

فالتنزيل له ﷻ؛ لأنَّه عظيم، والعظيم المعَظِّم نفسَه هكذا يقول: «نحن» و«إنا»، لأن هذا أسلوب من أساليب اللغة العربية ولا يدل على الكثرة، وإنما يدل على العظمة، أو يدل على كثرة الأسماء والصفات، أو يدلُّ على أنَّ الذي يمتثل ويُنفذ هذه الأوامر عبيدٌ مُؤتمرون بأمره لا يُخالفون أمره.

أما أنه يُفهم منه أنَّ معه آلهةً كثيرةً أو ثلاثةً أو اثنينِ= فهذا ضلالٌ بيِّنٌ. ولهذا أخبر ﷻ أنه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ﴾ [الأنبياء: ٢٢] - يعني: في السماء والأرض غيرَ الله - ﴿لَفَسَدَتَا﴾؛ أي: لا تستقيم أبدًا.

وهذا أمرٌ مُشاهَدٌ في المخلوقات كذلك، فما يُمكن أن يجتمع في بلدٍ واحدٍ مَلِكَانِ، بل لا بُد أن يتنازعَا ويغلب أحدُهما الآخر، فيكون المغلوب مقهورًا لا قيمة له، والغالب هو الذي يكون له الأمر والنهي.

فلو كان في السماء أو في الأرض إلهٌ يَخلق ويَرزق لَتبيَّن أو تميَّز، وهذا المعنى من أكبر الأدلة على وجوب عبادة الله ﷻ، لهذا يقول للمشركين: ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [فاطر: ٤٠] وقال: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، يعني: هذا لا وجود له أصلًا.

فهذا كثيرٌ في كلام الله ﷻ يُبيِّن وجوبَ عبادته وأنَّ المشرك لا دليلَ له أصلًا، وإنما عنده التَّقليد فقط؛ قلَّد آباءَه ومن يُعظِّمهم على شيءٍ ضلالُه ظاهرٌ وبيِّنٌ لا خفاء فيه، ولهذا لا عُذر له.

ولهذا يقول المؤلف: (إذا جاء أمر مشتبهٌ، فيجب أن نُرجعه إلى الواضح الجلي)، ومثَّل بهذه الآية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]؛ وقال: (إذا اشتبه على النصراني)؛ لأن النصارى هم الذين قالوا بإلاهية المسيح وأمه، وكذلك بعض اليهود قالوا بإلاهية عُزير.

أما هذه الأمّة فقالت بالمعنى فقط، ما صرَّحوا بهذا، ولكن جاءوا بالمعاني

فعبدوا المقبورين، وعبدوا من يسمونهم: «أولياء»، وإن كانوا في الأصل ما عرفوا العبادة، وظنُّوا أن العبادة مجرَّد السجود والركوع والصوم والصلاة والحج وما أشبه ذلك، أما تعلُّق القلب وطلب النفع ودفع الضر، فعندهم ليس عبادةً. فلهذا وقعوا في الشرك، وجعلوا ما هو من خصائص الله لبعض المخلوقين، وهذا لا يجوز أن يكون إلا لله. فهو الذي يُطلب منه النفع والضر، لأنه يخلق ويرزق ويُحيي ويميت ويتصرَّف؛ لهذا نقول: (إن الله جعل هذا دليلًا على وجوب عبادته؛ فإذا اشتبه شيءٌ من كلام الله ﷻ أو من أحاديث رسوله ﷺ، فيجب أن نُرجعه إلى الواضح الجلي الذي لا اشتباه فيه).

❊ ❊ ❊

قال رحمه الله تعالى:

❁ «وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَحْتَمِلُ إِلَّا مَعْنًى وَاحِدًا يُزِيلُ مَا هُنَاكَ مِنَ الِاشْتِبَاهِ؛ وَكَانَ مَا ذَكَرَهُ مِنْ صِيغَةِ الْجَمْعِ مُبَيِّنًا لِمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْعَظَمَةِ وَالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَطَاعَةِ الْمَخْلُوقَاتِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَغَيْرِهِمْ».

الشرح

إذا قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾، وقال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الواقعة: ٥٨ ـ ٥٩]، ثم قال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الواقعة: ٦٨ ـ ٦٩]، وما أشبه ذلك من الآيات التي فيها ذكر عظمة الله ﷻ، فهذا يدلُّ على أنَّ كل شيءٍ بأمره ﷻ، وأنه لا يخرج عن مشيئته شيء، وعن قدرته شيء ـ تعالى وتقدس ـ، بخلاف المخلوق الضعيف.

المقصود بالتشابه النسبي: أن بعض الناس يقع فيه؛ أي أنَّ اللفظ لا يدل عليه؛ لأنَّ اللَّفظ يدل على العظمة، أو أنَّ له من يمتثل أمره، وينفِّذه، كما قال ﷻ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الواقعة: ٨٥]، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ يعني: في المحتضر، ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾، المحيطين به من الملائكة؛ لأنهم غير منظور إليهم، أو يُقصد به التعظيم، فالله هو أعظم من كل شيء ـ تعالى وتقدس ـ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَأَمَّا حَقِيقَةُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ ذَلِكَ مِنْ حَقَائِقِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَمَا لَهُ مِنَ الْجُنُودِ الَّذِينَ يَسْتَعْمِلُهُمْ فِي أَفْعَالِهِ فَلَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا هُوَ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، وَهَذَا مِنْ تَأْوِيلِ الْمُتَشَابِهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ».

الشَّرح

قوله: «وَأَمَّا حَقِيقَةُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ ذَلِكَ مِنْ حَقَائِقِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ»، يعني: ذلك اللفظ الذي يقوله ويتكلم به.

قوله: «وَمَا لَهُ مِنَ الْجُنُودِ...»، يعني: الذي يخبر بقوله: ﴿نَحْنُ﴾ و﴿إِنَّا﴾ فإنه ﷻ الآمر به، وجنوده وملائكته تفعله وتمتثل له، ويكون حقيقة الأمر أنَّه فعل الله ﷻ الذي أمر أن يُفعل ويجري في خلقه.

وهذا كقوله ﷻ: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [الواقعة: ٨٣ ـ ٨٥]، فبعضُ أهل الباطل يقولون: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾؛ (أنَّ الله مع المخلوق، وأن الله حاضرٌ عند الميت، وهو مختلط بخلقه).

وأما الذي يعلم أن الله ليس كمثله شيء، وأنه على عرشه؛ فإنه يقول: إنَّ المقصود أن الله ﷻ أمرهم بقبض روحه، وهم الملائكة، غيرُ مرئيِّينَ، ولكنهم محيطون به، كما جاءت النصوص بذلك. والذي يتولى قبضَه ملكُ الموت الذي وكِّل بقبض أرواح بني آدم.

وكذلك قوله: ﴿أَنَا﴾ و﴿نَحْنُ﴾ في مواضع متعددة من كتاب الله ﷻ، وكلها يقصد بها الله وحده ﷻ، أو يقصد أنَّه هو الذي أمر مَن يمتثل أمرَه، فهو في الحقيقة أمرُه، وإن كان المباشر للفعل هم الملائكةُ.

وكذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [ق: ١٦ ـ ١٧]، فقوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ تفسيرٌ لقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾، ـ وهو العرق الذي يكون في جانب الرَّقبة ـ، والملائكةُ معه ويعلمون الأمور التي قد تكون في داخله، ولا يعلمها الحاضر معه، وكلُّ ذلك بأمرِ الله ﷻ، وامتثالًا لما كلَّفهم به.

فإذا أضيف إلى الله فإنه يكون على أنه هو الآمر والخالق، وأما إذا أضيف إلى مخلوقٍ فإنه يكون على أنه امتثل أمرَ الله، والملائكةُ خلقهم الله ﷻ رسلًا يكلِّفهم بتنفيذ أوامره في السماء وفي الأرض.

فإن كل شيءٍ مُطيعٌ له ممتثلٌ بأمره ما عدا الإنسان، فأكثر بني آدم عصوا ربهم ﷻ، مع أنَّ عندهم عقولًا وخُلقت المخلوقات لأجلهم، ولهذا لما ذكر الله ﷻ سجود الأشياء، ذكر أنَّ الشَّمس والقمر والنجوم والجبال والدوابَّ تسجد له بدون استثناء، ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ١٨]، كثيرٌ من الناس أيضًا يسجد، ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨] يعني الذي لا يعبد الله مُهانٌ.

فعبادةُ الله شرفٌ وعزٌ للإنسان، أمَّا عبادةُ غيرِه فإنَّها ذُلٌّ وسقوطٌ وانحطاطٌ في الفكر وفي العقل وفي الوضع وفي الشرع، وكذلك مآل صاحبها إلى النار ـ نسأل الله العافية ـ.

فجنودُ الله ﷻ الذين يمتثلون أمرَه في السَّماء وفي الأرض، وهي التي تُدبر المخلوقات، كما قال ﷻ في آياتٍ كثيرة: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢﴾ [الصافات: ١ ـ ٢]؛ لأنهم جماعات كثيرة، وكلهم يمتثلون أمر الله، وقد وكلهم إلى تصريف شؤون بني آدم؛ فمنهم من يكون موكَّلًا بالنبات والمطر والسحاب وغير ذلك، ومنهم من يكون موكَّلًا بالأرواح، ومنهم من يكون موكلًا بقبض الأرواح، ومنهم من يكون موكَّلا بالحفظ.

فالعبد إذا تم رُشده كُلِّف معه أربعة ملائكة؛ اثنان في النَّهار واثنان في الليل، لا يُفارقونه أبدًا، يسجِّلون كلَّ قولٍ وفعل، وقد يكونون أكثر من هذا؛ لأنَّ الله ﷻ يقول: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، يحفظونه بأمر الله؛ فهذه المعقبات غيرُ الحفظة الذين يحفظون عليه أعماله.

ثم إذا مات الإنسان الذين كانوا معه لا يذهبون إلى غيره، إنما يبقون على حفظ عمله فقط حتى يوقفوه عليه يوم القيامة.

أما حقيقةُ صفات الله ﷻ وحقائقها فهذه لا يُحاط بها ولا يعلمها إلا هو ﷻ، وإنما نعلم بعضَ معانيها التي أخبرنا الله ﷻ بها، ويجب أن تكون خصائصَ تخصُّه لا يُشاركه فيها أحدٌ.

ومن ذلك: جنودُه الذين يستعملهم في أمره ﷻ من الملائكة وغيرهم، فالرياح جنودٌ؛ إذا أمرها الله ﷻ بخير جاءت به، وإذا أمرها بالشَّر جاءت به، وقد أهلك بها من أهلك؛ كما أخبرنا ﷻ عن عادٍ أنه سخَّر عليهم الرياح ثمانية أيامٍ حسوما، فصارت تحمل أحدهم ثم تُنكِّسه على رأسه، فأصبحوا كأعجاز نخلٍ خاوية، فأهلكهم الله ﷻ بالريح العاتية. وكذلك ملائكته؛ إذا أمر ملكًا من ملائكته فإنه يمتثل لأمره.

لما خرج ﷺ إلى أهل الطائف يدعوهم إلى الله رجاء أنهم يقبلوا منه فسفِهوا عليه وأغْرَوا به صبيانهم وسفاءهم وصاروا يرجمونه بالحجارة، فذهب على وجهه حتى يقول: **«فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ، ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ»**(١)، يعني: أن الجبال موكَّلٌ بها ملائكةٌ، والسَّحاب وكل بها ملائكةٌ، والرياح وكل بها ملائكة، وهكذا كل مخلوقاته ﷻ، فهي تمتثل أمره، وكُلُّه بمشيئته وإرادته.

ليس جنود الله ﷻ فقط الملائكة؛ فقد تكون أمورًا معنوية، وقد تكون أمورًا يصيب بها أهلَ الفساد وأهلَ الكفر والعناد؛ مثل: الرياح، والبراكين، والصواعق، والأمطار، التي يسميها الناس الآن: «كوارث طبيعية»! يصدهم الشيطان أن يكون هذا من الله ﷻ؛ عقابًا من الله.

يجعلونه «كوارث طبيعية»؛ أي: أنها أمور ما وراءها شيء! ثم ليفكر العاقل: ما معنى «طبيعية»؟ ما هي الطبيعة؟ هل هناك طبيعةٌ تُدبِّر الكون وتصرِّفه؟! كل هذا كلام باطل يصدر من أناس لا يفقه حقيقته ويعلم معناه. فجنود الله لا يعلمها إلا هو ﷻ.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء، آمين (٤/ ١١٥) برقم (٣٢٣١)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (٣/ ١٤٢٠) برقم (١٧٩٥)، من حديث أم المؤمنين عائشة ﵂.

قوله: «**وَهَذَا مِنْ تَأْوِيلِ الْمُتَشَابِهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ**»، يعني: الجنود التي هي الملائكة، فكذلك غيرُها؛ لأنه ليست جنود فقط الملائكة، بل جنود الله شيءٌ لا يُعلم، قد يكون مرضًا، وقد يكون طيرًا، وقد يكون غير ذلك؛ ولهذا أرسل الله ﷻ على أصحاب الفيل طيورًا صغيرة تحمل حجارةً، فأهلكهم الله بها، فكلُّ واحدٍ يحمل ثلاثة أحجار ـ حجر بمنقاره واثنان برجليه ـ، فرمَوْهم بها؛ فهذه من جنود الله.

ومن جنود الله: الرياح، ومن جنود الله ﷻ أشياء ما نعرفها، ولا نعلم حقيقتها، كأمراضٍ وأمورٍ يسلِّطها على من يشاء، فليست جنودُ الله فقط الملائكة؛ لهذا قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، لما ذكر أن خزنة النار تسعةٌ، فلما سمع الكفار هذا صاروا يتهكَّمون، منهم من يقول: (أنا أكفيكم خمسة)، وآخر يقول: (أنا أكفيكم التسعة)، كأنهم يقاتلونه! وما علموا أن واحدًا من الملائكة إذا أُذِن له حَمَلَ الأرضَ كلَّها؛ مثل الملائكة الذين جعلهم الله ﷻ حملة العرش.

فالمقصود: أن الإنسان ضعيف، في فكره، وفي جسمه، وفي تصوره، ما يستطيع أن يتصوَّر الشيء المخلوق، فمثلًا: الزمان هذا الذي نحن فيه، هل يستطيع الإنسان أن يتصور الزمان من أول مبدأ الشيء؟ وهل هذا مبدأ هذا العالم الذي وجد فيه السموات والأرض قبله شيء؟ لا يستطيع؛ لأن الله ﷻ فعَّالٌ لما يريد، وأخبر ﷻ أنه خلق السموات في ستة أيام؛ والأيام بأيِّ تقديرٍ ولم يُخلق السماء، ولم يُخلق الأرض، ولم يُخلق الشمس ولا القمر ولا غيرُها، لا بُدَّ أن فيه تقديراتٍ وأمورًا أخرى. فالإنسان ضعيف في تصوره وفي إدراكاته وفي بنيته كلها، فكيف يعلم خلق الله؟!

المتشابه من المعاني ـ وهو علم حقيقتها ـ أمره إلى الله، وليس إلى أحدٍ من الخلق، أما معانيها التي قُصد منها أن نفهمها فهي ظاهرةٌ؛ مثال ذلك صفة السمع؛ فإنه لا يحول بينه وبينه شيء، يُدرك جميع المسموعات حتى دبيب النمل على الصفا في ظلمة الليل، وكذا بصره لا يحول دونه شيء، وقدرته لا يمتنع عنها شيء...، وهكذا. فهذا شيءٌ أُرِيدَ أن نفهمه ونفعله، وأما الحقيقة فلا يعلمها إلا هو ـ تعالى وتقدس ـ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿«بِخِلَافِ الْمَلِكِ مِنَ الْبَشَرِ إِذَا قَالَ: قَدْ أَمَرْنَا لَكَ بِعَطَاءٍ. فَقَدْ عُلِمَ أَنَّهُ هُوَ وَأَعْوَانُهُ، مِثْلُ كَاتِبِهِ، وَحَاجِبِهِ، وَخَادِمِهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ أُمِرُوا بِهِ وَقَدْ يُعلم مَا صَدَرَ عَنْهُ ذَلِكَ الْفِعْلُ مِنَ اعْتِقَادَاتِهِ وَإِرَادَاتِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ».

الشرح

أي: أنه إذا قال: (أمرنا بكذا وكذا) فالذين يحيطون به ويخدمونه يعرفون مُراده فيمتثلون أمره. فهذا لأنه بحاجة إلى من يُساعده ويعاونه.

أما رب العالمين ﷻ فلا يجوز أن يُقاس بالبشر؛ لأنه على كل شيءٍ قدير، وإذا أمر بشيء وجعل الملائكة يمتثلون أمره ليس ذلك لأنه ﷻ بحاجة إليهم، بل لحكمةٍ أرادها ﷻ.

قوله: «**وَحَاجِبِهِ**». الحاجب يقصد به: ما نسميه الآن بـ«وزير المالية»، حاجب الملك الذي يحجب الأشياء، قد يحجب الناس عنه، وقد يحجب خروج المال، وغير ذلك، هكذا، فالاصطلاحات تختلف باختلاف الناس.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

﴿«وَاللهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ لَا يعْلم عِبَادَهُ الْحَقَائِقَ الَّتِي أَخْبَرَ عَنْهَا مِنْ صِفَاتِهِ وَصِفَاتِ الْيَوْمِ الآخِرِ، وَلَا يَعْلَمُونَ حَقَائِقَ مَا أَرَادَ بِخَلْقِهِ وَأَمْرِهِ مِنَ الْحِكْمَةِ، وَلَا حَقَائِقَ مَا صَدَرَتْ عَنْهُ مِنَ الْمَشِيئَةِ وَالْقُدْرَةِ».

الشَّرْح

قوله: «لَا يُعْلِمُ عِبَادُهُ الْحَقَائِقَ الَّتِي أَخْبَرَ عَنْهَا مِنْ صِفَاتِهِ وَصِفَاتِ الْيَوْمِ الْآخِرِ» دخل في «عباده»: الرسل والملائكة وغيرهم.

قد يُدرَك شيءٌ من صفات اليوم الآخر بالعلم فقط، لا بالحس والمشاهدة والنظر، ولكن هذا من باب القياس، نقيس الغائب على الحاضر؛ لأن المخلوق هو أقرب شيءٍ إلى المخلوق، بخلاف الخالق ﷻ فإنه بعيد المشابهة عن خلقه ـ تعالى وتقدس ـ.

وذَكَرَ المؤلف اليوم الآخر؛ لأنه جاء فيه أمورٌ لا يُدركها العقل:

* مثل كون الناس يقفون خمسين ألف سنة وقوفًا على أرجُلهم، والإنسان إذا وقف يومًا كاملًا ربما يموت، هم يقفون خمسين ألف سنة وقوفًا.

* وكذلك كونهم يعرقون حتى يصل العرق إلى رؤوسهم وإلى رُكبهم أو إلى أوساطهم.

* وكذلك ما ذكر الله ﷻ من تطاير الصحف والميزان والصراط والذي يكون على النار وغيرها من الأمور التي أخبر بها ولا بُدَّ من وقوعها ولا بُدَّ من مشاهدتها، ولكن حقائقها ما تُعلم حتى نُشاهدها.

* ومن ذلك الجنة؛ ما يُعلم ما فيها حتى يدخلها الإنسان ويُشاهدها.

* ومثل ذلك النار، التي ذكرها الله ﷻ، ويقول لنا رسولنا ﷺ: «**نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ**»(١)؛ أي: هي فُضلت عليها بسبعين ضعف، مع أن هذه تُذيب الحديد وتُذيب الحجر وغير ذلك.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب بدء الخلق، باب صفة النار، وأنها مخلوقة (٤/ ١٢١) برقم (٣٢٦٥)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم (٤/ ٢١٨٤) برقم (٢٨٤٣)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

* ومن ذلك كون أهل الجنة يَشُبُّون ولا يهرمون، شباب دائمًا ما دامت السماوات والأرض، وليس هذا من ذات أنفسهم، وإنما هو من الله ﷻ، هو الذي جعلهم على هذه الصفة.

وغير ذلك من أمور الآخرة التي أخبر الله ﷻ بها كثيرًا، وأخبر بها رسوله ﷺ.

أما صفات الله وما يتعلق به ﷻ فهي تخصه، فهو أبعد بونًا ومباينةً عن المخلوق - تعالى الله وتقدس -، فيجب أن نؤمن بما أخبرنا الله ﷻ به عن نفسه وعن أوصافه وأفعاله، إذا علمنا شيئًا من ذلك حمدنا ربنا ﷻ فهو من فضله، وإذا لم نعلمه نكِله إلى ربنا ﷻ ونقول: (الله أعلم)، أما حقائقها فلا أحد يعلمها.

قوله: «وَلَا يَعْلَمُونَ حَقَائِقَ مَا أَرَادَ بِخَلْقِهِ وَأَمْرِهِ مِنْ الْحِكْمَةِ...»، ولكن يعلمون الشيء الذي كُلِّفوا به علمًا وعملًا، ولا يكلَّفون بشيء لا يعلمون حقيقته. والذي لا يعلمون حقيقته ليس مطلوبًا منهم، وإنما المطلوب منهم هو الأمر الذي يستطيعونه، فطلب الأمور التي لم يكلفوا بها يعتبر من التكلُّف، بل من الضلال، ولن يصلوا إليه، وهذا كمن يسأل عن الكيفيات: ما كيفية كذا؟ ما حقيقة كذا؟ والكيفية مجهولة في الخلق كله كما تقدم.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ التَّشَابُهَ يَكُونُ فِي الْأَلْفَاظِ الْمُتَوَاطِئَةِ، كَمَا يَكُونُ فِي الْأَلْفَاظِ الْمُشْتَرَكَةِ الَّتِي لَيْسَتْ بِمُتَوَاطِئَةٍ، وَإِنْ زَالَ الاشْتِبَاهُ بِمَا يُمَيِّزُ أَحَدَ المعنيَيْنِ مِنْ إِضَافَةٍ أَوْ تَعْرِيفٍ، كَمَا إِذَا قِيلَ: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ﴾ [محمد: ١٥] فَهُنَا قَدْ خَصَّ هَذَا الْمَاءَ بِالْجَنَّةِ، فَظَهَرَ الْفَرْقُ بَيْنَهُ، وَبَيْنَ مَاءِ الدُّنْيَا، لَكِنَّ حَقِيقَةَ مَا امْتَازَ بِهِ ذَلِكَ الْمَاءُ غَيْرُ مَعْلُومٍ لَنَا، وَهُوَ مَعَ مَا أَعَدَّهُ اللهُ لِعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ - مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ - مِنَ التَّأْوِيلِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ».

الشرح

قوله: «وَبِهَذَا»، يعني: بما تقدم من الفرق بين الخالق والمخلوق وما يخصه وما يخص المخلوق، وكذلك ما أخبر الله ﷻ به عن أمور الآخرة، مما بعد الموت من الحساب وعذاب القبر ونعيمه والبعث والوقوف وغير ذلك مما هو مُبيَّنٌ في كتاب الله ﷻ.

وحقائقها لا تُعلم على الوجه التفصيلي حتى تُشاهد وتُعاش، وسوف يعيشها الناس كلهم كما وصف الله ﷻ بذلك، ولكن لها أشباه في هذه الدنيا.

ثم إذا كان هذا البون بين مخلوقين، فبينَ الخالق والمخلوق من البون الشيء الذي يعرفه من له عقل وله نظر.

ثم الألفاظ التي يذكرها مثل «التشابه» و«التواطؤ» و«المشترك»؛ فهذه اصطلاحات يونانية منطقية، كثرت في استخدام أهل الكلام، فالمؤلف يُخاطبهم بها.

قوله: «الْأَلْفَاظِ الْمُتَوَاطِئَةِ». كلمة «متواطئة» و«مشتركة» من الاصطلاحات التي جاءت من اليونان، وإلا التواطؤ والتشابه وإن كان قد يوجد نظيرها في اللغة ولكن بهذا المعنى ما كانت معروفةً، ولا بأس بمحادثة أهل الاصطلاح باصطلاحهم؛ فإذا عُرف الشيء وانتشر وكان بين العلماء وبين غيرهم، صار أمرًا مستعملًا، وصار له حكم ما يستعمل من ألفاظ أخرى مما عُرفت عن اللغة وأهلها.

ومعنى «**الألفاظ المتواطئة**»؛ أي: التي اشتركت ألفاظها واختلف معناها.

قوله: «**الْأَلْفَاظِ الْمُشْتَرَكَةِ**». «**المشتركة**»: هي في أكثر الحروف تشترك به، فمثلًا إذا قُلت: «المشتري»، فالمشتري يُطلق على البائع وعلى عكسه، وقد يُطلق على نجم. وكذلك إذا قلت: «العين»، فالعين تُطلق على العين الجارية، والعين الباصرة. وكذلك المال وغير ذلك فهذه تُسمى متواطئة.

ومن ذلك: أسماءُ الله ﷻ وصفاتُه؛ فالله سمى نفسه سميعًا بصيرًا، وسمى كذلك الإنسان سميعًا بصيرًا، ولكن المعنى يختلف وإن اشتركت الألفاظ؛ فإذا أُضيفت أو خُصصت زال الاشتراك في النهاية ـ كما سبق ـ.

كما في أنهار الجنة: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ [محمد: ١٥] هذا من «المتواطئ»، فاتفق لفظ «الماء»، ولكن اختلف المعنى اختلافًا عظيمًا جدًّا.

ومن ذلك إذا قلت: «جنة وجنة»، فجنة الأرض التي سُتِّرَتْ بالأشجار والنبات تختلف عن الجنة التي أخبر الله ﷻ عنها.

قوله: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾؛ لأن أنهار الدنيا؛ كل ماء إذا ركد قد يكون آسنًا: أي متغير، و«الآسن»: هو الذي يتغير. أما ماء الجنة فلا يعتريه ذلك.

وكذلك غير هذا من الأمور التي أخبر الله ﷻ بها، فحقائقها التي هي ثمراتها وما سيلقاهُ أهلها، هذا شيء لا يُعلم حتى يُشاهد. فإذا كان هذا في المخلوق فالبون بين الخالق والمخلوق أبعد وأكثر تميُّزًا وانفصالًا.

ولكن الألفاظ والأسماء كلها تتميز بالإضافة والتخصيص، فإذا قيل: «سمع الله» فهذا يخصُّه، وإذا قيل: «سمْع زيد أو بكر أو المخلوق» فهذا يخصه، فالله لا يُشاركه فيه، وكذلك العلم والقدرة والغضب والرضا والمحبة وغير ذلك.

ومن ذلك أيضًا أفعاله ﷻ: فأفعاله لا يجوز أن نقيسها بما نُشاهده من أنفسنا، ولهذا أخبرنا ربُّنا ﷻ أنَّه سريعُ الحساب، وأنه يُحاسب خلقه في وقتٍ واحد كلَّهم، وكل واحد يرى أنه يُحاسب وحده، وهو يُحاسب الجميعَ، فهذا خاصٌ بالله ﷻ، وهكذا أفعاله على هذا المنوال.

ومن ذلك أيضًا: أننا على وجه الأرض، ما يخلوا مكانٌ منها إلا وفيه من يدعوا الله ويتوجه إليه ويسأله على كثرتهم، وكذلك في السماء كلُّهم يدعون الله

ويعبدونه ويتوجهون إليه، ولا يختلف عليه أحدٌ من هؤلاء، فيسمعهم كُلَّهم في آنٍ واحد ويُميز بين دعاء هذا وصوته وبين دعاء هذا وصوته.

فإذًا: القياس بين الخالق والمخلوق باطِلٌ، ويجب أن يُعلم أنَّ فِعلَ الله ﷻ يخصه، ووصفه يخصه، وأسماؤه تخصه؛ والمخلوق كذلك بأنَّ الله لا يُشاركه فيه، ولكن الاشتراك البعيد الذي يُفهم به الكلام هذا شيء لا بُدَّ منه، كما لو لم يكن عندنا شيء اسمه عنب أو نخل أو نعيم أو ما أشبه ذلك، فما عرفنا إذا خُوطبنا أنَّ الجنة فيها هذه الأشياء.

أما حقيقة أمور الدنيا، فمعلومةٌ لنا، نعرفها؛ ولكن حقيقة أمور الآخرة لا نعرفها وهذا بين مخلوق ومخلوق، فما بالك بين الخالق والمخلوق؟! هذا مجرد تمثيل؛ وإلا فمشاركة المخلوق للخالق ممتنعة ولا وجود لها أصلًا.

ولهذا صار الذي يُقسِّم حق الله بينه وبين المخلوق مُشركًا، والمشرك هو الذي وزع العبادة بين من هي له ومن لا يستحقُّها، فكان جزاؤه أنَّه إذا مات على هذا أنه لا يُغفر له؛ لأنه ظلم ووضع الشيء في غير موضعه، ظلم نفسه وظلم الدين الذي يدين به حيث جعله لغير من هو له؛ فلهذا صار من أسوأ خلق الله ﷻ مآلًا ومصيرًا؛ لأنه خالف عقله وخالف فطرته بعد مخالفة شرع الله ﷻ ورسله.

فالذي يتجه إلى شجر أو حجر؛ ما الذي يُسوِّغ له أنه يطلب منه أنه يدعوه أو يعبده؟ ومثل ذلك الذي يذهب إلى ميت مقبور هو أصله مخلوقٌ مثلك، فقيرٌ لا يستطيع دفع الأذى عن نفسه ولا جلب النفع إلى نفسه، فكيف تطلب منه؟! فهذا مخالفٌ للعقل وللفطرة وللشرع. ولهذا صار المشرك لا حجة له بوجهٍ من الوجوه؛ وسواء علم ذلك أو لم يعلمه، فإنه إذا لم يعلمه معناه أنه معرض، عطَّل فكره وعقله ونظره، واللوم يكون عليه.

فالمقصود: التمثيل للمباينة بين الخالق والمخلوق، والسَّبب في هذا أن بعض الناس اشتبه عليه الأمر؛ فلما ذكر الله ﷻ أنه يحب وأنه يرضى وأنه يغضب ويسخط وأنه يقول ويتكلم ويسمع ويرى، **يقول**: (هذه الأمور نُشاهدها من أنفسنا فإذا أثبتناها لربنا صرنا مُشَبِّهين)، وهذا التصور الباطل الذي لم يُميز بين الحق والباطل، وإنما أخذ بالاشتراك المطلق؛ ولم يعلم أنه إذا حصلت الإضافة والتخصيص زال هذا الاشتراك في النهاية.

قوله: «الْأَلْفَاظِ الْمُتَوَاطِئَةِ، كَمَا يَكُونُ فِي الْأَلْفَاظِ الْمُشْتَرَكَةِ». هذه اصطلاحات يونانية، فـ «**المتواطئة**»: هي الألفاظ التي تتفق في اللفظ والمعنى، وأما «**المشتركة**» فهي الألفاظ التي تتفق في اللفظ فقط.

كما إذا قلت: «المشتري»، فهو يطلق على النجم المعروف، ويطلق على الذي يأخذ الشيء بالثمن، وقد يُطلق على البائع وعلى المشتري معًا، كما قال الله ﷻ في قصة يوسف: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ [يوسف: ٢٠]؛ أي: باعوه بثمن قليل. فكل هذا يطلق عليه «الاشتراك»، ولكن المعنى مختلف، فالشراء غير البيع، ولكنه مبادلة، والنجم أيضًا، فهذا اشتراك وليس تواطؤًا.

أما «التواطؤ»: فهو الاتفاق في اللفظ والمعنى، وهذا يوجد في بعض الأمور التي تكون لها أسماء متعددة.

قوله: «التَّأْوِيلِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ». التأويل الذي لا يعلمه إلا الله هو الحقائق التي أخبر الله عنها في يوم القيامة، وكذلك حقائق أسمائه وذاته ـ تعالى وتقدس ـ، فهو تأويلٌ لا يعلمه إلا الله، ولكن الأول مقيد بأنه لا يُعلم في هذه الحياة، وأما بعد الممات فسوف يعيشه الإنسان ويعلمه ويعرفه، أما بالنسبة لما يتعلق بالله فهذا مُطلق لا يعلمه إلا هو ـ تعالى وتقدس ـ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَكَذَلِكَ مَدْلُولُ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ الَّتي يَخْتَصُّ بِهَا، الَّتِي هِيَ حَقِيقَةٌ، لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ».

الشرح

مقصوده بالتمثيل السابق أن يُبين الفرق بين صفات الله وصفات خلقه، وكذلك ما يخصه من الفعل والتصرُّف ـ تعالى وتقدس ـ، فحقائق هذه الأمور في الظاهر معلومةٌ لنا، نعرف معنى «السمع» وهو أنه إدراك الأصوات، ونعرف معنى «العلم» وهو أنه إدراك بالمعلومات، والبصر، وهو إدراك المرئيات، وهلم جرا، ولكن لا نعلم حقيقة صفات الله، ولا يجوز أن نتعدى هذا، بأن نقول: إن الله يبصر بحدقة أو يسمع بأُذن وما أشبه هذا، هذا لا يجوز؛ لأنه لم يأت في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ.

ونحن مقيَّدون بما ورد، فيجب أن نقف حيث أوقفنا الله ﷻ، الذي قاله الله لنا وقاله رسوله نقوله ونتبعه ونؤمن به ونطلب معناه الذي طُلب منا، أما الذي لم يأت فهذا لا يجوز البحث فيه أصلًا، فمن دخل فيه فلا بُدَّ أن يُخطئ، والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُكرر هذه الأمور؛ لأن ذلك فيه بيان لما اشتبه على كثير من الناس.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَلِهَذَا كَانَ الْأَئِمَّةُ كَالْإِمَامِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ يُنْكِرُونَ عَلَى الجهمية وَأَمْثَالِهِمْ ـ مِنْ الَّذِينَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ـ تَأْوِيلَ مَا تَشَابَهَ عَلَيْهِمْ مِنْ الْقُرْآنِ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ، كَمَا قَالَ الإمام أَحْمَدُ: فِي كِتَابِهِ الَّذِي صَنَّفَهُ فِي «الرَّدِّ عَلَى الزَّنَادِقَةِ والجهمية» فِيمَا شَكَّتْ فِيهِ مِنْ مُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ وَتَأَوَّلَتْهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ».

الشرح

قوله: «**وَلِهَذَا كَانَ الْأَئِمَّةُ كَالْإِمَامِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ**». مثَّل بالأئمة الكبار المتقدمين الذين هم أرسخُ في العلم وأقربُ إلى فهم كلام الله ﷻ وكلام رسوله ﷺ؛ لأن الأمر كلّما بعُد عن عهد النبوة، كان بُعد المعاني والعلم أكثر، وكلما قرب كان أمثل وأكثر فهمًا وعلمًا.

ولهذا كان الصحابة رضوان الله عليهم أعلمَ الخلق بعد ما علَّمهم الرسول ﷺ، ولأنهم شاهدوا الوحي وتعلَّموا من رسول الله ﷺ العلوم العقائدية والعملية وغيرها، وكذلك التَّابعون بعدَهم، ولهذا أثنى الرَّسول ﷺ عليهم وقال: «**خيرُ القرون الذين بُعثت فيهم، ثم الذين يلونوهم، ثم الذين يلونوهم**»[1]، وبعد ذلك يحصل الاختلاف ويحصل الانحراف.

وكلام الإمام أحمد وغيره مثل الدارمي والبخاري والإمام مالك والإمام الشافعي والإمام أبي حنيفة وغيرهم من الأئمة ممن ردوا على المتكلمين وعلى المتأولين، وفي هذا دليل واضحٌ على اتِّباع كتاب الله واتباع سنة رسوله ﷺ. والإمام أحمد رحمه الله له كتابٌ سماه «الرد على الزنادقة والجهمية»، فيما تأولتهُ مِن متشابه القرآن، فالتشابه الذي يقصده الإمام أحمد رحمه الله هو التشابه النسبي.

«**الزنديق**» هو الملحد الذي يُنكر وجود الله أو يُنكر أوصافَه وأسماءه، وأصله: المنافق الذي يُظهر خلاف ما يُبطن، ولهذا تُطلَق الزندقة على المنافقين.

---

(١) تقدم تخريجه.

أما «**الجهمية**»: فهي نسبةٌ إلى رجل اسمه جهم بن صفوان الترمذيُّ، وهو رأس الفتنة، وأول من تكلَّم في الله ﷻ وأنكر أسماءه وصفاته عمومًا، فصار له أتباعٌ في هذا، ثم كثروا وصاروا فرقة معروفة.

ثم انضمَّ إليهم طائفةٌ أخرى وهم المعتزلة، فاشتركوا في التجهُّم في أمورٍ كثيرةٍ وعملوا باجتهادهم وكثرتهم إلى أن استولوا على الخليفة، صاروا هم الذين يعَلِّمونه ويوجِّهونه، فزيَّنوا له أن يُرغِم الناس بالقوة على القول بنفي الصفات.

وبدأوا بالقول؛ لأن القول من أظهرِ أوصاف الله ﷻ؛ وإذا بطَل أنَّ الله يقول بطل الشرع كله، فقالوا: (القرآن مخلوق، لم يتكلَّم الله، والله لا يتكلم، وإنما يخلق الكلام في الأجسام التي يشاؤها، فلما كلَّم موسى خلق الكلام في الشَّجرة)، فعلى هذا: الشجرة هي التي قالت لموسى: ﴿أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [طه: ١٤]!

ويتأولون كلام الله على هذا يقولون: (إن الله ليس كمثله شيء)؛ هذا من تأويلاتهم، يأخذون مثل هذا العموم، يقولون: (إذا قلنا إنَّ الله ﷻ يتكلم شبَّهناه بالمخلوق؛ لأنَّ المخلوق يتكلَّم، هذا هو أساس البلاء الذي حدث في الأمة.

ثُمَّ ابتُلي الإمام أحمد وغيرُه بهؤلاء وفتنوهم؛ فمنهم من قُتل، ومنهم من عُذِّب على القول بخلق القرآن.

والذي لا يقول: (إن القرآن مخلوقٌ) إما يُقتَل أو يُعذَّب إلى أن يُقِرَّ بذلك ولو بالمدارة والتُقيه، بأن ينطق بهذا الكلام من باب الإكراه، فتأولوا هذا كما صنع ذلك علي بن المديني رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيرُه.

أما الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه صبر وثبت؛ لأنه قال: (إذا تتابع الناس على هذا مَن للحقِّ؟ مَن يُبيِّن الحق للناس؟). فعُذب وسُجن سنوات وضُرب ضربًا كاد يقضي على حياته، وهذه هي المحنة مشهورة ومعروفة عند الناس.

ثم كانوا يقولون له: لا نتركك حتى تقول: (إن الله لا يُشبِهه شيءٌ بوجهٍ من الوجوه)، فيأبى أن يقول ويقول: (أعطوني شيئًا من كتاب الله أقول به أو من أحاديث رسوله ﷺ)؛ لأنهم يقصدون بهذا باطلًا، وهو التأويل الذي يذهبون إليه.

لأنه إذا قال: (بوجه من الوجوه) يعني: أنه لا يتكلم ولا يسمع ولا يعلم ولا يُبصر وليس له شيءٌ من الصفات، فهذا مقصودهم، والإمام أحمد فَهِم المقصود، فأبى أن يتكلم بهذا.

ولكن مقصود المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ هنا أن يُبين أنَّ تأويل المتشابه ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: تشابه في المعاني والألفاظ.

القسم الثاني: تشابه على الفاهم؛ السامعين، وهذا يكون نسبيًّا، فقد يكون متشابهًا على بعض الناس ولا يكون متشابهًا عند الآخرين، بل يكون ظاهرًا وجليًّا ومحكمًا.

قوله: «**فِيمَا شَكَّتْ فِيهِ مِنْ مُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ وَتَأَوَّلَتْهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِه**». أنَّهم شكوا فيما قالوه، مثل ما مضى أنهم إذا قالوا: (الكلام إذا أثبتناه لله ﷻ صرنا مشبِهِين؛ لأن الإنسان يتكلم)، وهذا كلامٌ باطِلٌ، لأنه يجري على جميع الصفات.

فبيَّن أن الأدلة التي استدلوا بها أنها لا تدل على ما قالوا، وإنما تدل على الحقِّ، فخَصَّ بعض الآيات التي تعلقوا بها.

قوله: «**مُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ**»، يعني: المتشابه عليهم، وليس في القرآن شيءٌ يدل على ما ذهبوا إليه، وإنما فيه ألفاظٌ مجملة، قد يستدل به المبطل، وهي لا تدلُّ على باطِله.

❊ ❊ ❊

قال رحمه الله تعالى:

«وَإِنَّمَا ذَمَّهُمْ لِكَوْنِهِمْ تَأَوَّلُوهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ، وَذَكَرَ فِي ذَلِكَ مَا يَشْتَبِهُ عَلَيْهِمْ مَعْنَاهُ، وَإِنْ كَانَ لَا يَشْتَبِهُ عَلَى غَيْرِهِمْ، وَذَمَّهُمْ عَلَى أَنَّهُمْ تَأَوَّلُوهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ، وَلَمْ يَنْفِ مُطْلَقَ لَفْظِ التَّأْوِيلِ، كَمَا تَقَدَّمَ: مِنْ أَنَّ لَفْظَ «التَّأْوِيلِ» يُرَادُ بِهِ التَّفْسِيرُ الْمُبَيِّنُ لِمُرَادِ اللهِ بِهِ، فَذَلِكَ لَا يُعَابُ بَلْ يُحْمَدُ، وَيُرَادُ بِالتَّأْوِيلِ الْحَقِيقَةُ الَّتِي اسْتَأْثَرَ اللهُ بِعِلْمِهَا، فَذَاكَ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُوَ، وَقَدْ بَسَطْنَا هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ».

الشرح

قوله: «وَإِنَّمَا ذَمَّهُمْ لِكَوْنِهِمْ تَأَوَّلُوهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ»، يعني: أن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: (إنهم غلطوا في تفسير الآية)، وهذا يدل على أن المأوِّلة الذين يصرفون اللفظ عن ظاهره إلى معنى لا يدل عليه إلا بتكلُّف وأمرٍ بعيد جدًّا = هم على باطل.

ومعاني التأويل الذي جاء في الشرع على معنيين ـ كما سبق ـ:

أحدهما: التأويل بمعني التفسير والإيضاح. كما يقول الإمام ابن جرير وغيره من المفسرين: (القول في تأويله قوله تعالى كذا وكذا)، يعني: تفسيره. وجاء في الترمذي وغيره أن النبي ﷺ دعا لابن عباس وقال: «**اللهم فَقِّه في الدين وعلمه التأويل**»[1]؛ أي: علمه التفسير؛ تفسير كلام الله ﷻ. ولهذا كان البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعتمد على تفسيره نظرًا لدعوة النبي ﷺ بذلك.

ويطلق على العمل، فيُفسَّر ويُوضَّح بالعمل كما قالت عائشة كما في صحيح مسلم: (كان رسول الله ﷺ بعدما نزلت سورة الفتح يقول في سجوده وركوعه: «**سبحانك اللهم بحمدك أستغفرك وأتوب إليك**» يتأوَّل القرآن)[2]، يتأول القرآن: يعني يعمل به؛ لأن الله ﷻ قال له: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ

(١) تقدم تخريجه.
(٢) تقدم تخريجه.

﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [النصر: ١ ـ ٣]، فكان تأويله أنه يقول: «**سبحانك اللهم وبحمدك استغفرك وأتوب إليك**»، ولهذا قالت: (يتأول القرآن)، فالتأويل يُطلق على هذا المعنى ويُطلق على التفسير.

والثاني: بمعنى حقيقة الشيء. وأكثر ما جاء لفظ التّأويل في كتاب الله يُراد به هذا المعنى؛ كما قال الله ﷻ عن يوسف لما جاء والداه وإخوتُه إلى مصر: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠] وهذه كانت في دينهم تحية؛ أعني: السجود لهم، أما في ديننا فهذا لا يجوز؛ لأنَّ ديننا دين الحنفية الشديدة في التوحيد، السمحة في العمل.

فقال يوسف عليه السلام لأبيه: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ١٠٠] ورؤياه التي رآها كما في أول السورة: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾ [يوسف: ٤]، فكانت الكواكب عبارة عن إخوته والشمس والقمر عبارة عن أبويه، فلما وقع قال: (هذا تأويله)، فصار التأويل هو الحقيقة؛ أي: حقيقة الشيء الذي أُرِيَه.

ومثل ذلك قصة الخضر مع موسى، أنه لما فسَّر له ما فعله قال: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ۝٨٢﴾ [الكهف: ٨٢]، تأويله: يعني تفسيره وإيضاحه وحقيقتُه، وقد تقدَّم الكلام في التأويل.

أما إطلاقه على صرف الكلام عن معناه الظاهر المراد به إلى معنًى آخر لا يدل عليه إلا بقرينة أو بدليلٍ آخر؛ فهذا تأويلٌ محدَثٌ مبتدَعٌ ما عرفه السلف ولا قالوا به، وإنما حدث فيما بعد، وهذا لا يجوز قبوله على الإطلاق، بل يجب أن يُتوقَّف فيه؛ فإن كان عليه دليلٌ من الكتاب والسنة قالوا به، أما إذا لم يكن له دليلٌ وهو الغالب فردوه.

والعقل لا يقضي على كلام الله ولا على كلام رسوله ﷺ.

ثُمَّ الناس يختلفون فيه؛ فعقل هذا ليس كعقل ذاك والله لم يأمرنا بالرجوع إلى العقل!، وإنما الله ﷻ يُرشد العقول بقوله الذي أنزله على نبيه ﷺ. فالعقل يحتاج إلى إرشاد وإلى من يدلُّه على الحقِّ ويُبين له، ولا يكون هو الذي يوضِّح ما يتعلق بالله ﷻ وما هو من علوم الغيب التي لا يطلع عليها ولا يُدركها إلا بالوحي.

والرسول ﷺ إذا تكلم بكلام فأنه يوضحه ولا يتركه ملتبسًا مُشتبهًا على الناس، ولكن قد يكون الإخلال بسبب الاختصار وتصرف الرواة، مثل الحديث الذي اشتهر بين الناس وهو قوله ﷺ: «**خلق الله آدم على صورته**»، هذا جزءٌ من حديث، لو جيء به كاملًا ما حصل فيه اشتباهٌ ولا توقُّفٌ عند أكثر الذين يُريدون الحقَّ، وهو قوله ﷺ: «**إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه؛ فإن الله خلق آدم على صورته**»(١)، فدلَّ هذا على أن المقصود بالصورة الوجه وليس جملة الإنسان.

فالمقصود: أنَّ النبي ﷺ كان إذا تكلَّم بشيء بيَّنه ووضَّحه، وكان يُعيد الكلام ثلاث مرَّات(٢) حتى يُفهم عنه؛ لئلا يفهم السامع خلاف المراد.

أما أنه يأتي بأمورٍ مجملة مُشتبهة ملتبسٌ حقها بباطل = فهذا لا يُمكن، ولا يقع؛ لا في كلام الله ولا في كلام رسوله ﷺ، كما يزعم هؤلاء الذين يقولون: (أنه يجب صرف الكلام عن ظاهره إلى معنًى آخر). ولهذا يقولون في عقائدهم: (إذا جاءت هذه الأمور المشتبهة ـ يعنون: كون الله يرضى ويغضب ويحب ويسخط ـ فيجب أن نتوقف فيها أو نؤولها؛ إما أن نفوضها أو نؤولها)!

و«التفويض» معناه: صرف النظر عن تفهمها وتعقلها، والله ما يأمر بالجهل ولا رسوله ﷺ. أما «التأويل»: فيقصدون به نوع التأويل المُحدث الذي لم يقل به السلف.

قوله: «**وَقَدْ بَسَطْنَا هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ**». بسط في مواضع من كتبه رَحِمَهُ اللهُ مثل «درء التعارض» وغيره من كتبه التي بيَّن هذا، وله رسالة في المتشابه، ورسالة في التأويل(٣).

* * *

(١) تقدم تخريجه.

(٢) إشارة إلى ما أخرجه البخاري في صحيحه كتاب العلم، باب من أعاد الحديث ثلاثًا ليفهم عنه، برقم (٩٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) درء تعارض العقل والنقل (١٢) وما بعدها، والصفدية (٢٨٨ ـ ٢٩١)، والرسالة الأكملية (ص٤٧)، وبيان تلبيس الجهمية (٨/ ٤٩٦)، ومجموع الفتاوى (٣/ ٦٠ ـ ٦٥). وغير ذلك.

قال رحمه الله تعالى:

«وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ هَذَا: اضْطَرَبَتْ أَقْوَالُهُ، مِثْلُ طَائِفَةٍ يَقُولُونَ: إِنَّ التَّأْوِيلَ بَاطِلٌ، وَإِنَّهُ يَجِبُ إِجْرَاءُ اللَّفْظِ عَلَى ظَاهِرِهِ؛ وَيَحْتَجُّونَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧] وَيَحْتَجُّونَ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى إِبْطَالِ التَّأْوِيلِ».

الشَّرح

قوله: «وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ هَذَا»؛ أي: هذه الأمور التي بيَّنها، اضطرب في أقواله، فمعرفة أقسام التأويل، والحق منه والباطل أمر مهم، ولا بُدَّ أيضًا أن يعرف المعاني التي يخاطب الله ﷻ بها عباده؛ حتى لا يقع في الخطأ. أما الذي لا يعتني بهذا فلا بُدَّ أن يخطئ.

قوله: «وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ هَذَا: اضْطَرَبَتْ أَقْوَالُهُ...»، وهذا كَمَنْ يقول: (إن الظاهر فيه اشتراك واشتباه):

- فإن أريد بـ«الظاهر» ما للمخلوق من الصفات والحقائق فهذا غيرُ مرادٍ، ولا يكون هذا معنى كلام الله.

- وإن أريد بـ«الظاهر» ما دل عليه اللفظ اللغوي مع المباينة بين ما يعرفه المخلوق من نفسه، وبين ما يكون لله؛ فهذا حقٌّ، ولا يجوز صرف الكلام عن هذا.

فالتأويل يجب أن يُقسّم كما قُسم في كتاب الله إلى تفسيرٍ وإلى حقيقة، فالحقيقة إذا أُريد بها الأمر الذي يُعلم - مثل ما في حديث عائشة - فهو معلومٌ، وإذا أُريد به الأمور المخبر بها إمَّا عن ربنا ﷻ وحقائق صفاته وأسمائه أو عن أمور الآخرة فهذا لا يعلمه إلا الله ﷻ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَهَذَا تَنَاقُضٌ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَقْتَضِي أَنَّ هُنَاكَ تَأْوِيلًا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ، وَهُمْ يَنْفُونَ التَّأْوِيلَ مُطْلَقًا».

الشرح

لأنهم قالوا: التأويل باطل والدليل قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]، وقوله: ﴿تَأْوِيلَهُۥٓ﴾ يدلُّ على أن له تأويلًا ولكن الخلق لا يعلمونه وإنما يعلمه الله ﷻ، فقولهم: (التأويل باطل) يكون غير صحيح؛ لأن «الباطل»: الذي لا معنى له، ثم يحتجون بهذه الآية على إبطال هذا القول، والآية تدل على خلاف قولهم، ولهذا قال: (إنه متناقض).

قوله: «يَنْفُونَ التَّأْوِيلَ مُطْلَقًا»، لا الحقيقة ولا المعنى ولا الاصطلاح الذي اصطلحوا عليه، هذا نفس ما جاء في الآية تبطل هذا المذهب؛ لأنه قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]، فله تأويل.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَجِهَةُ الْغَلَطِ أَنَّ التَّأْوِيلَ الَّذِي اسْتَأْثَرَ اللهُ بِعِلْمِهِ هُوَ الْحَقِيقَةُ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ.

وَأَمَّا التَّأْوِيلُ الْمَذْمُومُ وَالْبَاطِلُ: فَهُوَ تَأْوِيلُ أَهْلِ التَّحْرِيفِ وَالْبِدَعِ، الَّذِينَ يَتَأَوَّلُونَهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ، وَيَدَّعُونَ صَرْفَ اللَّفْظِ عَنْ مَدْلُولِهِ إِلَى غَيْرِ مَدْلُولِهِ بِغَيْرِ دَلِيلٍ يُوجِبُ ذَلِكَ».

الشرح

يعني: هذا الذين يقولونه: أنه من جهة الغلط أن التأويل الذي استأثر الله بعلمه هو حقيقة الشيء، فمثلًا: حقيقة الجنة الدخول فيها والتنعم بنعيمها هذا لا يعلمه الخلق، وإنما سيعلمونه، ولهذا قلنا: إن هذا يأتي مُطلقًا ومقيدًا.

* فالمطلق ما يتعلّق بالله ﷻ، لا يعلمه أحد، لا في هذه الدنيا ولا في الآخرة.

* أما المقيد فهو المقيد في هذه الحياة، ولهذا قال الله ﷻ لنا في نعيم أهل الجنة: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، فلا تعلم «نفسٌ» وهنا نفسٌ نكرة يدخل فيها الرسل والملائكة وغيرهم فلا يعلمون ذلك؛ لأن الله ﷻ طوى علم هذا حتى يُدخلها أهلها، فإذا دخلوها عرفوا ذلك وعلموه، وأنه على خلاف ما عهدوه، ولهذا يقول: «**فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت**»(١)، فالعين ترى الشيء الذي يكون متجسدًا، والأذن تسمع الأصوات، يعني أن فيها أصواتًا مُلذة، وفيها مَناظِر كذلك مبهجة، وفيها مآكل أيضًا مُنعِمة، وكل هذا لا تُعلم حتى تُدخل.

ومثل ذلك النار؛ ففيها سلاسل ومقامع، وفيها أغلال وفيها أيضًا حميم وفيها غير ذلك، أعاذنا الله منها؛ فلا يعلم حقيقتها حتى تُشاهد وتُرى وتُعاش.

(١) تقدم تخريجه.

ومثل ذلك: ما يكون في القبر، فالقبر حياة، والإنسان إذا مات فإنه يحيى في قبره، ولكن على خلاف هذه الحياة. ومعلوم أن الإنسان إذا فقد الهواء مات في هذه الحياة، أما في القبر فهو مدفونٌ في حفرة، ومع ذلك يحيى ويتنعم أو يُعذَّب ويحس بذلك ويتكلم ويسمع ويرى وغير ذلك على حسب ما جاءت النصوص به، وكل هذا لا نعلم حقيقته، بل قد يُدفن رجلان في قبرٍ واحدٍ فيكون هذا مُنعمًا والآخر مُعذَّبًا، ولا يصل إلى المنعم من عذاب هذا شيء، كما أنه لا يصل إلى المعذَّب من نعيم المنَعَّم شيء، وقدرة الله ﷻ فوق هذا. ومعلومٌ أن الإنسان إذا مات يتفتت بدنه ويذهب ترابًا كما كان، ولكن الذرات الترابية هذه التي عادت هي تُعذب أو تُنعم مع الروح؛ لأنَّ عذاب القبر ونعيمه على الروح والبدن معًا، ولكن المقصود الروحُ، والبدنُ تبعٌ، عكس ما في هذه الحياة الدنيا، فإن الروحَ تكون تابعةً للبدن.

وعلى كلِّ حالٍ: فالأمور المغيَّبة هي التي أُمرنا بالإيمان بها، وهي التي يتميز الناس فيها، أما الأمور المشاهدة المعلومة، فالناس يستوون فيها، ولهذا إذا جاءت الآيات الكبيرة التي تضطرُّ الناس إلى الإيمان بالله والرجوع إليه، أصبح الإيمان غير مُجْدٍ، قال الله ﷻ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]. وفي «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ يقول: «**ثَلَاثٌ إِذَا خَرَجْنَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا... الدَّجَّالُ، وَالدَّابَّةُ، وَطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا**»(١)، لأن الوضع في وقت الدجال يختلف، ويتغير الكون فيُصبح اليوم بمنزلة سنة، واليوم الذي يليه يكون كشهر، والذي يليه كأسبوع، ثم تعود الأيام كما كانت، فهذا تغيُّرٌ يضطر الإنسان إلى الرجوع إلى الله، أما شخصية الدجال فهو رجل ناقصٌ ولكن على يديه فتنٌ يبتلي الله ﷻ بها عباده، وكونه ناقصًا؛ لأنه أعور العين اليُمنى، ولهذا يقول الرسول ﷺ: «**إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ**»(٢)؛ لأنه يدعي الربوبية يقول: (أنا ربكم).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل الله فيه الإيمان (١/١٣٧) برقم (١٥٨)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب المغازي، باب حجة الوداع (٥/١٧٦) برقم (٤٤٠٢)، ومسلم في صحيحه، في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر ابن صياد (٤/ ٢٢٤٥) برقم (١٦٩)، من حديث عبد الله بن عمر ﭭ.

أما الدَّابَّة فهي التي ذكرها الله ﷻ في كتابه أنها تُميز الناس بين مؤمنٍ وكافر، ولا نعلم حقيقتها، فالله أعلم ما هي.

وأما طلوع الشمس من المغرب فهو أيضًا من الآيات التي تضطر الناس إلى الرجوع إلى الله ﷻ والتوبة، ولكن لا ينفع، فهي تطلع من المغرب كما كانت تطلع من المشرق حتى يُشاهدها كل من على وجه الأرض، وعند ذلك يؤمنون ولكن لا يُجدي شيئًا.

ومثل ذلك: مجيء الملائكة لقبض الروح، ولهذا قال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، يعني: لقبض أرواحهم، فإذا جاءت الملائكة لقبض الروح وعَاينها المحتضر فإنه لا ينفعه التوبة والرجوع؛ حيث أصبحت الأمور المخبر عنها حقائق تُشاهد.

ومثل ذلك: إذا نُفخ في الصور، وبُعثر ما في القبور، وجُمعوا في مكان واحد كلهم، يرجع ويطلب الاستعتاب والتوبة وأنه يُنيب إلى الله ولكن لا يُقبل؛ لأن الإيمان المُجدي والنافع هو الإيمان بالغيوب التي أُخبر عنها وهي غائبةٌ عنا؛ أما إذا شُوهدت فالناس كلهم يستوون بالإيمان بها، فلا فائدة في ذلك.

ومثل ذلك: صفات الله ﷻ مع أن صفات الله ﷻ لها آثارٌ بارزة في الخلق ومُشاهدة، فآثارها كما أن مخلوقاته لها آثار تُشاهد، ومع ذلك فالحقائق المقصودة بالأخبار وكذلك بالأحكام، هذه لا تكون إلا يوم القيامة، وهي تنقسم إلى قسمين كما سبق.

قوله: «وَيَدَّعُونَ صَرْفَ اللَّفْظِ عَنْ مَدْلُولِهِ إِلَى غَيْرِ مَدْلُولِهِ بِغَيْرِ دَلِيلٍ يُوجِبُ ذَلِكَ». يختلف باختلاف السامع، ولكن قد يُمثل لهذا بمِثْل قوله ﷻ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠]؛ فإتيان الله في هذه الآية يجب أن نفهمه أنه إتيانٌ حقيقي يوم القيامة، فيأتي إلى الأرض - كما جاءت النصوص في ذلك - ليقضي بين عباده.

وقد يقول قائل: إذًا يأتي ويكون في الأرض والسماء فوقه؟ فنقول: إن هذا يقع لو كان مثلك ومثل المخلوقات، أما الله ﷻ فليس كمثله شيء، ويأتي وهو فوق عرشه وفوق كل شيء، ولا يكون شيء فوقه.

فإذا قال: إذًا هذا ليس هو الظاهر من اللفظ! فنقول: بل هذا هو الظاهر؛ لأن هذا هو الذي يليق بعظمة الله.

وقد يستدل بقول الله ﷻ: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ [النحل: ٢٦]، فهل نقول: إن هذا مثل هذا؟ فنقول: لا، هذا إتيان عذابه ﷻ؛ فإن الله لا يأتي من (أسفل) الحيطان!.

ومثل ذلك: قوله ﷻ في يهود بني النضير: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢﴾ [الحشر: ٢]، فنقول: هذا إتيان جند الله من المؤمنين والملائكة الذين أيد الله ﷻ بهم رسوله.

فإذا قال: ما الدليل؟ فنقول: الدليل هو سياق الآية والقرينة والحال، فمراد المتكلم هو الذي يعين ذلك، فيجب أن نطلب مراد المتكلم؛ فإذا تبين لنا مراده فهو الحقيقة وليست تأويلًا.

ولو قال لنا: أنتم تتناقضون، فمرة تقولون: يجب أن نجريها على ظاهرها، ومرة يُؤوَّل، فلماذا تُؤوَّل هذه الآية: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾؟!

فنقول: هذا ليس تأويلًا؛ لأن هذا هو مراد المتكلم، وعرفنا ذلك لأنَّ الله عالٍ على كلِّ شيء، وفوق كل شيء، ولا يختلط بخلقه، ولأن هذا وقع لقوم معينين، والذي أتاهم جنود الله والرسول ﷺ وعبادُ الله الذين كانوا معه والملائكةُ.

وكذلك الذين عذبهم الله ﷻ هم الذين كذبوا الرسل؛ فإن الذي أتاهم عذابُ الله وليس هو الله، وهذا أمر ظاهر جدًّا، ولا يتوهم متوهم أن بينها تعارضًا أو أنها تدل على باطل.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَيَدَّعُونَ أَنَّ فِي ظَاهِرِهِ مِنَ الْمَحْذُورِ مَا هُوَ نَظِيرُ الْمَحْذُورِ اللَّازِمِ فِيمَا أَثْبَتُوهُ بِالْعَقْلِ!».

الشرح

قوله: «وَيَدَّعُونَ أَنَّ فِي ظَاهِرِهِ مِنَ الْمَحْذُورِ مَا هُوَ نَظِيرُ الْمَحْذُورِ اللَّازِمِ فِيمَا أَثْبَتُوهُ بالعقل!»، يعني: إذا قالوا ـ مثلًا ـ: (المحبة هي: «إرادة الإحسان» أو هي: «الإحسان نفسه»)؛ فـ «إرادة الإحسان» فسَّروها بصفةٍ ثانية.

فيُقال لهم: ما المحذور في كونكم تصفون الله بالمحبة على ظاهر اللفظ ولكن على ما يليق بعظمة الله؟

يقولون: لأنَّ المحبة نجدها في أنفسنا هي «الميل إلى المحبوب والمراد»، والميل إلى المحبوب فيه افتقار وحاجة، فلا يجوز أن نقول: «إن الله موصوفٌ بالمحبة»؛ لئلا نقع في هذا المحذور أنَّ الله يميل إلى الشيء ويحتاج إليه ـ تعالى الله وتقدس ـ.

فيُقال لهم: أنتم فسرتموها أيضًا بالإرادة، والإرادة كما هو معلوم هي: «الميل إلى المراد»، فهل تقولون بهذا؟! **إذًا**: وقعتم في نظير ما فررتم منه!

أما تفسيركم المحبة بأنها «الميل»، فهذه محبة المخلوق وأنتم تفسرون محبة الله ﷻ بما تعرفونه من أنفسكم، فتركتم قول الله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥]، وقوله جل علا: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، وما أشبه ذلك من الآيات التي تُبين البون بين الخالق والمخلوق، فلم تسلكوا الطريق السويَّ، بل وقعتم في المحاذير التي زعمتم أنكم فررتم منها فوقعتم في نظيرها أو شرٍّ منها. وهكذا يُقال في كل تأويلٍ تأولوه على هذا الجانب.

ولهذا نقول: إنَّ الواجب هو إبقاؤها كما جاءت، مع العلم اليقيني بأنَّ أوصاف الله ﷻ تخصُّه ولا يُشاركه فيها المخلوق، فله أوصافه الخاصة؛ فمحبته تليق بعظمته، كما أن غضبه يليق بعظمته ـ تعالى وتقدس ـ، وليس كما يقولون من

(أنَّ الغضب هو غليان دم القلب ثم طلب الانتقام)، ولهذا يقولون: (لا نصف الله ﷻ به لأجل ذلك)!

نقول: أنتم فسَّرتم غضب الله بغضبكم الذي تجدونه من أنفسكم، وهذا هو عين التشبيه الذي فررتم منه؛ فإذًا: وقعتم في شرٍّ مما فررتم منه، وهو تشبيه، وأنتم تقولون: (لئلَّا نشبِّه صفته بصفة المخلوقين)، فررتم من هذا الشيء ووقعتم فيه أو في نظيره أو فيما هو شرٌّ منه.

وهكذا يُقال في سائر ما يقولونه من تأويلاتهم الباطلة، فالحق أنها تبقى على مدلولها اللائق بعظمة الله ﷻ، وأن تُصان عن المعاني الباطلة.

فهي لا تدل على هذا الذي يقولونه؛ فغضب الله لا يدلُّ على أنه «غليان دم القلب»، بل هو غضبه يليق بالله وبعظمته؛ وكذلك رحمتُه، وكذلك إحسانُه، وكذلك حبُّه وغير ذلك من أوصافه التي تَعرَّف بها إلى عباده؛ فإنه ﷻ غيبٌ لم يطلع عليه أحد ولا يُشاهده أحدٌ من الخلق المشاهدةَ التي تكون محيطةً به حتى يصفه بذلك، ويَتَوَقَّف العِلم به على ما يُخبر عن نفسه. وكذلك يدل على الله مفعولاته ومخلوقاته، من خلق السموات والأرض وغيرهما، فهذه هي الآيات التي تدلُّ على الله ﷻ مع الفِطر؛ من التمييز بين الباطل والحق لمن سلمت فطرته من الانحراف.

التأويل الذي هو استأثر الله بعلمه هو الحقيقة التي لا يعلمها إلا هو، وأما التأويل المذموم والباطل فهو تأويل أهل التحريف والبدع، أهل التحريف الذين حرفوا الكلام عن وضعه الذي أراده المتكلم كما قالوا في قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨]، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦]، ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ١] وما أشبه ذلك من النصوص الكثيرة التي تدل على علو الله؛ قالوا: (العلو المقصود به علو القدر)، وعلو القدر هذا لا يكون إلا عند بعض المؤمنين، هذا تأويل باطل، وإن كان الله ﷻ له علو القدر، ولكن في قلوب عباده المؤمنين فقط، الذين آمنوا به وعلموا ذلك.

وكذلك المحبة التي يقول الله ﷻ فيها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ [الصف: ٤]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ۝٢٢٢﴾ [البقرة: ٢٢٢] وغيرها من الآيات الكثيرة يصف ربنا ﷻ نفسه بأنه

يُحب ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، فقالوا: (المحبة هي إرادة الإحسان)، ففسَّروها بهذا التفسير الباطل، ونفوا أن يكون الله ﷻ يُحِبُّ، وبعضهم نفى أنه يُحَبُّ أيضًا، مع أن كلمة الإخلاص ـ لا إله إلا الله ـ مبناها على هذا؛ فالإله: هو المألوه الذي تألهه القلوب حُبًّا وإنابةً وخوفًا وذُلًّا؛ **فإذًا**: هذا الإنكار إنكارٌ لأصل الدين، بل أصل الأديان التي جاءت من عند الله ﷻ.

ومثل ذلك سائر الصفات التي أوجبوا تأويلها مثل: «الرضا» و«الغضب» و«السخط» وما أشبه ذلك من الآيات التي يُخبر الله ﷻ بها عن نفسه وأنه متصفٌ بها، فتأويلهم لها تحريفٌ، ولهذا قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنهم لا ينفكون عن الشرك(١).

و«التحريف»: مأخوذ من الحَرْف وهو الجانب من الشيء؛ لأنهم جعلوا المعنى على حرفٍ متطرف يوافق ما يُريدون ولم يلتفتوا إلى مُراد المتكلم، ولهذا قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَأَمَّا التَّأْوِيلُ الْمَذْمُومُ وَالْبَاطِلُ: فَهُوَ تَأْوِيلُ أَهْل التَّحْرِيفِ وَالْبِدَعِ»، ومعنى «البدع»: أنهم لم يُسبَقوا بشيءٍ من ذلك، وإنَّما قالوه من عند أنفسهم، «الذين يتأولونه على غير تأويله» أي: على غير تفسيره الذي أراده الله ﷻ، أو على غير المعنى المراد من المتكلم. ومعلومٌ أنَّ المتكلِّم يُريد أن يُفهَم عنه، ولا يُريد أن يُحرَّف كلامُه عن مدلوله المراد.

فصرف اللفظ عن مدلوله إلى غير مدلوله بغير دليلٍ يوجب ذلك هو تحكم واتباع للهوى.

* * *

(١) ينظر: التدمرية (ص١٩٣)، ومجموع الفتاوى (٦/٤٢٨).

قال رحمه الله تعالى:

«وَيَصْرِفُونَهُ إِلَى مَعَانٍ هِيَ نَظِيرُ الْمَعَانِي الَّتِي نَفَوْهَا عَنْهُ! فَيَكُونُ مَا نَفَوْهُ مِنْ جِنْسِ مَا أَثْبَتُوهُ، فَإِنْ كَانَ الثَّابِتُ حَقًّا مُمْكِنًا كَانَ الْمَنْفِيُّ مِثْلَهُ، وَإِنْ كَانَ الْمَنْفِيُّ بَاطِلًا مُمْتَنِعًا كَانَ الثَّابِتُ مِثْلَهُ».

الشرح

هو مثل ما مثَّلنا في «الرضا» و«الغضب» و«الرحمة»؛ فَهُم فرُّوا من شيء ووقعوا في نظيره أو شرٍّ منه، فدلَّ على أنَّ التَّأويل باطلٌ من جميع الوجوه.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَنْفُونَ التَّأْوِيلَ مُطْلَقًا، وَيَحْتَجُّونَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧] قَدْ يَظُنُّونَ أَنَّا خُوطِبْنَا فِي الْقُرْآنِ بِمَا لَا يَفْهَمُهُ أَحَدٌ؛ أَوْ بِمَا لَا مَعْنَى لَهُ، أَوْ بِمَا لَا يُفْهَمُ مِنْهُ شَيْءٌ».

الشرح

هذه طائفةٌ أخرى أشار إليها، وهي التي تُسمى المفوِّضة وأهل التفويض، ومعنى «التفويض» عندهم: أنه لا معنى له، ثم يستدلُّون بمثل هذه الآية، لكنها تدلُّ على خلاف ما قولهم.

والله ﷻ لم يُنزل علينا شيئًا لا معنى له، ولم يطلب منا عدم التَّأمُّل والعمل، بل طلب ذلك وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢]، وقال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ١٧] إلى غير ذلك من الآيات التي يحضنا ربنا ﷻ على الفَهم فيها والعمل بما دلَّت عليه.

فدل على أنَّ هذا مذهبٌ باطلٌ، وهو أبطل من الأول وأخبثُ؛ لأنَّ معناه: أنَّ الله أنزل كلامًا غير مفهوم - بل لا معنى له أصلًا -، يُمثلون لهذا بقوله: ﴿الٓمٓ﴾، ﴿الٓر﴾، ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ وما أشبه ذلك ويقولون: (لا نفهم منه شيئًا).

فيُقال: إنَّ هذا قد تكلَّم به العلماء ومعناه وقالوا: (إنَّ هذا إقسامات أو تحديات؛ فإنَّه ﷻ يقول: هذا القرآن الذي أُنزل بهذه الحروف التي تتكلمون بها، فتنطقون بها، فأتوا بشيء منه إن كنتم صادقين بأن هذا ليس رسولنا). فهي من باب التحدي.

وأيضًا هي من باب القسم؛ لأن بعض العلماء قال: (إنها إقسامات) كما روي عن ابن عباس وغيره.

أما أن يكون في كتاب الله ﷻ شيءٌ لا يُعلم ولا يُعرف، فهذا لا يكون إلا في الحقائق التي تكون يوم القيامة أو التي تتعلَّق بذات الله ﷻ.

قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]؛ هذه الطائفة التي قالت: (إنه

لا أحدَ يصِلُ إلى تأويله)، فأخطأوا فِي كونهم قصدوا هذا المعنى، يعني: التأويل! وأصبحوا مُتناقضين.

وهذا التناقض والاضطراب بسبب أنهم ما فهموا الخطاب ولا فهموا معنى قوله: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ [آل عمران: ٧]؛ وإلا فكيف يقول: ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ﴾ [آل عمران: ٧]؟!

يعني بـ«ابتغاء الفتنة»: أَنَّ الفتنة هي الأصل عندهم، والفتنة هي الانحراف عَن الحقِّ، ثُمَّ صاروا يُريدون أَنْ يُبرِّروا هذا الانحراف ابتغاءَ هذا التأويل، أَنْ يكون الكلام يدلُّ على مُراده.

فأصلُ الفساد موجودٌ عندهم وهو الانحراف؛ فهم ما قصدوا طلب مُراد الله وطلب مُراد المُتكلِّم، وإنَّما عيَّنوا شيئًا لأجل الفتنة ولأجل أَنْ يُبرروا ما ذهبوا إليه بالاحتجاج بالشيء المُتشابه.

أما الطائفة التي تقول: أَنْ له تأويلًا ثُمَّ يَقُول: ﴿لا يعلم تأويله إلا الله﴾، فهذا تناقض.

فإذا قال أحد في قول الله ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ١٣٤﴾ [النساء: ١٣٤]، أَنَّ السمع هو مثل سمع المخلوق الذي أخبر به وبصره مثل بصره! فيقول أهل التفويض: (هذا يجب أَنْ يكون له تأويل نؤوله، وتأويله: صرفه عَنْ المُراد، فيبقى خطابُ الله ليس له معنى؛ إذ قال: له تأويل لا يعمله إلا الله، لا نعلمه نحن، فلا يكون ذلك معلومًا، فيبقى الكلام غير معمول به، بل يبقى كأنه شيءٌ لا حقيقة له، خُتم بشيءٍ لا يُفهم ولا يحتاج أن نطلب معناه؛ لأنه لا يعلم معناه إلا الله ﷻ.

فهذا الذي لم يفهم مُراد الله ﷻ أو أنه يُريد أَنْ يُفسد عقائد المسلمين بذلك، فيُشوش على الذين لا يعلمون هذا. أما إذا كان مُراده أنه يصل إلى امتثال كلام المُتكلم فيجب أن يُرجِع المُتشابه الذي تشابه عليه إلى الحق الواضح والمُحكم الجلي، فيزول التشابه.

وعلى كلِّ حالٍ فقولهم: (إن له تأويلًا ولا يعلم تأويله إلا الله) مُتناقض؛ لأن التأويل معناه لا يخلوا: إما أَنْ يكون المقصودُ به التفسير، أو يكون به حقيقة المعنى:

* فإن كان الخطاب يُقصد به العمل بأحكامٍ وأمورٍ كُلِّفنا بها فهذا لا يُمكن أنْ يُقال: إن له تأويلًا ولا يعلم تأويله إلا الله.

* أما إذا كان فيه شيءٌ من الاشتراك في اللفظ والمعنى فهذا هو مجال الفتنة.

ولهذا الذين عبدوا غيرَ الله وأشركوا به أرادُوا أنْ يستدلُّوا بهذا على مُرادهم وعلى باطلهم، فقالوا: إنَّ الله يقول: «نحن» و«إنا» وهذا يدل على الجمع، فهذا يدل على مجموعة آلهة كما تقول النصارى.

والمُحكم قوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣]؛ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص: ١، ٢] فهو واضح يجب أنْ نُرجعه إلى هذا وتزول شبهتهم أو ما يتعلقون به.

قوله: «قَدْ يَظُنُّونَ أَنَّا خُوطِبْنَا فِي الْقُرْآنِ بِمَا لَا يَفْهَمُهُ أَحَدٌ؛ أَوْ بِمَا لَا مَعْنَى لَهُ أَوْ بِمَا لَا يُفْهَمُ مِنْهُ شَيْءٌ» هذا غيرُ صحيح، فالله يخاطب النَّاس بشيءٍ يعرفونه. ولا يكون في خطاب الله ﷻ لنا شيء غير مفهوم؛ لأنه ممتنع، فالله ﷻ يخاطبنا بالشيء الذي نعرفه، ولا سيما أن الخطاب يقصد به العمل وليس مجرد كلام يُلقى، فالعامل لا بُدَّ أن يعرف ما الذي يعمله، ومثلُ ذلك الاعتقاد، فلا بُدَّ أن يُميز حتى لا يَعتقد باطلًا، فالله يخبر بالشيء الذي يكون ظاهرًا وواضحًا، وقد أرسل رسوله ليبين كتابه للناس، فوضَّح الرسول ﷺ هذا الأمر توضيحًا لا عذرَ لمن حادَ عنه وانصرف عنه، فمن انصرف عنه وخالفه فإنه يكون غيرَ معذورٍ، وله عقاب الله ﷻ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَهَذَا مَعَ أَنَّهُ بَاطِلٌ فَهُوَ مُتَنَاقِضٌ، لِأَنَّا إِذَا لَمْ نَفْهَمْ مِنْهُ شَيْئًا لَمْ يَجُزْ أَنْ نَقُولَ: لَهُ تَأْوِيلٌ يُخَالِفُ الظَّاهِرَ وَلَا يُوَافِقُهُ؛ لِإِمْكَانَ أَنْ يَكُونَ لَهُ مَعْنًى صَحِيحٌ، وَذَلِكَ الْمَعْنَى الصَّحِيحُ: لَا يُخَالِفُ الظَّاهِرَ الْمَعْلُومَ لَنَا، فَإِنَّهُ لَا ظَاهِرَ لَهُ عَلَى قَوْلِهِمْ، فَلَا تَكُونُ دِلَالَتُهُ عَلَى ذَلِكَ الْمَعْنَى دِلَالَةً عَلَى خِلَافِ الظَّاهِرِ فَلَا يَكُونُ تَأْوِيلًا».

الشرح

هذا أيضًا بيانٌ لإبطال قولهم، وأن استدلالهم بقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]، تناقض، وكذلك كونهم يقولون: (إن هذا أُنزل على عباد الله وهم لا يعلمون عنه شيئًا، ولا يعرفون تأويله)، هذا أيضًا من أبطل الباطل، كيف يُنزَل إليهم شيء لا يعرفونه؟! ما الفائدة من ذلك؟!

وعلى كل حالٍ: فالأقوال الباطلة تكون متناقضة دائمًا، والأدلة على بطلانها تكون من أدلتهم التي يستدلون بها، فهي تدل على خلاف ما قالوا.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«وَلَا يَجُوزُ نَفْيُ دَلَالَتِهِ عَلَى مَعَانٍ لَا نَعْرِفُهَا عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ، فَإِنَّ تِلْكَ الْمَعَانِيَ الَّتِي دَلَّت عَلَيْهَا قَدْ لَا نَكُونُ عَارِفِينَ بِهَا، وَلِأَنَّا إِذَا لَمْ نَفْهَمْ اللَّفْظَ وَمَدْلُولَهُ المراد فَلأَنْ لَا نَعْرِفَ الْمَعَانِيَ الَّتِي لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهَا اللَّفْظُ أَوْلَى؛ لِأَنَّ إِشْعَارَ اللَّفْظِ بِمَا يُرَادُ بِهِ أَقْوَى مِنْ إِشْعَارِهِ بِمَا لَا يُرَادُ بِهِ؛ فَإِذَا كَانَ اللَّفْظُ لَا إِشْعَارَ لَهُ بِمَعْنًى مِنَ الْمَعَانِي، وَلَا يُفْهَمُ مِنْهُ مَعْنًى أَصْلًا لَمْ يَكُنْ مُشْعِرًا بِمَا أُرِيدَ بِهِ فَلَأَنْ لَا يَكُونَ مُشْعِرًا بِمَا لَمْ يُرَدْ بِهِ أَوْلَى».

الشرح

يعني: هذا مما تقدم أنه كلام باطلٌ؛ لأنهم يقولون: (التأويل باطل)، ثم ينفون العِلم به، كيف يكون باطلًا؟!

ثم يقول: (له علمٌ ولكنه منفيٌّ عنا)؛ هذا تناقضٌ. وكذلك يقول: (إنه لا يعلمه إلا الله).

إذًا معناه: أنه نُفي العلم به فقط، وإلا فله تأويلٌ، هذا عندهم على مذهبهم، وكل هذا يدل على أن هذا القول بعيدٌ عن الحق، مُخالفٌ لشرع الله ﷻ وما جاء به رسول الله ﷺ، والباطل لا حدَّ له ولا نهاية له، فالباطل يتشقق منه أمورٌ باطلة، وكل ما بُني عليه يكون باطلا.

مقصود المؤلف بهذا: أن هؤلاء الذين يقولون: (لا تأويل له)، فيكون خطاب الله ﷻ وخطاب الرسول للناس عَبَثًا؛ لأنه ليس له معنى يدلُّ عليه هذا المدلول ولا يعرفه إلا الله! فكيف نخاطَب بشيءٍ لا نعرفه؟!

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ هَذَا اللَّفْظَ مُتَأَوَّلٌ، بِمَعْنَى أَنَّهُ مَصْرُوفٌ عَنْ الِاحْتِمَالِ الرَّاجِحِ إِلَى الِاحْتِمَالِ الْمَرْجُوحِ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ هَذَا التَّأْوِيلَ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُرَادَ بِالتَّأْوِيلِ مَا يُخَالِفُ الظَّاهِرَ الْمُخْتَصَّ بِالْمَخْلُوقِينَ، فَلَا رَيْبَ أَنَّ مَنْ أَرَادَ بِالظَّاهِرِ هَذَا لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ لَهُ تَأْوِيلٌ يُخَالِفُ ظَاهِرَهُ».

الشَّرح

قوله: «فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ هَذَا اللَّفْظَ مُتَأَوَّلٌ...»، يعني: أنَّ هذا الذي كُلِّفنا به لا يمكن أن يكون متأوَّلًا؛ لأنه لو كان كذلك، لم يكن عندنا ثقة في أنه هو الذي أُمرنا به، فترتفع الثقة، ويرتفع العلم الحقيقي، وهذا لا يقوله إلا جاهلٌ بالخطابات التي خُوطبنا بها، وبعلم الله ﷻ الذي يخصه، وصفاته التي تخصه، فهذه هي التي لا يعلم حقيقتها إلا هو، وكذلك الأمور الغائبة التي ليس عندنا لها نظير من كل وجه.

وقوله: (إنه يُراد أن هذا التأويل لا يعلمه إلا الله) يقصد بذلك الحقيقة؛ حقيقة الشيء كما سبق، وليس الاحتمال؛ لأن اللفظ يحتمل احتمالات يكون ظاهرًا في معنًى قريب من اللفظ ويكون له معنًى آخر يحتمله، أو معانٍ متعددة تحتمله، وهذا هو الذي يُسمى التأويل، أما إذا كان ظاهرًا في ذلك فهو نصٌ ظاهر، وقد يكون النص لا يحتمل تأويلًا. فقول الله ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الفرقان: ٥٩]، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الفرقان: ٥٩] وما أشبه ذلك فهذا لا يحتمل التأويل؛ لأنه نصٌ ظاهر.

وإذا قيل: (إنه له تأويلًا لا يعلمه إلا الله) فيجب أن يُحمل هذا على الحقيقة التي هي الكيفية، التي يقول العلماء عنها: (إنها لا يعلمها إلا الله).

ولا يجوز أن يُصرف اللفظ عن الذي دلَّ عليه ظاهرًا إلى لفظٍ آخر يحتمله من بُعد؛ لأنا إذا خوطبنا بشيء، فيجب أن يكون هذا الخطاب له مدلولٌ ظاهر نعمل به، فكيف إذا قيل فيه: (إن له تأويلًا لا يعلمه إلا الله؟!)، فهذا أبعدُ!

قوله: «**فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ هَذَا اللَّفْظَ مُتَأَوَّلٌ بِمَعْنَى أَنَّهُ مَصْرُوفٌ عَنْ الِاحْتِمَالِ الرَّاجِحِ إلى الِاحْتِمَالِ الْمَرْجُوحِ بالدليل**»، يعني: لا بُدَّ أَنْ يكون بالدَّليل؛ ولكن الدليل صار أمرًا غير مُنضبطٍ عند هؤلاء، لأنهم يجعلون الدليلَ «العقل»، و«العقل» يختلف العُقلاء فيه، فعقل الذي يتقيد بكتاب الله وبخطابه وخطاب الرسول ليس كعقل الجهمية والمُعتزلة الذين لا يتقيدون بذلك.

وكتاب الله ﷻ إِذَا جاء فيه شيءٌ مُجمَلٌ في مكان، فإنه يأتي التفصيل فِي أماكن أخرى، فيجب أنْ يُرجَع إليها ويزول ذلك الذي صار فيه اشتباه أو فيه احتمال، هذا إذا أُريد الحق؛ أما إذا كان المُراد مذهبًا مُعيَّنًا فهذا صعبٌ أنْ يرجع، ولا يزيده الأمر إلا شِدَّةً في مثل هذا؛ لأنَّ الله ﷻ فَتَنه، ومن فُتن فلا حيلةَ فيه.

ولكن مقصود المؤلف أنْ يردَّ على الطوائف الذين انحرفوا عن ظاهر القرآن وما جاء به الرسولُ ﷺ؛ فمنهم من كان انحرافه بعيدًا، ومنهم من كان له تعلُّقٌ بشيءٍ من الظَّواهر التي يزعمون أنه يجب أنها تؤول.

قوله: «**اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُرَادَ بِالتَّأْوِيلِ مَا يُخَالِفُ...**». فهذا تقدم أنه باطل، وأنه لا يفهم من الخطاب. ولكن المُتأول قد يقصد هذا فيكون هذا تأويلًا بعيدًا، وهو إذا سُمي تأويلًا فهو غير مُرادٍ بلا شكَّ.

* * *

قال رحمه الله تعالى:

«لَكِنْ إِذَا قَالَ هَؤُلَاءِ: أَنَّهُ لَيْسَ لَهَا تَأْوِيلٌ يُخَالِفُ الظَّاهِرَ، أَوْ أَنَّهَا تَجْرِي عَلَى الْمَعَانِي الظَّاهِرَةِ مِنْهَا، كَانُوا مُتَنَاقِضِينَ، وَإِنْ أَرَادُوا بِالظَّاهِرِ هُنَا مَعْنًى وَهُنَاكَ مَعْنًى: فِي سِيَاقٍ وَاحِدٍ مِنْ غَيْرِ بَيَانٍ كَانَ تَلْبِيسًا، وَإِنْ أَرَادُوا بِالظَّاهِرِ مُجَرَّدَ اللَّفْظِ، أَيْ تَجْرِي عَلَى مُجَرَّدِ اللَّفْظِ الَّذِي يَظْهَرُ مِنْ غَيْرِ فَهْمٍ لِمَعْنَاهُ كَانَ إِبْطَالُهُمْ لِلتَّأْوِيلِ أَوْ إِثْبَاتُهُ تَنَاقُضًا؛ لِأَنَّ مَنْ أَثْبَتَ تَأْوِيلًا أَوْ نَفَاهُ فَقَدْ فَهِمَ منه مَعْنًى مِنْ الْمَعَانِي. وَبِهَذَا التَّقْسِيمِ يَتَبَيَّنُ تَنَاقُضُ كَثِيرٍ مِنْ النَّاسِ مِنْ نفاة الصِّفَاتِ وَمُثْبِتِيهَا فِي هَذَا الْبَابِ».

الشَّرح

هذا من تمام الكلام السابق؛ يقول: «**إِذَا قَالَ هَؤُلَاءِ: أَنَّهُ لَيْسَ لَهَا تَأْوِيلٌ يُخَالِفُ الظَّاهِرَ**»، ثم قالوا: (إنه لا يعلم تأويلها إلا الله)، فلا يصحُّ الكلام. ومعلومٌ أن الله خاطبنا بخطاب أراد منا أن نفهمه، ولهذا ذمَّ الذين لا يفهمون الخطاب، كما قال: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤]، وأمر بتأمُّلِ كلامه، وأخبر ﷻ أنه يسَّر القرآن للذكر.

كل هذا يدل على أن الخطاب الذي يُخاطب به المكلَّف أنه لا بُدَّ أن يفهمه.

فلا يقول: (له تأويل لا يعلمه)؛ ولو كان كذلك لكان ـ مثل ما يقول المؤلف ـ من باب التلبيس، وهو يُخالف ما جاء به الرسول وما وصف الله ﷻ به القرآن بأنه بيانٌ لكل شيء وهدى ونور، فالهدى والنور لا يكون مُلتبسًا على أهله.

ولكن هؤلاء سدُّوا على أنفسهم باب المعرفة، فأوجدوا مثل هذه الأقاويل الباطلة، والتزموها وانصرفوا عن كلام الله وكلام رسوله ﷺ، وهذا من العقاب؛ لأنه إذا أعرض الإنسان عن أمر الله وقوله، عُوقب بتقليب القلب؛ كما قال ﷻ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، يعني: جزاء بأنهم لم يقبلوه ويؤمنوا به، فقُلبت قلوبهم، وإذا قُلب القلب صار الحق عنده باطلًا، والباطل عنده قد يكون حقًّا فيهلِك في ذلك.

إذا خوطبنا الخطاب الذي يدلُّ على معنًى ظاهرٍ من اللفظ، فالواجب أن نعمل بهذا؛ أما أن يأتينا آتٍ ويقول: (إن هذا غير مراد)، ويقول: (الدليل على ذلك العقل وكذا وكذا أو ما أشبه ذلك) = فهذا لا يجوز أن نقبله، ولا يجوز أن يكون هذا مراد المتكلم؛ لأنه لو كان كذلك لكان فيه تدليسًا على المخاطَب وفيه عدم بيانٍ، والله ﷻ وصف كتابه بأنه بيانٌ وأنه هدى وأنه نور، فهو خلاف وصف كتاب الله. وكذلك الرسول ﷺ حرَصَ كلَّ الحِرْص على البيان والإيضاح، وبيَّن هذا بالفعل والقول والتكرار وغير ذلك.

فإذن: هذا الكلام منافٍ لما جاء به الرسول ﷺ فيكون باطلًا؛ فكيف إذا قيل ما هو أعظم من هذا؟! حيث قيل: (إن هذا الخطاب لا يفهمه أحد، ما له معنًى يُفهم)! فما فائدة الخطاب إذا لم يكن له معنى مفهوم! لا فائدة فيه أصلًا والحالة هذه! ويكون عبثًا لا حقيقة له.

قوله: «**لِأَنَّ مَنْ أَثْبَتَ تَأْوِيلًا أَوْ نَفَاهُ فَقَدْ فَهِمَ منه مَعْنًى مِنْ الْمَعَانِي. وَبِهَذَا التَّقْسِيمِ يَتَبَيَّنُ تَنَاقُضُ كَثِيرٍ مِنْ النَّاسِ مِنْ نفاة الصِّفَاتِ وَمُثْبِتِيهَا فِي هَذَا الْبَابِ**». هو أطال بهذا؛ لأن كثيرًا من الناس ضلوا فيه وأضلوا؛ فلهذا أراد أن يبيِّن ذلك ويوضحه بالأمور الواضحة الجليَّة من كتاب الله ﷻ، ومما جاء به المصطفى ﷺ.

وهم صنفان: **منهم من يقول**: (إنه يجب أنْ تؤول صفاتُ الله؛ لأنها تدل بظاهرها على التشبيه)، ثُمَّ يُعين التأويل، وبعضهم لا يُعين فيبقى الأمر مُشتبهًا؛ **ومنهم من يقول**: (ليس لها تأويلٌ) فهم مُتناقضون؛ فكيف يَقُول: (لها تأويل) ثم يقول: (وهذا التأويل لا يعلمه إلا الله)؟!

أنَّنا خوطبنا بخطابٍ لا يُمكن الوصول إلى المُراد به، وهذا أبعدُ ما يكون من شرع الله ﷻ ومن كلامه.

وإلى هنا تنتهي القاعدة، واستطرد المؤلِّف فيها كثيرًا إلى أمورٍ لا تتعلق بها مثل التأويل والتفسير وما شابه ذلك، وإنما جاءت من باب التمثيل للإيضاح والبيان.

وخلاصة هذه القاعدة: أنَّ الذي أُخْبِرنا به أمورٌ ظاهرةٌ، وإذا قيل لنا: (إنَّ هذا متأوَّلٌ أو هذا تأويلٌ) فنقول: التَّأويل إمَّا أن يكون تفسيرًا وإمَّا أن يكون إخبارًا عن الحقائق، والحقائق التي يخبر الله ﷻ عنها إما أن تكون مخلوقةً مثل ما في الجنة والنار وفي المحشر وغيرها، وإما أن تكون تتعلق بذاته ﷻ.

وما يتعلَّق بذاته لا مطمعَ في معرفته، أما الأمور المخلوقة التي تكون في الآخرة فهذه لا نعرفها حتى نشاهِدَها ونعايِشَ حقائقها، ولكن نعرف نظائرها من المسميات؛ فإنَّ لها مطابقةً معها في الاسم والمعنى، وإن كانت الحقائق متباينة تباينًا عظيمًا؛ حيث إننا لا نعرف حقيقة تلك الأمور؛ فإذا كان هذا موجودًا في المخلوق، فبين الخالق والمخلوق البون المعلوم.

فتبين بهذا أنَّ المقصود من إخبار ربِّنا ﷻ لنا بأسمائه وصفاته الشيءُ الذي نعرفه مع نفي المماثلة، وليس المشابهة البعيدة، بل المماثلة هي التي نُفيت.

أما المشابهة البعيدة: فهذه لا بُدَّ منها، فمثلًا يَدُ الله في الاسم والمعنى تتَّفق مع يد المخلوق، ولكن يد الله ﷻ عظيمةٌ وتخصُّه ولا يشاركه المخلوق في شيء من ذلك. أما الاسم والمعنى البعيد بين هذا وهذا فهي متفقة.

ويقال مثل هذا في الرحمة والسَّمع والبصر وفي كل ما أخبر الله ﷻ به.

والاشتراك البعيد أو الاتفاق في الاسم مع المعنى الذي فيه اشتباه من وجه بعيد؛ فهذا شيءٌ لا بُدَّ منه حتى نفهم الكلام، وهو الذي عرض لكثير من نُفاة الصفات، فزعموا (أنه تشبيهٌ وأنهم إذا أثبتوا صفات الله ﷻ فإنَّهم يكونون واقعين في التشبيه، والتشبيه كفرٌ)، فهم فرّوا من الكفر، ولكنهم فروا من هذا الذي تخيَّلوه تخيُّلًا، ثم وقعوا فيما هو شرٌّ منه وهو تعطيلُ الله ﷻ عما أوجب علينا أن نعتقده بعد علمنا بخطابه وبيان رسوله ﷺ لذلك.

❁ ❁ ❁

فهرس المجلد الأول

الموضوع	الصفحة
مقدِّمة المُعتَني	٧
مقدمة المؤلف	٩
مقدمة الشارح	٩
الرسالة التدمرية جوابٌ لسؤالٍ، وهكذا كانت رسائل الشيخ وكُتُبُه كلُّها أو جُلُّها	٩
أراد المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الكتاب أن يحصُر أبرز مذاهب الخلق؛ ليبيِّنَ الطَّريقَ الصحيح في ذلك	٩
هذا الكتاب كلُّه في مجادَلَةِ هؤلاء الذين جاءوا بأفكارٍ وقواعِدَ من عندِ أنفُسِهم في ربِّ العالمين	١٠
العبد لا ينفكُّ عن السَّيئات، فينبغي أن يعترفَ بها، ويعوذ بالله من آثارها وعواقبها، فإذا وقاه الله شَرَّ السَّيئات فقد رَحِمه	١١
الصلاة من الله هي ثناؤه عليه في الملأ الأعلى، هذا أصحُّ ما قيل فيه، أمَّا الصلاة من الآدميِّين والملائكة فهي الدُّعاء له	١٢
كلمة «أمَّا بَعْدُ» قيل: هي فصل الخطاب الذي أوتيه داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، والصحيح أنَّ فَصْلَ الخطاب هو الفصلُ بين الحقِّ والباطل	١٣
الكلام في التَّوحيد والصِّفات	١٤
إذا أضيفت الصِّفَة إلى الله كانت خاصَّةً به لا يشاركه فيها أحدٌ، أمَّا إذا أضيفت إلى المخلوق فإنَّها صفة مُحدَثة، وليست كصفةِ الخالقِ سبحانه	١٥
الله ـ تعالى ـ خلق الإنسان، وجعل له قدرةً وإرادةً؛ يختار بهما ما يهواه ويميل إليه	١٦
الشرع لا يعارِض القَدَر	١٦
حاجة الإنسان إلى «توحيد الإرادة والقصد والنية»، و«توحيد الصفات» مع الإيمان بـ«القدر» والعمل بـ«الشرع» أهمُّ من حاجته إلى الأكل والشرب	١٧ ـ ١٨
لا بُدَّ أن يكون العبد قد استعدَّ لملاقاة ربِّه بامتثال أمره، وبقبول الخبر الذي يُخبر به عن نفسه، ويتعرَّف به إلى عباده	١٨
الله ـ تعالى ـ إذا هدى الإنسان جعله قابلًا لما جاء به الرسول ﷺ؛ أما إذا منعه الهدى، فيوكله إلى نظره وفكره	١٨
من ترك أمر الله وخبره ـ الذي أرسل به رسوله ـ لا بُد أن يضطرب ولا بُدَّ أن يحار	١٨

الموضوع **الصفحة**

أقسام التوحيد .... ١٩ ـ ٢٠
العلم إذا لم يكن مبنيًا على قواعدَ وأصولٍ ثابتةٍ أُخذت من كتاب الله فهي ليست علْمًا، بِغَضِّ النظر عن العلوم الدنيوية، فأمرُها مختلف ٢٠
العقل يجب أن يرجع إلى ما قاله الله وقاله الرسول ﷺ ٢٢
الله ـ تعالى ـ أكثرَ مِن أوصافِه، وأسمائه في كتابه، وأكثرَ من أمره بالصلاة، والزكاة... لأن هذا هو مبنى الإيمان ٢٢
كان السلف يجتهدون اجتهادًا بالغًا ألَّا يسمعوا الشُّبَه، فهم يخافون أن تبقى الشُّبه في قلوبهم ٢٥
الضلالات متعددة، وأعظمها الضلال في ربِّ العالمين ٢٥
الكلام في باب التَّوحيد والصِّفات، هو من باب الخبر... .... ٢٦
النَّفي ينقسم إلى قسمَين ٣١
الكلام نوعان: خبر وإنشاء، والخبر دائر بين النَّفي والإثبات ٣٣
الإنشاء أمر أو نهي أو إباحة ٣٤
لا بدَّ للعبد أن يُثبِتَ لله ما يجبُ إثباته له من صفات الكمال، وينفي عنه ما يجب نفيهُ عنه ممَّا يُضادُّ هذه الحال ٣٥
المؤمن لا بُدَّ أن يؤمن بخلق الله وقدَرِه، ويؤمن بأمره وشرعه، وأنَّها لا تتضارب ولا تتضادُّ، فلا بدَّ من الجمع بين «الخلق» و«الأمر» و«القدر» ٣٦
كلُّ ما ضادَّ الكمال فالله لا يوصف به؛ لأنه المنزَّه عن النقص، وله الكمال من كُلِّ وجه ٣٧
صفات الله تخصه، وأسماؤه تخصه، ولا يكون الاشتراك في اللفظ أو في المعنى البعيد قبل الإضافة دالًّا على التشبيه كما زعمه من ضلَّ في هذا الباب ٣٨
القدرية الذين كذَّبوا بالقدر، والجبرية الذين قالوا: «إنَّ الإنسان مجبورٌ»؛ كلاهما في ضلالٍ عميق ٣٩
الله لم يأمر العباد إلا بما يستطيعون فعله، ولهذا آمن من آمن، وكفَر بعضُهم، ولو كان ممتنعًا ما استطاع أحدٌ أن يؤمن ٣٩
لا بُدَّ من التوفيق بين خبر الله، وأمره، وقَدَرِه ٣٩
الذي يمتثل الأمر فسوف يجد المثوبة والطمأنينة؛ طمأنينة القلب والنفس والسعادة في هذه الدنيا قبل الآخرة، ثم ما بعد الموت أفضل وأعلى ٣٩
الله جعل للعبد مشيئة، ولكن مشيئته بعد مشيئة الله ـ تعالى ـ ٤٠
الخطأ إذا تبين للعبد المؤمن أنه مخطئ رجع وتاب واستغفر، والله يتوب عليه ٤١
التوحيد في القَصد والإرادة والعمل ٤٢

الموضوع	الصفحة
التوحيد لا بُدَّ فيه من العلم، والنِّيَّة والإرادة، ولا بُدَّ فيه من العمل	٤٢
الله ـ تعالى ـ صمدٌ لا يحتاج إلى شيء، فهو غنيٌّ عن كلِّ شيء	٤٤
القرآن أُنزِل لثلاثة أمور	٤٤ ـ ٤٥
الله لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا لوجهه	٤٦
التوحيد قسمان: خبري علمي، وأمري شرعي	٤٧
توحيد الصفات	٤٩
العقيدة هي التي يَعقِدُ عليها القلب تصميمَه وعزْمَه وقصْدَه	٤٩
التوحيد يشتمل على النفي والإثبات	٤٩
قسم العلماء صفات الله ـ تعالى ـ إلى قسمين	٥٠
الله ـ تعالى ـ متفرِّدٌ بأوصافه، وله الأوصاف الكاملة، فله الكمال المُطلق من كل وجه، وكذلك إذا نَفَى شيئًا يجب أن يُنفى، ولهذين الأمرين قواعدُ أُخذت من الشرع	٥٣
طرِيقة سلف الأمَّة وأئِمَّتِها، إثباتُ ما أثبَته من الصِّفات من غير تكيِيفٍ ولا تمثِيلٍ، ومن غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ	٥٥
الشرع يكون مرشدًا للعقل ودالًّا عليه، فالعقل يكون تبعًا ولا يكون مستقلًّا	٥٥
أوامر الله تأتي غالبًا قواعدَ مجملةً عامَّة؛ فالله أنزل كتابه ليكون شاملًا لحوادث الخلق إلى يوم القيامة	٥٦
فضل صحابة رسول الله عليه وسلم	٥٦
من هم سلف الأُمة وأئمتها	٥٦
قصة الإمام الجويني مع الهمداني	٥٧
معنى قوله: «من غير تكيِيفٍ»	٥٨
نثبت الصفات بلا كيفٍ	٥٨
معنى قوله: «ولا تمثِيلٍ»	٥٩
الجهمية لا يُثبِتون أسماءً ولا صفاتٍ؛ لا يثبتون لله اسمًا ولا صفةً	٥٩
والله ليس له مثيلٌ؛ لا في ذاتِه، ولا في صفاتِه، ولا في أفعاله، ولا في حَقِّه أيضًا، وهذه أمور يجب أن تكون خالصة لله تعالى	٦٠
معنى قوله: «ومن غير تَحرِيفٍ»	٦٠ ـ ٦١
التحريف يكون بالألفاظ، ويكون بالمعاني، ولكن تحريف الألفاظ قليلٌ	٦١
معنى قوله: «ولا تَعطِيلٍ»	٦١ ـ ٦٢
أهل السنة يُنزِّهون ربهم ـ تعالى ـ عن التكييف، والتمثيل، والتحريف، والتعطيل، فهذه أمورٌ واقعةٌ في كثيرٍ من الناس، ولهذا نصَّ عليها المؤلِّف، رَحِمَهُ اللَّهُ	٦٢

الموضوع | الصفحة

النَّفي يجِبُ أن يُرادُ به إثباتُ كمال ضِدِّه ٦٢
كلُّ ما يضاف إلى الله من الإثبات والنفي يجب أن يكون متضمِّنًا للكمال، والنفي الخالِصُ لا كمالَ فيه ولا مدح ٦٢
أسماء الله وصفاته توقيفيةٌ، وكذلك شرعُه توقيفيٌّ ٦٢
أنواع الإلحاد في صفات الله تعالى ٦٣
معنى قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ .... ٦٣ - ٦٤
أسماء الله لا حصر لها ٦٤
الله - تعالى - لا يخفى عليه شيء، فالله علَّام الغيوب ٦٦
الدنيا ليست محلًا لعقاب الملحد والمجرم ٦٦
طريقة أهل السنة والجماعة تتضمَّن إثْبات الْأسماء والصِّفات، مع نفيِ مُمَاثَلَةِ المخلُوقات، إثْباتا بلا تَشبيه ٦٧
الفرق بين الأسماء والصفات ٦٧
أكثر المفسرين يقولون: أنَّ الكاف في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ صلةٌ زائدةٌ، يعني: ليس مثلَه شيءٌ، وهذا القول أصحُّ وأولى ٦٨
التشبيه كَثُر ذكرُه في كلام المتكلمين؛ مع أنه لم يأتِ شيء منه في كتاب الله، أو في أحاديث رسوله وإنما نفى المماثلة؛ أن يكون له مثلٌ ٦٩
إذا أضيف السمع والبصر إلى مخلوق فهو يليق بالمخلوق لضعفه، والله لا يشاركه فيه، وإذا أضيف إلى الله فهو يخصُّه، والمخلوق لا يشارِكُه ٧٠
قواعد في أسماء الله تعالى ٧١
التعطيل نوعان ٧٢
الله سبحانهُ بَعَثَ رُسُلهُ بإثبات مُفصَّلٍ ونفيٍ مُجملٍ ٧٣
أهل السنة - الذين اتبعوا السلف - أثبتوا له الصفات على وجه التفصيل ٧٤
المتكلمون وأتباعهم انقسموا إلى قسمين ٧٥
معنى قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾ .... ٧٧ - ٧٨
الذي يقول: «إن الله ليس في جهة»، أو «إن الله ليس بجسم»... يقال له: ماذا تريد بالجهة؟ ٧٩
ماذا تعني لفظة «جسم» عند أهل البدع؟ ٨٠
إذا جعل الإنسان لمخلوق شيئًا من حقوق الله ومن خصائصه، فقد جعل له نِدًّا ٨١
كلُّ عبادة دخلها الشرك فليست عبادة في الشرع ٨٢
الحب الذي يكون لله - تعالى -، هو حبُّ الذُّلِّ والخضوع والتعظيم، لا يجوز أن يكون لمخلوق؛ حُبَّ التَّأَلُّه ٨٣

الموضوع | الصفحة

يُقسم الحب إلى قسمين ٨٣
كثيرًا من الناس لم يعرف الحبَّ الواجب لله، فخلَط بين الحب الذي يجب لله والحب الذي يكون مشترك ٨٣
الذي يُحَبُّ لذاته هو الله وحدَه فقط ٨٣
من أحب مع الله غيره فقد وقع في الشرك الأكبر ٨٣
كثيرًا ما يَذكُر الله سبحانه خلقَ السماوات والأرض عندما يذكُر خصائِصَه أو يذكُر وجوب امتثال أمره في عبادته ٨٥
إذا اجتمع الظلم والجهل حصل الشَّرُّ كلُّه ٨٥
﴿تَبَارَكَ﴾ هذا فعل من البركة، لا يجوز أن تطلق هذه الكلمة إلا على الله. تقول: «تبارك الله»؛ أما المخلوق فنقول: «مُبارَك» ٨٦
العبودية من أشرف ما يُتَّصف به العبد ٨٧
الرسول ﷺ نذيرٌ وبشيرٌ؛ نذيرٌ لمن عصاه بأنَّ أمامه عذابٌ شديدٌ، وبشير لمن أطاعه بالفضل والخير والجزاء العظيم ٨٧
الملائكة لا يجوز أن توصَف لا بالذكورة ولا بالأنوثة، خلقهم ـ تعالى ـ لعبادته، فلا يجوز أن يوصفوا بأنهم إناث ولا بنات .... ٨٩ ـ ٩٠
الله هو المحمود سبحانه على وصفِه، وعلى أمرِه، وعلى خَلْقِه؛ وله الحمدُ على كلِّ حالٍ ٩٣
المفروض أنَّ طالب العلم يكون حافظًا لمثل هذه المتون [التدمرية]، فيُريد المؤلف أن تكون هذه من محفوظاتِ الطالب، ويكون فيها سلاحٌ له يُقابل به المبطِلين ... ٩٤
أسماء الله كثيرة؛ بعضها أنزلها في كتابِه، وبعضها علَّمه من يشاء من خَلْقِه، وبعضها استأثر به في علم الغيب عنده ٩٤
قَلَّ أن تجد آيةً في كتاب الله إلا وفيها شيءٌ من أسمائه وصفاته ـ تعالى وتقدس ـ ٩٤
الكرسيُّ غيرُ العرش، بل هو تحت العرش، وهو أعظم من السماوات كلها والأرضين، والعرش أكبرُ منه بكثير ٩٧
عرش الرحمن ـ تعالى ـ أعظم المخلوقات وأكبرها، وليس عليه إلا رب العالمين ـ تعالى وتقدس ـ ٩٨
الكرسيَّ غير العرش ٩٨
العُلُوُّ له ثلاثةُ معاني ٩٨
السمع: هو إدراك المسموعات، و«البصر»: إدراك المبصرات؛ لا يشركه فيها غيره. ١٠٢
﴿ٱلْبَصِيرُ﴾: عظيم البصر الذي لا يَفُوتُ بصرَه شيءٌ، ولا يحجبه شيءٌ ـ تعالى وتقدس ـ ١٠٢

الموضوع الصفحة

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: الذي غلب كلَّ شيء وامتنع من كلِّ شيء، وهو - تعالى - الذي لا يحتاج إلى شيءٍ في عزته؛ لأنه ممتنعٌ بعزَّته ومستغْنٍ بذلك ١٠٣
الرحمة تنقسم إلى قسمين .... ١٠٣ - ١٠٤
﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ و﴿ٱلْغَفُورُ﴾ كلاهما من أسماء الله - تعالى - ١٠٤
الأوصاف إذا أُضيفت إلى المخلوق فهي تخصُّه، والله لا يُشارِكه فيها، وإذا أُضيفت إلى الله فهي تخصُّه، والمخلوق لا يُشارِك الله في صفاته ١٠٤
لا يوجَدُ مخلوقٌ يفعل ما يُريد، وإنما الفعل يتعلَّق بمشيئة الله - إذا شاء الله وجودَ ذلك الفعل، وإلا لم يوجد -، أمَّا ربُّ العالمين فهو القادِرُ على كلِّ شيء ١٠٥
﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾. هذه الأسماء الأربعة متقابلة، ولا يُمكن أن يوصف مخلوقٌ بها؛ فمن كان أوَّلًا لا يكون آخِرًا. ١٠٦
فسَّر علماء السلف - الاستواء - بأربعةِ ألفاظٍ وكلُّها مترادفة ١٠٨
الأشاعرة والماتريدية هم ذَنَبٌ للمعتزلة ١٠٩
ليست المعيَّةُ هي الاختلاط والامتزاج، وإنما المعية هي المصاحبة ١١٠
المعية تنقسم إلى قسمين ١١١
اللَّعن: هو الطرد والإبعاد عن مَواطِن الرحمة، فمن لعنه الله فهو الملعون المبعد المطرود؛ فالله تعالى يغضب ويلعن من يشاء ١١٥
المَقْتُ: هو أشد الكراهية والبغض ١١٥
وصف - تعالى - نفسَه بأنه يغضب وأنه يلعن، كما أنه يرضى ويرحم، فيجب أن نقرر له ما أخبر به عن نفسه - تعالى وتقدس - على ما يليق بعظمته ١١٥
﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ هو إتيان يخصُّه ويليق بعظمته، فهو يأتي إلى الأرض وهو على عرشه فوق خلقه كلِّهم ١١٦
الفوقية والعلُوّ من لوازم الذات، فلا تنفكُّ هذه الصفة عنه - تعالى - ١١٦
النَّاس في الموقف ثلاثة أقسام .... ١١٦ - ١١٧
﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾، هذا يجوز أن يكون قولًا باللسان، ويجوز أن يكون بالفعل أنها صارت كما أراد الله - تعالى - ١١٧
الله تعالى يتكلم إذا شاء، ويكلِّم مَن يشاء من عباده، ويقول وقولُه الحق ١١٧
أدلة صفة الكلام ١١٩
أول من أنكر «الكلام» و«الخلة» و«المحبة» رَجُلٌ مُتهم يُظَنُّ أنه يهوديٌّ، ثم أخذ عنه الجعد بن درهم ١١٩
الرد على من قال: «الكُتب هي معاني كلام الله وليست هي كلام الله»! ١٢٠

الموضوع الصفحة

الحقيقة أن التشبيه مُستكِنٌ في نفوسهم [أهل البدع]، وهو الذي حملهم على التعطيل والتأويل الفاسد، بل التحريف ..... ١٢٠ ـ ١٢١
الرد على من قال: «إن الكلام يتطلب أدوات الكلام» ١٢١
الله ـ تعالى ـ وصف نفسه بأنه يتكلم، وأنه كلَّم موسى بلا واسطةٍ، وهو على عرشه وموسى بالأرض ١٢٢
من صفات الله تعالى الكلام، فهو يتكلَّم إذا شاء، ويسمع كلامه من يشاء من خلقه .. ١٢٣
المناداة من أبلغ الأدلة على إثبات الكلام؛ لأن النداء هو رفع الصوت بالكلام، فالنداء يُقابله «المناجاة»، وربنا ـ تعالى ـ موصوف بكليهما ١٢٣
الإرادة نوعان ..... ١٢٤ ـ ١٢٥
أقسام الغيب ١٢٥
تفسير قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ١٢٦
المصوِّر من أسمائه، ولا يجوز أن يتسمَّى المخلوقُ أو يَفعل فعلًا من أفعاله التي تخصُّه ١٢٧
كل المخلوقات تسبِّح الله وتقدِّسه وتعبده، ما عدا بعض بني آدم والجن ١٢٨
كل اسم ثابتٍ لله: يدلُّ على المسمَّى، وكلُّ صفة: تكون قائمةً بالموصوف ـ بالله ـ. ١٣٠
سبيل من زاغ عن طريق الرسل في باب الصفات ١٣٢
الرافضة والإسماعلية والنُصيرية؛ كل هؤلاء أخرجهم كثيرٌ من العلماء من الثلاث والسبعين فرقة ..... ١٣٣ ـ ١٣٤
وصفوا الله ـ تعالى ـ بالسلب على سبيل التفصيل لا الإجمال، وهذا عكس ما في كتاب الله، فيقولون مثلًا: «ليس فوق، ليس تحت. ١٣٤
الوجود المطلق ١٣٤
سلب النقيضَينِ ممتنعٌ في العقل أصلًا، ولكنهم ملاحدةٌ يُريدون أن يُلَبِّسوا على الناس ١٣٦
الوجود لا بدَّ لَهُ من مُوجِد ١٣٨
المخلوقات كلُّها حدثَتْ بعد أن كانت عدمًا، وما وُجِدَ بعد العدم؛ فإنَّه فقيرٌ يحتاج إلى موجِدٍ، ويحتاجُ إلى من يقوم به ١٤٠
الموجوداتُ في الكون لا تعدو عن نوعين ١٤٠
«مبدأ» و«الكائنات» بمعنى واحد، وهو ضلال واضح، فالله تعالى مُوجِد الكائنات وخالقها ١٤١
«الوجود المطلق» لا حقيقة له، وإنما يُتصوَّر في الذهن ١٤٢
جعلوا [المعتزلة] الصِّفة هي الموصوف! المتضادات لا تجتمع ١٤٤

الموضوع | الصفحة

المعتزلة لا يفرقون بين «الاسم» و«الصفة»، ويجعلون «الاسم» هو «الصفة»، وكثير من المعتزلة قالوا بهذا المذهب الباطل ١٤٦
قال العلماء: «لا يجوز دعاء الصفة»، أي: لا يجوز أن تقول: «يا رحمة الله»، «يا عزَّة الله»، إنما الله يُدْعَى بصفاته وبأسمائه ١٤٧
المعتزلة طوائف متعددة، وكلُّ طائفة تُضلِّل الأخرى، وكذلك المرجئة والخوارج وغيرهم، فقد انقسموا إلى فرق ١٤٨
يسفسطون في العقليَّات، ويُقرمطون في السَّمعيَّات ١٥٠
المعطلة فرُّوا من التشبيه فوقعوا في التعطيل، وأهلُ التأويل فرُّوا من التشبيه فوقعوا فيه أو في شرٍّ منه ١٥٢
الله ـ تعالى ـ لا يسمى زارعًا، ولكن هذا من باب الخبر، وليس من أسمائه «الزارع»، ولكن يخبر عنه بأنه هو الذي ينبت الزرع وهو الذي يصلحه ١٥٤
القديم ليس من أسماء الله، ولكن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يُخاطبهم باصطلاحهم ١٥٤
كلمة «صانع» لا يجوز أن نقولها وصفًا لله، ولكن خبرًا يُخبَر بها عن الله تعالى ١٥٤
المخلوق لا يخلو من ثلاثِ حالاتٍ ١٥٥
وجود الله ـ تعالى ـ واجبُ الوجود بنفسه، وأما وجود المخلوق فهو مُحدَثٌ ١٥٧
كل ما أضيف إلى الله فهو يخصُّه، ولا يشاركه فيه المخلوق، وما أُضِيفَ إلى المخلوق فهو يخصُّه ولا يشاركه الله فيه ١٥٨
تتميز الصفات والأسماء بأمرَين ١٥٩
أسماء الله تخصُّه وصفاته تخصُّه، وأسماء المخلوقين تخصُّهم وتليق بهم ١٥٩
الاشتراك في مجرد الاسم لا يقتضي تشبيهًا؛ لأن الاشتراك يزول عندما يقال: «حياة الله» أو «علم الله» ١٦٢
الله ـ تعالى ـ لا يشبهه أحد من خلقه في ذاته، فكذلك الحال في أسمائه وصفاته وأفعاله ١٦٥
الاتفاق في مجرد الاسم أو الصفة أيضًا لا يعطي المشابهة والمماثلة ١٦٦
الفرق بين صفة الخالق وصفة المخلوق ١٧١
فَرُّوا من التشبيه ووقعوا في التعطيل، ولم يتخلَّصوا من التَّشبيه؛ لأن الذي وقعوا فيه نظيرَ الذي فرُّوا منه ١٧٣
المقتُ والكيد والمكر والاستهزاء هذه أفعالٌ يفعلها الله ـ تعالى ـ بمن يستحقُّ ذلك، وليست صفاتٍ ١٧٦
الأفعال التي تسمى صفات مثل: المجيء، والنزول، . . . تنقسم إلى متعدٍّ ولازم ١٧٧

الموضوع | الصفحة

القاعدة التي يجب أن نترسَّمها: أن الصفة أو الاسم إذا كان يحتمل معنًى حقًّا ومعنًى باطلًا، فهذا لا يدخل في صفات الله ـ تعالى ـ ولا في أسمائه ١٧٧
والله ـ تعالى ـ ينادي من يشاء، وقد نادى آدم وزوجه ١٧٨
الله ـ تعالى ـ ليس بينه وبين خلقه مقاربة ولا مماثلة ولا مشابهة ١٨٠
الله ـ تعالى ـ يغضب على من يشاء، كما أنه يلعن من يشاء؛ فهو يغضب على من عصاه، ومن أبى قبول ما جاءت به الرسل ١٨٤
الاستواء فعلٌ يتعلق بمشيئته ـ تعالى ـ، يفعله إذا شاء وهو من الأفعال اللازمة مثل النزول ١٨٥
القدر المشترك بين الخالق والمخلوق لا يلزم منه التشبيه؛ لأن هذا القدر المشترك يكون في الذهن، ولا يكون في الخارج ١٨٦
التعطيل ينقسم إلى قسمين ١٨٧
قوله المؤلف «ويتبيَّنُ هذا بأصلين شريفين، وبمثلين مضرُوبين..» ١٩٠
الأصل الأول: القول في بعض الصفات كالقول في بعض ١٩١
التأويل في لغة العرب جاء في معنيين .... ١٩١ ـ ١٩٢
الرد على الأشاعرة والمعتزلة ١٩٢
لم يأتِ في أسماء الله أنه «متكلِّم» ١٩٤
الصفات أوسعُ من الأسماء، ولا يشتق من الصفات أسماءٌ، إلا إذا ثبت ذلك في كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ؛ لأنه اتفق عليها، ولا ينافي هذا أن الأسماء اشتقت من الصفات ١٩٤
الذي حملهم على التأويل هو الخوفُ من الوقوع في التشبيه، والحقيقة أن التشبيه مستقرٌّ في نفوسهم ١٩٦
يجب أن تسلك مسلكًا واحدًا في جميع الصفات حتى تسلم من التناقض ١٩٧
لا يجوز للعقل أن يقضي على السمع ٢٠١
تخصيص العقل هذه الصفات السبع تخصيصٌ باطلٌ ولا يُسلَّم به ٢٠٢
الذي يريد الحقَّ يجب أن يكون اعتمادُهُ على ما قاله الله وقاله رسوله ﷺ ٢٠٣
تجد أكثر الناس قسوةً للقلب هؤلاء الذي يجادلون في ربهم ـ تعالى وتقدس ـ. ٢٠٥
الذين يثبتون الأسماء دون الصفات هم المعتزلة، وهذا تناقض! ٢٠٦
المؤلف رحمه الله يريد أن يبطل الباطل من كل وجه ٢٠٧
الله تعالى له الكمال المُطلق في جميع ما يتصف به ٢١١
معنى «واجب الوجود» ٢١٢
الرد على الباطنية ٢١٣

الموضوع الصفحة

إذا فسدت العقيدةُ في الله ـ تعالى ـ فسد كل شيء، وأصبح الإنسان لا يعرف الحق من الباطل ٢١٥
الأصل الثاني: القول في الصفات كالقول في الذات ٢٢٠
التعليق على عبارة «الاستواء معلوم والكيف مجهول...» .... ٢٢١ ـ ٢٢٢
الكيفية: هي الحالة التي يكون عليها الموصوف؛ فهذه تتطلب المشاهدة، وإذا لم تكن مشاهَدةً فأقل ما يُقال: إنه تتطلب أن يكون له مثيلٌ فيُقاس عليه! ٢٢٣
من الضلال البيِّن أن يتوهَّم الإنسانُ أنَّ أسماء الله كأسماء المخلوقين أو صفاته كصفات المخلوقين أو أنه لا يفهم منها إلا ما يفهم من نفسه ٢٢٤
العقل سبق أنه لا يستقل بشيء من صفات الله ـ تعالى ـ وأسمائه والأمور الغائبة، وإنما العقل يقيس الغائب بالحاضر ٢٢٥
الرد على من قال: «المحبة تدل على الميل للمحبوب، والميل يدل على الحاجة» ٢٢٨
فصل: «المَثَلَان المضْرُوبَان» ٢٢٩
الذي في الجنة يُدرَك في السمع بأخبار الله ـ تعالى ـ وأخبار رسوله ﷺ ٢٢٩
إذا حصل التباين بين المخلوق والمخلوق، فالتباين بين الخالق والمخلوق أبعد في العقل وفي النظر ٢٣١
افتراق الناس فيما أخبر الله به عن نفسه وعن اليوم الآخر ٢٣٣
الإنسان قد يكون عنده ضلال وهدى، وكفرٌ وإيمانٌ، وفسقٌ وطاعةٌ، وهو لما غلب عليه ٢٣٦
الصوفية المتطرفة المنحرفة ٢٣٩
بعض تأويلات الباطنية .... ٢٣٩ ـ ٢٤١
أقسام القياس .... ٢٤٥ ـ ٢٤٦
قياس الأولى، ويكون من وجهين .... ٢٤٦ ـ ٢٤٧
كلُّ كمالٍ اتصف به المخلوق لا نقص فيه بوجه من الوجوه فالخالق أولى به ٢٤٧
أكثر الناس لم يقدروا الله حق قدره ٢٤٧
الروح التي في أبدانهم لا يعرفونها؛ فكيف يطمع أحدهم أنه يعرف حقيقة رب العالمين أو صفاتِه ٢٤٩
الروح لها صفات أُخبر بها أنها تُقبض وتذهب وتألم وتنعم، وغير ذلك، ونحن لا نعرف حقيقتها ٢٤٩
اضطراب الناس في ماهية الروح ٢٥٢
الروح لا تُعرَف أهي جسمٌ أم غير جسمٍ؟ هذا شيءٌ يجب أن نكلُه على الله ـ تعالى ـ ٢٦١
أقوال الناس في «الجسم» ٢٦٣

الموضوع	الصفحة
الله ـ تعالى ـ أكبر من كلِّ شيءٍ، ولا يجوز أن يُسمَّى جسمًا	٢٦٦
الشيء الذي لم يأتِ نفيه ولا إثباته يجب ألا نثبته ولا ننفيه	٢٦٧
وجه ضرب المثل بالروح	٢٧٢
فصل: القاعدة الأولى	٢٧٥
أنَّ الله ـ سبحانه ـ موصوفٌ بالإثبات والنَّفي	٢٧٦
النفي المحض الذي لا يتضمن إثباتا، فهذا لا يأتي في صفة الله ـ تعالى ـ؛ لأن النفي المحض عدمٌ، والعدم ليس مدحًا بل ذمًّا	٢٧٧
العدم ينقسم إلى قسمين	٢٧٧
كلُّ ما نفاه الله عن نفسه ـ تعالى ـ أو نبيه فإنه يتضمن إثبات كمال الضد	٢٨٠
النفي يأتي مُجملًا، وفي ذلك: الكمالُ والأدبُ، أما إذا فُصِّل النفي ففيه إساءةُ أدبٍ، وفيه أيضًا نقصٌ، حتى في حق المخلوق	٢٨٠
تفسير آية الكرسي	٢٨١ ـ ٢٨٣
﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ لا تحيط به الأبصار، والرؤية غير الإدراك	٢٨٧
الجهمية والمعتزلة لهم وجود الآن، ولكن الأسماء تتغير، والأفكار تبدل والعبارة والنتيجة واحدة!	٢٩١
المعتزلة ردوا الحق جهارًا، بدون التواء؛ فعلم الناس باطلهم، علموا انحرافهم، أما هؤلاء [الأشاعرة] صاروا يؤولون الكلام!	٢٩٢
إن لم يهد الله ـ تعالى ـ العبد فلا ينفعه؛ لا ذكاؤه، ولا علمه، ولا أفكاره، ولا شيخه ومذهبه، فإنه سوف يضل	٢٩٣
الباطنية هم أشرُّ من اليهود والنصارى	٢٩٧
الجهمية المحضة كالقرامطة ومن ضاهاهم: ينفون عنه تعالى اتصافه بالنَّقيضين	٣٠٣
الجهم بن صفوان رجل ضال مضل، كان له أثر من التعطيل والفساد والانحراف في الأمة كبير	٣٠٣
على أهل العلم بيان الحق ورد الباطل حتى لا يغتر جاهل	٣٠٤
لفظ «التحيز»	٣٠٧
كل من لم يتَّبع الكتاب والسُنَّة على ظاهر الخطاب مع نفي مشابهة المخلوقات لله فقد ضلَّ ولا شكَّ	٣١٠
أول ما يبدأ به المؤمن؛ أن يقصد ربه من العلو	٣١٠
القاعدة الثانية: أن ما أخبر به الرسول ﷺ عن ربه فإنه يجب الإيمان به	٣١٢
يجب على السامع إذا قيل له: «إن الله ليس في جهة، أو في جهة»، أن يقول: ماذا تريد في الجهة؟	٣١٥

الموضوع | الصفحة

التحيُّز والجسم والجوهر والعرَض، وغيرها من المصطلحات التي يتلفظون بها، لا بُدَّ من الاستفصال فيها؛ فلا تردُّها مطلقًا ولا تقبلها مطلقا؛ بل يُستفصل ٣١٥
الجهة والحيز تحتمل أمورًا ...... ٣١٥ ـ ٣١٦
لفظة «الجهة» ٣١٧
أهل السنة يأتون بالعبارات التي قالها الله وقالها رسوله ﷺ ٣١٨
الكرسي أوسع من السماوات والأرض، والعرش أكبر منه بمرات كثيرة، والله أكبر من المخلوقات كلها وأعظم منها ٣٢٠
كلمة «بائنٌ» لم تأتِ في الكتاب والسنة، وإنما قالها السلف تفسيرًا وبيانًا لصفة العلو والفوقية وما أشبه ذلك ٣٢٣
القاعدة الثالثة: إذا قال القائل: ظاهر النصوص مراد، أو ظاهرها ليس بمراد ٣٢٤
الذين يجعلون ظاهر القرآن ظاهرًا فاسدًا باطلًا، ثم يصرفونه إلى معنًى فاسد وقعوا في محذورين ٣٢٨
الذين يجعلون ظاهر نصوص الصفات يلزم منه مشابهة الخالق للمخلوق، انقسموا إلى قسمين ...... ٣٢٨ ـ ٣٢٩
حديث: «الحجر الأسود يمين الله في الأرض» ضعيف ٣٣٠
من أراد الله هدايته جعل قلبه قابلًا للحق مريدًا ومحبًّا له، ومن أراد إضلاله منعه هذا الخير، فهو فضلُ الله يعطيه من يشاء، ويمنعه من يشاء ٣٣٢
إثبات الأصابع لله ـ تعالى ـ ٣٣٢
كلتا يديه ـ تعالى ـ كاملة تامة لا يلحقها نقص ولا عيب، وليس المقصود ـ كما فهمه بعض من لا يفهم ـ أن كلتا يديه من جانب واحد! تعالى الله وتقدس، فإن هذا شوهة ٣٤٠
لله ـ تعالى ـ يدين حقيقيتين ٣٤٠
الضلال ليس من النصوص، وإنما الضلال طرأ عليهم مما أخذوه عن غيرهم وتربَّوْا عليه من مشايخهم أو توهموه، توهمًا فاسدًا ٣٤٧
لا يجوز أن نصف الله ـ تعالى ـ بالأبعاض والأغراض ٣٤٩
السلف قبلوا عن الرسول ما قال، أما هؤلاء فلم يقبلوا وأرجعوا الأمور إلى عقولهم السخيفة التي لا تدلُّ إلا على باطلٍ ٣٥٠
مراد المتكلم يظهر جليًّا في الخطاب بالسياق والقرائن ٣٥٠
القاعدة الرابعة: كثيرًا من الناس يتوهم في بعض الصفات، أو في كثيرٍ منها، أو أكثرها، أو كلها، أنها تماثل صفات المخلوقين ٣٥٣
من عطَّل صفات الله ـ تعالى ـ خشية الوقوع في التشبيه وقع في أربعة محاذير . ٣٥٧ ـ ٣٥٨

الموضوع	الصفحة

المؤولة أساؤوا الظن بالنصوص، وظنوا أن ظاهر النص يلزم منه التشبيه بين الخالق والمخلوق ٣٥٩
علو الله ـ تعالى ـ على خلقه اجتمع فيه الدليل السمعي والعقلي والفطري ٣٦٠
الاستواء لا يثبت إلا بالسمع؛ لأن العقل لا يحيط به، وليس معنى ذلك أنه مخالفٌ للعقل ٣٦١
نصوص العلو أكثر من نصوص الاستواء أضعافًا مضاعفة ٣٦١
جاء عن السلف أنهم فسَّروا الاستواء بالاستقرار، وفسروه بالعلو، وفسروه بالارتفاع، وفسروه بالصعود؛ فهي كلها تفسيرٌ للاستواء ٣٦٥
المؤولة جمعوا بين باطلين ٣٦٥
مقتضى المعية العامة والخاصة ٣٧٠
ربُّ العالمين مستغنيًا عن العرش وغيره ٣٧٥
الجهمية يُعيرون أهل السُّنة ويسمونهم «الأَيْنِيَّة» ٣٨٢
الجهات الصَّحيحة الحقيقية جهتان فقط ٣٨٣
القاعدة الخامسة: نعلم ما أخبرنا به من وجهٍ دون وجهٍ ٣٨٨
صفات الله ـ تعالى ـ من المُحكم الواضح البيِّن الذي لا إشكالَ فيه ٣٨٨
القرآن فيه محكمٌ وفيه متشابهٌ، والتَّشابُه يكون نسبيًّا، وليس تشابهًا في الكلام ذاته، وإنما تشابهه على بعض النَّاس ٣٨٩
معنى التدبر ..... ٣٩٠ ـ ٣٩١
التفسير على أربعة أوجهٍ ..... ٣٩٢ ـ ٣٩٥
كلام الله يأتي كليات عامة، كلُّ كليةٍ تدلُّ على أحكامٍ كثيرةٍ؛ لأنَّ الله أنزله ليكون حاكمًا للخلق إلى يوم القيامة ٣٩٥
أقوال المفسرين في قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ ٣٩٧
معاني «التَّأويل» ٣٩٨
الفقهاء أعلمُ من أهلِ اللُّغة بما قاله الله وقاله رسوله لاعتنائهم بهذه المعاني ٤١٢
معنى قوله: «لا عينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خطَرَ على قلبِ بَشرٍ» ٤٢٥
أسماء الله لا تُحصى ولا حصر لها ٤٣٠
الله تعالى له أسماء وصفات لا نعلمها ٤٣١
معنى قول العلماء: (أسماء الله مُشتقة) ٤٣٥
القرآن شفاء ٤٤٢
القياس الصحيح هو الذي ينضبط، أما الفاسد فلا ينضبط ٤٥٧
انقسم أهل الحلول إلى قسمين ..... ٤٥٨ ـ ٤٥٩

الموضوع | الصفحة

الواحد بالعين والواحد بالنَّوعِ ٤٦٦
القديم من اصطلاح المتكلمين ٤٦٨
الوجود المطلق لا وجود له وإنما هو في الذهن ٤٧٢
اليوم الآخر فيه أمور لا يُدركها العقل ٤٨٨
الألفاظ المُتواطئة ٤٩٠
إنكار الإمام أحمد وغيره على الجهمية وغيرهم .... ٤٩٥ ـ ٤٩٦
المتشابه ينقسم إلى قسمين ٤٩٧
العقل لا يقضي على كلام الله ولا على كلام رسوله ﷺ ٤٩٩
التفويض صرف النظر عن تفهمها وتعقلها، والله ما يأمر بالجهل ولا رسوله ﷺ ٥٠٠
أهل البدع يقصدون بالتأويل؛ التأويل المُحدث الذي لم يقل به السلف ٥٠٠
الرد على من قال: المحبة هي: «إرادة الإحسان» ٥٠٧